
الأمثل
في تفسير كتاب الله المنزل
مع تهذيب جديد
تأليف العلامة المفسّر
آية الله الشيخ
ناصر مكارم الشيرازي
المجلد الرابع
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
٨/٧
الأنعام
الأعراف


الأمثل
في تفسير كتاب الله المنزل
٧ - ٨





في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الجزء السابع

منشورات

مؤسسة الأعلى للمطبوعات

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى المصححة

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣م

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت ـ شارع المطار ـ قرب كلية الهندسة
مفرق سنتر زعرور ـ ص ب : ١١/٧١٢٠
هاتف: ٤٥٠٤٢٦ ـ فاكس: ٠١/٤٥٠٤٢٧

Published by Alaalami Library
Beirut- Lebanon po. Box 7120
Tel - Fax: 450427
E-mail: alaalami@yahoo.com.

يطلب في العراق : كربلاء ـ شارع السدرة ـ تلفون : ٠٧٨٠١٥٦١٩٨٠


سُورَةُ الأنعَامِ


مكية، وعدد آياتها مائة وخمس وستون

حربٌ على الشرِّك والوثنية

قيل إنّ سورة الأنعام مكيّة، وهي السورة التاسعة والستون في تسلسل نزول السور القرآنية، إلاّ أنّ هناك اختلافاً بشأن عدد من آياتها، يعتقد بعض أنّ تلك الآيات نزلت في المدينة، لكنّ الأخبار الواصلة إلينا من أئمّة أهل البيت عليهم السلام تفيد بأنّ واحدة من مميزات هذه السورة هي أنّ آياتها جميعاً نزلت في مكان واحد(١)، وعليه فكل آياتها مكيّة.

هدف هذه السورة الرئيسي - مثل أهداف السور المكيّة - توكيد الأُصول الثلاثة: «التوحيد» و«النبوة» و«المعاد»، ولكنّها تؤكّد أكثر ما تؤكّد قضية عبادة الله الواحد ومحاربة الشِّرك والوثنية، بحيث إنّ معظم آيات هذه السورة تخاطب المشركين وعبدة الأصنام، وبهذا يتناول البحث في أكثر المواضع، أعمال المشركين وبِدَعِهم.

على كل حال، فإنّ تدبّر آيات هذه السورة والتفكير في استدلالاتها الحيّة الجليّة، يُحيي روح التوحيد وعبادة الله في الإنسان، ويُحطّم قواعد الشِّرك ويقتلع جذوره، ولعل السبب في نزول هذه السورة في مكان واحد هو هذا التماسك المعنوي وإعطاء الأولوية لمسألة التوحيد.

ولعل هذا أيضاً هو السبب لما نقرؤه من روايات عن فضل هذه السورة، وإنّها عند نزولها رافقها سبعون ألف ملك، وأنّ من يقرأها وترتوي روحه من ينبوع التوحيد يستغفر له كل أُولئك الملائكة(٢).

إنّ التمعّن في آيات هذه السورة يقضي على روح النفاق والتشتت بين المسلمين، ويجعل الآذان سميعة، والأعين بصيرة، والقلوب عارفة.

ولكن العجيب أن نرى بعضهم يكتفي من هذه السورة بقراءة ألفاظها فقط، ويعقد

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٥ و ٦.
(٢) المصدر السابق.

الجلسات لتلاوة آياتها من أجل حلّ المشاكل الشخصية، فلو اهتمّت هذه الجلسات بمحتوى السورة، فلا تنحل المشاكل الخاصّة وحدها، بل تنحل جميع مشاكل المسلمين العامّة أيضاً، ومن المؤسف جداً أنّ جمعاً من الناس يعتبرون القرآن مجموعة من (الأوراد) التي لها خواص غامضة ومجهولة فيقرأونها بغير تمعّن في مضامينها، مع أنّ القرآن كلّه مدرسة ودروس ومنهج ويقظة، ورسالة ووعي.

❀ ❀ ❀

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾

التّفسير

تبدأ السّورة بالحمد لله والثناء عليه، ثمّ تُشرع بتوعية الناس على مبدأ التوحيد، عن طريق خلق العالم الكبير ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أولاً، ثمّ عن طريق خلق العالم الصغير الإنسان ثانياً: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الله الذي هو مبدأ الظّلمة والنّور، بخلاف ما يعتقده الثنويون، وهو وحده خالق كلّ شيء: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾.

غير أنّ الكافرين والمشركين، بدلاً من أن يتعلّموا من هذا النظام الواحد درس التوحيد، يصطنعون لله الشريك والشبيه: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[1].

نلاحظ أنّ القرآن يذكر عقيدة المشركين بعد حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ الذي يدل في اللغة العربية على الترتيب والتراخي، وهذا يدل على أنّ التوحيد كان في أوّل الأمر مبدءاً فطرياً وعقيدة عامّة للبشر، بعد ذلك حصل الشّرك كانحراف عن الأصل الفطري.

أمّا لماذا استعملت الآية كلمة ﴿خَلَقَ﴾ بشأن السماوات والأرض، وكلمة ﴿وَجَعَلَ﴾

---

(١) ﴿يَعْدِلُونَ﴾ من «عدل» على وزن «حفظ» بمعنى التساوي، وهي هنا بمعنى (العديل) أي الشريك والشبيه والمثيل.

بشأن النّور والظلمة، فإنّ للمفسّرين في ذلك كلاماً كثيراً، ولكن أقربه إلى الذهن هو القول بأنّ «الخلق» يكون في أصل وجود الشيء، ﴿وَجَعَلَ﴾ يكون بشأن الخصائص والآثار والكيفيات التي هي نتيجة لخلق تلك المخلوقات، ولمّا كان النّور والظلمة حالتين تابعتين فقد عبّر عنهما بلفظة ﴿وَجَعَلَ﴾.

وروي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام في تفسير هذه الآية قوله: «وكان في هذه الآية ردٌّ على ثلاثة أصناف منهم، لمّا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فكان ردّاً على الدهرية الذين قالوا: إنّ الأشياء لا بدء لها وهي دائمة، ثمّ قال: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ فكان ردّاً على الثنوية الذين قالوا: إنّ النّور والظلمة هما المدبِّران.

ثمّ قال: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فكان ردّاً على مشركي العرب الذين قالوا: إنّ أوثاننا آلهة»(١).

هل الظلمة من المخلوقات؟

تفيد الآية أنّه مثلما أنّ «النّور» من مخلوقات الله، فإنّ «الظلمة» كذلك من مخلوقاته، مع أنّ الفلاسفة والمختصّين بالعلوم الطبيعية يعرفون أنّ الظلمة هي انعدام النّور، ولهذا فلا يمكن إطلاق صفة «المخلوق» على المعدوم، إذن كيف تعتبر الآية المذكورة الظلمة من المخلوقات؟

في ردّ هذا الاعتراض نقول:

أوّلاً: الظّلمة ليست تعني دائماً الظلام المطلق، بل كثيراً ما تطلق على النّور الضعيف جدّاً بالمقارنة مع النّور القوي، فنحن جميعاً نقول - مثلاً - ليل مظلم، مع العلم بأنّ ظلام الليل ليس ظلاماً مطلقاً، بل هو مزيج من نور النجوم الضعيف أو مصادر أُخرى للنور، وعلى هذا يكون مفهوم الآية هو أنّ الله جعل لكم نور النهار وظلام الليل، فالأوّل نور قوي والآخر نور ضعيف جدّاً وواضح أنّ الظلمة، بهذا المعنى، تكون من المخلوقات.

وثانياً: صحيح أنّ الظلمة المطلقة أمر عدمي، ولكن الأمر العدمي - في ظروف خاصّة - يكون نابعاً من أمر وجودي، أي إذا أراد الشخص أن يوجد ظلمة مطلقة في ظروف خاصّة لهدف معيّن، لابدّ أن يكون قد استعمل لذلك وسائل وجودية، فإذا أردنا

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٠١.

أن نجعل الغرفة مظلمة لتحميض صورة - مثلاً - فعلينا أن نمنع النّور لكي تحصل الظلمة في تلك اللحظة المعيّنة، وظلمة هذا شأنها ظلمة مخلوقة (مخلوقة بالتبع).

وإذا لم يكن (العدم المطلق) مخلوقاً، فإنّ (العدم الخاص) له نصيب من الوجود، وهو مخلوق.

النّور رمز الوحدة، والظلمة رمز التشتت

الأمر الآخر الذي ينبغي الالتفات إليه هنا هو أنّ لفظة (نور) ترد في القرآن بصيغة المفرد، بينما الظلمة تأتي بصيغة الجمع (ظلمات).

وقد يكون هذا إشارة لطيفة إلى حقيقة كون الظلام (المادي والمعنوي) مصدراً دائماً للتشتت والانفصال والتباعد، بينما النّور رمز التوحّد والتجمّع.

طالما شاهدنا أنّنا في الليلة الصيفية الظلماء نوقد سراجاً في فناء الدار، ثمّ لا تمضي إلاّ دقائق حتى نرى مختلف أنواع الحشرات تتجمع حول السراج مؤلفة تجمّعاً حيّاً حول النّور، ولكنّنا إذا أطفأنا السراج تفرّقت الحشرات كلّ إلى جهة، كذلك الحال في الشؤون المعنوية والاجتماعية، فنور العلم والقرآن والإيمان أساس الوحدة، وظلام الجهل والكفر والنفاق أساس التفرّق والتشتت.

قلنا: إنّ هذه السورة تسعى إلى لفت نظر الإنسان إلى العالم الكبير لتثبيت قواعد عبادة الله والتوحيد في القلوب، توجّه نظره أوّلاً إلى العالم الكبير، والآية التّالية تلفت نظره إلى العالم الصغير (الإنسان) فتشير إلى أعجب أمر، وهو خلقه من الطين فتقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾.

صحيح أنّنا ولدنا من أبوينا، لا من الطين، ولكن بما أنّ خلق الإنسان الأوّل كان من الطين، فيصح أن نخاطب نحن أيضاً على أنّنا مخلوقين من الطين.

وتستمر السورة فتشير إلى مراحل تكامل عمر الإنسان فتقول: إنّ الله بعد ذلك عيّن مدّة يقضيها الإنسان على هذه الأرض للنمو والتكامل: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾.

«الأجل» في الأصل بمعنى «المدّة المعيّنة» و«قضاء الأجل» يعني تعيين تلك المدّة أو إنهاءها، ولكن كثيراً ما يطلق على الفرصة الأخيرة اسم «الأجل»، فتقول، مثلاً: جاء أجل الدَّين، أي أنّ آخر موعد لتسديد الدّين قد حلّ. ومن هنا أيضاً يكون التعبير عن آخر لحظة من لحظات عمر الإنسان بالأجل لأنّها موعد حلول الموت.

ثمّ لاستكمال البحث تقول: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾.

بعد ذلك تُخاطب الآية المشركين وتقول لهم: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أي تشكّون في قدرة الخالق الذي خلق الإنسان من هذه المادة التافهة (الطين) واجتاز به هذه المراحل المدهشة، وتعبدون من دونه موجودات لا قيمة لها كالأصنام.

ما معنى الأجل المسمى؟

لا شك أنّ «الأجل المسمّى» و«أجلاً» في الآية مختلفان في المعنى، أمّا اعتبار الاثنين بمعنى واحد فلا ينسجم مع تكرار كلمة «أجل» خاصّة مع ذكر القيد «مسمى» في الثّاني.

لذلك بحث المفسّرون كثيراً في الاختلاف بين التعبيرين، والقرائن الموجودة في القرآن والرّوايات التي وصلتنا عن أهل البيت عليهم السلام تفيد أنّ «أجل» وحدها تعني غير الحتمي من العمر والوقت والمدّة، و«الأجل المسمى» بمعنى الحتمي منها، وبعبارة أُخرى «الأجل المسمى» هو «الموت الطبيعي» و«الأجل» هو الموت غير الطبيعي[1].

ولتوضيح ذلك نقول: إنّ الكثير من الموجودات لها من حيث البناء الطبيعي والذاتي الاستعداد والقابلية للبقاء مدّة طويلة، ولكن قد تحصل خلال ذلك موانع تحول بينها وبين الوصول إلى الحدّ الطبيعي الأعلى، افترض سراجاً نفطياً يستطيع أن يبقى مشتعلاً مدّة عشرين ساعة مع الأخذ بنظر الاعتبار سعته النفطية، غير أنّ هبوب ريح قويّة، أو هطول المطر عليه أو عدم العناية به، يكون سبباً في قصر مدّة الإضاءة، فإذا لم يصادف السراج أي مانع، وظلّ مشتعلاً حتى آخر قطرة من نفطه ثمّ انطفأ نقول: إنّه وصل إلى أجله المحتوم، وإذا أطفأته الموانع قبل ذلك، فيكون عمره «أجل» غير محتوم.

والحال كذلك بالنسبة للإنسان، فإذا توفّرت جميع ظروف بقائه وزالت جميع الموانع من طريق استمرار حياته، فإنّ بنيته تضمن بقاءه مدّة طويلة إلى حدٍّ معيّن، ولكنّه إذا تعرّض لسوء التغذية، أو ابتلي بنوع من الإدمان، أو إذا انتحر، أو أُعدم لجريمة ومات قبل تلك المدّة، فإنّ موته في الحالة الأُولى يكون أجلاً محتوماً، وفي الحالة الثّانية أجلاً غير محتوم.

وبعبارة أُخرى: الأجل الحتمي يكون عندما ننظر إلى «مجموع العِلَل التامّة»، والأجل غير الحتمي يكون عندما ننظر إلى «المقتضيات» فقط.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٤، ص ١١٦ و ١٧٧: تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٠٣.

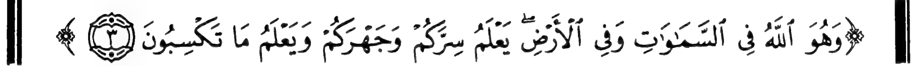
استناداً إلى هذين النوعين من الأجل يتّضح لنا كثير من الأُمور، من ذلك مثلاً ما نقرؤه في الرّوايات والأحاديث من أنّ صلة الرحم تطيل العمر، وقطعها يُقصّر العمر، وواضح أنّ العمر هنا هو الأجل غير الحتمي(١).

أمّا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(٢).

فهو الأجل المحتوم، أي إنّ الإنسان قد وصل إلى نهاية عمره، وهو لا يشمل الموت غير المحتوم السابق لأوانه.

ولكن علينا أن نعلم - على كلّ حال - أنّ الأجلين يعيّنهما الله، الأوّل بصورة مطلقة، والثّاني بصورة معلّقة أو مشروطة، وهذا يشبه بالضبط قولنا: إنّ هذا السراج ينطفىء بعد عشرين ساعة بدون قيد ولا شرط، ونقول إنّه ينطفىء بعد ساعتين إذا هبّت عليه ريح، كذلك الأمر بالنسبة للإنسان والأقوام والمِلل، فنقول: إن الله شاء أن يموت الشخص الفلاني أو أن تنقرض الأُمّة الفلانية بعد كذا من السنين، ونقول إنّ هذه الأُمّة إذا سلكت طريق الظلم والنفاق والتفرقة والكسل والتهاون فإنّها ستهلك في ثلث تلك المدّة، كلا الأجلين من الله، الأوّل مطلق والآخر مقيد بشروط.

جاء عن الإمام الصادق عليه السلام تعقيباً على هذه الآية قوله: «هما أجلان: أجل محتوم وأجل موقوف»(٣) كما جاء عنه في أحاديث أُخرى أنّ الأجل الموقوف قابل للتقديم والتأخير، والأجل الحتمي لا يقبل التغيير(٤).


﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾

التّفسير

هذه الآية تكمل البحث السابق في التوحيد ووحدانية الله، وترد على الذين يقولون بوجود إله لكل مجموعة من الكائنات، أو لكل ظاهرة من الظواهر، فيقولون: إله المطر، وإله الحرب، وإله السِّلم، وإله السماء، وما إلى ذلك، تقول الآية: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى

(١) وسائل الشيعة، ج ٩، ص ٣٨٤ و ٣٩٧. (٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٤.
(٣) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٠٣.
(٤) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٥٠٤. المصدر السابق، ص ٧٠٤.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾(١) أي كما أنّه خالق كل شيء فهو مدبر كل شيء أيضاً، وبذلك ترد الآية على مشركي الجاهلية الذين كانوا يعتقدون أنّ الخالق هو «الله» لكنّهم كانوا يؤمنون أنّ تدبير الأُمور بيد الأصنام.

هنالك احتمال آخر في تفسير الآية، وهو أنّها تعني حضور الله في كل مكان، في السماوات والأرض، ولا يخلو منه مكان، فليس هو بجسمٍ ليشغل حيّزاً معيّناً، بل هو المحيط بكل الأمكنة.

من الطبيعي أن يكون الحاكم على كل شيء والمدبّر لكلّ الأُمور والحاضر في كل مكان عارفاً بجميع الأسرار والخفايا ولهذا تقول الآية: إنّ ربّاً كهذا ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾.

قد يقال: بأنّ (السرّ) و(الجهر) يشملان أعمال الإنسان ونواياه، وعلى ذلك فلا حاجة لذكر ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾.

ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّ «الكسب» هو نتاج العمل والحالات النفسية الناشئة عن الأعمال الحسنة والأعمال السيئة، أي إنّ الله يعلم أعمالكم ونواياكم، كما يعلم الآثار التي تُخلفها تلك الأعمال والنوايا في نفوسكم، وعلى كلّ حال، فإنّ ذكر العبارة هذه يفيد التوكيد بشأن أعمال الإنسان.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾

التّفسير

قلنا: إنّ معظم الخطاب في سورة الأنعام موجّه إلى المشركين، والقرآن يستخدم شتّى السبل لإيقاظهم وتوعيتهم، فهذه الآية والآيات الكثيرة التي تليها تواصل هذا الموضوع.

---

(١) ثمّة اختلاف بين المفسّرين حول إعراب هذه العبارة القرآنية والظاهر أنّ «هو» مبتدأ و«الله» خبر. و﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جار ومجرور متعلقان بفعل تدل عليه كلمة «الله» والتقدير: (هو المتفرد في السماوات والأرض بالألوهية).

تشير هذه الآية إلى روح العناد واللامبالاة والتكبّر عند المشركين تجاه الحقّ وتجاه آيات الله فتقول: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾[1].

أي إنّ أبسط شروط الهداية - وهو البحث والتقصّي - غير موجود عندهم، وليس فيهم أيّ اندفاع لطلب الحقيقة، ولا يحسّون بعطش إليها ليبحثوا عنها، وحتى لو تدفّق ينبوع الماء الزُّلال عند عتبات بيوتهم لأعرضوا عنه ولما نظروا اليه... وكذلك فهم يعرضون عن آيات ﴿رَبِّهِمْ﴾ النازلة لتربيتهم وتكاملهم.

مثل هذه النفسية لا يقتصر وجودها على عهود الجاهلية ومشركي العرب، فاليوم أيضاً نجد من بلغ الستين من عمره ومع ذلك لم يجشم نفسه عناء ساعة واحدة من البحث والتحقيق في الله والدين، وإن وقع بيده كتاب أو بحث في هذا الموضوع لم ينظر إليه، وإن تحدّث إليه أحد بهذا الشأن لم يصغ إليه، هؤلاء هم الجهلاء المعاندون الغافلون الذين قد يظهرون أحياناً أمام الناس بمظهر العالم المتجبّر!

ثمّ تشير الآية إلى نتيجة أعمالهم، وهي: أنّهم عندما رأوا الحقيقة كذّبوها، ولو أنّهم دققوا في آيات الله جيّداً لرأوا الحقيقة وأدركوها وآمنوا بها: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾، ولسوف تصلهم نتيجة هذا التكذيب والسخرية: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

في هاتين الآيتين إشارة إلى ثلاث مراحل من الكفر تتزايد في الشدّة على التوالي، المرحلة الأُولى هي مرحلة الإعراض، ثمّ مرحلة التكذيب، وأخيراً مرحلة الاستهزاء بآيات الله.

يدل هذا على أنّ الإنسان في كفره لا يتوقف في مرحلة واحدة، بل يزداد باستمرار إنكاراً للحق وعدواة له وابتعاداً عن الله.

المقصود من التهديد المذكور في آخر الآية أنّ أوزار عدم الإيمان ستحيق بهم عاجلاً أو آجلاً في الدنيا والآخرة، والآيات التّالية تؤكّد هذا التّفسير.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾

---

(١) كلمة «آية» نكرة، ووردت في سياق النفي، فيكون المعنى: «إنّهم يعرضون عن كلّ آية ولا يفكّرون فيها».

التّفسير

مصير الطُّغاة:

ابتداءً من هذه الآية وما بعدها يشرع القرآن بعرض خطّة تربوية مرحلية لإيقاظ عبدة الأصنام والمشركين تتناسب مع اختلاف الدوافع عند الفريقين، يبدأ أوّلاً بمكافحة عامل (الغرور) وهو من عوامل الطغيان والعصيان والانحراف المهمّة، فيذكّرهم بالأُمم السالفة ومصائرهم المؤلمة، وبذلك يحذّر هؤلاء الذين غطت أبصارهم غشاوة الغرور، ويقول: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا[1] وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾.

ولكنّهم لمّا استمروا على طريق الطغيان، لم تستطع هذه الإمكانات إنقاذهم من العقاب الإلهي: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾.

أفلا ينبغي أن يكون علمهم بمصائر الماضين عبرة لهم، توقظهم من نوم غفلتهم، ومن سكرتهم؟ أليس الله الذي أهلك السابقين بقادر على أن يهلك هؤلاء أيضاً؟

ها هنا بضع نقاط نلفت إليها الانتباه:

١ - على الرّغم من أنّ «قرن» تعني فترة طويلة من الزمن (مئة، أو سبعين أو ثلاثين سنة)، ولكنّها قد تعني أيضاً - كما يقول اللغويون - القوم والجماعة في زمان معيّن (القرن من الاقتران بمعنى التقارب، وبالنظر لأنّ أهل العصر الواحد أو العصور المتقاربة قريبون من بعضهم فقد يطلق عليهم وعلى زمانهم اسم القرن)[2].

٢ - يتكرر في القرآن القول بأنّ الإمكانات المادية الكثيرة تبعث على الغرور والغفلة لدى ضعفاء النفس من الناس كقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۞ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۞﴾[3] لأنّهم بتوفّر تلك الإمكانات عندهم يرون أنفسهم في غنى عن الله، غافلين عن العناية الإلهيّة والإمدادات الربانية المغدقة عليهم في كلّ لحظة وثانية، ولولاها لما استمروا على قيد الحياة.

٣ - ليس هذا التحذير مختصاً بعبدة الأصنام، فالقرآن يخاطب - أيضاً - اليوم العالم

---

(١) «المدرار» في الأصل من «درّ» اللبن، ثمّ انتقل إلى ما يشبهه في النّزول كالمطر، والكلمة صيغة مبالغة، وجملة ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ﴾ للزيادة في المبالغة.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١١.

(٣) سورة العلق، الآيتان: ٦ و٧.

الصناعي الثري الذي أثملته الإمكانات المادية وملأته بالغرور، ويحذّره من نسيان الأقوام السابقة وممّا حاق بهم نتيجة ما ارتكبوه من ذنوب، وكأنّي بالقرآن يقول للمغرورين في عالمنا اليوم: إنّكم ستفقدون كل شيء بانطلاق شرارة حرب عالمية أُخرى، لتعودوا إلى عصر ما قبل التمدّن الصناعي اعلموا أنّ سبب تعاسة أُولئك لم يكن شيئاً سوى إثمهم وظلمهم واضطهادهم الناس وعدم إيمانهم وهذه عوامل ظاهرة في مجتمعكم أيضاً.

حقّاً إنّ دراسة تاريخ فراعنة مصر، وملوك سبأ وسلاطين كلدة وآشور، وقياصرة الرّوم، ومعيشتهم الباذخة الأسطورية وما كانوا يتقلّبون فيه من نِعَمٍ لا تُعدّ ولا تحصى، ثمّ رؤية عواقب أُمورهم المؤلمة التي حاقت بهم بسبب ظلمهم الذي قوّض أركان حياتهم، فيها أعظم العِبَرِ والدروس.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

التّفسير

منتهى العناد!

من عوامل انحرافهم الأُخرى التكبّر والعناد اللذين تشير إليهما هذه الآية، إنّ المتكبّر المكابر إنسان عنيد في العادة، لأنّ التكبّر لا يسمح لهم بالاستسلام للحق والحقيقة، والأفراد المتصفون بهذه الصفة يكونون عادة معاندين مكابرين، ينكرون حتى الأُمور الواضحة القائمة على الدليل والبرهان، بل ينكرون حتى البديهيات، كما نراه بأمّ أعيننا في المتكبرين من أبناء مجتمعاتنا.

يشير القرآن هنا إلى الطلب الذي تقدّم به جمع من عبدة الأصنام (يقال إنّ هؤلاء هم نضر بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية، ونوفل بن خويلد الذين قالوا لرسول الله ﷺ: (لن نؤمن حتى ينزل الله كتاباً مع أربعة من الملائكة!)[1] ويقول: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٢.

أي إنّ عنادهم قد وصل حدّاً ينكرون فيه حتى ما يشاهدونه بأعينهم ويلمسونه بأيديهم فيعتبرونه سحراً لكي لا يستسلموا للحقيقة، مع أنّهم في حياتهم اليومية يكتفون بعشر هذه الدلائل للإيمان بالحقائق ويقتنعون بها، وما هذا إلاّ بسبب ما فيهم من أنانية وتكبّر وعناد.

وبهذه المناسبة فإنّ «القرطاس» هو كل ما يكتب عليه، سواء أكان ورقاً أو جلداً أو ألواحاً، أمّا اطلاقه اليوم على الورق فذلك لانتشار تداول الورق أكثر من غيره للكتابة.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾
وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ
ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾

التّفسير

خلق المبررات

من عوامل الكُفر والإنكار الأُخرى، روح التحجج والبحث عن المبررات، وعلى الرغم من أنّ لهذه الروح عوامل أُخرى، مثل التكبّر والأنانية، ولكنّه ينقلب بالتدريج إلى حالة نفسية سلبية، تصبح بدورها عاملاً من عوامل عدم التسليم للحق.

ومن جُملة الحجج التي احتجّ بها المشركون على رسول الله ﷺ وأشار إليها القرآن في كثير من آياته - ومنها هذه الآية - هي أنّهم كانوا يقولون: لماذا يقوم رسول الله ﷺ وحده بهذا الأمر العظيم؟ لماذا لا يقوم معه بهذا الأمر أحد من غير جنس البشر، من جنس الملائكة؟ أيمكن لإنسان من جنسنا أن يحمل بمفرده هذه الرسالة على عاتقه؟ ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾.

ولا مجال لهذا التحجج على نبوّة رسول الله ﷺ مع كل هذه الدلائل الواضحة والآيات البيّنات، ثمّ إنّ الملك ليس أقدر من الإنسان ولا يملك قابلية لحمل رسالة أكثر من قابلية الإنسان بل إنّ قابلية الإنسان أكثر بكثير.

يرد القرآن عليهم بجملتين في كلٍّ منهما برهان:

الأولى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾.

أي لو نزل ملك لمعاونة رسول الله ﷺ لهلك الكافرون، وسبب ذلك ما مرّ في آيات سابقة، وهو أنّه إذا اتخذت النبوة جانب الشهود والحس، أي إذا تحوّل الغيب بنزول الملك إلى شهود، بحيث يرى كلّ شيء عياناً، غدت المرحلة هي المرحلة النهائية في إتمام الحجة، إذ لا يكون ثمّة دليل أوضح منها، وعلى ذلك فإنّ العصيان في هذه الحالة يستوجب العقاب القاطع، ولكن الله للطفه ورحمته بعباده، ولكي يمنحهم فرصة التأمل والتفكير، لا يفعل ذلك إلاّ في حالات خاصّة يكون فيها طالب الدليل على أتمّ استعداد، أو في حالات يستحق فيها طالب الدليل الهلاك، أي إنّه ارتكب ما يستوجب معه العقاب الإلهي، في هذه الحالة يحقق له طلبه، ثمّ إذا لم يستسلم صدر أمر هلاكه.

الثّانية: هي أنّ الرّسول الذي يبعثه الله لقيادة الناس وتربيتهم وليكون أُسوة لهم، لابدّ أن يكون من جنس الناس أنفسهم وعلى شاكلتهم من حيث الصفات والغرائز البشرية، أمّا الملك فلا يظهر لعيون البشر كما أنّه ليس بإمكانه أن يكون قدوة عملية لهم، لأنّه لا يدري شيئاً عن حاجاتهم وآلامهم ولا عن غرائزهم ومتطلباتها، لذلك فإنّ قيادته لجنس يختلف عنه كل الاختلاف لا يُحقّق الهدف.

لذلك فالقرآن في الجواب الثّاني يقول: لو شئنا أن يكون رسولنا ملكاً حسبما يريدون، لوجب أن يتصف هذا الملك بصفات الإنسان وأن يظهر في هيئة إنسان: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾(١).

يتّضح ممّا قلنا أنّ جملة ﴿لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ لا تعني: أنّنا سنجعله على هيئة إنسان، كما تصوّر بعض المفسّرين، بل تعني: أنّنا نجعله على هيئة البشر في الصفات الظاهرية والباطنية، ثمّ يستنتج من ذلك أنّهم - في هذه الحالة أيضاً - كانوا سيعترضون الاعتراض نفسه، وهو: لماذا أوكل الله مهمّة القيادة إلى بشر وأخفى عنّا وجه الحقيقة: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾.

«اللبس» بمعنى خلط الأمر وجعله مشتبهاً بغيره خافياً، و«اللبس» بمعنى ارتداء اللباس، ومن الواضح أنّ الآية تقصد المعنى الأوّل، أي أنّنا لو أردنا أن نرسل ملكاً

---

(١) الضمير ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ يمكن أن يعود على الرّسول، أو على من يرسل معه لإعانته على تثبيت النبوة وعلى الاحتمال الثّاني يكون اقتراحهم قد تحقق، وعلى الأوّل قد تحقق أكثر ممّا طلبوه.

لوجب أن يكون في صورة الإنسان وسلوكه، وفي هذه الحالة سيعتقدون أنّنا خلطنا الأمر على الناس وأوقعناهم في الاشتباه، ولكانوا يشكلون علينا الإشكالات السابقة، بمثل ما يوقعون الجهلة من الناس في الخطأ والاشتباه ويلبسون وجه الحقيقة عنهم، وعليه فإنّ نسبة «اللبس» والإخفاء إلى الله إنّما هي من وجهة نظرهم الخاصّة.

وفي الختام يهوّن الأمر على رسوله ويقول له: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾.

هذه الآية في الواقع تسلية لرسول الله ﷺ يطلب الله فيها منه أن لا تزعزعه الزعازع، ويهدد في الوقت نفسه المخالفين والمعاندين ويطلب منهم أن يتفكّروا في عاقبة أمرهم المؤلمة(١).

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾

التّفسير

لكي يوقظ القرآن هؤلاء المعاندين المغرورين يسلك في هذه الآية سبيلاً آخر فيأمر رسوله أن يوصيهم بالسياحة في أرجاء الأرض ليروا بأعينهم مصائر أُولئك الذين كذّبوا بالحقائق، فلعلّ ذلك يوقظهم من غفلتهم ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

لا شك أنّ لرؤية آثار السابقين والأقوام التي هلكت بسبب إنكارها الحقائق تأثيراً أعمق من مجرّد قراءة كتب التّأريخ، لأنّ هذه الآثار تجسّد الحقيقة ناطقة ملموسة، ولهذا استعمل جملة «انظروا» ولم يقل «تفكّروا».

ولعلّ استعمال «ثم» العاطفة التي تفيد عادة التراخي الزمني يراد منه أن لا يتعجّلوا في سيرهم وفي إطلاق أحكامهم، عليهم أن يمعنوا النظر في تلك الآثار التي خلّفتها الأقوام السالفة ويفكّروا فيها ثمّ يأخذوا منها العِبرَ ويروا عاقبة أعمال تلك الأُمم.

---

(١) «حاق» بمعنى أحاط به وحلّ به، و﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي ما كانوا يستهزئون به من تهديد وإنذار يسمعونه من أنبياء الله مثل إنذار نوح وقومه بوقوع الطوفان، فكان قومه من عبدة الأصنام يسخرون من ذلك، وعليه فلا ضرورة لتقدير كلمة «جزاء» كما يقول بعضهم، إذ يكون المعنى: العقوبات التي كانوا يستهزئون بها حلّت بهم.

فيما يتعلّق بالسير والسياحة في الأرض وتأثيرهما في إيقاظ الأفكار انظر تفسير الآية (١٣٧) من سورة آل عمران في هذا التّفسير.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾

التّفسير

يواصل القرآن مخاطبة المشركين، ففي الآيات السابقة دار الكلام حول التوحيد وعبادة الله الأحد وهنا يدور الحديث عن المعاد، وبالإشارة إلى مبدأ التوحيد يواصل القول عن المعاد بطريقة رائعة، هي طريقة السؤال والجواب، والسائل والمجيب كلاهما واحد، وهو من الأساليب الأدبية الجميلة.

يتكوّن الاستدلال هنا على المعاد من مقدمتين:

الأولى: يقول: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. ثمّ يقول مباشرة: أجب أنت بلسان فطرتهم وروحهم: ﴿قُل لِّمَن﴾، فبموجب هذه المقدمة يكون كلّ عالم الوجود ملكاً لله وبيده وتدبيره.

الثانية: إنّ الله هو وحده مصدر كل رحمة، وهو الذي أوجب على نفسه الرحمة، ويفيض بنعمه على الجميع: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾.

أيمكن لربٍّ هذا شأنه أن يقطع سلسلة حياة البشر نهائياً بالموت فيوقف التكامل واستمرار الحياة؟ أيتّفق هذا مع مبدأ كون الله «فيّاضاً» و«ذا رحمة واسعة»؟ أيمكن أن يكون قاسياً على عباده بهذا الشكل، وهو مالكهم ومدبّر شؤونهم، بحيث إنّهم بعد مدّة يفنون ويتبدلون إلى لا شيء؟

طبعاً لا، إذ إنّ رحمته الواسعة توجب عليه أن يسير بالكائنات - وخاصّة البشر - في طريق التكامل، بمثل ما يجعل برحمته من البذرة الصغيرة الزهيدة شجرة ضخمة قويّة، أو يحيلها إلى شجيرة ورد جميلة، كما أنّه بفيض رحمته يبدل النطفة التافهة إلى إنسان كامل، هذه الرحمة نفسها توجب أن يرتدي الإنسان - الذي عنده إمكانية الخلود - لباس حياة جديدة بعد موته في عالم أوسع، تدفعه يد الرحمة في سيره التكاملي الأبدي، لذلك يقول بعد هاتين المقدمتين: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

إنّ الآية تبدأ بالاستفهام التقريري الذي يراد به انتزاع الإقرار من السامع، ولمّا كان

هذا الأمر مسلّماً به بالفطرة، كما كان المشركون يعترفون بأنّ مالك عالم الوجود ليس الأصنام، بل الله، فإنّ الجواب يرد مباشرة، وهذا أسلوب جميل في عرض مختلف المسائل.

في مواضع أُخرى من القرآن يستدل على المعاد بطرق أُخرى، بطريق قانون العدالة، وقانون التكامل، والحكمة الإلهيّة، ولكن الاستدلال بالرحمة استدلال جديد جاءت به هذه الآية.

في نهاية الآية إشارة إلى مصير المشركين المعاندين وعاقبتهم، فهؤلاء الذين أضاعوا رأس مال وجودهم في سوق تجارة الحياة، لا يؤمنون بهذه الحقائق: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ما أعجب هذا التعبير! فقد يخسر المرء أحياناً ثروته أو مركزه أو أيّ نوع آخر من أنواع رأس المال، ففي هذه الحالات يكون قد خسر شيئاً، ولكن هذا الشيء الذي خسره لا يكون جزءاً من وجوده، أي إنّه خارج وجوده، أمّا أعظم الخسائر التي هي في الواقع الخسارة الحقيقية، فهي عندما يخسر الإنسان أصل وجوده.

إنّ أعداء الحقيقة والمعاندين يخسرون تماماً رأس مال العمر ورأس مال الفكر والعقل والفطرة وجميع المواهب الروحية والجسمية التي كان ينبغي لهم أن يستخدموها في طريق الحقّ للوصول إلى مرحلة التكامل، وعندئذ لا يبقى رأس المال ولا صاحبه.

لقد ورد هذا التعبير في عدد من آيات القرآن الكريم، وهي تعبيرات مرعبة عن المصير المؤلم الذي ينتظر منكري الحقيقة والمذنبين الملوّثين.

سؤال:

قد يقال: إنّ الحياة الأبدية تكون مصداقاً للرّحمة بالنسبة للمؤمنين فقط، أمّا لغيرهم فهي لا تعدو أن تكون شقاء وتعاسة؟

الجواب:

لا شك أنّ الله هو الذي يوفّر فرص الرحمة، فهو الذي خلق الإنسان، ووهب له العقل، وأرسل له الأنبياء لقيادته وهدايته، ومنحه مختلف أنواع النِّعم، وفتح أمامه طريقاً للحياة الخالدة، فهذه كلّها ألوان من الرحمة.

والإنسان في غضون مسيرته للوصول إلى ثمرات هذه الرحمة إذا انحرف عن الطريق وحوّل هذه الرحمة إلى عذاب وشقاء، فإنّ ذلك لا يخرجها عن كونها رحمة، بل الإنسان هو الملوم على الانحراف عنها وتبديلها إلى عذاب وألم.

الآية الثّانية تكمل في الواقع الآية السابقة، فالآية السابقة تشير إلى أنّ الله مالك كلّ شيء يستوعبه ظرف «المكان»: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ. . .﴾؟

أمّا هذه الآية فتشير إلى ملكية الله لما يستوعبه ظرف «الزمان» الوسيع، وتقول: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

في الواقع، عالم المادة هذا يتحدد بالزمان والمكان، فكل الكائنات التي تقع ضمن ظرف المكان والزمان - أي عالم المادة كلّه - ملك لله.

وليس الليل والنهار مختصّين - طبعاً - بالمنظومة الشمسية، فإنّ لجميع كائنات السماوات والأرض ليلاً ونهاراً، بعضها له نهار دائم بلا ليل، ولبعضها ليل بلا نهار، ففي الشمس - مثلاً - نهار دائم، فهناك ضوء دائم بلا ظلام، وفي بعض الكواكب الخامدة، التي لا نور فيها ولا تجاور النجوم، ليل دائم سرمدي، وهذه كلّها مشمولة بالآية المذكورة.

لابدّ هنا أن نلاحظ أنّ «سكن» والسكونة تعني التوقف والاستقرار في مكان ما، سواءً أكان ذلك الموجود الساكن في حالة حركة أم سكون، نقول مثلاً: فلان «ساكن» في المدينة الفلانية، أي إنّه مستقر هناك، مع أنّه يمكن أن يكون متحرّكاً في شوارعها.

كما يحتمل أن تقابل «السكون» في هذه الآية «الحركة»، ولمّا كان السكون والحركة من الحالات النسبية، فإنّ ذكر أحدهما يغنينا عن ذكر الآخر، وعليه يصبح معنى الآية هكذا: كل ما هو كائن في الليل والنهار وظرف الزمان، ساكناً كان أم متحركاً، ملك لله.

وبهذا يمكن أن تكون الآية إشارة إلى أحد أدلة التوحيد، لأنّ «الحركة» و«السكون» حالتان عارضتان وحادثتان طبعاً، فلا يمكن أن تكونا قديمتين أزليتين، لأنّ الحركة تعني وجود الشيء في مكانين مختلفين خلال زمانين، والسكون يعني وجود الشيء في مكان واحد خلال زمانين، وعليه فإنّ الالتفات إلى الحالة السابقة كامن في ذات الحركة والسكون. ونحن نعلم أنّ الشيء إذا كانت له حالة سابقة لا يمكن أن يكون أزلياً.

نستنتج من هذا الكلام أنّ الأجسام لا تخلو من الحركة والسكون، وأنّ ما لا يخلو من الحركة والسكون لا يمكن أن يكون أزلياً، وعليه فكل جسم حادث، وكلّ حادث لابدّ له من محدث (خالق).

ولكن الله ليس جسماً، فلا حركة له ولا سكون، ولا زمان ولا مكان، ولذلك فهو أبدي أزلي.

وفي نهاية الآية، وبعد ذكر التوحيد، تشير الآية إلى صفتين بارزتين في الله فتقول: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، أي أنّ اتساع عالم الوجود، والكائنات في آفاق الزمان والمكان لا تحول أبداً دون أن يكون الله عليماً بأسرارها، بل إنّه يسمع نجواها، ويعلم حركة النملة الضعيفة على الصخرة الصمّاء في الليلة الظّلماء في أعماق وادٍ سحيقٍ صامتٍ، وإنّه ليدرك حاجاتها وحاجات غيرها، ويعلم ما تفعل.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

التّفسير

لا ملجأ غير الله!

من المفسّرين من يذكر أنّ سبب نزول الآية هو أنّه جاء جمعٌ من أهل مكّة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا: يا محمّد، إنّك تركت دين قومك، ولم يكن ذلك إلّا بسبب فقرك، فاقبل منّا نصف أموالنا تكن غنياً على أن تترك آلهتنا وشأنها وتعود إلى ديننا، فنزلت هذه الآية تردّ عليهم(١).

سبق أن قلنا: إنّ آيات هذه السورة نزلت مرّة واحدة في مكّة، كما جاء في الأخبار المروية، لذلك لا يمكن أن يكون لكلّ منها سبب نزول خاص، غير أنّ أحاديث كانت قد جرت قبل نزول هذه السورة بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمشركين وبعض هذه الآيات تشير إلى تلك الأحاديث، لذلك ليس ثمّة ما يمنع أن تكون أحاديث من هذا القبيل أيضاً قد جرت بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمشركين، فيشير القرآن في هذه الآيات إلى أحاديثهم ويردّ عليهم.

على كلّ حال، الهدف من نزول هذه الآيات هو إثبات التوحيد ومحاربة الشّرك وعبادة الأصنام فالمشركون، وإن اعتقدوا أنّ الله هو خالق العالم، كانوا يتخذون من الأصنام ملجأً لأنفسهم، ولربّما اتخذوا صنماً لكلّ حاجة معيّنة، فلهم إله للمطر، وإله للظلام، وإله للحرب والسِّلم، وإله للرزق، وهذا هو تعدد الأرباب الذي ساد اليونان القديم.

(١) تفسير روح الجنان لأبي الفتوح الرازي وتفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٨ في ذيل تفسير الآية.

ولكي يزيل القرآن هذا التفكير الخاطىء، يأمر رسول الله ﷺ أن: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ﴾.

فإذا كان هو خالق عالم الوجود كلّه دون الاستناد إلى قدرة أُخرى، وهو الذي يرزق مخلوقاته، فما الذي يدعو الإنسان إلى أن يتخذ من دونه وليّاً وربّاً؟ وإنّ كلّ الأشياء غيره مخلوقات وهي بحاجة إليه في كلّ لحظات وجودها، فكيف يمكن لها أن تقضي حاجة الآخرين؟

هذه الآية تستعمل كلمة «فاطر» في حديثها عن خالق السماوات والأرض، وأصل «الفطر» و«الفطور» هو الشق، يروى عن ابن عباس أنّه قال: ما عرفت معنى فاطر السماوات والأرض إلاّ عندما رأيت أعرابيين يتنازعان على بئر قال أحدهما: «أنا فطرتها» أي أنا أحدثتها وأوجدتها[١].

ولكنّنا اليوم أقدر من ابن عباس على معرفة معنى «فاطر» بالاستعانة بالعلوم الحديثة، أنّه تعبير ينسجم مع أدق النظريات العلمية الحديثة عن تكوّن العالم، لقد أظهرت دراسات العلماء أنّ العالم الكبير (الكون) والعالم الصغير (المنظومة الشمسية) كانت كلّها كتلة واحدة تشققت على أثر الانفجارات المتتالية، وتكوّنت المجرّات والمنظومات والكرات، وفي الآية (٣٠) من سورة الأنبياء بيان أوضح لهذا الأمر: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾.

والنقطة الأُخرى التي ينبغي ألاّ نغفل عنها في هذه الآية هو أنّها تقتصر على توكيد اتصاف الله بإطعام مخلوقاته ورزقهم، ولعلّ ذلك إشارة إلى أنّ أقوى حاجات الإنسان في حياته المادية هي حاجته إلى «لقمة العيش» كما يقال، وهذه اللقمة هي التي تحمل الناس على الخضوع لأصحاب المال والقوّة، وقد يصل خضوعهم لأُولئك حدّ العبودية، ففي هذا يقرِّر القرآن أنّ رزق الناس بيد الله لا بيد هؤلاء ولا بيد الأصنام، فأصحاب المال والقوّة هم أنفسهم محتاجون إلى الطعام، وأنّ الله هو وحده الذي يطعم الناس ولا يحتاج إلى طعام.

وفي آيات أُخرى نرى القرآن يؤكّد مالكية الله ورازقيته بإنزال الأمطار وإنبات النباتات، وذلك لكي يزيل من أذهان البشر كلّياً فكرة اعتمادهم على مخلوقات مثلهم.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٨؛ وبحار الأنوار، ج ٨١، ص ٣٦٩.

ثمّ للردّ على أُولئك المشركين الذين كانوا يدعون رسول الله إلى الانضمام إليهم، يؤكّد القرآن على ضرورة رفض دعوة هؤلاء انطلاقاً من مبدأ نهي الوحي الإلهي عن ذلك، إضافة إلى نهي العقل: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(١).

لا شكَّ أنّ أنبياء الله والصالحين من أقوامهم سبقوا النّبي الخاتم في استسلامهم لأمر الله وعليه فإنّ قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ يعني أوّل مسلم من أُمّة الرسالة الخاتمة.

كما أنّ هذا إشارة إلى أمرٍ تربوي مهم أيضاً، وهو أنّ كل قائد ينبغي أن يكون في تطبيق تعاليم دينه قدوة وطليعة، وعليه أن يكون أوّل المؤمنين برسالته، وأوّل العاملين بها، وأكثر الناس اجتهاداً فيها، وأسرعهم إلى التضحية في سبيلها.

الآية التّالية فيها توكيد أشدّ لهذا النهي الإلهي عن اتّباع المشركين: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(٢). أي يأمر الله رسوله أن يقول بأنّه ليس مستثنى من القوانين الإلهيّة، وأنّه يخاف - إن ركن إلى المشركين - عذاب يوم القيامة.

ومن هذه الآية نفهم أيضاً أنّ شعور الأنبياء بالمسؤولية يفوق شعور الآخرين بها.

ولكي يتّضح أنّ النّبي ﷺ لا يستطيع شيئاً بغير الاستناد إلى لطف الله ورحمته، فكلّ شيء بيد الله وبأمره، وحتى رسول الله ﷺ نفسه يترقّب بعين الرجاء رحمة الله الواسعة، ومنه يطلب النجاة والفوز: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾.

هذه الآيات تبيّن منتهى درجات التوحيد، وتردّ على الذين كانوا يرون للأنبياء سلطاناً مستقلاً عن إرادة الله، كما فعل المسيحيون عندما جعلوا من المسيح عليه السلام المخلّص والمنقذ، فتقول لهم: إنّ الأنبياء أنفسهم يحتاجون إلى رحمة الله مثلكم.

---

(١) جملة ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ. . .﴾ من قبيل الخطاب غير المباشر، وجملة ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ خطاب مباشر، ولعلّ هذا الانتقال يقصد به القول بأنّ الابتعاد عن الشّرك واستنكاره أهم بكثير من أن يكون المرء أوّل المسلمين، ولذا جاء موضوع تجنب الشرك في خطاب مباشر ومؤكّد بنون التوكيد الثقيلة.

(٢) يلاحظ أنّ تركيب عبارة الآية يقتضي أن تأتي جملة ﴿أَخَافُ﴾ بعد جملة ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ لأنّها جواب الشرط، غير أنّ تقديمها يفيد التأكيد على عظم إحساس رسول الله بالمسؤولية أمام أوامر الله تعالى.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾

التّفسير

قدرة الله القاهرة

قلنا إنّ هدف هذه السّورة هو استئصال جذور الشّرك وعبادة الأصنام، وهاتان الآيتان تواصلان تحقيق ذلك.

فالقرآن يتساءل أوّلاً: لماذا تتوجّهون إلى غير الله، وتلجأون إلى معبودات تصطنعونها لحلّ مشاكلكم ودفع الضرّ عن أنفسكم واستجلاب الخير لها؟ بينما لو أصابك أدنى ضرر فلا يرفعه عنك غير الله، وإذا أصابك الخير والبركة والفوز والسعادة فما ذلك إلاّ بقدرة الله، لأنّه هو القادر القوي: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

في الواقع إنّ سبب الاتجاه إلى غير الله إمّا لتصوّرهم أنّ ما يتّجهون إليه مصدر الخيرات، وإمّا لاعتقادهم بقدرته وأنّه يدرأ عنهم المصائب ويحلّ لهم مشاكلهم، والخضوع إلى حدّ العبادة لذوي السلطان والمال والقوة ينشأ من أحد هذين الدافعين، هذه الآية تبيّن أنّ إرادة الله حاكمة على كلّ شيء، فإذا منع عن أحد نعمة، أو منح أحداً نعمة، فما من قدرة في العالم تستطيع أن تغيّر ذلك، فلماذا إذن يطأطئون رؤوسهم خضوعاً لغيره؟

إنّ استعمال ﴿يَمْسَسْكَ﴾ في الخير والشر، وهي من «مسّ»، تشير إلى أنّ الخير والشر - مهما قلّ - لا يكون إلاّ بإرادته وقدرته.

ثمّ إنّ الآية المذكورة تدحض فكرة «الثنويين» القائلين بمبدأي «الخير» و«الشر» وعبادتهما، وتقول إنّ الاثنين كليهما من جانب الله، ولكنّنا سبق أن قلنا أن ليس ثمّة شيء اسمه «الشر المطلق».

(١) «الضر» هو كلّ نقيصة يتعرّض لها الإنسان إمّا في الجسم مثل نقص عضو والمرض، وإمّا في النفس مثل الجهل والسفاهة والجنون، وإمّا في أمور أخرى مثل ذهاب المال أو المقام أو الأبناء.

وعليه فعندما ينسب الشر إلى الله فإنّما يقصد به على الظاهر «سلب النعمة» وهو بحدّ ذاته «خير»، فهو إمّا أن يكون للإيقاظ والتربية والتعليم وكبح حالات الغرور والطغيان والذاتية، أو لمصالح أُخرى.

وفي الآية التي تليها إكمال للبحث، فيقول: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾.

«القاهر» و«الغالب» وإن كانا بمعنى واحد، إلاّ أنّهما من جذرين مختلفين، «القهر» يطلق على ذلك النصر الذي يتحقق دون أن يتمكّن الطرف المقهور من إبداء أيّة مقاومة، وفي كلمة «الغلبة» لا يوجد هذا المعنى، وقد تحصل بعد المقاومة، وبعبارة أُخرى: القاهر يقال لمن يكون تسلّطه على الطرف الآخر من الشمول بحيث إنّه لا يستطيع المقاومة مطلقاً كصبّ سطلٍ من الماء على جذوة صغيرة من النّار فيطفئها فوراً.

يرى بعض المفسّرين أنّ «القهر» تستعمل حيث يكون المقهور كائناً عاقلاً، ولكن «الغلبة» أوسع منها وتشمل النصر على الكائنات غير العاقلة أيضاً[1].

وعليه إذا كانت الآية السابقة تشير إلى شمول قدرة الله إزاء المعبودات الزائفة الأُخرى وأصحاب القوّة، فذلك لا يعني أنّه مضطر إلى الدخول مدّة في صراع مع تلك القوى كي يتغلّب عليها، بل يعني أنّ قدرته قاهرة، وقد جاء تعبر ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ لتأكيد هذا المعنى.

وعلى هذا، كيف يمكن لإنسان واعٍ أن يعرض عن ربّ العالمين ويتّجه إلى كائنات وأشخاص لا يملكون بذواتهم أيّة قدرة، وما يملكونه من قوّة زهيدة إنّما مصدرها الله أيضاً.

ولإزالة كل وهمٍ قد يخطر لأحدهم بأنّ الله قد يسيء استعمال قدرته غير المتناهية كما هو الحال في ذويّ القدرة من البشر، يقول القرآن: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي أنّه صاحب حكمة، وكل أعماله محسوبة، لأنّه خبير وعالم ولا يخطىء في استعمال قدرته أبداً.

ونقرأ في حالات «فرعون» أنّه عندما هدد بقتل بني إسرائيل، قال: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾[2] أي إنّه اتّخذ من قدرته القاهرة - وإن تكن ضعيفة - وسيلة للظلم وغمط حقوق الآخرين، إلّا أنّ الله الحكيم الخبير بتلك القدرة القاهرة منزّه عن أن يظلم حتى أصغر مخلوقاته.

---

(١) تفسير الميزان، ج ٧، ص ٣٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢٧.

ومن نافلة القول أنّ تعبير ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ هو التفوّق في المقام لا في المكان، إذ ليس لله مكان محدد.

ومن العجيب جدّاً أنّ بعض ذوي العقول المتحجّرة اتّخذ من هذه الآية دليلاً على تجسيم الله سبحانه، على الرغم من عدم وجود أيّ شك في أنّ هذا التعبير معنوي يدل على تفوّق الله من حيث القدرة على عبيده وحتى فرعون - مع كونه بشراً ذا جسم - يستعمل الكلمة نفسها لإظهار تفوّقه السلطوي، لا تفوّقه المكاني (تأمل بدقّة).

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

التّفسير

أعظم الشّاهدين

يذكر جمع من المفسّرين أنّ عدداً من مشركي مكّة جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: كيف تكون نبيّاً ولا نرى أحداً يؤيّدك؟ وحتى اليهود والنصارى الذين سألناهم، لم يشهدوا بصحة أقوالك بحسب ما عندهم في التّوراة والإنجيل، فهات من يشهد لك على رسالتك، والآيتان المذكورتان تشيران إلى هذه الواقعة(١).

في مواجهة هؤلاء المخالفين المعاندين الذين يغمضون أعينهم عن رؤية كل تلك الدلائل على صدق الرسالة، ويطلبون مزيداً من الشواهد، يؤمر النّبي ﷺ أن: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾.

أهناك شهادة أعظم من شهادة ربّ العالمين؟ ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وهل هناك دليل أكبر من هذا القرآن؟: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾، هذا القرآن الذي لا يمكن أن يكون وليد فكرٍ بشري، خاصّة في تلك الظروف الزّمانية والمكانية، هذا القرآن الذي يضمّ

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٢٢؛ وتفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٠٦.

مختلف الشواهد على إعجازه، فألفاظه معجزة، ومعانيه معجزة، أليس هذا الشاهد الكبير وحده كافٍ لأن يكون تصديقاً إلهيّاً للدعوة!!.

يستفاد من هذه العبارة أيضاً أنّ القرآن أعظم معجزة وأكبر شاهد على صدق دعوة رسول الله ﷺ.

ثمّ يشير إلى هدف نزول القرآن ويقول: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ أي إنّ القرآن قد نزل عليّ لكي أُنذركم، وأُنذر جميع الذين يصل إليهم - عبر تاريخ البشر، وعلى امتداد الزمان وفي أرجاء العالم كافة - كلامي، وأحذّرهم من عواقب عصيانهم.

يلاحظ هنا أنّ الكلام مقتصر على الإنذار مع أنّ خطابات القرآن تجمع غالباً بين الإنذار والبشرى، والسبب في ذلك يعود إلى أنّ الكلام موجّه هنا إلى أفراد معاندين مصرّين على المكابرة، ولا يمكن أن نتصوّر في الواقع عبارة أوجز وأشمل لبيان المقصود من هذه العبارة، وما فيها من دقّة وسعة يزيل كلّ إيهام في عدم اختصاص دعوة القرآن بالعرب أو بزمان أو مكان معيّنين.

بعض العلماء استدلوا بهذا التعبير وأمثاله على ختم النّبوة برسول الله ﷺ، فهذه الجملة تعني أنّ الرّسول قد بعث إلى جميع الذين تصلهم دعوته، وهذا يشمل جميع الذين يردون الحياة حتى نهاية العالم.

وتفيد الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام أنّ مفهوم إبلاغ القرآن لا يعني مجرّد وصول نصوصه إلى الأقوام الأُخرى فحسب، بل إنّ المفهوم يشمل وصول ترجماته بمختلف اللغات إلى تلك الأقوام.

جاء عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه عندما سئل عن هذه الآية قال: «بكل لسان»[١].

كما أنّ من أُصول الفقه المسلّم بها هو مبدأ «قبح العقاب بلا بيان» وهذا ما تفيده الآية المذكورة.

فقد ثبت في أُصول الفقه أنّه ما دام الحكم لم يبلغ شخصاً، فإنّه لا يتحمّل مسؤولية تنفيذه (إلاّ إذا كان مقصّراً في استيعاب الحكم)، فهذه الآية تقول بأنّ الذين تصلهم الدعوة يتحمّلون مسؤوليتها، أمّا الذين لم تصلهم الدعوة - بدون تقصير - فلا مسؤولية عليهم.

---

(١) تفسير البرهان، وتفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٠٧ ذيل الآية مورد البحث.

في تفسير (المنار) رواية عن أبيّ بن كعب قال: أُتي رسول الله ﷺ بأسارى فقال لهم: هل دعيتم إلى الإسلام؟ قالوا: لا، فخلّى سبيلهم، ثمّ قرأ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾، ثمّ قال: خلّوا سبيلهم حتى يأتوا مأمنهم من أجل أنّهم لم يدعوا[1].

ومن هذه الآية نفهم، أيضاً أنّ إطلاق كلمة «شيء» على الله جائز، إلاّ أنّه شيء لا كالأشياء المخلوقة المحدودة، بل هو خالق ولا تحدّه حدود.

ثمّ أمر الله رسوله أن يسألهم: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ ويأمره أن: ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

ذكر العبارات الأخيرة في الآية له هدف نفسي هام، وهو أنّ المشركين قد يتصوّرون حدوث تزلزل في نفس النّبي ﷺ على أثر كلامهم، فيتركون المجلس آملين، ويبشّرون أصحابهم بإمكان أن يعيد محمّد ﷺ النظر في دعوته.

فهذه الجمل الصريحة الحاسمة تقضي على أمل المشركين وتحيله إلى يأس، وتبيّن لهم أنّ الأمر أعظم ممّا يظنون، وأنّه لم يداخله أدنى شك في دعوته، ولقد دلّت التجارب على أنّ ذكر أمثال هذه العبارات الجازمة والحاسمة في ختام كل بحث له أثر عميق في تحقيق الهدف النهائي.

أمّا الذين قالوا: إنّ أهل الكتاب لم يشهدوا لنبي الإسلام ﷺ، فإنّ الآية التي بعدها تردّ عليهم وتقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ أي إنّ معرفتهم به لا تقتصر على مبدأ ظهوره ودعوته فحسب، بل إنّهم يعرفون حتى التفاصيل والخصائص وعلاماته الدقيقة أيضاً، وعليه، إذا قال جمع من أهل مكّة: إنّهم رجعوا إلى أهل الكتاب فلم يجدوا عندهم علماً بالنّبي، فإنّهم إمّا أن يكونوا قد كذبوا ولم يتحققوا من الأمر، أو أنّ أهل الكتاب قد أخفوا عنهم الحقائق ولم يطلعوهم عليها، وهذا الكتمان تشير إليه آيات أُخرى من القرآن (لمزيد من التوضيح انظر المجلد الأوّل من هذا التّفسير في ذيل الآية (١٤٦) من سورة البقرة).

والآية تعلن في آخر مقاطعها النتيجة النهائية: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي إنّ الذين لا يؤمنون بالنّبي - مع كلّ ما تحيطه من دلائل وعلامات واضحة - هم فقط أُولئك الذين خسروا كلّ شيء في تجارة الحياة.

---

(١) تفسير المنار، ج ٧، ص ٣٤١.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢١)
وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢)
ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟
عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٢٤)﴾

التّفسير

أشدّ الظّلم

تواصل هذه الآيات المنهج القرآني في مقارعة الشرك وعبادة الأصنام بشكل شامل، تقول الآية الأُولى بصراحة وبصورة استفهام استنكاري: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾؟

الجملة الأُولى - في الواقع - إشارة إلى إنكار التوحيد، والثّانية إشارة إلى إنكار النّبوة حقّاً لا ظلم أكبر من أن يتخذ المرء قطعة جمادٍ لا قيمة لها، أو إنساناً ضعيفاً مثله شريكاً لربٍّ لا تحدّه حدود، وله الحكم على كل عالم الوجود، فهذا ظلم من جهات ثلاث: ظلم لذات الله بالقول بوجود شريك له، وظلم للشخص نفسه بالحط من قدره إلى حدّ السجود والخضوع لقطعة حجرٍ أو خشبٍ، وظلم بحق المجتمع الذي يسبب له الشّرك والتشتت والتفرّق والابتعاد عن روح الوحدة والتوحّد.

فلا شك إذن في أنّ أيّ ظالم - وعلى الأخص أُولئك الذين لظلمهم جوانب متعددة - لا يمكن أن يرى السعادة والفلاح: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

إنّ لفظة «الشّرك» لم ترد صراحة في الآية، ولكن بأخذ الآيات السابقة واللاّحقة لها بنظر الاعتبار التي تدور حول الشرك، يتّضح أنّ القصد من كلمة «إفتراء» هو القول بوجود شريك لله سبحانه.

وممّا يلفت النظر أنّ القرآن يصف في خمسة عشر موضعاً بعض الناس بأنّهم من أظلم الناس في سياق الاستفهام: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ...﴾ أو ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾[1] وعلى الرغم من أنّ

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١١٤ و ١٤٠: والأنعام، ٢١ و ١٤٤ و ١٥٧؛ والأعراف، ٣٧؛ ويونس، ١٧؛ وهود، ١٨؛ والكهف، ١٥ و ٥٧؛ والعنكبوت، ٦٨؛ والسجدة، ٢٢؛ والزّمر، ٣٢؛ والصف، ٧.

معظم تلك الآيات تتناول الشّرك وعبادة الأصنام وإنكار آيات الله، أي إنّها تدور حول التوحيد، فإنّ بعضاً آخر منها يدور حول أُمور أُخرى، مثل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾[(١)].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾[(٢)].

هنا يثار هذا السّؤال: كيف يمكن أن تكون كلّ طائفة من هؤلاء أظلم الناس، في حين أنّ صفة (الأظلم) لا يمكن أن تنطبق إلاّ على طائفة واحدة منها؟

نقول في الجواب: كلّ هذه الحالات تستقي - في الحقيقة - من منبع واحد، وهو الشرك والكفر والعناد، فمنع الناس من ذكر الله في المساجد والسعي في خرابها دليل على الكفر والشرك، وكتمان الشهادة أي كتمان الحقائق المؤدّي إلى حيرة الناس وضلالهم، هو مَعلم من معالم الشرك وإنكار وحدانية الله.

الآية التّالية تشير إلى مصير المشركين يوم القيامة مبيّنة أنّهم باعتمادهم على مخلوقات ضعيفة كالأصنام، لا هم حققوا لأنفسهم الراحة في هذا العالم، ولا هم ضمنوا ذلك في الحياة الآخرة، فتقول الآية: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، أين هم؛ لماذا لا يأتون اليوم لإنقاذكم؟ لماذا لا يظهرون أيّ حول ولا يبدون أيّة قوّة؟

ألم تكونوا تتوقعون منهم أن يعينوكم على خلّ مشكلاتكم؟ فلماذا - إذن - لا نرى لهم أثراً؟

فيستولي على هؤلاء الرعب والخوف ويبهتون ولا يحيرون جواباً، سوى أن يقسموا بالله أنّهم لم يكونوا مشركين، ظنّاً منهم أنّهم هناك أيضاً قادرون على إخفاء الحقائق: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

حول معنى «فتنة» ثمّة كلام بين المفسّرين، منهم من قال: إنّها بمعنى الاعتذار، وقال آخرون: إنّها بمعنى الجواب: وقالوا أيضاً: أنّها الشرك[(٣)] [(٤)].

هنالك احتمال آخر في تفسير هذه الآية، وهو القول بأنّ «الفتنة» من «الافتتان» أي

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٤. (٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٠.

(٣) إذا أخذناها على إنّها بمعنى الاعتذار والجواب، فلا حاجة فيهما للتقدير، أمّا إذا أُخذت بمعنى الشرك، فينبغي أن نقدّر كلمة «نتيجة» أي إنّ نتيجة شركهم كانت أن يقسموا أنهم لم يكونوا مشركين.

(٤) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٢٦.

الوله بالشيء، فيكون المعنى أنّ افتتانهم بالشرك وعبادة الأصنام، بشكل يغشى عقولهم وأفكارهم، قد أدّى إلى أن يدركوا يوم القيامة - يوم يزاح الستر - خطأهم الكبير، ويستقبحوا أعمالهم وينكروها تماماً.

يقول الراغب في «المفردات»: إنّ أصل «الفتن» إدخال الذهب النّار لتظهر جودته من رداءته، فقد يكون هذا المعنى ممّا تفسّر به الآية المذكورة، أي أنّهم عندما تحيط بهم شدّة يوم القيامة يستيقظون ويقفون على خطئهم، فينكرون أعمالهم طلباً للنجاة.

الآية الثّالثة ومن أجل أن يعتبر الناس بمصير هؤلاء الأفراد تقول: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

وتنهار المساند التي اختاروا الاستناد عليها وجعلوها شريكة لله، وخابوا في مسعاهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

لابدّ هنا من ملاحظة النقاط التّالية:

١ - لا شك أنّ المقصود بعبارة «انظر» هو النظر بعين العقل، لا بالعين الباصرة إذ لايمكن أن ترى مشاهد يوم القيامة رأي العين في هذه الدنيا.

٢ - وقوله سبحانه: ﴿كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ إمّا أن يعني أنّهم خدعوا أنفسهم في الدنيا وخرجوا عن طريق الحقّ، وإمّا أن يراد منه يوم القيامة حيث يقسمون على أنّهم لم يكونوا مشركين، والحقيقة أنّهم بهذا يكذبون على أنفسهم، فقد كانوا مشركين فعلاً.

٣ - يبقى سؤال آخر، وهو أنّ الآية المذكورة تفيد أنّ المشركين ينكرون شركهم يوم القيامة مع أنّ ظروف يوم القيامة لا يمكن أن تسمح لأحد أن يجانب الصدق وهو يرى تلك الحقائق الحسيّة، كما لو كان أحد يريد أن يغطّي على الشمس في رابعة النهار، ليقول كذباً: إنّ الدنيا ظلام. ثمّ إنّ هناك آيات أُخرى تفيد بأنّهم يوم القيامة يعترفون صراحة بشركهم ولا يخفون أمراً: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾(١).

يمكن أن نذكر لهذا السؤال جوابين:

الأوّل: ليوم القيامة مراحل، ففي المراحل الأُولى يظن المشركون أنّهم بالكذب يستطيعون التملّص من عذاب الله الأليم، لذلك يرجعون إلى عادتهم القديمة في التوسل بالكذب، ولكن في المراحل التّالية يدركون أن لا مهرب لهم أبداً، فيعترفون بأعمالهم.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٢.

يبدو أنّ الأستار يوم القيامة تُرفع - بالتدريج - عن عين الإنسان، وفي البداية عندما لا يكون المشركون قد درسوا ملفّات أعمالهم جيّداً بعد - يركنون إلى الكذب، ولكن في المراحل التّالية حيث ترتفع فيها الأستار أكثر ويرون كل شيء حاضراً، لا يجدون مندوحة عن الاعتراف تماماً، مثل المجرمين الذين ينكرون كل شيء في بداية التحقيق، حتى معرفتهم بأصدقائهم... ولكنّهم عندما يرون الأدلة المادية والمستندات الحيّة التي تفضح جريمتهم، يدركون أنّ الأمر من الوضوح بحيث لا يحتمل الإنكار، فيعترفون ويدلون بإفادة كاملة، وقد ورد هذا الجواب في حديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام (١).

والثاني: إنّ الآية المذكورة تتحدث عمّن لا يرى نفسه مشركاً مثل المسيحيين الذين قالوا بالآلهة الثلاثة واعتقدوا أنّهم موحّدون، أو مثل الذين يدّعون التوحيد، لكن أعمالهم ملوّثة بالشرك، لأنّهم كانوا يعرضون عن تعاليم الأنبياء، ويعتمدون على غير الله وينكرون ولاية أولياء الله... هؤلاء يقسمون يوم القيامة على أنّهم كانوا موحّدين، ولكنّهم سرعان ما يدركون أنّهم في الباطن كانوا مشركين، هذا الجواب أيضاً قد ورد في عدد من الرّوايات نقلاً عن الإمام علي والإمام الصادق عليه السلام (٢).

وكلا الجوابين مقبولان.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

التّفسير

حجب لا تقبل الإختراق

في هذه الآية إشارة إلى الوضع النفسي لبعض المشركين، فهم لا يبدون أيّة مرونة تجاه سماع الحقائق، بل أكثر من ذلك، يناصبونها العداء، ويقذفونها بالتهم، فيبعدون

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٠٨. (٢) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٠٨.

أنفسهم وغيرهم عنها، عن هؤلاء تقول الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾(١).

في الواقع كانت عقولهم وأفكارهم منغمسة في التعصّب الجاهلي الأعمى، وفي المصالح المادية والأهواء، بحيث أصبحت وكأنّها واقعة تحت الأستار والحواجز، فلا هم يسمعون حقيقة من الحقائق، ولا هم يدركون الأُمور إدراكاً صحيحاً.

سبق أن قلنا مراراً إنّ نسبة هذه الأُمور إلى الله، إنّما هو إشارة إلى قانون «العلة والمعلول» وخاصية «العمل»، أي إنّ أثر الاستمرار في الانحراف والإصرار على المعاندة والتشاؤم يظهر في اتصاف نفس الإنسان بهذه المؤثرات، وفي تحوّلها إلى مثل المرآة المعوجة التي تعكس صور الأشياء معوجة منحرفة، لقد أثبتت التجربة أنّ المنحرفين والمذنبين يحسّون أوّل الأمر بعدم الرضا عن حالهم، ولكنّهم يعتادون ذلك بالتدريج، وقد يصل بهم الأمر إلى اعتبار أعمالهم القبيحة لازمة وضرورية، وبتعبير آخر: هذا واحد من أنواع العقاب الذي يناله المصرّون على العصيان ومعاداة الحقّ.

وهؤلاء وصلوا حدّاً تصفه الآية فتقول: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ آية لا يؤمنوا بها)، بل الأكثر من ذلك أنّهم عندما يأتون إليك، لا يفتحون نوافذ قلوبهم أمام ما تقول، ولا يأتون - على الأقل - بهيئة الباحث عن الحقّ الذي يسعى للعثور على الحقيقة والتفكير فيها، بل يأتون بروح وفكر سلبيين، ولا هدف لهم سوى الجدل والاعتراض: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ أنّهم عند سماعهم كلامك الذي يستقى من ينابيع الوحي ويجري على لسانك الناطق بالحقّ، يبادرون إلى اتهامك بأنّ ما تقوله إنّما هو خرافات اصطنعها أُناس غابرون: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

الآية التّالية تذكر أنّ هؤلاء لا يكتفون بهذا، فهم مع ضلالهم يسعون جاهدين للحيلولة دون سلوك الباحثين عن الحقيقة بما يشيعونه ويروّجونه من مختلف الأكاذيب، ويمنعونهم أن يقتربوا من رسول الله ﷺ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾، ويبتعدون عنه بأنفسهم: ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾(٢)، دون أن يدركوا أنّ من يصارع الحقّ يكن صريعه، وأخيراً، وبحسب قانون الخلق الثابت، يظهر وجه الحقّ من وراء السحب، وينتصر بما له من قوّة، ويتلاشى الباطل كما يتلاشى الزبد الطافي على سطح الماء، وعليه فإنّ مساعيهم سوف

(١) «أكنة» جمع «كنان» وهو كلّ ستار أو حاجز، و«الوقر» بمعنى ثقل السمع.

(٢) «ينأون» من «نأى» بمعنى ابتعد.

تتحطم على صخرة الإخفاق والخيبة وما يهلكون غير أنفسهم، ولكنّهم لا يدركون الحقيقة: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

إلصاق تهمة عظيمة بأبي طالب مؤمن قريش

يتّضح ممّا قيل في تفسير هذه الآية أنّها تتابع الكلام على المشركين المعاندين وأعداء رسول الله ﷺ الألداء، والضمير «هم» يعود - بموجب قواعد الأدب واللغة - إلى الذين تتناولهم الآية بالبحث، أي الكفار المتعصبين الذين لم يدخروا وسعاً في إيذاء النّبي ﷺ ووضع العثرات في طريق الدعوة إلى الإسلام.

ولكن - لشديد الأسف - نرى بعض المفسّرين من أهل السُّنّة يخالفون جميع قواعد اللغة العربية، فيقطعون الآية الثّانية من الآية الأُولى ويقولون: إنّها نزلت في أبي طالب والد أمير المؤمنين علي عليه السلام.

إنّهم يفسّرون الآية هكذا: هناك فريق يدافعون عن رسول الإسلام ﷺ ولكنّهم في الوقت نفسه يبتعدون عنه: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾[1] وهم يستشهدون في توكيد رأيهم ببعض الآيات الأُخرى من القرآن، ممّا سنتناوله في موضعه، مثل الآية (١١٤) من سورة التوبة والآية (٥٦) من سورة القصص.

لكن جميع علماء الشيعة وجمع من علماء أهل السُّنّة، ومثل ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة والقسطلاني في «إرشاد الساري» وزيني دحلان في حاشية السيرة الحلبية، ويعتبرون أبا طالب من مؤمني الإسلام، وهناك في المصادر الإسلامية الأصيلة دلائل كثيرة على هذا.

ومن يطالع هذه الأدلة يندفع للتساؤل بدهشة: ما السبب الذي حدا ببعضهم إلى كره أبي طالب وتوجيه مثل هذا الاتهام الكبير إليه؟!

كيف يكون هدفاً لمثل هذا الاتهام من كان يدافع بكلّ كيانه ووجوده عن رسول الله ﷺ ولطالما وقف هو وابنه في مواقع الخطر يدرآن عن حياة رسول الله ﷺ كلّ خطر؟!

هنا يرى المحققون المدققون أنّ التيار المناوىء لأبي طالب تيار سياسي ينطلق من عداء «شجرة بني أُمية الخبيثة» لمكانة علي عليه السلام.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٢٨ و ٢٢٩؛ ومستدرك الوسائل، ج ٢، ص ٣١٥.

ذلك لأنّ أبا طالب ليس الوحيد الذي تعرّض لمثل هذه الهجمات بسبب قرابته من أمير المؤمنين علي عليه السلام، بل إنّنا نلاحظ على امتداد تاريخ الإسلام أنّ كلّ من كان له بأيّ شكل من الأشكال نوع من القرابة من أمير المؤمنين علي عليه السلام لم ينج من هذه الحملات اللئيمة، وفي الحقيقة كان ذنب أبي طالب الوحيد أنّه والد الشخصية الإسلامية الكبرى علي عليه السلام.

ونذكر هنا بإيجاز مختلف الأدلة التي تثبت إيمان أبي طالب، تاركين التفاصيل للكتب المختصة في الموضوع:

١ - كان أبو طالب يعلم، قبل بعثة الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، أنّ ابن أخيه سوف يصل إلى مقام النبوة، فقد كتب المؤرخون أنّه في رحلته مع قافلة قريش إلى الشام اصطحب معه ابن أخيه محمّداً البالغ يومئذ الثّانية عشرة من العمر، وفي غضون الرحلة رأى منه مختلف الكرامات، ثمّ عندما مرّت القافلة بالراهب (بحيرا) الذي أمضى سنوات طوالاً في صومعته على طريق القوافل التجارية، لفت سيماء محمّد نظر الراهب الذي راح يدقّق في وجهه وملامحه، ثمّ التفت إلى الجمع سائلاً: من منكم صاحب هذا الصبي؟ فأشار الجمع إلى أبي طالب الذي قال له: هذا ابن أخي، فقال بحيرا: إنّ لهذا الصبي شأناً، إنّه النّبي الذي أخبرت به وبرسالته الكتب السماوية، وقد قرأت فيها تفاصيل ذلك كلّه[1].

ولقد كان أبو طالب قبل ذلك قد أدرك من الوقائع والقرائن التي رآها من ابن أخيه أنّه سيكون نبي هذه الأُمّة.

وبموجب ما يذكره الشهرستاني صاحب «الملل والنحل» وغيره من علماء السُّنّة أنّ سماء مكّة قد جست بركتها عن أهلها سنة من السنين، فواجه الناس سنة جفاف شديد، فأمر أبو طالب أن يأتوه بابن أخيه محمّد، فأتوه به وهو رضيع في قماطه، فوقف تجاه الكعبة، وفي حالة من التضرّع والخشوع أخذ يرمي بالطفل ثلاث مرات إلى الأعلى ثمّ يتلقّفه وهو يقول: يا ربّ بحقّ هذا الغلام اسقنا غيثاً مغيثاً دائماً هطلاً، فلم يمض إلاّ بعض الوقت حتى ظهرت غمامة من جانب الأُفق وغطّت سماء مكّة كلّها وهطل مطر غزير كادت معه مكّة أن تغرق.

ثمّ يقول الشهرستاني: هذه الواقعة، التي تدل على علم أبي طالب بنبوة ابن أخيه

(١) ملخص ما ورد في سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٩١، وسيرة الحلبي، ج ١، ص ١٣١، وكتب أُخرى.

ورسالته منذ طفولته تؤكّد إيمانه به، وهذه أبيات أنشدها أبو طالب بعد ذلك بتلك المناسبة:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضل
وميزان عدل لا يخيس شعيرة ووزان صدق وزنه غير هائل(١)

إنّ حكاية إقبال قريش على أبي طالب رحمه الله عند الجفاف، واستشفاع أبي طالب إلى الله بالطفل قد ذكرها غير الشهرستاني عدد آخر من كبار المؤرخين، وقد أورد العلاّمة الأميني (قدس سره) صاحب كتاب «الغدير» هذه الحكاية وذكر أنّه نقلها من «شرح البخاري» و«المواهب اللدنية» و«الخصائص الكبرى» و«شرح بهجة المحافل» و«السيرة الحلبية» و«السيرة النبوية» و«طلبة الطالب»(٢).

٢ - إضافة إلى كتب التّأريخ المعروفة، فإنّ بين أيدينا شعراً لأبي طالب جمع في «ديوان أبي طالب»، ومنه الأبيات التّالية:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وابشر بذاك وقر منك عيونا
ودعوتني وعلمت أنك ناصحي ولقد دعوت وكنت ثمّ أمينا
ولقد علمت بأنّ دين محمّد من خير أديان البرية دينا(٣)

كما قال أيضاً:

ألم تعلموا أنّا وجدنا محمّداً رسولاً كموسى خطّ في أوّل الكتب
وإنّ عليه في العباد محبّة ولا حيف في من خصّه الله بالحبّ(٤)

يذكر ابن أبي الحديد طائفة كبيرة من أشعار أبي طالب (التي يقول عنها ابن شهرآشوب في «متشابهات القرآن» أنّها تبلغ ثلاثة آلاف بيت) ثمّ يقول: إنّ هذه الأشعار لا تدع مجالاً للشك أنّ أبا طالب كان يؤمن برسالة ابن أخيه.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٣٥، ص ١٦٦. (٢) «الغدير»، ج ٧، ص ٣٤٥.
(٣) الغدير، ج ٧، ص ٣٣٤ و ٣٥١.
(٤) هاتان القطعتان وردتا في «خزانة الأدب» و«تاريخ ابن كثير» و«شرح ابن أبي الحديد» و«فتح الباري» و«بلوغ الارب» و«تاريخ أبي الفداء» و«السيرة النبوية» وغيرها نقلاً عن «الغدير»، ج ٨. المصدر السابق، ص ٣٣٢.

٣ - ثمّة أحاديث منقولة عن رسول الله ﷺ تؤكّد شهادته بإيمان عمّه الوفي أبي طالب، من ذلك ما ينقله لنا صاحب كتاب «أبو طالب مؤمن قريش» فيقول: عندما توفي أبو طالب رثاه رسول الله ﷺ وهو على قبره، قائلاً: «وا أبتاه! وا أبا طالباه واحزناه عليك! كيف أسلو عليك يا من ربيتني صغيراً، واجبتني كبيراً، وكنت عندك بمنزلة العين من الحدقة والروح من الجسد»(١).

وكثيراً ما كان رسول الله ﷺ يقول: «ما نالت منّي قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»(٢).

٤ - من المتفق عليه أنّ رسول الله ﷺ قد أمر بقطع كل رابطة وصحبة له بالمشركين، وكان ذلك قبل وفاة أبي طالب بسنوات، وعليه فإنّ ما أظهره رسول الله ﷺ من الحبّ والتعلّق بأبي طالب يدل على أنّه كان يرى في أبي طالب تابعاً لمدرسة التوحيد، وإلاّ فكيف ينهى الآخرين عن مصاحبة المشركين، ويبقى هو على حبّه العميق لأبي طالب؟

٥ - في الأحاديث التي وصلتنا عن أهل البيت عليهم السلام أدلة وافرة على إيمان أبي طالب وإخلاصه، ولا يسع المجال هنا لذكرها، وهي أحاديث تستند إلى الاستدلال المنطقي والعقلي، كالحديث المنقول عن الإمام زين العابدين عليه السلام الذي قال - بعد أن سُئل عن إيمان أبي طالب وأجاب بالإيجاب -: «إنّ هنا قوماً يزعمون أنّه كافر... واعجباً كل العجب! أيطعنون على أبي طالب أو على رسول الله ﷺ وقد نهاه الله أن تقرّ مؤمنة مع كافر في غير آية من القرآن (أي في أكثر من آية) ولا يشك أحد أنّ فاطمة بنت أسد رضي الله تعالى عنها من المؤمنات السابقات، فإنّها لم تزل تحت أبي طالب حتى مات أبو طالب رضي الله عنه»(٣).

٦ - وإذا تركنا كل هذا جانباً، فإنّنا قد نشك في كل شيء إلّا في حقيقة كون أبي طالب كان على رأس حماة الإسلام ورسول الإسلام، وكانت حمايته تتعدى الحدود المألوفة بين أبناء العشيرة والعصبيات القبلية ولا يمكن تفسيرها بها.

---

(١) «شيخ الأباطح» نقلاً عن «أبو طالب مؤمن قريش».
(٢) الطبري، نقلاً عن «أبو طالب مؤمن قريش». الغدير، ج ٧، ص ٣٧٦.
(٣) كتاب «الحجة» و«الدرجات الرفيعة» نقلاً عن «الغدير» ج ٨، ص ٣٨٠. الغدير، ج ٧، ص ٣٨٩.

ومن الأمثلة الحيّة على ذلك حكاية (شعب أبي طالب) يجمع المؤرخون على أنّه عندما حاصرت قريش النّبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين محاصرة اقتصادية واجتماعية وسياسية شديدة وقطعت علائقها بهم، ظلّ أبو طالب الحامي والمدافع الوحيد عنهم مدّة ثلاث سنوات ترك فيها كل أعماله، وسار ببني هاشم إلى وادٍ بين جبال مكّة يعرف بشعب أبي طالب فعاشوا فيه، وقد بلغت تضحياته حدّاً أنّه - فضلاً عن بنائه الأبراج الخاصّة للوقوف بوجه أيّ هجوم قد تشنه قريش عليهم - كان في كلّ ليلة يوقظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من نومه ويأخذه إلى مضجع آخر يعدّه له ويجعل ابنه الحبيب إليه علياً عليه السلام في مكانه، فإذا ما قال له ابنه علي عليه السلام: يا أبة، إنّ هذا سيوردني موارد الهلكة، أجابه أبو طالب عليه السلام: ولدي عليك بالصبر، كلّ حي إلى ممات، لقد جعلتك فداء لابن عبد الله الحبيب، فيرد علي عليه السلام: يا أبة، ما قلت لك ذلك خوفاً من الموت في سبيل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، بل كنت أريدك أن تعلم مدى طاعتي لك واستعدادي للوقوف إلى جانب محمّد صلى الله عليه وآله وسلم [1].

إنّنا نرى أنّ من يترك التعصّب، ويقرأ - بغير تحيّز - ما كتبه التّاريخ بحروف من ذهب عن أبي طالب، سيرفع صوته مع صوت ابن أبي الحديد منشداً:

ولولا أبو طالب وابنه لما مثل الدين شخصاً وقاما
فذاك بمكّة آوى وحامى وهذا بيثرب جسّ الحماما[2]

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

التّفسير

يقظة عابرة عقيمة

في هاتين الآيتين إشارة إلى بعض مواقف عناد المشركين، وفيهما يتجسد مشهد من

(١) الغدير، ج ٧، ص ٣٥٧ - ٣٥٨ بتصرف. المصدر السابق، ص ٣٥٧ و ٣٦٣.
(٢) الغدير، ص ٨٦. المصدر السابق، ص ٣٣٠.

مشاهد نتائج أعمالهم لكي يدركوا المصير المشؤوم الذي ينتظرهم فيستيقظون، أو تكون حالهم - على الأقل - عبرة لغيرهم، فتقول الآية: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ . . .﴾[١] لتبيّن لك مصيرهم السيىء المؤلم.

إنّهم في تلك الحال على درجة من الهلع بحيث إنّهم يصرخون: ليتنا نرجع إلى الدنيا لنعوّض عن أعمالنا القبيحة، ونعمل للنجاة من هذا المصير المشؤوم، ونصدّق آيات ربّنا، ونقف إلى جانب المؤمنين: ﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

الآية التّالية تؤكّد أنّ ذلك ليس أكثر من تمنٍّ كاذب، وإنّما تمنّوه لأنّهم رأوا في ذلك العالم كلّ ما كانوا يخفونه - من عقائد ونيّات وأعمال سيئة - مكشوفاً أمامهم، فاستيقظوا يقظة مؤقتة عابرة: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾.

غير أنّ هذه اليقظة ليست قائمة ثابتة، بل إنّها قد حصلت لظروف طارئة، ولذلك فحتى لو افترضنا المستحيل وعادوا إلى هذه الدنيا مرّة أُخرى لفعلوا ما كانوا يفعلونه من قبل وما نهوا عنه: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ لذلك فهم ليسوا صادقين في تمنّياتهم ومزاعمهم ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

ملاحظات:

١ - يتبيّن من ظاهر ﴿بَدَا لَهُم﴾ أنّهم لم يكونوا يخفون كثيراً من الحقائق عن الناس فحسب، بل كانوا يخفونها حتى عن أنفسهم، فتبدو لهم جليّة يوم القيامة، وليس في هذا ما يدعو إلى العجب، فالإنسان كثيراً ما يخفي عن نفسه الحقائق ويغطّي على ضميره وفطرته لكي ينال شيئاً من الراحة الكاذبة.

إنّ قضية مخادعة النفس وإخفاء الحقائق عنها من القضايا التي تعالجها البحوث

---

(١) «لو» شرطية، وقد حذف الجواب لوضوحه.

(٢) ينبغي الانتباه إلى نقطة مهمّة في الآية: في القراءة المشهورة التي بين أيدينا «نردّ» مرفوعة و«ولانكذب» و«نكون» منصوبتان، مع أنّ الظاهر يدل على أنّهما معطوفتان على «نردّ» وخير تعليل لذلك هو القول بأنّ «نردّ» جزء من التمني، و«ولا نكذب» جواب التمني، و«الواو» هنا بمنزلة «الفاء» ومعلوم أنّ جواب التمني إذا وقع بعد الفاء كان منصوباً، إنّ مفسرين كالفخر الرازي والمرحوم الطبرسي وأبي الفتوح الرازي أوردوا تعليلات أُخرى، ولكن الذي قلناه أوضح الوجوه، وعليه فهذه الآية تكون شبيهة بالآية (٥٨) من سورة الزمر: ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

الخاصّة بنشاط الضمير، فقد نجد الكثيرين من الذين يتبعون أهواءهم يتنبّهون إلى أضرار ذلك عليهم، ولكنّهم لكي يواصلوا أعمالهم تلك بغير أن تنغصها عليهم ضمائرهم، يحاولون إخفاء هذا الوعي فيهم بشكل من الأشكال.

غير أنّ بعض المفسّرين - دون الالتفات إلى هذه النكتة - فهموا من (لهم) ما ينطبق على الأعمال التي أخفاها المشركون عن الناس (تأمل بدقّة).

٢ - قد يقال إنّ التمني ليس من الأُمور التي يصح فيها أن تكون صادقة أو كاذبة، فهي مثل «الإنشاء» الذي لا يحتمل الصدق والكذب، إلاّ أنّ هذا القول بعيد عن الصواب، وذلك لأنّ «الإنشاء» كثيراً ما يصاحبه «الإخبار» ممّا يحتمل الصدق والكذب، فقد يقول قائل أتمنى أن يعطيني الله مالاً وفيراً فأُعينك، هذا من باب التمني بالطبع، ولكن مفهومه هو أنّه إذا أعطاني الله مالاً وفيراً فإنّي سوف أُساعدك، وهذا مفهوم خبري يحتمل أن يكون صادقاً أو كاذباً، فإذا كنت تعرف بخل المتمني وضيق نظرته فأنت تعرف أنّه كاذب حتى إن أعطاه الله ما يشاء من المال (هذا الموضوع مشهور كثيراً في الجمل الإنشائية).

٣ - إنّ سبب ذكر الآية (أنّهم لو عادوا إلى الدنيا لعادوا إلى تكرار أعمالهم السابقة) هو أنّ كثيراً من الناس عندما يشاهدون نتائج أعمالهم بأعينهم، أي حينما يصلون إلى مرحلة الشهود، يستنكرون ما فعلوا ويندمون آنيّاً ويتمنون لو يُتاح لهم أن يجبروا ما كسروا، إلاّ أنّ هذه تمنيات عارضة تنشأ من مشاهدة نتائج الأعمال عياناً، وتعرض لكلّ إنسان يشهد بأُمّ عينه ما ينتظره من عذاب وعقاب، ولكن ما أن تغيب تلك المشاهد عن نظره حتى يزول تأثيرها عنه، ويعود إلى سابق عهده. شأنهم في ذلك شأن عبدة الأصنام الذين دهمهم طوفان عظيم في البحر ورأوا أنفسهم على عتبة الهلاك، فنسوا كل شيء سوى الله، ولكن ما أن هدأت العاصفة ووصلوا إلى ساحل الأمان حتى عاد كل شيء إلى ما كان عليه[١].

٤ - ينبغي الالتفات إلى أنّ هذه الحالات تخصّ جمعاً من عبدة الأصنام الذين مرّت الإشارة إليهم في الآيات السابقة لا كلهم، لذلك كان لابدّ لرسول الله ﷺ أن يواصل نصح الآخرين لإيقاظهم وهدايتهم.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٢.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

التّفسير

في تفسير الآية الأُولى احتمالان

الأوّل: أنّها استئناف لأقوال المشركين المعاندين المتصلّبين الذين يتمنون - عندما يشاهدون أهوال يوم القيامة - أن يعودوا إلى دار الدنيا ليتلافوا ما فاتهم، ولكن القرآن يقول إنّهم إذا رجعوا لا يتّجهون إلى جبران ما فاتهم، بل يستمرون على ما كانوا عليه، وأكثر من ذلك فإنّهم يعودون إلى إنكار يوم القيامة ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾(١).

الاحتمال الثّاني: أنّ الآية تشرع بكلام جديد يخصّ نفراً من المشركين ممّن كفروا بالمعاد كلّياً، فقد كان بين مشركي العرب فريق لا يؤمنون بالمعاد، وفريق آخر يؤمنون بنوع من المعاد.

الآية التّالية تشير إلى مصيرهم يوم القيامة، يوم يقفون بين يدي الله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾، فيكون جوابهم أنّهم يقسمون بأنّه الحقّ: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾.

عندئذ: ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ لا شك أنّ «الوقوف بين يدي الله» لا يعني أنّ لله مكاناً، بل يعني الوقوف في ميدان الحساب للجزاء، كما يقول بعض المفسّرين، أو أنّه من باب المجاز، مثل قول الإنسان عند أداء الصّلاة إنّه يقف بين يدي الله وفي حضرته.

---

(١) بحسب هذا الاحتمال ﴿قَالُوٓاْ﴾ معطوفة على «عادوا» وهذا ما يقول به صاحب تفسير المنار.

الآية التي بعدها، فيها إشارة إلى خسران الذين ينكرون المعاد، فتقول: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾، إنّ المقصود بلقاء الله هو - كما قلنا من قبل - اللقاء المعنوي والإيمان الشهودي (الشهود الباطني)، أو هو لقاء مشاهد يوم القيامة والحساب والجزاء.

ثمّ تبيّن الآية أنّ هذا الإنكار لن يدوم، بل سيستمر حتى قيام يوم القيامة، حين يرون أنفسهم فجأة أمام مشاهده الرهيبة، ويشهدون بأعينهم نتائج أعمالهم، عندئذ ترتفع أصواتهم بالندم على ما قصّروا في حقّ هذا اليوم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾.

و﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ هي يوم القيامة، و﴿بَغْتَةً﴾ تعني فجأة وعلى حين غرة، إذ تقوم القيامة دون أن يعلم بموعدها أحد سوى الله تعالى، وسبب إطلاق ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ على يوم القيامة إمّا لأنّ حساب الناس يجري سريعاً فيها، أو للإشارة إلى فجائية حدوث ذلك، حيث ينتقل الناس بسرعة خاطفة من عالم البرزخ إلى عالم القيامة.

و«التحسر» هو التأسف على شيء، غير أنّ العرب عند تأثّرهم الشديد يخاطبون «الحسرة» فيقولون: «يا حسرتنا»، فكأنّهم يجسّدونها أمامهم ويخاطبونها.

ثمّ يقول القرآن الكريم: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾.

«الأوزار» جمع «وزر» وهو الحمل الثقيل، وتعني الأوزار هنا الذنوب، ويمكن أن تتخذ هذه الآية دليلاً على تجسّد الأعمال، لأنّها تقول إنّهم يحملون ذنوبهم على ظهورهم، ويمكن أيضاً أن يكون الاستعمال مجازياً كناية عن ثقل حمل المسؤولية، إذ إنّ المسؤوليات تشبّه دائماً بالحمل الثقيل.

وفي آخر الآية يقول الله تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

في هذه الآية جرى الكلام على خسران الذين ينكرون المعاد، والدليل على هذا الخسران واضح، فالإيمان بالمعاد، فضلاً عن كونه يعد الإنسان لحياة سعيدة خالدة، ويحثّه على تحصيل الكمالات العلمية والعملية، فإنّ له تأثيراً عميقاً على وقاية الإنسان من التلوّث بالذنوب والآثام، وهذا ما سوف نتناوله - إن شاء الله - عند بحث الإيمان بالمعاد وأثره البنّاء في الفرد والمجتمع.

ثمّ لبيان نسبة الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ فهؤلاء الذين اكتفوا بهذه الحياة، ولا يطلبون غيرها، هم أشبه بالأطفال الذين يودون أن لو يقضوا العمر كلّه في اللعب واللهو غافلين عن كلّ شيء.

إنّ تشبيه الحياة الدنيا باللهو واللعب يستند إلى كون اللهو واللعب من الممارسات الفارغة السطحية التي لا ترتبط بأصل الحياة الحقيقية، سواء فاز اللاعب أم خسر، إذ كل شيء يعود إلى حالته الطبيعية بعد اللعب.

وكثيراً ما نلاحظ أنّ الأطفال يتحلقون ويشرعون باللعب، فهذا يكون «أميراً» وذاك يكون «وزيراً» وآخر «لصاً» ورابع يكون «قافلة»، ثمّ لا تمضي ساعة حتى ينتهي اللعب ولا يكون هناك «أمير» ولا «وزير» ولا «لص» ولا «قافلة»! أو كما يحدث في المسرحيات أو التمثيليات، فنشاهد مناظر للحرب أو الحبّ أو العداء تتجسد على المسرح، ثمّ بعد ساعة يتبدد كلّ شيء.

والدنيا أشبه بالتمثيلية التي يقوم فيها الناس بتمثيل أدوار الممثلين، وقد تجتذب هذه التمثيلية الصبيانية حتى عقلاءنا ومفكّرينا، ولكن سرعان ما تسدل الستارة وينتهي التمثيل.

«لعب» على وزن «لزج» من «اللعاب» على وزن «غبار» وهو الماء الذي يتجمّع في الفم ويسيل منه، فإطلاق لفظة «اللعب» على اللهو والتسلية جاء للتشابه بينه وبين اللعاب الذي يسيل دون هدف.

ثمّ تقارن الآية حياة العالم الآخر بهذه الدنيا، فتقول: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

فتلك حياة خالدة لا تفنى في عالم أوسع وأرفع، عالم يتعامل مع الحقيقة لا المجاز ومع الواقع لا الخيال، عالم لا يشوب نعمه الألم والعذاب، عالم كلّه نعمة خالصة لا ألم فيه ولا عذاب.

ولكن إدراك هذه الحقائق وتمييزها عن مغريات الدنيا الخدّاعة غير ممكن لغير المفكّرين الذين يعقلون، لذلك اتّجهت الآية إليهم بالخطاب في النهاية.

في حديث رواه هشام بن الحكم عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال: «يا هشام إنّ الله وعظ أهل العقل ورغبهم في الآخرة فقال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾»(١).

غنيٌّ عن القول أنّ هدف هذه الآيات هو محاربة الانشداد بمظاهر عالم المادة ونسيان

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج١، ص٧١١؛ وأصول الكافي، ج ١، ص ١٤.

الغاية النهائية، أمّا الذين جعلوا الدنيا وسيلة للسعادة فهم يبحثون - في الحقيقة - عن الآخرة، لا الدنيا.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾

التّفسير

المصلحون يواجهون الصعاب دائماً

لا شكَّ أنّ رسول الله ﷺ في نقاشاته المنطقية ومحاوراته الفكرية مع المشركين المعاندين المتصلّبين، كان يواجه منهم المعاندة واللجاجة والتصلّب والتعنّت، بل كانوا يرشقونه بتهمهم، ولذلك كلّه كان النّبي ﷺ يشعر بالغم والحزن، والله تعالى في مواضع كثيرة من القرآن يواسي النّبي ﷺ ويصبّره على ذلك، لكي يواصل مسيرته بقلب أقوى وجأش أربط، كما جاء في هذه الآية: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾، فاعلم أنّهم لا ينكرونك أنت، بل هم ينكرون آيات الله، ولا يكذّبونك بل يكذّبون الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

ومثل هذا القول شائع بيننا، فقد يرى «رئيس» أنّ «مبعوثه» إلى بعض الناس عاد غاضباً، فيقول له: «هوّن عليك، فإنّ ما قالوه لك إنّما كان موجّهاً إليّ، وإذا حصلت مشكلة فأنا المقصود بها، لا أنت» وبهذا يسعى إلى مواساة صاحبه والتهوين عليه.

ثمّة مفسّرون يرون للآية تفسيراً آخر، لكن ظاهر الآية هو هذا الذي قلناه، ولكن لا بأس من معرفة هذا الاحتمال القائل بأنّ معنى الآية هو: إنّ الذين يعارضونك هم في الحقيقة مؤمنون بصدقك ولا يشكّون في صحة دعوتك، ولكنّ الخوف من تعرّض مصالحهم للخطر هو الذي يمنعهم من الرضوخ للحق، أو أنّ الذي يحول بينهم وبين التسليم هو التعصّب والعناد.

يتبيّن من كتب السيرة أنّ الجاهليين - بما فيهم أشدّ المعارضين للدّعوة - كانوا

يعتقدون في أعماقهم بصدق الدعوة، ومن ذلك ما روي أنّ رسول الله ﷺ لقي أبا جهل فصافحه أبو جهل، فقيل له في ذلك، فقال: والله إنّي لأعلم أنّه صادق، ولكنّا متى كنّا تبعاً لعبد مناف! (أي أنّ قبول دعوته سيضطرنا إلى اتباع قبيلته)(١).

وورد في كتب السيرة أنّ أبا جهل جاء في ليلة متخفّياً يستمع قراءة النّبي ﷺ، كما جاء في الوقت نفسه أبو سفيان والأخنس بن شريق، ولا يشعر أحد منهم بالآخر فاستمعوا إلى الصباح، فلمّا فضحهم الصبح تفرّقوا، فجمعتهم الطريق، فقال كلّ منهم للآخر ما جاء به، ثمّ تعاهدوا أن لا يعودوا، لما يخافون من علم شبّان قريش بهم لئلا يفتتنوا بمجيئهم، فلمّا كانت اللّيلة الثّانية جاء كلّ منهم ظانّاً أنّ صاحبيه لا يجيئان لما سبق من العهود، فلمّا أصبحوا، جمعتهم الطريق مرّة ثانية فتلاوموا، ثمّ تعاهدوا أن لا يعودوا، فلمّا كانت اللّلية الثالثة جاؤوا أيضاً، فلمّا أصبحوا تعاهدوا أن لا يعودوا لمثلها، ثمّ تفرّقوا فلمّا أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثمّ خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني - يا أبا حنظلة - عن رأيك فيما سمعت من محمّد؟

قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء، ما عرفت معناها ولا ما يراد بها.

قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به.

ثمّ خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه في بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمّد؟

قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد المناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا (أي أعطوا الناس ما يركبونه) فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنّا كفرسي رهان، قالوا: منّا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدّقه، فقام عنه الأخنس وتركه(٢).

وروي أنّه التقى الأخنس بن شريق وأبو جهل بن هشام فقال له: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمّد أصادق هو أم كاذب؟، فإنّه ليس ها هنا أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا، فقال أبو جهل: ويحك والله إنّ محمّداً لصادق وما كذب قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والندوة والنّبوة فماذا يكون لسائر قريش؟!(٣).

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٢. (٢) تفسير الميزان، ج ١٣، ص ١٢٥.

(٣) الرّوايات المذكورة مستفادة من تفسير المنار ومجمع البيان في ذيل الآية المذكورة. تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٢.

يتبيّن من هذه الرّوايات وأمثالها أنّ كثيراً من أعداء رسول الله ﷺ الألدّاء كانوا في باطنهم يعترفون بصدق ما يقول، إلاّ أنّ التنافس القبلي وما إلى ذلك، لم يكن يسمح لهم بإعلان ما يعتقدون، أو لم تكن لديهم الشجاعة على ذلك.

إنّنا نعلم أنّ مثل هذا الاعتقاد الباطني ما لم يصاحبه التسليم، لن يكون له أيّ أثر، ولا يُدخل الإنسان في زمرة المؤمنين الصادقين.

الآية الثّانية تستأنف مواساة الرّسول ﷺ وتبيّن له حال من سبقه من الأنبياء، وتؤكّد له أنّ هذا ليس مقتصراً عليه وحده، فالأنبياء قبله نالهم من قومهم مثل ذلك أيضاً: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾.

ولكنّهم صبروا وتحمّلوا حتى انتصروا بعون الله: ﴿فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ وهذه سُنَّة إلهيّة لا قدرة لأحد على تغييرها: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

وعليه، فلا تجزع ولا تبتئس إذا ما كذّبك قومك وآذوك، بل اصبر على معاندة الأعداء وتحمّل أذاهم، واعلم أنّ الإمدادات والألطاف الإلهيّة ستنزل بساحتك بموجب هذه السنّة، فتنتصر في النهاية عليهم جميعاً، وإنّ ما وصلك من أخبار الأنبياء السابقين عن مواجهتهم الشدائد والمصاعب وعن ثباتهم وصبرهم وانتصارهم في النهاية، لهو شهادة بيّنة لك: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

تشير هذه الآية - في الواقع - إلى مبدأ عام وهو أنّ قادة المجتمع الصالحين الذين يسعون لهداية الشعوب عن طريق الدعوة إلى مبادىء وتعاليم بنّاءة، وبمحاربة الأفكار المنحطّة والخرافات السائدة والقوانين المغلوطة في المجتمع، يواجهون معارضة شديدة من جانب فريق الانتهازيين الذين يرون في انتشار تلك التعاليم والمبادىء البنّاءة خطراً يهدد مصالحهم، فلا يتركون وسيلة إلاّ واستخدموها لترويج أهدافهم المشؤومة، ولا يتورّعون حتى عن التوسل بالتكذيب والاتهام، والحصار الاجتماعي، والإيذاء والتعذيب، والسلب والنهب، والقتل، وبكلّ ما يخطر لهم من سلاح لمحاربة أُولئك المصلحين.

إلّا أنّ الحقيقة، بما فيها من قوّة الجاذبية والعمق، وبموجب السنّة الإلهيّة، تعمل عملها وتزيل من الطريق كل تلك الأشواك، إلّا أنّ شرط هذا الانتصار هو الصبر والمقاومة والثبات.

تعبّر هذه الآية عن السنن بعبارة «كلمات الله»، لأنّ الكلم والكلام في الأصل، التأثير

المدرك بإحدى الحاستين، السمع أو البصر، فالكلام مدرك بحاسة السمع[١]، والكلم بحاسة البصر، وكلمته: جرحته جراحة بان تأثيرها، ثمّ توسعوا في إطلاق «الكلمة» على الألفاظ والمعاني وحتى على العقيدة والسلوك والسنّة والتعاليم.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾

التّفسير

الأموات المتحركون

هاتان الآيتان استمرار لمواساة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم التي بدأت في الآيات السابقة لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يشعر بالحزن العميق لضلال المشركين وعنادهم، وكان يود لو أنّه استطاع أن يهديهم جميعاً إلى طريق الإيمان بأيّة وسيلة كانت.

فيقول الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾[٢]. أي إذا كان إعراض هؤلاء المشركين يصعب ويثقل عليك، فشق أعماق الأرض أو ضع سلّماً يوصلك إلى السماء للبحث عن آية - إن استطعت - ولكن اعلم أنّهم مع ذلك لن يؤمنوا بك.

«النفق» في الأصل «النقب» وهو الطريق النافذ، والسرب في الأرض النافذ فيها، ومنه النفاق، وهو الدخول في الشرع من باب والخروج عنه من باب، أي أنّ للمنافق سلوكاً ظاهراً وآخر خفيّاً.

في هذه الآية يخبر الله نبيّه بأن ليس في تعليماتك ودعوتك وسعيك أي نقص، بل

---

(١) المفردات للراغب، مادة (كلم).

(٢) جملة ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ﴾ جملة شرطية جوابها محذوف، تقديره «إن استطعت... فافعل ولكنّهم لا يؤمنون».

النقص فيهم لأنّهم هم الذين رفضوا قبول الحقّ، لذلك فإنّ أيّ مسعى من جانبك لن يكون له أثر فلا تقلق.

ولكن لكي لا يظن أحد أنّ الله غير قادر على حملهم على التسليم يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي لو أراد حملهم على الاستسلام والرضوخ لدعوتك والإيمان بالله لكان على ذلك قديراً.

غير أنّ الإيمان الإجباري لا طائل تحته، إنّ خلق البشر للتكامل مبني على أساس حرية الاختيار والإرادة، ففي حالة حرية الاختيار وحدها يمكن تمييز «المؤمن» من «الكافر»، و«الصالح» من «غير الصالح» و«المخلص» من «الخائن» و«الصادق» من «الكاذب»، أمّا في الإيمان الإجباري فلن يكون ثمّة اختلاف بين الطيب والخبيث، وعلى صعيد الإجبار تفقد كلّ هذه المفاهيم معانيها تماماً.

ثمّ يقول سبحانه لنبيّه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، أي لقد قلت هذا لئلا تكون من الجاهلين، أي لا تفقد صبرك ولا تجزع، ولا يأخذك القلق بسبب كفرهم وشركهم.

وما من شكٍّ أنّ النّبي ﷺ كان يعلم هذه الحقائق ولكن الله ذكرها له من باب التطمين وتهدئة الروع، تماماً كالذي نقوله نحن لمن فقد ابنه: لا تحزن فالدنيا فانية، سنموت جميعاً، وأنت ما تزال شاباً ولسوف ترزق بابن آخر، فلا تجزع كثيراً.

فلا ريب أنّ فناء دار الدنيا، أو كون الفقيد شاباً ليسا مجهولين عنده، ولكنّها أُمور تقال للتذكير.

على الرّغم من أنّ هذه الآية من الآيات التي تنفي الإجبار والإكراه، فإنّ بعض المفسّرين كالرّازي، يعتبرها من الأدلة على «الجبر» ويستند إلى ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ ويقول: يتّضح من هذه الآية أنّ الله لا يريد للكفار أن يؤمنوا! ولكنّه غفل عن أنّ الإرادة والمشيئة في هذه الآية هما الإجباريتان، أي أنّ الله لا يريد من الناس أن يؤمنوا بالإجبار والإكراه، بل يريدهم أن يؤمنوا باختيارهم وإرادتهم، وعليه فإنّ هذه الآية دليل قاطع يدحض مقولة «الجبريين».

في الآية التي تليها استكمال لما سبق ومزيد من المواساة للرسول الكريم ﷺ، فتقول الآية: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾.

أمّا الذين هم في الواقع أشبه بالأموات فإنّهم لا يؤمنون حتى يبعثهم الله يوم القيامة:

﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[1] . يومئذ، وبعد أن يروا مشاهد يوم القيامة يؤمنون، إلاّ أنّ إيمانهم ذاك لا ينفعهم شيئاً، لأنّ رؤية مناظر يوم القيامة العظيمة تحمل كل مشاهد على الإيمان فيكون نوعاً من الإيمان الاضطراري.

ومن نافلة القول أنّ «الموتى» في هذه الآية لا تشير إلى الموت الجسماني في الأفراد، بل الموت المعنوي، فالحياة والموت نوعان: حياة وموت عضويان، وحياة وموت معنويان، كذلك أيضاً السمع والبصر، عضويان ومعنويان فكثير ما نصف المبصرين السامعين الأحياء الذين لا يدركون الحقائق بأنّهم عُمي أو صُم أو حتى أموات، إذ إنّ ردّ الفعل الذي يصدر عادة من الإنسان الحي البصير السامع إزاء الحقائق لا يصدر من هؤلاء.

أمثال هذه التعبيرات كثيرة في القرآن، ولها عذوبة، وجاذبية خاصّة، بل إنّ القرآن لا يعير أهمّية كبيرة للحياة المادية البايلوجية التي تتمثل في «الأكل والنوم والتنفس» وإنّما يعني أشدّ العناية بالحياة الإنسانية المعنوية التي تتمثل في تحمّل التكاليف والمسؤولية والإحساس واليقظة والوعي.

لابدّ من القول أيضاً: إنّ المعنوي من العمى والصمم والموت ينشأ من ذات الأفراد، لأنّهم لاستمرارهم في الإثم وإصرارهم عليه وعنادهم، يصلون إلى تلك الحالة.

إنّ من يغمض عينيه طويلاً يصل إلى حالة يفقد فيها تدريجياً قوّة البصر، وقد يبلغ به الأمر إلى العمى التام، كذلك الذي يغمض عين روحه عن رؤية الحقائق طويلاً يفقد بصيرته المعنوية شيئاً فشيئاً.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

التّفسير

تشير هذه الآية إلى واحد من الأعذار التي يتذرّع بها المشركون، فقد جاء في بعض الرّوايات أنّه عندما عجز بعض رؤساء قريش عن معارضة القرآن ومقابلته، قالوا لرسول

(١) من حيث الإعراب ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾ مبتدأ، و﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ خبر، ومعنى ذلك هو أنّ هؤلاء لا يطرأ على حالهم أيّ تغيير حتى يبعثهم الله يوم القيامة فيرون الحقائق.

الله ﷺ : كل هذا الذي تقوله لا فائدة فيه، إذا كنت صادقاً فيما تقول، فأتنا بمعجزات كعصا موسى وناقة صالح[١]، يقول القرآن بهذا الشأن: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

من الواضح أنّ أُولئك لم يكونوا جادّين في بحثهم عن الحقيقة، لأنّ الرّسول ﷺ كان قد جاء لهم من المعاجز بما يكفي، وحتى لو لم يأت بمعجز سوى القرآن الذي تحدّاهم في عدّة آيات منه ودعاهم بصراحة إلى أن يأتوا بمثله فعجزوا عن ذلك، لكان فيه الكفاية لإثبات نبوّته، غير أنّ هؤلاء المزيفين كانوا يبحثون عن عذر يتيح لهم إهانة القرآن من جهة، والتملص من قبول دعوة الرّسول ﷺ من جهة أُخرى، لذلك كانوا لا يفتأون يطالبونه بالمعجزات، ولو أنّ رسول الله ﷺ استجاب لمطاليبهم لأنكروا كلّ ذلك بقولهم: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[٢]، كما جاء في آيات أُخرى من القرآن، لذلك يأمر الله رسوله أن: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ إلاّ أنّ في ذلك أمراً أنتم عنه غافلون، وهو أنّه إذا حقق الله مطاليبكم التي يدفعكم إليها عنادكم، ثمّ بقيتم على عنادكم ولم تؤمنوا بعد مشاهدتكم للمعاجز، فسوف يقع عقاب الله عليكم جميعاً، وتفنون عن آخركم، لأنّ ذلك سيكون منتهى الاستهتار بمقام الأُلوهيّة المقدس وبمبعوثه وآياته ومعجزاته، ولهذا تنتهي الآية بالقول: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

إشكال:

يتبيّن من تفسير «مجمع البيان» أنّ بعض مناوئي الإسلام قد اتّخذوا من هذه الآية - منذ قرون عديدة - دليلاً يستندون إليه في الزعم بأنّه لم تكن لرسول الله ﷺ أيّة معجزة، لأنّه كلّما طلبوا منه معجزة كان يكتفي بالقول: إنّ الله قادر على ذلك، ولكن أكثركم لا تعلمون[٣]، وهذا ما نهجه بعض الكتّاب المتأخرين فأحيوا هذه الفكرة البالية مرّة أُخرى.

الجواب:

أوّلاً: يبدو أنّ هؤلاء لم يمعنوا النظر في الآيات السابقة والتّالية لهذه الآية، وإلّا لأدركوا أنّ الكلام يدور مع المعاندين الذين لا يستسلمون للحق مطلقاً، وأنّ موقف هؤلاء هو الذي منع رسول الله ﷺ من إجابة طلبهم، فهل نجد في القرآن أنّ طلاب

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٦.
(٢) سورة النمل، الآية: ١٣؛ والأحقاف، ٧؛ والصف، ٦.
(٣) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٧.

الحقيقة سألوا الرّسول ﷺ أن يحقق لهم معجزة فامتنع؟ الآية (١١١) من هذه السورة نفسها تتحدّث عن أمثال هؤلاء فتقول: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾.

ثانياً: تفيد الرّوايات أنّ هذا الطلب تقدم به بعض رؤساء قريش، وكان هدفهم من ذلك إهانة القرآن والإعراض عنه، فمن الطبيعي أن لا يستجيب رسول الله ﷺ لطلب يكون دافعه بهذا الشكل.

ثالثاً: إنّ أصحاب هذا الإشكال قد أغفلوا سائر آيات القرآن الأُخرى التي تصرّح بأنّ القرآن نفسه معجزة خالدة، وكثيراً ما دعت المخالفين إلى معارضته، وأثبتت ضعفهم وعجزهم عن ذلك، كما أنّهم نسوا الآية الأُولى من سورة الإسراء التي تقول بكل وضوح: إنّ الله أسرى بنبيّه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في ليلة واحدة.

رابعاً: ليس من المعقول أن يكون القرآن مليئاً بذكر معاجز الأنبياء وخوارق عاداتهم ويدّعي النّبي ﷺ أنّه خاتم الأنبياء وأرفعهم منزلة، وأنّ دينه أكمل من أديانهم ثمّ ينكص عن إظهار معجزة، استجابة لطلب الباحثين عن الحقّ والحقيقة، أفلا يكون هذا نقطة غامضة في دعوته في نظر المحايدين وطلاب الحقيقة؟

فلو لم تكن له أية معجزة، لكان عليه أن يسكت عن ذكر معاجز الأنبياء الآخرين لكي يتمكن من تمرير خطّته ويغلق طريق الاعتراض والانتقاد عليه، ولكنّه لا يفتأ يتحدّث عن إعجاز الآخرين ويعدد خوارق العادات عند موسى بن عمران وعيسى ابن مريم وإبراهيم وصالح ونوح عليهم السلام، وهذا دليل بيّن على ثقته التامّة بمعاجزه، إنّ كتب التّاريخ الإسلامي والرّوايات المعتبرة ونهج البلاغة تشير بما يشبه التواتر إلى خوارق عادات رسول الله ﷺ.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

التّفسير

لاتساع البحث حول هذه الآية، سنبدأ بشرح ألفاظها، ثمّ نفسّرها بصورة إجمالية، ثمّ نتناول سائر جوانبها بالبحث.

«الدّابة» من «دبّ» والدبيب المشي الخفيف، ويستعمل ذلك في الحيوان والحشرات أكثر[١]، وقد ورد في الحديث «لا يدخل الجنّة ديبوب»[٢] وهو النّمام الذي يمشي بين الناس بالنميمة.

«الطائر» كل ذي جناح يسبح في الهواء، وقد يوصف بها بعض الأُمور المعنوية التي تتقدّم بسرعة واندفاع، والآية تقصد الطائر الذي يطير بجناحيه.

«أُمم» جمع أُمّة، وهي كل جماعة يجمعهم أمر ما، كالدين الواحد أو الزمان الواحد أو المكان الواحد.

«يحشرون» من «حشر» بمعنى «الجمعّ»، والمعنى الوارد في القرآن يقصد به يوم القيامة، ولا سيما أنّه يقول: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

هذه الآية تستأنف ما جاء في الآيات السابقة من الكلام مع المشركين وتحذيرهم من مصيرهم يوم القيامة، فتتحدّث عن «الحشر» وبعث عام يشمل جميع الكائنات الحيّة والحيوانات، فتقول أولاً: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾.

يتّضح من هذا أنّ فصائل الحيوان والطيور أُمم مثل البشر، غير أنّ للمفسّرين أقوالاً مختلفة بشأن وجه الشبه في هذا التمثيل.

بعض يقول: إنّ التشابه يختص بأسرار خلقتها العجيبة التي تدل على عظمة الخالق سبحانه.

وبعض آخر يرى التشابه في حاجاتها الحياتية المختلفة وفي طرق سدّ تلك الحاجات وإشباعها.

ومنهم من يعتقد أنّ التشابه كامن في تشابه الإدراك والفهم والمشاعر، أي أنّ للحيوان والطير - أيضاً - إدراكه ومشاعره في عالمه الخاص، ويعرف الله ويسبّح له ويقدّسه بحسب طاقته، وإن تكن قوّة إدراكه أدنى ممّا في الإنسان، ثمّ إنّ ذيل هذه الآية - كما سيأتي بيانه - يؤيّد هذا الرأي الأخير.

ثمّ تقول الآية: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾.

لعلّ المقصود بالكتاب هو القرآن الذي يضم كلّ شيء (ممّا يتعلّق بتربية الإنسان وهدايته وتكامله) يبيّنه مرّة بياناً عاماً، كالحثّ على طلب العلم مطلقاً، ومرّة بياناً تفصيلياً كالكثير من الأحكام الإسلامية والقضايا الأخلاقية.

(١-٢) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٧.

ثمّة احتمال آخر يقول: إنّ المقصود بالكتاب هو «عالم الوجود» إذ إنّ عالم الخليقة مثل الكتاب الضخم، يضمّ كلّ شيء ولا ينسى شيئاً.

ليس ثمّة ما يمنع من أن تشمل الآية كلا التّفسيرين، فالقرآن لم يترك شيئاً تربوياً إلّا وذكره بين دفتيه، كما أنّ عالم الخليقة يخلو من كل نقص وعوز.

وتختم الآية بالقول: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

يظهر أنّ ضمير (هم) يعود إلى الدواب والطير على اختلاف أنواعها وأصنافها، أي إنّ لها - أيضاً - بعثاً ونشوراً، وثواباً وعقاباً، وهذا ما يقول به معظم المفسّرين، إلاّ أنّ بعض المفسّرين ينكرون هذا، ويفسّرون هذه الآية والآيات المشابهة تفسيراً آخر، كقولهم: إنّ معنى «الحشر إلى الله» هو الموت والرجوع إلى نهاية الحياة[1].

ظاهر الآية يشير - كما قلنا - إلى البعث والحشر يوم القيامة.

من هنا تنذر الآية المشركين وتقول لهم: إنّ الله الذي خلق جميع الحيوانات ووفّر لها ما تحتاجه، ورعى كل أفعالها، وجعل لها حشراً ونشوراً، قد أوجد لكم دون شك بعثاً وقيامة، وليس الأمر كما تقول تلك الفئة من المشركين من أنّه ليس ثمّة شيء سوى الحياة الدنيا والممات.

بحوث

١ - هل هناك بعث للحيوانات؟

ما من شك أنّ الشّرط الأوّل للمحاسبة والجزاء هو «العقل والإدراك» ويستتبعهما «التكليف والمسؤولية».

يقول أصحاب هذا الرأي: إنّ لديهم ما يثبت أنّ للحيوانات إدراكاً وفهماً بمقدار ما تطيق، ومن ذلك أنّ حياة كثير من الحيوانات تجري وفق نظام دقيق ومثير للعجب، ويدلّ على ارتفاع مستوى إدراكها وفهمها، فمن ذا الذي لم يسمع بالنمل والنحل وتمدّنها العجيب ونظامها المحيّر في بناء بيوتها وخلاياها، ولم يستحسن فهمها وإدراكها؟ فعلى الرغم من أنّ بعضهم يعزو ذلك كلّه إلى نوع من الإلهام الغريزي، فليس ثمّة دليل على أنّ هذه الأعمال تجري بصورة غريزية لا عقلية.

---

(١) نقل هذا الاحتمال صاحب المنار عن ابن عباس.

ما الدليل على أنّ هذه الأعمال - حسبما يدل ظاهرها - ليست ناشئة عن تعقّل وإدراك؟ كثيراً ما يحدث أنّ الحيوان يبتكر - استجابة لظرف من الظروف - شيئاً لم يسبق له أن مرّ به وجرّبه، فالشاة التي لم يسبق لها أن رأت ذئباً في حياتها تفزع منه أوّل ما تراه وتدرك خطره عليها، وتتوسل بكل حيلة لدرء خطره عنها.

إنّ العلاقة التي تتكوّن بين الحيوان وصاحبه تدريجياً دليل آخر على هذا الأمر، فكثير من الكلاب المفترسة الخطرة تعامل أصحابها - بل وحتى أطفالهم - كما يعاملهم الخادم العطوف.

ويحكى الكثير عن وفاء الحيوانات وعن تقديمها الكثير من الخدمات للإنسان ولا شك أنّ هذه أُمور ليس من السهل اعتبارها ناشئة بدافع الغريزة، إذ إنّ الغريزة تنشأ عنها أعمال رتيبة من طراز واحد باستمرار، أمّا الأعمال التي تقع في ظروف خاصّة كردود فعل لحوادث طارئة غير متوقعة، فهذه تكون إلى التعقل والإدراك أقرب منها إلى الغريزة.

نشاهد اليوم أنّ حيوانات مختلفة يجري تدريبها لأغراض متنوعة، فالكلاب البوليسية تدرّب للقبض على المجرمين، والحمام الزاجل لنقل الرسائل، وحيوانات أُخرى ترسل لابتياع بعض الحوائج من السوق، وحيوانات أُخرى للصيد، وهي كلّها تؤدّي مهماتها بكلّ دقة وإتقان (حتى أنّهم افتتحوا مؤخّراً مدارس خاصّة لتعليم مختلف الحيوانات)!

فضلاً عن ذلك كلّه، فإنّ هناك بعض الآيات التي تدل - بوضوح - على أنّ للحيوانات فهماً وإدراكاً، من ذلك حكاية هروب النمل من أمام جيش سليمان، وحكاية ذهاب الهدهد إلى منطقة سبأ باليمن ورجوعه بأخبار مثيرة لسليمان.

ثمّة أحاديث إسلامية كثيرة حول بعث الحيوانات، من ذلك ما روي عن أبي ذر قال: بينا أنا عند رسول الله ﷺ إذ انتطحت عنزان، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون فيما انتطحتا؟» فقالوا: لا ندري، قال: «ولكن الله يدري وسيقضي بينهما»[1].

وفي رواية بطرق أهل السُّنّة عن رسول الله ﷺ في تفسير هذه الآية أنّه قال: «إنّه يحشر هذه الأُمم يوم القيامة ويقتص من بعضها لبعض حتى يقتص للجماء من القرناء»[2].

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤ ص ٥٠؛ وتفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧١٥ في تفسير الآية المذكورة.
(٢) والجماء عكس القرناء: الحيوان الفاقد للقرن؛ وتفسير المنار، ذيل الآية مورد البحث.

وفي الآية ٥ من سورة التكوير يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ وهي دليل آخر على ذلك.

٢ - الحشر والتكليف

تُطرح هنا مسألة يتوقف فهم الآية عليها، وهي هل أنّ مقولة تكليف الحيوانات معقولة، مع أنّ من شروط التكليف العقل، ولهذا لا يكون الطفل والمجنون مكلّفين؟ فهل للحيوانات ذلك العقل الذي يؤهّلها للتكليف؟ وهل يمكن أن نعتبر الحيوان أكثر عقلاً وإدراكاً من الصبي غير البالغ ومن المجنون؟ فإذا لم يكن له مثل هذا العقل والإدراك، فكيف يجوز أن يكلّف، وبأيّ تكليف؟

للجواب على هذا السؤال نقول: إنّ للتكليف مراحل ودرجات، وكل مرحلة تناسب درجة معيّنة من العقل والإدراك، وإنّ التكاليف الكثيرة المفروضة في القوانين الإسلامية على الإنسان تتطلّب مستوى رفيعاً من العقل والإدراك لإنجازها، ولا يمكن أن نفرض مثل تلك التكاليف على الحيوانات طبعاً، لأنّ الشرط المطلوب لإنجازها غير متوفر في الحيوانات، إلاّ أنّ مرحلة من التكاليف البسيطة التي يكفي لها ما يناسبها من الفهم والإدراك يمكن تصورها وقبولها في الحيوان ولا يمكن إنكارها، بل من الصعب أن نرفض كلّ تكليف بشأن الأطفال والمجانين القادرين على فهم بعض المسائل، فالصبي الذي لم يبلغ سن الرشد - كأن يكون عمره ١٤ سنة مثلاً - لو ارتكب جريمة قتل، وهو عالم بكلّ أضرار هذا العمل، فلا يمكن اعتباره بريئاً، والقوانين الجزائية في العالم تضع عقوبات على بعض جرائم الأطفال غير البالغين، وإن كانت العقوبات أخف طبعاً.

وعليه، فإنّ البلوغ واكتمال العقل من شروط التكليف في المراحل العليا المتكاملة، أمّا في المراحل الأدنى، أي في الذنوب التي لا يخفى قبحها حتى على من هم أدنى مرتبة، فإنّ البلوغ والتكامل العقلي ليسا شرطاً لازماً.

فإذا أخذنا اختلاف مراحل التكليف واختلاف مراتب العقل بنظر الاعتبار، يمكن حلّ قضية الحيوانات أيضاً بهذا الشأن.

٣ - هل تدل هذه الآية على التناسخ؟

من العجيب أنّ بعض مؤيدي فكرة «التناسخ» الخرافية يتخذون من هذه الآية دليلاً على صحة فكرتهم، ويقولون: يفهم من الآية أنّ الحيوانات أُمم مثلكم، مع أنّنا نعلم

أنّها ذاتياً ليست مثلنا، فيمكن إذن القول بأنّ أرواح البشر التي تفارق أبدانها تحلّ في أبدان الحيوانات، وبهذا الشكل تنال الأرواح المذنبة العقاب.

ولكن على الرغم من أنّ فكرة التناسخ تناقض «قانون التكامل» ولا تتفق مع منطق العقل، وتستوجب إنكار «المعاد» (كما سبق شرحه في موضعه)، فإنّ هذه الآية لا تدل على التناسخ مطلقاً، إذ إنّ المجتمعات الحيوانية - كما قلنا - تشبه المجتمعات البشرية، وهو شبه بالفعل لا بالقوّة، لأنّ للحيوانات نصيبها من الفهم والإدراك، ونصيبها من المسؤولية أيضاً، ومن ثمّ نصيبها من البعث والحساب، فهي تشبه الإنسان في هذه الحالات.

ينبغي أن نعرف أنّ التكاليف والمسؤوليات الملقاة على الحيوانات في مرحلة خاصّة لا تعني أنّ لها إماماً وقائداً وشريعة وديناً كما ذهب اليه بعض أصحاب التصوّف، فهي لا يقودها سوى إدراكها الباطني، أي أنّها تدرك بعض الأُمور، فتكون مسؤولة عنها بقدر إدراكها لها.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾

التّفسير

الصّم والبُكم

مرّة أُخرى يعود القرآن ليتطرّق إلى المنكرين المعاندين، فيقول: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ فهم لا يملكون آذاناً صاغية لكي يستمعوا إلى الحقائق، ولا ألسناً ناطقةً بالحقّ توصل إلى الآخرين ما يدركه الإنسان من الحقائق، ولمّا كانت ظلمات الأنانية وعبادة الذات والمعاندة والجهل تحيط بهم من كل جانب، فهم لا يستطيعون رؤية وجه الحقيقة، ولذلك فهم محرومون من النعم الثلاث التي تربط الإنسان بالعالم الخارجي (أي السمع والبصر والنطق).

يرى بعض المفسّرين أنّ المقصود بالصمّ هم المقلِّدون الذين يتبعون قادتهم الضالين دون اعتراض، ويصمون آذانهم عن سماع دعوات الهداة الإلهيين، وإنّ المقصود بالبُكم هم أُولئك القادة الضالون الذين يدركون الحقائق جيّداً، ولكنّهم حفاظاً على مصالحهم

ومراكزهم الدنيوية، يكمون أفواههم، ولا ينطقون بالحقّ، فكلا الفريقين غريقان في ظلمات الجهل وعبادة الذات(١).

وبعد ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

سبق أن قلنا إنّ نسبة الهداية والضلالة إلى مشيئة الله وإرادته نسبة تفسّرها آيات أُخرى في القرآن يقول سبحانه: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾(٢) ويقول: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾(٣) وفي موضع آخر يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(٤) يتّضح من هذه الآيات وغيرها من الآيات القرآنية أنّ الهداية والضلالة اللتين تنسبان في هذه الحالات إلى مشيئة الله إنّما هما في الحقيقة ثواب الله وعقابه لعباده على أفعالهم الحسنة أو السيئة.

وبعبارة أُخرى: قد يرتكب الإنسان أحياناً إثماً كبيراً يؤدّي به إلى أن يحيط بروحه ظلام مخيف، فتفقد عينه القدرة على رؤية الحقّ، وتفقد أذنه القدرة على سماع صوت الحقّ، ويفقد لسانه القدرة على قول الحقّ.

وقد يكون الأمر على عكس ذلك، أي قد يعمل الإنسان أعمالاً صالحة كثيرة بحيث إنّ عالماً من النّور والضوء يشع في روحه، فيتسع بصره وبصيرته، وتزداد أفكاره إشعاعاً، ويكون لسانه ابلغ في إعلان الحقّ، ذلكم هو مفهوم الهداية والضلالة اللتين تنسبان إلى إرادة الله ومشيئته.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾

التّفسير

التّوحيد الفطري

يعود الكلام مرّة أُخرى إلى المشركين، ويدور الاستدلال حول وحدانية الله وعبادة الواحد الأحد عن طريق تذكيرهم باللحظات الحرجة والمؤلمة التي تمرّ بهم في الحياة،

---

(١) تفسير الميزان، ج ٧، ص ٨٤.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

ويستشهد بضمائرهم، فهم في مثل تلك المواقف ينسون كلّ شيء، ولا يجدون غير الله ملجأ لهم.

يأمر الله سبحانه نبيّه أن: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(١).

الحالة النفسية التي تصوّرها هذه الآية لا تنحصر في المشركين، بل في كلّ إنسان حين يتعرّض إلى الشدّة وحوادث الخطر وقد لا يلجأ الإنسان في الحوادث الصغيرة والمألوفة إلى الله، إلاّ أنّه في الحوادث الرهيبة والمخيفة ينسى كلّ شيء وإن ظلّ في أعماقه يحس بأملٍ في النجاة ينبع من الإيمان بوجود قوّة غامضة خفيّة، وهذا هو التوجّه إلى الله وحقيقة التوحيد.

حتى المشركون وعبدة الأصنام لا يخطر لهم التوسل بأصنامهم، بل ينسونها في مثل هذه الظروف تماماً، فتقول الآية: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾.

بحوث

هنا يحسن الالتفات إلى النقاط التّالية:

١ - إنّ الاستدلال المطروح في هاتين الآيتين هو الاستدلال على التوحيد الفطري الذي يمكن الاستفادة منه في مبحثين: الأوّل: في إثبات وجود الله، والثّاني: في إثبات وحدانيته، لذلك استشهدت الرّوايات الإسلامية والعلماء المسلمون بهاتين الآيتين للردّ على منكري وجود الله، وكذلك للردّ على المشركين.

٢ - من الملاحظ أنّ الاستدلال المذكور تطرّق إلى (قيام الساعة)، وقد يقال: إنّ المخاطبين لا يؤمنون بالقيامة أصلاً، فكيف يمكن طرح مثل هذا الاستدلال أمام هؤلاء؟

(١) يقول علماء العربية: إنّ «ك» في «أرأيتك» و«كم» في «أرأيتكم» ليستا اسماً ولا ضميراً، ولكنّهما حرفا خطاب يفيدان التوكيد، والفعل في مثل هذه الحالات يكون مفرداً، والإفراد والتثنية والجمع تظهر على حرف الخطاب هذا، ففي «أرأيتكم» المخاطبون جماعة ولكن الفعل «رأيت» مفرد، و«كم» هو الذي يدل على أنّ المخاطبين جماعة، وقيل: إنّ هذا التعبير من حيث المعنى يساوي قولك: (أخبرني) أو (أخبروني)، ولكن الحقّ أنّ الجملة تحتفظ بمعناها الاستفهامي، و(أخبروني) ملازم للمعنى، لا المعنى نفسه، والمعنى يساوي «أعلمتم»؟

نقول أوّلاً: إنّ هؤلاء لم يكونوا جميعاً ينكرون يوم القيامة، فقد كان فريق منهم يؤمنون بنوع من البعث.

وثانياً: قد يكون المعنى بالساعة هي ساعة الموت، أو الساعة الرهيبة التي تنزل فيها على الإنسان مصيبة تضعه على شفا الهلاك.

وثالثاً: قد يكون هذا تعبيراً مجازياً عن الحوادث المخيفة، فالقرآن يكرر القول بأنّ يوم القيامة يقترن بسلسلة من الحوادث المروعة، كالزلازل والعواصف والصواعق وأمثالها.

٣ - إنّنا نعلم أنّ يوم القيامة وما يصحبه من وقائع وأُمور حتمية الوقوع، لا يمكن تغييرها إطلاقاً، فكيف تقول الآية: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾؟ فهل القصد هو إظهار قدرة الله، أم أنّ هناك قصداً آخر؟

في جواب هذا السؤال نقول: لا يعني هذا أنّ الله سوف يلغي بالدعاء البعث وقيام الساعة أصلاً، بل الآية تقصد القول بأنّ المشركين - وحتى غير المشركين - عند مشاهدتهم الحوادث الرهيبة عند قيام الساعة والأهوال والعذاب الذي ينتظرهم، يستولي عليهم الفزع والجزع، فيدعون الله ليخفف عنهم تلك الأهوال، وينجيهم من تلك الأخطار، فدعاؤهم يكون لنجاتهم من أهوال يوم القيامة الرهيبة، لا لإلغاء ذلك اليوم من الأساس.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

التّفسير

مصير الذين لا يعتبرون

تواصل هذه الآيات توجيه الكلام للضّالين والمشركين، ويتخذ القرآن فيها طريقاً آخر لإيقاظهم وذلك بأن ينقلهم إلى القرون السالفة والأزمان الماضية، يشرح لهم حال الأُمم

الضّالة والظالمة والمشركة، ويبيّن لهم كيف أُتيح لها جميع عوامل التربية والتهذيب والوعي، غير أنّ جمعاً منهم لم يلقوا بالاً إلى أيٍّ من تلك العوامل، ولم يعتبروا بما حاق بهم من (بأساء) و(ضراء)[1] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾.

أما كان من الأجدر بهؤلاء أن يستيقظوا عندما جاءهم البأس وأحاطت بهم الشدائد؟! ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ ولكنّهم لم يستيقظوا، ولذلك سببان:

ولعلّ الاختلاف بين معنيي اللفظتين ناشىء عن أنّ «الباساء» تشير إلى المكروه الخارجي و«الضراء» تشير إلى المكروه الداخلي، النفسي أو الروحي، وعلى هذا تكون «الباساء» من عوامل إيجاد «الضراء»، فتأمل بدقّة!

الأوّل: إنّهم لكثرة آثامهم وعنادهم في الشرك زايلت الرحمة قلوبهم والليونة أرواحهم: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

والثاني: إنّ الشيطان قد استغل عبادتهم أهواءهم فزيّن في نظرهم أعمالهم، فكل قبيح ارتكبوه أظهره لهم جميلاً، وكلّ خطأ فعلوه جعله في عيونهم صواباً: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

ثمّ تذكر **الآية التّالية** أنّه لمّا لم تنفع معهم تلك المصائب والمشاكل والضغوط عاملهم الله تعالى بالعطف والرحمة، ففتح عليهم أبواب أنواع النِّعم، لعلهم يستيقظون ويلتفتون إلى خالقهم الذي وهب لهم كل تلك النعم، ويشخّصوا الطريق السويّ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

إلاّ أنّ هذه النعم كانت في الواقع ذات طابع مزدوج، فهي مظهر من مظاهر المحبّة التي تستهدف إيقاظ النائمين، وهي كذلك مقدمة لنزول العذاب الأليم إذا استمرّت الغفلة، والذي ينغمس في النعمة والرفاهية، يشتد عليه الأمر حين تؤخذ منه هذه النِّعم

---

(١) «البأساء» الشدّة والمكروه، وتطلق على الحرب أيضاً، وكذلك القحط والجفاف والفقر، أمّا «الضراء» فأكثر ما تعني العذاب الروحي، كالهم والغم والاكتئاب والجهل، أو الآلام الناشئة عن الأمراض أو عن فقدان مال أو مقام.

ولعل الاختلاف بين معنيي اللفظتين ناشئ عن أنّ «البأساء» تشير إلى المكروه الخارجي و «الضرّاء» تشير إلى المكروه الداخلي، النفسي أو الروحي، وعلى هذا تكون «البأساء» من عوامل إيجاد «الضراء»، فتأمل بدقّة!

فجأة، بينما لو أُخذت منه بالتدريج، فلا يكون وقع ذلك عليه شديداً، ولهذا يقول: إنّنا أعطيناهم الكثير من النعم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[1].

وهكذا استؤصلت جذور أُولئك الظلمة وانقطع نسلهم: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾.

و«الدابر» بمعنى المتأخر والتابع.

ولمّا كان الله قد وفّر لهؤلاء كلّ وسائل التربية ولم يبخل عليهم بأيّ شيء منها، لذلك فإنّ الحمد يختص بالله الذي يربّي أهل الدنيا كافة: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ملاحظات

لابدّ هنا من التنبّه إلى بضع نقاط:

١ - قد يبدو لدى البعض أنّ هذه الآيات تتعارض مع الآيات السابقة، فقد بيّنت الآيات السابقة أنّ المشركين إذا هاجمتهم المصاعب والشدائد يتوجّهون إلى الله وينسون كل ما عداه، ولكن هذه الآيات تقول: إنّ هؤلاء لا يستيقظون حتى بعد تعرّضهم للمنغّصات الشديدة.

هذا التباين الظاهري يزول إذا انتبهنا إلى النقطة التّالية، وهي أنّ اليقظة الخاطفة المؤقتة عند ظهور الشدائد لا تعتبر يقظة حقيقية، لأنّهم سرعان ما يعودون إلى الغفلة السابقة.

في الآيات السابقة كان الكلام عن التوحيد الفطري، فكان التيقّظ والتوجّه العابر ونسيان كلّ شيء سوى الله في تلك اللحظات الحساسة ما يكفي لإثبات ذلك، أمّا في هذه الآيات فالكلام يدور عن الاهتداء والرجوع عن الضلال إلى الطريق المستقيم، لذلك فإنّ اليقظة العابرة المؤقتة لا تنفع شيئاً.

قد يُتصوّر أنّ الاختلاف بين الموضعين هو أنّ الآيات السابقة تشير إلى المشركين الذين عاصروا رسول الله ﷺ، والآيات التي بعدها تشير إلى الأقوام السابقين، ولذلك لا تعارض بينهما[2].

(١) «الإبلاس» الحزن المعترض من شدّة التألم بسبب كثرة المنغّصات المؤلمة، ومنها اشتقت كلمة «إبليس»، وهي هنا تدل على شدّة الغمّ والهمّ اللذين يصيبان المذنبين يومئذ.

(٢) يشير الفخر الرازي في تفسيره إلى هذا الاختلاف في التفسير الكبير ج ١٢، ص ٢٢٤.

ولكن من المستبعد جدّاً أن يكون المشركون المعاندون المعاصرون لرسول الله ﷺ خيراً من الضالين السابقين، وعليه فلا حلّ للإشكال إلاّ بما قلناه.

٢ - نقرأ في هذه الآيات أنّه عندما لم يكن لابتلائهم بالشدائد تأثير في توعيتهم، فإنّ الله يفتح أبواب الخيرات على أمثال هؤلاء الآثمين، فهل هذا ترغيب بعد المعاقبة، أم هو مقدمة لعقاب أليم؟ أي: هل هذه النِّعم نِعَم استدراجية، تغمر المتمرّد تدريجياً بالرفاهية والتنعم والسرور... تغمره بنوع من الغفلة، ثمّ ينتزع منه كلّ شيء دفعة واحدة؟

ثمّة قرائن في الآية تؤيّد الاحتمال الثّاني، ولكن ليس هناك ما يمنع من قبول الاحتمالين، أي أنّه ترغيب وتحريض على الاستيقاظ، فإن لم يؤثّر، فمقدمة لسلب النعمة ومن ثمّ إنزال العذاب الأليم.

جاء في حديث عن رسول الله ﷺ قوله: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنّما هو استدراج» ثمّ تلا الآية ﴿فَلَمَّا نَسُواْ﴾[1].

وفي حديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «يا بن آدم، إذا رأيت ربّك سبحانه يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره»[2].

وفي كتاب (تلخيص الأقوال) عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام قال: «إنّ قنبر مولى أمير المؤمنين علي عليه السلام أدخل على الحجاج، فقال: ما الذي كنت تلي من علي بن أبي طالب؟ قال: كنت أوضيه، فقال له: ماذا يقول إذا فرغ من وضوئه؟ فقال: كان يتلو هذه الآية: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾، فقال الحجاج: أظنّه كان يتأولها علينا؟! قال: نعم»[3].

٣ - يتّضح من هذه الآيات أنّ هدف الكثير من الحوادث المؤلمة هو الإيقاظ والتوعية، وهذا جانب من فلسفة «المصائب والآفات» التي تحدّثنا بشأنها في بحث التوحيد، ولكن الملفت للنظر هو أنّه يبدأ الموضوع بكلمة «لعل»، وذلك لأنّ نزول البلاء وحده لا يكفي للإيقاظ، بل هو تمهيد للقلوب المستعدة (سبق أن قلنا إنّ «لعل» في كلام الله تستعمل حيثما تكون هناك شروط أُخرى).

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٥٥؛ وتفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧١٨؛ ذيل الآية.
(٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢٥.
(٣) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧١٨.

هنالك أيضاً كلمة «تضرع» التي تعني أصلاً نزول اللبن في الثدي واستسلامه للرضيع، ثمّ انتقل المعنى إلى الاستسلام مع الخضوع والتواضع، أي أنّ تلك الحوادث الشديدة تهدف إلى إنزالهم عن مطية الغرور والتمرّد والأنانية، والاستسلام لله.

٤ - ممّا يلفت النظر اختتام الآية بقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذا دليل على أنّ استئصال جذور الظلم والفساد والقضاء على شأفة الذين يمكن أن يواصلوا هذا الأمر من الأهميّة بحيث يستوجب الحمد لله.

في حديث ينقله فضيل بن عياض عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «من أحبّ بقاء الظالمين فقد أحبّ أن يعصى الله، إنّ الله تبارك وتعالى حمد بنفسه بهلاك الظلمة فقال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»(١).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

التّفسير

اعرفوا واهب النعم!

الخطاب ما يزال موجّهاً إلى المشركين.

في هذه الآيات حثّ استدلالي على إيقاظهم ببيان آخر يعتمد غريزة دفع الضرر، فيبدأ بالقول: إنّه إذا سلب منكم الله النِّعم الثمينة التي وهبها لكم، مثل السمع والبصر، وأغلق على قلوبكم أبواب التمييز بين الحسن والسيىء، والحقّ والباطل، فمن يا ترى يستطيع أن يعيد إليكم تلك النِّعم؟ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ﴾.

(١) أصول الكافي، ج ٥، ص ١٠٨؛ وتفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٥٦.

في الواقع، كان المشركون أنفسهم يعتقدون أنّ الخالق والرازق هو الله، وكانوا يعبدون الأصنام للاستشفاع بها عند الله.

والقرآن يحثّهم على الاتجاه المباشر نحو الله، مصدر كلّ الخيرات والبركات بدل الاتجاه إلى أصنام لا قيمة لها.

وإضافة إلى ما كان يحمله عبدة الأصنام من اعتقاد بالله، فإنّ القرآن استجوب عقولهم هنا لإبداء رأيها وحكمها في أمر أصنام لا تملك هي نفسها عيناً ولا أذناً ولا عقلاً ولا شعوراً، فهل يمكنها أن تهب أمثال هذه النِّعم للآخرين؟!

ثمّ تقول الآية: انظر إلى هؤلاء الذين نشرح لهم الآيات والدلائل بمختلف الوسائل، ولكنّهم مع ذلك يعرضون عنها: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾.

وفيما يتعلّق بمعنى «ختم» وسبب ورود «سمع» بصيغة المفرد، و«أبصار» بصيغة الجمع في القرآن راجع المجلد الأوّل من هذا التّفسير.

«نصرف» من «التصريف» بمعنى «التغيير»، والكلمة هنا تشير إلى مختلف الاستدلالات في صور متنوعة.

و«يصدفون» من «صدف» بمعنى «الجانب» و«الناحية» أي إنّ المعرض عن شيء يدير وجهه إلى جانب أو ناحية أُخرى.

وهذه الكلمة تستعمل بمعنى الإعراض أيضاً، ولكنّه «الإعراض الشديد» كما يقول الراغب الأصفهاني.

تشير **الآية الثّانية** - بعد ذكر هذه النِّعم الثلاث «العين والأذن والإدراك» التي هي منبع جميع نِعَم الدنيا والآخرة - إلى إمكان سلب هذه النعم كلّها دفعة واحدة، فتقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾[1].

«بغتة» بمعنى «فجأة» و«جهرة» بمعنى «الظاهر» والعلانية، والمألوف استعمال «سرّاً» في مقابل «جهرة» لا «بغتة»، ولكن لمّا كانت مقدمات العمل المباغت خافية غالباً، إذ لولا خفاؤها لما كان مباغتاً، فإنّ في «بغتة» يكمن معنى الخفاء والسرية أيضاً.

والقصد هو أنّ القادر على إنزال مختلف العقوبات، وسلب مختلف النِّعم هو الله

(١) شرحنا معنى «أرأيتكم» عند تفسير الآية ٤٠ من هذه السورة وقلنا: ليس هناك ما يدعو إلى اعتبار المعنى «أخبروني» بل المعنى هو «أعلمتم»؟

وحده، وإنّ الأصنام لا دور لها في هذا أبداً، لذلك ليس ثمّة ما يدعو إلى اللجوء إليها، لكن الله لحكمته ورحمته لا يعاقب إلاّ الظالمين.

ومن هذا يستفاد أنّ للظلم معنًى واسعاً يشمل أنواع الشرك والذنوب، بل إنّ القرآن يعتبر الشرك ظلماً عظيماً، كما قال لقمان لابنه: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(١).

الآية الثالثة تشير إلى مركز الأنبياء، فتقول: ليست الأصنام العديمة الروح هي وحدها العاجزة عن القيام بأيّ أمر، فإنّ الأنبياء العظام والقادة الإلهيين أيضاً لا عمل لهم سوى إبلاغ الرسالة والإنذار والتبشير، فكل ما هنالك من نِعَم إنّما هي من الله وبأمره، وأنّهم إن أرادوا شيئاً طلبوه من الله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾.

والاحتمال الآخر في ربط هذه الآية بالآيات السابقة هو أنّ تلك الآيات كانت تتكلّم عن البشارة والإنذار، وهنا يدور القول على أنّ هذا هو هدف بعثة الأنبياء، فهم مبشرون ومنذرون.

ثمّ تقول: إنّ طريق النجاة ينحصر في أمرين، فالذين يؤمنون ويصلحون أنفسهم و﴿يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ فلا خوف عليهم من العقاب الإلهي، ولا حزن على أعمالهم السابقة. ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أمّا أُولئك الذين لا يصدّقون بآياتنا، بل يكذّبون بها فإنّ عقابهم على فسقهم وعصيانهم عذاب من الله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

من الجدير بالانتباه أنّ الآية ذكرت عقاب الذين يكذبون بآيات الله بعبارة ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾، فكأنّ هذا العقاب يطاردهم في كل مكان حتى يشملهم بأشدّ ما يكون من العذاب.

كذلك ينبغي القول أنّ لكلمة «فسق» معنًى واسعاً أيضاً، يشمل كل أنواع العصيان والخروج عن طاعة الله وعبوديته وحتى الكفر في بعض الأحيان، وهذا المعنى هو المقصود في هذه الآية، لذلك لا محل للبحوث التي عقدها الفخر الرازي ومفسّرون آخرون بشأن معنى «الفسق» وشمولها الذنوب، ومن ثمّ الدفاع عن ذلك.

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٣.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠﴾

التّفسير

معرفة الغيب

هذه الآية استمرار للردّ على اعتراضات الكفار والمشركين المختلفة، والرد يشمل ثلاثة أقسام من تلك الاعتراضات في جمل قصيرة:

الأوّل: هو أنّهم كانوا يريدون من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القيام بمعجزات عجيبة وغريبة، وكان كل واحد يتقدّم باقتراح حسب رغبته، بل إنّهم لم يكونوا يقنعون بمشاهدة معجزات طلبها آخرون، فمرّة كانوا يطلبون بيوتاً من ذهب، ومرّة يريدون هبوط الملائكة، ومرّة يريدون أن تتحوّل أرض مكّة القاحلة المحرقة إلى بستان مليء بالمياه والفواكه وغير ذلك ممّا كانوا يطلبونه من النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، ممّا سيأتي شرحه في تفسير الآية (٩٠) من سورة الإسراء.

ولعلّهم بطلباتهم الغريبة تلك كانوا يتوقعون أن يكون للنّبي مقام الألوهية وامتلاك الأرض والسماء، فللردّ على هؤلاء يأتي الأمر من الله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾.

«الخزائن» جمع الخزينة، بمعنى المكان الذي تخزن فيه الأشياء التي يراد حفظها وإخفاؤها عن الآخرين، واستناداً إلى الآية: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾[1] يتّضح أنّ «خزائن الله» تشمل مصدر ومنبع جميع الأشياء، وهي في الحقيقة تستقي من ذات الله اللامتناهية منبع جميع الكمالات والقدرات.

والثاني: ثمّ تردّ الآية على الّذين كانوا يريدون من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يكشف لهم عن جميع أسرار المستقبل، بل ويطلعهم على ما ينتظرهم من حوادث لكي يدفعوا الضرر ويستجلبوا النفع، فتقول: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾.

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٢١.

سبق أن قلنا إنّه لا يكون أحد مطلّعاً على كلّ شيء إلاّ إذا كان حاضراً وشاهداً في كلّ مكان وزمان، وهو الله وحده، أمّا الذي يكون وجوده محدداً بمكان وزمان معيّنين فلا يمكن بالطبع أن يطّلع على كلّ شيء، ولكن ما من شيء يحول دون أن يمنح الله جزءاً من عمله هذا إلى الأنبياء والقادة الإلهيين لإكمال مسيرة القيادة، حسبما يراه من مصلحة، وهذا بالطبع لا يكون علماً بالغيب بالذات، بل هو «علم بالغيب بالعرض» أي أنّه تعلّم من عالم الغيب.

هنالك آيات عديدة في القرآن تدل على أنّ الله لا يظهر علمه هذا للأنبياء والقادة الإلهيين وحدهم، بل قد يظهره لغيرهم أيضاً، ففي الآيتين (٢٦ و٢٧) من سورة الجن نقرأ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾.

لا شكّ أنّ مقام القيادة، وخاصّة القيادة العالمية العامة، يتطلب الاطلاع على كثير من المسائل الخافية على عامّة الناس، فإذا لم يطلع الله مبعوثيه وأولياءه على علمه، فإنّ مراكزهم القيادية لن تكون كاملة (تأمل بدقّة).

وإذا تجاوزنا ذلك، فإنّنا نلاحظ أنّ بعض الكائنات الحيّة لابدّ لها أن تعلم الغيب للمحافظة على حياتها، فيهبها الله ما تحتاجه من علم، فنحن - مثلاً - قد سمعنا عن بعض الحشرات التي تتنبّأ في الصيف بما سيكون عليه الجو في الشتاء، أي أنّ الله قد وهبها هذا العلم بالغيب، لأنّ حياتها ستتعرض لخطر الفناء دون هذه المعرفة، وسوف نفصّل هذا الموضوع أكثر إن شاء الله عند تفسير الآية (١٨٨) من سورة الأعراف.

والثالث: في الجملة الثّالثة ردّ على الذين كانوا يتصوّرون النّبي ﷺ ملكاً، أو أن يصاحبه ملك، وأن لا يتصف بما يتصف به البشر من تناول الطعام والسير في الطرقات، وغير ذلك، فقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾.

يتّضح من هذه الآية بجلاء أنّ كلّ ما عند رسول الله ﷺ من علم، وكلّ ما فعله كان بوحي من السماء، وإنّه لم يكن يفعل شيئاً باجتهاده ولا بالعمل بالقياس ولا بأيّ شيء آخر - كما يرى بعض - وإنّما كان يتبع الوحي في كلّ أمر من أمور الدين.

وفي الختام يؤمر رسول الله ﷺ أن يقول لهم: هل يمكن للذين يغمضون أعينهم ويغلقون عقولهم عن التفكير أن يكونوا على قدم المساواة مع الذين يرون الحقائق جيّداً ويتفهمونها؟ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

إنّ ذكر هذه الجملة في أعقاب الجملات الثلاث السابقة قد يكون لأنّ رسول الله ﷺ سبق أن قال: ﴿لَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ و﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ و﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ بل ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾، ولكن هذا كلّه لا يعني أنّني مثلكم، أيّها المشركون، بل أنا إنسان بصير بالواقع بينما المشرك أشبه بالأعمى، فهل يستويان؟

ثمّة احتمال آخر لربط هذه الجُمل، وهو أنّ الأدلة والبراهين على التوحيد وعلى صدق رسول الله ﷺ واضحة جلية، ولكنّها تتطلب عيناً بصيرة لكي تراها، فإذا كنتم لا تقبلونها فليس لأنّها أدلة غامضة معقّدة، بل لكونكم تفتقرون إلى العين البصيرة، فهل يستوي الأعمى والبصير؟

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾

التّفسير

في ختام الآية السابقة ذكر سبحانه عدم استواء الأعمى بالبصير، وفي هذه الآية يأمر نبيّه أن ينذر الذين يخشون يوم القيامة ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي إنّ هؤلاء لهم هذا القدر من البصيرة بحيث يحتملون وجود حساب وجزاء، وفي ضوء هذا الاحتمال والخوف من المسؤولية تتولّد فيهم القابلية على التلقّي والقبول.

سبق أن قلنا: إنّ وجود القائد المؤهّل والبرنامج التربوي الشامل لا يكفيان وحدهما لهداية الناس، بل ينبغي أن يكون لدى هؤلاء الناس الاستعداد لتقبّل الدعوة، تماماً مثل أشعة الشمس التي لا تكفي وحدها لتشخيص معالم الطريق، بل لابدّ من وجود العين الباصرة أيضاً، ومثل البذرة السليمة التي لا يمكن أن تنمو بغير وجود الأرض الصالحة للزراعة.

يتّضح من هذا أنّ الضمير في «به» يعود على القرآن، وهذا يتبيّن من القرائن، على الرغم من أنّ كلمة «قرآن» لم تذكر في الآيات السابقة بصراحة.

كما أنّ المقصود من ﴿يَخَافُونَ﴾ أي يحتملون وجود الضرر، إذ يخطر ببال كل عاقل يستمع إلى دعوة الأنبياء الإلهيين، بأنّ من المحتمل أن تكون دعوة هؤلاء صادقة، وأنّ الإعراض عنها يوجب الخسران والضرر، ويستنتج من ذلك أنّ من الخير له أن يدرس الدعوة ويطّلع على الأدلة.

وهذا واحد من شروط الهداية، وهو ما يطلق عليه علماء العقائد اسم «لزوم دفع الضرر المحتمل» ويعتبرونه دليل وجوب دراسة دعوى من يدعي النّبوة، ولزوم المطالعة لمعرفة الله.

ثمّ يقول: إنّ أمثال هؤلاء من ذوي القلوب الواعية يخافون ذلك اليوم الذي ليس فيه غير الله ملجأ ولا شفيع: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

نعم، أنذر أمثال هؤلاء الناس وادعهم إلى الله، إذ إنّ الأمل في هدايتهم موجود: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

بديهي أنّ نفي «الشفاعة» و«الولاية» في هذه الآية عن غير الله لا يتناقض مع شفاعة أولياء الله وولايتهم، إذ إنّنا سبق أن أشرنا إلى أنّ المقصود هو نفي الشفاعة والولاية بالذات، أي أنّ هذين الأمرين مختصّان ذاتاً بالله، فإذا كان لأحد غيره مقام الشفاعة والولاية فبإذن منه وبأمره، كما يصرح القرآن بذلك: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[1].

للمزيد من التوضيح بشأن الشفاعة عموماً، انظر المجلد الأوّل: ص ١٩٨، والمجلد الثّاني من هذا التّفسير.

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

سبب النّزول

ذكرت روايات عديدة في سبب نزول هاتين الآيتين، ولكنّها متشابهة، من ذلك ما جاء في تفسير «الدر المنثور»: مرّت جماعة من قريش بمجلس رسول الله ﷺ حيث كان «صهيب» و«عمار» و«بلال» و«خباب» وأمثالهم من الفقراء والعمال حاضرين فيه، فتعجبوا من ذلك (لأنّهم كانوا يحسبون أنّ شخصية المرء مرهونة بالثروة والجاه والمقام، ولم يستطيعوا إدراك المنزلة المعنوية لهؤلاء الأشخاص، ولا ما سيكون لهم

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

من دورٍ بنّاء في إيجاد المجتمع الإسلامي والإنساني الكبير) فقالوا : يا محمّد! أرضيت بهؤلاء من قومك، أفنحن نكون تبعاً لهم؟ أهؤلاء الذين منّ الله عليهم؟! اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم اتّبعناك، فأنزل الله الآية[1].

بعض مفسّري أهل السنّة، مثل صاحب تفسير (المنار) يورد حديثاً بهذا المضمون، ثمّ يقول: إنّ عمر بن الخطاب كان حاضراً واقترح على رسول الله ﷺ أن يقبل عرض هؤلاء الملأ من قريش، ليتبيّن مدى صدق قولهم، فنزلت الآيتان في رفض اقتراحه[2].

ينبغي ألاّ يغرب عن البال أنّ ذكر سبب نزول بعض آيات هذه السورة لا يتنافى مع نزول السورة كلّها في مكان واحد، فقد سبق أن قلنا إنّ من الممكن أن تقع حوادث مختلفة في أوقات مختلفة قبل نزول السورة، ثمّ تنزل السورة بشأن تلك الحوادث.

يلزم هنا أن نذكر أنّه جاء في رواية أنّ الملأ من قريش - حينما رفض رسول الله عرضهم - اقترحوا عليه شيئاً آخر، وقالوا له: لو نحيّت هؤلاء حتى نخلو بك. . . فإذا انصرفنا، فإذا شئت أعدتهم إلى مجلسك، فأجابهم النّبي إلى ذلك، فقالوا له: اكتب لنا بهذا على نفسك كتاباً، فدعا بصحيفة وأحضر علياً ليكتب، فنزل جبرائيل بالآية تنهى عن ذلك[3].

غير أنّ هذه الرواية، على الرغم من كونها لا تنسجم مع روح تعاليم الإسلام التي رفضت دوماً المساومة في مثل هذه الحالات، وأكّدت باستمرار على وحدة المجتمع الإسلامي، فإنّها لا تنسجم مع الآية السابقة: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ فكيف يمكن لرسول الله ﷺ قبول الاقتراح دون انتظار للوحي.

ثـمّ إنّ عبارة ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ في بداية الآية تدل على أنّهم قد طلبوا طرد أُولئك، لا التناوب معهم، والبون شاسع بين طلب الطرد وطلب التناوب، وهذا يدل على أنّ سبب نزول الآية هو ما أوردناه أوّلاً.

مكافحة التّفكير الطّبقي

في هذه الآية إشارة إلى واحد من احتجاجات المشركين، وهو أنّهم كانوا يريدون من النّبي ﷺ أن يقرّ ببعض الامتيازات لطبقة الأغنياء ويفضّلهم على طبقة الفقراء، إذ

(١) تفسير الميزان، ج ٧، ص ١٠٩. (٢) المصدر السابق.
(٣) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٦٢؛ وبحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٣٣.

كانوا يرون في جلوسهم مع الفقراء من أصحاب رسول الله ﷺ منقصة لهم أيّ منقصة! مع أنّ الإسلام كان قد جاء للقضاء على مثل هذه الامتيازات الزائفة الجوفاء، كانوا يصرّون على هذا الطلب في طرد أُولئك عنه، غير أنّ القرآن ردّ هذا الطلب مستنداً إلى أدلة حيّة، فيقول: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾(١).

وممّا يلفت النظر أنّ القرآن لم يشر إلى هؤلاء الأشخاص إشارة خاصّة، بل اكتفى بصفتهم البارزة وهي أنّهم يذكرون الله صباح مساء، أي دائماً، وإنّ ذكرهم الله هذا ليس فيه رياء، بل هو لذات الله وحده، فهم يريدونه وحده ويبحثون عنه، وليس ثمّة امتياز أسمى من هذا.

يتبيّن من آيات قرآنية مختلفة أنّ هذا لم يكن أوّل طلب من نوعه يتقدّم به هؤلاء المشركون الأغنياء المتكبّرون إلى رسول الله ﷺ، بل لقد تكرر اعتراضهم على النّبي بشأن اجتماع الفقراء حوله، ومطالبتهم إياه بطردهم.

في الحقيقة كان هؤلاء يستندون في طلبهم ذاك إلى سنّة قديمة خاطئة تقيّم المرء على أساس ثروته، وكانوا يعتقدون أنّ المعايير الطبقية القائمة على أساس الثروة يجب أن تبقى محفوظة، ويرفضون كل دعوة تستهدف إلغاء هذه القيم والمعايير.

في سيرة النّبي نوح عليه السلام نرى أنّ أشراف زمانه كانوا يقولون له: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾(٢) واعتبروا ذلك دليلاً على بطلان رسالته.

إنّ واحداً من دلائل عظمة الإسلام والقرآن، وعظمة مدرسة الأنبياء عموماً، هو أنّها وقفت ثابتة لا تتزحزح في وجه أمثال هذه الطلبات، وراحت تحطّم هذه الامتيازات الموهومة في كل المجتمعات التي تعتبر التمايز الطبقي مسألة ثابتة، لتعلن أنّ الفقر ليس نقصاً في أشخاص مثل سلمان وأبي ذر والخباب وبلال، كما أنّ الثروة ليست امتيازاً اجتماعياً أو معنوياً لهؤلاء الأثرياء الفارغين المتحجّرين المتكبّرين.

ثمّ تقول الآية: إنّه ليس ثمّة ما يدعو إلى إبعاد هؤلاء المؤمنين عنك، لأنّ حسابهم ليس عليك، ولا حسابك عليهم: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾، ولكنّك مع ذلك إذا فعلت تكون ظالماً: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

---

(١) معنى «الوجه» في اللغة معروف، ولكنّ الكلمة قد تعني «الذات» كما في هذه الآية، وهناك شرح أوفى لذلك في المجلد الثّاني من هذا التّفسير.

(٢) سورة هود، الآية: ٢٧.

يختلف المفسّرون في توضيح المقصود من «الحساب» هنا.

منهم من يقول: إنّ المقصود هو حساب رزقهم، أي إنّهم وإن كانوا فقراء فإنّهم لا يثقلون عليك بشيء، لأنّ حساب رزقهم على الله، كما أنّك أنت أيضاً لا تحملهم ثقل معيشتك، إذ ليس من حساب رزقك عليهم من شيء.

غير أنّ هذا الاحتمال يبدو بعيداً، لأنّ الظاهر أنّ القصد من الحساب هو حساب الأعمال، كما يقول كثير من المفسّرين، أمّا لماذا يقول الله إنّ حساب أعمالهم ليس عليك، مع أنّهم لم يبدر منهم أي عمل سيىء يستوجب هذا القول؟ فالجواب: إنّ المشركين كانوا يتهمون أصحاب رسول الله ﷺ الفقراء بالابتعاد عن الله بسبب فقرهم، زاعمين أنّهم لو كانت أعمالهم مقبولة عند الله لزمه الترفيه والتوسعة عليهم في معيشتهم، بل كانوا يتهمونهم بأنّهم لم يؤمنوا إلاّ لضمان معيشتهم والوصول إلى لقمة العيش.

فيرد القرآن على ذلك مبيّناً أنّنا حتى لو فرضنا أنّهم كذلك، فإنّ حسابهم على الله، ما دام هؤلاء قد آمنوا وأصبحوا في صفوف المسلمين، فلا يجوز طردهم بأيّ ثمن، وبهذا يقف في وجه احتجاج أشراف قريش.

وشاهد هذا التّفسير ما جاء في حكاية النّبي نوح عليه السلام التي تشبه حكاية أشراف قريش، فأُولئك كانوا يقولون لنوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ فيرد عليهم نوح قائلاً: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾[1].

من هنا يجب على الأنبياء أن يتقبّلوا كل امرىء يظهر الإيمان بدون أي تمييز ومن أيّة طبقة كان فكيف بالمؤمنين الأطهار الذين لا يريدون إلاّ وجه الله، وكل ذنبهم هو أنّهم فقراء صفر اليدين من الثروة، ولم يتلوّثوا بالحياة الدنيئة لطبقة الأشراف!

امتياز كبير للإسلام

إنّنا نعلم أنّ دائرة صلاحيات رجال الدين المسيحيين المعاصرين قد اتسعت اتساعاً مضحكاً بحيث إنّهم أعطوا أنفسهم حق غفران الذنوب، فبإمكانهم طرد الأشخاص وتكفيرهم أو قبولهم لأتفه الأُمور.

---

(١) سورة الشعراء، الآيات ١١٢ - ١١٤.

إلاّ أنّ القرآن، في هذه الآية وفي آيات أُخرى ينفي صراحة أن يكون لأحد الحقّ، بل ولا لرسول الله ﷺ نفسه في أن يطرد أحداً أظهر إيمانه ولم يفعل ما يوجب إخراجه من الإسلام، وأنّ غفران الذنوب والحساب بيد الله وحده، ولا يحقّ لأحد التدخّل في هذا أبداً.

والكلام هنا عن «الطرد الديني» لا «الطرد الحقوقي» فلو كانت إحدى المدارس وقفاً على طبقة خاصّة من الطلاب، وقُبل أحدهم فيها لتوفّر شروط القبول فيه، ثمّ فقد بعض تلك الشروط، فإنّ طرده وإخراجه من تلك المدرسة لا مانع فيه، كذلك لو أنّ مدير مدرسة أُعطيت له صلاحيات معيّنة لغرض إدارة شؤونها، فله كلّ الحقّ في الاستفادة من تلك الصلاحيات لحفظ النظام ورعاية مصالح المدرسة (فما ورد في حديث صاحب تفسير المنار عند تفسيره الآية ممّا يخالف هذا المعنى ناشئ من الاشتباه بين الطرد الديني والطرد الحقوقي).

الآية الثّانية يحذّر فيها القرآن أصحاب المال والثروة من أنّ هذه الأُمور اختبار لهم، فإذا لم يجتازوا الامتحان فعليهم أن يتحمّلوا العواقب المؤلمة، فالله يمتحن بعضهم ببعض: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾.

«الفتنة» تعني هنا الامتحان[1] وأيّ امتحان أصعب ممّا يمرّ به الأغنياء الذين كانوا قد اعتادوا لسنوات طويلة على الترفّع على الطبقات الدنيا، فلا يشاركونهم أفراحهم وأتراحهم، بل حتى أنّهم يبعدون قبور موتاهم عن قبورهم، أمّا الآن فيطلب منهم أن يتخلّوا عن كل ذلك وأن يحطمّوا كل تلك العادات والسّنن، ويكسروا القيود والسلاسل ليلتحقوا بدين طلائعه من الفقراء ومن يسمون بالطبقة الدنيا.

ثمّ تضيف الآية أنّ الأمر يصل بهؤلاء إلى أنّهم ينظرون إلى المؤمنين الصادقين نظرة احتقار ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾[2]؟!

ثمّ تجيب الآية على المعترضين مؤكّدة أنّ هؤلاء الأشخاص أُناس شكروا نعمة التشخيص الصحيح بالعمل، كما أنّهم شكروا نعمة دعوة رسول الله ﷺ بقبولها، فأيّ نعمة أكبر، وأيّ شكر أرفع، ولذلك رسّخ الله الإيمان في قلوبهم: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

(١) لمزيد من الشرح انظر المجلد الثّاني في تفسير الآيتين ١٩١ و١٩٣ من سورة البقرة.
(٢) أشرنا في تفسير الآية ١٦٤ من سورة آل عمران إلى أنّ «المنة» تعني في الأصل النعمة يهبها الله.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾

التّفسير

يرى بعض المفسّرين أنّ الآية نزلت بشأن الذين نهت الآيات السابقة عن طردهم وإبعادهم، ويرى بعض آخر أنّها نزلت في فريق من المذنبين قدموا على رسول الله ﷺ وقالوا: إنّهم قد أذنبوا كثيراً، فسكت النّبي ﷺ حتى نزلت الآية.

ومهما يكن سبب نزول الآية، فالذي لا شك فيه أنّ معناها واسع وشامل، لأنّها تبدأ أوّلاً بالطلب من رسول الله ﷺ أن لا يطرد المذنبين مهما عظمت ذنوبهم، بل عليه أن يستقبلهم ويتقبلهم: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾.

يحتمل أن يكون هذا السّلام من الله بوساطة رسوله ﷺ، أو أنّه من الرّسول ﷺ مباشرة، وهو - على كلا الاحتمالين - دليل على القبول والترحيب والتفاهم والمحبّة.

ثمّ تقول الآية: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾.

«كتب» تأتي في كثير من الأحيان كناية عن الإلزام والتعهد، إذ إنّ من نتائج الكتابة توكيد الأمر وثبوته.

وفي الجزء الأخير من الآية - وهو توضيح وتفسير لرحمة الله - يتحدّث بلهجة عاطفية: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقد سبق القول[1] إنّ «الجهالة» في مثل هذه المواضع تعني طغيان الشهوة وسيطرتها، والإنسان بسبب هذه الأهواء المستفحلة - لا بسبب عدائه لله وللحق - يفقد المقدرة العقلية والسيطرة على الشهوات، مثل هذا الشخص - وإن كان عالماً بالذنب والحرمة - يسمى جاهلاً، لأنّ علمه مستتر وراء حجب الأهواء والشهوات، وهذا

(١) راجع المجلد الثّالث من هذا التّفسير ذيل الآية ١٧ من سورة النساء.

الشخص مسؤول عن ذنوبه، ولكنّه يسعى لإصلاح نفسه وجبران أخطائه لأنّ أفعاله لم تكن عن روح عداء وخصام.

تأمر الآية رسول الله ﷺ أن لا يطرد أيّ شخص مؤمن مهما تكن طبقته وظروفه وعنصره، بل عليه أن ينظر إلى الجميع بعين المساواة، وأن يحتضنهم ويعمل على إصلاحهم حتى وإن كانوا ملوّثين بالذنوب.

الآية التّالية ومن أجل توكيد هذا الموضوع تشير إلى أنّ الله سبحانه يوضّح آياته وأوامره توضيحاً بيّناً لكي يتبيّن طريق الباحثين عنه والمطيعين له، كما يتبيّن طريق الآثمين المعاندين من أعداء الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[1].

من الواضح في هذه الآية أنّ «المجرم» ليس كلّ مذنب، لأنّ رسول الله ﷺ مكلّف في هذه الآية أن يتقبل المذنبين الذين يُقبلون عليه، مهما يكن جرمهم الذي ارتكبوه عن جهلٍ، وعليه فإنّ المجرمين هنا هم أُولئك المذنبون المعاندون الذين لا يستسلمون للحق.

أي بعد هذه الدعوة العامّة إلى الله، التي تشمل حتى المجرمين النادمين يتّضح بشكل كامل طريق المعاندين الذين لا يرجعون عن عنادهم.

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾

التّفسير

الإصرار العقيم

ما يزال الخطاب في هذه الآيات موجّهاً إلى المشركين وعبدة الأصنام المعاندين - كدأب معظم آيات هذه السورة - يبدو من سياق هذه الآيات أنّهم دعوا رسول الله ﷺ

(١) جملة ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ معطوفة في الواقع على جملة محذوفة تدرك بالقرينة، فيكون المعنى: (لتستبين سبيل المؤمنين المطيعين ولتستبين سبيل المجرمين).

إلى اعتناق دينهم، الأمر الذي يستدعي نزول الآية: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾(١).

جملة «نُهيتُ» التي وردت بصيغة الماضي ومبنية للمجهول تشير إلى أنّ النهي عن عبادة الأصنام ليس أمراً جديداً، بل كان دائماً قائماً وسيبقى كذلك.

ثمّ بجملة ﴿قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ يجيب بوضوح على إصرارهم العقيم، نظراً لأنّ عبادة الأصنام لا تتفق مع المنطق ولا مع الأدلة العقلية، لأنّ العقل يدرك بسهولة أنّ الإنسان أشرف من الجماد، فكيف يمكن للإنسان أن يخضع لأيّ مخلوق آخر فضلاً عن المخلوق الأدنى؟ هذا مع أنّ هذه الأصنام هي من صنع الإنسان نفسه فكيف يتخذ الإنسان ما خلقه بنفسه معبوداً يعبده ويلجأ إليه في كلّ مشاكله؟ وبناء على ذلك، فإنّ منشأ عبادة الأصنام ليس سوى التقليد الأعمى والاتّباع المقيت للأهواء والشهوات.

وفي ختام الآية يؤكّد القرآن مرّة أُخرى على أنّه إذا فعل ذلك ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

الآية التّالية تتضمّن جواباً آخر، وهو: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾.

«البيّنة» أصلاً ما يفصل بين شيئين بحيث لا يكون بينهما تمازج أو اتصال، ثمّ أطلقت على الدليل والحجة الواضحة، لأنّها تفصل بين الحق والباطل.

وفي المصطلح الفقهي تطلق «البيّنة» على الشاهدين العدلين، غير أنّ معنى الكلمة اللغوي واسع جدّاً، وشهادة العدل واحد من تلك المعاني، وكذلك كانت المعجزة بيّنة لأنّها تفصل بين الحق والباطل، وإذا قيل للآيات والأحكام الإلهيّة بيّنات فلكونها من مصاديق الكلمة الواسعة.

وعليه، فرسول الله ﷺ يؤمر في هذه الآية أن يقول: إنّ دليلي في قضية عبادة الله ومحاربة الأصنام واضح وبيّن، وإنّ تكذيبكم وإنكاركم لا يقلّلان من صدق الدليل.

ثمّ يشير إلى حجّة واهية أُخرى من حججهم، وهي أنّهم كانوا يقولون: إن كنت على حق فعلاً فعجّل بالعقاب الذي تتوعدنا به، فيقول لهم رسول الله ﷺ: ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾، لأنّ الأعمال والأوامر كلّها بيد الله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

---

(١) استعمال ﴿الَّذِينَ﴾ التي هي للجمع المذكر العاقل، لا للإشارة إلى الأصنام، يدل على أنّ الكلام يجري وفق وجهة نظر المشركين.

وبعد ذلك يقول مؤكّداً: إنّ الله هو الذي ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾.

بديهي أنّ القادر على أن يفصل بين الحق والباطل على خير وجه هو الذي يكون أعلم الجميع، ومن السهل عليه التمييز بين الحق والباطل، ثمّ تكون له القدرة الكافية على استخدام علمه، وهاتان الصفتان (العلم والقدرة) هما من صفات الذات الإلهيّة اللامحدودة، وعليه فإنّه عزّوجلّ خير من يقص الحق، أي يفصل الحق من الباطل.

الآية التّالية تأمر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يقول لهؤلاء الجماعة الملحاحة العنيدة الجاهلة: لو أنّ ما تطلبونه منّي على عجلٍ كان في سعتي وقدرتي، وأجبتكم إليه لانتهى الأمر، ولم يعد بيني وبينكم شيء: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾.

ولكي لا يظنّوا أنّ عقابهم قد طواه النسيان، يقــول في النهاية: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وسوف يعاقبهم في الوقت المناسب.

بحوث

هنا لابدّ من ذكر بعض النقاط:

١ - يُستفاد من آيات القرآن أنّ كثيراً من الأُمم الماضية طلبوا مثل هذا الطلب من أنبيائهم، وهو: إذا كنت صادقاً فيما تقول فلماذا لا ترسل علينا العقاب الذي تتوعدنا به؟.

قوم نوح عليه السلام طلبوا منه ذلك ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[١] ونظير ذلك جاء على لسان قوم صالح[٢] وكذلك فعل قوم عاد مع نبيّهم هود[٣].

ويُستفاد من سورة الإسراء أنّ هذا الطلب قد تكرّر لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، حتى أنّهم قالوا له: إنّنا لا نؤمن لك ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾[٤].

كان الدافع إلى هذه الطلبات غير المعقولة، السخرية والاستهزاء، أو الرغبة في رؤية

(١) سورة هود، الآية: ٣٢.
(٢) سورة الاعراف، الآية: ٧٧.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٧٠.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٩٢.

المعجزة، وفي كلتا الحالتين كان الطلب أحمق، إذ في الحالة الثانية يكون تحقق الطلب سبباً في إبادتهم، ولا يكون ثمّة مجال للاستفادة من ظهور المعجزة، وفي الحالة الأُولى كان لدى الأنبياء أدلّة بيّنة توفّر - على الأقل - احتمال التصديق عند كلّ ناظر بصير، فكيف يمكن مع هذا الاحتمال أن يطلب أحد القضاء على نفسه، أو أن لا يأخذ المسألة مأخذ الجد، غير أنّ التعصّب والعناد بلاء عظيم يقفان بوجه كل فكر ومنطق.

٢ - إنّ معنى ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ واضح، أي إنّ كل أمر في عالم الخلق والتكوين وفي عالم الأحكام والتشريع بيد الله، وبناء على ذلك إذا كان لرسول الله ﷺ أن يقوم بمهمّة فذلك أيضاً بأمر من الله.

فإذا أحيا المسيح عليه السلام ميتاً - مثلاً - فهو بإذن الله، وكذلك كل منصب - بما في ذلك القيادة الإلهيّة والتحكيم والقضاء - إذا أوكل إلى أحد، فإنّما هو بأمر الله تعالى.

ولكنّ الذي يؤسف له أنّ هذه الآية الواضحة استغلت على مدى التّاريخ، فمرّة تمسك بها الخوارج في قضية «التحكيم» التي أرادوها هم وأمثالهم في حرب «صفين» فكانت «كلمة حق أُريد بها باطل» كما قال الإمام علي عليه السلام، حتى أصبح شعارهم (لا حكم إلّا لله).

لقد كانوا من الجهل والبلاهة أنّهم حسبوا أنّ من حكم بأمر الله والإسلام في أمر من الأُمور يكون قد خالف ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ بينما كانوا يقرأون القرآن كثيراً، ولكن لا يفهمونه إلّا قليلاً، فالقرآن نفسه في موضوع الاحتكام العائلي يصرّح باختيار حكم من جانب الزوجة وحكمٍ من جانب الزوج: ﴿فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾[1].

واعتبر بعض آخر هذه الآية - كما يقول الفخر الرازي في تفسيره - دليلاً على الجبرية، قائلين إنّنا إذا قبلنا بأنّ الأوامر في عالم الخلق بيد الله، فلا يبقى لأحد مجال للاختيار.

ولكنّنا نعلم أنّ حرية إرادة عباد الله وحرية اختيارهم هي أيضاً، بأمر من الله الذي شاء أن يكونوا أحراراً في اختيار ما يعملون، لكي يحمّلهم مسؤولية أعمالهم والتكاليف الملقاة على عواتقهم.

٣ - «يقص» في اللغة ترد بمعنى القطع، وفي القاموس: «قص الشعر والظفر أي قطع

(١) سورة النساء، الآية: ٣٥.

منهما بالمقص أي المقراض»، وعلى هذا يكون معنى و﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ إنّ الله يقطع الحق عن الباطل ويفصل بينهما، ولذلك يتلوها بقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ للتوكيد، فالفعل ﴿يَقُصُّ﴾ هنا لا يعني سرد حكاية، كما ظنّ بعض المفسّرين.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا
تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ
إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ
ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ
أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ
ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾

التّفسير

أسرار الغيب

في هذه الآيات يدور الكلام حول علم الله وقدرته وسعة حكمه وأمره، وهي تشرح ما أجملته الآيات السابقة.

تشرع الآية في الكلام على علم الله فتقول: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾.

﴿مَفَاتِحُ﴾ جمع «مفتح» (بكسر الميم وفتح التاء) وهو المفتاح، أمّا إذا كانت بفتح الميم فهي بمعنى الخزانة التي تختزن فيها الأشياء.

وعلى الأوّل يكون المعنى: إنّ جميع مفاتيح الغيب بيد الله.

وعلى الثّاني يكون المعنى: إنّ جميع خزائن الغيب بيد الله.

ويحتمل أن يكون المعنيان قد اجتمعا في عبارة واحدة، وكما هو ثابت في علم الأُصول، فإنّ استعمال لفظة واحدة لعدّة معانٍ لا مانع منه، وعلى كل حال فهاتان الكلمتان متلازمتان، لأنّه حيثما كانت الخزانة كان المفتاح.

وأغلب الظن أنّ ﴿مَفَاتِحُ﴾ بمعنى «مفاتيح» لا بمعنى «خزائن» لأنّ الهدف هو بيان

علم الله، فتكون المفاتيح وسائل لمعرفة مختلف الذخائر وهو أنسب بالآية، وفي موضعين آخرين في القرآن ترد كلمة ﴿مَفَاتِحُ﴾ بمعنى المفاتيح[١].

ثمّ لتوكيد ذلك أكثر يقول: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

﴿ٱلْبَرِّ﴾ كل مكان واسع فسيح، وتطلق على اليابسة، ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ كذلك تعني المحل الواسع الذي يتجمّع فيه الماء، وتطلق على البحار والمحيطات وعلى الأنهر العظيمة أحياناً.

فالقول بأنّ الله يعلم ما في البر والبحر، كناية عن إحاطته بكل شيء، وهذه الإحاطة بما في البرّ والبحر إنّما تمثّل في الحقيقة جانباً من علمه الأوسع.

فهو عالم بحركة آلاف الملايين من الكائنات الحيّة، الكبيرة والصغيرة، في أعماق البحار.

وهو عالم بارتعاش أوراق الأشجار في كل غابة وجبل.

وهو عالم بمسيرة كل برعمة وتفتح أوراقها.

وهو عالم بجريان النسيم في البوادي ومنعطفات الوديان.

وهو عالم بعدد خلايا جسم الإنسان وكريات دمه.

وهو عالم بكل الحركات الغامضة في الإلكترونات في قلب الذّرة.

وهو عالم بكل الأفكار التي تمرّ بتلافيف أدمغتنا حتى أعماق أرواحنا... نعم إنّه عالم بكل ذلك على حدٍّ سواء.

لذلك فإنّه يؤكّد ذلك مرّة أُخرى فيقول: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾.

أي إنّه يعلم عدد الأوراق ولحظة انفصال كل ورقة عن غصنها وطيرانها في الهواء، حتى لحظة استقرارها على الأرض، كل هذا جلي أمام علم الله.

كذلك لا تختفي حبّة بين طيّات التراب إلاّ ويعلمها الله ويعلم كل تفاصيلها: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾.

التركيز هنا - في الحقيقة - على نقطتين حساستين لا يمكن أن يتوصل إليهما الإنسان حتى لو أمضى ملايين السنين من عمره يرتقي سلّم الكمال في صنع أجهزته وأدواته المدهشة.

---

(١) ﴿إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦] و﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور: ٦١].

تُرى من ذا الذي يستطيع أن يعرف كم تحمل الرياح معها في هبوبها على مختلف أصقاع الأرض في الليل والنهار، من أنواع البذور المنفصلة عن نباتاتها؟ وإلى أين تحملها وتنشرها، أو تدسها في التراب حيث تبقى سنوات مختفية، حتى يتهيأ لها الماء فتنبت وتنمو؟

من ذا الذي يعلم كم من هذه البذور في كل أنحاء الدنيا تحمل عن طريق الإنسان أو الحشرات في كل ساعة من نقطة إلى نقطة أُخرى؟

أيّ دماغ الكتروني هذا الذي يستطيع أن يُحصي عدد أوراق الشجر التي تسقط كل يوم من أشجار الغابات؟ انظر إلى غابة من الغابات في الخريف، وخاصّة بعد مطر شديد أو ريح عاصفة، وتطلّع إلى مشهد سقوط الأوراق المتواصل البديع، عندئذ تتكشف لك هذه الحقيقة، وهي أنّ علوماً من هذا القبيل لن تكون يوماً في متناول يد الإنسان.

إنّ سقوط الورقة - في الحقيقة - هو لحظة موتها، بينما سقوط البذرة في مكمنها من الأرض هو لحظة بدء حياتها، وما من أحد غير الله يعلم بنظام هذا الموت وهذه الحياة، وحتى أنّ كلّ خطوة تخطوها البذرة نحو حياتها وانبعاثها وتكاملها خلال اللحظات والساعات، جلية في علم الله.

إنّ لهذا الموضوع أثراً «فلسفياً» وآخر «تربوياً»:

أمّا أثره الفلسفي، فينفي رأي الذين يحصرون علم الله بالكليات، ويعتقدون أنّه لا يعلم عن الجزئيات شيئاً، وفي الآية هنا تأكيد على أنّ الله يعلم الكليات والجزئيات كلّها.

أمّا أثره التربوي فواضح، لأنّ الإيمان بهذا العلم الواسع لله يقول للإنسان: إنّ جميع أسرار وجودك، وأعمالك، وأقوالك ونيّاتك، وأفكارك كلّها بيّنة أمام الله، فإذا آمن الإنسان حقّاً بهذا، فكيف يمكن له أن لا يكون رقيباً على نفسه ويسيطر على أعماله وأقواله ونيّاته!

وفي ختام الآية يقول تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

تبيّن هذه العبارة القصيرة سعة علم الله اللامحدود وإحاطته بكلّ الكائنات بدون أيّ استثناء، إذ إنّ «الرطب» و«اليابس» لا يقصد بهما المعنى اللغوي، بل هما كناية عن الشمول والعمومية.

وللمفسّرين آراء متعددة في معنى: ﴿كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، ولكنّ الأقوى أنّه كناية عن علم الله

الواسع، أي إنّ كلّ الموجودات مسجّلة في علم الله اللامحدود، كما أنّه يفسّر بكونه «اللوح المحفوظ» نفسه، إذ لا يستبعد أن يكون اللوح المحفوظ هو صفحة علم الله.

وثمّة احتمال آخر عن معنى: ﴿كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وهو أنّه عالم الخلق وسلسلة العلل والمعلولات التي كتب فيها كلّ شيء.

جاء فيما روي عن أهل البيت عليهم السلام أنّ «الورقة» الساقطة بمعنى الجنين الساقط، و«الحبّة» بمعنى الابن، و«ظلمات الأرض» بمعنى رحم الأم، و«رطب» ما بقي حياً من النطفة، و«يابس» ما تلاشى من النطفة[١].

لا شكّ أنّ هذا التّفسير لا ينسجم مع الجمود على المعاني اللغوية للآية، إذ إنّ معنى «الورقة» و«الحبّة» و«ظلمات الأرض» و«الرّطب» و«اليابس» معروف، ولكنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام بهذا التّفسير أرادوا أن يوسعوا من آفاق نظرة المسلمين إلى القرآن، وأن لا ينحصروا في إطار الألفاظ، بل يتوسعوا في نظرتهم حين توجد قرائن على هذا التوسع.

الرّواية أعلاه تشير إلى أنّ معنى «الحبّة» لا ينحصر في بذور النباتات، بل يشمل أيضاً بذور النطف الإنسانية.

في الآية الثانية ينتقل الكلام إلى إحاطة علم الله بأعمال الإنسان وهو الهدف الأصلي وإلى بيان قدرة الله القاهرة، لكي يستنتج الناس من هذا البحث الدروس التربوية اللازمة فتبدأ بالقول بأنّ الله هو الذي يقبض أرواحكم في الليل، ويعلم ما تعملون في النهار: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾.

«توفي» تعني استرجع، فالقول بأنّ النوم هو استرجاع للروح يعود إلى أنّ النوم أخو الموت[٢]، كما هو معروف، فالموت تعطيل كامل لجهاز الدماغ، وانقطاع تام في ارتباط الروح بالجسد، بينما النوم تعطيل قسم من جهاز الدماغ وضعف في هذا الارتباط، وعليه فالنوم مرحلة صغيرة من مراحل الموت[٣].

«جرحتم» من «جرح» وهي هنا بمعنى الاكتساب، أي أنّكم تعيشون تحت ظل قدرة الله وعلمه ليلا ونهاراً، وأنّ الذي يعلم بانفلاق الحبّة ونموها في باطن الأرض، ويعلم بسقوط أوراق الأشجار وموتها في أيّ مكان وزمان، يعلم بأعمالكم أيضاً.

---

(١) تفسير البرهان، ج ١، ص ٥٢٨. (٢) تفسير الصافي، ج ٣، ص ٢٣٧.
(٣) هناك شرح أوفى لهذا في المجلد الثاني، ذيل الآية ٥٥ من سورة آل عمران.

ثمّ يقول: إنّ نظام النوم واليقظة هذا يتكرر، فأنتم تنامون في الليل ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾[1] أي ثمّ يوقظكم في النهار . . وتستمر هذه العملية حتى نهاية حياتكم.

ويبيّن القرآن النتيجة النهائية لهذا المبحث بالشكل التالي: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وفي **الآية الثّالثة** توضيح أكثر لإحاطة علم الله بأعمال عباده وحفظها بكلّ دقّة ليوم الحساب، بعد أن يسجلها مراقبون مرسلون لإحصاء أعمالهم: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾.

سبق أن قلنا إنّ «القاهر» هو المتسلط الغالب المهيمن الذي لا تقف أمامه أية قوّة، ويرى بعضهم هذه الكلمة تستعمل حيث يكون المقهور عاقلاً.

أمّا كلمة «الغالب» فليست فيها هذه الخصوصية، فهي عامّة واسعة المعنى.

«حفظة» جمع «حافظ» وهم هنا الملائكة الموكّلون بحفظ أعمال الناس، كما جاء في سورة الانفطار الآيات (١٠ - ١٣): ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

ويرى بعض المفسّرين أنّهم لا يحفظون أعمال الإنسان، بل هم مأمورون بحفظ الإنسان نفسه من الحوادث والبلايا حتى يحين أجله المعيّن، ويعتبرون ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ بعد «حفظة» قرينة تدل على ذلك، كما يمكن اعتبار الآية (١١) من سورة الرعد دليلاً عليه كذلك[2].

ولكنّ بالتدقيق في مجموع الآية التي نحن بصددها نتبيّن أنّ القصد من الحفظ هنا هو حفظ الأعمال، أمّا بشأن الملائكة الموكّلين بحفظ الناس فسوف نشرحه بإذن الله عند تفسير سورة الرعد.

ثمّ يبيّن القرآن الكريم أنّ حفظ الأعمال يستمر حتى نهاية الأعمار وحلول الموت: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾.

وتبيّن الآية في النهاية أنّ هؤلاء الملائكة لا يقصرون ولا يفرطون في مهمتهم، فلا

(١) الضمير في ﴿فِيهِ﴾ يعود على «النهار» و﴿يَبْعَثُكُمْ﴾ بمعنى يوقظكم وينهضكم، و﴿أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ هو العمر المحدد لكلّ فرد.

(٢) تفسير الميزان، ج ٧، ص ١٣١.

يتقدمون لحظة ولا يتأخرون في موعد قبض الروح[1]: ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾.

ويحتمل أيضاً أنّ هذه الصفة ترتبط بالملائكة الذين يحفظون حساب أعمال البشر، فهم في حفظهم للحساب لا يصدر منهم أدنى تقصير أو قصور، والآية تركّز على هذا القسم بالذات.

في **الآية الأخيرة** يشير القرآن الكريم إلى آخر مراحل عمل الإنسان، فيقول: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ﴾ أي عادوا إلى الله بعد أنّ طووا مرحلة حياتهم، واختتم ملفهم الحاوي على كل شيء.

وفي تلك المحكمة يكون النظر في القضايا وإصدار الأحكام بيد الله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾.

وعلى الرغم من كل تلك الأعمال والملفّات المتراكمة عن أفراد البشر طوال تاريخهم الصاخب فإنّ الله سريع في النظر فيها: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾.

لقد جاء في بعض الرّوايات: «إنّه سبحانه يحاسب جميع عباده في مقدار حلب شاة» أي أنّ ذلك لا يتجاوز فترة حلب شاة[2].

وكما قلنا في تفسير الآية (٢٠٢) من سورة البقرة، إنّ إجراء الحساب من السرعة بحيث إنّه يمكن أن يتمّ في لحظة واحدة بالنسبة للجميع، بل إنّ ذكر فترة حلب شاة في الرواية المذكورة يقصد منه بيان قصر الزمن اللازم لذلك، وعلى هذا نقرأ في رواية أُخرى: «إن الله تعالى يحاسب الخلائق كلّهم في مقدار لمح البصر»[3].

والدليل على ذلك هو ما ذكرناه في تفسير هذه الآية، وهو أنّ أعمال الإنسان تؤثّر في وجوده وفي وجود الكائنات المحيطة به، تماماً مثل الماكنة التي تسجل مقدار حركتها في عدّاد متصل بها.

وبتعبير أوضح، لو كانت هناك أجهزة دقيقة جداً لاستطاعت أن تسجّل في عين الإنسان عدد النظرات الآثمة، وعلى الألسنة عدد الأكاذيب والافتراءات والتهم والطعون التي اقترفتها، أي أنّ كل عضو من أعضاء الجسم فيه - بالإضافة إلى روحه - جهاز حاسب يكشف الحساب في لحظة واحدة.

---

(١) لمزيد من الإيضاح حول قبض الروح، راجع ذيل الآية ٩٧ من سورة النساء.
(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٣١٣. (٣) المصدر نفسه، ج ١ و ٢، ص ٢٩٨.

وإذا جاء في بعض الرّوايات أنّ محاسبة المسؤولين والأغنياء تطول يوم القيامة فإنّ هذا لا يعني في الواقع طول زمن الحساب، بل هو طول زمن المحاسبة عليهم، إذ لا بدّ لهم من الإجابة على الأسئلة الكثيرة التي تلقى عليهم بشأن الأعمال التي ارتكبوها، أي إنّ ثقل مسؤولياتهم ولزوم إجابتهم على الأسئلة لإتمام الحجّة عليهم هي التي تطيل زمن محاكمتهم.

يؤلّف مجموع هذه الآيات درساً تربوياً كاملاً لعباد الله في إحاطة علمه تعالى بأصغر ذرّات هذا العالم وبأكبرها وقدرته وقهره لعباده ومعرفته بجميع أعمال البشر، وقيام كتبة أُمناء بحفظ أعمال الناس وقبض أرواحهم في لحظات معيّنة بالنسبة لكلٍّ منهم، وبعثهم يوم القيامة، ومن ثمّ محاسبتهم محاسبة دقيقة وسريعة.

كيف يمكن أن يؤمن الشخص بمجموع هذه المسائل ثمّ لا يراقب أعماله، يظلم دون وازع، ويكذب ويفتري ويعتدي على الآخرين؟

هل يجتمع كل هذا مع الإيمان والاعتقاد على صعيدٍ واحدٍ؟

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾

التّفسير

النّور الّذي يضيء في الظّلام

مرّة أُخرى يأخذ القرآن بيد المشركين ويتوغّل بهم إلى أعماق فطرتهم، وهناك في تلك الأغوار المحفوفة بالأسرار الغامضة يريهم نور التوحيد وعبادة الواحد الأحد، فيقول للنّبي ﷺ قل لهم: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾؟

إنّ الظلام يكون حسياً أحياناً ومعنوياً أحياناً أُخرى، الظلام الحسي هو الذي يكون عند انقطاع النّور انقطاعاً تاماً، أو يضعف بحيث لا يرى شيء، أو يرى بالجهد الجهيد، والظلام المعنوي هو المشاكل والصعوبات ذات النهايات المظلمة الغامضة، الجهل، الاضطرابات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، والانحرافات والفساد الأخلاقي التي

لا يمكن التكهّن بعواقبها السيئة، أو التي تجر إلى التعاسة والشقاء. . . كلّها ظلام.

إنّ الظلام بذاته مخيف مثير للأوهام والتخيلات، فهجوم الكثير من الحيوانات الخطرة وسطوة اللصوص والمجرمين يقع تحت جنح الظلام، إنّ لكل امرىء ذكرياته عن هذه الحالات، فعند هبوط الظلام تنشط الأوهام وتخرج منها الأشباح المرعبة، فيستولي الخوف والهلع على العامّة من الناس.

الظلام من العدم، والإنسان يهرب بطبيعته من العدم ويخافه، ولهذا نراه يخاف الظلام.

وإذا حدثت في هذا الظلام حوادث واقعية مرعبة، كأن يكون الإنسان مسافراً في البحر، وتحاصره في ليلة ظلماء الأمواج الهائلة والدوامات المائية، فإنّ خوفه من ذلك يكون أضعاف ما لو حدث ذلك بالنهار، لأنّ الإنسان في مثل هذه الظروف يجد أبواب النجاة مسدودة في وجهه، وهكذا لو كان في ليلة حالكة الظلام يسير في الصحراء فيضل الطريق ويسمع زمجرة الوحوش المفترسة من هنا وهناك وهي تبحث عن فريسة، في مثل هذه اللحظات ينسى الإنسان كل شيء ولا يعود يتذكّر شيئاً سوى نفسه، والنّور الذي يسطع في أعماقه ويجذبه نحو المبدأ قادر على إزالة ما يعتوره من بلاء وضيق، هذه الحالات تفتح نوافذ على عالم التوحيد ومعرفة الله، لذلك يقول في أمثال هذه الحالات: ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

وتعقدون - وأنتم في تلك الحالة - عهداً وميثاقاً على أنفسكم، وتقولون: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

ثمّ تأمر الآية النّبي ﷺ أن يخبرهم أنّ الله سوف ينجيهم من هذه ومن غيرها من الأخطار، وقد فعل ذلك من قبل مراراً، ولكنّهم بعد زوال الخطر عنهم يعودون إلى طريق الشرك والكفر: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾.

ملاحظات:

هنا لابدّ من الالتفات إلى عدّة نقاط:

١ - لعلّ ذكر «التضرّع» وهو الدعاء علانية، و«الخفية» هي الدّعاء في السرّ، إشارة إلى أنّ المصائب تختلف، فالتي لم تصل مرحلة شديدة قد تستدعي الدعاء خفية، وعندما تكون شديدة تحمل المرء على أن يرفع يديه بالدعاء جهراً، وقد يصاحب ذلك البكاء والصراخ، أي إنّ الله يحل مشاكلكم خفيفها وشديدها.

٢ - يرى بعضهم أنّ الآية تشير إلى أربع حالات نفسية في الإنسان، كل واحدة منها ردة فعل معيّنة لظهور المشاكل: حالة «الدعاء» وحالة «التضرع» وحالة «الإخلاص» وحالة «تقديم الشكر عند النجاة من الأخطار».

ولكنّ الذي يؤسف له أنّ هذه الحالات تمرّ ببعض الناس مروراً خاطفاً وكأنّها حالات اضطرارية في مواجهة الأخطار والمشاكل، وبما أنّها ليست مصحوبة بالوعي والإدراك، فإنّها تخفت وتنطفىء بمجرّد انتهاء الأزمة.

وبناء على ذلك، فإنّ هذه الحالات، وإن تكن خاطفة، تستطيع أن تكون دليلاً على معرفة الله لمن عسر عليه إدراك الدلائل الأُخرى.

٣ - «الكرب» في الأصل بمعنى حفر الأرض وقلبها، وكذلك تعني العقدة المحكمة الشد في حبل الدلو، ثمّ أطلقت بعد ذلك على الغم والهم والحزن التي تقلب قلب الإنسان وتثقل عليه كالعقدة.

لذلك فإنّ ذكر «الكرب» بما له من المعنى الواسع الذي يشمل أنواع المشاكل والأزمات بعد ذكر ﴿ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ والتي تشمل جانباً من المشاكل فقط، يعتبر من قبيل ذكر مفهوم عام بعد بيان مفهوم خاص (تأمل بدقّة).

وهنا يجدر بنا أنّ نذكر حديثاً تورده بعض التفاسير في هذه الآية: روي عن رسول الله ﷺ قال: «خير الدعاء الخفي وخير الرزق ما يكفي»[(١)] (لا الثروات الضخمة التي هي حصيلة حرمان الآخرين، وتكون عبئاً على كاهل الإنسان)، وروي أيضاً أنّه ﷺ مرّ بقوم رفعوا أصواتهم بالدعاء فقال: «إنّكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، وإنّما تدعون سميعاً قريباً»[(٢)].

يستفاد من هذا الحديث أنّ خير الدعاء ما كان خفياً مقترناً بتوجّهٍ وإخلاص.

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

---

(١) تفسير مجمع البيان وتفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٢٤ في تفسير الآية.

(٢) المصدر السابق.

التّفسير

ألوان العذاب

في الآيات السابقة التي تتضمّن بيان التوحيد الفطري تتجلى محبّة الله لعباده، وحنوه عليهم عند الشّدائد والصعاب، واستجابته لدعواتهم.

وفي هذه الآية تركيز على التهديد بعذاب الله وعقابه، من أجل إكمال طرق التربية والتهذيب، أي أنّ الله هو أرحم الراحمين وملجأ اللاجئين، قهّار منتقم مقابل الطغاة العصاة، ففي هذه الآية يؤمر الرّسول ﷺ بتهديد المجرمين بثلاثة أنواع من العقاب: عذاب من فوق، وعذاب من تحت، وعقاب يتمثل في اختلاف الكلمة والحرب وإراقة الدماء: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾.

وفي الختام تقول الآية: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾، أي انظر كيف نوضّح لهم المعالم والدلائل على أمل أن يفهموا الحقائق ويعودوا إلى الله.

بحوث

هنا أيضاً لابدّ من الإشارة إلى بعض النقاط:

١ - هنالك اختلاف بين المفسّريين بشأن المقصود من العذاب من فوق ومن تحت، ويظهر أنّ لهاتين الكلمتين معاني واسعة، فهما تشملان الجهتين الماديتين من السماء ومن الأرض كالصواعق والأمطار الغزيرة والعواصف المدمّرة التي تأتي من فوق، والزلازل والانشقاقات الأرضية المدمّرة وفيضانات الأنهر والبحار التي تأتي من تحت.

كذلك تشمل الآلام والمصائب التي ينزلها بعض الحكّام والطبقات المتسلطة في المجتمع على رؤوس الشعوب، وكذلك الآلام والعذاب الذي يسببه بعض الموظّفين الذين لا يعرفون واجبهم تجاه الناس ممّا قد لا يقل عمّا يسببه الحكّام والطّبقات العليا من المجتمع.

وكذلك يحتمل أن تشمل أسلحة الحرب المخيفة في عصرنا التي تُبيد حياة البشر بشكل وحشي من الأرض والجوّ، وتُحيل المدن خلال مدّة قصيرة إلى ركامٍ وأنقاضٍ عن طريق القصف الجوي والهجوم الأرضي وزرع الألغام وبواسطة الغواصات المدمّرة داخل البحار.

٢ - ﴿يَلْبِسَكُمْ﴾ من «اللبس» بفتح اللام بمعنى الاختلاط والامتزاج، لا من «اللبس» بضم اللام بمعنى ارتداء الملابس، وعلى ذلك يكون معنى الآية: إنّه قادر على أن يجعل منكم جماعات مختلفة تختلط بعض ببعض.

يستنتج من هذا التعبير أنّ مسألة اختلاف الكلمة والتفرّق في المجتمع لا تقل خطورتها عن العذاب السماوي والصواعق والزلازل، وهو في الحقيقة كذلك، بل قد يكون الخراب الناشيء من اختلاف الكلمة والتفرّق أحياناً أشدّ وطأة ودماراً من الزلازل والصواعق، كثيراً ما نلاحظ أنّ دولاً عامرة يصيبها الفناء بسبب النفاق والتفرقة، وهذه الكلمة تحذير لجميع مسلمي العالم!

هنالك أيضاً احتمال آخر في تفسير هذه الآية، وهو أنّ الله قد أشار - إلى جانب العذاب السماوي والأرضي - إلى لونين آخرين من العذاب: أحدهما: اختلاف العقيدة والفكر (وهو في الواقع مثل العذاب النازل من فوق)، والآخر: هو الاختلاف في العمل والسلوك الاجتماعي الذي يؤدّي إلى الحروب وإراقة الدماء (وهو أشبه بالعذاب الآتي من تحت).

وعليه، فالآية تشير إلى أربعة ألوان من العذاب الطبيعي، ولونين من العذاب الاجتماعي.

٣ - لابدّ من الانتباه إلى أنّ قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾(١)، لايعني أنّ الله يبتلي الناس - بدون مبررٍ - بالنفاق والاختلاف، بل إنّ ذلك نتيجة سوء أعمالهم وغرورهم وأنانياتهم، والانغماس في منافعهم الشخصية، ممّا يثير روح النفاق والتفرقة بينهم، وما نسبة ذلك إلى الله إلاّ لأنّه جعل تلك الآثار من نتائج تلك الأعمال.

٤ - على الرّغم من أنّ الخطاب في هذه الآية موجّه إلى المشركين وعبدة الأصنام، فإنّنا نستنتج أنّ المجتمع المشرك والمنحرف عن طريق التوحيد وعبادة الله، يُصاب بظلم الطبقات العليا، وظلم الطبقات الدنيا المتهاونة في واجباتها، كما تقع البشرية بين براثن الخلافات العقائدية والمخاصمات الدموية في المجتمع، كما هو حال المجتمعات المعاصرة التي تعبد أوثان الصناعة والثروة، فهي رهينة مصائب لا فكاك لها من مخالبها.

---

(١) «شيعاً» جمع «شيعة» بمعنى الجماعة.

بعض الشعوب المسلمة تتحدّث عن التوحيد وعبادة الله بأقوالها، ولكنّها بأفعالها مشركة تعبد الأصنام. إنّ مصائر شعوب كهذه لا تختلف عن مصائر المشركين. وقد يكون حديث الإمام الباقر عليه السلام: «كل هذا في أهل القبلة»[(١)] إشارة إلى هذا الاختلاف بين المسلمين، فعندما ينحرف المسلمون عن طريق التوحيد، تأخذ الأنانية وحبّ الذات مكان الأُخوّة الإسلامية، وتتغلب المصالح الشخصية على المصلحة العامّة، ولا يفكّر الفرد إلاّ بنفسه وينسى الناس أوامر الله ونواهيه، فيحيق بهم ما أحاق بأُولئك.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾

التّفسير

تكمل هاتان الآيتان البحث الذي جرى في الآيات السابقة عن الدعوة إلى الله والمعاد وحقائق الإسلام والخشية من عقاب الله.

الآية الأُولى: تخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّ قومه - أي قريش وأهل مكّة - لم يصدقوا ما يقول مع أنّه صدق وحق وتؤكّده الأدلة العقلية المختلفة والفطرية: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾[(٢)] ثمّ يصدر الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي إنّما أنا رسول ولست أضمن قبولكم.

في الآيات الكثيرة المشابهة لهذه الآية (كالآيات: ١٠٧ - الأنعام، ١٠٨ - يونس، ٤١ - الزمر، ٦ - الشورى) يتبيّن أنّ المقصود من «وكيل» في هذه المواضع هو المسؤول عن الهداية العملية للأفراد والضامن لهم لذلك فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لهم في هذه الآية: إنّ الأمر يعود إليكم، فأنتم الذين يجب أن تتخذوا القرار النهائي في قبول الحقيقة أو ردّها، فما أنا إلاّ رسول أُبلّغ رسالة الله.

وفي الآية التّالية القصيرة ذات المعنى العميق تحذير لهم، ودعوة إلى اختيار الطريق

---

(١) تفسير علي بن إبراهيم القمي، ج ١، ص ٢٠٤؛ وتفسير الميزان، ج ٧، ص ١٤٩.

(٢) الضمير في «به» يرجعه بعضهم إلى القرآن، ويرجعه آخرون إلى العذاب الذي ورد في الآيات السابقة، ولكنّ الظاهر أنّه يرجع إلى كلّ هذه وإلى تعاليم الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم التي كذبوا بها، وتؤكّد ذلك الآية التّالية.

الصحيح، ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[١] أي أنّ كل خبر أخبركم به الرّسول ﷺ في هذه الدنيا أو في الآخرة موضع ومقرّ، وسوف يتحقق في موعده المقرر، وعندئذ ستعرفون ذلك.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

سبب النّزول

جاء في تفسير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه عند ما نزلت الآية الأُولى ونُهي المسلمون عن مجالسة الكفار والذين كانوا يسخرون من آيات الله، قال فريق من المسلمين، إذا كان علينا أن نلتزم بهذا النهي في كل مكان فإنّه يمتنع علينا الذهاب إلى المسجد الحرام والطواف به (وذلك لأنّ أُولئك كانوا منتشرين في أطراف المسجد ولا يفتأون يتناولون الآيات القرآنية بالكلام الباطل، فحيثما نتوقف في أرجاء المسجد ثمّة احتمال أن يصل كلامهم إلى مسامعنا). عندئذ نزلت الآية الثانية تأمر المسلمين في مثل هذه الحالات أن ينصحوهم ويهدوهم ويرشدوهم قدر إمكانهم[٢].

إنّ ورود سبب نزول لهذه الآية لا يتعارض - كما قلنا من قبل - مع نزول السورة كلّها مرّة واحدة، إذ من المحتمل أن تكون هناك حوادث مختلفة في حياة المسلمين، فتنزل سورة واحدة تختص كلّ مجموعة من آياتها ببعض تلك الحوادث.

التّفسير

اجتناب مجالس أهل الباطل

بما أنّ المواضيع التي تتطرّق إليها هذه السورة تتناول حال المشركين وعبدة الأصنام، فهاتان الآيتان تبحثان موضوع آخر من المواضيع التي تتعلّق بهم، ففي

(١) قد يكون «المستقر» المصدر الميمي بمعنى «الإستقرار» أو اسماً لمكان وزمان بمعنى مكان الاستقرار، بالمعنى الأوّل يكون إخباراً عن تحقيق وعد الله، وبالمعنى الثاني الإخبار عن مكان تحققه وزمانه.

(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وبحار الأنوار، ج ٩، ص ٨٩.

البداية تقول للرّسول ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[١].

على الرغم من أنّ الكلام هنا موجّه إلى رسول الله ﷺ، إلّا أنّه لا يقتصر عليه وحده، بل هو موجّه إلى المسلمين كافة، إنّ فلسفة هذا الحكم واضحة، إذ لو اشترك المسلمون في مجالسهم، لاستمر المشركون في خوضهم في آيات الله بالباطل نكاية بالمسلمين واستهزاء بكلام الله، ولكنّ المسلمين إذا مرّوا دون أن يبالوا بهم، فسيكفّون عن ذلك ويغيرون الحديث إلى أمور أُخرى، لأنّهم كانوا يتقصدون إيذاء رسول الله ﷺ والمسلمين.

ثمّ تخاطب الآية رسول الله مؤكّدة أهمية الموضوع: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ[٢] بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي إذا أنساك الشيطان هذا الأمر وجلست مع هؤلاء القوم سهواً، فعليك - حالما تنتبه - أن تنهض فوراً وتترك مجالسة الظالمين.

سؤالان

هنا يبرز سؤالان:

الأوّل: هل يمكن للشّيطان أن يتسلط على النّبي ﷺ ويسبب له النسيان؟ وبعبارة أُخرى، كيف يمكن للنّبي مع عصمته وكونه مصوناً عن الخطأ حتى في الموضوعات أن يخطىء وأن ينسى؟

الجواب: في الإجابة على هذا السؤال يمكن القول بأنّ الخطاب في الآية وإن يكن موجّهاً إلى النّبي ﷺ فهو يتحدّث في الواقع مع أتباعه الذين يمكن أن ينسوا فيساهموا في اجتماعات المشركين الآثمة، فهؤلاء عليهم حال انتباههم إلى ذلك أن يتركوا المكان، إنّ مثل هذا الأسلوب كثير الحدوث في حياتنا اليومية وموجود في مختلف آداب العالم، فأنت قد توجّه الخطاب إلى أحدهم ولكنّ هدفك هو أن يسمع الآخرون ذلك كما يقول المثل: إياكِ أعني واسمعي يا جارة[٣].

---

(١) «الخوض» كما يقول الراغب الأصفهاني في «مفرداته» هو الدخول في الماء والمرور فيه، ثمّ استعير للورود في أُمور أُخرى، وأكثر ما ترد في القرآن بشأن الدخول في موضوع باطل لا أساس له.

(٢) غنيٌّ عن القول بأنّ ﴿فَلَا تَقْعُدْ﴾ لا تعني النهي عن مجرّد الجلوس مع هؤلاء، بل تعني النهي عن معاشرتهم في جميع حالات الجلوس والوقوف أو المسير.

(٣) أُصول الكافي، ج ٢، ص ٦٣١.

هناك مفسّرون آخرون مثل الطبرسي في مجمع البيان وأبي الفتوح في تفسيره المعروف يوردون جواباً آخر عن هذا السؤال خلاصته: إنّ السهو والنسيان في قضايا الأحكام ومقام حمل الرسالة من جانب الله غير جائزين بالنسبة للأنبياء، أمّا في الحالات التي لا تؤدّي إلى ضلال الناس فجائزان[1]، إلاّ أنّ هذا الجواب لا يتفق مع ما هو مشهور عند متكلمينا من أنّ الأنبياء والأئمّة معصومون عن الخطأ ومصونون عن النسيان، لا في قضايا الأحكام وحدها، بل حتى في القضايا العادية أيضاً.

السؤال الثّاني: يعتبر بعض علماء أهل السُّنّة هذه الآية دليلاً على عدم جواز التقية الدينية للقادة الدينيين، وذلك لأنّ الآية تصرّح بالنهي عن اللجوء إلى التقية أمام الأعداء وتأمر بترك مجلسهم.

والجواب: على هذا الاعتراض واضح، فالشيعة لا يقولون بوجوب التقية دائماً، بل إنّ التقية في بعض الأحيان حرام، إنّما ينحصر وجوبها في الظروف التي تكون فيها للتقية وكتمان الحق منافع أكبر من منافع إظهارها، أو تكون سبباً في دفع خطر أو ضررٍ كبير.

الآية التّالية فيها استثناء واحد، فإذا اشترك بعض المتقين في جلسات هؤلاء المشركين لكي ينهوهم عن المنكر على أمل أن يؤدّي ذلك إلى انصراف أُولئك عن الإثم، فلا مانع من ذلك، وإنّ آثام أُولئك لا تسجل على هؤلاء، لأنّ قصدهم هو الخدمة والقيام بالواجب: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

وهنالك تفسير آخر لهذه الآية، والذي قلناه أكثر انسجاماً مع ظاهر الآية ومع سبب النّزول.

وينبغي أن نعلم - في الوقت نفسه - إنّ الذين لهم أن يستفيدوا من هذا الاستثناء هم الذين تنطبق عليهم شروط الآية، فيكونون متميزين بالتقوى، وبعدم التأثّر بهم، وبالقدرة على التأثير فيهم.

سبق في تفسير الآية (١٤٠) من سورة النساء أن تطرّقنا إلى هذا الموضوع وذكرنا مسائل أُخرى أيضاً.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

التّفسير

الذين اتّخذوا الدّين لعباً

هذه الآية تواصل ما بحثته الآية السابقة، وتأمر رسول الله ﷺ أن يدع أُولئك الذين يستهينون بأمر دينهم، ويتخذون ممّا يلهون ويلعبون به مذهباً لهم ويغترون بالدنيا وبمتاعها المادي: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

بديهي أنّ الأمر بترك هؤلاء لا يتعارض مع قضية الجهاد، فللجهاد شروط، ولإهمال الكفار شروط أُخرى، وكل واحد من هذين الحالين يجب أن يتحقق في ظروفه الخاصّة، قد يستلزم الأمر - أحياناً - دفع المناوئين عن طريق عدم الاعتناء بهم، وفي أحيان أُخرى قد يقتضي الأمر الجهاد والتوسل بالسلاح، أمّا القول بأنّ آيات الجهاد قد نسخت هذه الآية فغير صحيح.

وتشير هذه الآية إلى أنّ سلوكهم الحياتي من حيث المحتوى أجوف وواهٍ، فهم يطلقون اسم الدين على بعض الأعمال التي هي أشبه بلعب الأطفال ومجون الكبار، فهؤلاء غير جديرين بالمناقشة والمباحثة، وعليه يؤمر النّبي ﷺ بأن يعرض عنهم ولا يعتني بدينهم الفارغ.

يتضح ممّا قلنا أنَّ «دينهم» يعني «دين الشرك وعبادة الأصنام» الذي كانوا يدينون به، أمّا القول بأنّ المقصود هو «الدين الحق» وأنّ إضافة الدين إليهم يستند إلى كون الدين فطرياً، فيبدو بعيداً.

والاحتمال الآخر في تفسير الآية هو أنّ القرآن يشير إلى جمع من الكفار الذين كانوا يتعاملون مع دينهم كألعوبة وملهاة، ولم ينظروا أبداً إلى الدين كأمر جاد يستوجب إمعان الفكر والتأمل، أي إنّهم كانوا لايؤمنون حقيقة حتى في معتقدات شركهم، ولم يقيموا وزناً حتى لدينهم الذي لا أساس له.

على كل حال فالآية لا تخصّ الكفار وحدهم، بل هي تشمل جميع الذين يتخذون من الأحكام الإلهيّة ومن المقدسات وسائل للتلهي وملء الفراغ وبلوغ الأهداف المادية الشخصية، أُولئك الذين يجعلون الدين آلة الدنيا، والأحكام الإلهيّة ألعوبة أغراضهم الخاصّة.

ثمّ يؤمر رسول الله ﷺ أن ينبّههم إلى أعمالهم هذه وإلى أنّ هناك يوماً لابدّ لهم أن يستسلموا فيه لنتائج أعمالهم ولن يجدوا من ذلك مفرّاً: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾(١).

يوم لا شفيع ينفع ولا ولي سوى الله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

إنّهم يومئذ في حال صعبة مؤلمة يرزحون في قيود أعمالهم بحيث إنّهم يرتضون أن يدفعوا أيّة غرامة (إن كان عندهم ما يدفعونه) ولكنّها لن تقبل منهم: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾(٢).

ذلك لأنّهم يكونون بين مخالب أعمالهم، ولا فدية تنجيهم، ولا توبة تنفعهم بعد أن فات الأوان: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾.

ثمّ يشار إلى جانب ممّا سيصيبهم من العذاب الأليم بسبب إعراضهم عن الحق والحقيقة: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾.

إنّهم يتعذّبون بالماء الحريق من الداخل، ويكتوون بنار الجحيم.

يجدر الانتباه هنا إلى أنّ جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾ هي بمثابة السبب الذي يمنع من قبول الغرامة ومن قبول أيّ شفيع وولي، أي إنّ عقابهم ليس لعلّة خارجية بحيث يمكن دفعها بشكل من الأشكال، بل ينبع من داخل الذات وسلوكها وأعمالها، إنّهم أسرى أعمالهم القبيحة، لذلك لا مفرّ لهم، لأنّ فرار المرء من أعماله وآثارها إنّما هو فرار من ذاته، وهو غير ممكن.

غير أنّنا لابدّ أن نعلم أنّ هذه الحالة من الشدّة والصعوبة وانعدام طريق العودة ورفض الشفاعة إنّما تكون بحق الذين أصروا على كفرهم واستمروا عليه، كما يتبيّن من عبارة: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ (الفعل المضارع يفيد الاستمرارية).

---

(١) «البسل» هو حفظ الشيء ومنعه بالقوّة والقهر، والإبسال حمل المرء على التسليم، كما تطلق الكلمة على الحرمان من الثواب، أو أخذ الرهائن، والجيش الباسل بمعنى القاهر الذي يحمل العدو على التسليم، والمعنى في الآية هو تسليم المرء وخضوعه لأعماله السيئة.

(٢) «العدل» بمعنى «المعادل» وهو ما يدفع جزاءً وغرامة لقاء التحرر، وهو أشبه في الواقع بما يفتدى به.

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ
هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى
ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
(٧١) وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢)﴾

التّفسير

كان المشركون يصرّون على دعوة المسلمين إلى العودة إلى الكفر وعبادة الأصنام، فنزلت هذه الآية تأمر النّبي ﷺ بالردّ عليهم ردّاً يدحض رأيهم ويفند دعوتهم في جواب بصيغة الاستفهام الاستنكاري: أتريدون منّا أن نشرك مع الله ما لا يملك لنا نفعاً فنعبده لذلك، ولا يملك لنا ضرراً فنخافه؟!: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾.

هذه الآية تشير إلى أنّ أفعال الإنسان تنشأ عادة عن دافعين، فهي إمّا أن تهدف إلى استجلاب منفعة (مادية كانت أم معنوية)، وإمّا إلى دفع ضرر (مادياً كان أم معنوياً)، فكيف يقدم الإنسان على أمر ليس فيه أيّ من هذين العاملين؟

ثمّ يأتي باستدلال آخر على بطلان سلوك المشركين، فيقول: إذا عدنا إلى عبادة الأصنام، بعد الهداية الإلهيّة نكون قد رجعنا القهقرى، وهذا يناقض قانون التكامل الذي هو قانون حياتي عام: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[1].

ثمّ يضرب مثلاً لتوضيح الأمر، فيقول: إنّ الرجوع عن التوحيد إلى الشرك أشبه بالذي أغوته الشياطين (أو غيلان البوادي التي كان عرب الجاهلية يعتقدون أنّها تكمن في منعطفات الطرق وتغوي السابلة وتضلهم عن الطريق) فتاه عن مقصده وظل حيراناً في الباديّة: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ بينما له رفاق يرشدونه إلى الصراط السوي المستقيم وينادونه: هلم إلينا، ولكنّه من الحيرة والتيه بحيث لا يسمع النداء، أو أنّه غير قادر على اتخاذ القرار: ﴿لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا﴾[2].

---

(١) «أعقاب» جمع «عقب» وهو مؤخر الرجل، ورجع على عقبه بمعنى انثنى راجعاً، وهو هنا كناية عن الانحراف عن الهدف، وهو ما يطلق عليه اليوم اسم «الرجعية».

(٢) «استهوته» من «الهوى» وهو ميل النفس إلى الشهوة، واستهوته بمعنى حملته على اتباع الهوى، =

وفي الختام يؤمر النّبي ﷺ أن يقول: إنّ الهداية من الله وليس لنا إلاّ أن نسلم لأمر الله ربّ العالمين: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وهذا دليل آخر على رفض دين المشركين، إذ التسليم لا يكون إلاّ لخالق الكون ومالكه وربّ عالم الوجود، لا الأصنام التي لا دور لها في إيجاد هذا العالم وإدارته.

سؤال

يبرز هنا هذا السؤال: لم يكن رسول الله ﷺ قبل البعثة من أتباع دين المشركين فكيف تقول الآية: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ ونحن نعلم أنّه لم يسجد قطّ لصنم، إذ لم يرد هذا في جميع التواريخ التي كتبت عنه، بل إنّ مقام العصمة لا يمكن أن يسمح بحدوثه؟

الجواب

في الحقيقة تعتبر هذه الآية ممّا جاء على لسان جميع المسلمين، لا على لسان النّبي ﷺ وحده، ولذلك جاءت الضمائر فيها بصيغة الجمع.

الآية التّالية، تواصل شرح الدعوة الإلهيّة قائلة: إنّنا فضلاً عن التوحيد، فقد أُمرنا بإقامة الصّلاة وبتقوى الله: ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾.

وفي الختام يُشار إلى المعاد وإلى أنّ الناس إلى الله يرجعون: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

هذه الآيات القصار تكشف عن البرنامج الذي يدعو اليه الرّسول ﷺ والمتألف من أربعة مبادئ، تبدأ بالتوحيد وتنتهي بالمعاد، وبينهما مرحلتان متوسطتان هما: تقوية الارتباط بالله، والاتقاء من كلّ ذنب.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

التّفسير

هذه الآية دليل على ما جاء في الآية السابقة، وعلى ضرورة التسليم لله واتّباع رسوله، لذلك تقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.

إنّ مبدأ عالم الوجود هو وحده الجدير بالعبادة، وهو وحده الذي يجب الخضوع والتسليم له، لأنّه خلق الأشياء لمقاصد حقّة.

المقصود من «الحق» في الآية هو الأهداف والنتائج والمنافع والحكم، أي إنّ كلّ مخلوق قد خُلق لهدفٍ وغايةٍ ومصلحةٍ، وهذه الآيه تشبه الموضوع الذي تتناوله الآية (٧٧) من سورة ص التي جاء فيها: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ﴾.

ثمّ يقول: إنّه فضلاً عن كونه مبدع عالم الوجود، فإنّ يوم القيامة أيضاً يقوم بأمره، وإذا ما أصدر أمره بقيام ذلك اليوم فإنّه يتحقق فوراً: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ﴾[١].

يحتمل بعضهم أنّ هذه العبارة تشير إلى مبدأ الخلق وإيجاد عالم الوجود، حيث خلق كلّ شيء بأمر الله، ولكن بالنظر لأنّ الفعل ﴿يَقُولُ﴾ مضارع، وهناك قبل هذه الآية إشارة إلى أصل الخلق، وكذلك بالرجوع إلى الآيات التّالية، يمكن القول بأنّ هذه العبارة تخصّ البعث ويوم القيامة.

سبق في تفسير الآية (١١٧) من سورة البقرة في المجلد الأوّل أن قلنا إنّ ﴿كُن فَيَكُونُۚ﴾ لا تعني إصدار أمر لفظي لشيء أن يكون فيكون، بل تعني أنّه إذا شاء خلق شيء، فإنّ إرادته تتحقق دون حاجة إلى وجود أيّ عامل آخر، فإذا شاء أن يتحقق الشيء فهو يتحقق فوراً. وإذا شاء أن يتحقق تدريجياً فإنّ خطّة تحققه التدريجي تبدأ.

ثمّ يضيف: أنّ ما يقوله الله هو الحق، أي إنّه مثلما كان مبدأ الخلق ذا أهداف ونتائج ومصالح، كذلك سيكون يوم القيامة: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّۚ﴾.

وفي ذلك اليوم الذي ينفخ فيه في الصور ويبعث الناس يوم القيامة، يكون الحكم والملك لله: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ﴾.

حكومة الله على عالم الوجود ومالكيته له قائمتان منذ بداية الخلق حتى نهايته وفي يوم القيامة، ولا يختص ذلك بيوم القيامة وحده، لكن هناك عوامل وأسباباً تؤثّر في مسار هذه الدنيا وتقدّمها نحو أهدافها، لذلك قد يغفل الإنسان أحياناً عن وجود الله

= و«الحيرة» هي التردد في الأمر، وفي الأصل: الجيئة والذهاب، فالآية تشير إلى الذين يذهبون من الإيمان إلى الشرك مستلهمين تحركاتهم من الشيطان.

(١) يختلف المفسّرون في متعلق الظرف «يوم»، فبعض يعلّقه بجملة «خلق» وبعض يعلّقه بجملة «اذكروا» المحذوفة، ولكن لا يستبعد أن يكون متعلّقاً بجملة «يكون»، فيصبح المعنى: يكون يوم القيامة يوم يقول له كن.

وراء هذه الأسباب والعوامل، أمّا في ذلك اليوم الذي تتعطل فيه جميع الأسباب والعوامل، فإنّ حكومة الله ومالكيته تكونان أجلى وأوضح من أيّ وقت سابق، كما جاء في آية أخرى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾(١).

فيما يتعلّق بماهية «الصور» وكيف ينفخ فيه إسرافيل فتموت الأحياء، ثمّ يعيد النفخ في الصور فيعود الجميع إلى الحياة ويبدأ يوم القيامة - سوف نشرح ذلك إن شاء الله - في تفسير الآية (٦٨) من سورة الزمر.

وفي ختام الآية إشارة إلى ثلاث من صفات الله تعالى، فهو: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

ترد هذه الصفات غالباً في الآيات التي تخصّ يوم القيامة، أي إنّه بمقتضى صفة العلم المطلق عالم بأعمال عباده، وبمقتضى قدرته وحكمته يجازي كلاًّ بما يستحقه.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾

التّفسير

لمّا كانت هذه السورة تحارب الشرك وعبادة الأصنام ويدور فيها الكلام أكثر ما يدور على المشركين وعبدة الأصنام، وتستخدم مختلف الأساليب لإيقاظهم، فهي تستخدم هنا حكاية إبراهيم بطل التوحيد، وتشير إلى منطقه القوي في تحطيم الأصنام ضمن بضع آيات.

من الجدير بالانتباه أنّ القرآن في كثير من بحوثه عن التوحيد ومحاربة عبادة الأصنام يستند إلى هذه الحقيقة، لأنّ إبراهيم عليه السلام كان يحظى باحترام الأقوام كافّة، وعلى الأخص مشركي العرب.

يقول: إنّ إبراهيم وبّخ أباه (عمّه) قائلاً: أتختار هذه الأصنام الحقيرة التي لا حياة فيها آلهة للعبادة: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وأي ضلال أشدّ وأوضح من أن يجعل الإنسان ما يخلقه بيده إلهاً يعبده،

(١) سورة غافر، الآية: ١٦.

ويتخذ من كائن جامد لا روح فيه ولا إحساس ملجأ يفزع إليه ويبحث عن حلّ مشاكله عنده.

هل كان آزر أبا إبراهيم؟

تطلق كلمة «الأب» في العربية على الوالد غالباً، ولكنّها قد تطلق أيضاً على الجدّ من جهة الأُمّ وعلى العمّ، وكذلك على المربّي والمعلّم والذين يساهمون بشكل ما في تربية الإنسان، ولكنّها إذا جاءت مطلقة فإنّها تعني الوالد ما لم تكن هناك قرينة تدلّ على غير ذلك.

فهل الرجل الذي تشير إليه الآية (آزر) هو والد إبراهيم؟ أيجوز أن يكون عابد الأصنام وصانعها والد نبي من أُولي العزم؟ ألا يكون للوراثة من هذا الوالد تأثير سيئ في أبنائه؟

بعض مفسّري أهل السُنّة يجيب بالإيجاب على السؤال الأوّل، ويعتبر آزر والد إبراهيم الحقيقي، أمّا المفسّرون الشيعة فيجمعون على أنّ آزر ليس والد إبراهيم، بل قال بعضهم: إنّه كان جدّه لأُمّه، وقال أكثرهم: إنّه كان عمّه، وهم في ذلك يستندون إلى القرائن التّالية:

١ - لم يرد في كتب التّأريخ أنّ أبا إبراهيم هو آزر، بل يقول التّأريخ إنّ اسم أبيه هو «تارخ» وهذا ما ورد أيضاً في العهدين القديم والجديد، والذين يعتبرون آزر والد إبراهيم يستندون إلى تعليلات لا يمكن قبولها، من ذلك أنّهم يقولون: إنّ اسم والد إبراهيم هو تارخ ولقبه آزر، وهذا القول لا تسنده الوثائق التّأريخية.

أو يقولون: إنّ «آزر» اسم صنم كان أبو إبراهيم يعبده، وهذا القول لا يأتلف مع هذه الآية التي تقول إنّ أباه كان آزر، إلاّ إذا قدّرنا جملة أو كلمة، وهذا أيضاً خلاف الظاهر.

٢ - يقول القرآن: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ...﴾ ثمّ لكي لا يتخذ أحد من استغفار إبراهيم لآزر حجّة يقول: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[1] وذلك لأنّ إبراهيم كان قد وعد آزر أن يستغفر له: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾[2] بأمل رجوعه

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٤. (٢) سورة مريم، الآية: ٤٧.

عن عبادة الأصنام، ولكنّه عندما رآه مصمماً على عبادة الأصنام ومعانداً، ترك الاستغفار له.

يتّضح من هذه الآية بجلاء أنّ إبراهيم بعد أن يئس من آزر، لم يعد يطلب له المغفرة ولم يكن يليق به أن يفعل.

كلّ القرائن تدل على أنّ هذه الحوادث وقعت عندما كان إبراهيم شاباً، يعيش في بابل ويحارب عبدة الأصنام.

ولكن آيات أُخرى في القرآن تشير إلى أنّ إبراهيم في أواخر عمره، وبعد الانتهاء من بناء الكعبة، طلب المغفرة لأبيه (في هذه الآيات - كما سيأتي - لم تستعمل كلمة «أب» بل استعملت كلمة «والد» الصريحة في المعنى) حيث يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾[1].

إذا جمعنا هذه الآية مع آية سورة التوبة التي تنهى المسلمين عن الاستغفار للمشركين وتنفي ذلك عن إبراهيم، إلاّ لفترة محدودة ولهدف مقدّس، تبيّن لنا بجلاء أنّ المقصود من «أب» في الآية المذكورة ليس «الوالد»، بل هو العمّ أو الجدّ من جانب الأُمّ أو ما إلى ذلك، وبعبارة أُخرى: إنّ «والد» تعطي معنى الأُبوة المباشرة، بينما «أب» لا تفيد ذلك.

وقد وردت في القرآن كلمة «أب» بمعنى العمّ، كما في الآية (١٣٣) من سورة البقرة: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ والضمير في «قالوا» يعود على أبناء يعقوب، وكان إسماعيل عمّ يعقوب، لا أباه.

٣ - هناك روايات إسلامية مختلفة تؤكّد هذا الأمر، فقد جاء في حديث معروف عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «لم يزل ينقلني الله من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهرات حتى أخرجني في عالمكم هذا لم يدنسني بدنس الجاهلية»[2].

ولا شكَّ أنّ أقبح أدناس الجاهلية هو الشِّرك وعبادة الأوثان، أمّا القائلون إنّ أقبحها

---

(١) سورة إبراهيم، الآيات: ٣٩ - ٤١.

(٢) يورد هذا الحديث كثيرون من مفسّري الشيعة والسُّنّة، كالمرحوم الطبرسي في «مجمع البيان» والنيسابوري في تفسير «غرائب القرآن» والفخر الرازي في «التّفسير الكبير» والآلوسي في تفسير «روح المعاني».

هو الزنا فلا يقوم على قولهم دليل. خاصّة وأنّ القرآن يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[١].

الطبري، وهو من علماء أهل السنّة، ينقل في تفسيره «جامع البيان» عن المفسّر المعروف «مجاهد» أنّه قال: لم يكن آزر والد إبراهيم[٢].

الآلوسي في «روح المعاني» يؤكّد عند تفسير هذه الآية أنّ الشيعة ليسوا وحدهم الذين يعتقدون أنّ آزر لم يكن والد إبراهيم، بل إنّ كثيراً من علماء المذاهب الأُخرى يرون أنّ آزر اسم عم إبراهيم[٣].

والسيوطي العالم السُّنّي المعروف، نقل في كتابه «مسالك الحنفاء» عن أسرار التنزيل للفخر الرازي أنّ والدي رسول الله ﷺ وأجداده لم يكونوا مشركين أبداً، مستدلاً على ذلك بالحديث الذي نقلناه آنفاً، ثمّ يستند السيوطي نفسه إلى مجموعتين من الرّوايات.

الأُولى: تقول إنّ آباء رسول الله ﷺ وأجداده حتى آدم كان كل واحد منهم أفضل أهل زمانه (وتنقل أمثال هذه الرّوايات عن «صحيح البخاري» و«دلائل النبوة» للبيهقي وغيرهما من المصادر).

والثّانية: هي التي تقول: إنّه في كل عصر وزمان كان هناك أُناس من الموحّدين الذين يعبدون الله، ثمّ يجمع بين هاتين المجموعتين من الرّوايات ويستنتج أنّ أجداد رسول الله ﷺ، بما فيهم والد إبراهيم، كانوا حتماً من الموحّدين[٤].

يتبيّن من هذا أنّ التّفسير المذكور لهذه الآية مبني على وجود قرائن واضحة من القرآن نفسه ومن مختلف الرّوايات الإسلامية، وليس تفسيراً مبنياً على الرأي الشخصي فقط، كما يقول بعض مفسّري أهل السنّة، مثل صاحب «المنار».

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٨.
(٢) تفسير «جامع البيان»، ج ٧، ص ١٥٨.
(٣) تفسير «روح المعاني»، ج ٧، ص ١٦٩.
(٤) «مسالك الحنفاء»، ص ١٧ كما جاء في هامش «بحار الأنوار»، ١٥، ١٨ وما بعدها، الطبعة الجديدة.

هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾
إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ
ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

التّفسير

أدلة التوحيد في السماوات:

على أثر الكره الذي كان يحمله إبراهيم للأوثان وطلبه من آزر أن يترك عبادة الأصنام، تشير هذه الآيات إلى نضال إبراهيم المنطقي مع مختلف عبدة الأصنام، وتبيّن كيفية توصله إلى أصل التوحيد عن طريق الاستدلال العقلي الواضح.

تبيّن أولاً أنّ الله كما عرّف إبراهيم على أضرار عبادة الأصنام عرّفه على مالكية الله وسلطته المطلقة على السماوات والأرض: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[1].

«الملكوت» من «ملك» بمعنى المالكية والحكم و«الواو» و«التاء» أُضيفتا للتوكيد والمبالغة، فالمقصود من الكلمة هنا حكومة الله المطلقة على عالم الوجود برمّته.

ولعلّ هذه الآية إجمال للتفصيل الوارد في الآيات التّالية بشأن الكواكب والقمر والشمس وإدراك أنّها من المخلوقات لدى مشاهدة أُفولها.

أي إنّ القرآن بدأ بذكر مجمل تلك الحالات، ثمّ أخذ يفصّلها، وبهذا يتّضح المقصود من إراءة ملكوت السماوات والأرض لإبراهيم عليه السلام.

كما أنّه في الختام يقول: إنّ الهدف من ذلك هو أن يصبح إبراهيم من أهل اليقين: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾.

لا شكَّ أنّ إبراهيم كان موقناً يقيناً استدلالياً وفطرياً بوحدانية الله، ولكنّه بدراسة أسرار الخلق بلغ يقينه حدّ الكمال، كما أنّه كان مؤمناً بالمعاد ويوم القيامة، ولكنّه بمشاهدة الطيور المذبوحة التي عادت إليها الحياة بلغ إيمانه مرحلة «عين اليقين».

---

(١) وعلى هذا، هناك محذوف مقدّر في الآية يدل عليه ما في الآيات السابقة، فيكون مضمون الآية: كما أرينا إبراهيم قُبح ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام كذلك نُري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض (تأمل بدقّة).

الآيات التّالية تشرح هذا المعنى، وتبيّن استدلال إبراهيم من أُفول الكواكب والشمس على عدم ألوهيتها، فعندما غطّى ستار الليل المظلم العالم كلّه، ظهر أمام بصره كوكب لامع، فنادى إبراهيم: هذا ربّي! ولكنّه إذ رآه يغرب، قال: لا أحبّ الذين يغربون: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾.

ومرّة أُخرى رفع عينيه إلى السماء فلاح له قرص القمر الفضّي ذو الإشعاع واللمعان الجذّاب على أديم السماء، فصاح ثانية: هذا ربّي: ولكنّ مصير القمر لم يكن بأفضل من مصير الكوكب قبله، فقد أخفى وجهه خلف طيّات الأُفق.

هنا قال إبراهيم: إذا لم يرشدني ربّي إلى الطريق الموصل إليه فسأكون في عداد التائهين ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

عند ذاك كان الليل قد انقضى، وراح يجمع أطراف أستاره المظلمة هارباً من كبد السماء، بينما راحت الشمس تطل من المشرق وتلقي بأشعتها الجميلة كنسيج ذهبي تنشره على الجبل والوادي والصحراء، وما أن وقعت عين إبراهيم الباحث عن الحقيقة على قرص الشمس الساطع صاح: هذا ربّي فإنّه أكبر وأقوى ضوءاً، ولكنّه إذ رآها كذلك تغرب وتختفي في جوف الليل البهيم أعلن إبراهيم قراره النهائي قائلاً: يا قوم! لقد سئمت كل هذه المعبودات المصطنعة التي تجعلونها شريكة لله: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

الآن بعد أن عرفت أنّ وراء هذه المخلوقات المتغيّرة المحدودة الخاضعة لقوانين الطبيعة إلهاً قادراً وحاكماً على نظام الكائنات، فانّي أتجه إلى الذي خلق السماوات والأرض، وفي إيماني هذا لن أشرك به أحداً، فإنّي موحّد ولست مشركاً: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

للمفسّرين كلام كثير في تفسير هذه الآية والآيات التّالية بشأن ما دفع بإبراهيم الموحّد العابد لله الواحد، أن يشير إلى كوكب في السماء ويقول: هذا ربّي؟ ومن بين آراء المفسّرين الكثيرة نقف عند تفسيرين قد اختار كلاً منهما عدد من كبار المفسّرين، كما أنّهما مدعومان بشواهد من المصادر الحديثية:

الأوّل: يقول: إنّ إبراهيم كان يريد شخصياً أن يفكّر في معرفة الله وأن يعثر على المعبود الذي كان يجده بفطرته النقية في أعماق ذاته، إنّه كان يعرف الله بنور فطرته

ودليل العقل الإجمالي إذ إنّ كلّ تعبيراته تدل على أنّه لم يكن يشك أبداً في وجوده، ولكنّه كان يبحث عن مصداقه الحقيقي، بل لقد كان يعلم بمصداقه الحقيقي أيضاً، ولكنّه كان يريد أن يصل عن طريق الاستدلال العقلي الأوضح إلى مرحلة «حق اليقين».

وقد وقعت له هذه الحوادث قبل نبوته، ويحتمل أن تكون في أوّل بلوغه أو قبيل ذلك.

نقرأ في بعض التواريخ والرّوايات أنّ هذه كانت المرّة الأُولى التي يرنو فيها إبراهيم بنظره إلى السماء وإلى كواكبها الساطعة، لأنّ أُمّه كانت منذ طفولته قد أخفته في غارٍ خوفاً عليه من بطش نمرود الجبار وجلاوزته[١].

غير أنّ هذا الاحتمال يبدو بعيداً، إذ يصعب أن نتصور إنساناً يعيش سنوات طويلة في بطن غارٍ ولا يخطو خارجه، ولو مرّة، في ليلة ظلماء، فلعلّ الذي قوّى هذا الاحتمال في نظر بعض المفسّرين هو تعبير ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ الذي يوحي بأنّه لم يكن قد رأى كوكباً حتى ذلك الحين، ولكن هذا التعبير لا يحمل في الواقع مثل هذا المفهوم، بل المقصود هو أنّه، وإن كان قد رأى الكواكب والشمس والقمر مرّات حتى ذلك الوقت، فقد ألقى لأوّل مرّة نظرة فاحصة مستطلعة إلى هذه الظواهر. وكان يفكّر في مغزى بزوغها وأُفولها ونفي الأُلوهية عنها، في الحقيقة كان إبراهيم قد رآها مراراً، ولكن لا بتلك النظرة.

لذلك فإنّه عندما يقول: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ لا يقولها قاطعاً جازماً، بل يقولها من باب الفرض والاحتمال حتى يفكّر في الأمر، وهذا يشبه تماماً حالنا ونحن نحاول أن نعثر على سبب حادثة ما، فنقلّب مختلف الاحتمالات والافتراضات على وجوهها واحدة واحدة، ونستقصي لوازم كلّ فرضية حتى نعثر على العلّة الحقيقية، وهذا لا يكون كفراً، بل ولا حتى دليلاً على عدم الإيمان، بل هو طريق لتحقيق أكثر ولمعرفة أفضل، للوصول إلى مراحل أعلى من الإيمان، كما فعل إبراهيم في مسألة «المعاد» إذ قام بمزيد من الدراسة توصل إلى مرحلة الشهود والاطمئنان.

جاء في تفسير العياشي عن محمّد بن مسلم عن الإمام الباقر أو الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّما كان إبراهيم طالباً لربّه، ولم يبلغ كفراً، وأنّه من فكر من الناس في مثل ذلك فإنّه بمنزلته»[٢].

---

(١) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٧٨ و ٧٩. (٢) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٣٨.

وهنالك روايتان أُخريان يذكرهما تفسير نور الثقلين بهذا الشأن.

أمّا التّفسير الثّاني فيقول: إنّ إبراهيم كان يقول هذا الكلام أثناء مخاطبته عبدة النجوم والشمس، ويحتمل أن يكون ذلك بعد مخاصماته الشديدة في بابل مع عبدة الأوثان وخروجه منها إلى الشام، حيث التقى بهؤلاء الأقوام، وإبراهيم الذي كان قد خبر عناد الأقوام الجاهلة في بابل وخطأ تفكيرهم، أراد أن يجلب إليه انتباه عبدة الكواكب والشمس والقمر، فأظهر في البداية أنّه معهم وقال لهم: إنّكم تقولون: إنّ كوكب الزهرة هو ربّي، حسناً، فلنر ما يحصل لهذا الاعتقاد في النهاية، ولم يمض وقت طويل حتى اختفى وجه الكوكب النير خلف ستار الأُفق المظلم، عندئذ اتّخذ إبراهيم من هذا الأُفول سلاحاً يواجههم به فقال: أنا لا يمكنني أن أتقبل معبوداً كهذا.

وعليه، فإنّ عبارة ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ تعني: هذا ما تعتقدون أنّه ربّي، أو أنّه قالها بلهجة الاستفهام: «هذا ربّي؟».

ويؤيّد هذا التّفسير أيضاً رواية في «نور الثقلين» وتفاسير أُخرى عن كتاب «عيون أخبار الرضا عليه السلام»(١).

كيفية استدلال إبراهيم على التوحيد

هنا يبرز هذا السؤال: كيف استطاع إبراهيم أن يستدل من غروب الشمس والقمر والكواكب على عدم ربوبيتها؟

يمكن أن يكون هذا الاستدلال من طرق ثلاثة:

١ - إنّ الله المربّي، كما يستفاد من كلمة «رب» لابدّ أن يكون دائماً قريباً من مخلوقاته وأن لا ينفصل عنهم لحظة واحدة، وعليه لا يجوز لكائن يغرب ويختفي ساعات طويلة بنوره وبركته وتنقطع صلته كلّياً عن الكائنات الأُخرى، أن يكون ربّاً وإلهاً.

٢ - إنّ كائناً يغرب ويبزغ ويخضع للقوانين الطبيعية، لا يمكن أن يحكم على هذه القوانين ويملكها؟ إنّه هو نفسه مخلوق ضعيف يخضع لأوامرها وغير قادر على أدنى انحراف عنها...

٣ - إنّ الكائن المتحرّك لا يمكن إلاّ أن يكون كائناً حادثاً، فقد أثبتت الفلسفة أنّ

(١) تفسير الميزان، ج ٧، ص ٢٠٥.

الحركة دليل على الحدوث، لأنّ الحركة ذاتها نوع من الوجود الحادث، وأنّ ما يكون في معرض الحوادث، أي يكون ذا حركة، لا يمكن أن يكون كائناً أزلياً وأبدياً (تأمل بدقّة).

ملاحظات

هنا لابدّ من الانتباه إلى النقاط التّالية:

١ - في الآية الأُولى من الآيات التي نحن بصددها، كلمة «كذلك. . .» تلفت النظر، وهي تعني: إنّنا مثلما أوضحنا - عقلاً - أضرار عبادة الأصنام لإبراهيم، كذلك نريه مالكية الله للسماوات والأرض وحكمه عليها، يقول بعض المفسّرين: ذلك يعني: إنّنا كما أريناك قدرة الله وحكمه على السماوات، أريناها لإبراهيم أيضاً لكي يزداد معرفة بالله.

٢ - أصل «الجن» ستر الشيء عن الحاسة، فمعنى الآية هو: عندما ستر الليل ملامح الكائنات عن إبراهيم. . . وإطلاق كلمة «مجنون» على المخبول لإسدال ستار على عقله، وإطلاق «الجن» على الكائنات غير المرئية جاء من هذا الباب، وكذلك الجنين لاختفائه عن الأنظار في رحم أُمّه، و«الجنّة» هي البستان التي اختفت أرضها تحت أغصان الأشجار، وقيل للقلب «الجنان» لاستتاره في الصدر، أو لأنّه يخفي أسرار الإنسان.

٣ - وبشأن تعيين الكوكب الذي رآه إبراهيم، ذهب المفسّرون مذاهب شتى، غير أنّ معظمهم يراه «الزهرة» أو «المشتري» ويذكر التّأريخ أنّ القدامى كانوا يعبدون هذين الكوكبين من بين آلهتهم، أمّا الحديث المنقول عن الإمام الرضا عليه السلام في «عيون الأخبار».

فيقول: إنّ ذلك الكوكب كان «الزهرة»[(١)]، وهذا ما جاء أيضاً في تفسير علي بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام[(٢)].

يقول بعض المفسّرين: إنّ أهالي كلدة وبابل شرعوا في محاربة عبدة الأصنام، وراحوا يختارون السيارات باعتبار كلّ واحدة منها تمثّل إلهاً لنوع من أنواع الأشياء، من

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ١٧٥.

(٢) نور الثقلين، ج ١، ص ٧٣٥ و٧٣٧. تفسير علي بن إبراهيم القمي، ج ١، ص ٢٠٧.

ك أنّهم اعتبروا «المريخ» إله الحرب، و«المشتري» إله العدل والعلم، و«عطارد» إله زراء و«الشمس» ملك الآلهة جميعاً[١].

٤ - «بازغ» من «بزغ» وبزغه: شقه وأسال دمه، ولذلك تطلق على عمل البيطار في جراحة، وإطلاق هذه الكلمة على طلوع الشمس أو القمر تعبير بليغ يحمل أجمل صور شبيه، فالشمس والقمر عند الطلوع يشقّان الظلام، ويسكبان عند الأُفق احمرار الشفق ي ليس ببعيد الشبه عن الدم المسفوح.

٥ - «فطر» من «الفطور» بمعنى الشق، ولعلّ إطلاق هذه الكلمة على خلق السماء لأرض ناشىء - كما قلنا في تفسير الآية (١٤) من هذه السورة - من كون العالم كان في وم الأوّل - حسبما يقول العلم اليوم - كتلة واحدة، ثمّ تشققت وظهرت الكرات لأجرام السماوية الواحدة بعد الأُخرى (انظر تفسير الآية المذكورة لمزيد من الإيضاح).

٦ - «الحنيف» هو الخالص، كما جاء في تفسير الآية (٦٧) من سورة آل عمران.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ
إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾
وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ
بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾
وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ
حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾﴾

التّفسير

تعقيباً على ما جرى بحثه في الآيات السابقة بشأن استدلالات إبراهيم عليه السلام وحيدية، تشير هذه الآيات إلى ما دار بين إبراهيم والأقوام المشركة من عبدة صنام، الذين بدأوه بالمحاجّة ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ﴾.

---

١. تفسير روح الجنان لأبي الفتوح، ج ٤، ص ٤٦٧ - في الهامش -.

فردّ عليهم إبراهيم عليه السلام قائلاً: لماذا تجادلونني في الله الواحد الأحد وتخالفونني فيه، وهو الذي وهبني من الدلائل المنطقية الساطعة ما هداني به إلى طريق التوحيد ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾.

يتّضح في هذه الآية بجلاء أنّ قوم إبراهيم المشركين من عبدة الأصنام كانوا يحاولون جهدهم وبأيّ ثمن أن يبعدوا إبراهيم عن عقيدته ويرجعوه إلى عبادة الأصنام، ولكنّه بكلّ شجاعة وجرأة ردّ عليهم بالدلائل المنطقية الواضحة.

لا تشير هذه الآيات إلى المنطق الذي توسّل به قوم إبراهيم لحمله على ترك عقيدته، ولكن يبدو من جواب إبراهيم أنّهم قد حذّروه وهددوه بغضب آلهتهم وعقابها في محاولة لإرعابه وإخافته، لأنّنا على أثر ذلك نسمع إبراهيم يستهين بتهديدهم ويؤكّد لهم أنّه لا يخشى أصنامهم التي لا حول لها ولا قوّة في إيصال أيّ أذى إليه ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ...﴾ فما من أحد ولا من شيء بقادر على أن يلحق بي ضرراً إلّا إذا شاء الله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ﴾[1].

يظهر من هذه الآية أنّ إبراهيم عليه السلام سعى لاتخاذ إجراء وقائي تجاه حوادث محتملة، فيؤكّد أنّه إذا أصابه في هذا الصراع شيء - فرضاً - فلن يكون لذلك أيّ علاقة بالأصنام، بل يعود إلى إرادة الله، لأنّ الصنم الذي لا روح فيه ولا قدرة له على أن ينفع نفسه أو يضرّها، لا يتأتى له أن ينفع أو يضرّ غيره.

ويضيف إلى ذلك مبيّناً أنّ ربّه على درجة من سعة العلم بحيث يسع علمه كلّ شيء: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ﴾.

هذه العبارة - في الواقع - دليل على العبارة السابقة التي تقول: إنّ الأصنام لا قدرة لها على النفع والضرر، لأنّها لا تملك العلم ولا المعرفة اللازمين لمن يريد أن ينفع أو يضرّ، إنّ الله الذي أحاط علمه بكلّ شيء هو وحده القادر على أن يكون منشأ النفع والضرر، فلم إذن أخشى غضب غير الله؟!

ثمّ يحرّك فيهم روح البحث والتفكير فيخاطبهم قائلاً: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

في الآية التّالية ينهج إبراهيم منطقاً استدلالياً آخر، فيقول لعبدة الأصنام: كيف

---

(١) هذا أشبه بالإستثناء المنقطع، فقد نفى عن الأصنام كلّ قدرة على النفع والضرر، وأثبتها لله، وللمفسّرين آراء أُخرى في تفسير هذه الآية، غير أنّ ما قلناه أقرب.

يمكنني أن أخشى الأصنام ويستولي عليّ الخوف من تهديدكم، مع إنّي لا أرى في أصنامكم أثراً للعقل والإدراك والشعور والقوة والعلم، أمّا أنتم فعلى الرغم من إيمانكم بوجود الله وإقراركم له بالعلم والقدرة، ومعرفتكم بأنّه لم يأمركم بعبادة هذه الأصنام، فإنّكم لا تخافون غضبه: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا﴾(١).

إنّنا نعلم أنّ عبدة الأصنام لم يكونوا ينكرون وجود الله خالق السماوات والأرض، ولكنّهم كانوا يشركون الأصنام في عبادته ويعتبرونها شفيعة لهم عنده، كونوا منصفين إذن وقولوا: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

يستند منطق إبراهيم عليه السلام هنا إلى منطق العقل القائم على الواقع، إنّكم تهددونني بغضب الأصنام، مع أنّ تأثيرها وهمٌ من الأوهام، ولكنّكم بعدم خشيتكم من الله العظيم الذي نؤمن به جميعاً، ونعتقد بوجوب اتباع أمره تكونون قد تركتم أمراً ثابتاً، وتمسكتم بأمر وهمي، ولم يصدر الله تعالى إلينا أمراً بعبادة الأصنام.

في **الآية التّالية** جواب يدلي به إبراهيم على سؤال كان هو قد ألقاه في الآية السابقة (وهذا أسلوب من أساليب الاستدلال العلمي، فقد يسأل المتكلم سؤالاً عن لسان المخاطب ثمّ يبادر إلى الإجابة عليه مباشرة كدليل على أنّ الجواب من الوضوح بحيث ينبغي أن يعرفه كلّ شخص)، يقول: إنّ المؤمنين الذين لم يمزجوا إيمانهم بظلم، هم الآمنون وهم المهتدون ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

ثمّة رواية عن أمير المؤمنين علي عليه السلام تؤيّد كون هذه الآية استكمالاً لحوار إبراهيم مع عبدة الأصنام(٢).

بعض المفسّرين يرى أنّ من المحتمل أن تكون هذه الآية بياناً إلهيّاً، وليست مقولة قالها إبراهيم، إلاّ أنّ ما ذكرناه - فضلاً عن تأييد الرواية المذكورة له - أكثر انسجاماً مع ترتيب الآيات ووضعها، أمّا القول بأنّ هذه الآية لسان حال عبدة الأصنام، وأنّهم قالوها بعد تيقّظهم على أثر سماع أدلة إبراهيم، فأمر بعيد الاحتمال جدّاً.

---

(١) «السلطان» بمعنى التفوّق والانتصار، ولمّا كان الدليل والبرهان من أسباب الفوز والانتصار، فقد يوصفان بالسلطان أيضاً، كما هو الحال هنا، أي لا وجود لأيّ دليل على السماح بعبادتها وهذا ما لم يستطع إنكاره عابد صنم، لأنّ أمراً كهذا ينبغي أن يصدر عن طريق العقل والمنطق، أو عن طريق الوحي والنبوة، وعبادة الأصنام مفتقرة إلى كليهما.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٠٠ في تفسير الآية.

ما معنى «الظلم» هنا؟

يرى معظم المفسّرين أنّ معنى «الظلم» هنا هو «الشرك». وأنّ الآية (١٢) من سورة لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ دليل على ذلك.

وفي رواية منقولة عن ابن عباس أنّه عند نزول هذه الآية شقّ على الناس فقالوا: يا رسول الله وأيّنا لم يظلم نفسه؟ (أي أنّ الآية تشملهم جميعاً)، فقال رسول الله ﷺ: «إنّه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا إلى ما قال العبد الصالح: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[(١)].

غير أنّ لآيات القرآن معاني متعددة في كثير من الحالات بحيث يمكن أن يكون أحدها أوسع وأشمل، وهذا الاحتمال جائز في هذه الآية أيضاً، فيحتمل أن يكون «الأمن» عاماً يشمل الأمن من عقاب الله، والأمن من حوادث المجتمع المؤلمة، والأمن من الحروب والمفاسد والجرائم، وحتى الأمن النفسي لا يتحقق إلّا عندما يسود المجتمع مبدآن معاً: الإيمان والعدالة الاجتماعية، فإذا ما تزلزلت قاعدة الإيمان بالله، وزال الشعور بالمسؤولية أمام الله، وحلّ الظلم محل العدالة الاجتماعية، فلن يكون في مثل هذا المجتمع أمان. لذلك فعلى الرغم من المساعي والجهود التي يبذلها فريق من العلماء في العالم للحيلولة دون انعدام الأمن، فإنّ الهوة بين العالم وحالة الأمن والاستقرار تتسع يوماً بعد يوم، إنّ السبب هو ما جاء في الآية المذكورة: تزلزل أركان الإيمان، وقيام الظلم مقام العدالة.

إنّ تأثير الإيمان في الاطمئنان النفسي والهدوء الروحي لا يمكن إنكاره، كما لا تخفى على أحد حالات تبكيت الضمير والقلق النفسي بسبب ارتكاب المظالم.

روي عن الإمام الصّادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ قال: «بما جاء به محمّد ﷺ من الولاية، ولم يخلطوها بولاية فلان وفلان»[(٢)].

هذا التّفسير يستهدف - في الحقيقة - بيان روح الموضوع في الآية الشريفة، إذ إنّ الكلام يدور حول ولاية الله وعدم خلطها بولاية غيره، ولمّا كانت ولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام بموجب ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ . . .﴾[(٣)] قبساً من ولاية الله ورسوله ﷺ

---

(١) المصدر السابق، ص ٩٩.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٤٠.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

والولايات غير المعيّنة من قبل الله ليست كذلك، فإنّ هذه الآية من خلال نظرة واسعة تشمل الجميع، وعليه ليس المقصود من هذا الحديث أن ينحصر معنى الآية في هذا فقط، بل إنّ هذا التّفسير قبس من مفهوم الآية الأصلي.

لذلك نجد في حديث آخر عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه جعل هذه الآية تشمل الخوارج الذين خرجوا من ولاية الله ودخلوا في ولاية الشيطان(١).

الآية التّالية فيها إشارة إجمالية لما مضى من بحث بشأن التوحيد ومجابهة الشرك كما جاء على لسان إبراهيم، فتقول: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾.

صحيح أنّ تلك الاستدلالات كانت منطقية توصّل إليها إبراهيم بقوّة العقل والإلهام الفطري غير أنّ قوّة العقل والإلهام الفطري من الله، لذلك فإنّ الله ينسبها إلى نفسه ويوقعها في القلوب المستعدة كقلب إبراهيم عليه السلام.

ومن الجدير بالملاحظة أنّ «تلك» اسم إشارة للبعيد، غير أنّها تستعمل أحياناً للقريب للدلالة على أهميّة المشار إليه وعلوّ مقامه، مثل ذلك ما جاء في أوّل سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

ثمّ تقول الآية: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾(٢) ولكي لا يخامر بعضهم الشكّ في أنّ الله يحابي في إعطاء الدرجات لمن يشاء، تقول: إن الله متصف بالحكمة وبالعلم، فلا يمكن أن يرفع درجة من لا يستحق ذلك: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾

(١) تفسير البرهان، ج ١، ص ٥٣٨.
(٢) انظر المجلد الثّالث، تفسير الآية (١٤٥) من سورة النساء لمعرفة الفرق بين «الدرجة» و«الدرك».

التّفسير

في هذه الآيات إشارة إلى النِّعم التي أسبغها الله على إبراهيم، وهي تتمثل في أبناء صالحين وذرية لائقة، وهي من النِّعم الإلهيّة العظيمة.

يقول سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ولم تذكر الآية ابن إبراهيم الآخر إسماعيل، بل ورد اسمه في سياق آية أخرى، ولعلّ السبب يعود إلى أنّ ولادة إسحاق من (سارة) العقيم العجوز تعتبر نعمة عجيبة وغير متوقعة.

ثمّ يبيّن أنّ مكانة هذين لم تكن لمجرّد كونهما ولدي نبي، بل لإشعاع نور الهداية في قلبيهما نتيجة التفكير السليم والعمل الصالح: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾.

ثمّ لكي لا يتصور أحد أنّه لم يكن هناك من يحمل لواء التوحيد قبل إبراهيم، وأنّ التوحيد بدأ بإبراهيم، يقول: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾.

إنّنا نعلم أنّ نوحاً هو أوّل أُولي العزم من الأنبياء الذين جاؤوا بدينٍ وبشريعة.

فالإشارة إلى مكانة نوح، وهو من أجداد إبراهيم، والإشارة إلى فريق من الأنبياء من أبنائه وقبيلته، إنّما هي توكيد لمكانة إبراهيم المتميزة من حيث «الوراثة والأصل» و«الذّرية».

وعلى أثر ذلك ترد أسماء عدد من الأنبياء من أُسرة إبراهيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، ثمّ يبيّن أنّ منزلة هؤلاء ناشئة من أعمالهم الصالحة وهم لذلك ينالون جزاءهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

هناك كلام كثير بين المفسّرين بشأن الضمير في ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ هل يعود إلى إبراهيم، أم إلى نوح؟ غير أنّ أغلبهم يرجعه إلى إبراهيم، والظاهر أنّه لا مجال للشكّ في عودة الضمير إلى إبراهيم، لأنّ الكلام يدور على ما وهبه الله لإبراهيم، لا لنوح عليه السلام، كما أنّ الرّوايات التي سوف نذكرها تؤيّد هذا الرأي.

النقطة الوحيدة التي حدت ببعض المفسّرين إلى إرجاع الضمير إلى نوح هي ورود ذكر «يونس» و«لوط» في الآيات التّالية، إذ المشهور في التّاريخ أنّ «يونس» لم يكن من أبناء إبراهيم، كما أنّ «لوطاً» كان ابن أخ إبراهيم أو ابن أُخته.

غير أنّ المؤرخين ليسوا مجمعين على نسب «يونس»، فبعضهم يراه من أُسرة

إبراهيم[١] وآخرون يرونه من أنبياء بني إسرائيل[٢].

ثمّ إنّ الجاري عند المؤرخين أن يحفظوا النسب من جهة الأب، ولكن ما الذي يمنع من أن ينتسب «يونس» من جهة أُمّه إلى إبراهيم، كما هي الحال بالنسبة إلى عيسى الذي نقرأ اسمه في الآيات؟

أمّا «لوط» فهو، وإن لم يكن من أبناء إبراهيم، فقد كان من أُسرته، فالعرب تُطلق لفظة «الأب» على «العم»، وكذلك تعتبر ابن الأخ أو ابن الأُخت من «ذرية» المرء، وعلى هذا ليس لنا أن نتغاضى من ظاهر هذه الآيات فنعيد الضمير إلى نوح، وهو ليس موضوع القول هنا.

في **الآية الثانية** يرد ذكر زكريا ويحيى وعيسى والياس على أنّهم جميعاً كانوا من الصالحين، أي إنّ مكانتهم المرموقة ليست من باب المجاملة الإجبارية، بل هي بسبب أعمالهم الصالحة في سبيل الله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

الآية الثالثة تذكر أربعة آخرين من الأنبياء والقادة الإلهيين، وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط الذين رفعهم ربّهم درجات على أهل زمانهم: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

لم يتفق المفسّرون بشأن اسم «اليسع» فقد قال بعض: إنّه اسم عبري أصله «يوشع» ثمّ أُضيفت إليه الألف واللام وأُبدلت الشين سيناً، وبعض يرى أنّه اسم عربي من الفعل المضارع «يسع» وعلى كلّ حال هو اسم أحد الأنبياء من نسل إبراهيم.

وفي الآية الأخيرة إشارة عامّة إلى آباء الأنبياء المذكورين وأبنائهم وإخوانهم ممن لم ترد أسماؤهم بالتفصيل وهم جميعاً من الصالحين الذين هداهم الله: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ملاحظات

هنا لابدّ من الإشارة إلى بعض النقاط:

١ - أبناء النّبي

في هذه الآيات اعتبر عيسى من أبناء إبراهيم (وباحتمال من أبناء نوح) مع أنّنا نعلم

---

(١) تفسير روح المعاني للآلوسي، ج ٧، ص ١٨٤.

(٢) دائرة المعارف فريد وجدي، ج ١٠، ص ١٠٥٥ في مادة «يونس».

أنّ اتصاله بهما إنّما هو من جهة الأُم، وهذا دليل على أنّ سلسلة النسب تتقدّم من جهة الأب والأُم تقدّماً متساوياً، ولذلك فإنّ الأحفاد من الابن أو البنت هم ذرية المرء وأولاده.

وعلى هذا فإنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام - وهم جميعاً من أحفاد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ابنته - يعتبرون أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

إنّ جاهلية ما قبل الإسلام لم تكن تعترف للمرأة بأيّة مكانة أو قيمة، وكان النسب عندهم ما اتصل من جهة الأب فقط، غير أنّ الإسلام أبطل هذه العادة الجاهلية، ومن المؤسف أنّ بعض أصحاب الأقلام الذين في نفوسهم شيء تجاه أئمة أهل البيت عليهم السلام، سعوا إلى إنكار هذا الموضوع، وحاولوا العودة إلى الجاهلية بالامتناع عن نسبة أبناء فاطمة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورفضوا إطلاق عبارة «ابن رسول الله» عليهم إحياء للتقاليد الجاهلية.

هذا الموضوع نفسه كان قد عرض للمناقشة على عهود الأئمّة، فكانوا يجيبونهم بهذه الآية باعتبارها الدليل الدامغ والردّ الحاسم على ما يفترون.

من ذلك ما جاء في «الكافي» وفي تفسير العياشي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «والله لقد نسب الله عيسى ابن مريم في القرآن إلى إبراهيم عليه السلام من قبل النساء ثمّ تلا: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَـٰنَ...﴾ إلى آخر الآيتين، وذكر عيسى[1].

وفي تفسير العياشي عن أبي الأسود قال: أرسل الحجاج إلى يحيى بن معمر قال: بلغني أنّك تزعم أنّ الحسن والحسين من ذرية النّبي تجدونه في كتاب الله، وقد قرأت كتاب الله من أوّله إلى آخره فلم أجده، قال: أليس تقرأ سورة الأنعام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَـٰنَ﴾ حتى بلغ ﴿وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ أليس عيسى من ذرية إبراهيم وليس له أب؟ قال: صدقت[2].

وفي (عيون أخبار الرضا) في باب جمل من أخبار موسى بن جعفر عليه السلام مع هارون الرشيد ومع موسى بن المهدي حديث طويل بينه وبين هارون وفيه... ثمّ قال: كيف قلتم: إنّا ذريّة النّبي، والنّبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يعقب، وإنّما العقب للذكر، لا للأُنثى وأنتم ولد لابنته، ولا يكون لها عقب، فقلت: «أسألك بحق القرابة والقبر ومن فيه إلّا ما أعفيتني

---

(١) تفسير العياشي، ج١، ص ٣٦٧؛ وبحار الأنوار، ج ٦٥، ص ٩١.
(٢) تفسير العياشي، ج ١، ص ٣٦٧؛ وتفسير الميزان، ج ٧، ص ٢٦١.

من هذه المسألة» فقال: لا، أو تخبرني بحجّتكم فيه يا ولد علي، وأنت يا موسى يعسوبهم وإمام زمانهم، كذا أنهي إليّ، ولست أُعفيك في كلّ ما أسألك عنه حتى تأتيني فيه بحجّة من كتاب الله، وأنتم تدعون معشر ولد علي أنّه لا يسقط عنكم منه شيء لا ألف ولا واو، إلّا وتأويله عندكم، واحتججتم بقوله عزّوجلّ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[1] واستغنيتم عن رأي العلماء وقياسهم، فقلت: «تأذن لي في الجواب؟» قال: هات، فقلت: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾» من أبو عيسى يا أمير المؤمنين؟ قال: ليس لعيسى أب، فقلت: «إنّما ألحق بذراري الأنبياء من طريق مريم عليها السلام، وكذلك ألحقنا بذراري النّبي من قبل أُمنا فاطمة عليها السلام»[2].

ومما يلفت النظر أنّ بعض المتعصّبين من أهل السُّنّة تطرّقوا إلى هذا الموضوع عند تفسيرهم لهذه الآية، منهم الفخر الرازي في تفسيره حيث استدل بها أنّ الحسن والحسين من ذرية النّبي، لأنّ الله ذكر عيسى من ذرية إبراهيم مع أنّه يرتبط به عن طريق الأُم فقط[3].

وصاحب المنار الذي لا يقل تعصّباً عن الفخر الرازي يقول بعد أن ينقل كلام الرازي: إنّ في هذا الباب حديثاً ذكره البخاري في صحيحه عن أبي بكر عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال مشيراً إلى الحسن بن علي عليه السلام: «انّ ابني هذا سيد»[4] بينما كانت لفظة (ابن) عند عرب الجاهلية لا تطلق على ابن البنت... ثمّ يضيف: لهذا السبب، اعتبر الناس أولاد فاطمة أولاد رسول الله وعترته وأهل بيته.

لا شكّ أنّ أبناء البنت وأبناء الابن هم أبناء المرء ولا فرق بينهما، ولا هي قضية اختص بها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وحده، وما سبب الاعتراض على هذا إلّا التعصّب والتمسك بالأفكار الجاهلية، ولهذا نجد جميع التشريعات الإسلامية، كالزواج والإرث، لا تفرّق بينهما، إنّ الاستثناء الوحيد في هذا الباب هو في موضوع الخمس الذي ورد في كتب الفقه، حيث جعل لمن تحصل فيه عنوان السيادة.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٤٣.
(٣) التفسير الكبير للفخر الرازي، ج ١٣، ص ٦٦.
(٤) صحيح البخاري، ج ٣، ص ١٦٩ و ١٧٠.

٢ - لماذا وردت أسماء الأنبياء في ثلاث مجموعات في ثلاث آيات؟

يحتمل بعض المفسّرين أنّ المجموعة الأُولى: داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، هؤلاء الستة، كانوا بالإضافة إلى نبوتهم يمسكون بيدهم القيادة وزمام الحكم، ولعلّ ورود ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إشارة إلى الأعمال الصالحة التي قاموا بها أثناء حكمهم.

أمّا المجموعة الثّانية: زكريا ويحيى وعيسى والياس، فهم بالإضافة إلى نبوتهم كانوا معروفين بالزهد واعتزال الدنيا، فجاء تعبير: ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بعد ذكر أسمائهم.

والمجموعة الثّالثة: إسماعيل واليسع ويونس ولوط، فهم يشتركون في كونهم قاموا برحلات طويلة وهاجروا في سبيل نشر دعوة الله، وعبارة ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (إذا اعتبرنا الإشارة إلى هؤلاء الأربعة، لا لجميع من ورد ذكرهم في هذه الآيات الثلاث) تعتبر إشارة إلى هجرة هؤلاء في أرجاء الأرض وبين الأقوام المختلفة[1].

٣ - أهمية الأبناء الصالحين في تعريف شخصية الإنسان

وهذا موضوع آخر يستنتج من هذه الآيات، فلإضفاء الأهمّية على شخصية إبراهيم عليه السلام، بطل تحطيم الأصنام، يشير الله إلى شخصيات إنسانية عظيمة كانوا من ذريّته في العصور المختلفة، ويصفهم بصفات جليلة، بحيث نجد من بين مجموع خمسة وعشرين نبيّاً ورد ذكرهم في القرآن، ستة عشر منهم من ذرية إبراهيم، وواحداً من أجداده، وهذا في الواقع درس كبير للمسلمين كافة لكي يدركوا أنّ أبناءهم جزء من كيانهم وشخصيتهم، وأنّ لقضاياهم التربوية والإنسانية أهمّية كبيرة جدّاً.

٤ - جواب على اعتراض

لعل الذين يقرأون: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يستنتجون أنّ آباء الأنبياء لم يكونوا جميعاً من المؤمنين وأنّ منهم من لم يكن موحّداً، كما يقول بعض المفسّرين من أهل السُّنّة عند تفسير هذه الآية، ولكنّنا يجب أن نلاحظ أنّ تعبير ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ بالقرينة الموجودة في هذه الآيات تعني مقام النبوة وحمل الرسالة، وبهذا يتهاوى الاعتراض، أي أنّ معنى هذه الآية سيكون

(١) تفسير الميزان، ج ٧، ص ٢٤٤.

هكذا: إنّنا قد اخترنا بعضاً منهم لمقام النبوة، وهذا لا يعني أنّ الآخرين لم يكونوا موحّدين وفي الآية (٩٠) من هذه السورة وردت لفظة «الهداية» بمعنى النبوة[1].

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

التّفسير

ثلاثة امتيازات مهمّة

بعد ذكر مجموعات الأنبياء في الآيات السابقة، تتناول هذه الآيات الخطوط العامّة لحياتهم، وتبدأ القول: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

أي أنّ هؤلاء على الرغم من صلاحهم واسترشادهم بقوّة العقل والفكر في سيرهم الحثيث على طريق الهداية، شملتهم عناية الهداية الإلهيّة، وأخذت بأيديهم وإلّا فاحتمال انحرافهم وانحراف كلّ انسان موجود دائماً.

ولكي لا يحسب البعض أنّ هؤلاء قد أُجبروا على السير في هذا الطريق، أو يظن أنّ الله ينظر إلى هؤلاء نظرة خاصّة واستثنائية دونما سبب، يقول القرآن عنهم: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

فهم إذن مشمولون بهذا القانون الإلهي الذي يسري على غيرهم بغير محاباة.

الآية التّالية تشير إلى ثلاثة امتيازات مهمّة هي أساس جميع امتيازات الأنبياء، وهي قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾.

ولا يعني هذا أنّهم جميعاً كانوا من أصحاب الكتب السماوية، ولكن الكلام يدور

---

(١) «من آبائهم» جار ومجرور متعلّقان إمّا بجملة «فضلنا» الواردة في الآية السابقة أو بمحذوف تفسّره الجملة التّالية فيكون الأصل «اجتبينا من آبائهم»، وينبغي الالتفات إلى أنّ «من» في الآية تبعيضية حسب الظاهر.

على المجموع، فنسب الكتاب إلى المجموع أيضاً، وهذا كقولنا: الكتاب الفلاني ذكر العلماء وكتبهم، أي كتب من له تأليف منهم.

أمّا المقصود من «الحكم» فثمّة احتمالات ثلاثة:

١ - الحكم بمعنى «العقل والإدراك»، أي: إنّنا فضلاً عن إنزال كتاب سماوي عليهم فقد وهبناهم القدرة على التعقّل والفهم، إذ إنّ وجود الكتاب بغير وجود القدرة على فهمه فهماً كاملاً عميقاً لا جدوى فيه.

٢ - بمعنى «القضاء» أي أنّهم باستنباط القوانين الإلهيّة من تلك الكتب السماوية كانوا قادرين على أن يقضوا بين الناس بامتلاكهم لجميع شروط القاضي العادل.

٣ - بمعنى «الحكومة» والإمساك بزمام الإدارة، بالإضافة إلى مقام النّبوة. إنّ الدليل على المعاني المذكورة - بالإضافة إلى المعنى اللغوي الذي ينطبق عليها - هو أنّ كلمة «الحكم» قد وردت بهذه المعاني نفسها أيضاً في آيات أُخرى من القرآن[١].

وليس ثمّة ما يمنع من أن يشمل استعمال الكلمة في هذه الآية المعاني الثلاثة مجتمعة، فالحكم أصلاً - كما يقول «الراغب» في «مفرداته» - هو المنع، ومن ذلك العقل الذي يمنع من وقوع الأخطاء والمخالفات، وكذلك القضاء الصحيح يمنع من وقوع الظلم، والحكومة العادلة تقف بوجه الحكومات غير العادلة، فهي قد استعملت في المعاني الثلاثة.

قلنا من قبل إنّ جميع الأنبياء لم يكونوا يحظون بهذه الامتيازات كلها، وإسناد حكم إلى الجمع لا يعني شموله جميع أفراد ذلك الجمع، بل قد يكون لبعض أفراده، ومن ذلك مسألة إيتاء الكتاب لهؤلاء الأنبياء.

ثمّ يقول: لئن رفضت هذه الجماعة (أي المشركون وأهل مكّة) تلك الحقائق، فإنّ دعوتك لن تبقى بغير استجابة، إذ إنّنا قد أمرنا جمعاً آخر، لا بقبولها فحسب، بل وبالحفاظ عليها فهم لا يسلكون طريق الكفر أبداً، بل يتبعون الحقّ: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾.

جاء في تفسير «المنار» وتفسير «روح المعاني» عن بعض المفسّرين أنّ المقصود بالقوم هم الفرس[٢]، وقد أسرعوا في قبول الإسلام وجاهدوا في سبيل نشره، وظهر

---

(١) جاءت في الآية (١٢) من سورة لقمان بمعنى العلم والفهم، وفي الآية (٢٢) من سورة ص بمعنى القضاء، وفي الآية (٢٦) من سورة الكهف بمعنى الحكومة.

(٢) تفسير المنار، وتفسير روح المعاني، ذيل الآية مورد البحث.

فيهم العلماء في شتى العلوم والفنون الإسلامية وألّفوا الكثير من الكتب[(١)] .

الآية الأخيرة تجعل من منهاج هؤلاء الأنبياء العظام قدوة رفيعة للهداية تعرض على رسول الاسلام ﷺ فتقول له: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾[(٢)] .

تؤكّد هذه الآية مرّة أُخرى على أنّ أُصول الدعوة التي قام بها الأنبياء واحدة، بالرغم من وجود بعض الاختلافات الخاصّة والخصائص اللازمة التي تقتضيها الحاجة في كل زمان ومكان، وكل دين تالٍ يكون أكمل من الدين السابق. بحيث تستمر مسيرة الدروس العلمية والتربوية حتى تصل إلى المرحلة النهائية، أي الإسلام.

ولكن ما المقصود من أمر النّبي ﷺ أن يهتدي بأُولئك الأنبياء؟

يقول بعض المفسّرين: إنّ المقصود قد يكون هو الصبر وقوّة التحمّل والثبات في مواجهة المشاكل، ويقول بعض آخر: إنّه «التوحيد وإبلاغ الرسالة» ولكن يبدو أنّ للهداية معنى واسعاً يشمل التوحيد وسائر الأُصول العقائدية، كما يشمل الصبر والثبات وسائر الأُصول الأخلاقية والتربوية.

يتّضح ممّا سبق أنّ هذه الآية لا تتعارض مع القول بأنّ الإسلام ناسخ الأديان والشرائع السابقة، إذ إنّ النسخ إنّما يشمل جانباً من أحكام تلك الشرائع لا الأُصول العامّة للدعوة.

ثمّ يؤمر النّبي ﷺ أن يقول للنّاس إنّه مثل سائر الأنبياء لا يتقاضى أجراً لقاء عملية تبليغ الرسالة: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ .

ليس الاقتداء بالأنبياء وبسنّتهم الخالدة هو وحده الذي يوجب عليّ عدم طلب الأجر، بل إنّ هذا الدين الطاهر الذي جئتكم به وديعة إلهيّة أضعها بين أيديكم، وطلب الأجر على ذلك لا معنى له.

ثمّ إنّ هذا القرآن وهذه الرسالة والهداية إن هي إلّا إيقاظ وتوعية للناس جميعاً: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ .

---

(١) يحتمل أيضاً أن يكون المراد من «هؤلاء» هم الأنبياء أنفسهم، أي إذا افترضنا المستحيل، وقلنا إنّ هؤلاء الأنبياء العظام تخلّوا عن أداء الرسالة الإلهيّة، فإنّ الرسالة كانت تواصل سيرها على أيدي قوم آخرين، هنالك تعبيرات مماثلة في القرآن، كما جاء في الآية (٦٥) من سورة الزمر ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ .

(٢) الهاء في «اقتده» ليست ضميراً، بل هي هاء السكت التي تلحق الكلمة المتحركة عند الوقف، مثل همزة الوصل التي يؤتى بها إذا كان حرف الابتداء في الكلمة ساكناً، وهي تسقط عند الوصل، مثل هاء السكت غير أنّ هذه الهاء بقيت في الكتابة القرآنية من باب الاحتياط وارتوى الوقف هنا لكي تظهر هاء السكت.

إنّ النّعم العامّة الشاملة مثل نور الشمس والهواء والأمطار هي أُمور عامّة وعالمية، لا تُباع ولا تُشترى، ولا أجر يُعطى لقاءها، هذه الهداية أو الرسالة ليست خاصّة ومقصورة على بعض دون بعض حتى يمكن طلب الأجر عليها، (وممّا قيل في تفسير هذه العبارة يتّضح الترابط بينها وبين عبارات الآية الأُخرى، وبين ما سبقها من آيات).

كما يتّضح من هذه الآية الأخيرة أنّ الدين الإسلامي ليس قومياً ولا إقليمياً، وإنّما هو دين عالمي عام.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾

سبب النّزول

الغافلون عن الله

روي عن ابن عباس أنّ جمعاً من اليهود قالوا لرسول الله ﷺ: يا محمّد أحقّاً أنزل الله عليك كتاباً؟ فقال: نعم، فقالوا: قسماً بالله إنّه لم ينزل عليك كتاباً من السماء[1].

هنالك أقوال أُخرى في سبب نزول هذه الآية، ولكنّنا سنعرف فيما بعد أنّ ما قلناه أقرب وأنسب.

التّفسير

يختلف المفسّرون حول كون هذه الآية واردة بشأن اليهود أو المشركين، ولمّا لم تكن لرسول الله ﷺ مباحثات مع اليهود في مكّة، بل بدأت في المدينة، وهذه السورة مكّية، لذلك يرى بعضهم أنّ هذه الآية قد نزلت في المدينة، إلّا أنّها وضعت في هذه السّورة المكيّة بأمر من رسول الله ﷺ، ولهذا في القرآن ما يشابهه.

---

(١) تفاسير مجمع البيان وأبي الفتوح الرازي والمنار في تفسير الآية. تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٠٧؛ وتفسير الميزان، ج ٧، ص ٣٠٤.

لاتضاح الحقيقة يجب أن نتعرّف أوّلاً على تفسير الآية الإجمالي، ثمّ نبحث عمّن تتحدّث عنه الآية، وعمّا تستهدفه.

في البداية تقول الآية: إنّهم لم يعرفوا الله معرفة صحيحة وأنكروا نزول كتاب سماوي على أحد: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾.

فيأمر الله رسوله أن ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾.

ذلك الكتاب الذي جعلتموه صحائف متناثرة، تظهرون منه ما ينفعكم وتخفون ما تظنونه يضرّكم: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾.

إنّكم تتعلمون من هذا الكتاب السماوي أُموراً كثيرة لم تكونوا أنتم ولا آباؤكم تعلمون عنها شيئاً: ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾.

وفي ختام الآية يؤمر النّبي ﷺ أن يذكر الله وأن يترك أُولئك في أباطيلهم وعنادهم ولعبهم: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

إذا كانت هذه الآية قد نزلت في المدينة وكان اليهود هم المعنيين بها، يكون المعنى أنّ جمعاً من اليهود كانوا ينكرون نزول كتاب سماوي على الأنبياء.

ولكن هل يمكن أن ينكر اليهود - اتباع التّوراة - نزول كتاب سماوي؟ نعم، وسيزول عجبك إذا علمت المسألة التّالية: لو أمعنا النظر في العهد الجديد (الإنجيل) والعهد القديم (التّوراة والكتب الملحقة بها) نجد أنّ كلّ هذه الكتب تفتقر إلى المسحة السماوية، أي إنّها ليست خطاباً موجّهاً من الله إلى البشر، بل إنّها مقولات وردت على ألسنة تلامذة موسى والمسيح عليهما السلام وأتباعهما على شكل سردٍ لحوادث تاريخية وسيرٍ، والظاهر أنّ اليهود والمسيحيين اليوم لا ينكرون ذلك، إذ إنّ حكاية موت موسى وعيسى عليهما السلام وحوادث كثيرة أُخرى وقعت بعدهما، وردت في هذه الكتب، لا باعتبارها تنبؤات عن المستقبل، بل سرداً لحوادث ماضية، فهل يمكن لكتب مثل هذه أن تكون قد نزلت على موسى وعيسى عليهما السلام؟!

كلّ ما في الأمر أنّ المسيحيين واليهود يعتقدون أنّ هذه الكتب قد كتبت بأيدي أُناس عندهم أخبار عن الوحي، فاعتبروها كتباً مقدّسة خالية من الخطأ ويمكن الاعتماد عليها.

بناء على هذا يتّضح لنا لماذا كان هؤلاء ينتابهم العجب لدى سماعهم أُسلوب القرآن بشكل خطاب من الله إلى النّبي وإلى عباد الله؟ وكما قرأنا في سبب نزول هذه الآية فإنّهم

قد انتابهم العجب فسألوا الرّسول ﷺ إن كان الله قد أنزل عليه - حقاً - كتاباً، ثمّ أنكروا هذا الأمر كلياً ونفوا أن يكون أيّ كتاب قد نزل على أحد، حتى على موسى.

غير أنّ الله يردّ عليهم قائلاً: إنّكم - أنفسكم - تعتقدون أنّ ألواحاً ومواضيع قد نزلت على موسى، أي إنّ الكتاب الذي بين أيديكم وإن لم يكن كتاباً سماوياً إلّا أنّكم تؤمنون -.

على الأقل - بأنّ شيئاً مثل هذا قد نزل من قبل الله، وأنتم تظهرون قسماً منه وتخفون كثيراً منه، وعلى ذلك فلا يبقى مجال للشكّ في إمكان إنكار اليهود نزول كتاب سماوي.

أمّا إذا كانت الآية كسائر آيات هذه السّورة تخصّ المشركين، فيكون المعنى أنّهم أنكروا نزول أيّ كتاب سماوي لإنكار ونفي دعوة النّبي ﷺ، ولكن الله يبيّن لهم منطقياً أنّهم لا يستطيعون إنكار ذلك كلياً بالنظر لنزول التّوراة على موسى، وأنّ المشركين - وإن لم يدينوا بدين اليهود - كانوا يعتبرون الأنبياء السابقين وإبراهيم - وموسى أيضاً على أقوى احتمال - أنبياء في عصورهم وأقاليمهم، لذلك فهم عند ظهور نبي الإسلام ﷺ لجأوا إلى أهل الكتاب يبحثون عندهم في كتبهم عن أمارات ودلائل تتنبأ بظهور هذا النّبي، فلو لم يكونوا يؤمنون بأنّ تلك الكتب نازلة من السماء، لما لجأوا إليها يطلبون ما طلبوا، لذلك فهم بعد أن سألوا اليهود، أظهروا ما كانت فيه مصلحتهم، وأخفوا ما عداه (كعلامات ظهور النّبي الجديد المذكورة في تلك الكتب)، وعلى هذا يمكن تطبيق هذه الآية على أقوال مشركي مكّة أيضاً.

لكن التّفسير الأوّل أقرب إلى سياق الآية وسبب النّزول وما فيها من ضمائر.

ملاحظات:

هنا لابدّ من الإشارة إلى بضع نقاط:

١ - «قراطيس» جمع «قرطاس» من أصل يوناني حسب قول البعض، وهو «ما يكتب فيه» كما يقول «الراغب» في «مفرداته» وبناءً على ذلك فإنّ الورق العادي وجلود الحيوانات والأشجار وأمثالها التي كانت تستخدم في الكتابة قديماً، تنضوي تحت هذه الكلمة.

٢ - قد يسأل سائل: لماذا تذم الآية اليهود وكتابتهم الوحي الإلهي على القراطيس، وهل في ذلك ما يوجب الذم؟

وجواباً على ذلك نقول: إنّ الذم لم يكن لهذا السبب، إنّما السبب هو أنّهم كتبوه على قراطيس متفرّقة بحيث يمكنهم أن يظهروا منه ما تقتضيه منافعهم، وأن يخفوا ما يؤدّي إلى ضررهم.

٣ - إنّ عبارة ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ في الواقع إشارة إلى أنّ من يعرف الله معرفة صحيحة لا يمكن أن ينكر إرساله الهداة والمرشدين ومعهم الكتب السماوية إلى البشر، لأنّ حكمة الله توجب:

أوّلاً: أن يعين الإنسان في مسيرته المليئة بالمنعطفات لبلوغ هدفه التكاملي الذي خُلق من أجله وإلاّ انتقض الهدف من الخلقة، وهذا الهدف لا يمكن تحقيقه بغير الوحي والكتب السماوية والتعاليم السليمة من كل خطأ وسهو.

ثانياً: كيف يمكن لربوبية الله ذات الرحمة العامّة والخاصّة أن تترك الإنسان وحيداً في طريق سعادته المليء بمختلف الموانع والعقبات والمتاهات، فلا يرسل إليه قائداً ومرشداً يحمل التعاليم الشاملة للأخذ بيده وتوجيهه، وعليه فإنّ حكمته ورحمته توجبان إسال الرسل وإنزال الكتب السماوية.

لا شكّ أنّ معرفة حقيقة الذات الإلهيّة المقدسة وكُنه صفاته غير ممكنة، وهذه الآية لا تقصد هذا الحدّ من معرفة الله، وإنّما تريد أن تقول: لو حصل الإنسان على المقدار الميسور من معرفة الله فلا يبقى شكّ بأنّ مثل هذا الربّ لا يمكن أن يترك عباده بدون هادٍ ودليلٍ وكتابٍ سماويّ.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾

التّفسير

تعقيباً على البحث الذي دار في الآيات السابقة حول كتاب اليهود السماوي، تشير هذه الآية إلى القرآن باعتباره كتاباً سماوياً آخر، والواقع أنّ ذكر التّوراة مقدمة لذكر القرآن لإزالة كلّ عجب وتخوّف من نزول كتاب سماوي على فردٍ من البشر، فتبدأ بالقول: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ وهو كتاب ﴿مُبَارَكٌ﴾ لأنّه مصدر كل خير وبركة وصلاح وتقدّم، ثمّ إنّه يؤكّد الكتب التي نزلت قبله: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، والمقصود من أنّ

القرآن يصدّق الكتب التي بين يديه، هو أنّ جميع الإشارات والأمارات التي وردت فيها تنطبق عليه.

وهكذا نجد علامتين على أحقّية القرآن وردتا في عبارتين: الأُولى: وجود علامات في الكتب السابقة تخبر عنه، والثّانية: محتوى القرآن نفسه الذي يضم كلّ خير وبركة وسعادة، وبناءً على ذلك فصدق القرآن يتجلى في محتواه من جهة، وفي المستندات التاريخية من جهة أُخرى.

ثمّ يبيّن القرآن هدف نزوله وهو توجيه الإنذار والتحذير لأُمّ القرى (مكّة) والساكنين حولها وتنبيههم إلى مسؤولياتهم وواجباتهم: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[1].

«الإنذار» إخبار فيه تخويف من ترك الواجبات والمسؤوليات وهذا من أهم أهداف القرآن، خاصّة بالنسبة للطُّغاة المعاندين.

وفي الختام تقرر الآية أنّ الذين يعتقدون بيوم القيامة، يوم الحساب والجزاء، سيصدّقون بهذا الكتاب، ويؤدّون فريضة الصّلاة ولا يفرّطون فيها: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

بحوث

نلفت الانتباه هنا إلى النقاط التّالية:

١ - الإسلام دين عالمي

تبيّن آيات القرآن المختلفة بما لا يدع مجالاً للشك أنّ الإسلام دين عالمي، من ذلك: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[2] و﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾[3]. و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[4] وغيرها كثير في القرآن، وكلّها تؤكّد هذه الحقيقة، وإنّه لمما يثير الانتباه أنّ معظم هذه الآيات قد نزلت في مكّة يوم لم يكن الإسلام قد تخطى حدود تلك المدينة.

---

(١) يختلف المفسّرون في الجملة التي يمكن أن نعطف عليها جملة «ولتنذر» ولعلّها معطوفة على جملة محذوفة بمعنى «لتبشر» أو مثلها.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

ولكن فيما يخصّ الآية التي نحن بصددها، يظهر لنا السؤال التالي: إنّ الآية توجّه الإنذار والهداية إلى أُم القرى ومن حولها، فكيف ينسجم هذا مع القول بأنّ الإسلام عالمي؟

في الحقيقة إنّ هذا الاعتراض جاء أيضاً على لسان اليهود وغيرهم من أتباع الأديان الأُخرى ظانين أنّهم قد أصابوا من عالمية الإسلام مقتلاً، باعتبار أنّ الآية تحدد مكانه بمنطقة خاصّة هي مكّة وأطرافها(١).

الجواب

يتّضح الجواب عن هذا الاعتراض بالانتباه إلى نقطتين، بحيث ندرك أنّ هذه الآية، فضلاً عن كونها لا تتعارض مع عالمية الإسلام، هي واحد من أدلة عالميته أيضاً:

«القرية» بلغة القرآن اسم لكلّ موضع يجتمع فيه الناس، سواء كان مدينة كبيرة أم قرية صغيرة، ففي سورة يوسف - مثلاً - جاء على لسان إخوة يوسف، يخاطبون أباهم: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾(٢) ونحن نعلم أنّهم كانوا قد رجعوا لتوّهم من عاصمة مصر حيث حجز عزيز مصر أخاهم (بنيامين)، كذلك نقرأ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٣). بديهي أنّ المقصود هنا ليس القُرى في الأرياف، بل هو كلّ منطقة مسكونة في العالم.

ومن جهة أُخرى هناك روايات عديدة تقول: إنّ اليابسة قد انتشرت من تحت الكعبة، وهو ما أطلق عليه اسم «دحو الأرض»(٤).

كما أنّنا نعلم أنّه في البداية هطلت أمطار غزيرة فغطّى الماء الكرة الأرضية برمّتها، ثمّ غاض الماء شيئاً فشيئاً واستقر في المنخفضات، وظهرت اليابسة من تحت الماء، وكانت مكّة أوّل نقطة يابسة ظهرت من تحت الماء، حسب الأحاديث الإسلامية(٥).

وكون مكّة ليست أعلى مكان على الكرة الأرضية في الوقت الحاضر، لا يتعارض أبداً مع هذا القول، لأنّ مئات الملايين من السنين تفصلنا اليوم عن ذاك الزمان، وقد

(١) ورد اعتراض بعض المستشرقين بهذا الشأن ذكره صاحب المنار، ج ٧، ص ٦٢١، وفي تفسير في ظلال القرآن، ج ٣، ص ٣٠٥.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٢.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.
(٤) تفسير الميزان، ج ٦٣، ص ٣٥٦؛ وبحار الأنوار، ج ٦٣، ص ٤٥٤.
(٥) وسائل الشيعة، ج ١٠، ص ٤٤٩، (الباب ١٦، بابُ استحباب صوم يوم دحو الأرض).

حدثت خلال ذلك تغيّرات جغرافية بدّلت وجه الأرض كلياً، فبعض الجبال هبطت إلى أعماق البحار، وبعض أعماق البحار ارتفع فصار جبلاً، وهذا ثابت في علم التضاريس الأرضية والجغرافية الطبيعية.

أمّا كلمة «أُم» فتعني - كما سبق أن قلنا - الأصل والأساس والمبدأ لكلّ شيء.

من كلّ هذا يتبيّن أنّه إذا أطلق على مكّة اسم «أُم القرى» فذلك يستند إلى أنّها كانت مبدأ ظهور اليابسة على الأرض، «ومن حولها» أي جميع الناس الذين يسكنون الأرض برمّتها.

وهذا ما تؤيّده الآيات الأُخرى التي تؤكّد عالمية الاسلام، وكذلك الرسائل الكثيرة التي بعث بها رسول الله ﷺ إلى رؤساء العالم، مثل كسرى وقيصر، وقد جاء شرح ذلك في المجلد الثاني من هذا التّفسير.

٢ - العلاقة بين الإيمان بالقرآن والإيمان بالآخرة

تبيّن هذه الآية: إنّ الذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون أيضاً بالقرآن، أي أنّهم يعلمون أنّ هذه الدنيا ما هي إلّا مقدمة لعالم الآخرة، وأنّها أشبه بالمزرعة أو المدرسة أو المتجر، والوصول إلى ذلك الهدف الرفيع والاستعداد لذلك اليوم لا يكون إلّا عن طريق مجموعة من القوانين والمناهج والدساتير وإرسال الأنبياء.

بعبارة أُخرى، إنّ الله قد أرسل الإنسان إلى هذه الحياة ليطوي مسيرته التكاملية وليصل إلى مستقره الأصلي في العالم الآخر، وهذا الغرض ينتقض إذا لم يرسل إليه الأنبياء والكتب السماوية، من هنا يمكن أن نستنتج من الإيمان بالله والمعاد، الإيمان بنبوة الأنبياء والكتب السماوية (تأمل بدقّة).

٣ - أهمية الصّلاة

نلاحظ في هذه الآية أنّها تشير إلى الصّلاة من بين جميع الفرائض الدينية، ونعلم أنّ الصّلاة هي مظهر الارتباط بالله، ولذلك كانت أرفع من جميع العبادات منزلة، ويرى بعضهم أنّه عند نزول هذه الآية كانت العبادة الوحيدة المفروضة حتى ذلك الوقت هي الصّلاة[1].

(١) تفسير المنار، ج ٧، ص ٦٢٢.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾

سبب النّزول

ثمّة روايات متعددة في سبب نزول هذه الآية وردت في كُتب الحديث والتّفسير، من ذلك أنّ الآية نزلت بشأن شخص يسمى «عبد الله بن سعد» من كتّاب الوحي، ثمّ خان فطرده رسول الله ﷺ، فراح يزعم أنّه قادر على قول مثل آيات القرآن(١)، يقول جمع آخر من المفسّرين إنّ الآية، أو قسماً منها، نزلت بحقّ «مسيلمة الكذاب» الذي ادّعى النبوة(٢)، ولكن نظراً لأنّ مسيلمة الكذاب ظهر في أواخر حياة رسول الله ﷺ، وهذه السورة مكّية، فإنّ مؤيّدي هذا التّفسير يقولون: إنّ هذه الآية نزلت في المدينة، ثمّ أُدخلت ضمن هذه السورة بأمر رسول الله ﷺ.

على كل حال هذه الآية، مثل سائر آيات القرآن، نزلت في ظروف خاصّة، وهي ذات محتوى عام يشمل كل من ادّعى النبوة وأمثالهم.

التّفسير

في الآيات السابقة مرّت الإشارة إلى مزاعم اليهود الذين أنكروا نزول أي كتاب سماوي على أحد، وفي هذه الآية يدور الكلام على أشخاص آخرين يقفون على الطرف المعاكس تماماً لأولئك، فيزعمون كذباً أنّ الوحي ينزل عليهم.

وتتناول الآية ثلاث جماعات من هؤلاء بالبحث، ففي البداية تقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

والجماعة الثّانية هم الذين يدّعون النّبوة ونزول الوحي عليهم، فلا هم أنبياء، ولا نزل عليهم وحي: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١١١؛ وتفسير التبيان، ج ٤، ص ٢٠٢.
(٢) المصدر السابق.

والجماعة الثّالثة هم الذين أنكروا نبوة نبي الإسلام ﷺ، أو زعموا ساخرين أنّهم يستطيعون أن يأتوا بمثل آيات القرآن، وهم في ذلك كاذبون ولا قدرة لهم على ذلك: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

نعم، هؤلاء كلّهم ظالمون، بل أظلم الظالمين، لأنّهم يغلقون طريق الحق بوجه عباد الله ويضلّونهم في متاهات الضلال حائرين، ويحاربون قادة الحق، فهم ضالون مضلون، فمن أظلم ممن يدّعي لنفسه القيادة الإلهيّة وليست لديه صلاحية مثل هذا المقام.

على الرغم من أنّ الآية تخصّ أدعياء النبوة والوحي، إلّا أنّ روحها تشمل كلّ من يدّعي - كذباً - لنفسه مكانة ليس أهلاً لها.

ثمّ تبيّن العقاب الأليم الذي ينتظر أمثال هؤلاء فتقول: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾[1] أي لو أنك - أيها النّبي - رأيت هؤلاء الظالمين وهم يمرون بشدائد الموت والنزع الأخير، وملائكة قبض الأرواح مادّين أيديهم نحوهم ويقولون لهم: هيّا أخرجوا أرواحكم، لأدركت العذاب الذي ينزل بهم.

عندئذ تخبرهم ملائكة العذاب بأنّهم سينالون اليوم عذاباً مذلاً لأمرين: الأوّل: إنّهم كذبوا على الله، والآخر، إنّهم لم ينصاعوا لآياته: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

ملاحظات:

ينبغي هنا ملاحظة النقاط التّالية:

١ - تعتبر الآية أدعياء النبوة والقادة المزيفين من أشدّ الظالمين، بل لا ظلم أشدّ من ظلمهم، لأنّهم يسرقون أفكار الناس ويهدمون عقائدهم ويغلقون بوجوههم أبواب السعادة ويحيلونهم إلى مستعمرين - فكرياً - لهم.

٢ - جملة ﴿بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ قد تعني أنّ ملائكة قبض الأرواح تبسط أيديها إليهم استعداداً لقبض أرواحهم، وقد تعني بسط أيديهم للبدء بتعذيبهم.

---

(١) «الغمرات» جمع غمرة (على وزن ضربة)، وأصل الغمر إزالة أثر الشيء، ثمّ استعملت للماء الكثير الذي يستر وجه الشيء تماماً، كما تطلق على الشدائد والصعاب التي تغمر المرء.

٣ - ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ تعني في الواقع ضرباً من التحقير تبديه الملائكة نحو هؤلاء الظالمين، وإلاّ فإنّ إخراج الروح ليس من عمل هؤلاء، بل هو من واجب الملائكة، مثل ما يقال للمجرم عند إعدامه: مت! ولعلّ هذا التحقير يقابل تحقيرهم لآيات الله وأنبيائه وعباده.

وفي الوقت نفسه تعتبر هذه الآية دليلاً آخر على استقلال الروح وانفصالها عن الجسد، كما يستفاد من الآية أنّ تعذيب هؤلاء يبدأ منذ لحظة قبض أرواحهم.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

سبب النّزول

جاء في تفسير مجمع البيان وتفسير الطبري وتفسير الآلوسي إنّ مشركاً اسمه النضر بن الحارث قال: إنّ اللات والعزى (وهما من أصنام العرب المشهورة) سوف يشفعان لي يوم القيامة، فنزلت هذه الآية جواباً له ولأمثاله[1].

التّفسير

الضّالون

أشارت الآية السابقة إلى أحوال الظالمين وهم على شفا الموت، وتنطلق هذه الآية لتتحدث عن خطاب الله لهم عند الموت أو عند الورود إلى ساحة يوم القيامة.

فتبدأ الآية بالقول بأنّهم يأتون يوم القيامة منفردين كما خلقوا منفردين: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

والأموال التي وهبناها لكم وكنتم تستندون إليها في حياتكم، قد خلّفتموها وراءكم، وجئتم صفر الأيدي: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْۖ﴾[2].

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١١٥؛ وتفسير جامع البيان، ج ٧، ص ٣٦٣.

(٢) ﴿خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ من «الخول» وهو إعطاء ما يحتاج إلى التعهد والتدبير والإدارة، وهو النِّعم التي يسبغها الله تعالى على عباده.

ولا نرى معكم تلك الأصنام التي قلتم إنّها سوف تشفع لكم وظننتم أنّها شريكة في تعيين مصائركم ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾.

ولكن الواقع أنّ جمعكم قد تبدّد، وتقطعت جميع الروابط بينكم: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾.

وكلّ ما ظننتموه وما كنتم تستندون إليه قد تلاشى وضاع: ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

كان المشركون العرب يستندون في حياتهم إلى أشياء ثلاثة: القبيلة أو العشيرة التي كانوا ينتمون إليها، والأموال التي جمعوها لأنفسهم، والأصنام التي اعتبروها شريكة لله في تقرير مصير الإنسان وشفيعة لهم عند الله، والآية في كلّ جملة من جملها الثلاث تشير إلى واحدة من هذه الأُمور، وإلى أنّها عند الموت تودعه وتتركه وحيداً فريداً.

هنا ينبغي الالتفات إلى نقطتين:

١ - نظراً لمجيء هذه الآية في أعقاب الآية السابقة التي تحدّثت عن قيام الملائكة بقبض الأرواح عند الموت، وكذلك بالنظر إلى عبارة ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾، نفهم أنّ هذا الكلام يقال لهم عند الموت أيضاً، ولكن من جانب الله، غير أنّ بعض الرّوايات تقول: إنّ هذا الخطاب يوجّه إليهم يوم القيامة(١)، على أيّ حال فإنّ الهدف لا يختلف في الحالين.

٢ - على الرغم من نزول هذه الآية بشأن مشركي العرب، فهي ليست بالطبع مقصورة عليهم.

ففي ذلك اليوم تنفصم العرى وتنفصل عن البشر كل الانشدادات المادية والمعبودات الخيالية المصطنعة وجميع ما اصطنعوه لأنفسهم في الحياة الدنيا ليكون سنداً لهم يستعينون به في يوم بؤسهم حيث لا يبقى سوى الشخص وعمله، ويزول كل ما عدا ذلك، أو يضل عنهم بحسب تعبير القرآن، وهو تعبير جميل يوحي بأنّ الشركاء سيكونون إلى درجة من الصغر والحقارة والضياع بحيث إنّهم لا يُروا بالعين.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١١٥.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

التّفسير

فالق الإصباح

مرّة أُخرى يوجّه القرآن الخطاب إلى المشركين، ويشرح لهم دلائل التوحيد في عبارات جذّابة وفي نماذج حيّة من أسرار الكون ونظام الخلق وعجائبه.

في الآية الأُولى يشير إلى ثلاثة أنواع من عجائب الأرض، وفي الآية الثّانية يشير إلى ثلاثة من الظّواهر السماوية.

يقول القرآن الكريم أوّلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ﴾.

«الفلق» شقّ الشيء وإبانة بعضه عن بعض[١].

و«الحب» و«الحبة» تقال لأنواع الحبوب الغذائية كالحنطة والشعير ونحوهما من المطعومات التي تحصد، كما يقال ذلك لبروز الرياحين أيضاً[٢].

و«النوى» من النّواة، قيل إنّه يخصّ نوى التمر، ولعل هذا يرجع إلى كثرة التمر في بيئة العرب حتى كان العربي ينصرف ذهنه إلى نوى التمر إذا سمع هذه الكلمة.

ولننظر الآن إلى ما يكمن في هذا التعبير:

ينبغي أن نعلم أنّ أهم لحظة في حياة الحبّة والنّوى هي لحظة الفلق، وهي أشبه بلحظة ولادة الطفل وانتقاله من عالم إلى عالم آخر، إذ في هذه اللحظة يحصل أهم تحوّل في حياته.

وممّا يلفت الانتباه أنّ الحبّة والنّواة غالباً ما تكونان صلبتين، فنظرة إلى نوى التمر والخوخ وأمثالهما، وإلى بعض الحبوب الصلبة، تكشف لنا أنّ تلك النطفة الحياتية التي هي في الواقع صغيرة، محصنة بقلعة مستحكمة تحيط بها من كلّ جانب، وأنّ يد الخالق قد أعطت لهذه القلعة العصية على الاختراق خاصية التسليم والليونة أمام اختراق نطفة

---

(١) الراغب الأصفهاني (المفردات)، ص ٣٨٥. (٢) المصدر السابق، ص ١٠٥.

النبات، كما منحت النطفة قوّة اندفاع تُمكّنها من فلق جدران قلعتها فتطلع النبتة بقامتها المديدة، هذه حقّاً حادثة عجيبة في عالم النبات لذلك يشير إليها القرآن على أنّها من دلائل التوحيد.

ثمّ يقول: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾.

يتكرر هذا التعبير كثيراً في القرآن مشيراً إلى نظام الموت والحياة وتبديل هذا بذاك، فمرّة ترى الحياة تنبعث من مواد جامدة لا روح فيها في أعماق المحيطات ومجاهل الغابات والصحاري، فيخلق من تركيب مواد كلّ واحدة منها سم قاتل ومواد حيوية، وأحياناً ترى العكس، فبإجراء تغيير بسيط على كائنات حيّة قويّة مفعمة بالحياة تراها قد تحوّلت إلى كائن لا حياة فيه.

إنّ موضوع الحياة والموت بالنسبة للكائنات الحيّة من أعقد المسائل التي لم تستطع العلوم البشرية الوصول إلى كنه حقيقتها ورفع الستار عن أسرارها لتخطو إلى أعماق مجهولاتها، ولتعرف كيف يمكن لعناصر الطبيعة وموادها الجامدة أن تطفر طفرة عظيمة فتتحوّل إلى كائنات حيّة.

قد يأتي ذلك اليوم الذي يستطيع فيه الإنسان أن يصنع كائناً حيّاً باستخدام التركيبات الطبيعية المختلفة وتحت ظروف معقّدة خاصّة، وبطريقة تركيب أجزاء مصنعة، كما يفعلون بالمكائن والأجهزة، غير أنّ قدرة البشر «المحتملة» في المستقبل لا تستطيع أن تقلّل من أهمية مسألة الحياة وتعقيداتها التي تبدأ من المبدع القادر.

لذلك نجد القرآن - وفي معرض إثبات وجود الله - كثيراً ما يكرر هذا الموضوع، كما يستدل أنبياء عظام كإبراهيم وموسى، على وجود مبدأ قادر حكيم بمسألة الحياة والموت لإقناع جبابرة طغاة مثل نمرود وفرعون.

يقول إبراهيم لنمرود: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾[1]، ويقول موسى لفرعون: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾[2].

ينبغي ألاّ ننسى أنّ ظهور الحي من الميت لا يختص ببداية ظهور الحياة على الأرض فقط، بل يحدث هذا في كلّ وقت بانجذاب الماء والمواد الأُخرى إلى خلايا الكائنات الحيّة، فتكتسي كائنات غير حيّة بلباس الحياة، وعليه فإنّ القانون الطبيعي السائد اليوم

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨. (٢) سورة طه، الآية: ٥٣.

والقائل بأنّه لا يمكن في الظروف الحالية التي تسود الأرض لأيّ كائن غير حي أن يتحوّل إلى كائن حي، وحيثما وجد كائن حي فثمّة بذرة حيّة وجد منها، هو قانون لا يتعارض مع ما قلناه، (فتأمل بدقّة)!

ويستفاد من روايات أئمّة أهل البيت عليهم السلام في تفسير هذه الآية والآيات المشابهة لها، أنّ ذلك يشمل الحياة والموت الماديين كما يشمل الحياة والموت المعنويين أيضاً[1] فثمّة مؤمنون ولدوا لآباء غير مؤمنين، وآخرون مفسدون وأشرار ولدوا لآباء من المتقين الأخيار، ناقضين قانون الوراثة بإرادتهم واختيارهم.

وهذا بذاته دليل آخر على عظمة الخلاّق الذي أعطى الإنسان هذه القدرة والإرادة.

النقطة الأُخرى التي ينبغي الالتفات إليها هي أن «يخرج» فعل مضارع و«مخرج» اسم فاعل، وهما يدلان على الاستمرار، أي إنّ نظام ظهور الحي من الميت وظهور الميت من الحي نظام دائم وعام في عالم الخلق.

وفي ختام الآية توكيد للموضوع: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي هذا هو ربّكم وهذه هي قدرته وعلمه اللامتناهي، فكيف بعد هذا تنحرفون عن الحق وتميلون إلى الباطل؟

في الآية الثّانية يشير القرآن إلى ثلاث نِعَم سماوية: فيقول أولاً: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ وذكرنا: أنّ «الفلق» هو شقّ الشيء وإبانة بعضَه عن بعض، و«الإصباح» و«الصبح» بمعنى واحد.

إنّه تعبير رائع، فظلام الليل قد شُبّه بالستارة السميكة التي يشقها نور الصباح شقّاً، وهذه الحالة تنطبق على الصبح الصادق والصبح الكاذب كليهما، لأنّ الصبح الكاذب هو الضوء الخفيف الذي يظهر في آخر الليل عند المشرق على هيئة عمود، وكأنّه شق يبدأ من الشرق نحو الغرب في قبة السماء المظلمة، والصبح الصادق هو الذي يلي ذلك على هيئة شريط أبيض لامع جميل يظهر عند امتداد الأُفق الشرقي، وكأنّه يشق عباب الليل الأسود من الأسفل ممتداً من الجنوب إلى الشمال، متقدّماً في كلّ الأطراف حتى يغطّي السماء كلّها شيئاً فشيئاً.

كثيراً ما يشير القرآن إلى نعمتي النّور والظلام والليل والنهار، ولكنّه هنا يتناول «طلوع الصبح» كنعمةٍ من نِعَمِ الله الكبرى، فنحن نعرف أنّ هذه الظاهرة تحدث لوجود جوّ

(١) أُصول الكافي، ج ٢، ص ٥، باب (طينة المؤمن والكافر)، تفسير البرهان، ج ١، ص ٥٤٣.

الأرض، ذلك الغلاف الضخم من الهواء الذي يحيط بالأرض، فلو كانت الأرض - مثل القمر - عديمة الجو، لما كان هناك «طلوعان» ولا «فلق» ولا «إصباح»، ولا «غسق» ولا «شفق» بل كانت الشمس تبزغ فجأة، بدون أيّة مقدمات ولسطع نورها في العيون التي اعتادت على ظلام الليل ولم تكد تفارقه، وعند الغروب تختفي فجأة، وتعم الظلمة الموحشة في لحظة واحدة كل الأرجاء، غير أنّ الجو الموجود حول الأرض والمؤدّي إلى حصول فترة فاصلة بين ظلام الليل وضياء النهار عند طلوع الشمس وغروبها يهيّىء الإنسان تدريجياً لتقبّل هذين الاختلافين المتضادين والانتقال من الظلمة إلى النّور، ومن النّور إلى الظلمة، شيئاً فشيئاً، بحيث إنّه يستطيع أن يتحمّل كل منهما، فنحن نشعر بالانزعاج إذا كنّا في غرفة مضاءة وانطفأت الأنوار فجأة وعمّ الظلام، ثمّ إذا استمر الظلام ساعة، وعاد النّور مرّة أُخرى فجأة، عادت معها حالة الانزعاج بسبب سطوع الضوء المفاجئ الذي يؤلم العين ويجعلها غير قادرة على رؤية الأشياء، وإذا ما تكرر هذا الأمر فإنّه لا شكّ سيؤذي العين، غير أنّ ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ قد جنّب الإنسان هذا الأذى بطريقة رائعة(١).

ولكي لا يظن أحد أنّ فلق الصبح دليل على أنّ ظلال الليل أمر غير مطلوب وأنّه عقاب أو سلب نعمة، يبادر القرآن إلى القول: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾.

من الأُمور المسلّم بها أنّ الإنسان يميل خلال انتشار النّور والضياء إلى العمل وبذل الجهد، ويتّجه الدم نحو سطح الجسم وتتهيّأ العضلات للفعالية والنشاط، ولذلك لا يكون النوم في الضوء مريحاً، بل يكون أعمق وأكثر راحة كلّما كان الظلام أشد، حيث يتّجه الدم فيه نحو الداخل، وتدخل الخلايا عموماً في نوع من السكون والراحة، لذلك نجد في الطبيعة أنّ النوم في الليل لا يقتصر على الحيوانات فقط، بل إنّ النباتات تنام في الليل أيضاً، وعند بزوغ خيوط الصباح الأولى تشرع بفعاليتها ونشاطها، بعكس الإنسان في هذا العصر الآلي، فهو يبقى مستيقظاً إلى ما بعد منتصف الليل، ثمّ يظل نائماً حتى بعد ساعات من طلوع الشمس، فيفقد بذلك نشاطه وسلامته.

في الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام نجد التأكيد على ما ينسجم مع هذا التنظيم، من ذلك ما جاء في نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال يوصي أحد

---

(١) يقول علماء الفلك: يبدأ طلوع الصبح عندما تصل الشمس إلى ١٨ درجة قبل الأُفق الشرقي، ويعمّ الظلام كلّ شيء ويختفي الشفق عندما تصل إلى ١٨ درجة تحت الأُفق الغربي.

قوّاده: «. . . ولا تسر أوّل الليل فإنّ الله جعله سكناً وقدره مقاماً لا ظعناً، فأرح فيه بدنك وروّح ظهرك»(١).

وفي حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «تزوّج بالليل فإنّه جعل الليل سكناً»(٢).

وفي كتاب الكافي عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام أنّه كان يأمر بعدم ذبح الذبائح في الليل وقبل طلوع الفجر، وكان يقول: «إنّ الله جعل الليل سكناً لكلّ شيء»(٣).

ثمّ يشير الله تعالى إلى الثالثة من نِعَمِه ودلائل عظمته بجعل الشمس والقمر وسيلة للحساب: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ﴾.

«الحسبان» بمعنى الحساب، ولعل القصد منه أنّ الدوران المنظّم لهاتين الكرتين السماويتين وسيرهما الدائب (المقصود طبعاً حركتها في أنظارنا وهي الناشئة عن حركة الأرض) عون لنا على وضع مناهجنا الحياتية المختلفة وفق مواعيد محسوبة، كما ذكرنا في التّفسير.

يرى بعض المفسّرين أنّ الآية تريد أن تقول إنّ هاتين الكرتين السماويتين تتحرّكان في السماء وفق حساب وبرنامج ونظام.

وعليه فهي في الحالة الأُولى إشارة إلى إحدى نِعَمِ الله على الإنسان، وفي الحالة الثانية إشارة إلى واحد من أدلة التوحيد وإثبات وجود الخالق، ولعلّها إشارة إلى كلتيهما.

على كل حال، إنّه لموضوع مهم جدّاً أن تكون الأرض منذ ملايين السنين تدور حول الشمس، والقمر يدور حول الأرض، وبذلك تنتقل الشمس في أنظارنا من برج إلى برج بين الأبراج الفلكية الاثنتي عشرة، والقمر يدور في حركته المنتظمة من الهلال حتى المحاق، إنّ حساب هذا الدوران من الدقّة والضبط بحيث إنّه لا يتقدّم ولا يتأخر لحظة واحدة، ولو لاحظنا أنّ الأرض تدور حول الشمس في مدار بيضوي معدّل شعاعه ١٥٠ مليون كيلومتر ضمن جاذبية الشمس العظيمة، والقمر الذي يدوركل شهر حول الأرض في مدار شبه دائرة شعاعه نحو ٣٧٤ ألف كيلومتر ولا يخرج من جاذبية الأرض العظيمة، فهو

(١) تفسير الصافي في تفسير الآية. نهج البلاغة، الرسالة ١٢.
(٢) المصدر السابق. أصول الكافي، ج ٥، ص ٣٦٧؛ وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٩١.
(٣) المصدر السابق. أصول الكافي، ج ٦، ص ٢٣٦؛ والتهذيب، ج ٩، ص ٦٠.

دائم الانجذاب نحوها، عندئذ يمكن أن ندرك مدى التعادل الدقيق بين قوّة الجذب بين هذه الأجرام السماوية من جهة، والقوّة الطاردة عن مراكزها (القوّة المركزية) من جهة أُخرى، بحيث لا يمكن أن تتوقف لحظة واحدة أو تختلف قيد شعرة.

وهذا ما لا يمكن أن يكون إلّا في ظل علم وقدرة لا نهائيتين يضعان تخطيطه وينفذانه بدقّة، لذلك تنتهي الآية بقولها: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾

التفسير

بعد شرح نظام دوران الشمس والقمر في الآية السابقة، تشير هذه الآية إلى نعمة أُخرى من نِعَم الله على البشر، فجعل النجوم ليهتدي بها الإنسان في ليالي البرّ والبحر: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

وتختتم الآية بالقول بأنّ الله قد بيّن آياته لأهل الفكر والفهم والإدراك: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

منذ آلاف السنين والإنسان يعرف النجوم في السماء ونظامها، وعلى الرغم من تقدّم البشر في هذا المضمار تقدّماً كبيراً، فإنّه ما يزال يتابع وضع النجوم قليلاً أو كثيراً، بحيث كانت له هذه النجوم خير وسيلة لمعرفة الاتجاه في الأسفار البرية والبحرية، وعلى الأخص في المحيطات الواسعة التي كانت تخلو من كلّ أمارة تشير إلى الاتجاه قبل اختراع الاسطرلاب.

إنّ النجوم هي التي هدت ملايين البشر وأنقذتهم من الغرق وأوصلتهم إلى برّ السلامة.

لو تطلّعنا إلى السماء عدّة ليالٍ متوالية لانكشف لنا أنّ مواضع النجوم في السماء متناسقة في كل مكان، وكأنّها حبات لؤلؤ خيطت على قماش أسود، وأنّ هذا القماش يسحب باستمرار من الشرق إلى الغرب، وكلّها تتحرّك معه وتدور حول محور الأرض دون أن تتغير الفواصل بينها، إنّ الاستثناء الوحيد في هذا النظام هو عدد من الكواكب التي تسمى بالكواكب السيارة لها حركات مستقلة وخاصّة، وعددها ثمانية: خمسة منها

ترى بالعين المجرّدة، وهي (عطارد والزهرة، وزحل، والمريخ والمشتري) وثلاثة لا ترى إلّا بالتلسكوب وهي (أورانوس ونبتون وپلوتو) بالإضافة إلى كوكب الأرض التي تجعل المجموع تسعة.

ولعل إنسان ما قبل التّاريخ كان يعرف شيئاً عن «الثوابت» و«السيارات» لأنّه لم يكن هناك ما يمكن أن يجلب انتباهه أكثر من السماء المرصعة بالنجوم في ليلة ظلماء، فلا يستبعد أن يكون هو أيضاً قد استخدم النجوم في الاستهداء ومعرفة الاتجاه.

يستفاد من بعض روايات أهل البيت عليهم السلام أنّ لهذه الآية تفسيراً آخر، وهو أنّ المقصود بالنجوم القادة الإلهيين والهداة إلى طريق السعادة، أي الأئمّة الذين يهتدي بهم الناس في ظلام الحياة فينجون من الضياع[1]، وسبق أن قلنا إنّ هذه التفاسير المعنوية لا تتنافى مع التفاسير الظاهرية، ومن الممكن أن تقصد الآية كلا التفسيرين.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)﴾

التّفسير

هاتان الآيتان تتابعان دلائل التوحيد ومعرفة الله، وللوصول إلى هذا الهدف يأخذ القرآن بيد الإنسان ويسيح به في آفاق العالم البعيدة وقد يسير به في داخل ذاته ويبيّن له آثار الله في جسمه وروحه، فيتيح له أن يرى الله في كل مكان.

فيبدأ بالقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

أي إنّكم، على اختلاف ملامحكم وأذواقكم وأفكاركم والتباين الكبير في مختلف جوانب حياتكم، قد خلقتم من فرد واحد، وهذا دليل على منتهى عظمة الخالق وقدرته التي أوجدت من المثال الأوّل كل هذه الوجوه المتباينة.

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٥٠.

وجدير بالملاحظة أنّ هذه الآية تعبّر عن خلق الإنسان بالإنشاء، والكلمة لغوياً تعني الإيجاد والإبداع مع التربية، أي أنّ الله قد خلقكم وتعهّد بتربيتكم، ومن الواضح أنّ الخالق الذي يخلق شيئاً ثمّ يهمله لا يكون قد أبدى قدرة فائقة، ولكنّه إذا استمر في العناية بمخلوقاته وحمايتها، ولم يغفل عن تربيتها لحظة واحدة، عندئذ يكون قد أظهر حقّاً عظمته وسعة رحمته.

بهذه المناسبة ينبغي ألاّ نتوهّم من قراءة هذه الآية، أنّ أُمّنا الأُولى حواء قد خُلقت من آدم (كما جاء في الفصل الثّاني من سفر التكوين من التّوراة)، ولكن آدم وحواء خلقا من تراب واحد، وكلاهما من جنس واحد ونوع واحد، لذلك قال: إنّهما خلقا من نفس واحدة، وقد بحثنا هذا الموضوع في بداية تفسير سورة النساء.

ثمّ يقول: إنّ فريقاً من البشر «مستقر» وفريقاً آخر «مستودع» ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾.

«المستقر» أصله من «القُر» (بضم القاف) بمعنى البرد، ويقتضي السكون والتوقف عن الحركة، فمعنى «مستقر» هو الثابت المكين.

و«مستودع» من «ودع» بمعنى ترك، كما تستعمل بمعنى غير المستقر، والوديعة هي التي يجب أن تترك عند من أودعت عنده لتعود إلى صاحبها.

يتّضح من هذا الكلام أنّ الآية تعني أنّ الناس بعض «مستقر» أي ثابت، وبعض «مستودع» أي غير ثابت، أمّا ما المقصود من هذين التعبيرين؟ فالكلام كثير بين المفسّرين، وبعض التفاسير تبدو أقرب إلى جوّ الآية كما أنّها لا تتعارض فيما بينها.

من هذه التفاسير القول بأنّ «مستقر» صفة الذين كمل خلقهم ودخلوا «مستقر الرحم» أو مستقر وجه الأرض، و«المستودع» صفة الذين لم يكتمل خلقهم بعد وما يزالون نطفاً في أصلاب آبائهم.

تفسير آخر يقول: إنّ «مستقر» إشارة إلى روح الإنسان الثابتة والمستقرة، و«مستودع» إشارة إلى جسم الإنسان الفاني غير الثابت.

وقد جاء في بعض الرّوايات تفسير معنوي لهذين التعبيرين، وهو أنّ «مستقر» تعني الذين لهم إيمان ثابت «ومستودع» تعني من لم يستقر إيمانه[1].

وثمّة احتمال أن يكون هذان التعبيران إشارة إلى الجزئين الأولين في تركيب نطفة

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٥٠.

الإنسان، إنّ النطفة - كما نعلم - تتركب من جزئين: الأوّل هو «البويضة» من الأُنثى، والثاني هو «الحيمن» أو «المني» من الذكر، فالبويضة في رحم الأُنثى تكاد تكون مستقرة، ولكن حيمن الذكر حيوان حي يتحرك بسرعة نحوها، وما أن يصل أوّل حيمن إلى البويضة حتى يمتزج بها و«يخصبها» ويصد (الحيامن) الأُخرى، ومن هذين الجزئين تتكون بذرة الإنسان الأُولى.

وفي ختام الآية يعود فيقول: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾.

عند الرجوع إلى كتب اللغة يتبيّن لنا أنّ «الفقه» ليس كل معرفة أو فهم، بل هو التوصل إلى علم غائب بعلم حاضر[1]، وبناءً على ذلك فالهدف من التمعّن في خلق الإنسان واختلاف أشكاله وألوانه، هو أن يتوصّل المرء المدقق من معرفة الخلق إلى معرفة الخالق.

الآية الثانية هي آخر آية في هذه المجموعة التي تكشف لنا عن عجائب عالم الخلق وتهدينا إلى معرفة الله بمعرفة مخلوقاته.

في البداية تشير الآية إلى واحدة من أهم نِعَم الله التي يمكن أن تعتبر النِّعمة الأُم وأصل النِّعم الأُخرى، وهي ظهور النباتات ونموها بفضل النِّعمة التي نزلت من السماء: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾.

وإنّما قال ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لأنّ سماء كل شيء أعلاه، فكل ما في الأرض من مياه العيون والآبار والأنهار والقنوات وغيرها منشؤها الأمطار من السماء، وقلّة الأمطار تؤثّر في كمية المياه في تلك المصادر كلها، وإذا استمر الجفاف جفّت تلك المنابع، أيضاً.

ثمّ تشير إلى أثر نزول الأمطار البارز: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

يرى المفسّرون احتمالين في المقصود من ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾:

الأوّل: إنّ المقصود من ذلك كل أنواع النباتات وأصنافها التي تُسقى من ماء واحد، وتنبت في أرض واحدة وتتغذّى من تربة واحدة، وهذه واحدة من عجائب الخلق، كيف تخرج كلّ هذه الأصناف من النباتات بأشكالها وألوانها وأثمارها المختلفة والمتباينة أحياناً من أرض واحدة وماء واحد!

---

(١) مفردات الراغب، ص ٣٨٤.

والاحتمال الثّاني: هو أنّ النباتات يحتاج إليها كل مخلوق آخر من حشرات وطيور وحيوانات في البحر والبر، وأنّه لمن العجيب أنّ الله تعالى يخرج من أرض واحدة وماء واحد الغذاء الذي يحتاجه كل هؤلاء، وهذا من روائع الأعمال المعجزة كأن يستطيع أحد أن يصنع من مادة معيّنة في المطبخ آلاف الأنواع من الأطعمة لآلاف الأذواق والأمزجة.

والأعجب من كلّ هذا أنّ نباتات الصحراء واليابسة ليست وحدها التي تنمو ببركة ماء المطر، بل إنّ النباتات المائية الصغيرة التي تطفو على سطح البحر وتكون غذاءً للأسماك تنمو بأشعة الشمس وقطرات المطر.

ولا أنسى ما قاله أحد سكّان المدن الساحلية وهو يشكو قلّة الصيد في البحر، ويذكر سبب ذلك بأنّه الجفاف وقلّة نزول المطر، فكان يعتقد أنّ قطرات المطر في البحار أشدّ تأثيراً منها في اليابسة.

ثمّ تشرح الآية ذلك وتضرب مثلاً ببعض النباتات التي تنمو بفضل الماء، فتذكر أنّ الله يخرج بالماء سيقان النباتات الخضر من الأرض، ومن تلك الحبّة الصلبة يخلق الساق الأخضر الطري اللطيف الجميل بشكل يعجب الناظرين: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾[1].

ومن ذلك الساق الأخضر أخرجنا الحبّ متراصفاً منظّماً: ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾[2].

وكذلك بالماء نخرج من النخل طلعاً مغلقاً، ثمّ يتشقق فتخرج الأعذاق بخيوطها الرفيعة الجميلة تحمل حبّات التمر، فتتدلى من ثقلها: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾.

«الطلع» هو عذق التمر قبل أن ينفتح غلافه الأخضر، وإذ ينفتح الطلع تخرج منه أغصان العذق الرفيعة، وهي القنوان ومفردها قنو.

و«دانية» أي قريبة، وقد يكون ذلك إشارة إلى قرب أغصان العذق من بعضها، أو إلى أنّها تميل نحو الأرض لثقلها.

---

(١) كلمة «أخضر» تشمل كلّ أخضر في النبات، حتى براعم الأشجار، ولكن بما أنّها متبوعة مباشرة بالحب المتراكب فالمقصود في الآية هو زراعة الحبوب.

(٢) «المتراكب» من الركوب وما ركب بعضه بعضاً، وأكثر الحبوب بهذا الشكل.

وكذلك بساتين فيها أنواع الأثمار والفواكه: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾.

ثمّ تشير الآية إلى واحدة أُخرى من روائع الخلق في هذه الأشجار والأثمار، فتقول: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾.

انظر تفسير الآية (١٤١) من هذه السورة في شرح المتشابه وغير المتشابه للزّيتون والرّمان[1].

إنّ شجرتي الرمان والزيتون متشابهتان من حيث الشكل الخارجي وتكوين الأغصان وهيئة الأوراق تشابهاً كبيراً، مع أنّهما من حيث الثمر وطعمه وفوائده مختلفتان، ففي الزيتون مادة زيتية قوية الأثر، وفي الرمان مادة حامضية أو سكريّة، فهما متباينان تماماً، ومع ذلك فقد تزرع الشجرتان في أرض واحدة، وتشربان من ماء واحد، فهما متشابهان وغير متشابهين في آن واحد.

ومن المحتمل أن تكون إشارة إلى أنواع مختلفة من أشجار الفاكهة التي يتشابه بعضها في الشجر وفي الثمر، ويختلف بعضها عن الآخر في ذلك، (أي إنّ كلّ واحدة من هاتين الصفتين تختص بمجموعة من الأشجار والأثمار، أمّا حسب التّفسير الأوّل، فإنّ الصفتين لشيء واحد).

ثمّ تركّز الآية من بين مجموع أجزاء الشجرة، على ثمرة الشجرة وعلى تركيب الثمرة إذا أثمرت، وكذلك على نضج الثمرة إذا نضجت، ففيها دلائل واضحة على قدرة الله وحكمته للمؤمنين من الناس: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

ما نقرؤه اليوم في علم النبات عن كيفية طلوع الثمرة ونضجها يكشف لنا عن الأهميّة الخاصّة التي يوليها القرآن للأثمار، إذ إنّ ظهور الثمرة في عالم النبات أشبه بولادة الأبناء في عالم الحيوان، فنطفة الذكر في النبات تخرج من أكياس خاصّة بطرق مختلفة (كالرياح أو الحيوانات) وتحط على القسم الأُنثوي في النبات، وبعد التلقيح والتركيب تتشكل البيضة الملقحة الأُولى، وتحيط بها مواد غذائية مشابهة لتركيبها، وهذه المواد الغذائية تختلف من حيث التركيب وكذلك من حيث الطعم والخواص الغذائية والطبّية. فقد تكون ثمرة (مثل العنب والرمان) فيها مئات من الحبّ، كل حبّة منها تعتبر جنيناً وبذرة لشجرة أُخرى، ولها تركيب معقّد عجيب.

---

(١) يقول الراغب في مفرداته: إنّ «مشتبهاً» و«متشابهاً» متشابهان في المعنى.

إنّ شرح بنية الأثمار والمواد الغذائية والطبّية خارج عن نطاق هذا البحث، ولكن من الحسن أن نضرب مثلاً بثمرة الرمان التي أشار إليها القرآن على وجه الخصوص في هذه الآية.

إذا شققنا رمّانة وأخذنا إحدى حبّاتها ونظرنا خلالها باتجاه الشمس أو مصدر ضوء آخر نجدها تتألف من أقسام أصغر، وكأنّها قوارير صغيرة مملوءة بماء الرّمان قد رصفت الواحدة إلى جنب الأُخرى. ففي حبّة الرمان الواحدة قد تكون المئات من هذه القوارير الصغيرة جدّاً، يجمع أطرافها غشاء رقيق هو غشاء حبّة الرمان الشفاف، ثمّ لكي يكون هذا التغليف أكمل وأمتن وأبعد عن الخطر ركّب عدد من الحبّات على قاعدة في نظام معيّن، ولفّت في غلاف أبيض سميك نسبياً، وبعد ذلك يأتي القشر الخارجي للرمانة، يلفّ الجميع ليحول دون نفوذ الهواء والجراثيم، ولمقاومة الضربات ولتقليل تبخر ماء الرمان في الحبات إلى أقل حدّ ممكن.

إنّ هذا الترتيب في التغليف لا يقتصر على الرمان، فهناك فواكه أُخرى - مثل البرتقال والليمون - لها تغليف مماثل، أمّا في الأعناب والرمان فالتغليف أدق وألطف.

ولعل الإنسان حذا حذو هذا التغليف عندما أراد نقل السوائل من مكان إلى مكان، فهو يصف القناني الصغيرة في علبة ويضع بينها مادة ليّنة، ثمّ يضع العلب الصغيرة في علب أكبر ويحمل مجموعها إلى حيث يريد.

وأعجب من ذلك استقرار حبّات الرمان على قواعدها الداخلية وأخذ كلّ منها حصتها من الماء والغذاء وهذا كلّه ممّا نراه بالعين، ولو وضعنا ذرّات هذه الثمرة تحت المجهر لرأينا عالماً صاخباً وتراكيب عجيبة مدهشة محسوبة بأدقّ حساب.

فكيف يمكن لعين باحثة عن الحقيقة أن تنظر إلى هذه الثمرة ثمّ تقول: إنّ صانعها لا يملك علماً ولا معرفة!!

إنّ القرآن إذ يقول ﴿ٱنظُرُوٓاْ﴾ إنّما يريد هذه النظرة الدقيقة إلى هذا القسم من الثمرة للوصول إلى هذه الحقائق.

هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فإنّ المراحل المتعددة التي تمرّ بها الثمرة منذ تولّدها حتى نضجها تثير الانتباه، لأنّ «المختبرات» الداخلية في الثمرة لا تنفك عن العمل في تغيير تركيبها الكيمياوي إلى أن تصل إلى المرحلة النهائية ويثبت تركيبها الكيمياوي النهائي، فكلّ مرحلة من هذه المراحل دليل على عظمة الخالق وقدرته.

ولكن لابدّ من القول - بحسب تعبير القرآن - إنّ المؤمنين الذين يمعنون النظر في هذه الأُمور هم الذين يرون هذه الحقائق، وإلاّ فعين العناد والمكابرة والإهمال والتساهل لا يمكن أن ترى أدنى حقيقة.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾

التّفسير

خالق كل شيء

هذه الآيات تشير إلى جانب من العقائد السقيمة والخرافات التي يؤمن بها المشركون وأصحاب المذاهب الباطلة، وتردّ عليهم بالمنطق.

فأوّلاً: قالوا: إنّ لله شركاء من الجن ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾.

فيما يتعلّق بالجن، هل المقصود بهم هو المعنى اللغوي الذي يفيد كل كائن غير مرئي ومخفي عن حس الإنسان، أم هم طائفة الجن التي يرد ذكرها مراراً في القرآن والتي سنشير إليها قريباً؟ للمفسرين في هذا احتمالان.

على الاحتمال الأوّل قد تكون الآية إشارة إلى الذين كانوا يعبدون الملائكة أو مخلوقات غير مرئية.

وعلى الاحتمال الثّاني قد تكون إشارة إلى الذين كانوا يعتبرون الجن شركاء لله أو زوجات له.

يقول الكلبي في كتاب «الأصنام»: إنّ إحدى الطوائف العربية، وتدعى «بنو مليح» وهي إحدى أفخاذ قبيلة «خزاعة» كانت تعبد الجن[1]، كما يقال إنّ عبادة الجن والاعتقاد بألوهيتها كانت منتشرة بين مذاهب اليونان الخرافية وفي الهند[2].

---

(١) تفسير في ظلال القرآن، ج ٣، ص ٣٢٦ - الهامش.
(٢) تفسير المنار، ج ٨، ص ٦٤٨.

ويستدل من الآية (١٥٨) من سورة الصافات: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ على أنّه كان بين العرب من يرى بين الله والجن نسباً وقرابة، ويذكر بعض المفسّرين أنّ قريشاً كانت تعتقد أنّ الله قد تزوج الجن، فكانت الملائكة ثمرة ذلك الزواج(١).

فينكر الإسلام عليهم ذلك، إذ كيف يمكن ذلك وهو الذي خلق الجن: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ أي كيف يمكن أن يكون المخلوق شريكاً للخالق، لأنّ الشركة دليل التماثل والتساوي، مع أنّ المخلوق لا يمكن أن يكون في مصاف خالقه أبداً!

الخرافة الأُخرى هي قولهم - جهلاً - إنّ لله بنين وبنات: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

أفضل دليل على أنّ هذه العقائد ليست سوى خرافة، هو أنّها تصدر عنهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي إنّهم لا يملكون أيّ دليل على هذه الأوهام.

من الملاحظ أنّ القرآن استعمل لفظة «خرقوا» من الخرق، وهو تمزيق الشيء بغير روية ولا حساب، وهي في النقطة المقابلة تماماً «للخلق» القائم على الحساب، هاتان اللفظتان: «الخلق والخرق» قد تستعملان في حالات الكذب والاختلاق، مع اختلاف بينهما، هو أنّ (الخلق والاختلاق) تستعمل في الأكاذيب المدروسة و(الخرق والاختراق) فيما لا حساب فيه من الكذب.

أي إنّهم اختلقوا تلك الأكاذيب دون أن يدرسوا جوانب الموضوع وبدون أن يعدّوا له ما يلزم من الأُمور.

أمّا الطوائف التي كانت تنسب لله البنين، فإنّ القرآن يذكر في آيات أُخرى اسم طائفتين من هؤلاء:

الأُولى: هم المسيحيون الذين قالوا: إنّ عيسى ابن الله.

والأُخرى: هم اليهود الذين قالوا: عزير ابن الله.

يستفاد من الآية (٣٠) من سورة التوبة، وممّا توصل إليه المحققون عن دراسة الجذور المشتركة بين المسيحية والبوذية، وعلى الأخص في موضوع التثليث، أنّ المسيحيين واليهود ليسوا وحدهم الذين نسبوا ابناً لله، بل كان هذا موجوداً في المعتقدات الخرافية القديمة.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٢٥؛ وتفسير الميزان، ج ٧، ص ٢٩٠.

أمّا بشأن نسبة بنات الله، فالقرآن نفسه يوضّح ذلك في آيات أُخرى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾(١).

وكما سبقت الإشارة إليه، جاء في التفاسير والتواريخ أنّ قريشاً كانت ترى الملائكة بنات الله من زواجه بالجن.

والقرآن يرفض تماماً في نهاية الآية كلّ هذه الخرافات التي لا أساس لها، وبعبارة حاسمة قاطعة: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

والآية التّالية تردّ على تلك العقائد الخرافية فتؤكّد أنّ الله هو ذلك الذي أبدع خلق السماوات والأرض: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

هل هناك غير الله من فعل ذلك أو يستطيع فعله كي يكون شريكاً له في عبادته؟ كلا، الجميع مخلوقاته ويطيعون أمره ومحتاجون إليه.

ثمّ كيف يمكن أن يكون له أبناء دون أن تكون له زوجة؟! ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾.

وما حاجته إلى زوجة؟ ثمّ من التي تكون زوجته وهم جميعاً مخلوقاته؟ وفضلاً عن ذلك كلّه أنّ ذاته القدسية منزّهة عن كل الصفات الجسمانية، بينما الحاجة إلى زوجة وأبناء من الصفات الجسمانية المادية.

ومرّة أُخرى تؤكّد الآية مقامه باعتباره خالقاً لكل شيء، ومحيطاً بكل شيء: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

الآية الثّالثة تؤكّد على سبيل الاستنتاج من كل ما سبق، من ذكر خالقية الله لكل شيء، وإبداعه السماوات والأرض وإيجادها، وكونه منزّهاً عن الصفات والعوارض الجسمية وعن الحاجة إلى الزوجة والأبناء وإحاطته العلمية بكل شيء: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ فلا يستحق العبودية غيره.

ولكي ينقطع كل أمل بغير الله، وتنقلع كل جذور الشرك والاعتماد على غير الله، تختتم الآية بالقول: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

أي إنّ مفتاح حل مشاكلكم بيده وحده، وما من أحد غيره قادر على حلّها إذ ما من أحد - غيره - إلّا وهو محتاج إلى إحسانه وكرمه، فلا موجب إذن لأن تطرح مشاكلك على غيره، وتطلب حلّها من غيره.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ١٩.

لاحظ أنّ العبارة تقول: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ ولم تقل: لكلّ شيء وكيل، واختلاف المعنى واضح، لأنّ «على» تفيد التسلط ونفوذ الأمر، أمّا «اللام» فتفيد التبعية، أي إنّ التعبير الأوّل يدل على الولاية والرعاية، والثّاني يدل على التمثيل والوكالة.

الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث، ومن أجل إثبات حاكمية الله وإحاطته بكل شيء وحفاظه على كل شيء، وكذلك لإثبات أنّه يختلف عن كل شيء، تقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ أي إنّه الخبير بمصالح عبيده وبحاجاتهم، ويتعامل معهم بمقتضى لطفه.

في الحقيقة إنّ من يريد أن يكون حافظ كل شيء ومربّيه وملجأه لابدّ أن يتّصف بهذه الصفات.

كما أنّ الآية تقول: إنّه يختلف عن جميع الأشياء في العالم، لأنّ أشياء العالم بعضها يَرى ويُرى، كالإنسان، وبعضها لا يَرى ولا يُرى كصفاتنا الباطنية، وبعض آخر يُرى ولا يَرى، كالجمادات، فالوحيد الذي لا يُرى ولكنّه يَرى كلَّ شيء هو الله الواحد الأحد.

بحوث

هنا نشير إلى بضع نقاط:

١ - لا تدركه الأبصار

تثبت الأدلة العقلية أنّ الله لا يمكن أن يُرى بالعين، لأنّ العين لا تستطيع أن ترى إلّا الأجسام، أو على الأصح بعضاً من كيفيات الأجسام، فإذا لم يكن الشيء جسماً ولا كيفية من كيفيات الجسم، لا يمكن أن تراه العين، وبتعبير آخر، إذا أمكنت رؤية شيء بالعين، فلأنّ لهذا الشيء حيّزاً واتجاهاً وكتلة، في حين أنّ الله أرفع من أن يتصف بهذه الصفات، فهو وجود غير محدود وهو أسمى من عالم المادة المحدود في كل شيء.

في كثير من الآيات، وعلى الأخص في الآيات التي تشير إلى بني إسرائيل وطلبهم رؤية الله، نجد القرآن ينفي بكل وضوح إمكان رؤية الله (سوف يأتي شرح ذلك في تفسير الآية ١٤٣ من سورة الأعراف إن شاء الله).

ومن العجيب أنّ كثيراً من أهل السُّنّة يعتقدون أنّ الله سيرى يوم القيامة، ويعبّر

صاحب تفسير المنار عن ذلك بقوله: هذا من مذاهب أهل السُّنّة والعلم بالحديث[1].

والأعجب من ذلك أنّ بعض المحققين المعاصرين الواعين يميلون - أيضاً - إلى هذا الاتجاه ويصرّون عليه!

أمّا الواقع، فإنّ بطلان هذه الفكرة إلى درجة من الوضوح بحيث لا يستوجب نقاشاً، لأنّ الأمر لا يختلف بين الدنيا والآخرة (إذا قلنا بالمعاد الجسماني)، فإنّ الله فوق المادة، ولا يتبدل يوم القيامة إلى وجود مادي، ولا يخرج من لا محدوديته ليصبح محدوداً، ولا يتحول في ذلك اليوم إلى جسم أو إلى كيفية من كيفيات الجسم! وهل الأدلة العقلية على عدم إمكان رؤية الله في الدنيا هي غيرها في الآخرة؟ أم هل يتغيّر حكم العقل بهذا الشأن يومذاك؟!

ولا يمكن تبرير هذه الفكرة بأنّ من المحتمل أن يصبح للإنسان في الآخرة نوع آخر من الرؤية والإدراك، لأنّ هذه الرؤية والإدراك إذا كانت في الآخرة فكرية وعقلانية، فإنّنا في هذه الدنيا أيضاً نشاهد الله وجماله بعين القلب وقوّة العقل، أمّا إذا كانت الرؤية هي نفسها التي نرى بها الأجسام، فإنّ رؤية الله بهذا المعنى مستحيلة في هذه الدنيا وفي الآخرة على السواء.

وبناء على ذلك فإنّ القول بأنّ الإنسان لا يرى الله في هذه الدنيا، ولكن المؤمنين يرونه يوم القيامة غير منطقي وغير مقبول.

إنّ ما حمل هؤلاء على الذهاب إلى هذا المذهب والدفاع عنه هو وجود أحاديث في كتبهم المعروفة تقول بإمكان رؤية الله يوم القيامة، ولكن أليس من الأفضل أن نقول ببطلان هذا الرأي بالدليل العقلي، ونحكم باختلاق أمثال هذه الرّوايات وعدم اعتبار الكتب التي أوردت مثل هذه الرّوايات، (اللهم إلّا إذا قلنا إنّ المقصود من هذه الرؤية هي الرؤية القلبية).

هل يصح أن نجانب حكم العقل والحكمة من أجل أمثال هذه الأحاديث؟!

أمّا الآيات القرآنية التي يبدو منها لأوّل وهلة أنّها تدل على الرؤية والتجسيم، مثل ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾[2] و ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[3] فإنّها من باب الكناية والرمز، إنّنا نعلم أنّ أيّة آية قرآنية لا يمكن أن تخالف حكم العقل ومنطق الحكمة.

---

(١) تفسير المنار، ج ٧، ص ٦٥٣.
(٢) سورة القيامة، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الفتح، الآية: ١٠.

والملفت للنظر أنّ الأحاديث والرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام تستنكر هذه العقيدة الخرافية أشدّ استنكار، وتنتقد القائلين بها أشدّ انتقاد، من ذلك أنّ أحد أصحاب الإمام الصّادق عليه السلام واسمه (هشام) يقول: كنت عند الإمام الصّادق عليه السلام فدخل عليه معاوية بن وهب (وهو من أصحاب الإمام أيضاً) وسأله قائلاً: يابن رسول الله، ما قولك في ما جاء بشأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قد رأى الله، فكيف رآه؟ وكذلك في الحديث المروي عنه أنّه صلى الله عليه وآله وسلم قال: إنّ المؤمنين في الجنّة يرون الله. فبأيّ شكل يرونه؟ فتبسم الإمام الصّادق ابتسامة ألم، وقال: «يا معاوية بن وهب! ما أقبح أن يعيش المرء سبعين أو ثمانين سنة في ملك الله، ويتنعم بنعمه، ثمّ لا يعرفه حق المعرفة يا معاوية، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم ير الله رأي العين أبداً، إنّ المشاهدة نوعان: المشاهدة القلبية، والمشاهدة البصرية، فمن قال بالمشاهدة القلبية فقد صدق، ومن قال بالمشاهدة البصرية فقد كذب وكفر بالله وبآياته فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من شبّه الله بالبشر فقد كفر»(١).

وفي (أمالي الصدوق) بإسناده إلى إسماعيل بن الفضل قال: سألت الإمام الصّادق عليه السلام عن الله تبارك وتعالى، وهل يُرى في المعاد؟ فقال: «سبحان الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، يا بن الفضل، إنّ الأبصار لا تدرك إلّا ما له لون وكيفية، والله تعالى خالق الألوان والكيفية»(٢).

من الجدير بالانتباه أنّ هذا الحديث يؤكّد كلمة «لون» ونحن اليوم نعلم أنّ الجسم بذاته لا يُرى مطلقاً، وإنما الّذي نراه هو لونه، فإذا لم يكن للجسم أيّ لون فلن يُرى.

(في المجلد الأوّل من هذا التّفسير بحث بهذا الشأن في تفسير الآية (٤٦) من سورة البقرة).

٢ - الله خالق كل شيء

بعض المفسّرين من أهل السُّنّة، ممن يذهب إلى الجبر يتخذ من قوله تعالى: ﴿خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ دليلاً على صحة مذهبهم في الجبر، فيقول: إنّ أعمالنا وأفعالنا من «أشياء» هذا العالم أيضاً، لأنّ كلمة «شيء» تطلق على كلّ ذي وجود، مادياً كان أم غير

---

(١) معاني الأخبار، نقلاً عن «الميزان»، ج ٨، ص ٢٦٨. تفسير الميزان، ج ٨، ص ٢٥٥؛ وبحار الأنوار، ج ٤، ص ٥٤.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٥٣.

مادي، وسواء كان من الذوات أم من الصفات، وعليه عندما نقول: إنّ الله خالق كلّ شيء، لابدّ لنا أن نقبل أيضاً بأنّه خالق أفعالنا، وهذا هو الجبر بعينه.

بيد أنّ القائلين بحرية الإرادة والاختيار يردّون بجواب واضح على أمثال هذه الاستدلالات، وهو أنّ خالقية الله حتى بالنسبة لأفعالنا لا تتعارض مع حريتنا في الاختيار، إذ إنّ أفعالنا يمكن أن تنسب إلينا وإلى الله، فنسبتها إلى الله قائمة على كونه قد وضع جميع مقدمات ذلك تحت تصرفنا، فهو الذي وهبنا القوّة والقدرة والإرادة والاختيار، فما دامت جميع المقدمات من خلقه، فيمكن أن تنسب أفعالنا إليه باعتباره خالقها، ولكن من حيث اتخاذ القرار النهائي فإنّنا بالاستفادة ممّا وهبه الله لنا من ملكة الإرادة والاختيار نتخذ القرار بأداء الفعل أو تركه، فمن هنا تنسب هذه الأفعال إلينا ونكون مسؤولين عنها.

وبتعبير الفلاسفة: لايوجد في هذا المقام علّتان أو خالقان للفعل في عرض واحد، بل هما ممتدتان طولاً، لأنّ وجود علّتين تامّتين في عرض واحد لا معنى له، لكنّهما إذا كانا طوليين فلا مانع من ذلك، ولمّا كانت أفعالنا تستلزم المقدمات التي وهبها الله لنا، فيمكن أن ننسب هذه المستلزمات إليه أيضاً، إضافة إلى نسبتها إلى فاعلها.

هذا الكلام أشبه بالذي يريد أن يختبر عمّاله فيترك لهم الحرية في عملهم واختياراتهم، ويُهيىء لهم جميع ما يتطلبه عملهم من مقدمات ووسائل، فطبيعي أن تعتبر أفعالهم منسوبة إلى ربّ العمل، ولكن ذلك لا يسلبهم حرية العمل والاختيار، بل يكونون مسؤولين عن أعمالهم.

وسنبحث فكرة الجبر والاختيار - إن شاء الله - بالتفصيل عند تفسير الآيات المرتبطة بالموضوع.

٣ - ما معنى «بديع»؟

سبق أن ذكرنا أنّ «بديع» تعني موجد الشيء بغير سابق وجود، أي أنّ الله أوجد السماوات والأرض بغير أن يسبق ذلك وجود مادة أو خطة سابقة.

هنا يعترض بعضهم بقوله: كيف يمكن إيجاد شيء من عدم؟ لقد بحثنا هذا الموضوع في تفسير الآية (١١٧) من سورة البقرة، وذكرنا ما ملخصه: إنّنا عندما نقول إنّ الله أوجد الأشياء من العدم لا نعني أنّ المادة الأولية لخلقها هي «العدم» مثلما نقول: إنّ

النجار صنع الكرسي من الخشب، فهذا بالطبع مستحيل، لأنّ «العدم» لا يمكن أن يكون مادة «الوجود».

إنّما المقصود هو أنّ موجودات هذا العالم لم تكن موجودة من قبل، ثمّ وجدت، وليس في هذا ما يصعب فهمه، وقد ضربنا لذلك أمثلة في تفسير آية (١١٧) من سورة البقرة، ونضيف هنا قائلين: إنّنا قادرون على أن نوجد في أذهاننا أشياء لم تكن فيها من قبل مطلقاً، ولا شك أنّ لهذه الموجودات الذهنية نوعاً من الوجود والكينونة، رغم أنّه ليس وجوداً خارجياً، ولكنّها موجودة في أُفق أذهاننا، وإذا كان وجود الشيء بعد العدم مستحيلاً، فما الفرق بين الوجود الذهني والوجود الخارجي؟

وبناءً على ذلك فإنّنا كما نستطيع أن نخلق في أذهاننا كائنات لم يكن لهم وجود من قبل، كذلك يفعل الله ذلك في العالم الخارجي، إنّ قليلاً من التأمل في هذا المثال أو في الأمثلة التي ضربناها هناك كافٍ لحلّ هذه المسألة.

٤ - ما معنى «اللطيف»؟

«اللطيف» من مادة «لطف» وقد وردت هذه الصفة في الآيات السابقة كإحدى الصفات الإلهيّة، واللطيف[1] إذا وصف به الجسم دلّ على الخفيف المضاد للثقيل، ويعبّر باللطافة واللطف عن الحركة الخفيفة وعن تعاطي الأُمور الدقيقة التي قد لا تدركها الحواس، ويصح وصف الله تعالى باللطف على هذا الوجه لمعرفته بدقائق الأُمور، ولخلقه أشياء دقيقة لطيفة غير مرئية، وتتسم افعاله بالدقة المتناهية الخارجة عن قدرة الإدراك.

يروي (الفتح بن يزيد الجرجاني) حديثاً عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام يعتبر معجزة علمية في هذا المجال يقول: قال الإمام عليه السلام: «... إنّما قلنا اللطيف، للخلق اللطيف ولعلمه بالشيء اللطيف، أوَ لا ترى - وفقك الله وثبتك - إلى أثر صنعه في النبات اللطيف وغير اللطيف، ومن الخلق اللطيف ومن الحيوان الصغار ومن البعوض والجرجس وما هو أصغر منها ما لا يكاد تستبينه العيون، بل لا يكاد يستبان لصغره الذكر من الأُنثى، والحدث المولود من القديم، لما رأينا صغر ذلك في لطفه واهتداءه

---

(١) أصول الكافي، ج ١، ص ٩٣ و ١١٨.

للسفاد والهرب من الموت والجمع لما يصلحه وما في لجج البحار وما في لحاء الأشجار والمفاوز والقفار وإفهام بعضها عن بعض منطقها وما يفهم به أولادها عنها ونقلها الغذاء إليها ثمّ تأليف ألوانها حمرة مع صفرة وبياض مع حمرة وأنّه ما لا تكاد عيوننا تستبينه لدمامة خلقها لا تراه عيوننا ولا تلمسه أيدينا، علمنا أنّ خالق هذا الخلق لطيف لطف بخلق ما سميناه بلا علاج ولا أداة ولا آلة وأنّ كل صانع شيء فمن شيء صنعه والله الخالق اللطيف الجليل خلق وصنع لا من شيء».

إنّ هذا الحديث الذي يشير إلى الجراثيم والكائنات المجهرية قبل أن يولد (پاستور) بقرون، يفسّر معنى اللطيف.

ويحتمل أيضاً أن يكون المقصود من اللطيف هو أنّ ذاته المقدسة من اللطافة بحيث لا تدرك بالحواس، وعليه فإنّه «اللطيف» لأنّ أحداً لا علم له به، وهو «الخبير» لأنّه عالم بكلّ شيء.

وقد ورد هذا المعنى في بعض روايات أهل البيت عليهم السلام أيضاً[1] وليس هناك ما يمنع من إرادة المعنيين من هذه الكلمة.

﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾

التّفسير

ليس من واجبك الإكراه

تعتبر هذه الآيات نتيجة للآيات السابقة، ففي البداية تقول: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

(١) تفسير البرهان، ج ١، ص ٥٤٨؛ وأُصول الكافي، ج ١، ص ١٠٠ و ١٢٢.

﴿بَصَآئِرُ﴾ جمع «بصيرة» من «البصر» بمعنى الرؤية، ولكنّها في الغالب رؤية ذهنية وعقلانية، وقد تطلق على كلّ ما يؤدّي إلى الفهم والإدراك، وهذه الكلمة في هذه الآيات تعني الدليل والشاهد، وتشمل جميع الدلائل التي وردت في الآيات السابقة، بل إنّها تشمل حتى القرآن نفسه.

ثمّ لكي تبيّن أنّ هذه الأدلة والبراهين كافية لإظهار الحقيقة لأنّها منطقية، تقول: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾، أي إنّ إبصارهم يعود بالنفع عليهم وعماهم يسبب الإضرار بهم.

وفي نهاية الآية تقول، على لسان النّبي ﷺ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾.

للمفسّرين احتمالان في تفسير هذا المقطع من الآية:

الأوّل: إنّي لست أنا المسؤول عن مراقبتكم والمحافظة عليكم وملاحظة أعمالكم، فالله هو الذي يحافظ على الجميع، وهو الذي يعاقب ويثيب الجميع، إنّ واجبي لا يتعدّى إبلاغ الرسالة وبذل الجهد لهداية الناس.

والآخر: أنا غير مأمور لأحملكم بالجبر والإكراه على قبول الإيمان، إنّما واجبي هو أن أدعوكم إلى ذلك بتبيان الحقائق بالمنطق والحجّة وأنتم الذين تتخذون قراركم النهائي.

وليس ما يمنع من انطواء العبارة على كلا المعنيين.

الآية التّالية تؤكّد أنّ اتخاذ القرار النهائي في اختيار طريق الحقّ أو الباطل إنّما يرجع للناس أنفسهم، وتقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾(١) أي كذلك نبيّن الأدلة والبراهين بصور وأشكال متنوعة.

لكن جمعاً عارضوا، وقالوا - دونما دليل وبرهان - إنّك تلقيت هذا من الآخرين (أي اليهود والنصارى): ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾(٢).

إلاّ أنّ جمعاً آخر ممن لهم الاستعداد لتقبل الحق لما لهم من بصيرة وفهم وعلم، يرون وجه الحقيقة ويقبلونها: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) ﴿نُصَرِّفُ﴾ من «التصرف» وهو بمعنى رد الشيء من حالة أو إبداله بغيره، أي إنّ الآيات تنزل في صور وأشكال متنوعة ولمختلف المستويات العقلية والعقائدية والاجتماعية.

(٢) «اللام» في ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ هي «لام العاقبة» لبيان العاقبة التي وصل إليها الأمر دون أن تكون هي الهدف المقصود، لقد كانت هذه تهمة يوجهها المشركون إلى رسول الله ﷺ.

إنّ اتهام رسول الله ﷺ بأنّه اقتبس تعاليمه من اليهود والنصارى قد تكرر من جانب المشركين، وما يزال المعارضون المعاندون يتابعونهم في ذلك، مع أنّ حياة الجزيرة العربية لم تكن فيها مدرسة ولا درس ليتعلّم منها رسول الله ﷺ شيئاً، كما أنّ رحلاته إلى خارج الجزيرة كانت قصيرة لا تدع مجالاً لمثل هذا الاحتمال، ثمّ إنّ معلومات اليهود والمسيحيين الذين كانوا يسكنون الحجاز كانت على درجة من التفاهة وتسطير الخرافات بحيث لا يمكن - أصلاً - مقارنتها بما في القرآن ولا بتعاليم الرّسول ﷺ، وسنشرح هذا الموضوع - إن شاء الله - عند تفسير الآية (١٠٣) من سورة النحل.

ثمّ تبيّن الآية واجب رسول الله ﷺ في قبال معاندة المعارضين وحقدهم واتهاماتهم، فتقول: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ومن واجبك أيضاً الإعراض عمّا يوجّهه إليك المشركون من افتراءات: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.

هذا - في الواقع - ضرب من التسلية والتقوية المعنوية للنّبي ﷺ لكي لا ينتاب عزمه الراسخ الصلب أيّ ضعف في مواجهة أمثال هؤلاء المعارضين.

يتبيّن ممّا قلناه بجلاء أنّ عبارة ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا تتعارض مطلقاً مع الأمر بدعوتهم إلى الإسلام ولا مع الجهاد ضدّهم، فالمقصود هو أن لا يلقي اهتماماً إلى أقوالهم الباطلة واتهاماتهم الكاذبة، بل يمضي في طريقه بثبات.

في **الآية الأخيرة** يكرر القرآن - مرّة أُخرى - القول بأنّ الله لايريد أن يكره المشركين ويجبرهم على الإسلام، إذ لو أراد ذلك لما كان هناك أيّ مشرك: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ كما يؤكّد القول لرسول الله ﷺ: إنّك لست مسؤولاً عن أعمال هؤلاء، لأنّك لم تبعث لإكراههم على الإيمان: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾، ولا من واجبك حملهم على عمل الخير: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

«الحفيظ» هو من يراقب أمراً أو شخصاً ليحفظه من أن يصاب بضرر، أمّا «الوكيل» فهو من يسعى لإحراز النفع لموكّله.

لعل من المفيد أن نشير إلى أنّ نفي هاتين الصفتين «الحفاظ والوكالة» عن رسول الله ﷺ يعني نفي الإجبار على دفع ضرر أو اجتلاب نفع، وإلاّ فإنّ رسول الله ﷺ كان يدعوهم - ضمن تبليغه الرسالة - إلى عمل الخير وترك الشر بصورة طوعية واختيارية.

الإسلام لا يكون عن طريق الإكراه والإجبار، بل يكون عن طريق المنطق والاستدلال والنفوذ إلى أفكار الناس وأرواحهم، فالإيمان بالإكراه لا قيمة له، لأنّ المهم هو أن يدرك الناس الحقيقة فيتقبّلوها بإرادتهم واختيارهم.

كثيراً ما يؤكّد القرآن حقيقة كون الإسلام بعيداً عن كلّ عنف وخشونة، كتلك الأعمال التي كانت ترتكبها الكنيسة في القرون الوسطى[١]، ومحاكم تفتيش العقائد.

أمّا صلابة الإسلام في مواجهة المشركين فسوف نبحثها - إن شاء الله - في بداية تفسير سورة البراءة.

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨)﴾

التّفسير

تناولت الآيات السابقة موضوع قيام تعاليم الإسلام على أساس المنطق، وقيام دعوته على أساس الاستدلال والإقناع لا الإكراه، وهذه الآية تواصل نفس التوجيهات فتنهى عن سبّ ما يعبد الآخرون - أي المشركون - لأنّ هذا سوف يدعوهم إلى أن يعمدوا هم أيضاً - ظلماً وعدواناً وجهلاً - إلى توجيه السبّ إلى ذات الله المقدّسة: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

يروى أنّ بعض المؤمنين كانوا يتألمون عند رؤيتهم عبادة الأصنام، فيشتمون أحياناً الأصنام أمام المشركين، وقد نهى القرآن نهياً قاطعاً عن ذلك، وأكّد التزام قواعد الأدب واللياقة حتى في التعامل مع أكثر المذاهب بطلاناً وخرافة[٢].

إنّ السبب واضح، فالسّب والشّتم لا يمنعان أحداً من المضي في طريق الخطأ، بل إنّ التعصّب الشديد والجهل المطبق الذي يركب هؤلاء يدفع بهم إلى التمادي في العناد

---

(١) «القرون الوسطى» هي فترة الألف سنة التي امتدت بين القرن السادس الميلادي حتى نهاية القرن الخامس عشر، كما يطلق عليها اسم «الفترة المظلمة» التي مرّت على أوروبا والمسيحية، والجدير بالذكر أنّ «العصر الذهبي الإسلامي» يقع في منتصف القرون الوسطى.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٣٢؛ وتفسير جامع البيان، ج ٧، ص ٤٠٤.

واللجاجة وإلى التشبث أكثر بباطلهم، ويستسهلون إطلاق ألسنتهم بسبّ مقام الرّبوبية جلّ وعلا، لأنّ كل أُمّة تتعصّب عادة لعقائدها وأعمالها كما تقول العبارة التّالية من الآية: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾.

وفي الختام تقول الآية: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

بحوث

هنا ينبغي الانتباه إلى ثلاث نقاط:

١ - هذه الآية نسبت إلى الله تزيين الأعمال الحسنة والسيئة لكل شخص، وقد يثير هذا عجب بعضهم، إذ كيف يمكن أن يزيّن الله أعمال المرء السيئة في نظره؟

سبق أن أجبنا مرّات على مثل هذه الأسئلة فأمثال هذه التعبيرات تشير إلى صفة العمل وأثره، أي إنّ الإنسان عندما يقوم بعمل ما بصورة متكررة، فإنّ قبح عمله يتلاشى في نظره شيئاً فشيئاً، ويتخذ شكلاً جذّاباً، ولمّا كان علّة العلل وسبب الأسباب وخالق كل شيء هو الله، وأنّ جميع التأثيرات ترجع إليه، فإنّ هذه الآثار تنسب أحياناً في القرآن إلى الله (تأمل بدقّة).

وبعبارة أوضح، إنّ عبارة: ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ تفسّر هكذا: لقد أقحمناهم في نتائج سوء أفعالهم إلى الحدّ الذي أصبح القبيح جميلاً في نظرهم.

يتّضح من هذا أنّ القرآن ينسب - أحياناً - تزيين الأعمال إلى الشيطان، وهذا لا يتعارض مع ما قلناه، لأنّ الشيطان يوسوس لهم لكي يرتكبوا الأعمال القبيحة، وهم يستسلمون لوسوسة الشيطان، فتكون النتيجة أنّهم يلاقون عاقبة أعمالهم السيئة، وبالتعبير العلمي نقول: إنّ السببية من الله، ولكنّ هؤلاء هم الذين يوجدون السبب، مدفوعين بوسوسة الشيطان (تأمل بدقّة)(١).

٢ - الأحاديث الإسلامية - أيضاً - تواصل منطق القرآن في ترك سبّ الضالين والمنحرفين، فقد أمر كبار قادة الإسلام بضرورة الاستناد إلى المنطق والبرهان دائماً، وبلزوم تجنب شتم عقائد الآخرين، فقد جاء في نهج البلاغة أنّ الإمام عليّاً عليه السلام

(١) في ثمانية مواضع من القرآن نسب تزيين الأعمال إلى الشيطان، وفي عشرة مواضع جاء التعبير بصيغة المبني للمجهول «زُيّن»، وفي موضعين اثنين نسب إلى الله، وممّا سبق أن قلناه يتّضح معنى هذه الحالات الثلاث.

خاطب فريقاً من أصحابه الذين كانوا يسبّون أتباع معاوية في حرب صفين، فقال: «إني أكره لكم أن تكونوا سبابين، ولكنّكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر»(١).

٣ - قد يعترض بعضهم قائلاً: كيف يمكن لعبدة الأصنام أن يسبّوا الله مع أنّهم في الغالب يؤمنون بالله ويعتبرون الأصنام مجرّد شفعاء إلى الله؟

ولكنّنا إذا أمعنا النظر في حالة العامّة المعاندين المتعصّبين أدركنا أنّ هذا ممكن ولا عجب فيه، فإنّ أمثال هؤلاء إذا أُثير غضبهم سعوا للانتقام والإثارة بأيّ ثمن كان، حتى وإن كان ذلك بالإساءة إلى عقائد مشتركة، يقول الآلوسي في «روح المعاني»: إنّ بعض العوام من الجهلة عندما سمع بعض الشيعة يسب الشّيخين أزعجه ذلك فراح يسب علياً عليه السلام، وإذا سئل عمّا دعاه إلى سبّ الإمام عليّ عليه السلام الذي يحترمه، قال: كنت أُريد أن أنتقم من ذلك الشيعي، ولم أجد ما يغضبه ويثيره خيراً من هذا، فحملوه على أن يتوب عمّا فعل(٢).

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾

سبب النّزول

قيل في نزول هذه الآية: إنّ قريشاً قالت: يا محمّد تخبرنا أنّ موسى كانت معه عصا يضرب بها الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عيناً، وتخبرنا أنّ عيسى كان يحيي الموتى، وتخبرنا أنّ ثمود كانت لهم ناقة، فأتنا بآية من الآيات كي نصدّقك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أيّ شيء تحبون أن آتيكم به؟ قالوا: اجعل لنا الصفا ذهباً، وابعث لنا بعض موتانا، حتى نسألهم عنك أحق ما تقول أم باطل، وأرنا الملائكة يشهدون لك، أو ائتنا بالله والملائكة قبيلاً!! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فإن فعلت بعض ما تقولون،

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٦.

(٢) الآلوسي، «تفسير روح المعاني»، ج ٧، ص ٢١٨.

أتصدقونني؟» قالوا: نعم والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعين، وسأل المسلمون رسول الله أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا.

فقام رسول الله ﷺ يدعو الله تعالى أن يجعل الصفا ذهباً، فجاء جبرئيل عليه السلام فقال له: إن شئت أصبح الصفا ذهباً، ولكن إن لم يصدّقوا عذّبتهم، وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم، فقال رسول الله ﷺ: «بل يتوب تائبهم» فأنزل الله تعالى الآيتين(١).

التّفسير

وردت في الآيات السابقة أدلة كثيرة كافية على التوحيد، وردّ الشِّرك وعبادة الأصنام، ومع ذلك فإنّ فريقاً من المشركين المعاندين المتعصّبين لم يرضخوا للحق، وراحوا يعترضون وينتقدون، من ذلك أنّهم أخذوا يطلبون من رسول الله ﷺ القيام بخوارق عجيبة وغريبة يستحيل بعضها أساساً (مثل طلب رؤية الله)، زاعمين كذباً أنّ هدفهم من رؤية تلك المعجزات هو الإيمان، في الآية الأُولى يقول القرآن: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾(٢).

وفي الردّ عليهم يشير القرآن إلى حقيقتين: يأمر النّبي ﷺ أوّلاً أن يقول لهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي إنّ تحقيق المعجزة لا يكون وفق مشتهياتهم، بل إنّها بيد الله وبأمره.

ثمّ يخاطب المسلمين البسطاء الذين تأثّروا بإيمان المشركين فيقول لهم: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٣) مؤكّداً بذلك أنّ هؤلاء المشركين كاذبون في قسمهم.

كما أنّ مختلف المشاهد التي جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ تؤكّد حقيقة أنّهم لم يكونوا يبحثون عن الحق، بل كان هدفهم من كل ذلك أن يشغلوا الناس ويبذروا في نفوسهم الشك والتردد.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٣٥؛ وتفسير الميزان، ج ٧، ص ٣٢٤.

(٢) «الجهد» بمعنى السعي وبذل الطاقة، والمقصود هنا الجهد في توكيد القسم.

(٣) المفسّرون غير متفقين على «ما»، أهي استفهامية أم نافية؟ وكذلك فيما يتعلّق بتركيب الجملة، بعضهم يقول إنّ «ما» استفهامية استنكارية، ولو كانت كذلك لكان معنى الآية: أنّى لكم أن تعلموا أنّهم لا يؤمنون إن رأوا معجزة، أي إنّهم قد يؤمنون، وهذا خلاف ما تريده الآية، لذلك اعتبر بعضهم «ما» نافية، وهو الأقرب إلى الذهن، فيكون معنى الآية: أنتم لا تعلمون أنّهم حتى إذا تحققت لهم المعجزات لا يؤمنون، وعلى ذلك يكون فاعل «يشعر» مقدّر بمعنى «شيء» وللفعل «يشعر» مفعولان «كم» وإنها . . . (تأمل بدقّة).

الآية التّالية تبيّن سبب عنادهم وتعصّبهم، فتقول: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي إنّهم بإصرارهم على الانحراف والسير في طريق ملتوٍ وتعصّبهم الناشئ عن الجهل ورفض التسليم للحق، أضاعوا قدرتهم على الرؤية الصحيحة والإدراك السليم، فراحوا يعيشون في متاهات الضلال والحيرة.

هنا أيضاً نسب هذا الفعل إلى الله كما سبق من قبل، وهو في الواقع نتيجة أعمالهم وسوء فعالهم، وما نسبة ذلك إلى الله إلّا لأنّه علّة العلل ومبدأ عالم الوجود، وكل خصيصة في أيّ شيء إنّما هي بإرادته، وبعبارة أُخرى: إنّ الله جعل من النتائج الحتمية للعناد والتعصّب الأعمى والانحراف أن يكون لها مثل هذا الأثر، وهو انحراف الإنسان شيئاً فشيئاً في هذا الطريق، فلا يعود يدرك الأُمور إدراكاً سليماً.

ثمّ تشير الآية في الخاتمة إلى أنّ الله، يترك أمثال هؤلاء في حالتهم تلك لكي يشتد ضلالهم وتزداد حيرتهم: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(١).

نسأل الله أن يجنبنا الابتلاء بمثل هذا الضلال والحيرة الناتجة عن أعمالنا السيّئة، وأن يمنحنا النظرة السليمة الكاملة لكي نرى الحقيقة ناصعة لا غبش عليها.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾

التّفسير

لماذا لا يرعوي المعاندون؟

هذه الآية تتبع سابقاتها في تعقيب الحقيقة نفسها، وهدف هذه الآيات هو بيان كذب أُولئك الذين طلبوا تحقيق معجزات عجيبة وغريبة يستحيل تحقق بعضها كما مرّ (مثل رؤية الله جهرة).

فهم يظنون أنّهم بطلبهم تلك المعجزات العجيبة سوف يزعزعون أفكار المؤمنين ويزلزلون عقائد الباحثين عن الحق ويشغلونهم عن ذلك.

(١) ﴿يَعْمَهُونَ﴾ من «عمه» بمعنى الحيرة والشك.

فيصرّح القرآن في الآية المذكورة قائلاً: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾[١].

ثمّ يؤكّد ذلك أنّهم لا يمكن أن يؤمنوا إلّا في حالة واحدة وهي أن يجبرهم الله بإرادته على الإيمان: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إلّا أنّ إيماناً كهذا لا ينفع في تربيتهم ولا يؤثّر في تكاملهم وفي النهاية يقول: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾.

هناك كلام مختلف بين المفسّرين عمّن يعود إليهم الضمير «هم» في هذه العبارة، فقد يعود إلى المؤمنين الذين أصرّوا على رسول الله ﷺ أن يحقق للمشركين طلباتهم ويأتيهم بكل معجزة يريدونها.

وذلك لأنّ معظم هؤلاء المؤمنين كانوا يجهلون زيف الكفار في دعواهم، ولكنّ الله كان عالماً بأنّهم كاذبون، ولذلك لم يجبهم إلى طلباتهم، إلّا أنّ دعوة رسول الله ﷺ لا يمكن أن تخلو - طبعاً - من معجزة، فقد حقق الله في مواضع خاصّة معجزات مختلفة على يده.

والاحتمال الآخر هو أنّ الضمير «هم» يعود إلى الكفّار، أصحاب الطلبات أنفسهم، أي أنّ أكثرهم يجهل قدرة الله على تحقيق كل أمر خارق للعادة، ولعلّهم يعتبرون قدرته محدودة لذلك كانوا يصفون معاجز الرّسول بالسحر، يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾[٢] فهم قوم معاندون وجاهلون وينبغي أن لا يهتم أحد بكلامهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

(١) ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ تعني: حققنا لهم كلّ طلباتهم، فالحشر بمعنى الجمع، وقُبُلاً بمعنى أمامهم وقبالتهم، وقد تكون «قُبُل» جمع «قبيل» بمعنى تجميع الملائكة والأموات أمامهم جماعات.
(٢) سورة الحجر، الآيتان: ١٤ و١٥.

التّفسير

وساوس الشياطين:

تشير هذه الآية إلى أنّ أمثال هؤلاء المعاندين اللجوجين المتعصّبين الذين أشارت إليهم الآيات السابقة، لم يقتصر وجودهم على عهد نبي الإسلام ﷺ، بل إنّ الأنبياء السابقين وقف في وجوههم أعداؤهم من شياطين الإنس والجن: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾، لا عمل لهم سوى الكلام المنمّق الخادع يستغفل به بعضهم بعضاً، يلقونه في غموض أو يهمس به بعض لبعض: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

ولكن: لو أراد الله لمنع هؤلاء بالإكراه عن ذلك ولحال دون وقوف هؤلاء الشياطين وأمثالهم بوجه الأنبياء: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾.

بيد أنّ الله لم يشأ ذلك، لأنّه أراد أن يكون الناس أحراراً، وليكون هناك مجال لاختبارهم وتكاملهم وتربيتهم، إنّ سلب الحرية والإكراه لا يأتلف مع هذه الأغراض، ثمّ إنّ وجود أمثال هؤلاء الأعداء المعاندين المتعصّبين لا يضر المؤمنين الصادقين، شيئاً، بل يؤدّي بشكل غير مباشر إلى تكامل الجماعة المؤمنة، لأنّ التكامل يسير عبر التضاد، ووجود عدو قوي له تأثير على تعبئة الطاقات البشرية وتقوية الإرادة.

لذلك يأمر الله نبيّه في آخر السورة أن لا يلقى بالاً إلى أمثال هذه الأعمال الشيطانية: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

ملاحظات

نسترعي الانتباه إلى النقاط التّالية:

١ - في هذه الآية ينسب الله إلى نفسه وجود شياطين الإنس والجن في قبال الأنبياء بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا. . .﴾ واختلف المفسّرون في معنى هذه العبارة، ولكن كما سبق أن شرحنا جميع أعمال الناس يمكن أن تنسب إلى الله، لأنّ ما يملكه الناس إنّما هو من الله، فقدرتهم منه، وكذلك حرية اختيارهم وإرادتهم، لذلك فإنّ أمثال هذه التعبيرات لا يمكن أن تعني سلب حرية الإنسان واختياره، ولا أنّ الله قد خلق بعض الناس ليتخذوا موقف العداء من الأنبياء، إذ لو كان الأمر كذلك لما توجّهت إليهم أيّة مسؤولية بشأن

عدائهم للأنبياء، لأنّ عملهم في هذه الحالة يعتبر تنفيذاً لرسالتهم، والأمر ليس كذلك. . . بالطبع.

ولا يمكن إنكار ما لوجود أمثال هؤلاء الأعداء - المختارين طبعاً - من أثر بنّاء غير مباشر في تكامل المؤمنين، وبتعبير آخر: يستطيع المؤمنون الصادقون أن ينتزعوا من وجود الأعداء أثراً إيجابياً متخذين منه وسيلة لرفع مستواهم ووعيهم وإعدادهم للمقاومة، لأنّ وجود العدو يحفز الإنسان لاستجماع قواه.

٢ - للشياطين (جمع شيطان) معنى واسع يشمل كلّ طاغٍ معاندٍ مؤذٍ، لذلك يطلق القرآن على الوضيع الخبيث الطاغي من البشر اسم الشيطان، كما نلاحظ في هذه الآية حيث ذكر شياطين الإنس وغير الإنس الذين لا نراهم، أمّا «إبليس» فهو اسم خاص للشيطان الذي وقف بوجه آدم عليه السلام وهو في الحقيقة رئيس جميع الشياطين، وعليه فالشيطان اسم جنس، وإبليس اسم علم خاص[١].

٣ - ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ يعني الكلام المعسول الخادع الذي يعجبك ظاهره وهو في الباطن قبيح[٢] و«الغرور» هو الغفلة في اليقظة.

٤ - تعبير ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ فيه إشارة لطيفة إلى أنّهم في أقوالهم وأفعالهم الشيطانية يرسمون خططاً غامضة يتبادلونها فيما بينهم سرّاً لئلا يعرف الناس شيئاً عن أعمالهم حتى ينفّذوا خططهم كاملة، إنّ من معاني «الوحي» الهمس في الأذن.

الآية التّالية تشير إلى نتيجة كلام الشياطين المزخرف الخادع فتقول: أخيراً سيستمع الذين لا إيمان لهم - أي الذين لا يؤمنون بيوم القيامة - إلى تلك الأقوال وتميل قلوبهم إليها: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[٣].

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾ من «الصغو» وهو الميل إلى شيء، ولكنّه في الأغلب ميل ناشئ عن طريق السمع، فإذا استمع أحد إلى كلام مع الموافقة، فهو «الصغو» و«الإصغاء».

---

(١) انظر المجلد الأوّل بهذا الشأن ذيل الآية ٣٤ من سورة البقرة.

(٢) «زخرف» تعني أصلاً الزينة والذهب الذي يستخدم للزينة، ثمّ أُطلقت على الكلام ذي الظاهر الجميل المزين.

(٣) يختلف المفسّرون في إعراب هذه الآية، وفي ما عطفت عليه جملة ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾ أمّا الأقرب إلى مفهوم الآية فهو أنّ الجملة معطوفة على «يوحي» ولامها «لام العاقبة» أي إنّ عاقبة أمر الشياطين ستكون أنّهم يوحي بعضهم إلى بعض كلاماً خادعاً فيميل إليه الذين لا إيمان لهم، وقد تكون معطوفة على محل «غروراً» وهي مفعول لأجله (إذ إنّ الإنسان ينخدع أوّلاً ثمّ يميل إلى ما انخدع به) فتأمل بدقّة.

ثمّ يقول: إنّ نهاية هذا الميل هو الرضا التام بالمناهج الشيطانية ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾.

وختام كل ذلك كان ارتكاب أنواع الذنوب والأعمال القبيحة: ﴿وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾

التّفسير

هذه الآية في الواقع هي نتيجة الآيات السابقة، إذ تقول: بعد كل تلك الأدلة والآيات الواضحة التي تؤكّد التوحيد: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾(1)؟ وهو الذي أنزل هذا الكتاب السماوي العظيم الذي فيه كل احتياجات الإنسان التربوية، وما يميّز بين الحق والباطل والنّور والظلمة، والكفر والإيمان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾.

وليس الرّسول والمسلمون وحدهم يعلمون أنّ هذا الكتاب قد نزل من الله، بل إنّ أهل الكتاب ﴿ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ يعلمون ذلك أيضاً، لأنّ علائم هذا الكتاب السماوي قرؤوها في كتبهم ويعلمون أنّه نزل من الله بالحق: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

وعلى ذلك لم يبق مجال للشك فيه، وكذلك أنت أيّها النّبي لا تشك فيه أبداً، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾.

هنا يبرز هذا السؤال: هل كان النّبي ﷺ يداخله أدنى شك ليخاطب بمثل هذا القول؟

(١) «الحَكم» القاضي والحاكم، وبعضهم يراه مساوياً للحاكم من حيث المعنى، ولكن يرى بعضهم، ومنهم الشيخ الطوسي رحمه الله، أنّ الحكم من لا يحكم بغير الحق، أمّا الحاكم فقد يحكم بكليهما، ويرى آخرون، ومنهم صاحب المنار أنّ الحكم من يختاره الطرفان للحكم، وليس الحاكم كذلك.

والجواب: هو ما سبق أن قلناه في مثل هذه الحالات، وهو أنّ المخاطب في الحقيقة هم الناس، وما مخاطبة النّبي مباشرة إلّا لتوكيد الموضوع وترسيخه، وليكون التحذير للناس أقوى وأبلغ.

الآية التّالية تقول: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

«الكلمة» بمعنى القول، وتطلق على كل جملة وكل كلام مطولاً كان أم موجزاً، وقد تطلق على الوعد، كما في الآية: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾[1]، لأنّ الشخص عندما يعد، يتلفظ ببعض الكلمات المتضمّنة لمفهوم الوعد.

وقد تأتي بمعنى الدين والحكم والأمر للسبب نفسه.

أمّا بالنسبة لاستعمالها في هذه الآية فقيل إنّها تعني القرآن، وقيل إنّها دين الله، وقيل: وعد النصر الذي وعد الله نبيّه ﷺ. وليس بين هذه تعارض، فقد تكون الآية أرادت هذه المعاني جميعاً، ولأنّ الآيات السابقة كانت تشير إلى القرآن، فتفسير الكلمة بالقرآن أقرب.

فيكون معنى الآية إذن: إنّ القرآن ليس موضع شك بأيّ شكل من الأشكال، فهو كامل من جميع الجهات ولا عيب فيه، وكل أخباره وما فيه من تواريخ صدق، وكل أحكامه وقوانينه عدل.

وربّما يكون معنى «كلمة» هنا هو الوعد الذي جاء في العبارة التّالية: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ إذ يتكرر هذا التعبير في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[2] وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾[3]، في أمثال هذه الآيات تكون الآية التّالية بياناً للوعد الذي ورد من قبل تحت لفظة «كلمة».

وعلى ذلك يكون معنى الآية: لقد تحقق وعدنا بالصدق وبالعدل، وهو أنّه ليس لأحد القدرة على تبديل أحكام الله.

وقد تتضمّن الآية كل هذه المعاني.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٧. (٢) سورة هود، الآية: ١١٩.
(٣) سورة الصافات، الآيتان: ١٧١ و١٧٢.

وإذا كانت الآية تعني القرآن، فذلك لا يتعارض مع كون القرآن لم يكن قد اكتمل نزوله حينذاك، إذ المقصود هو أنّ ما نزل منه كان متكاملاً ولا عيب فيه.

ويستند بعض المفسّرين إلى هذه الآية لإثبات عدم تحريف القرآن، لأنّ تعبير ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ يعني أنّ أحداً لا يستطيع أن يحدث في القرآن تبديلاً أو تغييراً، لا في لفظه، ولا في أخباره، ولا في أحكامه، وأنّ هذا الكتاب السماوي الذي يجب أن يبقى حتى نهاية العالم هادياً للناس سيبقى محفوظاً ومصوناً من أغراض الخائنين والمحرّفين.

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾

التّفسير

نعلم أنّ آيات هذه السورة نزلت في مكّة، يوم كان المسلمون قلّة في العدد، ولعل قلّتهم هذه وكثرة المشركين وعبدة الأصنام كانت مدعاة لتوهّم بعضهم أنّه إذا كان دين أُولئك باطلاً فَلِمَ كثر أتباعه؟! وإذا كان دين الإسلام حقّاً، فما سبب قلّة معتنقيه؟

ولدفع هذا التوهّم يخاطب الله نبيّه بعد ذكر أحقّية القرآن في الآيات السابقة قائلاً: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾.

وفي الجملة التّالية يبيّن سبب ذلك، وهو أنّهم لا يتبعون المنطق والتفكير السليم، بل هم يتبعون الظنون التي تخالطها الأهواء والأكاذيب ويمتزج بها الخداع والتخمين: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[1].

فيكون مفهوم الآية الشريفة أنّ الأكثرية لا يمكن أن تكون وحدها الدليل على طريق الحق، ومن هذا نستنتج أنّه يجب التوجّه إلى الله وحده لمعرفة طريق الحق، حتى لو كان السائرون في هذا الطريق قلّة في العدد.

---

(١) «الخرص» هو كل قول أُطلق عن ظن وتخمين، وأصله من تخمين كمية الثمر على الأشجار عند استئجار البستان، وأمثال ذلك، ثمّ أُطلق على كل ظن وتخمين قد يطابق الواقع وقد لا يطابقه، والكلمة تستعمل في الكذب أيضاً، وقد تكون في الآية بكلا المعنيين.

والدليل على ذلك يرد في الآية التّالية التي تؤكّد على أنّ الله عليم بكل شيء ولا مكان للخطأ في علمه، فهو أعرف بطريق الهداية، كما هو أعرف بالضالين وبالسائرين على طريق الهداية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[1].

هنا يبرز سؤال: يفهم من الآية أنّ الله سبحانه أعلم بطريق الهداية، فهل هناك من يعلم طريق الهداية بدون هدى الله حتى كون الله هو الأعلم؟!

والجواب: إنّ الإنسان قادر - بلا شكّ - أن يتوصّل بعقله إلى بعض الحقائق، ويدرك طريق الهداية والضلالة إلى حدّ ما، غير أنّ مديّات ضوء العقل لها حدود، وقد تظل بعض الحقائق خارج نطاق تلك الحدود، ثمّ إنّ معلومات الإنسان قد يعتورها الخطأ، فيكون لذلك بحاجة إلى مرشدين وهداة إلهيين، لذلك فتعبير «الله أعلم» صحيح، وإن يكن قياساً مع الفارق.

لا أهمّية للكثرة العددية

على العكس ممّا يظنّه بعضهم بأنّ الكثرة العددية توافق الصواب دائماً فإنّ القرآن ينفي هذا في كثير من آياته، ولا يقيم للكثرة «العددية» أيّ وزن، بل يرى - في الحقيقة - أنّ الكثرة «الكيفية» هي المقياس، لا الكثرة «الكمية» على الرغم من أنّ المجتمعات المعاصرة لم تجد لإدارة الحياة الاجتماعية طريقاً سوى الاستناد إلى الأكثرية، فلا ننس أنّ هذا - كما قلنا - نوع من الاضطرار والوصول إلى طريق مسدود، إذ لا يمكن العثور في مجتمع مادي على وسيلة صحيحة وسليمة لاتخاذ القرارات ولسنّ القوانين.

لذلك نجد الكثير من العلماء مضطرين إلى القبول بفكرة الأكثرية، على الرغم من اعترافهم بأنّ هذه القاعدة كثيراً ما يصاحبها الخطأ، وذلك لأنّ عيوب الوسائل الأُخرى أكثر.

بيد أنّ مجتمعاً مؤمناً برسالة الأنبياء لا يجد نفسه مضطراً لاتباع نظر الأكثرية في سنّ القوانين، لأنّ مناهج الأنبياء الصادقة وقوانينهم الإلهيّة خالية من كلّ عيب ونقص، ولا يمكن مقارنتها بما تستصوبه الأكثرية المعرّضة للخطأ.

لو ألقينا نظرة على وضع العالم اليوم وعلى الحكومات القائمة على أساس رأي

---

(١) صيغة التفضيل تتعدى عادة بالباء، فكان المفروض أن يقال «أعلم بمن يضل» ولكن الباء حذفت هنا و«من يضل» منصوبة بنزع الخافض.

الأكثرية، وعلى القوانين السقيمة التي تمليها الأهواء ثمّ تقرّها الأكثرية، لرأينا أنّ الأكثرية العددية لم تداو جرحاً، بل إنّ معظم الحروب وأكثر المفاسد أقرّتها الأكثرية.

الاستعمار، والاستغلال، والحروب، وإراقة الدماء، وحرية تعاطي المسكرات، والقمار، والإجهاض، والبغاء، وغير ذلك ممّا يندى له الجبين خجلاً، قد أقرّتها الأكثرية في المجالس النيابية في كثير من البلدان التي تصف نفسها بأنّها متقدّمة باعتبارها تعكس رغبة أكثرية الناس، وهذا دليل على حقيقة ما نقول.

ومن الناحية العلمية نتساءل هل أنّ أكثرية المجتمعات صادقة؟ هل الأكثرية أمينة؟ أتراها تمنع نفسها من الاعتداء على حقوق الآخرين، إذا استطاعت؟ هل تنظر الأكثرية إلى منافعها ومنافع الآخرين بنظرة واحدة؟

الإجابات ناطقة بلسان الحال لا المقال، لذلك لابدّ من الاعتراف بأنّ استناد العالم المعاصر إلى الأكثرية نوع من الإكراه تفرضه الأوضاع القائمة، وأنّه شرّ مفروض على المجتمعات.

نعم، لو أنّ العقول المفكّرة، ومصلحي المجتمعات البشرية المخلصين، والعلماء الهادين - وهم أقلية دائماً - شنّوا حملة شاملة لتنوير أفكار عامّة الناس بحيث تنال المجتمعات قسطاً من الوعي والرشد الفكري والاجتماعي، لاقتربت وجهات نظر أكثرية كهذه إلى الحقيقة اقتراباً كبيراً، غير أنّ أكثرية غير راشدة وغير واعية، بل فاسدة ومنحرفة وضالة، لا تستطيع أن تقيل عثرة نفسها أو غيرها! لذلك فالأكثرية وحدها لا تكفي، وإنّما الأكثرية المهتدية هي القادرة على حلّ مشاكل المجتمع بالمقدار الّذي يستطيعه البشر.

وإذا كان القرآن في كثير من المواضع يذمّ الأكثرية، فالمقصود هو الأكثرية غير الرشيدة دون شك.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾

التّفسير

لا بدّ من إزالة آثار الشرّك

هذه الآيات في الحقيقة واحدة من نتائج البحوث التي سبقت في التوحيد والشّرك، لذلك تبدأ الآية الأُولى بفاء التفريع التي يؤتى بعدها بالنتيجة.

الآيات السابقة تناولت بأساليب متنوعة حقيقة التوحيد وإثبات بطلان الشرك وعبادة الأصنام.

ومن نتائج ذلك أنّ على المسلمين أن يمتنعوا عن أكل لحوم القرابين التي تُذبح باسم الأصنام، بل عليهم أن يأكلوا من لحم ما ذُكر اسم الله عليه، حيث كان من عادة العرب أن يذبحوا القرابين لأصنامهم، ويأكلوا من لحومها للتبرك بها، وكان هذا جزءاً من عبادتهم الأصنام، لذلك يبدأ القرآن بالقول: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾.

أي إنّ الإيمان ليس مجرّد قول وادعاء وعقيدة ونظرية، بل لا بدّ أن يظهر على صعيد العمل أيضاً، فالذي يؤمن بالله يأكل من هذه اللحوم فقط.

بديهي أنّ الفعل «كلوا» لا يعني الوجوب، بل يعني إباحة أكلها وحرمة أكل ما عداها.

ومن هذا يتبيّن أنّ حرمة الذبائح التي لم يذكر اسم الله عليها، ليست من وجهة النظر الصحية حتى يقال: ما الفائدة الصّحية من ذكر اسم الله على الذبيحة بل لها خلفية أخلاقية ومعنوية وتستهدف تثبيت قواعد التوحيد وعبودية الله الواحد الأحد.

الآية التّالية تورد هذا الموضوع نفسه بعبارة مغايرة مع مزيد من الاستدلال، فتقول: لِمَ لا تأكلون من اللحوم التي ذُكر اسم الله عليها، في الوقت الذي بيّن الله لكم ما حرم عليكم؟ ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

مرّة أُخرى نشير إلى أنّ التوبيخ والتوكيد ليسا من أجل ترك أكل اللحم الحلال، بل الهدف هو أنّ هذه هي ما ينبغي أن تأكلوا منها، لا من غيرها، وبعبارة أُخرى: التوكيد هنا على النقطة المقابلة لمفهوم العبارة، من هنا استدل على ذلك بالقول: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

أمّا موضع هذا التفصيل فقد يتصوّر البعض أنّه في سورة المائدة، أو في آيات من هذه السورة (الأنعام، ١٤٥).

ولمّا كانت هذه السورة قد نزلت في مكّة، وسورة المائدة نزلت بالمدينة، والآيات التّالية من هذه السورة لم تكن قد نزلت بعد فإنّ أيّاً من هذين الاحتمالين غير صحيح، فالموضوع إمّا أن يكون الآية (١١٥) من سورة النحل التي تذكر بعض اللحوم المحرّم أكلها، وخاصّة التي لم يُذكر عليها اسم الله، أو أن يكون المراد التعاليم التي كان رسول الله ﷺ بيّنها بشأن اللحوم، لأنّ النّبي ﷺ لم يكن يتحدّث إلّا بوحي.

ثمّ يستثني من ذلك حالة واحدة: ﴿إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾ سواء كان هذا الاضطرار ناشئاً من وجود الإنسان في البيداء وتحت ضغط الجوع الشديد، أو الوقوع تحت سيطرة المشركين الذين قد يجبرونه على أكل لحومهم.

ثمّ تشير الآية إلى أنّ كثيراً من الناس يحاولون أن يضلوا الآخرين عن جهل أو عن اتباع الهوى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ﴾.

وعلى الرغم من أنّ اتباع الهوى مصحوب دائماً بالجهل، ولكنّه يكرر ذلك للتوكيد فيقول: ﴿. . . بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ﴾.

يستفاد من هذا التعبير أيضاً أنّ العلم الصحيح لا يقترن باتّباع الهوى والانسياق مع الخيال، وحيثما اقترن فهو الجهل لا العلم.

يلزم القول أنّ الجملة المذكورة ربّما تكون إشارة إلى ما كان سائداً بين المشركين العرب الذين كانوا يسوّغون لأنفسهم أكل لحوم الحيوانات الميتة بالقول: أيجوز أن تعتبر لحوم الحيوانات التي نقتلها بأنفسنا حلالاً، ولحوم الحيوانات التي يقتلها الله حراماً؟

بديهي أنّ هذا لم يكن سوى سفسطة فارغة، لأنّ الحيوان الميت ليس حيواناً ذبحه الله ليمكن مقارنته بالحيوانات المذبوحة، إذ إنّ الحيوان الميت بؤرة الأمراض ولحمه فاسد، ولهذا حرّم الله أكله، وأخيراً يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ الذين يحاولون بهذه الأدلة الواهية تنكّب طريق الحق، بل يسعون إلى إضلال الآخرين.

الآية الثّالثة تذكر قانوناً عاماً، فيحتمل أن يرتكب بعضهم هذا الإثم في الخفاء، وتقول: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾.

يقال إنّهم في الجاهلية كانوا يعتقدون أنّ الزنا إذا ارتُكب في الخفاء فلا بأس به، أمّا إذ ارتُكب علناً فهو الإثم! واليوم - أيضاً - نجد أُناساً يسيرون وفق هذا المنطق الجاهلي فيخشون ارتكاب الإثم علانية، ولكنّهم يرتكبون في الخفاء ما يشاؤون من الآثام دون رادعٍ من ضمير.

إنّ هذه الآية لا تدين هذا المنطق فحسب، بل تحمل مفاهيم واسعة، فهي بالإضافة إلى ما قلناه آنفاً، تتضمّن الكثير من التفاسير التي وردت للإثم الظاهر والباطن، من ذلك - مثلاً - قولهم: إنّ الإثم الظاهر هو ما يُرتكب بوساطة أعضاء الجسم، والإثم الباطن هو ما يُرتكب في القلب وفي النيّة والعزم.

ثمّ من باب تهديد المذنبين بما ينتظرهم من مصير مشؤوم وتذكيرهم بذلك، تقول الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾.

عبارة ﴿يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ﴾ تعبير رائع يشير إلى أنّ الإنسان في هذه الدنيا أشبه بأصحاب رؤوس الأموال الذين يدخلون سوقاً كبيرة، فرؤوس أموالهم الذكاء والعقل والعمر والشباب والطاقات المختلفة التي هي مواهب الله، فالمسكين ذاك الذي «يكتسب» الإثم بهذه المواهب بدل أن يكتسب السعادة والشخصية الإنسانية والتقوى والقرب إلى الله.

و﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ أي ينالون الجزاء في المستقبل القريب... قد يشير إلى يوم القيامة، وأنّه وإن بدا في نظر بعضهم بعيداً، فهو في الحقيقة قريب جدّاً، وأنّ هذا العالم سرعان ما تنطوي أيّامه ويحين المعاد.

وقد يكون إشارة إلى أنّ أغلب أفراد البشر ينالون في هذه الدنيا بعض ما يستحقونه من نتائج أعمالهم السيئة بشكل ردود فعل فردية واجتماعية.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾

التفسير

دار الكلام في الآيات السابقة حول الجانب الإيجابي من مسألة اللحوم، أي أكل اللحوم الحلال، وفي هذه الآية تأكيد للجانب السلبي من المسألة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ثمّ في جملة واحدة يدين هذا العمل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ وإثم وخروج عن طريق العبودية وإطاعة الله.

ولكي لا يقع بعض البسطاء من المسلمين تحت تأثير وسوسة الشيطان، تخاطبهم الآية: إنّ الشياطين يوسوسون في الخفاء لأتباعهم لكي يدخلوا معكم في جدل ونقاش: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ﴾ ولكن كونوا على حذرٍ، ولا تطيعوهم: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

لعل هذا الجدل والوسوسة إشارة إلى ما كان سائداً بين المشركين بشأن أكل الميتة (وذهب البعض إلى أنّ العرب المشركين أخذوه من المجوس) وقولهم: إنّنا نأكل الميتة لأنّ الله أماتها، وهي لذلك أفضل ممّا نقتله بأيدينا، معتقدين أنّ عدم أكل الميتة نوع من الجفاء لعمل الله! غافلين أنّ الحيوان الميت موتاً طبيعاً، إضافة إلى مرضه غالباً، يضمّ بين لحمه دماً قذراً فاسداً يفسد معه اللحم، بسبب عدم انقطاع أوداجه، ولذلك أمر الله أن تؤكل - فقط - لحوم الحيوانات المذبوحة بطريقة خاصّة، والتي أُريق دمها خارج بدنها.

ويستفاد من هذه الآية - ضمنياً - حرمة الذبيحة غير الإسلامية، لأنّها - إضافة إلى الجهات الأُخرى - لم يتقيّد ذابحها بذكر اسم الله عليها.

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

سبب النّزول

قيل في نزول الآية الأُولى إنّ أبا جهل الذي كان من ألدّ أعداء الإسلام والرّسول ﷺ آذى يوماً رسول الله ﷺ إيذاءً شديداً، وكان «حمزة» عم النّبي ﷺ - ذاك الرجل الشجاع - لم يسلم بعد، بل كان ما يزال يقلّب الأمر في ذهنه، وقد خرج في ذلك اليوم كعادته للصيد في الصحراء، وعند عودته سمع بما جرى بين أبي جهل وابن أخيه، فغضب غضباً شديداً وذهب إلى أبي جهل وصفعه صفعة أسالت الدم من أنفه، وعلى الرغم من مكانة أبي جهل ونفوذه في عشيرته، فإنّه لم يرد عليه لما يعرفه عن شجاعة حمزة.

وعاد حمزة إلى رسول الله ﷺ وأعلن إسلامه، ومنذ ذلك اليوم أصبح جندياً من جنود الإسلام، ودافع عنه حتى استشهد بين يدي رسول الله ﷺ.

هذه الآية نزلت بشأن هذه الحادثة وبيّنت إسلام حمزة، وإصرار أبي جهل على الكفر والفساد.

وتفيد بعض الرّوايات الأُخرى أنّ الآية نزلت بشأن إسلام عمار بن ياسر وإصرار أبي جهل على الكفر.

ومهما يكن، فإنّ هذه الآية - مثل الآيات الأُخرى - لا تختص بواقعة نزولها، بل هي ذات مفهوم واسع يصدق على كل مؤمن صادق وكل معاند لجوج.

التّفسير

الإيمان والرّؤية الواضحة

ترتبط هذه الآية بالآيات السابقة من حيث كون الآيات السابقة أشارت إلى طائفتين من الناس: المؤمنين المخلصين، والكافرين المعاندين الذين لا يكتفون بضلالهم، بل يسعون حثيثاً إلى تضليل الآخرين، هنا أيضاً يتجسد وضع هاتين الطائفتين من خلال ضرب مثل واضح.

يشير المثال إلى طائفة من الناس كانوا من الضّالين، ثمّ غيّروا مسيرتهم باعتناق الإسلام فهؤلاء أشبه بالميت الذي يحييه الله بإرادته: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾.

كثيراً ما يستعمل القرآن «الموت» و«الحياة» بالمدلول المعنوي لهما لتمثيل الكفر والإيمان، وهذا يدل على أنّ الإيمان ليس مجرّد معتقدات جافّة وأوراد وطقوس، بل هو بمثابة الروح التي تحل في النفوس الميتة غير المؤمنة، فتؤثّر عليها في جميع شؤونها، وتمنح العيون الرؤية، والآذان قدرة السمع، واللسان قوّة البيان، والأطراف العزم على أداء النشاطات البنّاءة الإيمان يغيّر الأفراد، ويشمل هذا التغيير كل جوانب الحياة، وتبدو آثاره في كل الحركات والسكنات.

وتفيد جملة ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ أنّ الإيمان - وإن استلزم سعي الإنسان لنيله - لا يتم إلّا بهداية من الله! ثمّ تقول الآية عن أمثال هؤلاء: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾.

على الرغم من وجود الاختلاف في تفسير هذا «النّور» فالظاهر أنّ المقصود ليس القرآن وتعاليم الشرع فحسب، بل أكثر من ذلك، حيث يمنح الإيمان بالله الإنسان رؤية وإدراكاً جديدين... يمنحه رؤية واضحة ويوسّع من آفاق نظرته لتتجاوز إطار حياته المادية وجدران عالم المادة الضيّق إلى عالم أرحب وأوسع.

ولمّا كان الإيمان يدعو الإنسان إلى أن يبني نفسه، فإنّه يزيح عن عينيه أغشية الأنانية والتعصّب والمعاندة والأهواء، ويريه حقائق ما كان قادراً على إدراكها من قبل.

إنّه في ضوء هذا النّور يستطيع أن يميّز مسيرة حياته بين الناس، وأن يصون نفسه ويحافظ عليها ويحصّنها ضد ما يقع فيه الآخرون من أخطار الطمع والجشع والأفكار المادية المحدودة، والوقوف بوجه أهوائه وكبح جماحها.

إنّ ما نقرأه في الأحاديث الإسلامية من أنّ «المؤمن ينظر بنور الله» إشارة إلى هذه الحقيقة، إنّ مجرّد الوصف غير قادر على تبيان خصائص هذه الرؤية الإيمانية التي يمنحها الله للإنسان، بل ينبغي أن يذوق الإنسان طعمها لكي يدرك بنفسه مغزى هذا القول ويحس به.

ثمّ تقارن الآية بين هذا الإنسان الحي، الفعال، النيّر، والمؤثّر، بالإنسان العديم الإيمان والمعاند، فتقول: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.

نلاحظ أنّ الآية لا تقول: «كمن في الظّلمات» بل تقول: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ يقول بعضهم: إنّ الهدف من هذا التعبير هو إثبات أنّ هولاء الأفراد غارقون في الظّلمات والتعاسة إلى الحدّ الذي جعلهم مثلاً يعرفه المدركون.

وقد يكون ذلك إشارة إلى معنى أدق هو: أنّه لم يبق من وجود هؤلاء الأفراد سوى شبح، أو قالب، أو مثال أو تمثال، لهم هياكل خالية من الروح وأدمغة معطلة عن العمل.

لا بدّ من القول - أيضاً - إنّ «النّور» الذي يهدي المؤمنين جاء بصيغة المفرد، بينما «الظّلمات» التي يعيش فيها الكافرون جاءت بصيغة الجمع، وذلك لأنّ الإيمان ليس سوى حقيقة واحدة، وهو يرمز إلى الوحدة والتوحيد، بينما الكفر وعدم الإيمان مدعاة للتشتت والتفرقة.

وفي الختام تشير الآية إلى سبب مصير هؤلاء المشؤوم فتقول: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

سبق أن قلنا: إنّ من خصائص تكرار العمل القبيح أنّ قبحه يتضاءل في عين الفاعل حتى يبدو له أخيراً وكأنّه عمل جميل، ويتحوّل إلى مثل القيد يشدّ أطرافه، ويمنعه من الخروج من هذا الفخ، إنّ مطالعة بسيطة لحال المجرمين تكشف لنا هذه الحقيقة بجلاء.

ولمّا كان بطل هذه المشاهد في جانبها السلبي هو «أبو جهل» الذي كان من كبار مشركي قريش ومكّة، فالآية الثّانية تشير إلى حال هؤلاء الزعماء الضالين وقادة الكفر والفساد، فتقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾.

كررنا القول من قبل: إنّ سبب نسبة أمثال هذه الأفعال إلى الله، لكونه تعالى هو علّة العلل ومسبب الأسباب ومصدر كل القدرات، والإنسان يستخدم ما وهبه الله من إمكانات طالحاً كان هذا الفعل أم صالحاً.

جملة ﴿لِيَمْكُرُوا﴾ تشير إلى عاقبة أعمالهم، ولا تعني الهدف من خلقهم[1] أي إنّه عاقبة عصيانهم وكثرة ذنوبهم أدّت بهم إلى أن يصبحوا سدّاً على طريق الحق، وعاملاً على جرّ الناس نحو الانحراف والابتعاد عن طريق الحق، فالمكر في الأصل هو اللف والدوران، ثمّ أطلق على كل عمل منحرف مقرون بالإخفاء.

وفي الختام تقول الآية: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

وأيّ مكر وخديعة أعظم من أن يقوم هؤلاء باستخدام كل رؤوس أموال وجودهم، بما في ذلك فكرهم وذكاؤهم وابتكاراتهم وأعمارهم ووقتهم وأموالهم، في صفقة لا تعود عليهم بأيّ ربح، بل تثقل ظهورهم بأحمال الذنوب والآثام الثقيلة، ظانين أنّهم قد أحرزوا الربح والانتصار!

كما يستفاد من هذه الآية أنّ النكبات والتعاسة التي تصيب المجتمع إنّما تنشأ من رموزه وقادته، إذ يتوسلون بالمكر والحيلة لتغيير معالم الطريق إلى الله، ويخفون وجه الحق عن الناس.

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤)﴾

سبب النّزول

يقول العلاّمة الطّبرسي في «مجمع البيان»: نزلت هذه الآية بشأن «الوليد بن المغيرة» (الذي كان من زعماء عبدة الأصنام ودماغهم المفكّر) كان هذا يقول لرسول الله ﷺ: إذا كانت النّبوة حقّاً، فأنا أولى منك بها لكبر سنّي ولكثرة مالي[2].

---

(١) «اللام» هنا هي لام «العاقبة» وليست اللام الغائية، وقد وردت في القرآن كثيراً.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٥٥ ذيل الآية مورد البحث.

وقيل: إنّها نزلت بشأن «أبي جهل» لأنّه كان يقول: مقام النّبوة يجب أن يكون موضع تنافس، فنحن وبنو عبد مناف (قبيلة رسول الله) كنّا نتنافس على كل شيء، ونجري كفرسي رهان كتفاً لكتف، حتى قالوا: إنّ نبياً قام فيهم، وإنّه ينزل عليه الوحي فنحن لا نؤمن به إلّا إذا نزل علينا الوحي كما ينزل عليه(١).

التّفسير

الله أعلم حيث يجعل رسالته

تشير هذه الآية بإيجاز إلى طريقة تفكير هؤلاء الأكابر ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ وإلى مزاعمهم المضحكة الباطلة، فتقول: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ كأنّ الوصول إلى مقام النبوة وهداية الناس يعتمد على سنّ الشخص وماله، أو هو ميدان للمنافسة الصبيانية بين القبائل! وكأنّ على الله أن يراعي هذه الأُمور المضحكة الباطلة التي لا تدل إلّا على منتهى الانحطاط الفكري وعدم إدراك معنى النبوة وقيادة الخليقة!

إنّ القرآن يردّ على هؤلاء بوضوح قائلاً: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

بديهي أنّ الرسالة لا علاقة لها بالسِّن ولا بالمال ولا بمراكز القبائل، لأنّ شرطها الأوّل هو الاستعداد الروحي، وطهارة الضمير، والسجايا الإنسانية الأصيلة، والفكر السامي، والرأي السديد ثمّ التقوى إلى درجة العصمة... إنّ هذه الصفات، وخصوصاً الاستعداد لمقام العصمة لا يعلم بها غير الله، فما أبعد الفرق بين هذه الشروط وما كان يدور بخلد أُولئك.

كما إنّ من يخلف رسول الله ﷺ لابدّ أن تكون له جميع تلك الصفات عدا الوحي والتشريع، أي أنّه حامي الشرع والشريعة، والحارس على قوانين الإسلام، والقائد المادي والمعنوي للناس، لذلك لابدّ له أن يكون معصوماً عن الخطأ والإثم، لكي يكون قادراً على أن يوصل الرسالة إلى أهدافها، وأن يكون قائداً مطاعاً وقدوة يُعتمد عليه.

وبناءً على ذلك، يكون اختياره من الله أيضاً، فهو وحده الذي يعلم أين يضع هذا المقام، فلا يمكن أن يترك ذلك للناس ولا للانتخابات والشورى.

وفي النهاية تشير الآية إلى المصير الذي ينتظر أمثال هؤلاء المجرمين والزّعماء الذين

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٥٥ ذيل الآية مورد البحث.

يدّعون الباطل، فتقول: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾(١).

كان هؤلاء الأنانيون بمواقفهم العدائية يريدون أن يحافظوا على مراكزهم، ولكنّ الله سينزلهم إلى أدنى درجات الصغار والحقارة بحيث إنّهم سيتعذبون بذلك عذاباً روحياً شديداً، مضافاً إلى أنّهم سيلاقون العذاب الشديد في الآخرة لأنّ سعيهم على طريق الباطل كان شديداً أيضاً.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

التّفسير

الإمدادات الإلهيّة

تعقيباً على الآيات السابقة التي دارت حول المؤمنين الصادقين والكافرين المعاندين تشرح هذه الآية النِّعم الإلهيّة الكبيرة التي تنتظر الفريق الأوّل، والشقاء الذي سيصيب الفريق الثاني، فتقرر أنّ الله ينعم بالهداية على من يشاء، وذلك بأن يفتح صدره لتقبّل الإسلام، أمّا الذي لا يريد الله أن يوفّقه لذلك - لسوء أعماله - يضيق صدره بحيث يجعله وكأنّه يريد أن يصعد إلى السماء. ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

ولتوكيد هذا الأمر تضيف الآية: ﴿يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. فيسلبهم التوفيق ويركسهم في التعاسة والشقاء.

---

(١) «الإجرام» من «جرم» وأصله القطع، والمجرم هو الذي يقطع العهود وارتباطه بالله بعدم إطاعته، ولذلك أطلقت كلمة «الجرم» على الإثم والذنب، في هذا إشارة لطيفة إلى أنّ هناك في ذات الإنسان اتفاقاً مع الحق والطهارة والعدالة، والإجرام هو قطع هذا الاتفاق الفطري الإلهي.

ملاحظات:

هنا ينبغي أن نلاحظ النقاط التّالية:

١ - ما المقصود من «الهداية» و«الضلالة»؟

سبق لنا أن قلنا مرّات عديدة إنّ المقصود من لفظي «الهداية» و«الضلالة» الإلهيين هو توفير الظروف والمقدمات المؤدّية إلى الهداية بالنسبة للّذين لهم الاستعداد لذلك، وسلبها عن الذين لا استعداد لهم لذلك، بالنظر إلى أعمالهم.

إنّ سالكي طريق الحق والباحثين عن الإيمان المتعطشين إليه، يضع الله في طريقهم مصابيح مضيئة لكي لا يضيعوا في ظلمات الطريق، وليصلوا إلى منبع إكسير الحياة، أمّا الذين أثبتوا تماهلهم تجاه هذه الحقائق فهم محرومون من هذه الإمدادات الإلهيّة، وسوف يتعثرون في طريقهم بالكثير من المشاكل، ولا يوفّقون لهداية.

وبناءً على ذلك، فلا الفريق الأوّل مجبور على السير في هذا الطريق، ولا الفريق الثاني في أعمالهم، وفي الواقع إنّ الهداية والضلال يكملان ما أرادوه هم بأنفسهم واختاروه.

٢ - ما المقصود من الصدر؟

المقصود من «الصّدر» هنا هو الروح والفكر، وهذه الكناية ترد كثيراً، والمقصود من «الشرح» هو بسط الروح وارتفاع الفكر واتساع أُفق العقل البشري، لأنّ تقبّل الحق يستدعي التنازل عن الكثير من المصالح الشخصية، ممّا لا يقدر عليه إلّا ذوو الأرواح العالية والأفكار السامية.

٣ - ما هو الحرج؟

«الحرج» بمعنى الضيق الشديد، وهذه هي حال المعاندين وفاقدي الإيمان، ففكرهم قاصر وروحهم ضيّقة صغيرة، ولا يتنازلون في حياتهم عن شيء.

٤ - معجزة قرآنية علمية

إنّ تشبيه أمثال هؤلاء بالذي يريد أن يصعد إلى السماء، جاء لأنّ الصعود إلى السماء صعب جدّاً، فكذلك هو قبول الحق عند هؤلاء.

إنّنا في كلامنا اليومي نتمثل بهذا التشبيه، فإذا أردنا أن نقول إنّ الوصول إلى الأمر الفلاني صعب نقول: أن تصل إلى السماء أقرب إليك من ذلك.

بالطّبع لم يكن الطيران في السماء للبشر آنذاك أكثر من تصور، ولكن على الرغم من

تحقق ذلك اليوم، فهو ما يزال صعباً، وكثيراً ما يصادف روّاد الفضاء المشاكل في طيرانهم.

ويخطر في الذهن معنى ألطف من ذلك يكمل البحث السابق، وهو أنّه ثبت اليوم علمياً أنّ الهواء المجاور للارض مضغوط بشكل يصلح لتنفس الإنسان، ولكنّنا كلّما ارتفعنا قلّت كثافة الهواء ونسبة وجود الأوكسجين فيه، بحيث إنّنا إذا ارتفعنا بضعة كيلومترات أصبح من الصعب أن نتنفس بسهولة (بغير قناع الأوكسجين)، وإذا ما واصلنا صعودنا ازداد ضيق تنفسنا وأُصبنا بالإغماء، إنّ ذكر هذا التشبيه في ذلك الزمن قبل أن تثبت هذه الحقيقة العلمية يعتبر واحدة من معجزات القرآن العلمية.

٥ - ما هو شرح الصدر؟

في هذه الآية يعتبر «شرح الصدر» من نِعَم الله الكبرى و«ضيق الصدر» من عقاب الله، كما جاء ذكر هذه النِّعمة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[1] ويتّضح هذا أكثر عند دراسة الأشخاص، فأنت ترى بعضهم على درجة من سعة الصدر بحيث إنّهم قادرون على استيعاب كل حقيقة مهما كبرت، وعلى العكس منهم نرى صدر بعضهم من الضيق بحيث لا تكاد تنفذ إليها أيّة حقيقة، فأُفق رؤيتهم الفكرية محدود جدّاً ومقتصر على الحياة اليومية، فلو تهيأ لهم الأكل والنوم فكلّ شيء على ما يرام، وإذا اختل ذلك فقد انهارت حياتهم وانتهى كلّ شيء.

عندما نزلت الآية المذكورة أعلاه، سُئل رسول الله ﷺ عن معنى شرح الصدر، فقال: «نور يقذفه الله في قلب من يشاء فينشرح له صدره وينفسح».

فسألوه: ألذلك علامة يُعرف بها؟

قال: «نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»[2] أي بالإيمان والعمل الصالح والسعي في سبيل الله.

الآية التّالية تؤكّد البحث السابق فتقول: إنّ المدد الإلهي الذي يشمل السالكين في خط الايمان والعبودية للّه ويُسلب عن الذين يتنكبون عن سبيل الله، إنّما هو سنّة إلهيّة مستقيمة ثابتة لا تتبدل ﴿وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾. كما يحتمل أن يكون «هذا» إشارة إلى الإسلام أو القرآن، إذ إنّ الصراط المستقيم هو الطريق المستقيم المستوي.

---

(١) سورة الشرح، الآية: ١.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٥٨؛ وبحار الأنوار، ج ٦٥، ص ٢٣٦.

وفي ختام الآية توكيد آخر: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي لمن يملكون قلوباً واعية وآذاناً سامعة.

الآية الثّالثة تشير إلى نعمتين من أكبر النِّعم التي يهبها الله للذين يطلبون الحق.

إحداهما: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، والثّانية: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾، أي ناصرهم وحافظهم، وكل ذلك لما قاموا به من الأعمال الصالحة: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

فأيّ فخر أجل وأرفع من أن يتولى الله أُمور الإنسان ويتكفل بها فيكون حافظه ووليه، وأيّة نعمة أعظم من أن تكون له دار السلام، دار الأمن والأمان، حيث لا حرب ولا سفك دماء، ولا نزاع ولا خصام، ولا عنف ولا تنافس قاتل ومميت، ولا تضارب مصالح، ولا كذب ولا افتراء، ولا اتهام ولا حسد ولا حقد، ولا همّ ولا غمّ، بل الهدوء والطمأنينة والهناء؟

ولكن الآية تقول أيضاً: إنّ هذه النِّعم لا تأتي بمجرّد الكلام، بل هي تعطى لقاء العمل نعم العمل!

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (١٢٩)﴾

التّفسير

تعود هاتان الآيتان إلى بيان مصير المجرمين الضالين والمضلين فتكملان ما بحث في السابق، فتذكّران بيوم يقفون فيه وجهاً لوجه أمام الشياطين الذين كانوا يستلهمون منهم، فيواجه التابعون والمتبوعون سؤالاً لا جواب لديهم عليه، ولا ينالون سوى التحسّر والحزن، إنّها تحذيرات للإنسان كي لا ينظر فقط إلى أيّامه المعدودات على الأرض، بل عليه أن يفكّر بالعاقبة.

تذكّر الآية في البداية بذلك اليوم الذي يجتمع فيه الجن والإنس، ثمّ يقال يا أيّها

المضلون من الجن لقد أضللتم كثيراً من الناس: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾(١).

«الجن» هنا هم الشياطين، لأنّ كلمة الجن - كما سبق أن قلنا - تشمل كل كائن غير مرئي والآية (٥٠) من سورة الكهف تذكر عن رئيس الشياطين، إبليس أنّه ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾.

الآيات السابقة التي تحدّثت عن وسوسة الشياطين الهامسة ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾، وكذلك الآية التّالية التي تحدّثت عن سيطرة بعض الظالمين على الآخرين، قد تكون إشارة إلى هذا الموضوع.

ويبدو أنّ الشياطين المضلين لا جواب لديهم على هذا السؤال ويطرقون صامتين، غير أنّ أتباعهم من البشر يقولون: ربّنا، هؤلاء استفادوا منّا كما أنّنا استفدنا منهم حتى جاء أجلنا: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾.

أي كان شياطيننا فرحين بسيطرتهم علينا وكنّا نتبعهم مستسلمين، أمّا نحن فكنّا مستمتعين بمباهج الحياة ولذائذها غير متقيدين بشيء ولا ملتفتين إلى سرعة زوالها، لما كان الشياطين يوسوسون في آذاننا ويظهرون الدنيا لهم في صور جميلة جذّابة.

هنا تختلف آراء المفسّرين بشأن المقصود من كلمة «أجل»، هل هي نهاية عمر الإنسان، أم يوم القيامة؟ ولكن الظاهر أنّ المقصود نهاية العمر لأنّ «الأجل» كثيراً ما استعمل في القرآن بهذا المعنى.

غير أنّ الله يخاطب التابعين والمتبوعين الفاسدين والمفسدين جميعاً: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

إنّ الجملة الاستثنائية (إلّا ما شاء الله) إمّا أن تكون إشارة إلى خلودهم في العذاب والعقاب، وفي هذه الحالات لا يسلب القدرة من الله على تغيير الحكم، فهو قادر في أيّ وقت يشاء أن يغيّر ذلك، وإن أبقاه خالداً لجمع منهم.

وإمّا أن تكون إشارة إلى الذين لا يستحقون الخلود في العذاب، أو الجديرون بنيل العفو الإلهي، فيجب استثناؤهم من الخلود في العذاب.

---

(١) «يوم» ظرف متعلّق بجملة «يقول» المحذوفة فيكون أصل الجملة: (يوم يحشرهم جميعاً يقول).

وفي الختام تقول الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، فعقابه مبني على حساب دقيق، وكذلك عفوه، لأنّه عالم بمن يستحقهما.

الآية التّالية تشير إلى سنّة إلهيّة ثابتة بشأن هؤلاء الأشخاص، وتقرر أنّ هؤلاء الطغاة والظالمين سيكون وضعهم في الآخرة كما كانوا عليه في الدنيا يجر بعضهم بعضاً نحو التهلكة وسوء المصير والانحراف: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وكما ذكرنا في البحوث الخاصّة بالمعاد فإنّ يوم القيامة مشهد ردود الفعل في صور مكبرة، وما يوجد هناك انعكاس عن أعمالنا في هذه الدنيا.

جاء في تفسير علي بن إبراهيم القمي عن الإمام عليه السلام في معنى هذه الآية قال: «أي نولي كل من تولى أولياءهم فيكونون معهم يوم القيامة»[1].

ومن الجدير بالملاحظة أنّ جميع هؤلاء قد وصفوا بالظلم في هذه الآية، ولا شكّ أنّ الظلم بمعناه الواسع يشملهم جميعاً، فأيّ ظلم أكبر من أن يخرج الإنسان نفسه من ولاية الله ليدخل في ولاية المستكبرين ويتّبعهم فيكون في العالم الآخر تحت ولايتهم أيضاً.

ثمّ إنّ هذا التعبير، وكذلك تعبير ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يشيران إلى أنّ هذا المصير السيئ إنّما هو بسبب أعمالهم، وهذه سنّة إلهيّة وقانون الخليقة القاضي بأنّ السائرين في الظلام لا بدّ أن يسقطوا في هوّة التعاسة والشقاء.

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ذَٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢)﴾

التّفسير

إتمام الحجة

ورد وصف مصير الظالمين من أتباع الشياطين يوم القيامة في الآيات السابقة ولكي لا

(١) تفسير علي بن إبراهيم القمّي، ج ١، ص ٢١٦.

يظن أحد أنّهم في حالة من الغفلة ارتكبوا ما ارتكبوه من إثم، تبيّن هذه الآيات أنّ تحذيرهم قد تمّ بما فيه الكفاية وتمّت عليهم الحجة، لذلك يقال لهم يوم القيامة: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾.

«معشر» من العدد «عشرة»، وبما أنّ العشرة تعتبر عدداً كاملاً، فالمعشر هي الجماعة الكاملة التي تضمّ مختلف الطوائف والأصناف، أمّا بشأن الرسل الذين بعثوا إلى الجن هل كانوا منهم، أم من البشر؟ فهناك كلام بين المفسّرين، ولكن الذي يستفاد من آيات سورة الجن يدل بجلاء على أنّ الإسلام والقرآن للجميع بما فيهم الجن، وأنّ نبي الإسلام ﷺ رسول الله إلى الجميع، ولكن هذا لا يمنع أن يكون لهم رسل وممثلون من جنسهم عهد إليهم رسول الله ﷺ بدعوتهم إلى الإسلام (سيأتي شرح ذلك بالتفصيل، وكذلك المعنى العلمي للجن في تفسير سورة الجن في الجزء ٢٩ من القرآن الكريم).

ولكن ينبغي أن نعلم أنّ ﴿مِّنكُمْ﴾ لا تعني أنّ أنبياء كل جنس يكونون من الجنس نفسه، لأنّنا عندما نقول: «نفر منكم...» يمكن أن يكون هؤلاء من طائفة واحدة أو من عدّة طوائف.

ثمّ تقول الآية: ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ لأنّ يوم القيامة ليس يوم الكتمان، بل إنّ دلائل كلّ شيء تكون بادية للعيان، وما من أحد يستطيع أن يخفي شيئاً، فالجميع يعترفون أمام هذا السؤال الإلهي قائلين: إنّنا نشهد ضدّ أنفسنا ونعترف أنّ الرسل قد جاؤونا وأبلغونا رسالاتك ولكنّنا خالفناها.

نعم... لقد كانت أمامهم آيات ودلائل كثيرة من الله، وكان يميّزون الخطأ من الصواب، إلّا أنّ الحياة الدنيا ببريقها ومظاهرها قد خدعتهم وأضلتهم: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

هذه الآية تدل بوضوح على أنّ العقبة الكبرى في طريق سعادة البشر هي الحبّ اللامحدود لعالم المادة والخضوع له بلا قيد ولا شرط، ذلك الحبّ الذي كبل الإنسان بقيود الأسر ودفعه إلى ارتكاب كلّ ألوان الظلم والعدوان والإجحاف والأنانية والطغيان.

مرّة أُخرى يؤكّد القرآن أنّهم شهدوا على أنفسهم بألسنتهم بأنّهم قد ساروا في طريق

الكفر ووقفوا إلى جانب منكري الله: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾.

الآية التّالية تعيد المضمون السابق بصورة قانون عام وسنّة ثابتة، وهي: أنّ الله لا يأخذ الناس في المدن والمناطق المسكونة بظلمهم إذا كانوا غافلين، إلّا بعد أن يرسل إليهم الرسل لينبّهوهم إلى قبيح أعمالهم، ويحذّروهم من مغبّة أفعالهم: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾.

قد تعني ﴿بِظُلۡمٖ﴾ أنّ الله لا يعاقب أحداً بسبب ظلمه وهو غافل عنه، وقبل أن يرسل الرسل، وقد تكون بمعنى أنّ الله لا يظلم أحداً بأن يعاقبه عمّا فعل وهو غافل، لأنّ معاقبتهم بهذه الصورة تعتبر ظلماً، والله أرفع من أن يظلم أحداً(١).

وتذكر **الآية الثالثة** خلاصة ما ينتظر هؤلاء من مصير، وتقرر أنّ لكلّ من هؤلاء - الأخيار والأشرار، المطيعين والعصاة، طالبي العدالة والظالمين - درجات ومراتب يوم القيامة تبعاً لأعمالهم، وإنّ ربك لا يغفل عن أعمالهم، بل يعلمها جميعاً، ويجزي كلّاً بقدر ما يستحق: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾.

هذه الآية تؤكّد مرّة أُخرى الحقيقة القائلة بأنّ جميع «الدّرجات» و«الدّركات» التي يستحقها الإنسان إنّما هي وليدة أعماله، لا غير.

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

التّفسير

الآية الأُولى تستدل على ما سبق في الآيات التي مرّت بشأن عدم ظلم الله تعالى، وتؤكّد أنّ الله لا حاجة له بشيء وهو عطوف ورحيم، وعليه لا دافع له على أن يظلم أحداً أبداً، لأنّ من يظلم لابدّ أن يكون محتاجاً، أو أن يكون قاسي القلب فظاً: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ كما أنّه لا حاجة له بطاعة البشر، ولا يخشى من ذنوبهم،

(١) في الحالة الأولى فاعل «ظلم» هم الكافرون، وفي الحالة الثانية يكون نفي الظلم عن الله تعالى.

بل إنّه قادر على إزالة كلّ جماعة بشرية ووضع آخرين مكانها كما فعل بمن سبق تلك الجماعة: ﴿إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾.

بناءً على ذلك فهو غنيٌّ لا حاجة به إلى شيء، ورحيم، وقادر على كلّ شيء، فلا يمكن إذن أن نتصوّره ظالماً.

وإذا أدركنا قدرته التي لا حدود لها يتّضح لنا أنّ ما وعده بشأن يوم القيامة والجزاء سوف يتحقق في موعده بدون أيّ تخلّف: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾.

كما أنّكم لا تستطيعون أن تخرجوا عن نطاق حكمه ولا أن تهربوا من قبضته العادلة: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾(١).

ثمّ يؤمر رسول الله ﷺ أن يهددهم: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَٰقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّٰلِمُونَ﴾.

هنا أيضاً نلاحظ أنّ كلمة «الكفر» استعيض عنها بكلمة «ظلم»، وهذا يعني أنّ الكفر وإنكار الله نوع من الظلم الصريح، فهو ظلم بحقّ النفس، وظلم بحقّ المجتمع، ولمّا كان الظلم يناقض العدالة العامّة في عالم الوجود، فهو محكوم بالإخفاق والهزيمة.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

التّفسير

لاقتلاع جذور الشرك وعبادة الأصنام من الأذهان يعود القرآن إلى ذكر العادات والتقاليد والعبادات الخرافية السائدة بين المشركين، ويثبت في بيان واضح أنّها خرافية ولا أساس لها، فقد كان كفّار مكّة وسائر المشركين يخصصون لله سهماً من مزارعهم وأنعامهم، كما كانوا يخصصون سهماً منها لأصنامهم أيضاً، قائلين: هذا القسم يخصّ

---

(١) «معجزين» من «أعجز» أي جعله عاجزاً، فالآية تقول: إنّكم لا تستطيعون أن تجعلوا الله عاجزاً عن بعث الناس وتحقيق العدالة، وبعبارة أُخرى: أنتم لا تستطيعون مقاومة قدرة الله.

الله، وهذا القسم يخصّ شركاءنا أي الأصنام: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾.

على الرغم من أنّ الآية تشير إلى نصيب الله فقط، ولكن العبارات التّالية تدل على أنّهم كانوا يخصصون نصيباً للأصنام أيضاً، جاء في بعض الرّوايات: أنّهم كانوا يصرفون ما يخصصونه لله على الأطفال والضيوف، والنصيب المخصص للأصنام من الزرع والأنعام كانوا يصرفونه على خدم الأصنام والقائمين على معابدها والأضاحي وعلى أنفسهم أيضاً[1].

أمّا سبب اعتبارهم الأصنام شركاءهم فيعود إلى كونهم يرونها شريكة لهم في أموالهم وحياتهم.

وتعبير ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي ممّا خلق، يشير إلى بطلان مزاعمهم، إذ إنّ كل أموالهم وما يملكون هو ممّا خلق الله فكيف يجعلون نصيباً منه لله ونصيباً منه للأصنام؟!

ثمّ تشير الآية إلى واحد من أحكامهم العجيبة وهو الحكم بأنّ ما خصصوه لشركائهم لا يصل إلى الله، ولكن ما خصصوه لله يصل إلى شركائهم ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾.

اختلف المفسّرون بشأن المقصود من هذه الآية، ولكن آراءهم كلّها تدور حول حقيقة واحدة، هي أنّه إذا أصاب نصيب الله ضرر على أثر حادثة قالوا: هذا لا أهميّة له لأنّ الله لا حاجة به إليه، ولكن إذا أصاب الضرر نصيب أصنامهم عوّضوا عنه من نصيب الله، قائلين: إنّ الأصنام أشدّ حاجة إليه.

كما أنّهم إذا نفذ الماء المار بمزرعة الله إلى مزرعة الأصنام قالوا: لا مانع من ذلك، فالله ليس محتاجاً، ولكن إذا حدث العكس منعوا الماء المتسرب إلى مزرعة الله، قائلين: إنّ الأصنام أحوج!

وفي الختام تدين الآية هذه الخرافات فتقول: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

إنّ قبح عملهم - فضلاً عن قبح عبادة الأصنام - يتبيّن في الأمور التّالية:

١ - على الرغم من أنّ كل شيء هو من خلق الله، وملك له دون منازع، وأنّه هو الحاكم على كل الكائنات وهو مدبرها وحافظها فإنّهم إنّما كانوا يخصصون جانباً من

---

(١) تفسير المنار، ج ٨، ص ١٢٢.

ذلك كله لله، وكأنّهم هم المالكون الأصليون، وكأنّ حق التقسيم بيدهم، (إنّ جملة ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ تشير إلى هذا كما قلنا).

٢ - لقد كانوا في هذا التقسيم يلزمون جانب الأصنام ويفضلون ما لها على ما لله، لذلك لم يكونوا يهتمون بما يصيب نصيب الله من ضرر، ولكنّهم كانوا يجبرون كل ضرر يصيب نصيب الأصنام من نصيب الله، فكان هذا تحيّزاً إلى جانب الأصنام ضدّ الله!

٣ - يتبيّن من بعض الرّوايات أنّهم كانوا يهتمون اهتماماً كبيراً بحصة الأصنام، فقد كان خدم الأصنام والقائمون على معابدها وكذلك المشركون يأكلون من حصة الأوثان، بينما كانوا يخصصون حصة الله للأطفال وللضيوف، وتدل القرائن على أنّ الأغنام السمينة والمحاصيل الزراعية الجيّدة كانت من نصيب الأصنام، أي لمصلحة السدنة الخاصّة[١].

كل هذا دلّ على أنّهم في هذا التقسيم لم يكونوا يعترفون لله حتى بمنزلة مساوية لمنزلة الأصنام.

فأيّ حكم أقبح وأدعى إلى العار من أن يعتبر إنسان قطعة من الحجر أو الخشب الذي لا قيمة له أرفع من خالق عالم الوجود، هل هناك هبوط فكريّ أحط من هذا؟

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

التّفسير

يشير القرآن في هذه الآية إلى عمل قبيح آخر من أعمال عبدة الأصنام القبيحة وجرائمهم الشائنة، ويذكر أنّه كما ظهر لهم أنّ تقسيمهم الحصص بين الله والأصنام عمل حسن بحيث إنّهم اعتبروا هذا العمل القبيح والخرافي، بل والمضحك، عملاً محموداً، كذلك زيّن الشركاء قتل الأبناء في أعين الكثيرين من المشركين بحيث إنّهم راحوا يعدّون قتل الأولاد نوعاً من «الفخر» و«العبادة»: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾.

(١) بحار الأنوار، ج ٩، ص ٩٢ و ٢٠٧؛ وتفسير العياشي، ج ٧، ص ٨٩.

«الشّركاء» هنا هم الأصنام، فقد كانوا أحياناً يقدمون أبناءهم قرابين لها، أو كانوا ينذرون أنّهم إذا وهبوا ابناً يذبحونه قرباناً لأصنامهم، كما جاء في تاريخ عبدة الأصنام القدامى وعليه فإنّ نسبة «التزيين» للأصنام تعود إلى أنّ شدّة تعلّقهم بأصنامهم وحبّهم لها كان يحدو بهم إلى ارتكاب هذه الجريمة النكراء، واستناداً إلى هذا التّفسير، فإنّ قتل الأولاد هذا لا علاقة له بوأد البنات أو قتل الأولاد خشية الإملاق.

يحتمل أيضاً أن يكون المقصود بتزيين الأصنام هذه الجريمة، هو أنّ القائمين على أمر الأصنام والمعابد هم الذين كانوا يحرضونهم على هذا العمل ويزينونه لهم، باعتبارهم الألسنة الداعية باسم الأصنام، فقد جاء في التّاريخ أنّ العرب كانوا إذا عزموا على السفر أو الأعمال المهمّة، طلبوا الإذن من «هبل» كبير أصنامهم، وذلك بأن يضربوا بالقداح، أي بأسهم الميسر، فقد كان هناك كيس معلّق بجانب هبل فيه سهام كتب على مقابضها «افعل» أو «لا تفعل»، فكانوا يخلطون السهام ثمّ يسحبون واحداً منها، فما كتب عليه، يكون هو الأمر الصادر من هبل، وبهذه الطريقة كانوا يتصورون أنّهم يكتشفون آراء أصنامهم، فلا يستبعد أنّهم في مسألة قتل أولادهم وتقديمهم قرابين للأصنام كانوا يلجأون إلى أولياء المعابد ليأتوهم بما تأمر به الأصنام.

هنالك أيضاً الاحتمال القائل بأنّ وأد البنات - الذي كان سائداً، كما يقول التّاريخ بين قبائل بني تميم لرفع العار - كان أمراً صادراً عن الأصنام، فقد جاء في التّاريخ أنّ «النعمان بن المنذر» هاجم بعض العرب وأسر نساءهم وفيهن ابنة «قيس بن عاصم» ثمّ أقرّ الصلح بينهم وعادت كل امرأة إلى عشيرتها، عدا ابنة قيس التي فضّلت البقاء عند العدو لعلّها تتزوج أحد شبّانهم، فكان وقع هذا شديداً على قيس، فأقسم بالأصنام أنّه إذا رزق بابنة أُخرى فإنّه سوف يئدها حيّة، ثمّ لم يمض زمن طويل حتى أصبح هذا العمل الشائن سنّة بينهم، وباسم الدفاع عن العرض راحوا يرتكبون أفظع جريمة بقتلهم أولادهم الأبرياء[1].

وعليه، فإنّ وأد البنات يمكن أن يكون مشمولاً بمفهوم هذه الآية.

هنالك أيضاً احتمال آخر في تفسير هذه الآية وإن لم يتطرّق إليه المفسّرون، وهو أنّ

---

(١) يتصور بعض أنّ كلمة «أولاد» في الآية لا تنسجم مع هذا التّفسير، غير أنّ لهذه الكلمة معنىً واسعاً يشمل الأبناء والبنات، وكما جاء في الآية (٢٢٣) من سورة البقرة: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾؛ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٧١ ذيل الآية مورد البحث.

عرب الجاهلية كانوا على درجة من التقدير والاحترام لأصنامهم بحيث إنّهم كانوا يصرفون أموالهم الثمينة على تلك الأصنام وعلى خدّامها المتنفذين الأثرياء، ويبقون هم في فقر مدقع إلى الحدّ الذي كان يحملهم هذا الفقر والجوع على قتل بناتهم.

فهذا التعلّق الشديد بالأصنام كان يزين لهم عملهم الشنيع ذاك.

ولكن التّفسير الأوّل، أي التضحية بأولادهم قرباناً للأصنام، أقرب إلى نص الآية.

ثمّ يوضّح القرآن أنّ نتيجة تلك الأفعال القبيحة هي أنّ الأصنام وخدّامها ألقوا بالمشركين في مهاوي الهلاك، وشككوهم في دين الله، وحرموهم من الوصول إلى الدين الحق: ﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾.

ومع ذلك كلّه، فإنّ الله قادر على أن يوقفهم عند حدّهم بالإكراه، ولكن الإكراه خلاف سنّة الله، إنّ الله يريد أن يكون عباده أحراراً لكي يمهّد أمامهم طريق التربية والتكامل، وليس في الإكراه تربية ولا تكامل: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾.

وما دام هؤلاء منغمسين في أباطيلهم وخرافاتهم دون أن يدركوا شناعتها، بل الأدهى من ذلك أنّهم ينسبونها أحياناً إلى الله، إذن فاتركهم واتهاماتهم والتفت إلى تربية القلوب المستعدة: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩)﴾

التّفسير

تشير هذه الآيات إلى بعض الأحكام الخرافية لعبدة الأوثان، والتي تدل على قصر نظرتهم وضيق تفكيرهم، وتكمل ما مرّ في الآيات السابقة.

تذكر في البداية أقوال المشركين بشأن من لهم الحق في نصيب الأصنام من زرع وأنعام، وتبيّن أنّهم كانوا يرون أنّها محرّمة إلّا على طائفة معيّنة: ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾.

ومرادهم المتولّون أُمور الأصنام والمعابد، والمشركون كانوا يذهبون إلى أنّ لهؤلاء وحدهم الحق في نصيب الأصنام.

يتّضح من هذا أنّ القسم الأوّل من الآية يشير إلى كيفية تصرّفهم فيما يخصصونه للأصنام من الزرع والأنعام.

«الحجر» هو المنع، ولعلها مأخوذة كما يقول الراغب الأصفهاني في «المفردات» من الحجر، وهو أن يبنى حول المكان بالحجارة ليمنع عمّا وراءه، وحجر إسماعيل سمّي بذلك لأنّه مفصول عن سائر أقسام المسجد الحرام بجدارٍ من حجر، وعلى هذا الاعتبار يطلق على «العقل» اسم «الحجر»، أحياناً، لكونه يمنع المرء من ارتكاب الأعمال القبيحة، وإذا ما وضع أحد تحت رعاية أحد وحمايته قيل: إنّه في حجره، والمحجور هو الممنوع من التصرف في ماله[1].

ثمّ تشير الآية إلى واحدة أُخرى من خرافاتهم تقضي بمنع ركوب بعض الدواب: ﴿وَأَنْعَـٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾.

الظاهر أنّها هي الحيوانات التي مرّ ذكرها في تفسير الآية (١٠٣) من سورة المائدة، وهي «السائبة» و«البحيرة» و«الحام» (انظر التفسير المذكور لمزيد من التوضيح).

ثمّ تشير إلى القسم الثّالث من الأحكام الباطلة فتقول: ﴿وَأَنْعَـٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾.

ولعلها إشارة إلى الحيوانات التي كانوا يذكرون أسماء أصنامهم عليها فقط عند ذبحها، أو هي المطايا التي كانوا يحرّمون ركوبها للذهاب إلى الحج، كما جاء ذلك في تفسير «مجمع البيان» و«التّفسير الكبير» و«المنار» و«القرطبي» نقلاً عن بعض المفسّرين، وفي كلتا الحالتين كان الحكم خرافياً لا أساس له.

والأعجب من ذلك أنّهم لم يقنعوا بتلك الأحكام الفارغة، بل راحوا ينسبون إلى الله كل ما يخطر لهم من كذب: ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾.

وفي ختام الآية، وبعد ذكر تلك الأحكام المصطنعة، تقول إنّ الله: ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

نعم، إذا أراد الإنسان - بفكره الناقص القاصر - أن يضع القوانين والأحكام، فلا

(١) «حجر» في هذه الآية وصفية، بمعنى محجور، ويستوي فيها المذكر والمؤنث.

شكّ أنّ كل طائفة سوف تضع من القوانين ما ينسجم وأهواءهم ومطامعهم، فيحرّمون على أنفسهم أنعم الله دون سبب، أو يحللون على أنفسهم أفعالهم القبيحة، وهذا هو سبب قولنا إنّ الله وحده هو الذي يسنّ القوانين لأنّه يعلم كل شيء ويعرف دقائق الأمور، وهو سبحانه بمعزل عن الأهواء.

الآية التّالية تشير إلى حكم خرافي آخر بشأن لحوم الحيوانات، يقضي بأنّ حمل هذه الأنعام يختص بالذكور، وهو حرام على الزوجات، أمّا إذا خرج ما في بطونها ميتاً، فكلّهم شركاء فيه: ﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ (هذه الأنعام) هي الحيوانات التي ذكرناها من قبل.

يرى بعض المفسّرين أنّ عبارة ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ تشمل لبن هذه الأنعام، ولكن عبارة ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾ تبيّن أنّ المقصود هو الجنين الذي إذا ولد حيّاً فهو للذكور، وإنّ ولد ميتاً - وهو ما لم يكن مرغوباً عندهم - فهم جميعاً شركاء فيه بالتساوي.

هذا الحكم لا يقوم - أوّلاً - على أيّ دليل، وهو - ثانياً - قبيح وبشع فيما يتعلّق بالجنين الميت، لأنّ لحم الحيوان الميت يكون في الغالب فاسداً ومضراً، ثمّ هو - ثالثاً - نوع من التمييز بين الرجل والمرأة، بجعل الطيّب للرجال فقط، وبجعل المرأة شريكة في الفاسد فقط.

ويشجب القرآن هذا الحكم الجاهلي، ويقرر أنّ الله سوف يعاقبهم على هذه الأوصاف، ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾.

«الوصف» هنا يشير إلى ما كانوا ينسبونه إلى الله، كأن ينسبون إليه تحريم هذه اللحوم بالرغم من أنّ المقصود هو الصفة أو الحالة التي تستولي على المذنب على أثر تكرار الإثم، وتجعله مستحقاً للعقاب، وختاماً تقول: ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

فهو عليم بأعمالهم وأقوالهم واتهاماتهم الكاذبة، كما أنّه يعاقبهم وفق حساب وحكمة.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

التفسير

تعقيباً على الآيات السابقة التي تحدّثت عن بعض الأحكام التافهة والتقاليد القبيحة في عصر الجاهلية الشائن، كقتل الأبناء قرباناً للأصنام، ووأد البنات خشية العار، وتحريم بعض نِعَم الله الحلال، تدين هذه الآية كل تلك الأعمال بشدّة، في سبعة تعبيرات وفي جمل قصيرة نافذة توضّح حالهم.

ففي البداية تقول: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، فعملهم وصف هنا بأنّه خسران بالمنظار الإنساني والأخلاقي، وبالمنظار العاطفي والاجتماعي، والخسارة الكبرى هي الخسارة المعنوية في العالم الآخر. فهذه الآية تعتبر عملهم أوّلاً «خسراناً» ثمّ» سفاهة» وخفّة عقل، ثمّ «جهلاً» وكل صفة من هذه الصفات الثلاث كافية لإظهار قبح أعمالهم، فأيّ عقل يجيز للأب أن يقتل أولاده بيده؟ أوليس من السفاهة وخفّة العقل أن يفعل هذا ثمّ لا يخجل من فعلته، بل يعتبرها نوعاً من الفخر والعبادة؟ أيّ علم يجيز للإنسان أن يعتبر هذه الأعمال قانوناً اجتماعياً؟

من هنا نفهم ما قاله ابن عباس بشأن ضرورة قراءة سورة الأنعام لمن شاء أن يدرك مدى تخلّف الأقوام الجاهليين.

ثمّ يذكر القرآن أنّ هؤلاء قد حرموا على أنفسهم ما رزقهم الله وأحلّه لهم وكذبوا على الله ونسبوا هذه الحرمة له سبحانه: ﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ﴾.

في هذه العبارة إدانة أُخرى لأعمالهم، فهم - أوّلاً - حرموا على أنفسهم النعمة التي «رزقهم» إيّاها وأباحها لهم وكانت ضرورية لحياتهم، فنقضوا بذلك قانون الله.

وهم - ثانياً - «افتروا» على الله قائلين إنّه هو الذي أمر بذلك.

في ختام الآية وفي جملتين قصيرتين إدانة أُخرى لهم، فهم: ﴿قَدْ ضَلُّواْ﴾، ثمّ إنّهم لم يسلكوا يوماً الطريق المستقيم: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾

التفسير

درس عظيم على درب التوحيد

لقد جاءَت الإشارة في هذه الآية إلى عدّة مواضيع، كل واحد منها متفرّعٌ عن الآخر، ونتيجة عنه.

فهو تعالى يقول أوّلاً: إنَّ الله تعالى هو الذي خلق أنواع البساتين والمزارع الحاوية على أنواع الأشجار والنباتات، فمنها ما يعتمد في موقفه على الأعمدة والعروش حيث تحمل ما لذّ وطاب من الفواكه والثمار، وتخلب بمنظرها الساحر العيون والألباب، ومنها ما لا يحتاج إلى عريش، بل هو قائم على سوقه يلقي بظلاله الوارفة على رؤوس الآدميّين، ويسدّ بثماره المتنوعة حاجة الإنسان إلى الغذاء: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعۡرُوشَـٰتٍ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَـٰتٍ﴾.

لقد ذهب المفسّرون في تفسير كلمة «معروش» و«غير معروش» إلى ثلاثة احتمالات:

١ - ما أشرنا إليه قبل قليل، فالمعروش هو الأشجار والنباتات التي لا تقوم على سوقها بل تحتاج إلى عروشٍ وسُقفٍ، وغير المعروش هو الأشجار والنباتات التي تقومُ على سوقها ولا تحتاج إلى عروشٍ وسُقفٍ، (لأنَّ العرشَ يَدلُّ على ارتفاع في شيء، ولهذا يُقال لسقفِ البيت عرش، ويقال للسرير المرتفع عرش)[1].

٢ - إنّ المراد من «المعروش» هو الأشجار المنزلية وما يزرعه الناس ويُحفَظ بواسطة الحيطان في البساتين، ومن «غير المعروش» الأشجار البرّية والنباتات الصحراوية والجبلية وما ينبت في الغابات[2].

٣ - «المعروش» هو ما يقوم على ساقه من الأشجار، أو يرتفع على الأرض، و«غير المعروش» هو الأشجار التي تمتد على الأرض[3].

ولكن يبدو أنّ المعنى الأوّل أنسب، هنا، ولعلّ ذكر «المعروشات» في مطلع الحديث إنّما هو لأجل بنيان هذا النوع من الأشجار وتركيبها العجيب، فإنّ نظرة عابرة إلى شجرة الكرم وقضبان العنب وسيقانها الملتوية العجيبة، والمزوّدة بكلاليب ومقابض خاصّة، وكيفية التفافها بكل شيء حتى تستطيع أن تنمو، وتثمر، خير شاهد على هذا الزعم.

(١-٣) بحار الأنوار، ج ٦٢، ص ١١٩؛ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٧٧.

ثمّ إنّ الآية تشير إلى نوعين من البساتين والمزارع إذ تقول: ﴿وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ﴾.

وذكر هذين النوعين بالخصوص إنّما هو لأهمّيتهما الخاصّة في حياة البشر، ودورهما في نظامه الغذائي (ولابدّ أن تعرفَ أن الجنّة كما تطلَق على البستان، كذلك تطلَق على الأرض التي غطّاها الزرع).

ثمّ إنّه تعالى يضيف قائلاً: إنَّ هذه الأشجار مختلفة ومتنوعة من حيث الثمر والطعم. فمع أنّ جميعَها ينبت من أرض واحدة ويسقى بماء واحد فإنّ لكل واحدة منها رائحة خاصّة، ونكهة معيّنة، وخاصية تختص بها، ولا توجد في غيرها: ﴿مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾[(١)].

ثمّ يُشير سبحانه إلى قسمَين آخرين من الثمار عظيمَي الفائدة، جَليلَي النفع في مجال التغذية البشرية إذ يقول: ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾.

إنّ اختيار هاتين بالذِّكر من بين أشجار كثيرة إنّما هو لأجل أنّ هاتين الشجرتين: (شجرة الزيتون وشجرة الرمان) رغم تشابههما من حيث الظاهر والمظهر تختلفان اختلافاً شاسعاً من حيث الثمرة، ومن حيث الخاصية الغذائية، ولهذا عقَّب على قوله ذلك بهاتين الكلمتين: ﴿مُتَشَٰبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾[(٢)].

وَبعد ذكر كلّ هذه النِّعَم المتنوّعة يقولُ سبحانه: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾.

ثمّ ينهى في نهاية المطاف عن الإسراف إذ يقول تعالى: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾.

«الإسراف» تجاوز حدّ الاعتدال في كل فعل يفعله الإنسان. وهذه الجملة يمكن أن تكون إشارة إلى عدم الإسراف في الأكل، أو عدم الإسراف في الإنفاق والبذل، لأنَّ البعض قد يسرف في البذل والإنفاق إلى درجة أنّه يهبُ كلَ ما عنده إلى هذا وذاك، فيقع هو وأبناؤه وأهلُه في عسرٍ وفقرٍ وحرمان!!

بحوث

١ - ارتباط هذه الآية بالآيات السابقة

في الآيات السابقة من هذه السورة جرى حديثٌ عن الأحكام الخرافية التي كانت

(١) الأكل: بضم الألف، وضم أو سكون الكاف يعني ما يُؤكَل.

(٢) تقدم لنا توضيح في هذا المجال عند تفسير الآية (٩٩) من نفس هذه السورة.

سائدة بين الوثنيين، الذين كانوا يجعلون نصيباً من الزرع والأنعام لله، وكانوا يعتقدون بأنّ ذلك النصيب يجب أن يُصرَفَ على نحو خاص، كانوا يُحرِّمونَ ركوب بعض الأنعام، ويقدّمون أولادهم قرابين إلى بعض الأصنام والأوثان!!

إنَّ الآية الحاضرة، والآية اللاحقة تحملان رَدّاً على جميع هذه الأحكام والمقررات الخرافيّة الجاهلية إذ تقولان بصراحة، إنّ الله تعالى هو خالق جميع هذه النِّعم، فهو الذي أنشأ جميع هذه الأشجار والأنعام والزروع، كما أنّه هو الذي أمر بالانتفاع بها، وعدم الإسراف فيها، وعلى هذا الأساس فليس لغيره أيّ حق لا في «التحريم»، ولا في «التحليل».

٢ - ماذا تعني جُملَة ﴿إِذَآ أَثۡمَرَ﴾؟

مع ذكر «ثمره» قبل ذلك؟ فقد وقع فيه كلام بين المفسّرين، ولكن الظاهر أنّ هذه الجملة تهدف إلى تقرير وبيان أنّ بمجرّد ظهور الثمار على هذه الأشجار، وظهور سنابل القمح، والحبوب في الزرع يجوز الانتفاع بها حتى إذا لم يُعطَ منها حقوق الفقراء بعدُ، وإنّما يجب إيتاء هذا الحق لأهله حين حصاد الزرع، وقطاف الثمر (يوم الحصاد) كما يقول تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾.

٣ - ما هو المراد من الحقّ الذي يجب إعطاؤه؟

يرى البعض أنّها هي الزّكاة الواجبة المفروضة، أي عشر أو نصف عشر المحصول البالغ حدّ النصاب الشرعي.

و لكن مع الالتفات إلى أنّ هذه السورة قد نزلت في مكّة، وأنّ حكم الزّكاة نزل في السنة الثانية من الهجرة أو بعد ذلك في المدينة المنورة، يبدو مثل هذا الاحتمال بعيداً.

وقد عُرّفَ هذا الحق في روايات عَديدة وصلتنا من أهل البيت عليهم السلام، وكذا في روايات عديدة وردت في مصادر أهل السُّنّة بغير الزّكاة.

وجاء فيها أنّ المراد منه هو يُعطى من المحصول إلى الفقير عند حضوره عملية الحصاد أو القطاف، وليس له حدٌّ معيّن ثابت(١).

وفي هذه الحالة، هل هذا الحكم وجوبي أم استحبابي؟

يرى البعض أنّه حكم وجوبي، أي أنَّ إعطاء هذا الحق كان واجباً على المسلمين قبل

---

(١) الأحاديث المذكورة ذكرها صاحب الوسائل في كتاب الزّكاة في أبواب زكاة الغلات في الباب ١٣، والبيهقي في كتاب السنن، ج ٤، ص ١٣٢.

تشريع حكم «الزّكاة» ولكنّه نسِخ بعد نزول آية الزّكاة، فحلّت الزّكاة بحدودها الخاصّة محلّ ذلك الحق.

ولكن يُستفاد من أحاديث أهل البيت عليهم السلام أنّ هذا الحكم لم ينسَخ، بل هو باقٍ في صورة الحكم الاستحبابي، وهذا يعني أنه يُستحبُّ الآن إعطاء شيء من المحاصيل الزراعية إلى من يحضر عند حصادها وقطافها من الفقراء.

٤ - يمكن أن يكون التعبير بكلمة «يوم» إشارة إلى أنّه يُحَبّذ أن يوقَع حصاد الزرع، وقطاف الثمر في النهار حتى اذا حضر الفقراء يعطي إليهم شيء منها، لا في الليل كما يفعل بعض البخلاء لكي لا يعرفُ أحدٌ بهم.

وقد أكّدت الرّوايات الواصلةُ إلينا من أهل البيت عليهم السلام على هذا الأمر أيضاً(١).

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۖ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ ۖ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

التّفسير

إنَّ هذه الآيات - كما أشَرنا إلى ذلك - بصدد إبطال أحكام خرافيّة جاهليّة كان المشركون يدينون بها في مجال الزراعة والأنعام.

ففي الآية المتقدّمة جرى الحديث حول أنواع المزروعات والثمار التي أنشأها الله،

(١) راجع بهذا الصدد كتاب وسائل الشيعة كتاب الزّكاة، أبواب زكاة الغلات، باب كراهة الحصاد والجذاذ بالليل، ج ٦، ص ١٣٦.

وفي هذه الآيات يدور الحديث حول الحيوانات المحلّلة اللحم، وما تؤدّيه من خدمات، وما يأتي منها من منافع.

يقول **أوّلاً**: إنّ الله هو الذي خلق لكم حيوانات كبيرة للحمل والنقل، وأُخرى صغيرة: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾[١].

و«حمولة» جمع وليس لها مفرد - كما قال علماء اللغة - وتعني الحيوانات الكبيرة التي تستخدم للحمل والنقل كالإبل والفرس ونظائرها.

و«فرش» هو بنفس المعنى المتعارف، ولكن فُسِّر هنا بالغنم وما يشابهه من الحيوانات الصغيرة، والظاهر أنّ العلّة في ذلك هو أنّ هذا النوع من الأنعام لصغرها واقترابها من الأرض كالفراش في مقابل الأنعام والحيوانات الكبيرة الجثّة - التي تقوم بعملية الحمل والنقل، كالإبل - فعندما نشاهد قطيعاً من الاغنام وهي مشغولة بالرعي في الصحاري والمراعي فإنّها تبدو لنا وكأنّها فرش ممدودة على الأرض، في حين أن قطيع الإبل لا يكون له مثل هذا المنظر.

ثمّ إنّ تقابلَ «الحمولة» لـ «الفرش» أيضاً يؤيّد هذا المعنى.

وقد ذهبَ بعض المفسّرين إلى احتمال آخر أيضاً، وهو أنّ المراد من هذه الكلمة هي الفُرُش التي يتخذها الناس من هذه الأنعام والحيوانات، يعني أنّ الكثير من هذه الحيوانات تستخدم للحمل والنقل، كما يُستفاد منها في صنع الفُرُش. ولكن الاحتمال الأوّل أقرب إلى معنى الآية.

ثمّ إنّ الآية الشريفة تخلص إلى القول بأنّه لمّا كانت جميع هذه الانعام قد خلقها الله تعالى وحكمها بيده، فإنّه يأمركم قائلاً: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

أمّا أنّه لماذا لا يقول: كُلُوا من هذه الأنعام والحيوانات، بل يقول: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾؟ فلأنّ الحيوانات المحلّلة اللحم لا تنحصر في ما ذكر في هذه الآيات، بل هناك حيوانات أُخرى محلّلَة اللحم أيضاً ولكنّها لم تُذكر في الآياتِ السابقةِ.

ولتأكيد هذا الكلام وإبطال أحكام المشركين الخرافية يقول: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فهو الذي أعلن الحرب على آدم منذ بداية الخلق.

---

(١) الواو في صدر الآية هي واو العاطفة وما بعدها عطف على الجنّات في الآية السابقة.

وهذه العبارة إشارة إلى أنّ هذه الأحكام والمقررات العارية عن الدليل، والتي تنبع فقط من الهوى والجهل، ما هي إلّا وساوس شيطانية من شأنها أن تبعدكم عن الحق خطوةً فخطوةً، وتؤدّي بكم إلى متاهات الحيرة والضلالة.

هذا وقد مرّ توضيح أكثر لهذه العبارة عند تفسير الآية (١٦٨) من سورة البقرة.

الآية الثانية تبيّن قسماً من الحيوانات المحلّلة اللحم، وبعض الأنعام التي يستفاد منها في النقل، كما يستفاد منها في تغذية البشر وطعامهم أيضاً فيقول: إنّ الله خلق لكم ثمانية أزواج من الأنعام: زوجين من الغنم ﴿ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾، وزوجين من المعز: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾(١).

وبعد ذكر هذه الأزواج الأربعة يأمر تعالى نَبيّهُ فُوراً بأن يسألهم بصراحة: هل أنّ الله حرّم الذكور منها أم الإناث: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾؟! أم أنّه حرّم عليهم ما في بطون الإناث من الأغنام، أم ما في بطون الإناث من المعز؟: ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾؟!

ثمّ يضيف قائلاً: إذا كنتم صادقين في أنّ الله حرّم شيئاً ممّا تدعونه، وكان لديكم ما يدلّ على تحريم أيّ واحد من هذه الأنعام فهاتوا دليلكم على ذلك: ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

ثمَ في الآية اللاحقة يبيّن الأزواج الأربعة الأُخرى من الأنعام التي خلقها الله للبشر، إذ يقول: وخلق من الإبل ذكراً وأُنثى، ومن البقر ذكراً وأُنثى، فأيّ واحد من هذه الأزواج حرّم الله عليكم: الذكور منها أم الإناث؟ أم ما في بطون الإناث من الإبل والبقر: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾؟!

وحيث إنّ الحكم بتحليل هذه الأنعام وتحريمها إنّما هو بيد الله، خالقها وخالق البشر

---

(١) ﴿أَزْوَٰجٍ﴾ جمع «زوج» تعني في اللغة ما يقابل الفرد، ولكن يجب الانتباه إلى أنّه ربّما يراد منه مجموع الذكر والأُنثى، وربّما يطلق على كل واحد من الزوجين، ولهذا يُطلق على الذكر والأُنثى معاً: زوجين، واستعمال لفظ الأزواج الثمانية في الآية إشارة إلى الذكور الأربعة من الأصناف الأربعة، والإناث الأربع من تلك الأصناف.

ويحتمل أن يكون المراد من الأزواج الثمانية في الآية: الأليف من تلك الأصناف الأربعة وما يقابلها من الوحشي، أي الذكر والأُنثى من الغنم الأليف، والذكر والأُنثى من الغنم الوحشي، وهكذا... فتكون الأزواج حينئذٍ ثمانية.

وخالق العالم كلّه، من هنا يتوجَّب على كلّ مَن يَدّعي تحليل أو تحريم شيء منها، إمّا أن يثبت ذلك عن طريق شهادة العقل، وإمّا أن يكون قد أُوحي له بذلك، أو يكون حاضراً عند النّبي ﷺ عند صدور هذا الحكم منه.

ولقد صرّح في الآية السابقة بأنّه لم يكن لدى المشركين أيّ دليل علميّ أو عقليّ على تحريم هذه الأنعام، وحيث إنّهم لم يَدّعوا أيضاً نزول الوحي عليهم، أو النبوة، فعلى هذا يبقى الاحتمال الثالث فقط، وهو أن يدّعوا أنّهم حضروا عند أنبياء الله ورسله يوم أصدروا هذه الأحكام، ولهذا يقول الله لهم في مقام الاحتجاج عليهم: هل حضرتم عند الأنبياء وشهدتم، ويحتمل أيضاً أن يكون المراد من الأزواج الثمانية في الآية: الأليف من تلك الأصناف الأربعة وما يقابلها من الوحشي، أي الذكر والأُنثى من الغنم الأليف، والذكر والأُنثى من الغنم الوحشي، وهكذا... فتكون الأزواج حينئذ ثمانية.

أمر الله لهم بتحليل أو تحريم شيء من هذه الأنعام: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا﴾؟!

وحيث إنّ الجواب على هذا السؤال هو الآخر بالنفي والسَّلب، يثبت أنّهم ما كانوا يمتلكون في هذا المجال إلّا الافتراء، ولا يستندون إلّا إلى الكذب.

ولهذا يضيف في نهاية الآية قائلاً: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾(١).

فيستفاد من هذه الآية أنّ الافتراء على الله من أكبر الذنوب والآثام، إنّه ظلم لله تعالى ولمقامه الربوبيّ العظيم، وظلم لعباد الله، وظلم للنفس، وللتعبير بـ«أظلم» في مثل هذه الموارد - كما قلنا سابقاً - جانب نسبيّ، وعلى هذا فلا مانع من استعمال نفس هذا التعبير بالنسبة إلى بعض الذنوب الكبيرة الأُخرى.

كما ويُستفاد من هذه الآية أيضاً أنّ الهداية والإضلال الإلهيين لا يكونان بالجبر، بل إنّ لهما مقدمات وعللا تبدأ من الإنسان نفسه وتتحقق بفعله هو، فعندما يعمد أحدٌ باختياره إلى ممارسة الظلم والجور يحرمه الله حينئذ من عنايته وحمايته، ويتركه يضيع في متاهات الحيرة والضلالة.

---

(١) ثمّة احتمالات عديدة حول ما هو متعلق بالجار والمجرور في قوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، ولكن لا يبعد أن يكون هذا الظرف متعلقاً بفعل: «يضل» يعني أنّهم بسبب جهلهم يضلون الناس.

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾

التّفسير

بعض الحيوانات المحرّمة

ثمّ إنّه تعالى - بهدف تمييز المحرمات الإلهيّة عن البِدع التي أحدثها المشركون وأدخلوها في الدين الحق - أمر نبيّه ﷺ في هذه الآية بأن يقول لهم بكلّ صراحة، ومن دون إجمال أو إبهام: ﴿لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ من الشريعة أيّ شيء من الأطعمة يكون ﴿مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ من ذكر أو أُنثى، وصغير أو كبير.

اللّهم ﴿إِلَّآ﴾ عدّة أشياء، الأوّل: ﴿أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾.

﴿أَوْ﴾ يكون ﴿دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ وهو ما خرج من الذبيحة عند التذكية بالقدر المتعارف (لا الدّماء التي تبقى في جسم الذبيحة في عروقها الشعرية الدقيقة، بعد خروج قدر كبير منها بعد الذبح). ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾.

لأنّ جميعَ هذه الأشياء رِجس ومنشأٌ لمختلف الأضرار ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾.

إنّ الضَمير في ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ وإن كان ضمير الإفراد، إلّا أنّه يرجع - حسبَ ما يذهب إليه أكثُر المفسّرين - إلى الأقسام الثلاثة المذكورة في الآية (الميتة، الدم، لحم الخنزير) فيكون معنى الجملة الأخيرة هي: فإنَّ كلّ ما ذُكِر رجس[1]. وهذا هو المناسِب لظاهر الآية وهو عودة الضمير إلى جميع تلك الأقسام، إذ لا شكّ في أنّ الميتة والدم هما أيضاً رجس كلحم الخنزير.

ثمّ أشار تعالى إلى نوع رابع فقال: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾[2] أي التي لم يذكر اسم الله عليها عند ذبحها.

(١) وفي الحقيقة يكون معنى كلمة «فإنّه» هو «فإنّ ما ذُكِرَ».

(٢) ﴿أُهِلَّ﴾ أصله «الإهلال»، وهو مأخوذ في الأصل من الهلال، والإهلال يعني رفع الصّوت عند رؤية الهلال، ثمّ استعمل لكل صوت رفيع، كما أنّه يطلق على بكاء الصبي عند الولادة الاستهلال، وحيث إنّهم كانوا يذكرون أسماء أصنامهم بصوت عالٍ عند ذبح الأنعام عبرّ عن فعلهم هذا بالإهلال.

والجدير بالتأمل أنّه ذكرت لفظة ﴿فِسۡقًا﴾ بدلا عن كلمة «الحيوان».

و«الفسق» كما أسلفنا يعني الخروج عن طاعة الله وعن رسم العبودية، ولهذا يُطلق على كل معصية عنوان الفسق.

وأمّا ذكر هذه اللفظة في هذا المورد في مقابل الرجس الذي أُطلق على الموارد الثلاثة المذكورة سابقاً، فيمكن أن يكون إشارة إلى أنّ اللحوم المحرمة على نوعين:

اللحوم المحرّمة لخباثتها بحيث تنفر منها الطباع، وتوجب أضراراً جسدية، ويطلق عليها وصف الرجس (أي النجس).

اللحوم التي لا تُعدّ من الخبائث، ولا تستتبع أضراراً جسميّة وصحيّة، ولكنّها - من الناحية الأخلاقية والمعنوية - تدلُّ على الابتعاد عن الله وعن جادّة التوحيد، ولهذا حُرّمت أيضاً.

وعلى هذا الأساس لا يجب أن نتوّقع أن تنطوي اللحوم المحرمة دائماً على أضرار صحيّة، بل ربّما حُرّمت لأجل أضرارها المعنوية والأخلاقية، ومن هنا يتّضح أنّ الشروط الإسلامية المقرَّرة في الذبح على نوعين أيضاً:

بعضها - مثل قطع الأوداج الأربعة، وخروج القدر المتعارف من دم الذبيحة - لها جانب صحّي.

وبعضها الآخر - مثل توجيه مقاديم الذبيحة نحو القبلة عند الذبح، وذكر اسم الله عنده، وكون الذابح مسلماً - لها جانب معنويّ.

ثمّ إنّه سبحانه استثنى - في آخر الآية - من اضطر إلى تناول شيء ممّا ذكر من اللحوم المحرَّمة، كما لو لم يجد أيّ طعام آخر وتوقّفت حياته على تناول شيء من تلك اللحوم، إذ قال: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾(١) يعني أنّ من اضطرّ إلى أكل شيء ممّا ذكرِ من المنهيّات فلا إثم عليه، بشرط أن يكون للحفاظ على حياته، لا للذة، ولا مستحلاً لما حرّمه الله، أو متجاوزاً حدّ الضرورة، ففي هذه الصورة ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

وإنّما اشترِطَ هذان الشرطان لكي لا يتذرّع المضطرون بهذه الإباحة فيتعدّوا حدودَ ما قرَّره الله بحجة الاضطرار، ويتخذوا من ذلك ذريعة لتجاهل حِمى القوانين الإلهيّة.

---

(١) «الباغي» من «البَغْي» وهو يعني الطلب، «والعادي» من «العَدْو» وهو يعني التجاوز.

ولكنّنا نقرأ في بعض الأحاديث الواردة عن آل البيت عليهم السلام، مثل الحديث المنقول عن الإمام الصادق عليه السلام: «الباغي: الظالم، والعادي: الغاصب»[١].

كما نقرأ في حديث آخر منقول عن الإمام عليه السلام أنّه قال: «الباغي: الخارج على الإمام، والعادي: اللص»[٢].

هذه الرّوايات ونظائرها تشير إلى أنّ الاضطرار إلى تناول اللحوم المحرّمة يتّفق عادة في الأسفار، فإذا أقدم أحد على السَّفَر في سبيل الظلم أو الغصب أو السرقة ثمّ فَقَد الطعامَ الحلال في خلال السفر لم يجز له تناول اللحوم المحرّمة، وإن كانت وظيفته - للحفاظ على حياته من التلف - هو التناول من تلك اللحوم، ولكنّه يعاقب على إثمه هذا، لأنّه أوجد بنفسه المقدمات لمثل هذا السَّفَر الحرام، وعلى كلّ حال فإنَّ هذه الرّوايات تنسجم مع المفهومِ الكليّ للآية انسجاماً كاملاً.

جوابٌ على سؤال:

وهنا يُطرح سؤال هو: كيف حُصِرَت جميع المحرّمات الإلهيّة - في مجال الأطعمة - في أربعة أشياء، مع أنّنا نعلم بأنّ الأطعمة المحرّمة لا تنحصر في هذه الأشياء، مثل لحوم الحيوانات المفترسة، ولحوم الحيوانات البحرية (إلّا ما كان له فلس من الأسماك) وما شابه، فهذه كلّها حرام، في حين لم يجئ في الآية أيّ ذكر عن تلك اللحوم، بل حصرت المحرّمات في هذه الأشياء الأربعة؟!

قال البعض في مقام الإجابة على هذا السؤال، بأنَّ هذه الآيات نزلت في مكّة وحكم الأطعمة المحرّمة الأُخرى لم ينزل بعدُ.

غير أنّ هذه الإجابة تبدو غير صحيحة، والشاهد على ذلك أنّ نفس هذا التعبير أو نظيره قد ورد في السُّوَر المدنية مثل الآية (١٧٣) من سورة البقرة.

والظاهر أنّ هذه الآية ناظرة - فقط - إلى نفي الأحكام الخرافية التي كانت شائعة وسائدة في أوساط المشركين، فالحصر «حصر إضافي» لا حقيقيّ.

وبعبارة أُخرى: كأنَّ الآية تقول: المحرّمات الإلهية هذه، وليس ما نسجته أوهامُكم.

ولكي تتّضح هذه الحقيقة لا بأس بأن نضرب لذلك مثلاً:

يسألنا أحد: هل جاء الحسن والحسين عليهما السلام كلاهما؟ فنجيب: كلا بل جاء الحسن

(١-٢) بحار الأنوار، ج ٦٥، ص ١٣٦ و١٣٧.

فقط، لا شكّ أنّنا هنا نريد نفي مجيء الشخص الثاني (أي الحسين) ولكن لا مانع من أن يكون آخرون - ممن لم يكونوا محور حوارنا أصلاً - قد جاؤوا أيضاً، وهذا هو ما يسمى بالحصر الإضافي (أو النسبيّ).

نعم، لا بدّ من الانتباه إلى نقطة مهمّة، وهي أنّ ظاهرَ الحصر - عادةً - الحصرُ الحقيقي إلّا في الموارد التي يوجد فيها قرائن صارفة عن مدلول الظاهر مثل ما نحن فيه الآن.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

التّفسير

ما حُرِّمَ على اليهود

في الآيات السابقة حُصِرت المحرّمات من الحيوان في أربعة، غير أنَّ هاتين الآيتين تشيران إلى بعض ما حرّم على اليهود ليتبيّن أنّ أحكام الوثنيين الخرافية والمجهولة لا تنطبق لا على أحكام الإسلام، ولا على دين اليهود (بل ولا على دين المسيح الذي يتبع في أكثر أحكامه الدين اليهودي).

ثمّ إنّه قد صُرّح في هذه الآيات أنّ هذا النوع من المحرّمات على اليهود كان له طابع المعاقبة وصفة المجازاة، ولو أنّ اليهود لم يرتكبوا الجنايات والمخالفات لما حُرِّمت عليهم هذه الأُمور، وعلى هذا الأساس لسائل أن يسأل الوثنيين: من أين أتيتم بهذه الأحكام المصطنعة؟

ولهذا يقول سبحانه في البداية: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾.

و«الظُّفر» هو في الأصل المخلب، ولكنّه يُطلق أيضاً على ظلف الحيوانات من ذوات الأظلاف (من الحيوانات التي لها أظلاف غير منفرجة الأصابع كالحصان لا كالغنم

والبقر التي لها أظلاف منفرجة) لأنّ أظلافها تشبه الظُّفر، كما أنّه يُطلق على خف البعير الذي يكون منتهاه مثل الظفر، ولا يكون فيه انشِقاق وانفراج مثل انفراج الأصابع.

وعلى هذا الأساس فإنّ المستفاد من الآية المبحوثة هو أنّ جميع الحيوانات التي لا تكون ذات أظلاف - دواباً كانت أو طيوراً - كانت محرَّمة على اليهود.

ويُستفاد هذا المعنى - على نحو الإجمال - أيضاً من سفر اللاويين من التّوراة الحاضرة الإصحاح (١١) حيث يقول:

«وأمر الربّ موسى وهارون: أوصيا بني إسرائيل: هذه هي الحيوانات التي تأكلونها من جميع بهائم الأرض: تأكلون كل حيوان مشقوق الظّلف ومجتر، أمّا الحيوانات المجترة فقط أو المشقوقة الظلف فقط، فلا تأكلوا منها، فالجمل غير طاهر لكم لأنّه مجتر ولكنّه غير مشقوق الظلف»[١].

كما أنّه يمكن أن يُستفاد من العبارة التّالية في الآية المبحوثة التي تحدّثت عن خصوص البقر والغنم، حرمة لحم البعير على اليهود بصورة كلية أيضاً. (تأمل بدقّة).

ثمّ يقول سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾.

ثمّ يستثني بعد هذا ثلاثة موارد: أوّلها الشحوم الموجودة في موضع الظهر من هذين الحيوانين إذ يقول: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾.

وثانياً: الشّحوم الموجودة على جنبيها، أو بين أمعائها: ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾[٢].

وثالثاً: الشحوم التي امتزجت بالعظم والتصقت به ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾.

ولكنّه صرّح في آخر الآية بأنّ هذه الأُمور لم تكن محرّمة على اليهود - في الحقيقة - ولكنّهم بسبب ظلمهم وبغيهم حُرِمُوا - بحكم الله وأمره - من هذه اللحوم والشحوم التي كانوا يحبُّونها ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾.

ويضيف - لتأكيد هذه الحقيقة - قوله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ وإنّ ما نقوله هو عين الحقيقة.

---

(١) الكتاب المقدس، سفر اللاّويين، الاصحاح ١١، ص ١٤٢.

(٢) «الحوايا» جمع «حاوية» وهي مجموعة ما يوجد في بطن الحيوان والتي تكون على هيئة كرة تتضمّن الأمعاء.

بحثان

١ - ماذا كان يقترف بنو إسرائيل؟

لا بدّ أن نرى هنا أيّ ظلم كان يقترفه بنو إسرائيل بحيث أوجب أن يحرّم الله تعالى عليهم هذه النِّعم التي كانوا يحبّونها؟!

هناك مذاهب متباينة للمفسّرين في هذا الصعيد، ولكن ما يُستفاد من الآيتين (١٦٠ و١٦١) من سورة النساء، هو أنّ علّة التحريم المذكور، كان عدّة أُمور:

ظلمهم للضعفاء، ومعارضتهم للأنبياء، ومنعهم من هداية الناس، وأكل الربا، وأكل أموال الناس بالباطل، إذ يقول:

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ (١٦١)﴾.

٢ - ما معنى ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾؟

إنّ عبارة ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ التي جاءت في آخر الآية يمكن أن تكون إشارة إلى هذه النقطة وهي: أنّ الصدق والحق في مسألة تحريم هذه الأطعمة هو ما قلناه لا ما قاله اليهود في بعض كلامهم، وهو أنّ تحريم هذه الأطعمة واللحوم إنّما كان من جانب إسرائيل (يعقوب)، لأنّ يعقوب - كما جاء في الآية (٩٣) من سورة آل عمران - لم يحكم بحرمة هذه الأشياء أبداً، وليس هذا سوى تهمة ألصقتها اليهود به.

ولمّا كان عنادُ اليهود المشركين أمراً بيّناً، وكان من المحتمل أن يتصلّبوا ويتمادوا في تكذيب رسول الله ﷺ، أمرَ الله تعالى نبيّه في الآية الأُخرى أن يقول لهم إن كذّبوه: إنّ ربّكم ذو رحمة واسعة فهو لا يسارع إلى عقوبتكم ومجازاتكم، بل يمهلكم لعلكم تؤوبون إليه، وترجعون عن معصيتكم، وتندمون من أفعالكم وتعودون إلى الله، ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾.

ولكن إذا أساؤوا فهم أو استخدام هذا الإمهال الإلهي، واستمروا في كيل التّهم فيجب أن يعلموا أنّ عقاب الله إيّاهم حتميّ لا مناص منه، وسوف يصيبهم غضبه في المآل: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

إنّ هذه الآية تكشف - بوضوح - عن عظمة التعاليم القرآنية، فإنّه بعد شرح وبيان كل

، المخالفات التي ارتكبها اليهود والمشركون لا يعمد إلى التهديد بالعذاب فوراً، بل ك طريق الرجعة مفتوحاً، وذلك بذكر عبارات تفيض بالحب مثل قوله: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو مَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾. حتى إذا كان هناك أدنى استعداد للرجوع والإنابة في نفوسهم شوّقتهم ، العبارات العاطفية على العودة إلى الطريق المستقيم.

ولكن حتى لا تبعث سعة الرحمة الإلهيّة هذه على التمادي في غيّهم، وتتسبّب في يد جرأتهم وطغيانهم، وحتى يكفّوا عن العناد واللجاج هدّدهم في آخر جملة من الآية قوبة الحتمية.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

التّفسير

ملّص من المسؤولية بحجة «الجبر»

عقيب الكلام المتقدّم عن المشركين في الآيات السابقة، أشار في هذه الآيات إلى فة من استدلالاتهم الواهية، مع ذكر الأجوبة عنها.

فيقول أوّلاً: إنّ المشركين سيقولون في معرض الإجابة عن اعتراضاتك عليهم في ال الإشراك بالله، وتحريم الأطعمة الحلال: إنّ الله لو أراد أن لا نكون مشركين، ، لا يكون آباؤنا وثنيين، وأن لا نحرّم ما حرّمنا، لفعل: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾.

ويلاحَظ نظيرُ هذه العبارة في آيتين أُخريين من الكتاب العزيز، في سورة النحل الآية

(٣٥): ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ﴾. وفي سورة الزخرف الآية (٢٠): ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ﴾.

وهذه الآيات تفيد أنّ المشركين - مثل كثير من العصاة الذين يريدون التملّص من مسؤولية العصيان تحت ستار الجبر - كانوا يعتقدون بالجبر، وكانوا يقولون: كلّ ما نفعله فإنّما هو بإرادة الله ومشيئته وإلّا لما صَدَرت منّا مثل هذه الأعمال.

وفي الحقيقة أرادوا تبرئة أنفسهم من جميع هذه المعاصي، وإلاّ فإنَّ ضمير كل إنسان عاقل يشهد بأنّ الإنسان حرٌّ في أفعاله وغير مجبور، ولهذا إذا ظلمه أحدٌ انزعج منه، وأخذه ووبّخه، بل وعاقبه إذا قدر.

وكل ردود الفعل هذه تفيد أنّه يرى المجرم حرّاً في عمله ومختار، فهو ليس على استعداد لأن يغض الطرف عن ردود الفعل هذه بحجّة أنّ الظلم الواقع عليه من قبل ذلك الشخص مطابق لإرادة الله ومشيئته (تأمل بدقّة).

نعم هناك احتمال في هذه الآية، وهو أنّهم كانوا يدّعون أنّ سكوت الله على عبادتهم للأصنام وتحريمهم لطائفة من الحيوانات دليل على رضاه، لأنّه إذا لم يكن راضياً بها وجب أن يمنعهم عنها بنحو من الأنحاء.

وكانوا يريدون - بذكر عبارة ﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ - أن يسبغوا على عقائدهم الفارغة لون القدم والدوام، ويقولون: إنّ هذه الأُمور ليست بجديدة ندّعيها نحن، بل كان ذلك دائماً.

ولكن القرآن تصدّى لجوابهم وناقشهم بشكل قاطع، فهو يقول أوّلاً: ليس هؤلاء وحدهم يفترون على الله مثل هذه الأكاذيب: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾[1] ولكنّهم ذاقوا جزاء افتراءاتهم: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾.

فهؤلاء - في الحقيقة - كانوا يكذبون في كلامهم هذا، كما أنّهم يكذّبون الأنبياء، لأنّ الأنبياء الإلهيين نهوا البشرية - بصراحة - عن الوثنية والشرك وتحريم ما أحلّه الله، فلا آباؤهم سمعوا ذلك ولا هؤلاء، مع ذلك كيف يمكن أن نعتبر الله راضياً بهذه الأعمال؟... ولو كان سبحانه راضياً بهذه الأُمور فكيف بعث أنبياءه للدعوة إلى التوحيد؟!

(١) «كذب» في اللغة تأتي بمعنيين تكذيب الغير، وكذلك فعل الكذب.

إنّ دعوة الأنبياء - في الأساس - أقوى دليل على حرية الإرادة الإنسانية، واختيار البشر.

ثمّ يقول سبحانه: قل لهم يا محمّد: هل لكم برهان قاطع ومسلّم على ما تدّعونه؟ هاتوه إن كان: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾.

ثمّ يضيف في النهاية: إنّ ما تتبعونه ليس سوى أوهام وخيالات فجّة: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾.

وفي الآية اللاحقة يذكر دليلاً آخر لإبطال ادّعاء المشركين، ويقول: قل إنّ الله أقام براهين جلية ودلائل واضحة وصحيحة على وحدانيته، وهكذا أقام أحكام الحلال والحرام سواء بواسطة أنبيائه أو بواسطة العقل، بحيث لم يبق أيّ عذر لمعتذر: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ﴾.

وعلى هذا الأساس لا يمكن أن يدّعي أحدٌ أبداً أنّ الله أمضى - بسكوته - عقائدهم وأعمالهم الباطلة، وكذلك لايسعهم قط أن يدّعوا أنّهم كانوا مجبورين، لأنّهم لو كانوا مجبورين لكان إقامة الدليل والبرهان، وإرسال الأنبياء وتبليغهم ودعوتهم لغواً، إنّ إقامة الدليل دليل على حرية الإرادة.

على أنّه يجب الانتباه إلى أنّ «الحُجة» الذي هو من «حجّ» يعني القصد، وتطلق «الحجة» على الطريق الذي يقصده الإنسان، ويطلق على البرهان والدليل «الحُجة» أيضاً، لأنّ القائل يقصد إثبات مدّعاه للآخرين عن طريقه.

ومع ملاحظة لفظة «بالغة» يتّضح أنّ الأدلة التي أقامها الله للبشر عن طريق العقل والنقل وبواسطة العلم والفكر، وكذا عن طريق إرسال الأنبياء واضحة لا لبس فيها من جميع الجهات، بحيث لا يبقى أيّ مجال للترديد والشك لأحد، ولهذا السبب نفسه عصم اللهُ سبحانه أنبياءه من كل خطأ ليبعدهم عن أيّ نوع من أنواع التردد والشك في الدعوة والإبلاغ.

ثمّ يقول في ختام الآية: ولو شاء الله أن يهديكم جميعاً بالجبر لفعل: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وفي الحقيقة فإنّ هذه الجملة إشارة إلى أنّ في مقدور الله تعالى أن يجبر جميع أبناء آدم على الهداية، بحيث لا يكون لأحد القدرة على مخالفته، ولكن في مثل هذه الصورة لم يكن لمثل هذا الإيمان ولا للأعمال التي تصدر في ضوء هذا الإيمان الجبري القسري

أيّة قيمة، إنّما فضيلة الإنسان وتكامله في أن يسلك طريق الهداية والتقوى بقدميه وبإرادته وإختياره.

وعلى هذا الأساس لا منافاة أصلاً بين هذه الجملة والآية السابقة التي ورد فيها نفي الجبر.

إنّ هذه الجملة تقول: إنّ إجبار الناس الذي تدّعونه أمرٌ ممكن ومقدور لله تعالى، ولكنّه لن يفعله قط، لأنّه يخالف الحكمة وينافي المصلحة الإنسانية.

وكان المشركون قد تذرّعوا بالقدرة والمشيئة الإلهيتين لاختيار مذهب الجبر، في حين أنّ القدرة والمشيئة الإلهيتين حق لا شبهة فيهما، بيد أنّ نتيجتهما ليست هي الجبر والقسر، بل إنّ الله تعالى أراد أن نكون أحراراً، وأن نسلك طريق الحق باختيارنا وبمحض إرادتنا.

جاء في كتاب الكافي عن الإمام الكاظم عليه السلام أنّه قال: «إنّ لله على الناس حجّتين حجّة ظاهرة وحجّة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسُل والأنبياء والأئمّة، وأمّا الباطنة فالعقول»[1].

وجاء في أمالي الصّدوق عن الإمام الصّادق عليه السلام لمّا سئِل عن تفسير قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ أنّه قال: «إنّ الله تعالى يقولُ للعبد يومَ القيامة: عبدي أكنتَ عالماً؟ فإن قال: نعم، قال له: أفلا عملتَ بما علمتَ؟ وإن قال: كنتُ جاهلاً، قال له: أفلا تعلّمتَ حتى تعمل؟ فيخصمه، فتلك الحجّة البالغة»[2].

إنّ من البديهي أنّ المقصود من الحديث المذكور ليس هو أنّ الحجّة البالغة منحصرة في حوار الله تعالى مع عباده يوم القيامة، بل إنّ لله حججاً بالغة عديدة من مصاديقها ما جاء في الحديث المذكور من الحوار بين الله وبين عباده، لأنّ نطاق الحجج الإلهيّة البالغة واسع يشمل الدنيا والآخرة.

وفي **الآية التّالية** - ولكي يتّضح بطلان أقوالهم، ومراعاةً لأُسس القضاء والحكم الصحيح - دعا المشركين ليأتوا بشهدائهم المعتبرين لو كان لهم، لكي يشهدوا لهم بأنّ الله هو الذي حرّم الحيوانات والزروع التي ادّعوا تحريمها، لِهذا يقول: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٧٦. (٢) المصدر السابق، ص ٧٧٦.

ثمّ يضيف قائلاً: إذا كانوا لا يملكون مثل هؤلاء الشهداء المعتبرين (ولا يملك
ماً) بل يكتفون بشهادتهم وادّعائهم أنفسهم فقط، فلا تشهد معهم ولا تؤيّدهم
ويهم: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ﴾.

اتّضح ممّا قيل أنّه لا تناقض قطّ في الآية لو لوحظت مجموعةً، وأمّا مطالبة
شاهد في البداية ثمّ أمره تعالى بعدم قبول شهادتهم، فلا يستتبع إشكالاً،
قصود هو الإشعار بأنّهم عاجزون عن إقامة الشهود المعتبرين على القطع واليقين
هم لا يمتلكون أيّ دليل من الأنبياء الإلهيين والكتب السماوية تقرر تحريم
مور، ولهذا فإنّهم وحدَهم الذين يَدَّعُون هذه الأُمور سيشهدون، ومن المعلوم أنّ
، الشهادة مرفوضة.

هذا مضافاً إلى أنّ جميع القرائن تشهد بأنّ هذه الأحكام ما هي إلّا أحكام مصط
تلقة نابعة عن محض الهوى والتقليد الأعمى، ولا اعتبار لها مطلقاً.

ولذلك قال في العبارة اللاحقة: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ
نُونَ بِٱلْأَخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[1].

يعني أنّ وثنيتهم، وإنكارهم للقيامة والبعث، والخرافات، واتباعهم للهوى، شو
ة على أنّ أحكامهم هذه مختلقة أيضاً، وأنّ ادّعاهم في مسألة تحريم
ضوعات من جانب الله لا قيمة له، ولا أساس له من الصحة.

﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ
إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا
تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ
ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ
إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا
نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ

﴿يَعْدِلُونَ﴾ مشتق من مادة «عدل» بمعنى الشريك والشبيه، وعلى هذا الأساس فإنّ مفهوم جملة ﴿
بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ هو أنّهم كانوا يعتقدون بشريك وشبيه لله سبحانه.

أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

التّفسير

الأوامر العشرة

بعد نفي أحكام المشركين المختلقة التي مرّت في الآيات المتقدمة، أشارت هذه الآيات الثلاث إلى أصول المحرّمات في الإسلام، وذكرت الذنوب الرئيسية الكبيرة في عشرة أقسام ببيان مقتضب، عميق وفريد، ودعت المشركين إلى أن يحضروا عند النّبي ويستمعوا إلى ما يتلى عليهم من المحرّمات الإلهيّة الواقعية، ويتركوا المحرّمات المختلقة جانباً.

يقول: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ﴾.

١ - ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾.

٢ - ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾.

٣ - ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ﴾ أي بسبب الفقر والحرمان لأنّنا ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾.

٤ - ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ﴾ أي لا تقربوها فضلاً عن أن لا ترتكبوها.

٥ - ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ فلا تسفكوا الدّماء البريئة، ولا تقتلوا النفوس التي حرّم الله قتلها إلّا ضمن قوانين العقوبات الإلهيّة، فيجوز أن تقتلوا من أذِنَ الله لكم بقتله.

ثمّ إنّه تعالى بعد ذكر هذه الأقسام الخمسة يقول لمزيد من التأكيد: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فلا ترتكبوها.

٦ - ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ﴾ فلا تقربوا مال اليتيم إلّا بقصد الإصلاح حتى يبلغ أشدّه ويستوي.

٧ - ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ فلا تطففوا ولا تبخسوا.

وحيث إنّ الإنسان - مهما دقق في الكيل والوزن - قد يزيد أو ينقص بما لا يمكن أن تضبطه الموازين والمكاييل المتعارفة لقلّته وخفائه، لهذا عقّب على ما قال بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

٨ - ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ فلا تنحرفوا عن جادّة الحق عند الشهادة أو القضاء أو أمر آخر حتى ولو كان على القريب، فاشهدوا بالحق، واقضوا بالعدل.

٩ - ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ ولا تنقضوه.

وأمّا ما هو المراد من العهد الإلهي المذكور في هذه الآية؟ فقد ذهب المفسّرون إلى احتمالات عديدة فيه، ولكن مفهوم الآية يشمل جميع العهود الإلهيّة «التكوينية» و«التشريعية» والتكاليف الإلهيّة وكل عهد ونذر ويَمين.

ثمّ إنّه سبحانه يقول في ختام هذه الأقسام الأربعة - للتأكيد -: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

١٠ - ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ إنّ طريقي هذا هو طريق التوحيد، طريق الحق والعدل، طريق الطهر والتقوى فامشوا فيه، واتّبعوه، واسلكوه ولا تسلكوا الطرق المنحرفة والمتفرّقة، فتؤدّي بكم إلى الانحراف عن الله وإلى الاختلاف، والتشرذم، والتفرّق، وتزرع فيكم بذور الفرقة والنفاق.

ثمّ يختم جميع هذه الأقسام وللمرّة الثّالثة - لغرض التأكيد - بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

بحوث

إنّ ها هنا عدّة نقاط يجب أن نقف عندها، وهي:

١ - الشروع بالتوحيد والختم بنبذ الاختلاف

إنّ الملاحَظ في هذه الآيات أنّ هذه التعاليم والأوامر العشرة بدأت بتحريم الشرك الذي هو في الواقع المنشأ الأصلي لجميع المفاسد الاجتماعية والمحرّمات الإلهيّة، وانتهت - أيضاً - بالدّعوة إلى نبذ التفرّق والاختلاف الذي يُعدُّ هو الآخر، نوعاً من الشرك العملي.

إنّ هذا الموضوع يكشف عن أهميّة مسألة التوحيد في جميع الأُصول والفروع

الإسلامية، وبالتالي يكشف عن أنّ التوحيد ليس مجرّد أصل عقائدي بحت، بل يمثّل روح التعاليم الإسلامية برمّتها.

٢ - التأكيدات المتتابعة

لقد تكرّرت عبارة ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ للتأكيد عند ختام كلّ آية من الآيات الثلاث، مع فوارق في الفواصل طبعاً، فقد ختمت العبارة في الآية الأُولى بجملة: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وفي الآية الثّانية بجملة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وفي الآية الثّالثة بجملة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

ويبدو أنّ هذه التعابير المختلفة إشارة إلى النقطة التّالية وهي: **أنّ المرحلة الأُولى عند** تلقّي أيّ حكم من الأحكام هو مرحلة «التعقل» أي فهم ذلك الحكم وإدراكه.

والمرحلة الثّانية هي: مرحلة «التذكر» وهضم ذلك الحكم وامتصاص مفاده واستيعاب محتواه.

والمرحلة الثّالثة هي: المرحلة النهائية، وهي مرحلة العمل والتطبيق، وقد أسماها القرآن بمرحلة «التقوى».

صحيح أنّ كل واحدة من هذه العبارات (والمراحل) جاءت بعد ذكر عدّة تعاليم من التعاليم العشرة، إلّا أنّه من الواضح أنّ هذه المراحل لا تختص بأحكام معيّنة، لأنّ كل حكم من الأحكام، وكل تعليم من التعاليم بحاجة إلى «التعقل» و«التذكر» و«التقوى والعمل»، كل ذلك لرعاية جهات الفصاحة والبلاغة، التي اقتضت توزيع هذه التأكيدات (والمراحل) في أثناء تلك التعاليم العشرة.

٣ - التعاليم والأوامر الخالدة

لعلّنا في غنىً عن التذكير بأنّ هذه التعاليم والأوامر العشرة لا تختص بالدين الإسلامي، بل كان نظيرها في جميع الشرائع المتقدمة عليه وإن كانت قد حظيت في الإسلام بعناية أكبر وأوسع.

وفي الحقيقة إنّ هذه التعاليم ممّا يدركه العقل السويّ والضمير السليم بوضوح وجلاء وبعبارة أُخرى: هي من «المستقلات العقلية» ولهذا فإنّها كما ذكرت في القرآن الكريم، تلاحظ بشكل أو بآخر في شرائع الأنبياء الآخرين[1].

---

(١) راجع الآية (١٣) من سورة الشورى.

٤ - أهمية الإحسان إلى الوالدين

إنّ ذكر مسألة الإحسان للوالدين - بعد مكافحة الشرك مباشرة، وقبل ذكر تعاليم مهمّة مثل حرمة قتل النفس والأمر بالعدل - يدلّ على الأهميّة القصوى التي يحظى بها حق الوالدين في التعاليم الإسلامية.

ويتّضح هذا الأمر أكثر عندما نرى أنّ القرآن الكريم ذكر بدل تحريم أذى الوالدين الذي يلائم سياق هذه الآية في استعراضها للمحرّمات، مسألة الإحسان إليهما، يعني أنّه ليس إزعاج الوالدين وإيذاؤهما محرّماً فقط، بل يجب الإحسان إليهما.

والأجمل من هذا كلّه أنّ كلمة «الإحسان» عُدِّيت بحرف «الباء» فقال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ ونحن نعلم أنّ الإحسان قد يعدّى بإلى وقد يُعَدّى بالباء، فإذا عُدّي بإلى كان معناه: الإحسان إلى الآخر سواء كان بصورة مباشرة، أو مع الواسطة. ولكنّه عندما يُعدّى بالباء يكون معناه: الإحسان بصورة مباشرة ومن دون واسطة.

وعلى هذا الأساس فإنّ هذه الآية تؤكّد أنّ موضوع الإحسان إلى الوالدين من الأهمّية البالغة بحيث يجب على الإنسان أن يباشر الإحسان بنفسه إلى الوالدين(١).

٥ - قتل الأولاد من الإملاق والجوع

يُستفاد من هذه الآيات أنّ العرب في العهد الجاهلي لم يقتصروا على قتل البنات ووأدهن بسبب بعض العصبيات الخاطئة فحسب، بل كانوا يقتلون أولادهم الذين كانوا يُعَدُّون ثروة كبرى في المجتمع يومذاك، وذلك بسبب الفقر وخشيتهم من الفاقة، والله تعالى يلفت نظرهم إلى مائدة النِّعم الإلهيّة الواسعة التي يستفيد منها حتى أضعف الموجودات، ونهاهم سبحانه عن ذلك.

ولكن هذا العمل الجاهلي - وللأسف البالغ - يتكرّر الآن في عصرنا في صورة أُخرى، إذ نلاحظ كيف يعمد الناس إلى قتل الأطفال الأبرياء وهم أجنّة عن طريق «الكورتاج» والإجهاض بحجة النقصان الاحتمالي في المواد الغذائية.

إنّ إسقاط الجنين وإن كان يُبَرَّرُ الآن بأدلة وحجج أُخرى أيضاً، إلّا أنّ مسألة الفقر ومسألة نقصان المواد الغذائية، هي من أدلتها الأصليّة.

---

(١) تفسير المنار، ج ٨، ص ١٨٥.

هذه المسألة والمسائل المشابهة الأُخرى تشير إلى أنّ العَهد الجاهلي يتكرّر في شكل آخر، وأنّ «جاهلية القرن العشرين» أكثر وحشية من جاهلية ما قبل الإسلامِ.

٦ - ما المقصود من الفواحش؟

«الفواحش» جمع «فاحشة» يعني ما عظم قبحه من الذنوب. وعلى هذا الأساس فإنّ نقض العهد، والتطفيف والشرك وما شابه ذلك وإن كانت من الذنوب الكبار، إلّا أنّ ذكرها في مقابل الفواحش إنّما هو لأجل التفاوت المفهومي بينها.

٧ - لا تقربوا هذه الذّنوب

في الآيات الحاضرة ورد التعبير بجملة لا تقربوا في موضعين، وقد تكرر هذا الموضوع.

(وهذا النهي) في القرآن لبعض الذنوب الأُخر أيضاً، ويبدو أنَّ هذا التعبير قد ورد في مجالِ الذنوبِ المثيرة كالزنا، وأموال اليتامى وما شابهها، لهذا يحذّر الناس من الاقتراب إليها لكي لا يقعوا تحت إثارتها.

٨ - الذُّنوب الظاهرة والباطنة

لا شكّ في أنّ جملة ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ تشمل كل الذنوب القبيحة الظاهرة، والخفيّة، ولكن جاء في بعض الأحاديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «ما ظهر هو الزنا وما بطن هو المخالّة»[1] (أي اتخاذ الخليلات والصديقات سرّاً وخفيةً) ولكنّه واضح أنّ ذكر هذه الموارد إنّما هو بيان المصداق الواضح، لا أنّه يعني انحصارها فيها.

٩ - الوصايا العشر عند اليهود

نلاحظ في التّوراة في الفصل (٢٠) سفر الخروج أحكاماً عشرة تعرف عند اليهود بالوصايا، وهي تبدأ من الجملة الثانية وتنتهي عند السابعة عشرة من ذلك الفصل.

ولكن بالمقارنة بين الوصايا العشر، وبين ما جاء في الآيات الحاضرة يتّضح أنّ فرقاً واسعاً وبوناً شاسعاً بين هذين البرنامجين، على أنّه لا يمكن الاطمئنان إلى أنّ التّوراة

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ١٩١، ذيل الآية مورد البحث.

الحاضرة لم تحرّف في هذا المجال، كما تعرّضت للتحريف في الأقسام الأُخرى، ولكن ما هو مسلّم هو أنّ الوصايا العشر الموجودة في التّوراة وإن كانت مشتملة على المسائل اللازمة، إلّا أنّها أقلُ مستوىً بكثير - من حيث السعة والأبعاد الأخلاقية، والاجتماعية والعقيدية - من مفاد الآيات الحاضرة.

١٠ - كيف غَيّرت هذه الآيات وجه المدينة المنورة؟

لقد وردت في بحار الأنوار، وكذا في كتاب أعلام الورى قصّة جميلة تحكي عن تأثير هذه الآيات البالغ في نفوس المستمعين، وها نحن ندرج هنا القصّة المذكورة باختصار وفقاً لما جاء في بحار الأنوار برواية علي بن إبراهيم:

قدم أسعد بن زرارة، وذكوان بن عبد قيس مكّة في موسم من مواسم العرب وهما من الخزرج، وكان بين الأوس والخزرج حرب قد بقوا فيها دهراً طويلاً، وكانوا لا يضعون السلاح لا بالليل ولا بالنهار، وكان آخر حرب بينهم يوم بعاث[1]، وكانت الغلبة فيها للأوس على الخزرج، فخرج أسعد بن زرارة وذكوان إلى مكّة يسألون الحلف على الأوس وكان أسعد بن زرارة صديقاً لعتبة بن ربيعة فنزل عليه، وقصّ عليه ما جاء من أجله فقال عتبة بن ربيعة في جواب أسعد: بُعدت دارنا من داركم، ولنا شغلٌ لا نتفرغ لشيء، قال أسعد: وما شغلكم وأنتم في حرمكم وأمنكم؟ قال عتبة: خرج فينا رجُل يدّعي أنّه رسول الله، سفّه أحلامنا، وسبّ آلهتنا، وأفسد شبابنا، وفرّق جماعتنا.

فقال له أسعد: من هو منكم؟ قال: ابن عبد الله بن عبد المطلب، من أوسطنا شرفاً، وأعظمنا بيتاً.

فلمّا سمع أسعد وذكوان ذلك، أخذا يفكّران فيه، ووقع في قلبهما ما كانا يسمعانه من اليهود، أنّ هذا أوانُ نبيٍّ يخرج بمكّة يكون مهاجره بالمدينة.

فقال أسعد: أين هو؟

قال عتبة: جالس في الحجر (حجر إسماعيل) وأنّهم (أي المسلمون) لا يخرجون من شعبهم إلّا في المواسم، فلا تسمع منه، ولا تكلّمه، فإنّه ساحر يسحرك بكلامه، وكان هذا في وقت محاصرة بني هاشم في الشعب.

فقال أسعد لعتبة: فكيف أصنع، وأنا محرم للعمرة لابدَّ لي أن أطوف بالبيت؟

---

(١) كامل ابن الأثير، ج ١، ص ٤٤٣.

قال: ضَع في أُذنيك القطن.

فدخل أسعد المسجد، وقَد حشا أُذنيه بالقطن فطافَ بالبيت ورسول الله جالس في الحجر مع قوم من بني هاشم، فنظر إليه نظرة فجازه.

فلمّا كان في الشّوط الثّاني قال في نفسه: ما أجد أجهَلَ منّي. أيكون مثل هذا الحديث بمكّة فلا أتعرّفه حتى أرجع إلى قومي فأُخبرهم؟ فأخذ القطن من أُذنيه ورمى به، وقال لرسول الله ﷺ: أنعِم صباحاً. فرفع رسولُ الله ﷺ رأسَه إليه، وقال: قد أبدلنا الله به ما هو أحسن من هذا، تحية أهل الجنّة، السلام عليكم.

فقال له أسعد: إلى مَ تدعو يا محمّد؟

قال النّبي ﷺ: إلى شهادة أن لا إله إلّا الله، وأنّي رسول الله، وأدعوكم إلى... «ثمّ تلا ﷺ الآيات الثلاث المبحوثة هنا والتي تتضمّن التعاليم العشرة».

فلمّا سمع أسعد هذا قال له: أشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّك رسول الله، يا رسول الله بأبي أنت وأُمي أنا من أهل يثرب من الخزرج، وبيننا وبين إخوتنا من الأوس حبال مقطوعة، فإن وصَلَها الله بك، ولا أجدُ أعزّ منك، ومعي رجلٌ من قومي، فإن دخَلَ في هذا الأمر رجوت أن يتمّم الله لنا أمرَنا فيك.

والله يا رسولَ الله، لقد كنّا نسمع من اليهود خبَرك، ويبشروننا بمخرجك، ويخبروننا بصفتك، وأرجو أن تكون دارُنا دارَ هجرتك عندنا فقد أعلمنا اليهودُ ذلك، فالحمد لله الذي ساقني إليك، والله ما جئتُ إلّا لنطلب الحلفَ على قومنا، وقد آتانا الله بأفضل ممّا أتيت له.

ثمّ أسلم رفيقُ أسعد - ذكوان - أيضاً، ثمّ طلبا من رسول الله ﷺ أن يبعث معهم رجلاً يعلمهم القرآن، ويدعو الناس إلى أمره، ويطفىء الحروب، فبعث رسول الله ﷺ معهما إلى المدينة «مصعب بن عمير» ومنذئذ أُسست قواعد الإسلام في المدينة وتغيّر وجه يثرب(١).

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ

(١) بحار الأنوار، الطبعة الجديدة، ج ١٩، ص ٨ و٩ و١٠.

فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ
مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا
الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ
آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

التّفسير

ردُّ حاسمٌ على المتحججين والمتعلّلين:

في الآيات السابقة دار الحديث عن عشرة من أحكام الإسلام الأساسية التي تشكّل - في الحقيقة - أساساً وقاعدةً للكثير من الأحكام الإسلامية، ويستفاد من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ ونظائره، أنّ هذه الأحكام لم تكن مختصّة بدين معيّن أو شريعة خاصّة، لا سيّما وأنّها من الأُصول والمبادىء التي يحكمُ بها العقلُ ويؤيّدهامن دُون تلكّؤ أو تأخير، وبهذا يكون مضمون الآيات السابقة هو بيانُ الأحكام التي لم تكن مختصّةً بالإسلام، بل هي موجودة ومقررة في جميع الأديان.

ثمّ قال عقيب ذلك في هذه الآيات: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ فقد أتممنا نعمتنا على المحسنين والذين سلّموا لأمره واتّبعوه.

وممّا قيل يتّضح المراد من كلمة «ثُمّ» التي تُستعمل في اللغة العربية عادة في «العطف مع التراخي» ويكون معنى الآية هو: أنّنا آتينا هذه التعاليم والوصايا العامّة للأنبياء السابقين أوّلاً، ثمّ آتينا موسى كتاباً سماوياً وَبيّنا فيه هذه التعاليم والبرامج وغيرها من التعاليم والبرامج اللازمة.

وبهذا لا حاجة إلى ما ذهب إليه بعض المفسّرين من التوجيهات المختلفة، والضعيفة أحياناً في هذا المجال.

كما تتّضح هذه النقطة أيضاً، وهي أنّ عبارة: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ﴾ إشارة إلى جميع المحسنين، والذين يستجيبون للحق، ويقبلون بالأوامر الإلهيّة.

﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ فإنّ فيه كلّ شيء ممّا يحتاج إليه المجتمع، وممّا له أثرٌ في تكامل الإنسان وترشيده.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ أي أنّ في هذا الكتاب الذي نزل على موسى مضافاً إلى ما سبق: هدىً ورحمةً.

إنَّ جميع هذه البرامج ما هيَ إلّا لكي يؤمنوا بيوم القيامة، وبلقاء الله، ولكي يُطهّروا عن طريق الإيمان بالمعاد أفكارَهم، وأقوالَهم، وأعمالَهم ويزكّوها: ﴿لَعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾.

هذا، ويمكن أن يُقال: إذا كانت شريعة موسى شريعةً كاملةً (كما يُستفاد من كلمة «تماماً») فما الحاجة إلى شريعة عيسى، وإلى الشريعة الإسلامية؟

ولكن يجب أن يُعْلَم أنَّ كلّ شريعة من الشرائع إنّما تكون شريعة جامعة وكاملة بالنسبة لعصرها، ومن المستحيل أن تنزل شريعة ناقصة من جانب الله تعالى.

بيد أنّ هذه الشريعة التي تكون كاملةً بالنسبة إلى عصر معيَّن يمكن أن تكون ناقصةً غير كاملة بالنسبة إلى العصور اللاحقة، كما أنّ البرنامجَ الكاملَ الجامعَ المُعَدّ لمرحلة الدراسة الابتدائية، يكون برنامجاً ناقصاً بالنسبة إلى مرحلة الدراسة المتوسّطة، وهذا هو السرّ في إرسال الأنبياء المتعددين بالكتب السماويّة المختلفة المتنوعة حتى ينتهي الأمرُ إلى آخر الأنبياء وآخر التعاليم.

نعم إذا تَهيّأ البشر لتلقّي التعاليم النهائية، وصدرت إليهم تلك التعاليم والأوامر، لم تبق حاجةٌ - بعد ذلك - إلى دين جديد، وكان شأنهم حينئذ شأنَ المتخرّجين الذين يمكنهم بما عندهم من معلومات، الحصول على نجاحات علمية عن طريق المطالعة والتأمل.

إنّ أتباع مثل هذه الشريعة، ومثل هذا الدين (النهائي) لن يحتاجوا إلى دين جديد، وإنّما يكتسبون طاقة حركتهم وتقدّمهم من نفس ذلك الدين الإلهي.

كما أنّه يُستفاد من هذه الآية أيضاً أنّ القضايا المرتبطة بالقيامة قد وردت في التّوراة الأصلية بالقدر الكافي. وإذا لم نلاحظ إشارة إلى قضايا الحشر والمعاد في التّوراة الفعلية والكتب الحاضرة المرتبطة بها إلّا نادراً، فالظاهر أنّ ذلك بسبب تحريف اليهود وأصحاب الدنيا الذين كانوا يرغبون في قلّة التحدّث عن القيامة وقلّة السماع عنها.

على أنّه قد وردت في التّوراة الفعلية مع ذلك إشارات عابرة ومختصرة إلى مسألة القيامة، ولكنّها قليلة إلى درجة دفع بالبعض إلى القول: إنّ اليهود لا يعتقدون بالمعاد والقيامة أساساً، ولكن هذا الكلام أشبه بالمبالغة من الواقع والحقيقة.

كما أنّه يجب أيضاً أن نلفت نظر القارىء إلى أنّ المراد من لقاء الله الذي ورد في الآيات القرآنية ليس هو اللقاء الحسي والرؤية البصرية، بل المرادُ هو نوعٌ من الشهود

الباطني، واللقاء الروحاني، الذي يتحقق في يوم القيامة على أثر التكامل الإنساني الحاصل للأشخاص، أو المقصود منه هو: مشاهدة الثوابِ والعقابِ في العالم الآخر.

الآية اللاحقة تشير إلى نزول القرآن وتعليماته القيّمة، وبذلك أكملت البحث المطروح في الآية السابقة، يقول تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ فهذا الكتاب الذي أنزلناه كتاب عظيم الفائدة، عظيم البركة، وهو المنبع لكلِّ أنواع الخير والبركة.

ولمّا كان الأمر كذلك وَجَبَ اتّباعه بصورة كاملة، ووجب التزوّدُ بالتقوى، والتجنّبُ عن مخالفته، لتشملَكم رحمة الله ولطفه ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وفي **الآية الثالثة** أبطل سبحانه جميع المعاذير والتحججات وسدّ جميع طرق التَّملُّص والفرار في وجه المشركين، فقال لهم أوّلاً: لقد أنزلنا هذا الكتاب مع هذه المميزات لكي لا تقولوا: لقد نزلّت الكتب السماوية على الطائفتين السابقتين ﴿ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ وكنّا عن دراستها غافلين، وليس تَمرّدنا على أوامر الله إلّا لكونها موجودة عند غيرنا من الأُمَم، ولم يبلغنا منها شيء: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾[1].

ثمّ إنّه سبحانه ينقل عنهم - في **الآية اللاحقة** - نفس ذلك التحجج ولكن بصورة أوسع، ومقروناً هذه المرّة بنوع أشدّ من الغرور والصَّلَف وهو: أنّ القرآن الكريم لو لم ينزل عليهم لكانَ من الممكن أن يدّعوا أنّهم كانوا أكثر استعداداً من أيّة أُمّة أُخرى لقبول الأمر الإلهي: ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾.

والآية المتقدّمة كانت تعكس - في الحقيقة - هذا التحجج وهو: أنّ عدم اهتدائنا إنّما هو بسبب غفلتنا وجهلنا بالكتب السماوية، وهذه الغفلة وهذا الجهل ناشيء عن أنَّ هذه الكتب نزلت على الآخرين، ولم تنزل علينا.

أمّا هذه الآية فتعكس صفة الإحساس بالتفوّق والادّعاء الفارغ الذي كانوا يدّعونه عن تفوّق العنصر العربيّ على غيرهم.

وقد نُقِلَ نظيرُ هذا المعنى في سورة فاطر في الآية (٤٢) على لسان المشركين في شكل مسألة حتمية وليس من بابِ القضية الشرطية وذلك عندما يقول: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

---

(١) ﴿أَن تَقُولُوٓا۟﴾ معناه «لئلاّ تقولوا» ونظير ذلك كثير في لغة العرب.

وعلى أيّة حال فإنّ القرآن يقول في معرض الرّد على هذه الادعاءات إنّ الله سبحانه سدّ عليكم كل سُبُل التملّص والفرار، وأبطل جميع الذرائع والمعاذير، لأنّ الله آتاكم كلّ الآيات، وأقام كل الحجج المقرونة بالهداية الإلهيّة وبالرحمة الربانية لكم: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾.

والملفتُ للنظر أنّه استعمل لفظ «البينة» بدل الكتاب السماوي، وهو إشارة إلى أنّ هذا الكتاب السماوي واضح المعالم، بَيّن الحقائق من جميع الجهات، ومقرونٌ بالدلائل القاطعة، والبراهين الساطعة اللامعة.

ومع ذلك ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾.

و«صَدَفَ» من «الصَّدْف» ويعني الإعراض الشديد - من دون تفكير - عن شيء، وهو إشارة إلى أنّهم لم يكونوا ليعرضوا عن آيات الله فحسب، بل كانوا يبتعدون عنها - أيضاً - من دون أن يفكّروا فيها أدنى تفكير. ربّما استُعمِلت هذه اللفظة بمعنًى آخر وهو منع الآخرين أيضاً.

وفي خاتمة هذه الآية بيّن الله تعالى العقاب الأليم الذي أُعِدَّ لهؤلاء المخاصمين المعاندين الذين يرفضون الحقائق وينكرونها من دون أن يفكّروا فيها ويدرسوها ولو قليلاً، بل ولا يكتفون برفضها إنّما يعمدون إلى صدّ الآخرين عنها، ويحولون بينهم وبين سماعها واستيعابها، بَيّن كلّ ذلك في قوله الموجز والبليغ: ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴾.

و﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ وإن كان بمعنى العذابَ السيّئ، ولكن حيث إنّ العذابَ السيّئ عقابٌ شديدٌ وموجع للغاية في حدّ نفسه، لذلك فسَّره بعض المفسّرين بالعقاب الشديد.

ثمّ إنّ تكرارَ لفظة ﴿يَصْدِفُونَ﴾ عند بيان جزاء الصادفين عن آيات الله لأجل توضيح هذه الحقيقة، وهي أنَّ جميع البلايا والمحن التي تصيب هذا الفريق ناشئة من كونهم يعرضون عن الحقائق من دون أدنى تفكير ودراسة، ولو أنّهم سمحوا لأنفسهم بالتفكير والدراسة - كباحث عن الحقيقة وشاكّ يطلب اليقين - لَما أُصيبوا بِمثل هذه العواقب الأليمة والمصير المؤلم.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

التّفسير

توقعات باطلة ومطاليب مستحيلة

في الآيات السابقة تبيّنت هذه الحقيقة وهي: أنّنا أتممنا الحجّة على المشركين، وآتيناهم الكتاب السماوي (أي القرآن) لهدايتهم جميعاً، لكي لا يبقى لديهم أيّ عذر يبرّرون به مخالفتهم للرسالة ومعارضتهم للدعوة.

وهذه الآية تقول: ولكن هؤلاء الأشخاص المخاصمين المعاندين بلغوا في لجاجهم وعنادهم حدّاً لا يؤثّر فيهم حتى هذا البرنامجُ الواضحُ البيّنُ، وكأنّهم يتوقعون وينتظرون هلاكهم، أو ذهاب آخر فرصة، أو ينتظرون أُموراً مستحيلة.

فيقول أولاً: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لتقبض أرواحهم.

﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ إليهم فيرونه، حتى يؤمنوا به.

ويُراد من هذا الكلام في الحقيقة أنّهم ينتظرون أُموراً مستحيلة، لا أنّ مجيء الله سبحانه وتعالى أو رؤيته أُمور ممكنة.

وهذا النوع من البيان والكلام أشبه ما يكون بمن يقول لشخص مجرم معاند، بعد أن يريه ما لديه من وثائق كافية دامغة وهو مع كل هذا ينكر جنايته: إذا كنتَ لا تقبل بكل هذه الوثائق، فلعلّك تنتظر أن يعود المقتول إلى الحياة، ويحضر في المحكمة ليشهد عليك بأنّك الذي قتلته؟

ثمّ يقول: أو أنّكم تنتطرون أن تتحقق بعض الآيات الإلهيّة والعلامات الخاصّة بيوم القيامة ونهاية العالم يوم تنسدّ كلُ أبواب التوبة: ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾؟

وعلى هذا الأساس فإنّ عبارة ﴿ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ وإن جاءت بصورة كليّة وعلى نحو الإجمال، ولكنّها يمكن أن تكون بقرينة العبارات اللاحقة التي سيأتي تفسيرها، بمعنى علامات القيامة، مثل الزلازل المخيفة، وفقدان الشمس والقمر والكواكب لأنوارها وأضوائها، وما أشبه ذلك.

أو يكون المراد من ذلك المطاليب غير المعقولة التي يطلبونها من رسول الله ﷺ، ومن جملتها أنّهم لا يؤمنون به إلّا أن تمطر عليهم السماء حجارة، أو تمتلئ صحاري الحجاز القفراء اليابسة بالينابيع والنخيل!!

ثمّ يضيف عقيب ذلك قائلاً: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ

﴿مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ﴾ فأبواب التوبة حينذاك مغلقة في وجوه الذين لم يؤمنوا إلى تلك الساعة، لأنّ التوبة ساعتئذ تكون ذات صبغة اضطرارية إجبارية، وفاقدة لمعطيات الإيمان الاختياري وقيمة التوبة النصوح.

هذا، ويتّضح ممّا قيل أنّ عبارة: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ﴾ تعني أنّ الإيمان وحده لا ينفع في ذلك اليوم، بل حتى أُولئك الذين آمنوا من قبل، ولكنّهم لم يعملوا عملاً صالحاً، لم ينفعهم في ذلك اليوم أن يعملوا عملاً صالحاً، لأنّ أوضاعاً كتلك تسلبُ من الإنسان القدرة على ارتكاب الذنب، وتقوده نحو العمل الصالح بصورة جبرية لا مفرّ منها، فلا يكون لمثل هذا العمل أيّة قيمة ذاتية.

ثمّ إنّه في المقطع الأخير من الآية يوجّه تهديداً شديداً إلى هؤلاء الأشخاص المعاندين، إذ يقول بنبرة شديدة: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

لا فائدة للإيمان بدون عمل

إنّ من النقاط الهامّة التي نستفيدها من الآية الحاضرة هو أنّ الآية تعتبر طريقَ النجاة منحصرة في الإيمان، ذلك الإيمان الذي يكتسب المرء فيه خيراً ويعمل في ظلّهِ عملاً صالحاً.

ويمكن أن ينطرح هذا السؤال وهو: هل يكفي الإيمان وحده ولو لم يقترن بالأعمال الصالحة؟

ونجيب: صحيح أنّ المؤمن يمكن أن يزلّ أحياناً ويرتكِبَ بعض الذنوب والمعاصي ثمّ يندم على فعله ويعمد إلى إصلاح نفسه، ولكن مَن لم يعمل أيّ عمل صالح طوال حياته، ولم يستغل الفرص الكثيرة والكافية لذلك، بل على العكس من ذلك صدر منه كل قبيح ووقعت منه كل معصية، واقترفَ كل إثم، فإنّه يبدو من المستبعَد جداً أن يكون من أهل النجاة، ومن الذين ينفعهم إيمانُهم، لأنّه لا يمكن أن نصدّق بأنّ شخصاً ينتمي إلى دين من الأديان، ولكنّه لا يعمل بأيّ شيء من تعاليم ذلك الدين ولا مرّة واحدة في حياته، بل كان يرتكب خلافها دائماً، إذ إنّ حالته وموقفَه هذا دليلٌ قاطعٌ وبيّنٌ على عدم إيمانه، وعدم اعتقاده.

وعلى هذا الأساس يجب أن يقترن الإيمان ولو بالحدّ الأدنى من العمل الصالح، ليدلّ ذلك على وجود الإيمان.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

التّفسير

رفض المفرّقين للصّفوف ونفيهم

تعقيباً على التعاليم والأوامر العشرة التي مرّت في الآيات السابقة، والتي أُمِرَ في آخرها باتباع الصِّراط الإلهي المستقيم، وبمكافحة أيّ نوع من أنواع النفاق والتفرقة، جاءت هذه الآية تتضمّن تأكِيداً على هذه الحقيقة، وتفسيراً وشرحاً لَها.

فيقول تعالى أوّلاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ﴾[(١)] أي أنَّ الذين اختلفوا في الدين وتفرّقوا فرقاً وطوائف لا يمتّون إليك بصلة أبداً، كما لا يرتبطون بالدين أبداً، لأنّ دينك هو دين التوحيد، ودين الصِراط المستقيم، والصراطُ المستقيم ما هو إلّا واحد لا أكثر.

ثمّ قال تعالى - مُهدِّداً مُوبّخاً أُولئك المفرِّقين -: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ أي أنّ الله هو الذي سيؤاخذِهم بأعمالهم وهو عليم بها، لا يغيبُ شيء منها.

بحثان

وها هنا نقطتان يجب الالتفات إليهما:

١ - من همُ المقصودون في الآية؟

يعتقد جماعةٌ من المفسّرين أنَّ هذه الآية نزلت في اليهود والنصارى الذين اختلفوا وتفرّقوا إلى فِرَقٍ وطوائف مذهبية مختلفة، وتباغضوا وتشاحنوا وتنازعوا فيما بينهم[(٢)].

(١) «الشِّيَع» من حيث اللغة تعني الفرق والطوائف المختلفة وأتباع الأشخاص المختلفين، وعلى هذا فإنّ مفرد هذه الكلمة يعني من يتّبع مدرسة أو شخصاً معيّناً، هذا هو المعنى اللغوي لكلمة الشيعة. ولكن للفظة الشيعة معنى آخر في الاصطلاح، فهو يُطلق على من يتبع أمير المؤمنين علياً عليه السلام ويشايعه، ولا يصح أن نخلط بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي.

(٢) بحار الأنوار، ج ٩، ص ٩٣.

ولكن يرى آخرون أنّ هذه الآية إشارة إلى الذين يفرّقون صفوف هذه الأُمّة (الإسلامية) بدافع التعصّب وحبّ الاستعلاء، وحبّ المنصب والجاه.

ولكن محتوى هذه الآية يمثّل حكماً عامّاً يشمل كل من يفرّق الصفوف، وكل من يبذر بذور النفاق والاختلاف بين عباد الله بابتداع البدَع، من دون فرق بين من كان يفعل هذا في الأُمم السابقة أو في هذه الأُمة.

وما نلاحظه من الرّوايات المنقولة عن أهل البيت عليهم السلام وهكذا روايات أهلُ السُّنّة التي تصرّح بأنّ هذه الآية إشارة إلى مفرّقي الصفوف وأهل البدع في هذه الأُمّة، فهو من باب بيان المصداق[1]، لأنّه لو لم يُذكر هذا المصداق لظنّ البعض أنَّ المقصود بالآية هم الآخرون خاصّة وأنّ الضمير عائد إلى غيرهم فيبرّئوا بذلك ساحتهم.

ففي رواية منقولة عن الإمام الباقر عليه السلام في ذيل هذه الآية - على ما في تفسير علي بن إبراهيم - قال في تفسيرها: «فارقوا أمير المؤمنين عليه السلام وصاروا أحزاباً»[2].

وهناك أحاديث أُخر رويت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حول افتراق هذه الأمّة وتشتتها وتشرذمها إلى فرق ذكرها على سبيل التنبؤ، جميعها تؤيّد هذه الحقيقة أيضاً.

٢ - بشاعة التفرقة وزرع الاختلاف

هذه الآية تكرّر مرّة أُخرى - وبمزيد من التأكيد - هذه الحقيقة، وهي أنّ الإسلام دين الوحدة والاتحاد، وأنّه يرفض كل لون من ألوان التفرقة وإلقاء الاختلاف في صفوف الأُمة، وتقول لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ عملك وبرنامجك لا يشابه عمل المفرّقين للصفوف، ناشري الخلاف فيها مطلقاً، وأنّهم بالتالي لا يمتّون إليك ولا تمتّ إليهم بصلة أبداً، وإنّ الله المنتقم الجبّار سوف ينتقم منهم، ويريهم عاقبة أعمالهم الشريرة.

إنّ التوحيد الحقيقي ليس واحداً من أُصول الإسلام وقواعده فحسب، بل إنّ جميع أُصول الإسلام وفروعه، وجميع برامجه المتنوعة، تدور حول محور التوحيد، وتنطلق منه وتنتهي إليه، فالتوحيد روح سارية في كيان التعاليم الإسلامية برمّتها، والتوحيد هو الأساس الحضاري الذي تقوم عليه مبادىء الإسلام عامّته.

ولكن هذا الدين الذي يتألّف من أقصاه إلى أقصاه من عنصر الوحدة والاتحاد قد وقع اليومَ - مع شدّة الأسف - فريسة بأيدي مفرّقي الصفوف، ومثيري الاختلاف بحيث فَقَدَ وجهه الحقيقي.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٧٨٣. (٢) المصدر السابق، ص ٧٨٣.

فبين يوم وآخر ينعق ناعق، ويثير نغمةً جديدة خبيثة، ويقوم معقّد أو معتوه أو غبيّ ويخالف حكماً من أحكام الإسلام، وبرنامجاً من برامجه، فيلتف حوله فريق من الجهلة والبسطاء، فيفرز تمزّقاً جديداً.

على أنّ للجهل الذي يعاني منه فريق من العامّة دوراً مؤثّراً في هذه التفرقة والاختلافات، لا يقل عن تأثير ذكاء الأعداء وفطنتهم ويقظتهم في إذكاء التمزّق الداخلي.

فربّما طرح البعض أُموراً أكل عليها الدهر وشرب، من جديد، وأحدثوا حولها ضجّة غبيّة ليشغلوا بها بال الناس، ولكن الإسلام - كما صرّحت الآية - غريب عن أعمالهم، وأعمالهم غريبة عن الإسلام، وستفشل في المآل كلّ محاولات المفرّقين للصفوف، وتذهب أدراج الرياح، ولن يحصدوا منها سوى الخيبة والخسران.

حملات كاتب «المنار» الظالمة على الشّيعة

يعاني كاتب تفسير المنار من سوء ظن بالغ الشدّة بالنسبة إلى الشيعة، وبنفس القدر يعاني من الجهل بعقائد الشيعة وتاريخهم.

ففي ذيل هذه الآية يعقد فصلاً حول الشيعة تحت غطاء الدعوة إلى الاتحاد، ويصفهم بأنّهم يفرّقون الصفوف ويخالفون الإسلام، وأنّهم ممن يعملون ضدّ الإسلام ويقومون بنشاطات سياسية تخريبية تحت غطاء المذهب والعقيدة الدّينية، وكأنّ وجود كلمة «شيعاً» في الآية الحاضرة والتي ليس لها أيّ ارتباط بقضية التشيع والشيعة ذكّره بهذه الأُمور التافهة، فاندفع يتّهم هذه الجماعة المؤمنة من دون تورّع.

إنّ كتاباته أفضل جواب على أقواله، وخير شاهد على عدم معرفته بعقائد الشيعة، وتأريخهم، وذلك لأنّه:

١ - يربط بين الشّيعة و«عبد الله بن سبأ» اليهودي المشكوك في أصل وجوده من وجهة نظر التّأريخ، والذي ليس له - على فرض وجوده - أدنى دور في تاريخ التشيع والشيعة!

بينما نجده من جانب آخر يربط بين الشيعة و«الباطنية» بل حتى بين الشيعة والفرقة البهائية التي هي أعدى أعداء الشيعة، والحال أنّ من له أدنى معرفة بتاريخ الشيعة يعلم أنّ هذه الأحاديث والمزاعم ليست سوى مزاعم وأحاديث خيالية وهمية، بل محض افتراء واتهام واختلاق.

والأعجب من كل ذلك هو أنّ هذا الكاتب يربط بين جماعة «الغلاة» (وهم الذين يرفعون علياً عليه السلام إلى درجة الأُلوهية غلوّاً) وبين الشيعة في حين أنّ الفقه الشيعي أفرز فصلاً للغلاة تحت عنوان إحدى الفرق والطوائف المقطوع بكفرها، ويتهم الشيعة بأنّهم يعبدون أهل البيت، وغير ذلك من النسب الباطلة الرخيصة.

إنّ من المسلّم أنّ كاتب «المنار» لو لم يكن قد تأثّر بالأحكام المتسرّعة والعصبيات العمياء، وسمح لنفسه بأن يسمع عقائد الشيعة من أفواههم أنفسهم، ويأخذها منهم، ويستقرئها من كتبهم لا من كتب أعدائهم لعرف جيّداً بأنّ ما نسبه إلى الشيعة ليس مجرّد افتراءات وأكاذيب، بل هو مهازل مضحكة.

والأعجب من ذلك كلّه أنّه عزا نشأة التشيع إلى الإيرانيين، على أنّ التشيع كان فاشياً في العراق والحجاز ومصر قبل أن يتشيع الإيرانيون بقرون مديدة، والوثائق التّاريخية شواهد حيّة على هذه الحقيقة.

٢ - إنّ ذَنْب الشيعة هو أنّهم عملوا بما صدر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قطعاً، والذي ورد - كذلك - في أوثق المصادر السنيّة وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّي تارك فيكم الثقلين ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي»[(١)].

إنَّ ذَنْب الشيعة هو أنّهم يعتبرون أهل البيت النبوي أدرى وأعرف من غيرهم بدين النّبي ورسالته، فجعلوهم الملجأ والمرجَع في المشاكل الدينية، وأخذوا عنهم حقائق الإسلام.

إنّ ذنب الشيعة هو أنّهم فتحوا باب «الاجتهاد» أخذاً بحكم المنطق والعقل، والقرآن والسنّة وبذلك منحوا الفقه الإسلامي فاعلية متحركة، ولم يحصروه بـ «أربعة أشخاص» ويجبروا الناس على اتّباعهم.

أليست خطابات القرآن والسُّنّة موجّهة إلى عموم المؤمنين في جميع الدهور والعصور؟

أم هل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتّبعون في فهم الكتاب والسُّنّة أشخاصاً معيّنين، فلماذا نحصر الإسلام في حصار قديم من الجمود باسم «المذاهب الأربعة» الحنفي، الحنبلي، المالكي، الشّافعي؟!

---

(١) راجع صحيح الترمذي: ج ٣ ص ١٠٠، وسنن البيهقي: ج ١، ص ١٣ وج ٢، ص ٤٣١، وكنز العمال: ج ١، ص ١٥٤ و١٥٩، والطبقات الكبرى لابن سعد: ج ٢، ص ٢ وكتباً أُخرى.

إنّ ذَنب الشيعة هو أنّهم يقولون: إنّ صحابة رسول الله ﷺ مثل سائر المسلمين يجب أن يقيَّموا بمقياس إيمانهم وفي ضوء أعمالهم، فمن وافق عمله الكتابَ والسنّة كان صالحاً، ومن خالف عمله الكتاب والسُّنّة - سواء أكان في عصر النّبي ﷺ أو جاء بعده - رُفِضَ وطُرِدَ، ولا تكفي مجرّد الصحبة ليتستر بها المجرمون والجناة، فلا يجوز أن يقدَّسَ ويُحتَرم رجال كمعاوية الذي داس كلّ القيم وتجاهل جميع الضوابط الإسلامية، وخرج على إمام زمانه الذي رضيت به الأُمّة الإسلامية، وعلى الأقل في ذلك العصر (ونعني علياً عليه السلام)، وأراق تلك الدّماء الكثيرة!. . . لا يجوز تقديس هذا الشخص وأمثاله لمجرّد صحبته لرسول الله ﷺ، ولا بعض الصحابة المرتزقة ممن والاه وسار في ركابه.

نعم هذه هي ذنوب الشيعة وهم يعترفون بها، ولكن هل وجدتم في عالمنا هذا من هو أشدّ مظلوميّةً من الشيعة؟ بحيث تُعتَبَر أَفضَل نقاط القوّة في تاريخها وعقائدها نقاط ضعف، ويكيلون لها سيلاً من الاتهامات والأكاذيب، بل ولا يسمحون لها بأن تنشر معتقداتها في أوساط المسلمين وتعرضها عليهم بحرية، كما يفعل غيرها من الطوائف، بل يأخذون عقائدها من غيرها.

ترى إذا عملت جماعة بأمر نبيّهم في حين لا يعمل الآخرون به، فهل يعتبر عمل تلكم الجماعة تفريقاً للصفوف، وشقّاً لعصا الأُمّة؟ وهل يجب صرفُ هذه الجماعة عن مسارها ليتحقق الاتحاد، أو تقويم من يسلك غير سبيل المؤمنين؟

٣ - إنَّ تاريخ العلوم الإسلاميَّة يشهد أنّ الشيعة كانوا السبّاقين في أكثر هذه العلوم والمعارف إلى درجة أنّه اعتبِرَ الشيعة، البناة المؤسسين لعلوم الإسلام[١].

إنّ الكتب التي أَلّفها علماء الشيعة في مجال التّفسير والتّأريخ، والحديث والفقه، والأُصول، والرجال والفلسفة الإسلامية، ليست أُموراً يمكن تجاهلها وإنكارُها أو إخفاؤها، فهي موجودة في جميع المكتبات (اللّهم إلّا أكثر مكتبات أهل السُّنّة الذين لا يسمحون عادة بدخول هذه المؤلّفات والكتب إلى مكتباتهم، في حين أنّنا نسمح بدخول مؤلفاتهم إلى مكتباتنا منذ قرون مديدة) وهذه الكتب شواهد حيّة على ما ذكرناه.

---

(١) للوقوف على أدلة هذا الموضوع راجع كتاب «تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام»، وكتاب «أصل الشيعة وأُصولها».

فهل هؤلاء الذين صنّفوا وألّفوا كلّ هذه الكتب حول الإسلام وتعاليمه، في سبيل نشرها وبثّها وتعميقها، كانوا أعداءً للإسلام؟

وهل عرفتم عدوّاً يحبّ الإسلام بهذه الدرجة؟!

أم هل يستطيع أحدٌ أن يخدم الإسلام الحنيف بمثل هذه الخدمةِ الكبيرةِ، إذا لم يكن محبّاً مخلِصاً، وعاشِقاً متيّماً؟!

هذا ونقول في ختام حديثنا: إذا أردتم أن نزيل كل هذا الاختلاف والفرقة تعالوا نعمل شيئاً آخر بدل التراشق بالاتهامات، وذلك أن يتعرّف بعضنا على بعض ويفهم بعضنا بعضاً، لأنّ مثل هذه النسب والافتراءات الباطلة ليس من شأنها أن تحقق الوحدة الإسلامية، بل توجّه ضربة قاضية إلى أُسس الوحدة الإسلامية.

ثواب أكثر، عقاب أقلّ

في الآية اللاحقة إشارة إلى الرحمة الإلهيّة الواسعة، وإلى الثواب الإلهي الواسع الّذي ينتظر الأفراد الصالحين المحسنين، وقد عقّبت التهديدات المذكورة في الآية بهذه التشجيعات: ﴿مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.

ثمّ قال: ﴿وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾.

وللتأكيد يضيف هذه الجملة أيضاً فيقول: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وإنّما يعاقبون بمقدار أعمالهم.

وأمّا ما هو المراد من «الحسنة» و«السّيئة» في الآية الحاضرة وهل هما خصوص «التوحيد» و«الشرك» أو معنًى أوسَع؟ فبين المفسّرين خلاف مذكور في محلّه، ولكن ظاهر الآية يشمل كل عمل صالح وفكر صالح وعقيدة صالحة أو سيئة، إذ لا دليل على تحديد أو حصر الحسنة والسيئة.

بحوث

وها هنا نكاتٌ يجب التَّوجُّه إليها والتوقف عندها:

١ - إنّ المقصود من قوله: «جاء به»

كما يستفاد من مفهوم الجملة هو أن يجيء بالعمل الصالح أو السيّئ معه، يعني إذا مثل الإنسان أمامَ المحكمة الإلهيّة العادلة يوم القيامة فإنّه لا يحضر بيد فارغة خالية من

العقيدة والعمل الصالحين، أو عقيدة وأعمال طالحة، بل هي معه دائماً، ولا تنفصل عنه أبداً، فهي قرينته في الحياة الأبديّة وتحشر معه.

لقد استعمل مثل هذا التعبير في الآيات القرآنية الأُخرى بهذا المعنى أيضاً. . . ففي الآية (٣٣) من سورة (ق) نقرأ قوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ إنّ الجنّة لمن آمن بالله عن طريق الإيمان بالغيب، وخافه وأتى إلى ساحة القيامة بقلب تائب مملوء بالإحساس بالمسؤولية.

٢ - أجر الحسنة، عشرة أضعاف

نقرأ في الآية الحاضرة أنّ الحسنة يُثابُ عليها بعشرة أضعافها، بينما يُستفاد من بعض الآيات القرآنية أنّه اقتُصِرَ على عبارة ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ من دون ذكر عدد الأضعاف (كما في الآية ٢٤٥ من سورة البقرة) وفي بعض الآيات بلغ ثواب بعض الأعمال مثل الإنفاق إلى سبعمائة ضعف (كما في الآية ٢٦١ من سورة البقرة) بل ربّما إلى أكثر من ذلك مثل قوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١).

إنّ من الواضح أنّه لا تناقض بين هذه الآيات أبداً، إذ إنّ أقل ما يعطى للمحسنين هو عشرة أضعاف الحسنة، وهكذا يتصاعد حجم الثواب مع تعاظم أهمّية العمل والحسنة، ومع تعاظم درجة الإخلاص، ومع ازدياد مقدار السعي والجهد المبذول في سبيل العمل الصالح، حتى يصل الأمر إلى أن تتحطم الحدود والمقادير، ولا يعلم حدّ الثواب ومقداره إلّا الله تعالى.

فمثلاً الإنفاق الذي يَحظى بأهمّية بالغة في الإسلام يتجاوز مقدار ثوابه الحدّ المتعارف للعمل الصالح الذي هو عشرة أضعاف الحسنة، ويصل إلى «الأضعاف الكثيرة» أو «سبعمائة ضعف» وربّما أكثر من ذلك.

إن حركة الإنسان في خط الاستقامة هي أساس جميع النجاحات والسعادات، ولا تبقى عقيدة أو عمل صالح بدونها، وقد ذكر القرآن لها ثواباً خارجاً عن حدّ الإحصاء والحساب.

ومن هنا أيضاً يتّضح عدم المنافاة بين هذه الآية وبين الرّوايات التي تذكر لبعض الأعمال الحسنة مثوبة أكثر من عشرة أضعاف.

كما أنّ ما نقرؤه في الآية (٨٤) من سورة القصص في قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ

---

(١) سورة الزمر، الآية: ١٠.

فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ لا ينافي الآية الحاضرة حتى نحتاج إلى القول بنسخ الآية، لأنّ للخير معنًى واسعاً يتلاءم مع عشرة أضعاف أيضاً.

٣ - لماذا كفارة يوم واحد ستين يوماً؟

ربّما يتصور البعض: أنّ وجوب صوم «ستين يوماً» من باب الكفارة في مقابل إفطار يوم من شهر رمضان، والعقوبات الأُخرى في الدنيا والآخرة من هذا القبيل، لا تتلاءم مع الآية الحاضرة التي تقول: السيئة تجازى بمثلها فقط.

ولكن مع الالتفات إلى نقطة واحدة يتّضح جواب هذا الاعتراض أيضاً وهي أنّ المراد من المساواة بين «المعصية والعقوبة» ليس هو المساواة العددية، بل لابدّ من أخذ كيفية العمل أيضاً بنظر الاعتبار.

إنّ إفطار يوم واحد من أيّام شهر رمضان المبارك مع ما له من الأهميّة، ليست عقوبته صوم يوم واحد بدله من باب الكفارة، بل عليه أن يصوم أيّاماً عديدة حتى تساوي مبلغ احترام ذلك اليوم من شهر رمضان المبارك، ولهذا نقرأ في بعض الرّوايات أنّ عقوبة الذنوب في شهر رمضان أشد وأكبر من عقوبة الذنوب في الأيّام والأشهر الأُخرى. كما أنّ ثواب الأعمال الصالحة في تلك الأيام أكثر وأزيد، إلى درجة أنّ ثواب ختمة واحدة للقرآن في هذا الشهر يعادل ثواب سبعين ختمة للقرآن في الأشهر الأُخرى.

٤ - منتهى اللّطف الرّباني

إنّ النقطة الأجمل في المقام هي أنّ الآية الحاضرة جسّدت منتهى اللطف والرحمة الإلهيّة في حقّ الإنسان.

فهل عرفت أحداً بيده كل أزمّة الإنسان وشؤونه، كما أنّه محيط بجميع أعماله وشؤونه، يبعث قادة ومرشدين معصومين لهدايته وإرشاده، ليوفّق إلى الإتيان بالعمل الصالح في هدي رُسُله، مستفيداً من الطاقة الإلهيّة الممنوحة له، مع ذلك يثيبه على حسناته بعشر أمثالها، ولكنّه لا يجازيه على السيئة إلّا بمثلها، ثمّ يجعل باب التوبة ونيل العفو مفتوحاً في وجهه؟!

يقول أبو ذر: قال الصادق المصدَّقَ [أي رسول الله ﷺ]: «إنّ الله قال الحسنة عشر أو أزيد، والسيئة واحدة أو أغفرُ، فالويل لمن غلبت آحادهُ أعشارَه»(١).

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٢٠٥ و٣٩٠.

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾

التّفسير

هذا هو طريقي المستقيم

هذه الآية والآيات الأُخر التي سنقرؤها فيما بعد والتي ختمت بها سورة الأنعام، تعتبر خلاصة الأبحاث المطروحة في هذه السورة التي بدأت وانتهت بمكافحة الشِّرك والوثنية، وتركّزت أحاديثها على توضيح هذا الأمر. فقد بدأت هذه السورة بالدعوة إلى التوحيد ومكافحة الشِّرك، وختمت بنفس ذلك البحث أيضاً.

ففي البداية أمرت رسول الله ﷺ بأن يقول في مواجهة معتقدات المشركين والوثنيين ومزاعمهم الجوفاء والعارية عن المنطق السليم: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي طريق التوحيد، ورفض كلّ أشكال الشرك والوثنية.

والجدير بالذكر أنّ هذه الآية وطائفة كبيرة من الآيات السابقة واللاحقة لها تبدأ بجملة: ﴿قُلْ﴾ ولعلّه لا توجد في القرآن الكريم سورة كررت فيها هذه الجملة بهذا القدر مثل هذه السورة، وهذا يعكس في الواقع مدى شدّة المواجهة بين رسول الله ﷺ وبين منطق المشركين.

كما أنّه يسُدُّ كل أبواب العذر في وجوههم، لأنّ تكرار كلمة ﴿قُلْ﴾ علامة على أنّ كل ما يقوله لهم رسول الله ﷺ إنّما هو بأمر الله، بل هو عين كلام الله، لا أنّها آراء رسول الله ﷺ وأفكاره وقناعاته الشخصية.

ومن الواضح أنّ ذكر كلمة ﴿قُلْ﴾ في هذه الآيات وأمثالها في نص القرآن، إنّما هو لحفظ أصالة القرآن، وللدلالة على أنّ ما يأتي بعدها هو عين الكلمات التي أُوحيت إلى رسول الله.

وبعبارة أُخرى: الهدف منها هو الدلالة على أنّ رسول الله ﷺ لم يحدث فيها أيّ

تغيير في الألفاظ التي أُوحيت إليه، وحتى كلمة ﴿قُلْ﴾ التي هي خطاب إليه قد ذكرها عيناً.

ثمّ إنّه تعالى يوضّح «الصراط المستقيم» في هذه الآية والآيتين اللاحقتين.

فهو يقول أوّلاً: إنّه الدين المستقيم الذي هو في نهاية الصحة والاستقامة، وهو الأبدي الخالد القائم المتكفل لأُمور الدين والدنيا والجسد والروح: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾[1].

وحيث إنّ العرب كانوا يكنّون لإبراهيم عليه السلام محبّة خاصّة، بل كانوا يصفون عقيدتهم ودينهم بأنّه دين إبراهيم، فهذا هو الذي أدعو أنا إليه لا ما تزعمونه: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

إبراهيم عليه السلام الذي أعرض عن العقائد الخرافية التي كانت سائدة في عصره وبيئته، وأقبل على التوحيد ﴿حَنِيفًا﴾.

و«الحنيف» يعني الشخص أو الشيء الذي يميل إلى جهة ما، وأمّا في المصطلح القرآني فيطلق هذا الوصف على من يعرض عن عقيدة عصره الباطلة ويولّي وجهه نحو الدين الحق والعقيدة الحقّة.

وكأنّ هذا التعبير جواب وردّ على مقالة المشركين الذين كانوا يعيبون على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مخالفته للعقيدة الوثنية التي كانت دين أسلافهم من العرب، فقال النّبي في معرض الردّ على مقالتهم هذه، بأنّ نقض السُّنن الجاهلية والإعراض عن العقائد الخرافية السائدة في البيئة ليس هو من فعلي فقط، بل كان إبراهيم - الذي نحترمه جميعاً - كذلك أيضاً.

ثمّ يضيف للتأكيد قائلاً: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، بل هو بطل الكفاح ضد الوثنية، وحامل الحرب ضد الشرك، الذي لم يفتأ لحظةً واحدة عن محاربته وكفاحه.

إنّ تكرار جملة ﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في عدّة موارد من آيات القرآن الكريم مع قوله: «مسلماً» أو بدونها، إنّما هو للتأكيد على هذه المسألة وهي أنّ إبراهيم الذي يفتخر به العرب الجاهليون مبرّأ ومنزّه عن كل هذه العقائد والأعمال الخاطئة[2].

---

(١) ﴿قِيَمًا﴾ قد تأتي أيضاً بمعنى الاستقامة، وقد تأتي بمعنى الثبات والدوام وكذلك تأتي بمعنى القائم بأمور الدين والدنيا.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣٥، وآل عمران، الآيتان: ٦٧ و٩٥.

الآية اللاحقة تشير إلى أنّه على النّبي أن يقول: إنّي لست موحّداً من حيث العقيدة فحسب، بل إنّي أعمل كل عمل صالح: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾، فأنا أحيى لله، وله أموت، وأفدي بكل شيء لأجله، وكل هدفي وكل حبّي بل كل وجودي له.

و«النُّسُك» يعني في الأصل العبادة، ولذا يقال للعابد: ناسك، ولكن هذه الكلمة تطلق في الأغلب على أعمال الحج فيقال: مناسك الحج.

وقد احتمل البعض أن يكون المراد من «النُّسُك» هنا هو «الأُضحيّة»، ولكن الظاهر أنّه يشمل كل عبادة، وهو إشارة أوّلاً إلى الصّلاة كأهم عبادة، ثمّ إلى سائر العبادات بشكل كلّي، يعني صلاتي وكل عباداتي، بل وحتى موتي وحياتي كلها له تعالى.

ثمّ في **الآية الثالثة** يضيف للتأكيد، وإبطالاً لأيّ نوع من أنواع الشرك والوثنية قائلاً: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾.

ثمّ يقول في ختام الآية: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

كيف كان النّبيُّ أوّل مسلم؟

في الآية الحاضرة وُصِف رسول الله ﷺ بأنّه أوّلُ المسلمين.

وقد وقع بين المفسّرين كلام حول هذه المسألة، لأنّنا نعلم أنّه إذا كان المقصود من «الإسلام» هو المعنى الواسع لهذه الكلمة فإنّه يشمل جميع الأديان السماويّة، ولهذا يُطلَق وصف المسلم على الأنبياء الآخرين أيضاً، فإنّنا نقرأ حول نوح عليه السلام: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1].

ونقرأ حول إبراهيم الخليل عليه السلام وابنه إسماعيل أيضاً: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾[2].

وجاء في شأن يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾[3].

على أنّ «المسلم» يعني الذي يسلّم ويخضع أمام أمر الله، وهذا المعنى يصدق على جميع الأنبياء الإلهيين وأُممهم المؤمنة، ومع ذلك فإنّ كونَ رسول الإسلام أوّلَ المسلمين، إمّا من جهة كيفية إسلامه وأهميّته، لأنّ درجة إسلامه وتسليمه أعلى وأفضل من الجميع، وإمّا لأنّه كان أوّل فرد من هذه الأُمّة التي قبلت بالإسلام والقرآن.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٧٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.
(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠١.

وقد ورد في بعض الرّوايات - أيضاً - أنّه ﷺ أوّل من أجاب في الميثاق في عالم الذّر، فإسلامه متقدّم على إسلام الخلائق أجمعين(١).

وعلى أيّ حال فإنّ الآيات الحاضرة توضّح روح الإسلام، وتعكس حقيقة التعاليم القرآنية وهي: الدعوة إلى الصراط المستقيم، والدعوة إلى دين محطم الأصنام إبراهيم، والدعوة إلى رفض أيّ نوع من أنواع الشّرك والثنوية... هذا من جهة العقيدة والإيمان.

وأمّا من جهة العمل: الدّعوة إلى الإخلاص، وإلى تصفية النيّة، والإتيان بكل شيء لله تعالى، والحياة لأجله، والموت في سبيله، وطلب كل شيء منه، ومحبّته، والانقطاع إليه، وعن غيره، والتولّي له، والتبرؤ من غيره.

فما أكبر الفرق بين ما جاء في الدعوة الإسلامية الواضحة، وبين أعمال بعض المتظاهرين بالإسلام الذين لا يفهمون من الإسلام سوى التظاهر بالدين، ولا يفكّرون في عباداتهم إلّا في الظاهر، ولا يعتنون بالباطن والحقيقة، ولهذا فليس حياتهم ومماتهم واجتماعهم ومفاخرهم وحريتهم سوى قشور خاوية لا غير.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

التّفسير

إنّ التأكيدات المتتابعة المتوالية والاستدلالُ المتنوّع في هذه السورة في صعيد التوحيد ومكافحة الشرك تنبىء عن أهمّية كبرى للموضوع.

وهذه الآية شجبت منطق المشركين من طريق آخر، حيث قال سبحانه لنبيّه: قل لهم واسألهم: هل من الصحيح أن أطلب ربّاً غير الله الواحد في حين أنّه هو المالك والمربّي، وهو ربّ كل شيء وبيده أزمّة جميع الكائنات، وحكمه جار في جميع ذرّات الوجود بلا استثناء: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾؟

ثمّ إنّه يردّ على جماعة من المشركين المتحجرين ممن قالوا لرسول الله ﷺ: اتّبِعْنا

(١) تفسير الصافي، ج ٢، ص ١٧٧، ذيل الآية مورد البحث.

وعلينا وِزرَكَ إن كان خطأً، قائلاً: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فلا يعمل أحد إلّا لنفسه، ولا يحمل أحد وزر أحد.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فمآلكم إليه وهو يخبركم عن جميع ما اختلفتم فيه.

بحثان

إنّ ها هنا نقطتين يجب أن نقف عندهما ونلتفت إليهما:

١ - ربّما حملنا وزر غيرنا

قد يتوهمّ أنّ الآية الحاضرة التي تبيّن أصلين من الأُصول المنطقية المسلّمة لدى جميع الأديان والشرائع (أي مبدأ: لا يعمل أحد إلّا لنفسه، ولا يعاقب أحد بذنب غيره) تتنافى مع القرآنية الأُخرى، كما لا توافق جملة من الرّوايات في هذا المجال، لأنّ الله تعالى يقول في سورة النحل الآية (٢٥): ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

فإذا لم يحمل أحدٌ وزر أحد فكيف يحمل هؤلاء المضلّون وزر الضالّين أيضاً.

كما أنّ الأحاديث المرتبطة بـ«السُّنّة الحَسنة» و«السُّنّة السيئة» المروية بطرق الشيعة والسُّنّة، تتنافى مع مفهوم الآية الحاضرة كقول رسول الله ﷺ: «من سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً كان لَهُ أجر من عَمِلَ بها من غير أن ينقصَ من أُجورهم شيء، ومن سَنَّ سُنّةً سيئة كان عليه وزرُ مَن عمل بها من غير أن ينقصَ من أوزارِهم شيءٌ»[1].

ولكن الإجابة على هذا السؤال واضحة، فإنّ الآية المبحوثة هنا تقول: إنّه لا يحمل أحد وزر أحد من دون سبب، ولكن الآيات والرّوايات المشار إليها سلفاً تقول: إذا كان الإنسان مؤسِّساً لعمل صالح أو سيّئ يعمل وفقه الآخرون، أي كان له «التسبيب» والدلالة في قيام الآخرين بعمل معيّن، وكانت له بالتالي دخالة في وقوعه، فإنّه - بلا شكّ - يشترك معهم في نتائجه وعواقبه، لأنّه يعتبر - في الحقيقة - عمله وفعله، فلا مناص من أن يتحمّل تبعاته إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ، لأنّه هو الذي وضع بيده أساسه الذي قام عليه صرح العمل، وارتفع بنيانه.

---

(١) أُصول الكافي، ج ٥، ص ٩.

٢ - هل أنّ أعمال الآخرين الصالحة تنفعنا؟

إنّ التوهّم الآخر الذي يمكن أن يخالج الأذهان حول هذه الآية هو: أنّ الآية تقول: إنّ عَمَلَ كل إنسان لا ينفع إلّا نفسه، وعلى هذا فإنّ الأعمال الصالحة التي تهدى إلى الأموات، بل وحتى الأحياء أحياناً، لا يمكن أن تنفعهم، في حين نقرأ في روايات كثيرة مروية عن طريق الشيعة والسُّنّة عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة من أهل البيت عليهم السلام أنّ مثل هذه الأعمال قد تنفع الآخرين، وإنّ هذا ينطبق على الجميع، فلا ينحصر بعمل الولد لوالديه، بل يشمل كل من يعمل عملاً ويهدي ثوابه للآخرين.

هنا مضافاً إلى أنّنا نعلم أنّ الثواب يرتبط بتأثير العمل الصالح المأتي به على روح الإنسان ودوره في تكامل الإنسان ورقيّه، ولكنّ الذي لم يعمل عملاً صالحاً قط، بل ولم يكن له أيّة دخالة في مقدماته كذلك، فكيف يمكن أن ينشأ منه أثر روحي ومعنوي؟؟

ولقد واصل البعض طرح هذا الإشكال بصورة مسهبَة، ولم يكن الأفراد العاديون وحدهم هم الذين طرحوه، بل تأثّر به بعض المفسّرين والكتّاب، مثل كاتب «المنار» إلى درجة أنّهم تناسوا كثيراً من الأحاديث والرّوايات المسلّمة، ولكن مع الالتفات إلى نقطتين يتّضِح الجواب على هذا الإشكال:

١ - صحيح أنّ عمل كل إنسان سبب لتكامله بالخصوص، وأنّ نتائج الأعمال الصالحة وآثارها الواقعية عائدة إلى القائم بالعمل الصالح، تماماً كما تكون «الرّياضة»، و«التّعليم والتّربية» من كل أحد سبباً لتقوية جسم فاعلها وروحه ونفسه، وتكاملهما.

ولكن عندما يَعمل أحدٌ عَمَلاً صالحاً لشخص آخر، فإنّه إنّما يفعله حتماً لأجل أنّ ذلك الشخص يمتلك امتيازاً على غيره وصفةً حسنةً، أو لأنّه كان مربّياً صالحاً، أو تلميذاً صالحاً، أو صديقاً طيّباً أو جاراً وفيّاً له، أو كان عالماً خدوماً للمجتمع، أو مؤمناً مخلصاً، أو يمتلك أدنى حدٍّ من الصلاح في حياته، يوجب جلب أنظار الآخرين، ويسبّب في أن يعملوا أعمالاً صالحة ويهدونها إليه.

وعلى هذا فذلك العمل - في الحقيقة - إنّما يكون نتيجة لذلك الامتياز، ونتيجة للصفة الحسنة المذكورة، وللنقطة المضيئة في شخصيته وحياته، ولهذا يكون قيام الآخرين بالأعمال الصالحة له إنّما هو أشعّة من ضوء عمله الطيّب أو نيّته الصالحة، ونتيجة لتلك الخصلة الحسنة التي يتّصف بها.

٢ - المثوبات التي يعطيها الله تعالى للأشخاص على نوعين: مثوبات تتناسب مع وضع تكاملهم الروحي وصلاحيتهم، يعني أنّ أرواحهم ونفوسهم قد تسمو بسبب قيامهم بالأعمال الصالحة سمّواً كبيراً، وترتقي في سلّم الكمال رقيّاً عظيماً إلى درجة يصلحون للعيش في عوالم أعلى وأفضل، ويرتفعون بما صنعوه على أجنحة العقيدة والعَمَل الصالح.

ولكن حيث إنّ أيَّ عمل صالح هو إطاعةٌ لأمر الله سبحانه، ويستحق المطيع لإطاعته أجراً ومثوبة، فإنّه يمكنه أن يهدي ذلك الثوابُ والأجر إلى غيره بإرادته ورغبته، تماماً، مثل أستاذ متخصّص في شعبة مهمّة من العلوم يدرّس في جامعة من الجامعات، فإنّه لا ريب في أنّه يصل بتدريسه إلى نتيجتين:

فهو من جهة يصل - في ضوء تدريسه - إلى درجات علمية أكمل وأقوى، وهو في نفس الوقت يحصل على أموال لقاء خدمته، ولا ريب في أنّه لا يستطيع أن يهدي النتيجة الأُولى لأحد لأنّها خاصّة به، ولكنّه يمكنه أن يقدّم (أو يهدي) النتيجة الثانية إلى من يرغب ويحب.

إنَّ إهداء (ثواب) الأعمال الصالحة من جانب العاملين بها إلى الأموات، بل وإلى الأحياء أحياناً، إنّما هو من هذا النمط ومن هذا القبيل.

وبهذا يرتفع وينتفي أيّ إبهام يحوم حول هذه الأحاديث.

ولكن يجب أن نعلم بأنّ المثوبات التي تصل إلى الآخرين عن هذا الطريق لا يمكن أن تضمن سعادتهم، بل تُصيبهم منها آثارٌ قليلة، والأصل والأساس في نجاتهم إنّما هو إيمانهم وعملهم أنفسهم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾

التّفسير

في هذه الآية التي هي آخر الآيات من سورة الأنعام إشارة إلى أهميّة مقام الإنسان ومكانته في عالم الوجود لتكميل الأبحاث الماضية في مجال تقوية دعائم التوحيد، ومكافحة الشّرك، يعني أن يعرف الإنسان قيمةَ نفسه، كأرقى وأفضل كائن في عالم

الخلق، ولا يسجد للخشب والحجر، ولا يركع أمام الأصنام المختلفة الأُخرى، ولا يقع في أسرها، بل يكون أميراً وحاكماً عليها بدل أن يكون أسيراً ومحكوماً لها.

لهذا قال تعالى في مطلع كلامه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾(١).

إنّ الإنسان الذي هو خليفة الله في أرضه، والذي سُخِّرت له كل منابع هذا العالم وصدر الأمر بحكومته على جميع الموجودات من جانب الله تعالى، لا يجوز أن يسمح لنفسه بالسقوط إلى درجة السجود للجمادات.

ثمّ أشار سبحانه إلى اختلاف المواهب والاستعدادات في المواهب البدنية والروحية لدى البشر، والهدف من هذا الاختلاف والتفاوت، فيقول: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ من المواهب المتنوعة والمتفاوتة ويختبركم بها.

ثمّ تشير في خاتمة الآية الحاضرة إلى حرية الإنسان في اختيار طريق السعادة وطريق الشقاء نتيجة هذه الاختبارات والابتلاءات، إذ يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾، فإنّ ربّك سريع العقاب مع الذين يفشلون في هذا الاختبار، وغفور رحيم للذين ينجحون فيه ويسعون لإصلاح أخطائهم.

التفاوت بين أفراد البشر ومبدأ العدالة

لا شكَّ أنَّ بين أفراد البشر طائفة من الاختلافات والفوارق المصطنعة، التي هي نتيجة المظالم التي يمارسها بعض أفراد البشر ضد الآخرين، فهناك مثلاً جماعة يمتلكون ثروات هائلة، وجماعات أُخرى تعاني من الفقر المدقع، جماعة يعانون من الجهل والأُمّية بسبب عدم توفّر مستلزمات الدراسة، وجماعة أُخرى تبلغ المراتب العليا في الثقافة والعلم بسبب توفّر كلِّ الوسائل اللازمة للتحصيل والدراسة.

جماعةٌ يعانون من المَرضَ والعِلّة بسبب سوء التغذية وندرة الوسائل الصحيّة، في حين يحظى أفراد معدودون بقدر كبير من السلامة والعافية، بسبب توفّر جميع الإمكانيات.

إنّ مثل هذه الفوارق والاختلافات: الثروة والفقر، والعلم والجهل، والسلامة

---

(١) «الخلائف» - كما في المفردات للراغب - جمع خليفة «وخلفاء» جمع «خليف» وهما بمعنى من يقوم مقام أحد بعده، والتاء المضافة إلى الكلمة تفيد المبالغة، وقال جمع آخر من أهل اللغة: الخلائف جمع خليف وخليفة.

والمرض، هي في الأغلب وليدة الاستعمار والاستثمار، وهي مظاهر مختلفة للعبودية والمظالم الظاهرة والخفية.

إنَّ من المسلَّم أنه لا يُمكن أن تعتبر هذه الأُمور من فعل المشيئة الإلهيّة، وليس من الصحيح مطلقاً الدفاع عن مثل هذه الاختلافات غير المبرَّرة أساساً.

ولكن في نفس الوقت لا يمكن إنكار أنّه حتى لو روعيت جميع أُصول العدالة في المجتمع الإنساني - أيضاً - فإنّه لا يتساوى الناس جميعاً من حيث القابليات ومن حيث الفكر، والذوق، والذكاء، والسليقة وحتى من جهة التركيب البدنيّ.

ولكن هل وجودُ هذه الاختلافات والفوارق مخالفٌ لمبدأ العدالة، أو أنّه على العكس يكون هو العدل بمعناه الواقعي، يعني أنّ مبدأ وضع كل شيء في محلّه يوجب أن يكون الأفراد غير متساوين.

إذا كان جميع الأفراد في المجتمع الإسلامي متساوين ومتشابهين في المواهب والقابليات كالقماش أو الأواني التي تخرج من مصنع واحد، كان المجتمع الإنساني - حينئذ - مجتمعاً ميّتاً ساكناً جامداً عارياً عن التحرّك والتكامل.

انظروا إلى نبتة الورد، فهناك جذور قويّة متينة، وسوق رقيقة، ولكنّها متينة نوعاً مّا، وفروع ألطف، ثمّ أوراق وأوراد بعضها ألطف من بعض، وهذه المجموعة المتنوعة في تراكيبها والمختلفة في متانتها ولطافتها تشكّل نبتة وردة جميلة تختلف فيها الخلايا بحسب اختلافها في وظائفها، وتختلف فيها القابليات والاستعدادات بحسب اختلافها ووظائفها.

إنّ نفس هذا الموضوع يلحظ في العالم البشري، فأفراد البشر يشكّلون من حيث المجموع شجرةً كبيرةً واحدةً يقوم كل فرد برسالة خاصّة في هذا الصرح العظيم، وله بنيان مخصوص يتلاءم مع وظائفه.

ولهذا يقول القرآن الكريم: إنّ هذه الفوارق وهذا التفاوت وسيلة لاختباركم وامتحانكم، لأنّ الاختبار والامتحان الإلهي - كما قلنا سابقاً - يعني «التربية».

وبهذا يُجاب على كل اعتراض وإشكال يورَد في المقام على أثر الفهم الخاطىء لمفهوم الآية.

خلافة الإنسان في الأرض

إنّ النقطة الأُخرى الجديرة بالاهتمام، هي أنّ القرآن الكريم وصف الإنسان مراراً بأنّه خليفة الله في أرضه، إنّ هذا الوصف، وهذا التعبير ضمن بيانه لمكانة الإنسان يبيّن هذه الحقيقة أيضاً، وهي: أنّ الله تبارك وتعالى هو المالك الأصلي والحقيقي للأموال والثروات والقابليات، وجميع المواهب الإلهيّة الممنوحة للإنسان، وما الإنسان - في الحقيقة - إلّا خليفة الله ووكيلٌ من جانبه، ومأذون من قبله.

ومن البديهي أنّ الوكيل - مهما كان - فهو غير مستقل في تصرّفاته، بل يجب أن تخضع تصرّفاته لإذن صاحبها الأصلي، وتقع ضمن إجازته.

ومن هنا يتّضح أنّ الإسلام - مثلاً - يختلف عن النظام الشيوعي، وكذا عن النظام الرأسمالي في مسألة المالكية، لأنَّ الفريق الأوّل يخصّص الملكية بالجماعة، والفريق الثاني يخصِصُها بالفرد، بينما يقولُ الإسلامُ: الملكية لا هي للفرد ولا هي للمجتمع، بل هي في الحقيقة لله تعالى، والناس وكلاء الله، وخلفاؤه.

وبهذا الدليل نفسِه يراقب الإسلامُ طريقة تصرّف الأفراد في الأموال كسباً وصرفاً، ويضع لكلّ ذلك قيوداً وشروطاً تجعل الاقتصاد الإسلامي نظاماً متميّزاً في مقابل الأنظمة الأُخرى.

«ختام سورة الأنعام»





الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الجزء الثامن

منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان



سُورَةُ الأَعْرَافِ



مكية وعدد آياتـها مائتان وست

هذه السورة من السور المكيّة إلّا قوله تعالى: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ إلى ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[1]، الذي نزل في المدينة.

عدد آيات هذه السورة (٢٠٦) آية أو (٢٠٥) كما عليه البعض.

لمحة سريعة عن محتويات هذه السّورة

إنّ أكثر السور القرآنية (٨٠ إلى ٩٠ سورة) - كما نعلم - نزلت في مكّة، ونظراً إلى الأوضاع التي كانت سائدة في المحيط المكّي، وحالة المسلمين خلال ١٣ عاماً، وكذا بالإمعان في صفحات التّاريخ الإسلامي بعد الهجرة، يتّضح بجلاء أنّ هناك فرقاً بين لحن السور المكيّة والسور المدنية.

ففي السّور المكيّة يدور الحديث - غالباً - حول المبدأ والمعاد، وحول إثبات التوحيد، ويوم القيامة، ومكافحة الشرك والوثنية، وتقوية مكانة الإنسان ودعم موقعه في عالم الخلق، لأنّ الفترة المكّية كانت تشكّل فترة بناء المسلمين من حيث العقيدة، وتقوية أُسس الإيمان كأسس وقواعد لـ «نهضة متجذرة».

ففي الفترة المكيّة كان على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يطهّر العقول والأذهان من جميع الأفكار الوثنية الخرافية، ويغرس محلّها روحَ التوحيد، والعبودية لله تعالى، والإحساس بالمسؤولية لأفراد الطبقة المسحوقة والمحقّرة في زمن العهد الوثني وإشعارهم بشخصيتهم الحضارية وهويتهم وكرامتهم الإنسانية، وحقيقة موقعهم في نظام الوجود، وعالم الخلق، ليصنع - بالتالي - من ذلك الشعب الوضيع المشحون بالخرافة، أُمّة ذات شخصية قويّة، وذات إرادة صلبة، وإيمان فاعل، وقد كان هذا البناء العقائدي القوي الذي تم على يد رسول الإسلام وهدي القرآن في مكّة، هو السبب في تقدّم الإسلام المطّرد في المدينة.

إنّ آيات السور المكّية كذلك تتناسب جميعها مع هذا الهدف الخاص.

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٦٣ - ١٦٥.

أمّا الفترة المدنيّة، فقد كانت فترة تشكيل وتأسيس الحكومة الإسلامية، فترة الجهاد في مقابل الأعداء، فترة تأسيس وبناء مجتمع سليم على أساس القيم الإنسانية، والعدالة الاجتماعية.

ولهذا تهتم السور المدنية في كثير من آياتها بتفاصيل القضايا الحقوقية، والأخلاقية والاقتصادية، والجزائية، وغير ذلك من الحاجات الفردية والاجتماعية.

وإذا أراد المسلمون اليوم أن يستعيدوا عظمتهم الغابرة، ومجدهم القديم، وجب عليهم أن ينفّذوا هذا البرنامج بالذات، وأن يطووا هاتين الفترتين بصورة كاملة، فإنّه ما لم تتوطد الأُسس العقائدية، وما لم يتم بناؤها بشكل محكَم لم تحظ اللّبنات الفوقية والبناء الحضاري للمجتمع بالمتانة والقوّة اللازمة.

وعلى كل حال فحيث إنّ سورة الأعراف من السور المكيّة، لذلك تجلّت فيها جميع خصائص السورة المكيّة ولهذا نرى:

كيف أنّها أشارت في البدء إلى مسألة «المبدأ والمعاد».

ثمّ بهدف إحياء شخصية الإنسان شرحت - باهتمام وعناية كبيرة - قصّة خلق آدم.

ثمّ عدّدت - بعد ذلك - المواثيق التي أخذها الله تعالى من أبناء آدم في مسير الهداية والصلاح، واحداً واحداً.

ثمّ للتدليل على هزيمة وخسران الجماعات التي تحيد عن سبيل التوحيد والعدالة والتقوى، وكذا للتدليل على نجاح المؤمنين الصادقين وانتصارهم، ذكرت قصص كثير من الاقوام الغابرة والأنبياء السابقين مثل «نوح» و«لوط» و«شعيب» وختمت ذلك ببيان قصّة بني إسرائيل، وجهاد «موسى» ضدّ فرعون، بصورة مفصّلة.

وفي آخر السورة عادت مرّة أُخرى إلى مسألة المبدأ والمعاد، بهذا تتناغم البداية والخاتمة.

أهمّية هذه السّورة

جاء في تفسير العياشي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «من قرأ سورة الأعراف في كل شهر كان يوم القيامة من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون... فإن قرأها في كل جمعة كان ممن لا يحاسب يوم القيامة (وكذا قال:) أمّا أن يكون فيها محكماً فلا

تدعوا قراءتها والقيام بها فإنّها تشهد يوم القيامة لمن قرأها»[١].

إنّ ما يستفاد من الحديث الحاضر بوضوح هو أنّ هذه الرّوايات والأحاديث الواردة في فضل السور لا تعني أنّ مجرّد قراءتها تنطوي على كل تلك النتائج، والثمرات الكبرى، بل إنّ ما يعطي هذه القراءة القيمة النهائية هو الإيمان بمضامين السورة، ثمّ العمل على طبقها.

ولهذا جاء في الرواية الحاضرة: قراءتها وتلاوتها والقيام بها. كما أنّنا نقرأ في هذه الرواية أنّه عليه السلام قال: «من قرأ هذه السورة كان يوم القيامة من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

وفي الحقيقة فإنّ هذه إشارة لطيفة إلى الآية (٣٥) من هذه السورة، التي يقول فيها سبحانه: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

فهذه المنزلة - كما يلاحظ القارىء الكريم - مخصوصة بالذين اتقوا، وسلكوا سبيل الصلاح، هذا مضافاً إلى أنّ القرآن الكريم كتاب «عقيدة» و«عمل» والقراءة والتلاوة تعتبران مقدمة لهذا الموضوع.

قال الراغب في كتاب «المفردات» في مادة: تلاوة: قوله: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾[٢]: اتباع القرآن بالعلم والعمل.

وهذا يعني أنّ للتلاوة مفهوماً أعلى من مفهوم القراءة، فهي مقرونة بنوع من التدبّر والتفكّر والعمل.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ
وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ
أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٢ وتفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢١.

التّفسير

في مطلع هذه السّورة نواجه مرّة أُخرى «الحروف المقطّعة» وهي هنا عبارة عن: الألف واللام والميم والصاد.

وقد سبقت منّا أبحاثٌ مفصّلة عند تفسير هذه الحروف في مطلع سورة «البقرة» وكذا «آل عمران».

وهنا نلفت النظَر إلى تفسير آخر من التفاسير المطروحة في هذا الصعيد استكمالاً للبحث وهو: أنّه يمكن أن يكون أحد الأهداف لهذه الحروف هو جلب انتباه المستمعين، ودعوتهم إلى السكوت والإصغاء، لأنَّ وجود هذه الحروف في مطلع الكلام موضوع عجيب لم يسبق له مثيل في نظر العرب، ومن شأنها أن تثير في العربي حبّ الاستطلاع، وتدعوه إلى متابعة الكلام إلى نهايته.

ومن الاتفاق أنّ غالب السور المبدوءة بالحروف المقطّعة هي السور التي نزلت في مكّة، ونحن نعلم أنّ المسلمين في مكّة كانوا أقليّة، وكان أعداؤهم وخصومهم خصوماً ألدّاء، اشتد عنادهم إلى درجة أنّهم ما كانوا على استعداد حتى لاستماع كلام رسول الله ﷺ، بل ربّما أثاروا ضجيجاً، ورَفَعوا الأصوات في وجه رسول الله ﷺ عند قراءته للآيات القرآنية ليضيع في زحمتها وخضمها نداؤهُ ﷺ، وهو ما أشارت إليه بعض الآيات (مثل الآية ٢٦ من سورة فصلت والسجدة).

كما أنّنا نقرأ في بعض الرّوايات والأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السلام أنّ هذه الحروف رموز وإشارات إلى أسماء الله، فـ: «المص» في السورة المبحوثة مثلاً إشارة إلى جملة: أنا الله المقتدر الصادق(١).

وبهذا الطريق يكون كلّ واحد من الحروف الأربعة صورة مختصرة عن أحد أسماء الله تعالى.

ثمّ إنّ موضوع إحلال الصياغات المختصرة محلّ الصياغات المفصّلة للكلمات كان أمراً رائجاً من قديم الزمان، وإن حصل مثل هذا في عصرنا أيضاً بشكل أوسع، حيث اختصِرت الكثير من العبارات الطويلة، وكذا أسامي المؤسسات أو الهيئات في كلمة قصيرة أو أحرف معدودة.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ٣٧٣؛ تفسير الصافي، ج ٢، ص ١٧٩.

على أنّ ثمّة نقطةً تستحقُ التنويه بها هنا، وهي أنّ التفاسير والتحاليل المختلفة عن «الحروف المقطعة» لا تتنافى ولا تتناقض فيما بينها، ويمكن أن تكون جميع التفاسير بطوناً مختلفة من بطون القرآن.

ثمّ يقول تعالى في الآية اللاحقة: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾.

و«الحرج» في اللغة يعني الشعور بالضيق وأيّ نوع من أنواع المعاناة، والحرج في الأصل يعني مجتمع الشجر الملتفّ أوّلاً ثمّ المنتشر، وهو يُطلق على كلّ نوع من أنواع الضيق.

إنَّ العبارة الحاضرة تسلّي النّبي ﷺ وتطمئن خاطره بأنّ هذه الآيات نازلة من جانب الله تعالى فيجب أن لا يشعر ﷺ بأيّ ضيق وحرج، لا من ناحية ثقل الرسالة الملقاة على عاتقه، ولا من ناحية ردود فعل المعارضين والأعداء الألدّاء تجاه دعوته، ولا من ناحية النتيجة المتوقّعة من تبليغه ودعوته.

هذا ويمكن إدراك المشكلات التي كانت تعرقل حركة النّبي ﷺ إدراكاً كاملاً إذا عرفنا أنّ هذه السورة من السور المكّية، ونحن وإن كنّا نعجز عن تصوّر جميع الجزئيات والتفاصيل المرتبطة بحياة رسول الله ﷺ وصحبه في المحيط المكّي، وفي مطلع الدّعوة الإسلامية، ولكن مع الالتفات إلى حقيقة أنّ النّبي ﷺ كان عليه أن يقوم بنهضة ثورية في جميع المجالات والأصعدة في تلك البيئة المتخلّفة جدّاً وفي مدّة قصيرة، يمكن أن نتصوّر على نحو الإجمال أبعاد وأنواع الصعاب التي كانت تنتظره.

وعلى هذا الأساس يكون من الطبيعي أن يعمد الله سبحانه إلى تسلية النّبي وتطمينه بأن لا يشعر بالضيق والحرج، وأن يطمئنَّ إلى نتيجة جهوده.

ثمّ يضيف تعالى في الجملة اللاحقة أنّ الهدف من نزول هذا الكتاب العزيز هو إنذار الناس وتحذيرهم من عواقب نواياهم وأعمالهم الشريرة، وتذكير المؤمنين الصادقين، إذ يقول: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

هذا ومجيء قضية «الإنذار» في صورة الأمر العام الموجّه للجميع، واختصاص «التذكير» بالمؤمنين خاصّة، إنّما هو لأجل أنَّ الدعوة إلى الحق، ومكافحة الانحرافات

(١) وعلى هذا الأساس فإنّ جملة ﴿لِتُنذِرَ﴾ تتعلّق بـ«أنزل» وليس بجملة ﴿فَلَا يَكُن﴾ ولعلّ جعل هذه الجملة (أي جملة لتنذر) بعد جملة ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ لأجل أنّه يجب أوّلا إعداد النّبي في طريق الدعوة، ثمّ اقتراح الهدف - وهو الإنذار، - عليه (تأمل جيّداً).

يجب أن تتمّ بصورة عامّة وشاملة، ولكن من الواضح أنّ المؤمنين هم وحدهم الذين ينتفعون بهذه الدعوة، أُولئك الذين تتوفر لديهم أرضيات مستعدّة لقبول الحق، وقد أبعدوا عن أنفسهم روح العناد واللجاج وسلّموا أمام الحقائق.

وقد جاءت هذه العبارة بعينها في مطلع سورة البقرة إذ يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (وللمزيد من التوضيح راجع تفسير الآية ٢ من سورة الحمد).

ثمّ إنّه سبحانه يوجّه خطابه إلى عامّة الناس ويقول: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وبهذا الطريق يكون قد بدأ الحديث عن رسول الله ﷺ ومهمّته ورسالته، وانتهى بوظيفة الناس وواجبهم تجاه الرسالة.

وللتأكيد يضيف سبحانه قائلاً: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ فلا تتبعوا غير أوامر الله، ولا تختاروا وليّاً غير الله.

وحيث إنّ الخاضعين للحق والمتذكّرين قليلون، لذا قال في ختام الآية: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

ومن هذه الآية يُستفاد أنّ الإنسان يواجه طريقين (أو خيارين) إمّا القبول بولاية الله وقيادته، وإمّا الدخول تحت ولاية الآخرين، فإذا سلك الطريق الأوّل كان الله وليّه، وأمّا إذا دخل تحت ولاية الآخرين فإنّ عليه - حينئذ - أن يخضع في كلّ يوم لواحد من الأرباب، وأن يختار ربّاً جديداً.

وكلمة «الأولياء» التي هي جميع «ولي» إشارة إلى هذا المعنى.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾

التّفسير

الأقوام التي هَلَكت وبادت

هاتان الآيتان تشيران إلى العواقب المؤلمة التي تترتب على مخالفة الأوامر التي تمّ بيانها في الآيات السابقة، كما أنّهما تعدّان - في الواقع - فهرستاً إجمالياً عن قصص الأقوام المتعددة أمثال نوح، وقوم فرعون، وقوم عاد وثمود، وقوم لوط التي ستأتي فيما بعد.

إنّ القرآن الكريم يحذّر وينذر بشدّة في هذه الآية كل أُولئك الذين يتمرّدون على تعاليم الأنبياء ويقومون بزرع الفجور والفساد بدل إصلاح أنفسهم وإصلاح الآخرين، بأن يتدبّروا قليلاً في حياة الأقوام السالفة وينظروا كم من قرية عامرة أبادَها الله، وأهلك سكّانها الفاسقين: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾.

ثمّ يبيّن كيفية هلاكهم بأنّ العذاب الأليم جاءهم في منتصف الليل وهم يقضون ساعات الراحة والسكون، أو في وسط النهار وهم يمضون لحظات الاستراحة والاسترخاء بعد رحلة من العمل والنشاط اليومي الدّائب: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾.

ثمّ يواصل الحديث في الآية اللاحقة هكذا: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فعندما يتورّطون في البلاء، وتتحطم حياتهم بعواصف الجزاء يتركون كبرياءهم ونخوتهم وينادون معترفين بظلمهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

بحوث

إنّ ها هنا نقاطاً عديدة ينبغي الالتفات إليها:

١ - «القرية» مأخوذة أصلاً من «قرى» (على وزن نهى) وهي تعني الاجتماع، وحيث إنّ القرية مركز لاجتماع أفراد البشر أُطلق عليها هذا الاسم.

من هنا يتّضح أنّ القرية لا تعني الرستاق فقط، بل تشمل كلّ موضع عامر اجتمع فيه أفراد البشر، وقد أُطلقت هذه اللفظة - في كثير من آيات القرآن الكريم - على المدينة، أو أيّة منطقة عامرة مدينة كانت أو رستاقاً.

و«قائلون» اسم فاعل من «القيلولة» بمعنى النوم في نصف النهار، وأصله الراحة، ولهذا يقال الإقالة في البيع لأنّه الإراحة منه بالإعفاء من عقده.

و«البيات» أي عند الليل.

٢ - إنّ ما نقرؤه في هذه الآيات من أنّ عقاب الله تعالى وعذابه يصيب الظالمين ليلاً، أو عند منتصف النهار، لأجل أن يذوقوا طعم العذاب والجزاء، وذلك عندما تنهدم راحتهم وسكونهم به انهداماً كاملاً، كما سبق لهم أن هدموا راحة الآخرين وسكونهم وعكّروا صفوهم، وبهذا يكون جزاؤهم مناسباً لذنبهم ومن جنسه.

٣ - يُستفاد من الآية الحاضرة أيضاً أنّ جميع الأقوام العاصية الجانية عندما تواجه العقاب، وتنكشف عن عيونها أغطية الغفلة والغرور، تعترف - برمّتها - بذنوبها، ولكن لا يجديها مثل هذا الاعتراف، لأنّه نوع من الاعتراف «الجبري والاضطراري» الذي يضطرّ إليه حتى أشدّ الناس غروراً.

وبعبارة أُخرى؛ إنّ هذه اليقظة نوع من اليقظة الكاذبة والعابرة وغير المؤثرة التي لا تحمل أيّة علامة من علامات الانقلاب والتحوّل الروحي، لهذا لا يكون لها أيّة نتيجة. . . نعم، إذا كانوا يظهرون هذه الحقيقة في حالة الاختيار والحرية كان ذلك دليلاً على انقلابهم الروحي وسبباً لنجاتهم.

٤ - من المباحث المطروحة عند المفسّرين في مجال الآية الحاضرة هو: لماذا قال القرآن أوّلاً: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ ثمّ أعقب هذه الجملة بجملة أُخرى مبدوءة بفاء التفريع التي هي عادة للترتيب الزماني فقال: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾ في حين أنّ مثل هذا العقاب (أي مجيء البأس بياتاً) كان قبل الهلاك لا بعد الهلاك.

ولكن يجب أن نعلم أنّ الجملة المبدوءة بالفاء قد تكون شرحاً وتفصيلاً للجملة السابقة لا لبيان حادثة أُخرى، وفي المقام أشار أوّلاً إلى موضوع الإهلاك على نحو الإجمال، ثمّ عمد إلى شرح هذا الموضوع المجمَل بقوله: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾﴾. ولهذا في الأدب العربي نظائر كثيرة.

٥ - إنّ هذه الآيات يجب أن لا تعتبر شرحاً لقصص الأُمم الغابرة، وحديثاً يرتبط بالزمن الغابر والأمم الماضية فقط.

إنّ هذه الآيات تحذيرات صاعقة لهذا العصر وما يليه من العصور، لنا وللأُمم والأقوام القادمة، لأنّه لا معنى للتبعيض في السُّنّة الإلهيّة.

والإنسان المسلح بالتكنولوجيا المتقدّمة مع كلّ ما أُوتي من قوّة هو الآخر عاجز أمام الزلازل والعواصف، وأمام السيول والأمطار الغزيرة، تماماً مثل عجز الأُمم ما قبل التّاريخ وضعفها.

وعلى هذا فليست مثل تلك العواقب السيئة والأليمة التي أصابت ظَلَمة الأُمم الغابرة، وجبّاريها، وحلّت بالمغرورين والفسقة والمتمردين ليلاً وحطّمتهم، ببعيدة عن الإنسان الحاضر. بل إنّ قوّة الإنسان المعاصر وقدراته الكبرى يمكن أن تكون مصدر

بلاء عظيم له، وتجرّه إلى أحضان حروب مدمّرة لا تنتج سوى فناء جيله، ألا يجب أن نعتبر بهذه الحوادث ونستيقظ من نوم الغفلة!؟

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

التّفسير

التّحقيق الشّامل

لقد تضمّنت الآيات السابقة إشارة إلى معرفة الله ونزول القرآن الكريم، أمّا الآيات أعلاه فإنّها تتحدّث عن المعاد فهي مكملة للآيات السالفة، مضافاً إلى أنّ الآية المتقدمة تحدّثت عن الجزاء الدنيوي للظالمين، وهذه الآيات تبحث في الجزاء والعقاب الأُخروي لهم، وبهذا يتّضح الارتباط بينها.

يقول تعالى أوّلاً وهو يقرر سُنّة عامّة: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي إنّنا سنسأل في يوم القيامة كل من أرسلنا لهدايته رسولاً، حتماً ودون ريب.

بل ونسأل الأنبياء أيضاً، ماذا فعلوا في مجال تبليغ رسالتهم: ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾؟

وعلى هذا الأساس فالجميع مسؤولون، قادةً وأتباعاً، رسلاً ومرسلاً إليهم، غاية ما في الأمر أنّه يختلف السؤال والمسؤوليات من طائفة إلى أُخرى.

وثمّة حديث مروي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الصعيد يؤيّد هذا المعنى أيضاً، إذ يقول: «فيقام الرسل فيُسألون عن تأدية الرسالات التي حملوها إلى أُممهم، فأخبروا أنّهم قد أدّوا ذلك إلى أُممهم»(١).

هذا وقد صرّح في حديث آخر في تفسير علي بن إبراهيم بهذا المعنى أيضاً(٢).

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤٢٨؛ وبحار الأنوار، ج ٩٠، ص ١٠١.
(٢) المصدر السابق. تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٤.

في الآية اللاحقة - ولكي لا يتصور أحدٌ بأنّ سؤال الله للأنبياء يعني أنّ الأمر قد خفي على الله وغاب عن علمه - قال تعالى بصراحة مزيجة بالقَسَم، بأنّنا سوف نشرح لهم كل أعمالهم بعلمنا، لأنّه ما غاب عنّا شيء من أفعالهم، وما غابوا هم عنّا، فقد كنّا معهم في كل حين ومكان: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾.

«لنقصنّ» مأخوذة من «القصّة» وهي في الأصل تعني ما يتلو بعضه بعضاً، وحيث إنّ القضايا عند شرحها يتلو بعضها بعضاً أُطلق عليها لفظ القصّة، وهكذا أُطلق على العقوبة التي تتلو الجناية لفظ «القصاص»، ومنه «المقصّ» لأنّه يقطع الشعر بالتوالي، ويقال عمّن يبحث عن شيء أنّه «قصّ» لأنّه يبحث الحوادث واحداً بعد واحد.

وحيث إنّ في هذه الجملة أربعة أنواع من التأكيد (لام القسم، ونون التأكيد، وكلمة علم، التي جاءت بصورة النكرة، والمراد من ذلك بيان عظمته، وجملة ما كنّا غائبين) لذلك يستفاد منها أنّ المقصود هو: أنّنا نشرح لهم تفاصيل أعمالهم جميعها القذة بالقذة وتباعاً، ليعلموا أنّه لا يخفى عنّا شيء من نيّة أو عمل قط[1].

المساءلة لماذا؟

إنّ أوّل ما يطرح نفسه هنا هو: نحن نعلم أنّ الله سبحانه يعلم بكل شيء، فهو الحاضر في كل زمان ومكان، الناظر لكل شيء من نيّة أو عمل، فما الحاجة إلى مساءلة الرسل والأُمم عامّة وبدون استثناء؟!

الجواب على هذا السؤال واضح، لأنّ السؤال لو كان للاستعلام والاستفهام، وبهدف الوقوف على الحقيقة لم يصح أن يقع من العالِم العارِف.

وأمّا إذا كان المقصود منه هو إلفات الشخص إلى ما عمله، أو إتمام الحجّة عليه، أو ما أشبه ذلك، لم يكن في ذلك بأس ولا ضير، إذ يشبه ذلك تماماً ما لو أسدَينا إلى أحد خدمات كثيرة وقابَلَنا بالإساءة والخيانة، وكان كل ذلك معلوماً معروفاً عندنا، ومع ذلك فإنّنا نسائله ونقول: ألسنا قد أسدينا إليك كذا وكذا من الخدمة؟ فهل كان هذا جزاء الإحسان إليك؟؟

إنّ مثل هذه المساءلة ليست لاكتساب العلم، واكتشاف الحقيقة المجهولة، بل هي لتفهيم الطرف الآخر وإيقافه على الحقيقة، أو أنّه لتثمين خدمة قام بها أحد المسؤولين

(١) تفسير مجمع البيان، وتفسير التبيان عن معنى القصّة في ذيل الآية الحاضرة ورد البحث أعلاه.

وتشجيعه، فنسأله: ماذا فعلت في هذه السفرة التي كلّفت فيها بمهمّة؟ مع أنّنا نعرف من قبل بتفاصيل عمله.

التّوفيق بين آيات المساءلة في القرآن

قد يُظنُّ أنّ الآيات المطروحة هنا على بساط البحث، والتي تصرّح بكل تأكيد بأنّ الله يسأل الجميع عمّا فعلوه وارتكبوه، تنافي بعض الآيات القرآنية الأخرى في هذا الصعيد مثلما جاء في سورة الرحمٰن: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ . . . ﴾[1].

وكذا الآيات الأُخرى التي تنفي السؤال.

فكيف يمكن التوفيق والجمع بين تلك الآيات والآيات الحاضرة التي تثبت قضية المساءلة يوم القيامة؟!

إنّ الإمعان في هذه الآيات كفيل بأن يكشف كل إبهام عنها، فإنّه يستفاد من مجموع الآيات الواردة في مجال المساءلة في يوم القيامة أنّ الناس يمرّون في ذلك اليوم بمراحل مختلفة متنوعة، ففي بعض المراحل لا يُسألون عن أيّ شيء مطلقاً، بل يُختم على أفواههم، وتتكلّم أعضاؤهم وجوارحهم التي تحتفظ بآثار أعمالهم في نفسها، كشاهد حيّ لا يرد، يروي أعمالهم بدقّة متناهية.

وفي المرحلة الأخرى يُرفع الختم عن أفواههم فيتحدّثون ويُسألون فيعترفون عند ذلك - بعد مشاهدة الحقائق التي انكشفت في ضوء شهادة الجوارح - بأعمالهم، تماماً كالمجرم الذي لا يرى بُدّاً من الاعتراف بجرمه عند مشاهدة الأدلة العينية.

وقد احتمل بعض المفسّرين أيضاً في تفسير هذه الآيات، أنّ الآيات النافية للسؤال إشارة إلى نفي المساءلة الشفاهية، والآيات المثبتة إشارة إلى السؤال من الجوارح وهي تجيب بلسان الحال - مثل حمرة وجه الإنسان خجلا من انكشاف جرمه - بالحقائق.

وفي هذه الصورة يرتفع التنافي بين هاتين الطائفتين من الآيات.

في الآية اللاحقة - تكميلاً لمبحث المعاد - يشير تعالى إلى قضية «وزن الأعمال» الذي جاء ذكره في السور القرآنية الأُخرى مثل ما جاء في سورة «المؤمنون» في الآيتان (١٠٢ و١٠٣) وسورة القارعة الآيتان (٦ و٨).

---

(١) سورة الرحمٰن، الآيتان: ٣٩ و ٤١.

فيقول أوّلاً: إنّ وزن الأعمال يوم القيامة أمر واقع لا ريب فيه: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾(١).

ما هو ميزان الأعمال يوم القيامة؟

لقد وقع كلام كثير بين المفسّرين والمتكلمين حول كيفية وزن الأعمال يوم القيامة، وحيث إنّ البعض تصوّر أنّ وزن الأعمال وميزانها في يوم القيامة يشبه الوزن والميزان المتعارف في هذه الحياة، ومن جانب آخر لم يكن للأعمال البشرية وزن، وخفة وثقل يمكن أن يُعرَف بالميزان، لهذا لابدّ من حلّ هذه المشكلة عن طريق فكرة تجسّم الأعمال، أو عن طريق أنّ الأشخاص أنفسهم يوزنون بدل أعمالهم في ذلك اليوم.

حتى أنّه روي عن «عبيد بن عمير» أنّه قال: «يؤتى بالرجل الطويل العظيم فلا يزن جناح بعوضة» إشارة إلى أنّ أُولئك الأشخاص كانوا في الظاهر أصحاب شخصيات كبيرة، وأمّا في الباطن فلم يكونوا بشيء(٢).

ولكن لو تركنا مسألة المقارنة والمقايسة بين الحياة في ذلك العالم والحياة في هذا العالم، وعلمنا بأنّ كلّ شيء في تلك الحياة يختلف عمّا عليه في حياتنا هذه، تماماً مثلما تختلف أوضاع الفترة الجنينية عن أوضاع الحياة الدنيا، وعلمنا - أيضاً - أنّه ليس من الصحيح أن نبحث - في فهم معاني الألفاظ - عن المصاديق الحاضرة والمعيّنة دائماً، بل لابدّ أن ندرس المفاهيم من حيث النتائج، اتضحت وانحلت مشكلة «وزن الأعمال في يوم القيامة».

وتوضيح الأمر هو: أنّنا لو كنّا نتلفظ فيما مضى من الزمن بلفظ المصباح كان يتبادر إلى ذهننا صورة وعاء خاص فيه شيء من الزيت، ونصب فيه فتيل من القطن، وربّما أيضاً تصوَّرنا زجاجة وضعت على النّار لتحفظها من الانطفاء بسبب الرياح، على حين يتبادر من لفظ المصباح إلى ذهننا اليوم جهاز خاص لا مكان فيه للزيت، ولا للفتيل، أمّا ما يجمع بين مصباح الأمس ومصباح اليوم، هو الهدف من المصباح والنتيجة المتوخاة أو المتحصلة منه، يعني الأداة التي نزيل بها الظلمة.

---

(١) بناء على هذا يكون الوزن هنا بمعناه المصدري وهو مبتدأ و«الحق» خبره، وإن أُعطيت احتمالات في تركيب الجملة الحاضرة ولكن ما قلناه أقرب من الجميع.

(٢) رويت هذه الرواية من عبيد بن عمير في تفسير «مجمع البيان» وتفسير «الطبري» وظاهر العبارة يوحي بأنّ الكلام هو لعبيد وليس لرسول الله ﷺ.

والأمر في قضيّة «الميزان» على هذا الغرار، بل وفي هذه الحياة ذاتها نرى كيف أنّ الموازين تطوّرت مع مرور الزمن تطوّراً كبيراً، حتى أنّه بات يُطلق لفظ الميزان على وسائل التوزين الأُخرى، مثل مقياس الحرارة، ومقياس سرعة الهواء وأمثال ذلك.

إذاً، فالمسلّم هو أنّ أعمال الإنسان توزن في يوم القيامة بأداة خاصّة لا بواسطة موازين مثل موازين الدنيا، ويمكن أن تكون تلك الأداة نفس وجود الأنبياء والأئمّة والصالحين، وهذا ما يستفاد - أيضاً - من الأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السلام.

ففي بحار الأنوار ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾[1] أنّه قال: «والموازين الأنبياء، والأوصياء، ومن الخلق من يَدخُل الجنّة بغير حساب»[2].

وجاء في رواية أُخرى: إنّ أمير المؤمنين والأئمّة من ذريته عليهم السلام هم الموازين[3].

ونقرأ في إحدى زيارات الإمام أمير المؤمنين المطلقة: السلام على ميزان الأعمال.

وفي الحقيقة إنّ الرجال والنساء النموذجيين في العالم هم مقاييس لتقييم أعمال العباد، فكل من شابههم كان له وزن بمقدار مشابهته لهم، ومن بعدُ عنهم كان خفيف الوزن، أو فاقد الوزن من الأساس.

بل إنّ أولياء الله في هذا العالم هم أيضاً مقاييس للوزن والتقييم، ولكن حيث إنّ أكثر الحقائق في هذا العالم تبقى خلف حجب الإبهام والغموض، تبرز في يوم القيامة بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[4] وتنكشف هذه الحقائق وتنجلي للعيان.

ومن هنا يتّضح لماذا جاء لفظ الميزان في الآية بصيغة الجمع: ﴿ٱلْمَوَٰزِينَ﴾ لأنّ أولياء الله الذين يوزَن بهم الأعمال متعددون.

ثمّ إنّ هناك احتمالاً آخر أيضاً، وهو أنّ كل واحد منهم كان متميّزاً في صفة معيّنة، وعلى هذا يكون كلّ واحد منهم ميزاناً للتقييم في إحدى الصفات والأعمال البشرية، وحيث إنّ أعمال البشر وصفاتهم مختلفة، لهذا يجب أن تكون المعايير والمقاييس متعددة.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.
(٢) بحار الأنوار، الطبعة الجديدة، ج ٧، ص ٢٥١ و٢٥٢.
(٣) المصدر السابق.
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

ومن هنا أيضاً يتّضح أنّ ما جاء في بعض الرّوايات والأخبار، مثل ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام حيث سألوه: ما معنى الميزان؟ قال: «العدل» لا ينافي ما ذكرناه، لأنّ أولياء الله، والرجال والنساء النموذجيين في هذا العالم هم مظاهر للعدل من حيث الفكر، والعدل من حيث العقيدة، والعدل من حيث الصفات والأعمال (تأملوا)[1].

ثمّ إنّه تعالى يقول في المقطع الآخر من الآية: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾[2].

إنّ من البديهي أنّ المراد من الخفّة والثقل في الموازين ليس هو خفة وثقل نفس الميزان، بل قيمة ووزن الأشياء التي توزن بواسطة تلك الموازين، وتُقاس بتلك المقاييس.

ثمّ إنّ في التعبير بجملة ﴿خَسِرُوا أَنفُسَهُم﴾ إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ هؤلاء قد أصيبوا بأكبر الخسارات، لأنّ الإنسان قد يخسر ماله، أو منصبه، ولكنّه قد يخسر أصل وجوده من دون أن يحصل على شيء في مقابل ذلك، وتلك هي الخسارة الكبرى، والضرر الأعظم.

إنّ في التعبير بـ ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ في آخر الآية إشارة إلى أنّ مثل هؤلاء لم يظلموا أنفسهم فحسب، بل ظلموا - كذالك - البرامج الإلهيّة الهادية، لأنّ هذه البرامج كان ينبغي أن تكون سبلاً للهداية ووسائل للنجاة، ولو أنّ أحداً تجاهلها، ولم يكترث بها، فلم يحصل منها هذا الأثر، كان ظالماً لها.

وقد جاء في بعض الرّوايات والأخبار أنّ المراد من الآيات هنا هم أئمّة الهدى عليهم السلام، على أنّ هذا النمط من التّفسير - كما أسلفنا مراراً - لا يعني حصر مفهوم الآية فيهم، بل هم المصاديق الأتمّ والأظهر للآيات الإلهيّة.

هذا، وفسّر بعض المفسّرين الظلم في الآية بالكفر والإنكار، وهذا المعنى ليس بعيداً عن مفهوم الظلم، إذ قد ورد الظلم في بعض الآيات القرآنية الأخرى بهذا المعنى.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٥؛ وتفسير الميزان، ج ٨، ص ١٦.
(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ٨ و ٩.

التّفسير

مكانة الإنسان وعظمته في عالم الوجود

عقيب الآيات التي أشارت إلى المبدأ والمعاد، يدور البحث في هذه الآية والآيات اللاحقة حول عظمة الإنسان وأهمّية مقامه، وكيفية خلق هذا الكائن والمفاخر التي وهبها الله له، والمواثيق التي أخذها الله منه لقاء هذه المواهب والنِّعم، كلّ ذلك لتقوية قواعد وأُسس تربيته وتكامله.

وفي البداية اختصر جميع هذه الأُمور في هذه الآية، ثمّ شرحها وفصّلها في الآيات اللاحقة.

فهو يقول في البداية: نحن الذين منحناكم الملكية والحاكمية وسلّطناكم على الأرض: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وأعطيناكم وسائل العيش بجميع أنواعها: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ﴾.

ولكن مع ذلك لم تشكروا هذه النِّعم إلّا قليلاً ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

و«التمكين» هنا ليس بمعنى أن يوضع شخص في مكان مّا، بل معناه أن يعطى ويوفّر له كل ما يستطيع بواسطته تنفيذ مآربه، وتهيئة أدوات العمل له، ورفع الموانع وإزالتها عن طريقه، ويُطلق على مجموع هذا، لفظ «التمكين»، فإنّنا نقرأ في القرآن الكريم حول يوسف: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(١) أي إنّنا جعلنا جميع الإمكانيات تحت تصرّفه.

إنّ هذه الآية - مثل بعض الآيات القرآنية الأُخرى - تدعو الناس - بعد ذكر وتعداد النِّعم الإلهيّة والمواهب الربانيّة - إلى شكرها، وتذم كفران النعم.

إنّ من البديهي أنّ بعث روح الشُّكر والتقدير لدى الناس في مقابل النعم الإلهيّة، إنّما هو لأجل أن يخضعوا لواهب النعم تمشّياً واستجابة لنداء الفطرة، ولكي يعرفوه ويطيعوه عن قناعة فيهتدوا ويتكاملوا بهذه الطريقة، لا أنّ الشاكر يؤثّر بشكره في مقام الرّبوبية العظيم، بل الأثر الحاصل من الشكر - مثل سائر آثار العبادات والأوامر الإلهيّة - جميعاً - يعود إلى الإنسان لا غير.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٥٦.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨)﴾

التّفسير

قصّة عصيان إبليس

لقد أُشير إلى مسألة خلق الإنسان وكيفية إيجاده في سبع سور من سُوَر القرآن الكريم، والهَدَفَ من ذكر هذا الموضوع - كما سبق أن أشرنا في الآية السابقة - هو بيان شخصية الإنسان، ومقامه، ومنزلته بين كائنات العالم، وبعث روح الشكر والحمد فيه.

لقد جاء ذكر خلق الإنسان من التراب، وسجود الملائكة له، وتمرّد الشيطان وعصيانه، ثمّ موقفه تجاه النوع الإنساني في هذه السور بتعابير مختلفة.

وفي الآية المبحوثة الآن يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ جدّكم الأوّل، ومن المأمورين بالسجود إبليس الذي كان موجوداً في صفوفهم وإن لم يكن منهم، فامتثلوا لهذا الأمر جميعاً وسجدوا لآدم إلّا إبليس: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾.

ويمكن أن يكون ذكر «الخلق» في الآية الحاضرة قبل «التصوير» إشارة إلى: أنّنا أوجدنا المادة الأصلية للإنسان أوّلاً، ثمّ أفضنا عليها الصورة الإنسانية.

وكما قلنا في ذيل الآية (٣٤) من سورة البقرة: إنّ سجود الملائكة لآدم لم يكن سجود عبادة، لأن العبادة مخصوصة لله سبحانه، بل السجدة هنا بمعنى التواضع (أي الخضوع أمام عظمة آدم وسموّ منزلته في عالم الخليقة) أو بمعنى السجود لله الذي خلق مثل هذا المخلوق المتعادل المتوازن.

إنّ «إبليس» - كما قلنا في ذيل تلك الآية - لم يكن من الملائكة، بل هو حسب صريح الآيات القرآنية من قسم آخر من الكائنات يُدعى «الجنّ» (وللمزيد من التوضيح راجع المجلد الأوّل من هذا التّفسير في الحديث عن سجود الملائكة لآدم).

في **الآية اللاحقة** يقول تعالى: أنّه أخذ إبليس على عصيانه وطغيانه، و ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾. فتذرّع - في مقام الجواب - بعذر غير وجيه إذ: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾.

وكأنّ إبليس كان يتصوّر أنّ النّار أفضل من التراب، وهذه هي أكبر غلطاته وأخطائه، ولعلّه لم يقل ذلك عن خطأ والتباس، بل كذب عن وعي وفهم، لأنّنا نعلم أنّ التراب مصدرُ أنواع البركات، ومنبَعُ جميع المواد الحياتية، وأهم وسيلة لمواصلة الموجودات الحيّة حياتها، على حين أنّ الأمر بالنسبة إلى النّار ليس على هذا الشكل.

صحيح أنّ النّار أحد عوامل التجزئة والتركيب في الكائنات الموجودة في هذا الكون، ولكن الدور الأصلي والأساسي هو للمواد الموجودة في التراب، وتعدّ النّار وسيلة لتكميلها فقط.

وصحيح أيضاً أنّ الكرة الأرضية انفصلت - في بداية أمرها - عن الشمس، وكانت على هيئة كرة نارية فبردت تدريجاً، ولكن يجب أن نعلم أنّ الأرض ما دامت مشتعلة وحارة لم يكن عليها أيّ كائن حيّ، وإنّما ظهرت الحياة على سطح هذه الكرة عندما حلّ التراب والطين محلّ النّار.

هذا مضافاً إلى أنّ أيّة نار ظهرت على سطح الأرض كان مصدرها مواد مستفادَة من التراب، ثمّ إنّ التراب مصدر نموّ الأشجار، والأشجار مصدر ظهور النّار، وحتى المواد النفطية أو الدهون القابلة للاشتعال والاحتراق تعود أيضاً إلى التراب أو إلى الحيوانات التي تتغذى من المواد النباتية.

على أنّ ميزة الإنسان - بغض النظر عن كل هذه الأُمور - لم تكن في كونه من التراب، بل إنّ ميزته الأصلية تكمن في «الروح الإنسانية» وفي خلافته لله تعالى.

وعلى فرض أنّ مادة الشيطان الأصلية كانت أفضل من مادة الإنسان، فإنّ ذلك لا يعني تسويغ عدم السجود للإنسان الذي خلق بتلك الروح، ووهبه الله تلك العظمة، وجعله خليفة له على الأرض.

والظاهر أنّ الشيطان كان يعرف بكل هذه الأُمور، ولكن التكبّر، والأنانية هما اللذان

منعاه عن امتثال أمر الله، وكان ما أتى به من العذر حجة داحضة، ومحض تحجج وتعلّل.

أوّل قياس هو قياس الشيطان

القياس في الأحكام والحقائق الدينية مرفوض بشكل قاطع في أحاديث عديدة وردت عن أهل البيت عليهم السلام، ونقرأ في هذه الأحاديث أنّ أوّل من قاس هو الشيطان.

قال الإمام الصادق عليه السلام لأبي حنيفة: «لا تقسْ، فإنّ أوّل من قاس إبليس»[١].

وقد روي هذا المطلب في تفاسير أهل السُّنّة قديماً وحديثاً مثل تفسير «الطبري» عن «ابن عباس» وتفسير المنار و«ابن سيرين» و«الحسن البصري»[٢].

والمراد من القياس هو أن نقيس موضوعاً على آخر يتشابهان من بعض الجهات، ونحكم للثّاني بنفس الحكم الموجود للموضوع الأوّل من دون أن نعرفَ فلسفة الحكم وأسراره كاملاً، كأن نقيس «بول» الإنسان المحكوم بالنجاسة، ووجوب الاجتناب عنه بعرق الإنسان، ونقول: بما أنّ هذين الشيئين يتشابهان من بعض الجهات وفي بعض الأجزاء، لهذا يسري حكم الأوّل إلى الثاني فيكون كلاهما نجسين، في حين أنّهما حتى لو تشابها من جهات، فهما متفاوتان مختلفان من جهات أُخرى أيضاً، فأحدهما أرق والآخر أغلظ، والاجتناب من أحدهما سهل، ومن الآخر صعب وشاقّ جدّاً، هذا مضافاً إلى أنّه ليست فلسفة الحكم الأوّل معلومة لنا بالكامل، فمثل هذا القياس ليس سوى قياس تخميني لا أكثر.

ولهذا السبب منع أئمّتنا عليهم السلام من القياس بشدّة، استلهاماً من كلام النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبطلوه، لأنّ فَتْح باب القياس يتسبب في أن يعمدَ كلّ أحدٍ بالاعتماد على دراسته المحدودة وفكره القاصر وبمجرّد أن يعتبر موضوعين متساويين من بعض الجهات... أن يعمد إلى إجراء حكم الأوّل على الثاني، وبهذا تتعرّض قوانين الشرع وأحكام الدين إلى الهرج والمرج.

إنّ بطلان القياس عقلاً ليس مقصوراً على القوانين الدينية فحسب، فالأطباء هم أيضاً يؤكّدون في توصياتهم على أن لا تعطى وصفة أيّ مريض لمريض آخر مهما تشابها من

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٦.

(٢) تفسير المنار، ج ٨، ص ٣٢١، وتفسير الطبري، ج ٨ و٩، وتفسير القرطبي، ج ٤، ص ٢٠٦٧.

بعض النواحي، وفلسفة هذا النهي واضحة، لأنّه قد يتشابه المريضان في نظرنا من بعض النواحي، ولكن مع ذلك يتفاوتان من جهات عديدة، مثلاً من جهة القدرة على تحمّل الدواء، وفئة الدم، ومقدار السّكر في الدم، ولا يستطيع الأشخاص العاديون من الناس أن يشخّصوا هذه الأمور، بل تشخيصها يختص بالأطباء وذوي الاختصاص في الطب، فلو أُعطيت أدوية مريض لآخر دون ملاحظة هذه الخصوصيات، فمضافاً إلى احتمال عدم الانتفاع بها، فإنّها ربّما تكون منشأً لسلسلة من الأخطار غير القابلة للجبران.

والأحكام الإلهيّة أدقّ من هذه الجهة، ولهذا جاء في الأحاديث والأخبار أنّه لو عُمِلَ بالقياس لُمحِقَ الدين، أو كان فساده أكثر من صلاحه[1].

أضف إلى ذلك أنّ اللجوء إلى القياس لاكتشاف الأحكام ومعرفتها دليل على قصور الدين، لأنّه إذا كان لكل موضوع حكمٌ في الدين لم يكن أيّة حاجة إلى القياس، ولهذا فإنّ الشيعة حيث إنّهم أخذوا جميع احتياجاتهم من الأحكام الدينية من مدرسة أهل البيت، ورثة النّبي الأكرم ﷺ لم يروا حاجة إلى اللجوء إلى القياس، ولكن فقهاء السُّنّة حيث إنّهم تجاهلوا مدرسة أهل البيت الذين هم حسب نص النّبي الملجأ الثّاني للمسلمين بعد القرآن الكريم لذلك واجهوا نقصاً في مصادر الأحكام الإسلامية وأدلتها، ولم يروا مناصاً من اللجوء إلى القياس.

وأمّا في مورد الشيطان، فنحن نقرأ في النصوص والرّوايات أنّه كان أوّل من قاس، والنكتة فيها أنّه قاس خلقته - من الناحية المادية - بخلقة آدم، وتمسك بأفضلية النّار على التراب في بعض الجهات، واعتبر ذلك دليلاً على أفضلية النّار من جميع النواحي، من دون أن يلتفت إلى امتيازات التراب، بل ومن دون أن يلتفت إلى امتيازات آدم الروحانية والمعنوية، فحكم على طريق ما يسمّى بقياس الأولوية، ولكن قياساً على أساس التخمين والظن والدراسة السطحية والمحدودة، بأفضليته على آدم، بل ودفعه هذا القياس الباطل إلى تجاهل الأمر الإلهي.

والملفِت للنظر أنّه وَرَدَ في بعض الرّوايات المروية عن الإمام الصادق عليه السلام في مؤلفات الشيعة والسنّة معاً أنّه قال: «من قاس أمرَ الدين برأيه قَرَنَه الله تعالى يوم القيامة بإبليس»[2].

(١) وسائل الشيعة، ج ١٨، باب القياس وج ٢٧، ص ٤١. أصول الكافي، ج ١، ص ٥٧.
(٢) تفسير المنار، ج ٨، ص ٣٣١ وتفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٧.

وباختصار، إنّ قياس موضوع بموضوع آخر من دون علم بجميع أسراره وفلسفته، لا يصح أن يكون دليلاً على اتحاد حكمهما، ولو أنّ القياس تطرّق إلى مسائل الدين وقضايا الشريعة لم تبق للأحكام ضابطة ثابتة، إذ يمكن حينئذ أن يقيس شخصٌ ما موضوعاً بنحو، ويصدر حكماً بحرمته، ويقيس شخص آخر الموضوع نفسَه بنحو آخر ويصدر حكماً بحليّته.

والمورد الوحيد الذي يمكن استثناؤه من هذا الأمر هو ما إذا ذكر المقنّنُ أو الطبيبُ نفسه، دليل حكمه وفلسفة قانونه، ففي هذه الحالة يجوز لنا إذا رأينا هذا الدليل وهذه الفلسفة في موضوع آخر أن نجري الحكم فيه ونُعَدِّيهِ إليه أيضاً، وهذا هو ما اصطُلِح عليه بالقياس «المنصوص العلّة» مثلاً: إذا قال الطبيب للمريض: يجب أن تتجنب تناول الفاكهة الفلانية لأنّها حامضة، علم المريض بأنّ الحموضة تضرّهُ، وأنّه يجب أن يتجنب الحموضة وإن كان في فاكهة أُخرى.

وهكذا إذا صرّح القرآنُ الكريم أو صرّحت السُنّة الشريفة بأن: تجنَّبوا الخمر لأنّه مسكر، علمنا أنّ كل مسكر حرام (وإن لم يكن خمراً) ويجب اجتنابه.

إنّ هذا القياس ليس باطلاً ولا ممنوعاً، لأنّه معلوم الدليل ومنصوص العلّة مقطوع بها، والقياس الممنوع هو فيما إذا لم نعلم بدليل الحكم وفلسفته بصورة القطع ومن جميع الجهات.

على أنّ مبحث القياس مبحثٌ واسعُ الأطراف، وما مضى من البحث ما هو إلّا عصارة منه، ولمزيد من التوضيح والاطلاع راجعوا كتب أُصول الفقه وكتب الأخبار، باب القياس، ونحن نختم البحث الحاضر بذكر حديث في هذا المجال.

جاء في كتاب «علل الشرائع» دخل أبو حنيفة على الإمام الصادق عليه السلام فقال له: «يا أبا حنيفة، بلغني أنّك تقيس؟ قال: نعم، أنا أقيس. قال: لا تقس فإنّ أوّل من قاس إبليس حين قال: خلقتني من نار وخلقته من طين فقاس ما بين النّار والطين، ولو قاس نورية آدم بنورية النّار عرف فضل ما بين النّورين وصفاء أحدهما على الآخر»(١).

جوابٌ على سؤال

بقي هنا سؤال وهو: كيف كان يتحدّث الشيطان مع الله، فهل كان ينزل عليه الوحي؟

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٦، وعلل الشرائع، ج ١، ص ٨٦.

الجواب هو: أنّ كلام الله لا يكون بالوحي دائماً، فالوحي عبارة عن رسالة النبوّة، فلا مانع من أن يكلّم الله أحداً لا بعنوان الوحي والرسالة، بل عن طريق الباطن أو بواسطة بعض الملائكة، سواء كان من يحادثه الله من الصالحين الأبرار مثل مريم وأُمّ موسى، أو من غير الصالحين مثل الشيطان!

ولنعد الآن إلى تفسير بقية الآيات:

حيث إنّ امتناع الشيطان من السجود لآدم عليه السلام لم يكن امتناعاً بسيطاً وعادياً ولم يكن معصية عاديّة، بل كان تمرّداً مقروناً بالاعتراض والإنكار للمقام الربوبي، لأنّه قال: أنا أفضل منه، وهذه الجملة تعني في حقيقة الأمر أنّ أمرك بالسجود لآدم أمرٌ مخالفٌ للحكمة والعدالة وموجب لتقديم «المرجوح» على «الراجح» لهذا فإنّ مخالفته كانت تعني الكفر وإنكار العلم والحكمة الإلهيين، فوجب أن يخسر جميع مراتبه ودرجاته، وبالتالي كلّ ما له من مكانة عند الله، ولهذا أخرجه الله من ذلك المقام الكريم، وجرّده من تلك المنزلة السامقة التي كان يتمتع بها في صفوف الملائكة، فقال له: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾.

وقد ذَهَبَ جمعٌ من المفسّرين في ضمير «منها» إلى إرجاعه إلى «السماء» أو «الجنّة» وذَهَبَ آخرون إلى إرجاعه إلى «المنزلة والدرجة»، وهما لا يختلفان كثيراً من حيث النتيجة.

ثمّ إنّه تعالى شرح له منشأ هذا السقوط والتنزّل بالعبارة التّالية: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾.

وأضاف للتأكيد قائلاً: ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ يعني إنّك بعملك وموقفك هذا لم تصبح كبيراً، بل على العكس من ذلك أصبتَ بالصغار والذلة.

إنّ هذه الجملة توضّح بجلاء أنّ شقاء الشيطان كلّه كان وليدَ تكبّره، وإنّ أنانيته هذه هي التي جعلته يرى نفسه أفضلَ ممّا هو، وهي التي تسببت في أن لا يكتفي بعدم السجود لآدم، بل وينكر علم الله وحكمته، ويعترض على أمر الله، وينتقده، فخسر على أثر ذلك منزلته ومكانته، ولم يحصد من موقفه إلّا الذلة والصغار بدل العظمة وهذه يعني أنّه لم يصل إلى هدفه فحسب، بل بات على العكس من ذلك.

ونحن نقرأ في نهج البلاغة «الخطبة القاصعة» في كلام أمير المؤمنين عليه السلام عند ذمّه للتكبّر والعجب ما يلي: «فاعتبروا بما فعل الله بإبليس إذ أحبط عمله الطويل، وجهده

الجهيد، وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة... عن كبر ساعة واحدة، فمن ذا بعد إبليس يسلّم على الله بمثل معصيته؟ كلاّ، ما كان الله سبحانه ليدخل الجنّة بشراً بأمر أخرج به منها مَلَكاً، إنّ حكمه في أهل السماء وأهل الأرض لواحد»[١].

وقد جاء أيضاً عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام أنّه قال: «إنّ للمعاصي شعباً، فأوّل ما عصي الله به الكبر، وهي معصية إبليس حين أبى واستكبر وكان من الكافرين، والحرص وهي معصية آدم وحواء... ثمّ الحسد وهي معصية ابن آدم حيث حسد أخاه فقتله»[٢].

وكذا نقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «أُصول الكفر ثلاثة: الحرص والاستكبار والحسد، فأمّا الحرص فإنّ آدم حين نُهي عن الشجرة حمله الحرص على أن أكل منها، وأمّا الاستكبار فإبليس حيث أُمِر بالسجود لآدم فأبى، وأمّا الحسد فابنا آدم حيث قتل أحدهما صاحبه»[٣].

ولكن قصّة الشيطان لم تنته إلى هذا الحدّ، فهو عندما عرف بأنّه صار مطروداً من حضرة ذي الجلال زاد من طغيانه ولجاجته، وبدل أن يتوب ويثوب إلى الله ويعترف بخطئه فإنّ الشيء الوحيد الذي طلبه من الله تعالى هو أن يمهله ويؤجّل موته إلى يوم القيامة: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

ولقد استجاب الله لهذا الطلب، فـ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾.

إنّ هذه الآيات وإن لم تصرّح بالمقدار الذي استجيب من طلب الشيطان من حيث الزمن، إلّا أنّنا نقرأ في الآيتين (٣٧ و ٣٨) من سورة الحجر أنّه تعالى قال له: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ وهذا يعني أنّ مطلب الشيطان لم يستجب له بتمامه وكماله، بل استجيب إلى الوقت الذي يعلمه الله تعالى (وسوف نبحث عند تفسير الآية) (٣٧) من سورة الحجر حول معنى قوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ إن شاء الله.

غير أنّ الشيطان لم يبغ من مطلبه هذا (أي الإمهال الطويل) الحصول على فرصة

(١) إطلاق «المَلَك» على الشيطان إنّما هو لأجل أنّه كان له مكان في صفوف الملائكة، وكان رديفاً لهم لا أنّه كان منهم ومن جنسهم كما قلنا سابقاً.
(٢) سفينة البحار، مادة كبر.
(٣) أُصول الكافي، ج ٢، ص ٢١٩، باب أُصول الكفر.

لجبران ما فات منه أو ليعمّر طويلاً، إنّما كان هدَفه من ذلك هو إغواء بني البشر ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي لأغوينّهم كما غويتُ، ولأُضِلنّهم كما ضللتُ.

إبليس أوّل القائلين بالجبر

يستفاد من الآية الحاضرة أنّ الشيطان لتبرئة نفسه نسب إلى الله الجبر إذ قال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ لأغوينّهم.

بعض المفسّرين أصرّ على تفسير جملة ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ بنحو لا يُفهَمُ منه الجبر، إلّا أنّ الظاهر هو أنّه لا موجب لمثل هذا الإصرار. وشاهد هذا القول هو ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: كان أمير المؤمنين جالساً بالكوفة بعد منصرفه من صفّين إذ أقبل شيخ فجثا بين يديه ثمّ قال له: يا أمير المؤمنين: اخبرنا عن مسيرنا إلى أهل الشام أبقضاء الله وقدره؟ فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «أجل مه يا شيخ ما علوتم تلعة ولا هبطتم بطن وادٍ إلّا بقضاء من الله وقدر».

فقال له الشّيخ: عند الله أحتسب عنائي يا أمير المؤمنين.

فقال له عليه السلام: «يا شيخ فوالله لقد عظم الله تعالى لكم الأجر في مسيرتكم وأنتم سائرون وفي مقامكم وأنتم مقيمون وفي منصرفكم وأنتم منصرفون ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا إليه مضطرين».

فقال له الشيخ: وكيف لم نكن في شيء من حالاتنا مكرهين ولا إليه مضطرين وكان بالقضاء والقدر مسيرنا ومنقلبنا ومنصرفنا. (فاستفاد السائل من هذه الإجابة الجبرية).

فقال له عليه السلام: «أو تظن أنّه كان قضاء حتماً وقدراً لازماً؟ أنّه لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب والأمر والنهي والزجر من الله تعالى وسقط معنى الوعد والوعيد فلم تكن لائمة للمذنب ولا محمدة للمحسن ولكان المحسن أولى بالعقوبة من المذنب تلك مقالة إخوان عبدة الأوثان وخصماء الرحمن وحزب الشيطان وقدرية هذه الأُمّة ومجوسها...»[1].

ومن هذا يتّضح أنّ أوّل من وقع في ورطة الاعتقاد بالجبر هو الشيطان.

ثمّ إنّ الشيطان أضاف - تأكيداً لقوله - بأنّه لن يكتفي بالقعود بالمرصاد لهم، بل سيأتيهم من كل حدبٍ وصوبٍ، ويسدّ عليهم الطريق من كل جانب ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾.

---

(١) حق اليقين في معرفة أُصول الدين، ج١، ص٧٢.

يمكن أن يكون هذا التعبير كناية عن أنّ الشيطان يحاصر الإنسان من كل الجهات ويتوسل إلى إغوائه بكل وسيلة ممكنة، ويسعى في إضلاله، وهذا التعبير دارج في المحاورات اليومية أيضاً، فنقول: فلان حاصرته الديون أو الأمراض من الجهات الأربع.

وعدم ذكر الفوق والتحت إنّما هو لأجل أنّ الإنسان يتحرّك عادة في الجهات الأربع المذكورة، ويكون له نشاط في هذه الأنحاء غالباً.

ولقد نقل في حديث مروي عن الإمام الباقر عليه السلام تفسير أعمق لهذه الجهات الأربع حيث قال: «ثمّ قال: ﴿لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾، معناه أهوّن عليهم أمر الآخرة، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾، آمرهم بجمع الأموال والبخل بها عن الحقوق لتبقى لورثتهم. ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾، أفسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة وتحسين الشبهة. ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾، بتحبيب اللذّات إليهم وتغليب الشّهوات على قلوبهم»(١).

وفي آخر آية من الآيات المبحوثة هنا يصدر مرّة أُخرى الأمر بخروج الشيطان من حريم القرب الإلهي والمقام الرفيع، بفارق واحد، هو أنّ الأمر بطرده هنا اتّخذ صورة أكثر ازدراءً وتحقيراً، وأشدّ عنفاً ووقعاً، ولعلّ هذا كان لأجل العناد واللجاج الذي أبداه الشيطان بالإلحاح على الوسوسة للإنسان وإغوائه وإغرائه، يعني أنّ موقفه الأثيم في البداية كان منحصراً في التمرّد على أمر الله وعدم امتثاله، ولهذا صدر الأمر بخروجه فقط، ولكن عندما أضاف معصية أكبر إلى معصيته بالعزم على إضلال الآخرين جاء الأمر المشدَّد: ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾.

ثمّ حلف على أن يملأ جهنّم منه ومن أتباعه ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

فلسفة خلق الشيطان وحكمة إمهاله

في مثل هذه الأبحاث تتبادر إلى الأذهان - عادة - أسئلة متنوعة ومختلفة أهمّها سؤالان:

١ - لماذا خلق الله الشيطان، مع أنّه علم بأنّه سيكون منشأ للكثير من الوساس والضلالات؟

٢ - بعد أن ارتكب الشيطان مثل تلك المعصية الكبيرة، لماذا قبل الله طلبه في الإمهال، وتأخير الأجل؟

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٠٤.

وقد أجبنا على السؤال الأوّل في المجلد الأوّل من تفسيرنا هذا (الأمثل) وقلنا:

أوّلاً: إنّ خلق الشيطان كان في بداية الأمر خلقاً جيّداً، لا عيب فيه، ولهذا احتل موقعاً في صفوف المقرّبين إلى الله، وبين ملائكته العظام، وإن لم يكن من جنسهم ثمّ إنّه بسوء تصرّفه في حريته بنى على الطغيان والتمرّد، فطُرد من ساحة القرب الإلهي، واختصَّ باسم الشيطان.

ثانياً: إنّ وجود الشيطان ليس غيرَ مضرٍّ بالنسبة لسالكي طريق الحقّ فحسب، بل يعدُّ رمزاً لتكاملهم أيضاً، لأنّ وجود مثل هذا العدوّ القويّ في مقابل الإنسان يوجب تربية الإنسان وتكامله وحنكته، وأساساً ينبثق كلّ تكامل من بين ثنايا التناقضات والتدافعات، ولا يسلك أيّ كائن طريق كماله ورشده إلّا إذا واجه ضدّاً قويّاً، ونقيضاً معانداً.

فتكون النتيجة أنّ الشيطان وإن كان بحكم إرادته الحرّة مسؤولاً تجاه أعماله المخالفة، ولكن وساوسه لن تضرّ عباد الله الذين يريدون سلوك طريق الحقّ، بل يكون مفيداً لهم بصورة غير مباشرة.

والجواب على السؤال الثاني يتّضح ممّا قلناه في الجواب على الاعتراض الأوّل، لأنّ مواصلة الشيطان لحياته كقضية سلبية يكون وجودها ضرورياً لتقوية نقاط إيجابية، لا يكون غير مضرٍّ فحسب، بل هو مؤثّر ومفيد أيضاً، فإنّه مع غضّ النظر عن الشيطان، هناك مجموعة من الغرائز المختلفة في داخِلنا، وهي بوقوفها في الطرف الآخر من قوانا العقلية والروحية تشكّلان ساحة صراع وتناقض قويّين، وفي مثل هذه الساحة يتحقق تقدّم الإنسان وتكامله، وتربيته ورشده. واستمرار حياة الشيطان - هو الآخر - لتقوية عوامل هذا التناقض المثمر المفيد.

وبعبارة أُخرى: إنّ الطريق المستقيم يتميّز دائماً بالالتفات إلى الطرق المنحرفة حوله ولولا هذه المقايسة والمقارنة لما أمكن تمييز الطريق المستقيم عن الطريق المنحرف.

كلّ هذا بغض النظر عن أنّنا نقرأ في بعض الأحاديث أنّ الشيطان بعد قيامه بذلك الذنب، عرّض سعادته ونجاته في العالم الآخر للخطر بصورة كلّية، ولهذا فإنّه طلب من الله تعالى أن يعطيه عمراً طويلاً في هذه الدنيا في مقابل عباداته التي كان قد أتى بها قبل ذلك، وكانت العدالة الإلهيّة تقتضي قبول مثل هذا الطلب.

إنّ النقطة المهمّة الأُخرى التي يجب الانتباه إليها - أيضاً - هي أنّ الله تعالى وإن

كان ترك الشيطان حرّاً في القيام بوساوسه، ولكنّه من جانب آخر لم يدع الإنسان مجرّداً من الدفاع عن نفسه.

لأنّه أوّلاً: وهبه قوّة العقل التي يمكن أن توجد سدّاً قويّاً منيعاً في وجه الوساوس الشيطانية خاصّة إذا لقيت تربية صالحة.

وثانياً: جعل الفطرة النقيّة وحبّ التكامل في باطن الإنسان كعامل فعّال من عوامل السعادة.

وثالثاً: يبعث الملائكة التي تلهم الخيرات إلى الذين يريدون أن يعيشوا بمنأى عن الوساوس الشيطانية، كما يصرّح القرآن الكريم بذلك إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾[1] إنّها تنزل عليهم لتقوية معنوياتهم بإلهامهم ألوان البشارات والتطمينات لهم.

ونقرأ في موضوع آخر: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[2] وسدّدوا خطاهم في طريق الحق.

فرضية تطوّر الأنواع وخلقة آدم

هل هناك تلاؤم بين ما يقوله القرآن الكريم في خلقة آدم، مع ما هو مطروح في فرضية الأنواع في أبحاث العلوم الطبيعية، أو لا؟

وأساساً هل بلغت فرضية التطوّر والتكامل مرحلة القطعية واليقين من وجهة نظر العلماء، أو لا؟...

كل هذه الأُمور بحاجة إلى أبحاث مفصّلة سوف نخوضها بمشيئة الله في ذيل آيات أكثر تناسباً، مثل الآيات (٢٦) إلى (٣٣) من سورة الحجر.

﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا

(١) سورة فصّلت، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ١٢.

ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾

التّفسير

وساوس شيطانيَّة في حلل خلاّبة

تُبَيِّنُ هذه الآيات وتستعرض فصلاً آخر من قصّة آدم، فتقول أوّلاً: إنّ الله سبحانه أمر آدم وزوجته حواء بأن يسكنا الجنّة: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾.

ويُستفاد من هذه العبارة أنّ آدم وحواء لم يكونا في بدء الخلقة في الجنّة، إنّما خلقا أوّلاً ثمّ هُديا إلى السكنى في الجنّة وأنّ القرائن تفيد - كما أسلفنا في ذيل الآيات المتعلّقة بقصّة خلق آدم في سورة البقرة - أنّ تلك الجنّة لم تكن جنّة القيامة، بل هي - كما ورد في أحاديث أهل البيت عليهم السلام أيضاً - جنّة الدنيا، أي أنّها كانت بستاناً جميلاً أخضر من بساتين هذا العالم، وفّر الله سبحانه فيها جميع أنواع النِّعم والخيرات[1].

وفي هذه الأثناء صدر أوّل تكليف وأمر ونهي إلى آدم وحواء من جانب الله تعالى، بهذه الصورة: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي إنّ الأكل من جميع أشجار هذه الجنّة مباح لكما، إلّا شجرة خاصّة لا تقرباها، وإلّا كنتما من الظالمين.

ثمّ إنّ الشيطان الذي طُرِدَ من رحمة الله تعالى بسبب إحجامه عن السجود لآدم، وكان قد صمّم على أن ينتقم لنفسه من آدم وبنيه ما أمكن، ويسعى في إضلالهم ما استطاع، وكان يعلم جيّداً أنّ الأكل من الشجرة الممنوعة تعرّض آدم للإخراج من الجنّة، عمد إلى الوسوسة لآدمَ وزوجته، وبغية الوصول إلى هذا الهدف نشر شباكاً متنوعة على طريقهما.

ففي البداية - وكما يقول القرآن الكريم - بدأ بنزع لباس الطاعة والعبودية لله، عنهما، فأبدى عورتهما التي كانت مخبأة مستورة: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾.

---

(١) راجع إلى تفسيرنا هذا ذيل الآية ٣٥ من سورة البقرة.

وللوصول إلى هذا الهدف رأى أنّ أفضل طريق هو أن يستغلّ حبّ الإنسان ورغبته الذاتية في التكامل والرقي والحياة الخالدة، وليوفّر لهما عذراً يعتذران ويتوسلان به لتبرير مخالفتهما لأمر الله ونهيه، ولهذا قال لآدم وزوجته: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾.

وبهذه الطريقة صَوَّرَ الأمر الإلهي في نظرهما بشكل آخر، وصوّر المسألة وكأنَّ الأكل من «الشجرة الممنوعة» ليس غير مضرّ فحسب، بل يورث عمراً خالداً أو نيل درجة الملائكة.

والشاهد على هذا الكلام هو العبارة التي قالها إبليس في سورة طه الآية (١٢٠): ﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾.

فقد جاء في رواية رُويت في تفسير القمي عن الإمام الصادق عليه السلام، وفي «عيون أخبار الرضا» عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: فجاء إبليس فقال: «إنّكما إن أكلتما من هذه الشجرة التي نهاكما الله عنها صرتما ملكين، وبقيتما في الجنّة أبداً، وإن لم تأكلا منها أخرجكما الله من الجنّة»[1].

ولمّا سمع آدم هذا الكلام غرق في التفكير، ولكنّ الشيطان - من أجل أن يحكم قبضته ويعمّق وسوسته في روح آدم وحواء - تَوسَّلَ بالأيمان المغلَّظة للتدليل على أنه يريد لهما الخير! ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

لم يكن آدم يمتلك تجربة كافية عن الحياة، ولم يكن قد وقع في حبائل الشيطان وخدعه بعد، ولم يعرف بكذبه وتضليله قبل هذا، كما أنّه لم يكن في مقدوره أن يصدّق بأن يأتي بمثل هذه الأيمان المغلَّظة كذباً، وينشر مثل هذه الحبائل والشباك على طريقه.

ولهذا وقع في حبال الشيطان، وانخدع بوسوسته في المآل، ونزل بحبل خداعه في بئر الوساوس الشيطانية للحصول على ماء الحياة الخالدة والملك الذي لا يُبلى، ولكنّه ليس فقط لم يظفر بماء الحياة كما ظنّ، بل سقط في ورطة المخالفة والعصيان للأوامر الإلهيّة، كما يعبّر القرآن عن ذلك ويلخّصه في عبارة موجزة إذ يقول: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾[2].

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ١١؛ عيون أخبار الرضا، ج ١، ص ١٩٦.
(٢) دلّى من مادة التدلية وتعني إرسال الدلو في البئر بحبل تدريجاً، وهذه - في حقيقتها - كناية لطيفة عن أنّ الشيطان أنزل بحبل مكره وخداعه آدم وزوجته من مقامهما الرفيع، وأرسلهما إلى قعر بئر المشكلات والابتعاد عن الرحمة الإلهيّة.

ومع أنّ آدم - نظراً لسابقة عداء الشيطان له، ومع علمه بحكمة الله ورحمته الواسعة، ومحبته ولطفه - كان من اللازم أن يبدّد كل الوساوس ويقاومها، ولا يسلّم للشيطان، إلّا أنّه قد وقع ما وقع على كل حال.

وبمجرّد أن ذاق آدم وزوجته من تلك الشجرة الممنوعة تساقط عنهما ما كان عليهما من لباس وانكشفت سوءاتهما ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾.

ويستفاد من العبارة أعلاه إنّهما بمجرّد أن ذاقا من ثمرة الشجرة الممنوعة أُصيبا بهذه العاقبة المشؤومة، وفي الحقيقة جُرِّدا من لباس الجنّة الذي هو لباس الكرامة الإلهيّة.

ويُستفاد من هذه الآية جيّداً إنّهما قبل ارتكابهما لهذه المخالفة لم يكونا عاريين، بل كانا مستورين بلباس لم يرد في القرآن ذكر عن حقيقة ذلك اللباس وكيفيته، ولكنّه على أيّ حال كان يعدّ علامة لشخصية آدم وحواء ومكانتهما واحترامهما، وقد تساقط عنهما بمخالفتهما لأمر الله، وتجاهلهما لنهيه.

على حين تقول التّوراة المحرّفة: إنّ آدم وحواء كانا في ذلك الوقت عاريين بالكامل، ولكنّهما لم يكونا يدركان قبح العري، وعندما ذاقا وأكلا من الشجرة الممنوعة التي كانت شجرة العلم والمعرفة، انفتحت أبصار عقولهما، فرأيا عريهما، وعرفا بقبح هذه الحالة.

إنّ آدم الذي تصفه التّوراة لم يكن في الواقع إنساناً، بل كان بعيداً من العلم والمعرفة جدّاً، إلى درجة أنّه لم يكن يعرف حتى عريه.

ولكن آدم الذي يصفه القرآن الكريم، لم يكن عارفاً بوضعه فحسب، بل كان واقفاً على أسرار الخلقة أيضاً (عِلم الأسماء)، وكان يُعَدّ معلّم الملائكة، وإذا ما استطاع الشيطان أن ينفذ فيه فإنّ ذلك لم يكن بسبب جهله، بل استغلّ الشيطان صفاء نيّته، وطيب نفسه.

ويشهد لهذا القول الآية (٢٧) من نفس هذه السورة، والتي تقول: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾.

وما كتبه بعض الكتّاب المسلمين من أنّ آدم كان عارياً منذ البداية، فهو خطأ بيّن نشأ ممّا ورد في التّوراة المحرّفة.

وعلى كل حال فإنّ القرآن يقول: إنّ آدم وحواء لمّا وجدا نفسيهما عاريين عمدا فوراً

إلى ستر نفسيهما بأوراق الجنّة: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾[١].

وفي هذا الوقت بالذات جاءهما نداء من الله يقول: ألم أُحذّركما من الاقتراب والأكل من هذه الشجرة؟ ألم أقل لكما: إنّ الشيطان عدوٌّ لكما؟ فلماذا تناسيتم أمري ووقعتم في مثل هذه الأزمة: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

من المقايسة بين تعبير هذه الآية والآية الأُولى التي أجاز الله فيها لآدم وحواء أن يسكنا الجنّة، يستفاد بوضوح أنّهما بعد هذه المعصية ابتعدا عن مقام القرب الإلهي إلى درجة أنّ أشجار الجنّة أيضاً اضحت بعيدة عنهما. لأنّه في الآية السابقة تمّت الإشارة إلى الشجرة بأداة الإشارة القريبة ﴿هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ وأمّا في هذه الآية فقد استعملت مضافاً إلى كلمة ﴿نَادَىٰ﴾ التي هي للخطاب من بعيد، استعملت ﴿تِلْكُمَا﴾ التي هي للإشارة إلى البعيد.

بحوث

إنّ في هذه الآية نقاطاً لابدّ من التوقف عندها:

١ - كيفية وسوسة الشيطان

يستفاد من عبارة (وسوس له) نظراً إلى حرف اللام (التي تأتي في العادة للفائدة والنفع) أنّ الشيطان كان يتخذ صفة الناصح، والمحبّ لآدم، في حين أنّ (وسوس إليه) لا ينطوي على هذا المعنى، بل يعني فقط مجرّد النفوذ والتسلّل الخفيّ إلى قلب أحد.

وعلى كل حال يجب أن لا يتصور أنّ الوساوس الشيطانية مهما بلغت من القوّة تسلب الإرادة والاختيار من الإنسان، بل يمكن للإنسان - رغم ذلك - وبقوّة العقل والإيمان أن يقف في وجه تلك الوساوس ويقاومها.

وبعبارة أُخرى: إنّ الوساوس الشيطانية لا تجبر الإنسان على المعصية، بل قوّة الإرادة وحالة الاختيار باقية حتى مع الوساوس، وإنّ مقاومتها تحتاج إلى الاستقامة والصمود الأكثر وربّما إلى تحمّل الألم والعذاب وكذلك فإنّ الوساوس الشيطانية لا

(١) ﴿يَخْصِفَانِ﴾ من مادة «الخصف» وتعني في الأصل ضمّ شيء إلى شيء آخر، والجمع، ثمّ أطلق على ترفيع النعل أو الثوب المتمزق وخياطته فقيل: خصف النعل أو الثوب، أي جمع الأجزاء المتفرقة وضم بعضها إلى الآخر.

تسلب المسؤولية عن أحد ولا تجرّده عنها، كما نلاحظ ذلك في آدم. ولهذا نرى أنّه رغم جميع العوامل التي حفت بآدم، ودعته إلى مخالفة أمر الله ونهيه، وشجّعته عليها، والتي أقامها الشيطان في طريقه، فإنّ الله سبحانه اعتبره مسؤولاً عن عمله، ولهذا عاقبه على النحو الذي سيأتي بيانه.

٢ - ماذا كانت الشّجرة الممنوعة؟

جاءت الإشارة إلى الشجرة الممنوعة في ستة مواضع من القرآن الكريم، من دون أن يجري حديث عن طبيعة أو كيفية أو اسم هذه الشجرة، وأنّها ماذا كانت؟ وماذا كان ثمرها؟ بيد أنّه ورد في المصادر الإسلامية تفسيران لها، أحدهما «ماديّ» وهو أنّها كانت «الحنطة»(١) كما هو المعروف في الرّوايات.

ويجب الانتباه إلى نقطة، وهي أنّ العرب تطلق لفظة «الشجرة» حتى على النبتة، ولهذا أطلقت - في القرآن الكريم - لفظة الشجرة على نبتة اليقطين، إذ قال سبحانه: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾(٢).

والتّفسير الآخر «معنوي» وهو أنّ المقصود من تلك الشجرة - كما في الرّوايات - هو ما عبّر عنها بـ «شجرة الحسد» لأنّ آدم طبقاً لهذه الرّوايات - بعد ملاحظة مكانته ومقامه - تصوّر أنّه لا يوجد فوق مقامه مقام، ولا فوق مكانته مكانة، ولكنّ الله تعالى أطلعه على مقام ثلّة من الأولياء من ذريته وأبنائه (رسول الإسلام وأهل بيته)، فحصل عنده ما يشبه الحسد، وكانت هذه هي الشجرة الممنوعة التي أُمر آدم بأن لا يقربها.

وفي الحقيقة تناول آدم - طبقاً لهذه الرّوايات - من شجرتين، كانت إحداهما أقلّ منه مرتبةً وأدنى منه منزلة، وقد قادته إلى العالم المادي، وكانت هي «الحنطة». والأُخرى هي الشجرة المعنوية التي كانت تمثل مقام ثلّة من أولياء الله، والذي كان أعلى وأسمى من مقامه ومرتبته، وحيث إنّه تعدّى حدّه في كلا الصعيدين ابتلي بذلك المصير المؤلم.

ولكن يجب أن نعلم أنّ هذا الحسد لم يكن من النوع الحرام، بل كان مجرّد إحساس نفساني من دون أن تتبعه أيّة خطوة عملية على طبقه.

---

(١) وللاطلاع على هذه الرّوايات يراجع تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٥٩ و٦٠ وج ٢، ص ١١، في تفسير آيات سورة البقرة وسورة الأعراف.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٤٦.

وحيث إنّ للآيات القرآنية - كما أسلفنا مراراً - معانٍ متعدّدة، فلا مانع من أن يكون كلا المعنيين مرادين من الآية.

ومن حسن الاتفاق أنّ كلمة «الشجرة» قد استعملت في القرآن الكريم في كلا المعنيين، فحيناً استعملت في المعنى المادي المتعارف للشجرة مثل: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾(١) التي هي إشارة إلى شجرة الزيتون، وتارة استعملت في الشجرة المعنوية مثل: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ﴾(٢) التي يكون المراد منها إمّا طائفة من المشركين، أو اليهود، أو الأقوام الطاغية الأخرى مثل بني أُمية.

على أنّ المفسّرين أبدوا احتمالات متعددة أُخرى حول الشجرة الممنوعة، ولكن ما قلناه هو الأبين والأظهر من الجميع.

ولكن النقطة التي يجب أن نذكِّرَ بها هنا، هي أنّه وصفت الشجرة الممنوعة في التّوراة المختلقة - المعترف بها اليوم من قِبَل جميع مسيحيي العالم ويهودييه - بشجرة العلم والمعرفة وشجرة الحياة(٣) تقول التّوراة: إنّ آدم لم يكن عالماً ولا عارفاً قبل أكله من شجرة العلم والمعرفة، حتى أنّه لا يعرف ولم يميّز عريه، وعندما أكل من تلك الشجرة، وصار إنساناً بمعنى الكلمة طرد من الجنّة خشية أن يأكل من شجرة الحياة أيضاً فيخلد كما هو حال الآلهة.

وهذا من أوضح القرائن الشاهدة على أنّ التّوراة الرائجة ليست كتاباً سماوياً، بل هي من نسيج العقل البشري القاصر المحدود، الذي يعتبر العلم والمعرفة عيباً وشيناً للإنسان، ويعتبر آدم بسبب ارتكابه معصية تحصيل العلم والمعرفة مستحقاً للطرد من جنّة الله، وكأنّ الجنّة لم تكن مكان العقلاء الفاهمين ومنزل العلماء العارفين!!

والملفت للنظر أنّ الدّكتور «ويليم ميلر» الذي يُعَدّ من مفسري الإنجيل القديرين والبارزين بل من مفسّري العهدين (التّوراة والإنجيل معاً) يقول في كتابه المسمى «ما هي المسيحية؟»: «إنّ الشيطان تسلّل إلى الجنّة في صورة حيّة، وأقنع حواء بأن تأكل من ثمرة تلك الشجرة، ثمّ أعطت حواء من تلك الثمرة إلى آدم، فأكل منها آدم أيضاً، ولم يكن فعل أبوينا الأوّليين مجرّد خطأ عادي، أو غلطة ناشئة من عدم التفكير، بل كان

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢٠. (٢) سورة الإسراء، الآية: ٦٠.

(٣) التّوراة، سفر التكوين الإصحاح الثاني الفقرة رقم ١٧.

معصية متعمّدة ضدّ الخالق، وبعبارة أُخرى: إنّ آدم وحواء كانا يريدان بهذا الصنيع أن يصيرا آلهة، إنّهما لم يرغبا في أن يطيعا الله، بل كانا يريدان أن يعملا وفق رغباتهما وميولهما الشخصية، فماذا كانت النتيجة؟ لقد وبّخهما اللهُ تعالى بشدّة، وأخرجهما من الجنّة، ليعيشا في عالم مليء بالعذاب والألم والمحنة».

لقد أراد مفسّر التّوراة والإنجيل هذا أن يبرر شجرة التّوراة الممنوعة، ولكنّه نسب أعظم الذنوب - وهو مضادة الله ومحاربته - إلى آدم. . . أما كان من الأفضل أن يعترف - بدل إعطاء مثل هذه التّفسيرات - بتطرّق التحريف والتلاعب إلى هذه الكتب المسماة بالكتب المقدّسة؟!

٣ - هل ارتكب آدم معصية

يُستفاد ممّا نقلناه من الكتب المقدَّسة - لدى اليهود والنصارى - أنّهم يعتقدون بأنّ آدم ارتكب معصية، بل ترى كتبهم أنّ معصيته لم تكن معصية عادية، وإنّما كانت معصية كبيرة وإثماً عظيماً، بل إنّ الذي صَدَرَ عن آدم هو مضادة الله والطموح في الألوهية والربوبيّة، ولكن المصادر الإسلامية - عقلاً ونقلاً - تقول لنا: إنّ الأنبياء لايرتكبون إثماً، وإنّ منصب إمامة الناس وهدايتهم لا يُعطى لمن يرتكب ذنباً ويقترف معصية. ونحن نعلم أنّ آدم كان من الأنبياء الإلهيين، وعلى هذا الأساس فإنّ كلّ ما ورد في هذه الآيات مثل غيرها من التعابير التي جاءت في القرآن حول سائر الأنبياء الذين نسب إليهم العصيان، جميعها تعني «العصيان النسبي» و«ترك الأَولى» لا العصيان المطلق.

وتوضيح ذلك: إنّ المعصية على نوعين: «المعصية المطلقة» و«المعصية النسبية»، والمعصية المطلقة هي مخالفة النهي التحريمي، وتجاهل الأمر الإلهي القطعيّ، وهي تشمل كلَّ نوع من أنواع ترك الواجب وإتيان الحرام.

ولكن المعصية النسبية هي أن يصدر من شخصية كبيرة عمل غير حرام لا يناسب شأنه ولا يليق بمقامه، وربّما يكون إتيان عمل مباح - بل ومستحب - لا يليق بشأن الشخصيات الكبيرة، وفي هذه الصورة يُعدّ إتيان ذلك العمل «معصية نسبية»، كما لو ساعد مؤمنٌ واسع الثراء فقيراً لإنقاذه من مخالب الفقر بمبلغ تافه، فإنّه ليس من شكّ في أنّ هذه المعونة المالية مهما كانت صغيرة وحقيرة لا تكون فعلاً حراماً، بل هي أمر مستحب، ولكن كل من يسمع بها يذمُ ذلك الغني حتى كأنّه ارتكب معصية واقترف ذنباً، وذلك لأنّه يتوقّع من مثل هذا الغني المؤمن أن يقوم بمساعدة أكبر.

وانطلاقاً من هذه القاعدة تقاس الأعمال التي تصدر من الشخصيات الكبيرة بمكانتهم وشأنهم الممتاز، وربّما يطلق على ذلك العمل - مع مقايسته بذلك - لفظ «العصيان» و«الذنب».

فالصّلاة التي يقوم بها فرد عادي قد تعتبر صلاةً ممتازةً، ولكنّها تعدّ معصية إذا صدر مثلها من أولياء الله، لأنّ لحظة واحدة من الغفلة في حال العبادة لا تناسب مقامهم ولا تليق بشأنهم. بل نظراً لعلمهم وتقواهم ومنزلتهم القريبة يجب أن يكونوا حال عبادة الله تعالى مستغرقين في صفات الله الجمالية والجلالية، وغارقين في التوجّه إلى عظمته وحضرته.

وهكذا الحال في سائر أعمالهم، فإنّها على غرار عباداتهم، يجب أن تقاس بمنازلهم وشؤونهم، ولهذا إذا صدر منهم «ترك الأولى» عوتبوا من جانب الله، والمراد من ترك الأَولى، هو أن يترك الإنسان فعل ما هو الأفضل، ويعمد إلى عمل جيّد أو مُستحبّ أدنى منه في الفضل.

فإنّنا نقرأ في الأحاديث الإسلامية أنّ ما أُصيب به يعقوب من محنةِ فراقِ ولده يوسف، كان لأجل غفلته عن إطعام فقير صائم وقف على باب بيته عند غروب الشمس يطلب طعاماً، فغفل يعقوب عن إطعامه، فعاد ذلك الفقير جائعاً منكسراً خائباً.

فلو أنّ هذا الصنيع صدر من إنسان عادي من عامّة الناس لما حظي بمثل هذه الأهمّية والخطورة، ولكن يُعدّ صدوره من نبيّ إلهيٍّ كبير، ومن قائد أُمّة، أمراً مُهمّاً وخطيراً يستتبع عقوبةً شديدةً من جانبِ الله تعالى[1].

إنّ نهي آدم عن الشجرة الممنوعة لم يكن نهياً تحريمياً، بل كان تركَ أَوْلى، ولكن نظراً إلى مكانة آدم ومقامه ومرتبته عُدَّ صدورُه أمراً مهمّاً وخطيراً، واستوجب مخالفة هذا النهي (وإن كان نهياً كراهياً وتنزيهياً) تلك العقوبة والمؤاخذة من جانب الله تعالى.

هذا وقد احتمل بعض المفسّرين - أيضاً - أنّ نهي آدم عن الشجرة الممنوعة كان «نهياً إرشادياً» لا نهياً مولوياً، وتوضيح ذلك: أنّه قد ينهى الله تعالى عن شيء من منطلق كونه مالك الإنسان وصاحب أمره ومولاه، وطاعة هذا النوع من النهي واجبة على كلّ أحد من الناس، وهذا النوع من النهي يسمى نهياً مولوياً.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٢، ص ٤١١، نقلاً عن كتاب علل الشرائع، ج ١، ص ٤٥.

ولكنّه قد ينهى عن شيء لمجرّد أن ينبّه الإنسان على أنّ ارتكاب هذا النهي ينطوي على أثر غير محمود تماماً، مثل نهي الطبيب عن الأطعمة المضرّة، ولا شكّ في أنّ المريض لو خالَفَ الطبيب لا يكون قد أهان الطبيب، ولا أنّه خالف شخصه، بل يكون بتجاهله نهيَ الطبيب قد تجاهَلَ إرشاده، وجرّ إلى نفسه التّعَب والنَّصَب.

وفي قصّة آدم أيضاً قال الله تعالى له: إنّ نتيجة الأكل من الشجرة الممنوعة هي الخروج من الجنّة، والوقوع في التعب والنصب، وكان هذا مجرّد إرشاد وليس أمراً، وبهذا فإنّ آدم خالفَ نهياً إرشادياً فقط، لا أنّه أتى عصياناً وذنباً واقعياً.

ولكنَ التّفسير الأوّل أصحّ، لأنَّ النهي الإرشاديّ لا يحتاج إلى مغفرة، في حين أنَّ آدم - كما سنقرأ في الآية اللاحقة - يطلب من الله تعالى الغفران، هذا مضافاً إلى أنّ فترة الجنّة كانت تعدّ فترةً تدريبية وتعليمية بالنسبة لآدم. . . ، فترة الوقوف على التكاليف والأوامر والنواهي الإلهيّة. . . فترة معرفة الصّديق والعدو. . . فترة الوقوف على نتائج العصيان وثمرة مخالفة الأمر الإلهي واتباع الشيطان وقبول وساوسه، ونحن نعلم أنّ النهي الإرشادي ليس في حقيقته تكليفاً، ولا ينطوي على تعهّد، ولا يورث مسؤولية.

وفي خاتمة هذا البحث نذكّر القارىء بأنّ كلمة «النهي» و«العصيان» و«الغفران» و«الظلم» تبدو في بادىء النظر وكأنّها تعطي معنى المعصية المطلقة والذنب الحقيقي وآثاره، ولكن نظراً لمسألة عصمة الأنبياء الثابتة بالدليل العقلي والنقلي تُحمل جميع هذه التعابير على «العصيان النسبيّ»، وهذا الأمر لا يبدو بعيداً عن ظاهر اللفظ بالنظر إلى منزلة آدم العظيمة وسموّ مقامه.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾
قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾
قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

التّفسير

رجوع آدم إلى الله وتوبته

وفي المآل عندما عرفَ آدم وحواء بكيد إبليس، وخطّته ومكره الشيطاني، ورأيا نتيجة مخالفتهم فكّرا في تلافي ما فات، وجبران ما صدر منهما، فكانت أوّل خطوة خطياها

هي: الاعتراف بظلمهما لنفسيهما أمام الله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

والخطوة الأولى في سبيل التوبة والإنابة إلى الله وإصلاح المفاسد هي: أن ينزل الإنسان عن غروره ولجاجه، ويعترف بخطئه اعترافاً بَنّاءً واقعاً في سبيل التكامل.

والملفت للنظر أنّ آدم وحواء يُظهران أدَباً كبيراً مع الله في توبتهما وطلبهما العفو والغفران منه تعالى فلم يقولا: ربّنا اغفر لنا، بل يقولان: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

ولا شكّ أنّ مخالفة أوامر الله ونواهيه ظلم يورده الإنسان على نفسه، لأنّ جميع البرامج والأوامر الإلهيّة تهدف إلى خير الإنسان، وتتكفل سعادته وتقدّمه، وعلى هذا الأساس فإنّ أيّة مخالفة من جانب الإنسان تكون مخالفة لتكامل نفسه، وسبباً لتأخّرها وسقوطها، وآدم وحواء وإن لم يذنبا ولم يرتكبا معصية، ولكن نفس هذا الترك للأولى أنزلهما من مقامهما الرفيع، واستوجب حطّ منزلتهما.

إنّ توبة آدم وحواء الخالصة وإن قُبلت من جانب الله تعالى - كما نقرأ ذلك في الآية (٣٧). من سورة البقرة ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ - ولكنّهما لم يستطيعا على كل حال التخلّص من الأثر الوضعي والنتيجة الطبيعة لعملهما، فقد أُمِرا بمغادرة الجنّة، وشمل هذا الأمر الشيطان أيضاً: ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

كما ذكّر الجميع بأنّهم سيتعرّضون في الأرض للموت بعد الحياة، ثمّ يخرجون من الأرض مرّة أُخرى للحساب ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

والظاهر أنّ المخاطبين في هذه الآية: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ هم آدم وحواء وإبليس جميعاً، ولكن لا يبعد أن يكون المخاطبين في الآية اللاحقة هم آدم وحواء فقط لأنّهما هما اللذان يخرجان من الأرض.

قصّة آدم ومستقبل هذا العالم:

إنّ بعض المفسّرين الذين تأثّروا بموجة الأفكار الغربية الإلحادية عادة، وحاولوا أن يضفوا على قصّة آدم وحواء من بدايتها إلى نهايتها طابع التشبيه والكناية والمجازية، أو ما يسمّى الآن بالرمزية، ويحملوا جميع الألفاظ المتعلقة بهذه الحادثة - على خلاف الظاهر - على الكناية عن المسائل المعنوية.

ولكن الذي لا شكّ فيه أنّ ظاهر هذه الآيات يحكي عن حادثة واقعية عينية وقعت لأبينا وأُمّنا الأوّلين: آدم وحواء، وحيث إنّ هذه القصّة لا تتضمّن أيّة نكتة غير قابلة للتفسير حسب الظاهر، كما ليس فيها ما يخالف الموازين العقلية (ليكون قرينة على حملها على المعنى الكنائي) لهذا ليس هناك أيّ دليل على أن نعرض عن ظاهر الآيات، ولا نحملها على معناها الحقيقي.

ولكن مع ذلك يمكن أن تحمل هذه الحادثة الواقعية الحسية إشارات إلى حياة النوع البشري في مستقبل هذا العالم.

يعني أنّ الإنسان المركّب من قوّة «العقل» ومن «الغرائز الجامحة» والتي تجرّه كل واحدة منهما إلى جهة وناحية يواجه في خضم هذه الحياة الصاخبة دعاة كذّابين أصحاب سوابق سيئة مثل الشيطان، يحاولون بوساوسهم المتواصلة إلقاء الستار والحجاب على عقله بغية عزله عنه، وبغية خداعه وإضلاله وتركه حائراً في متاهات الحياة يبحث عن سراب.

إنّ أوّل نتيجة للاستسلام أمام الوساوس هو انهيار حاجز التقوى، وسقوط لباسه، وانكشاف مساوئه وسوءاته.

والأُخرى هي الابتعاد عن مقام القرب إلى الله، وسقوط الإنسان عن مقام الإنسانية الكريم، والإخراج من جنّة الأمن والطمأنينة، والوقوع في دوّامة الحياة المادية المضنية.

وفي هذه الحالة يمكن لقوّة العقل - أيضاً - أن تساعد الإنسان وتعينه على النهوض من كبوته، فيفكّر فوراً في تلافي ما فاته، وجبران ما بدر منه، فيبعثه العقل والتفكير إلى أن يعود إلى الله كي يعترف بكل شجاعة وصراحة بذنوبه، اعترافاً بنّاءً واعياً مفيداً يعدُّ منعطفاً في حياته.

وفي هذا الوقت تمتد إليه يد الرحمة الإلهيّة مرّة أُخرى، وتنقذه وتخلّصه من السقوط الأبدي، وإن كان لا يستطيع مع ذلك التخلّص من آثار معصيته الوضعية ونتائجها الطبيعية مهما كانت قليلة ومحدودة. ولكن هذه الحادثة ستكون له درساً وعبرة، وسيمكّنه ذلك من أن يتخذ من هذه الهزيمة قاعدة صلبة لانتصاره في مستقبل الحياة، ويستفيد من هذا الضرر نفعاً كبيراً في المراحل القادمة من حياته.

﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ
ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ
كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ
هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾
وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ
بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

التّفسير

إنذار إلى كل أبناء آدم

إنّ قصة آدم ومشكلته مع الشيطان - كما أسلفنا في آخر بحث في الآيات السابقة - عكست تصويراً واقعياً عن حياة جميع أفراد البشر على الأرض، ولهذا بيّن الله تعالى في الآيات الحاضرة وما بعدها سلسلة من التعاليم والبرامج البنّاءة لجميع أبناء آدم، وهي تعتبر في الحقيقة استمراراً لبرامج آدم في الجنّة.

ففي البداية يشير إلى مسألة اللباس وستر سَوءات البدن التي كان لها دور مهم في قصّة آدم، إذ يقول: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾.

ولكن فائدة اللباس الذي أرسلناه لكم لا تقتصر على ستر البدن وإخفاء العيوب والسوءآت، بل للتجمل والزينة أيضاً حيث يجعل أجسامكم أجمل ممّا هي عليه. ﴿وَرِيشًا ۖ﴾.

وكلمة «ريش» في الأصل هو ما يستر أجسام الطيور، وحيث إنّ ريش الطيور هو اللباس الطبيعي في أجسامها، لهذا أُطلِق على نوع من أنواع الألبسة، ولكن حيث إنّ ريش الطير في الأغلب مختلف الألوان جميلها، لذلك تتضمّن هذه الكلمة مفهوم الزينة والجمال، هذا مضافاً إلى أنّه تطلق كلمة الريش على الأقمشة التي تُلقى على سَرْج الفرس أو جهاز البعير.

وقد أطلق بعض المفسّرين وأهل اللغة هذه اللفظة على معنى أوسع أيضاً، وهو كل نوع من أنواع الأثاث والحاجيات التي يحتاج إليها الإنسان، ولكن الأنسب في الآية الحاضرة هو الألبسة الجميلة وثياب الزينة.

ثمّ تحدث القرآن عقيب هذه الجملة التي كانت حول اللباس الظاهري، عن حدّ اللباس المعنوي تبعاً لسيرته في الكثير من الموارد التي تمزج بين الجانبين المادي والمعنوي، الظاهري والباطني إذ قال: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.

وتشبيه التقوى باللباس تشبيه قوي الدلالة، معبّرٌ جدّاً، لأنّه كما أنّ اللباس يحفظ البدن من الحرّ والقرّ، يقي الجسم عن الكثير من الأخطار، ويستر العيوب الجسمانية، وهو بالإضافة إلى هذا وذاك زينة للإنسان، ومصدر جمال، كذلك روح التقوى، فإنّها مضافاً إلى ستر عيوب الإنسان، ووقايته من الكثير من الأخطار الفردية والاجتماعية، تعدّ زينة كبرى له. . . زينة ملفتة للنظر تضيف إلى شخصيته رفعة وسمّواً، وتزيدها جلالاً وبهاءً.

ثمّ إنّ هناك مذاهب متعددة للمفسّرين في تحديد المراد من لباس التقوى، وأنّه ما هو؟

فبعض فسّره بـ «العمل الصالح» وبعض بـ «الحياء» وبعض بـ «لباس العبادة»، وبعض بـ «لباس الحرب» مثل الدرع والخوذة[1]، وحتى الترس، لأنّ لفظة التقوى مشتقّة من مادة «الوقاية» بمعنى الحفظ والحماية، وبهذا المعنى جاء في القرآن الكريم أيضاً، كما نقرأ في سورة النحل الآية (٨١): ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾.

ولكن للآيات القرآنية - كما قلنا مراراً - معنًى واسعاً في الغالب، ولها مصاديق متعددة ومختلفة، وفي الآية الحاضرة - أيضاً - يمكن استفادة جميع هذه المعاني منها.

وحيث إنّ لباس التقوى في هذه الآية موضوع في مقابل اللباس الساتر للبدن، لهذا يبدو للنظر أنّ المراد منه هو «روح التقوى» التي تحفظ الإنسان، وتنطوي تحتها معاني «الحياء» و«العمل الصالح» وأمثالهما.

ثمّ إنّ الله تعالى يقول في ختام الآية: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي إنّ هذه الألبسة التي جعلها الله لكم، سواء الألبسة المادية أو المعنوية، اللباس الجسماني أو لباس التقوى، كلّها من آيات الله ليتذكر الناس نعم الربّ تعالى.

نزول اللباس

نلاحظ في آيات متعددة من القرآن الكريم أنّ الله سبحانه يقول في صعيد توفير اللباس

---

(١) بحار الأنوار، ج ٣٤، ص ٦٦ و ٦٧؛ أصول الكافي، ج ٥، ص ٤.

للبشر: «وأنزلنا» وهو بمعنى الإرسال من مكان عالٍ إلى الأسفل، إذ يقول: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ في حين أنّ اللباس كما هو المعلوم أمّا أنّه يُتّخذ من الصوف، أو يتّخذ من مواد نباتيّة وما شاكل ذلك من أشياء الأرض.

كما أننا نقرأ في الآية (٦) من سورة الزمر: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ وفي سورة الحديد الآية (٢٥) ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾. فماذا يعني هذا؟

يصرّ كثيرٌ من المفسّرين على تفسير مثل هذه الآيات بالنّزول المكاني أي من فوق إلى تحت، مثلاً يقولون: إنّ ماء المطر ينزل من السماء إلى الأرض فتروى منه النباتات والحيوانات، من هنا تكون مواد اللباس قد نزلت - بهذا المعنى - من السماء إلى الأرض.

وفي مجال الحديد أيضاً يقولون: إنّ الأحجار والصخور السماوية العظيمة التي تحتوي على عناصر الحديد قد انجذبت إلى الأرض.

ولكن النّزول ربّما استعمل بمعنى النّزول المقامي، وقد استعملت هذه اللفظة في المحاورات اليومية بهذا الشكل كثيراً، فيقال مثلاً: أصدر الحاكم أمره إلى أمرائه ومعاونيه، أو يقال: رفعت شكواي إلى القاضي، لهذا لا داعي إلى الإصرار على تفسير هذه الآيات بالنّزول المكاني.

فحيث إنّ النِّعم الإلهيّة قد صدرت من المقام الرّبوبي الرفيع إلى البشر، لهذا عُبّرَ عن هذا المفهوم بهذا اللفظ، وهو تعبير يدركه الإنسان بدون إشكال أو صعوبة.

ويُشبه هذا الموضوع ما نلاحظه في ألفاظ الإشارة القريبة والبعيدة أيضاً، فقد يكون شيء ما ذا بال أو موضوع مهمّ في متناول أيدينا، ولكنّه - لما كان من حيث الشأن - يتمتّع بمقام مهمّ رفيع، فإنّنا نشير إليه باسم الإشارة البعيد، فنقول في محاوراتنا مثلاً: تلك الشّخصية، ونحن نقصد رجلاً حاضراً قريباً، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[1]. والمقصود من الكتاب المشار إليه بالإشارة البعيدة القرآن الحاضر، ولكن تعظيماً له استعيض في الإشارة إليه عن أداة الإشارة القريبة بأداة الإشارة البعيدة.

اللباس في الماضي والحاضر

لم يزل الإنسان فيما مضى - كما يشهد به التاريخ - يلبس الثياب، ولكن الألبسة قد

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢.

تغيرت وتنوعت تنوعاً بالغاً عبر الزمن، فقد كانت الثياب تلبس فيما سبق - وفي الأغلب - لأجل حفظ الجسم من الحرّ والقرّ وكذا للزينة والتجمل، والجانب الوقائي كان يأتي في الدرجة اللاحقة، ولكن في ظل الحياة الصناعية الحاضرة أصبح الجانب الوقائي في المرتبة الأُولى من الأهمّية في كثير من الحقول، فرجال الفضاء ورجال الإطفاء، وعمال المعادن والمناجم والغواصون، وغيرهم كثيرون، يستخدمون ألبسة خاصّة لوقاية أنفسهم من مختلف الأخطار.

لقد تطورت وسائل إنتاج الألبسة والثياب في عصرنا الراهن تطوراً هائلاً، واتسع نطاقها اتساعاً كبيراً، بحيث أصبح لا يقاس بما مضى.

يقول كاتب تفسير المنار في المجلد الثّامن عند تفسير الآية المبحوثة هنا: «لقد بلغ من إتقان صناعات اللباس أنّ عاهل ألمانية الأخير (قيصرها) دخل مرّة أحد معامل الثياب ليشاهد ماوصلت إليه من الإتقان، فجزوا أمامه عند دخوله صوف بعض كباش الغنم، ولما انتهى من التجوال في المعمل ومشاهدة أنواع العمل فيه، وأراد الخروج قدّموا له معطفاً ليلبسه تذكاراً لهذه الزيارة، وأخبروه أنّه صُنع من الصوف الذي جزوه أمامه عند دخوله، فهم قد نظفوه في الآلات المنظِّفة، فغزلوه بآلات الغزل، فنسجوه بآلات النسج، ففصَّلوه فخاطوه في تلك الفترة القصيرة، فانتقل في ساعة أو ساعتين من ظهر الخروف إلى ظهر الإمبراطور»[١].

ولكن - للأسف - قد اتسعت الجوانب الفرعية، بل وغير المحمودة والفاضحة للثياب والألبسة وتعددت كثيراً إلى درجة أنّها غطت على الفلسفة الأصلية للباس.

لقد أصبح اللباس - اليوم - وسيلة لأنواع التظاهر، وإشاعة الفساد، وتحريك الشهوات، والتكبر والإسراف والتبذير، وما شابه ذلك. حتى أنّنا ربّما نشاهد ألبسة يرتديها جماعات من الناس - وبخاصّة الشباب المتغرب - يفوق طابعها الجنوني على الطابع العقلاني، وتكون أشبه بكل شيء إلّا باللباس والثوب.

والذي تقود إليه الدراسة الموضوعية لهذه الظاهرة، هو أنّ للعُقد النفسية دوراً مهمّاً في ارتداء مثل هذه الألبسة العجيبة الغريبة، فالأفراد الذين لا يتمكنون من القيام بعمل مهم وملفت للنظر لتوكيد وجودهم في المجتمع يلجأون إلى هذا الأسلوب ويحاولون

---

(١) تفسير المنار، ج ٨، ص ٣٥٩.

بارتداء هذه الألبسة غير المأنوسة والعجيبة إثبات وجودهم وحضورهم، ولهذا نلاحظ أنّ أصحاب الشخصيات المحترمة، أو الذين لا يعانون من عقدٍ نفسيّة ينفرون من ارتداء مثل هذه الثياب.

وعلى كل حال فإنّ مبالغ طائلة وثروات عظيمة جدّاً تهدر وتبدّد - اليوم - في سبيل اقتناء وتعاطي الألبسة المتنوعة والموضات المختلفة ولو مُنع هذا التبذير والإسراف فيها لأمكن حل الكثير من المشكلات الاجتماعية بها، ولتحولت إلى بلاسم وضمادات ناجعة لكثير من جراحات الطبقات المحرومة والفئات البائسة الفقيرة في المجتمعات البشرية.

هذا ويُستفاد من تاريخ حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسائر الأئمّة العظام أنّهم كانوا يعارضون بشدّة مسألة التفاخر بالألبسة والإفراط في التجمل بها، إلى درجة أنّنا نقرأ في الرّوايات أنّ وفداً من النصارى قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة، وهم يلبسون الألبسة الحريرية الجميلة جدّاً، والتي لم يرها العرب إلى ذلك اليوم ولم يُعهد أن لبسوها، فلما حضروا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سلّموا عليه، لم يردَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على سلامهم، بل أحجم حتى عن التحدث معهم ولو بكلمة، وأعرض عنهم، فلمّا سألوا عليّاً عليه السلام عن سبب إعراض النّبي صلى الله عليه وآله وسلم عنهم، قال عليه السلام لهم: أرى أن تضعوا حللكم هذه وخواتيمكم ثمّ تعودون إليه.

ففعل النصارى ما قاله لهم الإمام عليه السلام، ثمّ دخلوا على النّبي صلى الله عليه وآله وسلم فسلّموا عليه فردّ عليهم وتحدث معهم. ثمّ قال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي بعثني بالحق لقد أتوني المرّة الأُولى وإنّ إبليس لمعهم»[1].

الآية اللاحقة يحذّر فيها الله سبحانه جميع أبناء البشر من ذرية آدم من كيد الشيطان ومكره، ويدعو إلى مراقبته، والحذر منه، لأنّ الشيطان أبدى عداءه لأبيهم آدم، فكما أنّه نزع عنه لباس الجنّة بوساوسه يمكن أن ينزع عنهم لباس التقوى، ولهذا يقول تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾.

(١) سفينة البحار، ج الثاني، ص ٤ - ٥، مادة لبس.

وفي الحقيقة إنّ الأمر الذي يربط الآية الحاضرة بالآية السابقة هو أنّ الآية السابقة تحدثت عن اللباس الظاهري والمعنوي للإنسان ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، وهذه الآية تضمنت تحذيراً ودعوة لمراقبة الشيطان والحذر من نزعه لباس التقوى عنكم.

على أنّ ظاهر عبارة ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ هو نهي الشيطان عن هذا العمل، ولكن أمثال هذه العبارات تعتبر كنايات لطيفة لنهي المخاطب، وتشبه ما إذا خاطبنا صديقاً نحبه قائلين: لا يصح أن يوجه إليك فلان ضربة، أي راقبه حتى لا تتعرض لضربته وأذاه.

ثمّ إنّ الله تعالى يؤكّد على أنّ الشيطان وأعوانه يختلفون عن غيرهم من الأعداء ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ فلا بدّ من شدّة الحذر من مثل هذا العدّو.

وفي الحقيقة عند ما تظن أنّك وحيد، فإنّه من الممكن أن يكون حاضراً معك، فيجب عليك الحذر من هذا العدوّ الخفيّ الذي لا يمكن معرفة لحظات هجومه وعدوانه المباغت، ولابدّ من اتخاذ حالة الدفاع الدائم أمامه.

وفي خاتمة الآية يأتي سبحانه بجملة هي في الحقيقة إجابة على سؤال مهم، فقد يتساءل أحد: كيف سلّط الله العادل الرحيم عدوّاً بهذه القوة على الإنسان... عدوّاً لا يمكن مقايسة قواه بقوى الإنسان... عدواً يذهب حيث يشاء دون أن يحس أحد بتحركاته، بل إنّه - حسبما جاء في بعض الأحاديث - يجري من الإنسان مجرى الدم في عروقه، فهل تنسجم هذه الحقيقة مع عدالة الله سبحانه؟![(١)]

الآية الشريفة - في خاتمتها - ترد على هذا السؤال الاحتمالي إذ تقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي إنّ الشياطين لا يسمح لهم قط بأن يتسلّلوا وينفذوا إلى قلوب وأرواح المؤمنين الذين لم يكونوا على استعداد لقبول الشيطان والتعامل معه.

وبعبارة أُخرى: إنّ الخطوات الأُولى نحو الشيطان إنّما يخطوها الإنسان نفسه، وهو الذي يسمح للشيطان بأن يتسلل إلى مملكة جسمه. فالشيطان لا يستطيع اجتياز حدود الروح ويعبرها إلّا بعد موافقة من الإنسان نفسه، فإذا أغلق الإنسان نوافذ قلبه في وجه الشياطين والأبالسة، فسوف لا تتمكن من النفوذ إلى باطنه.

(١) أُصول الكافي، ج ٢، ص ٤٤٠؛ وتفسير العياشي، ج ١، ص ٢٧٦ و ٣٠٩.

إنّ الآيات القرآنية الأُخرى شاهدة أيضاً على هذه الحقيقة، ففي سورة النحل في الآية (١٠٠) نقرأ ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾، فالذين يتعشقون الشيطان ويسلمون إليه زمام أمرهم ويعبدونه هم الذين يتعرضون لسيطرته ووساوسه.

وفي الآية (٤٧) من سورة الحجر نقرأ ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

وبعبارة أُخرى: صحيح أنّنا لا نرى الشيطان وجنوده وأعوانه، إلّا أننا نستطيع أن نرى آثار أقدامهم، ففي كل مجلس معصية، وفي كل مكان تهيّأت فيه وسائل الذنب، وفي كل مكان توفرت فيه زبارج الدنيا وبهارجها، وعند طغيان الغرائز، وعند اشتعال لهيب الغضب، يكون حضور الشيطان حتمياً ومسلّماً، وكأنَّ الإنسان يسمع في هذه المواقع صوت وساوس الشيطان بآذان قلبه، ويرى آثار قدمه بأُمّ عينيه.

وقد روي - في هذا الصعيد - حديث رائع عن الإمام الباقر عليه السلام إذ يقول: «لما دعا نوحُ ربّه عزّ وجلّ على قومه أتاه إبليس لعنه الله فقال: يا نوح إنّ لك عندي يداً! أُريد أن أُكافئك عليها.

فقال نوح: إنّه ليبغض إليّ أن يكون لك عندي يد، فما هي؟

قال: بلى دعوت الله على قومك فأغرقتهم، فلم يبق أحد أغويه، فأنا مستريح حتى ينشأ قرن آخر وأغويهم.

فقال نوح: ما الذي تريد أن تكافيني به؟

قال: اذكرني في ثلاثة مواطن، فإنّي أقرب ما أكون إلى العبد إذا كان في أحدهن:

اذكرني إذا غضبتَ؟

واذكرني إذا حكمت بين اثنين!

واذكرني إذا كنتَ مع امرأة خالياً ليس معكما أحد!»(١).

النقطة الأُخرى التي يجب الانتباه إليها هنا، هي أنّ ثلّة من المفسّرين استنبطوا من هذه الآية أنّ الشيطان غير قابل للرؤية للإنسان مطلقاً، في حين يستفاد من بعض الرّوايات أنّ هذا الأمر ممكن أحياناً(٢).

---

(١) بحار الأنوار، الطبعة الجديدة، ج ١١، ص ٣١٨.
(٢) بحار الأنوار، ج ١٨، ص ١١١.

ولكن الظاهر أنّ هذين الاتجاهين غير متعارضين، لأنّ القاعدة الأولية والأصلية هي أن لا يُرى، ولكن لهذه القاعدة - كغيرها - استثناءات، فلا تناف.

في **الآية التالية** يشير تعالى إلى واحدة من وساوس الشيطان المهمّة والتي تجري على ألسنة بعض الشياطين من الإنس أيضاً، وهي أنّه عندما يُسأل الشخص لدى ارتكابه عملاً قبيحاً، عن دليله يجيب قائلاً: هذا ما وجدنا آباءنا يفعلونه: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾.

ثمّ يضيفون إلى هذه الحجّة حجّة كاذبة أُخرى قائلين: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

إنّ مسألة التقليد الأعمى للآباء، بالإضافة إلى الافتراء على الله، عذران مختلفان، وحجّتان داحضتان يتشبث بهما العصاة المتشيطنون لتبرير أعمالهم القبيحة غالباً.

والملفت للنظر أنَّ القرآن الكريم لم يَعبأ بالدليل الأوّل (يعني التقليد الأعمى للآباء والأسلاف) ولم يعتن به، وكأنّه وجد نفسه في غنىً عن الرّدّ عليه وإبطاله، لأنّ العقل السليم يدرك بطلانه، هذا مضافاً إلى أنّه قد ردّ عليه في مواضع عديدة من القرآن الكريم. وإنّما اكتفى بالردّ على الحجّة الثّانية، أو بالأحرى (التبرير الثّاني) حيث قال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾.

إنّ الأمر بالفحشاء حسب تصريح الآيات القرآنية عمل الشيطان لا عمل الله، فإنّه تعالى لا يأمر إلّا بالمعروف والخير[1].

ثمّ يختم الآية بهذه العبارة: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ورغم أنّ الأنسب أن يقول: لماذا تنسبون ما هو كذب وليس له واقع إلى الله؟ لكنّه قال بدل ذلك: لماذا تقولون ما لا تعلمون على الله؟ وهذا في الحقيقة استناداً إلى الحدّ الأدنى من موضع قبول الطرف الآخر، فيقال: إذا كنتم لا تتيقنون كذب هذا الكلام، فعلى الأقل ليس لديكم دليل على إثباته، فلماذا تتهمون الله وتقولون على الله ما لا تعلمون؟!.

ما المقصود من الفحشاء؟

ما هو المراد من الفحشاء هنا؟ قالت طائفة كبيرة من المفسّرين: إنّها إشارة إلى تقليد كان سائداً بين جماعة من العرب في العهد الجاهلي، وهو الطواف حول بيت الله

---

(١) راجع سورة البقرة، الآيتان: ٢٦٨ و٢٦٩.

المعظم عراة «رجالاً ونساءً» ظناً منهم بأنّ الثياب التي إرتكبت فيها الذنوب لا تليق بأن يطاف بها حول الكعبة المعظمة.

على أنّ هذا التّفسير يتناسب مع الآيات السابقة التي دار الحديث فيها عن الثّياب والألبسة.

ولكنّنا نقرأ في روايات متعددة أنّ المراد من الفحشاء هنا هو كلام حكّام الجور الذين يدعون الناس إلى أنفسهم، ويعتقدون بأنّ الله فرض طاعتهم على الناس.

ولكن بعض المفسّرين - مثل كاتب «المنار» و«الميزان» - أخذوا للآية مفهوماً واسعاً إذ قالوا: إنّ الفحشاء تشمل كل عمل قبيح منكر، وبملاحظة سعة مفهوم لفظة الفاحشة، فإنّ الأنسب هو أنّ للآية معنًى واسعاً سعة معنى الكلمة، ومسألة «الطواف بالبيت عراة» و«اتباع القادة والزعماء الظلمة» تعدّ من المصاديق الواضحة لذلك، فلا منافاة بين الطائفتين من الرّوايات.

هذا وقد أعطينا توضيحاً كافياً حول التسليم المطلق لتقاليد الأسلاف وأعرافهم عند تفسير الآية (١٧٠) من سورة البقرة.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

التّفسير

بما أنّ الحديث في الآية السابقة دار حول الفحشاء التي تشمل مفهوماً كلّ أنواع الفعل القبيح، وتأكّدَ أنّ الله لايأمر بالفحشاء اطلاقاً لهذا أُشير في هذه الآية إلى أُصول ومبادىء التعاليم الإلهيّة في مجال الوظائف والواجبات العملية في جملة قصيرة، ثمّ تبعه بيان أصول العقائد الدينية، أي المبدأ والمعاد، بصورة مختصرة موجزة.

يقول أوّلاً: أيها النّبي ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ والعدل.

ونحن نعلم أنّ للعدل مفهوماً واسعاً يشمل جميع الأعمال الصالحة، لأنّ حقيقة العدل هي استخدام كل شيء في مجاله، ووضع كل شيء في محلّه.

ثمّ إنّ بين «العدالة» و«القسط» تفاوتاً، إذ تطلق «العدالة» ويراد منها إعطاء كل ذي حقٍّ حقّه، ويقابلها «الظلم» وهو منع ذوي الحقوق من حقوقهم، بينما يعني «القسط» أن لا تعطي حقّ أحد لغيره.

وبعبارة أُخرى: أن لا يرضى بالتبعيض، ويقابله أن يعطي حقّ أحد لغيره.

ولكن المفهوم الواسع لهاتين الكلمتين اللتين قد تستعملان منفصلتين، متساوٍ تقريباً، وهما يعنيان رعاية الاعتدال والتوازن في كل شيء وفي كل عمل، وبالتالي وضع كل شيء في مكانه.

ثمّ إنّه سبحانه أمر بالتوحيد في العبادة ومحاربة كلّ ألوان الشرك وأنواعه، إذ قال: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي وجّهوا قلوبكم نحو الله الواحد دون سواه، ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

وبعد تحكيم وإرساء قاعدة التوحيد، وجه الأنظار نحو مسألة المعاد والبعث يوم القيامة، إذ قال: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.

بحثان

هنا نقطتان يجب الالتفات إليهما والوقوف عندهما:

١ - ما المقصود من ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ...﴾

ذكر المفسّرون في تفسير ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ تفاسير متنوعة، فتارة قالوا: المراد هو التوجه صوب القبلة.

وأُخرى: إنّ المراد هو المشاركة في المساجد أثناء الصلوات اليومية.

وثالثة: احتملوا أيضاً أن يكون الهدف منه هو حضور القلب والنية الخالصة عند العبادة.

ولكن التّفسير الذي ذكرناه أعلاه (أي التوجه إلى الله، ومحاربة كل ألوان الشرك والتوجه إلى غير الله) يبدو للنظر أنّه أنسب مع ما سبق وما يلحق هذه الجملة، وإن لم تكن إرادة كل هذه المعاني بعيدة عن مفهوم الآية أيضاً.

٢ - أقصر الأدلة على المعاد

لقد بحث أمر المعاد والبعث في يوم القيامة كثيراً، ويستفاد من آيات القرآن الكريم أنّ هضم هذه المسألة كان أمراً صعباً وعسيراً بالنسبة إلى كثير من الناس في العصور

الغابرة، إلى درجة أنّهم كانوا يتخذون أحياناً من طرح مسألة القيامة والمعاد من قبل الأنبياء دليلاً على عدم صحة دعوتهم، وبل حتى (والعياذ بالله) دليلاً على الجنون ويقولون: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾(١).

ولكن يجب الانتباه إلى أنّ ما كان يدعو لمزيد من تعجبهم ودهشتهم، هو مسألة المعاد الجسماني، لأنّهم ما كانوا يصدّقون بأنّ الأبدان بعد صيرورتها تراباً، وتبعثر ذراتها بفعل الرياح والأعاصير وتناثرها في أرجاء الأرض، أن تجتمع هذه الذرات المتبعثرة من بين أكوام التراب، وأمواج البحار، ومن بين ثنايا ذرات الهواء، ويلبس ذلك الإنسان لباس الوجود والحياة مرّة أُخرى.

إنّ القرآن الكريم أجاب في آيات متنوعة على هذا الظن الخاطىء، والآية الحاضرة تعكس إحدى أقصر وأجمل التعابير في هذا المجال، إذ تقول: انظروا إلى بداية الخلق، انظروا إلى جسمكم الذي يتكون من مقدار كبير من الماء، ومقدار أقل من المواد المعدنية وشبه المعدنية المختلفة المتنوعة أين كان في السابق؟ فالمياه المستخدمة في جسمكم يحتمل أنّ كل قطرة منها كانت سادرة في محيط من محيطات الأرض ثمّ تبخّرت وتبدلت إلى السُّحب، ثمّ نزلت في شكل قطرات المطر على الأراضي، والذرات التي استخدمت في نسيج جسمكم من مواد الأرض الجامدة كانت ذات يوم في هيئة حبّة قمح أو ثمرة شجرة، أو خضروات مختلفة جُمعت من مختلف نقاط الأرض.

وعلى هذا فلا مكان للتعجب والدهشة إذا سمعنا أنّه بعد تلاشي بدن الإنسان ورجوعه إلى حالته الأُولى تجتمع تلك الذرّات ثانية، وتتواصل وتترابط ويتشكل الجسم الأوّل، فلو كان هذا الأمر محالاً فلماذا وقع في مبدأ الخلقة؟!

إذاً ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ الله ﴿تَعُودُونَ﴾ أي يعيدكم في الآخرة، وهذا هو الموضوع الذي تضمنته العبارة القصيرة.

في الآية اللاحقة يصف سبحانه ردود الفعل التي أظهرها الناس قبال هذه الدعوة (الدعوة إلى التوحيد والخير والمعاد) فيقول: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾(٢).

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٨.

(٢) جملة ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ من حيث الإعراب والتركيب تكون كالتالي: فريقاً مفعول هدى فعل وفاعل مؤخرين، وفريقاً (الثّانية) مفعول مقدم.

وأصل فعل وفاعل مؤخران مقدران دل عليهما جملة ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾.

ولأجل أن لا يتصور أحد أنّ الله يهدي فريقاً أو يضلّ فريقاً من دون سبب، أضاف في الجملة ما يلي: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي إنّ الضالين هم الذين اختاروا الشياطين أولياء لهم بدل أن يدخلوا تحت ولاية الله، فضلوا.

وأضل فعل وفاعل مؤخران مقدران دل عليهما جملة ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾.

والعجب أنّه رغم كل ما أصابهم من ضلال وانحراف يحسبون أنّهم المهتدون الحقيقيون ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

إنّ هذه الحالة تختص بالذين غرقوا في الطغيان والمعصية، وكان انغماسهم في الفساد، والضلال والانحراف، والوثنية، كبيراً إلى درجة أنّه انقلبت حاسة تمييزهم رأساً على عقب، فحسبوا القبيح حسناً، والضلالات هداية، وفي هذه الحالة أُغلقت في وجوههم كل أبواب الهداية، وهذا هو ما أوجدوه وجلبوه لأنفسهم.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةٗ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٖ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾

التّفسير

الحديث في هاتين الآيتين يتناسب مع قصّة آدم في الجنّة، وكذلك يتناول مسألة اللباس وسائر مواهب الحياة، وكيفية الاستفادة الصحيحة منها.

في البداية يأمر جميع أبناء آدم ضمن دستور عام أبدي، يشمل جميع الأعصار والقرون، أن يتخذوا زينتهم عندما يذهبون إلى المساجد ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ﴾.

هذه الجملة يمكن أن تكون إشارة إلى كل «زينة جسمانية» ممّا يشمل لبس الثياب المرتبة الطاهرة الجميلة، وتمشيط الشعر، واستعمال الطيب والعطر وما شابه ذلك كما يمكن أيضاً أن تكون إشارة إلى كل «زينة معنوية» يعني الصفات الإنسانية والملكات الأخلاقية، وصدق النية وطهارتها وإخلاصها.

وإذا رأينا أنّ بعض الرّوايات الإسلامية تشير - فقط - إلى اللباس الجيّد أو تمشيط الشعر، أو إذا رأينا أنّ بعضها الآخر يتحدث - فقط - عن مراسم صلاة العيد وصلاة الجمعة، فإنّ ذلك لا يدل على الانحصار، بل الهدف هو بيان مصاديقها الواضحة[1].

وهكذا إذا رأينا أنّ طائفة أُخرى من الرّوايات تفسر الزينة بالقادة الصالحين[2]، فإنّ كل ذلك يدل على سعة مفهوم الآية الذي يشمل جميع أنواع الزينة الظاهرية والباطنية.

وهذا الحكم وإن كان يتعلق بجميع أبناء آدم في كل زمان ومكان، إلّا أنّه ينطوي ضمناً على ذم عمل قبيح كان يقوم به جماعة من الأعراب في العهد الجاهلي عند دخولهم في المسجد الحرام والطواف بالكعبة المعظمة، حيث كانوا يطوفون بالبيت المعظم عراةً من دون ساتر يستر عوراتهم، كما أنّه يتضمن - أيضاً - نصيحة لأولئك الذين يرتدون عند إقامة الصلاة أو الدخول إلى المساجد ثياباً وسخة خلقة أو ألبسة تخصّ المنزل، ويشتركون في مراسم عبادة وهم على تلك الهيئة المزرية، الأمر الذي نشاهده اليوم - وللأسف - بين بعض الغفلة السُّذج من المسلمين، في حين أننا مكلّفون - طبقاً للآية الحاضرة، والرّوايات الواردة في هذا الصعيد - بأن نرتدي لدى ارتيادنا للمساجد أفضل ثيابنا وألبستنا.

ثمّ في العبارة اللاحقة يشير سبحانه إلى مواهب أُخرى، يعني الأطعمة والأشربة الطاهرة الطيبة، ويقول: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ﴾.

ولكن حيث إنّ الإنسان حريص بحكم طبيعته البشرية، يمكن أن يسيء استخدام هذين التعليمين، وبدل أن يستفيد من نعمة اللباس والغذاء الصحيح بالشكل المعقول والمعتدل، يسلك سبيل الإسراف والتبذير والبذخ، لهذا أضاف مباشرة قائلاً: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

وكلمة «الإسراف» كلمة جامعة جدّاً بحيث تشمل كل إفراط في الكمّ والكيف، وكذا الأعمال العابثة والإتلاف وما شابه ذلك، وهذا هو أسلوب القرآن خاصّة، فهو عند الحثّ على الاستفادة من مواهب الحياة والطبيعة يحذّر فوراً من سوء استخدامها، ويوصي برعاية الاعتدال.

وفي الآية اللاحقة يعمد إلى الردّ - بلهجة أكثر حدّةً - على من يظن أنّ تحريم أنواع

(١-٢) للاطلاع على هذه الرّوايات راجع تفسير البرهان ج ٢، ص ٩ و١٠؛ وتفسير نور الثقلين ج ٢، ص ١٨ و١٩.

الزينة والتزين والاجتناب من الأطعمة الطيبة الحلال علامة الزهد، وسبباً للتقرب إلى الله فيقول: أيّها النبي ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾؟

إذا كانت هذه الأُمور قبيحة فإنّ الله تعالى لا يخلق القبيح، وإذا خلقها الله ليتمتع بها عباده فكيف يمكن أن يحرّمها؟ وهل يمكن أن يكون هناك تناقض بين جهاز الخلق، وبين التعاليم الدينية؟!

ثمّ أضاف للتأكيد: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ أي إنّ هذه النِّعم والمواهب قد خلقت للمؤمنين في هذه الحياة، وإن كان الآخرون - أيضاً - يستفيدون منها رغم عدم صلاحيتهم لذلك، ولكن في يوم القيامة حيث الحياة الأعلى والأفضل، وحيث يتميز الخبيث عن الطيب، فإنّ هذه المواهب والنّعم ستوضع تحت تصرف المؤمنين الصالحين فقط، ويحرم منها الآخرون حرماناً كليّاً.

وعلى هذا الأساس فإنّ ما هو للمؤمنين في الدنيا والآخرة، وخاص بهم في العالم الآخر كيف يمكن أن يحرّم عليهم؟ إنّ الحرام هو ما يورث مفسدة، لا ما هو نعمة وموهبة.

هذا وقد احتمل أيضاً في تفسير هذه العبارة من الآية أنّ هذه المواهب وإن كانت في هذه الدنيا ممزوجة بالآلام والمصائب والبلايا، إلّا أنّها توضع تحت تصرف المؤمنين وهي خالصة من كل ذلك في العالم الآخر (ولكن التّفسير الأوّل يبدو أنّه أنسب).

وفي ختام الآية يقول من باب التأكيد: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

الزّينة والتّجمل من وجهة نظر الإسلام

لقد اختار الإسلام - كسائر الموارد - حدّ التوسط والاعتدال في مجال الانتفاع والاستفادة من أنواع الزينة، لا كما يظن البعض من أنّ التمتع والاستفادة من الزينة والتجمل - مهما كان بصورة معتدلة - أمر مخالف للزّهد، ولا كما يتصور المفرطون في استعمال الزينة والتجمل الذين يجوّزون لأنفسهم فعل كل عمل شائن بغية الوصول إلى هذا الهدف الرخيص.

ولو أننا أخذنا بناء الجسم والروح بنظر الاعتبار، لرأينا أنّ تعاليم الإسلام في هذا الصعيد تنسجم تماماً مع خصائص الروح الإنسانية وبناء الجسم البشري ومتطلباتهما، واحتياجاتهما الذاتية.

توضيح ذلك: إنّ غريزة حبّ الجمال - باعتراف علماء النفس - هي إحدى أبعاد

الروح الإنسانية الأربعة، والتي تشكل مضافاً إلى غريزة حب الخير، وغريزة حب الاستطلاع، وغريزة التّدين، الأبعاد الأصيلة في النفس الإنسانية. ويعتقدون بأنّ جميع الظواهر الجمالية الأدبية والشعرية، والصناعات الجميلة، والفن بمعناه الواقعي، إنّما هو نتيجة هذه الغريزة وهذا الإحساس.

ومع هذا كيف يمكن أن يعمد قانون صحيح إلى خنق هذا الحس المتأصل والمتجذر في أعماق الروح الإنسانية، ويتجاهل العواقب السيئة في حال عدم إشباعه بصورة صحيحة؟

ولهذا لم يكتفِ الإسلام بتجويز التمتع بجمال الطبيعة والاستفادة من الألبسة الجميلة والمناسبة واستعمال كل أنواع العطور فحسب بل أُوصي بذلك وَحُثَّ عليه أيضاً، ورويت في هذا المجال أحاديث كثيرة عن أئمّة الدين في المصادر والكتب الموثوقة.

فإننا نقرأ - مثلاً - في تاريخ حياة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام أنّه عندما كان ينهض إلى الصلاة كان يرتدي أحسن ثيابه، ولما سُئل: لماذا يلبس أحسن ثيابه؟ قال: «إنّ الله جميل يحبّ الجمال، فأتجمل لربّي وهو يقول: خذوا زينتكم عند كل مسجد»[١].

وفي الحديث أنّ أحد الزهاد، ويدعى عباد بن كثير البصري، رأى الإمام الصادق عليه السلام وهو يلبس ثياباً غالية الثمن فقال معترضاً عليه: يا أبا عبد الله، إنّك من أهل بيت نبوّة وكان أبوك وكان، فما لهذه الثياب المزينة عليك؟ فلو لبست دون هذه الثياب. فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «ويلك - يا عباد - من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيّبات من الرّزق؟»[٢].

وأحاديث أُخرى.

إنّ هذا التعبير، أي إنّ الله جميل يحب الجمال، أو أنّ الله مصدر الجمال إشارة إلى هذه الحقيقة، وهي: أنّ الاستفادة من كل نوع من أنواع الزينة والجمال لو كان ممنوعاً لما خلق الله تلك الزينة أبداً، إنّ خلق الأشياء الجميلة في عالم الوجود دليل على أنّ خالقها يحبّ الجمال.

ولكن المهم هنا أنّ الناس يسلكون - غالباً - في مثل هذه المواضيع طريق الإفراط والمبالغة، ويعمدون إلى الترف بمختلف الحجج والمعاذير.

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٣، أبواب أحكام الملابس؛ وتفسير العياشي، ج ٢، ص ١٤.
(٢) وسائل الشيعة، أبواب أحكام الملابس الباب ٧، ح ٣. المصدر السابق.

ولهذا يعمد القرآن الكريم فوراً وبعد ذكر هذا الحكم الإسلامي - كما أسلفنا - إلى تحذير المسلمين من الإسراف والإفراط والمبالغة في الاستفادة من هذه الأُمور، ففي أكثر من عشرين موضعاً من القرآن الكريم يشير إلى مسألة الإسراف ويذمّه بشدّة (وقد تحدثنا بإسهاب حول الإسراف في تفسير الآيات المناسبة).

وعلى كل حال، فإنّ أُسلوب القرآن الكريم والإسلام في هذا الصعيد أسلوب يتسم بالتوازن والاعتدال، فلا جمود فيه يقمع الرغبات المودعة في الروح الإنسانية إلى الجمال، ولا هو يؤيد مسلك المسرفين المتطرفين وذوي البطنة والجشع في التمتع بالزينة والجمال.

بل هو ينهى حتى عن التزين والتجمل المعتدل في المجتمعات التي يعيش فيها محرومون ومساكين، ولهذا نلاحظ في بعض الرّوايات والأحاديث أنّه عندما يُسأل أحد الأئمّة: لماذا يلبس ثياباً فاخرة، وقد كان جدّه لا يلبس مثل هذه الثياب؟ فيجيب الإمام عليه السلام قائلاً: «إنّ علي بن أبي طالب عليه السلام كان في زمان ضيق، فإذا اتّسع الزمان فأبرار الزّمان أولى به»[1].

توصية صحية هامّة

إنّ عبارة ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ التي جاءت في الآية الحاضرة، وإن كانت تبدو للنظر أمراً بسيطاً جدّاً، إلّا أنّه ثبت اليوم أنّه واحد من أهم الأوامر والتعاليم الصحية، وذلك لأنّ تحقيقات العلماء توصلت إلى أنّ منبع الكثير من الأمراض والآلام هو الأطعمة الإضافية الزائدة التي تبقي في بدن الإنسان إنّ هذه المواد الإضافية تشكل من جانب عبئاً ثقيلاً على القلب وغيره من أجهزة الجسم، وهي من جانب آخر منبع مهيّأً لمختلف أنواع العفونات والأمراض، ولهذا فإنّ الخطوة الأُولى لعلاج الكثير من الأمراض هو أن تحترق هذه المواد الزائدة التي تمثل - في الحقيقة - فضلات الجسم، وتتم عملية تطهير الجسم منها عملياً.

إنّ العامل الأصل في وجود هذه المواد الزائدة هو الإسراف، والإفراط في الأكل والبطنة، والطريق إلى تجنب هذه الحالة ليس إلّا رعاية الاعتدال في الأكل، وخاصّة في

(١) وسائل الشيعة، ج٣، أبواب الملابس الباب ٧، ح ١١. وج ٥، ص ٢٠؛ وبحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٣٦٠.

عصرنا هذا الذي كثُرت فيه أمراض مختلفة مثل السكري، وتصلب الشرايين، وأنواع السكتة، وما شابه ذلك من الأمراض التي يُعدّ الإفراط في الأكل مع عدم الحركة البدنية بالمقدار الكافي أحد العوامل الأساسية لها، وليس هناك من سبيل لإزالة هذه الأمراض وتجنبها إلّا الحركة البدنية الكافية، والاعتدال في المأكل والمشرب.

وقد نقل المفسّر الكبير العلامة «الطبرسي» في «مجمع البيان» قصة رائعة في هذا المجال وهي أنّه: حكي أنّ هارون الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق، فقال ذات يوم لعلي بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأديان، وعلم الأبدان.

فقال له علي: قد جمع الله الطب كلّه في نصف آية من كتابه وهو قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ وجمع نبيّنا ﷺ الطب في قوله: «المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء، واعط كل بدن ما عودته».

فقال الطبيب: ما ترك كتابكم ولا نبيّكم لجالينوس طبّاً[1].

فمن كان يظن أنّ هذه التوصية سطحية، فما عليه إلّا أن يجرّبها في حياته كيما يدرك أهميّتها ويسبر غورها، ويشاهد المعجزة في سلامة الجسم برعاية هذا الدّستور الصحي.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾

التّفسير

المحرمات الإلهيّة

لقد شاهدنا مراراً أنّ القرآن الكريم كلّما تحدث عن أمر مباح أو لازم، تحدث فوراً عن ما يقابله، من الأُمور القبيحة والمحرمات، ليكمّل كل واحد منهما الآخر.

وهنا أيضاً تحدّث - عقيب السماح بالتمتع والاستفادة من المواهب الإلهيّة وإباحة كل ما هو زينة وجمال - عن المحرمات على نحو العموم، ثمّ أشار بصورة خاصّة إلى عدة نقاط مهمّة.

(١) مجمع البيان، ج ٤، ص ٤١٣. بحار الأنوار، ج ٦٢، ص ١٢٣؛ تفسير القرطبي، ج ٧، ص ١٩٢.

ففي البداية تحدث عن تحريم الفواحش وقال: يا أيّها النبي ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾.

و﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ جمع «فاحشة» وتعني الأعمال القبيحة البالغة في القبح والسوء لا جميع الذنوب، ولعلّ التأكيد على هذا المطلب ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ هو لأجل أنّ العرب الجاهليين كانوا لا يستقبحون عمل الزنى إذا أُتي به سرّاً، ويحرّمونه إذا كان ظاهراً مكشوفاً.

ثمّ إنّه عمّم الموضوع، وأشار إلى جميع الذنوب وقال ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ أي كل إثم.

والإثمّ في الأصل يعني كل عمل مضرّ، وكل ما يوجب انحطاط مقام الإنسان وتردّي منزلته، ويمنعه ويحرمه من نيل الثواب والأجر الحسن. وعلى هذا يدخل كل نوع من أنواع الذنوب في المفهوم الواسع للإثم.

ولكن بعض المفسّرين أخذوا الإثمّ هنا فقط بمعنى «الخمر» واستدلوا لذلك بالشعر المعروف.

شربت الإثمّ حتى ضلّ عقلي   كذاك الإثمّ يصنع بالعقول[1]

ولكنّ الظاهر أنّ هذا المعنى ليس هو تمام مفهوم الكلمة، بل أحد مصاديقه.

ومرّة أُخرى يشير بصورة خاصّة إلى عدد من كبريات المعاصي والآثام، فيقول: ﴿وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي كل نوع من أنواع الظلم، والتجاوز على حقوق الآخرين.

و«البغي» يعني السعي والمحاولة لتحصيل شيء، ولكن يراد منه غالباً الجهود المبذولة لغصب حقوق الآخرين، ولهذا يكون مفهومه - في الغالب - مساوياً لمفهوم الظلم.

ومن الواضح أنّ وصف «البغي» في الآية المبحوثة بوصف «غير الحق» من قبيل التوضيح والتأكيد على معنى «البغي».

ثمّ أشار تعالى إلى مسألة الشرك وقال: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ فهو أيضاً محرّم عليكم.

ومن الواضح أنّ جملة ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ للتأكيد، ولإلفات النظر إلى حقيقة أنّ المشركين لا يملكون أي دليل منطقي وأي برهان معقول، وكلمة «السلطان» تعني كل دليل وبرهان يوجب تسلّط الإنسان وانتصاره على من يخالفه.

---

(١) تفسير التبيان، ج ٤، ص ٣٩٠، ذيل الآية مورد البحث، وتاج العروس ج ٨، ص ١٧٩، مادة «إثم».

وآخر ما يؤكّد عليه من المحرمات هو نسبة شيء لله لايستند إلى علم: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ولقد بحثنا حول القول على الله بغير علم عند تفسير الآية (٢٨) من نفس هذه السورة أيضاً.

ولقد أُكِّد في الآيات القرآنية والأحاديث الإسلامية على هذه المسألة كثيراً، ومُنِع المسلمون بِشدة عن قول ما لا يعلمون إلى درجة أنّه روي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «من أفتى بغير علم لعنته ملائكة السماوات والأرض»[1].

ولو أنّنا أمعنا النظر ودققنا جيداً في أوضاع المجتمعات البشرية، والمصائب والمتاعب التي تعاني منها تلكم المجتمعات، لعرفنا أنّ القسط الأكبر من هذا الشقاء ناشيء من بث الشائعات، والقول بغير علم، والشهادة بغير الحق، وإبداء وجهات نظر لا تستند إلى برهان أو دليل.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤)﴾

التّفسير

لكلّ أمّة أجل

في هذه الآية يشير الله تعالى إلى واحدة من سنن الكون والحياة، أي فناء الأُمم وزوالها، ويلقي ضوءاً أكثر على الأبحاث التي تتعلق بحياة أبناء البشر على وجه الأرض ومصير العصاة، التي سبق الحديث عنها في الآيات السابقة.

فيقول أوّلاً: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾.

ثمّ يشير إلى أنّ هذا الأجل لا يتقدم ولا يتأخر إن جاء ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

أي إنّ الأُمم والشعوب مثل الأفراد، لها موت وحياة، وإنّ الأُمم تندثر وينمحي أثرها من على وجه الأرض، وتحل مكانها أُمم أُخرى، وإنّ سنّة الموت وقانون الفناء لا يختصان بأفراد الإنسان، بل تشمل الجماعات والأقوام والأُمم أيضاً، مع فارق وهو أنّ

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، طبقاً لرواية تفسير نور الثقلين، ج الثّاني، ص ٤٦؛ وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ١٩٠.

موت الشعوب والأمم يكون - في الغالب - على أثر انحرافها عن جادة الحق والعدل، والإقبال على الظلم والجور، والانغماس في بحار الشهوات، والغرق في أمواج الإفراط في التجمل والرفاهية.

فعندما تسلكُ الأمم في العالم هذه المسالك وتنحرف عن سنن الكون وقوانين الخلقة، تفقد مصادرها الحيوية الواحد تلو الآخر، وتسقط في النهاية.

إنّ دراسة زوال مدنيات كبرى، مثل حضارة بابل، وفراعنة مصر، وقوم سبأ، والكلدانيين والآشوريين، ومسلمي الأندلس وأمثالها، توضح الحقيقة التالية، وهي أنّه لدى صدور الأمر بزوال هذه المدنيات والحضارات الكبرى - إثر بلوغ الفساد أوجه فيها - لم تستطع حكوماتها أن تحفظ أسسها المتزعزعة حتى ساعة واحدة.

ويجب الالتفات إلى أنّ «الساعة» في اللغة تعني أصغر وحدة زمنية، فربّما تكون بمعنى لحظة، وربّما تكون بمعنى أقل قدر من الزمن، وإن كانت الساعة تعني في عرفنا الحاضر اليوم مدة واحدة من أربع وعشرين ساعة في اليوم.

الردّ على خطأ

رأت بعض المذاهب المختلفة التي ظهرت في القرون الأخيرة بغية الوصول إلى أهدافها، أن تزعزع - بظنها - قبل أي شيء أُسس خاتمية رسول الإسلام ﷺ، ولهذا تمسكت ببعض الآيات القرآنية التي لا تدل على هدفها، وبمعونة من تفسيرها بالرأي، وشيء من المغالطة والسفسطة للتدليل على مقصودها.

ومن تلك الآيات الآية المبحوثة هنا. فقالوا: إنّ القرآن يصرّح بأنّ لكل أُمّة أجلاً ونهاية، والمراد من الأُمّة الدين والشريعة، ولهذا فإنّ للدِّين الإسلامي أمداً ونهاية أيضاً!.

إنّ أفضل الطرق لتقييم هذا الاستدلال هو أن ندرس المعنى الواقعي للفظة الأُمّة في اللغة، ثمّ في القرآن الكريم.

يُستفاد من كتب اللغة، وكذا من موارد استعمال هذه اللفظة في القرآن الكريم، والتي تبلغ ٦٤ موضعاً، أنّ الأُمّة في الأصل تعني الجماعة.

فمثلاً في قصة موسى نقرأ هكذا: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾(١) أي يمتحون الماء من البئر لأنفسهم ولأنعامهم.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٢٣.

وكذا نقرأ في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾(١).

كما نقرأ أيضاً: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾(٢). والمعنيون بالأمّة هم أهالي مدينة إيلة من بني إسرائيل.

ونقرأ حول بني إسرائيل: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾(٣).

من هذه الآيات يتّضح جيداً أنّ الأُمّة تعني الجماعة، ولا تعني الدين، ولا أتباع الدين، ولو أنّنا لاحظنا استعمالها في أتباع الدين، فإنّما هو بلحاظ أنّهم جماعة.

وعلى هذا الأساس يكون معنى الآية المبحوثة هنا هو أنّ لكل جماعة من الجماعات البشرية نهاية، فليس آحاد الناس هم الذين يموتون، وتكون لأعمارهم آجال وآماد فحسب، بل الأُمم هي الأُخرى تموت، وتتلاشى وتنقرض.

وأساساً لم تستعمل لفظة الأُمّة في الدين أبداً، ولهذا فإنّ الآية لا ترتبط بمسألة الخاتمية مطلقاً.

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

التّفسير

تعليم آخر لأبناء آدم

مرّة أُخرى يخاطب الله سبحانه أبناء آدم وذريّته، إذ يقول: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٤) أي إذا أتتكم رسلي يتلون عليكم آياتي فاتّبعوهم، لأنّ من اتّقى منكم واتبعهم وأصلح نفسه والآخرين كان في أمن من عذاب الله الأليم، فلا يخاف ولا يحزن.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦٤.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٦٠.
(٤) «أمّا» مركبة في الأصل من «أن»، و«ما» و«إن» حرف شرط و«ما» حرف للتأكيد.

وفي الآية اللاحقة يضيف سبحانه وتعالى قائلاً: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

فتلك عاقبة المؤمنين، وهذه عاقبة المكذبين لهم.

رد على سفَسطة أُخرى

أقدم جماعة من مختلقي الأديان والمذاهب في العصور الأخيرة - على غرار ما قلنا في تفسير الآيات السابقة - على التمسك بطائفة من الآيات القرآنية بغية تعبيد الطريق لأهدافهم والتمهيد لتحقيقها، وادعوا كونها دليلاً على نفي خاتمية رسول الإسلام، على حين لا ترتبط هذه الآيات بتلك المسألة قط.

ومن تلكم الآيات الآية الحاضرة، فهم من دون أن يلاحظوا ما يسبقها وما يلحقها من الآيات قالوا: إن «يأتينّكم» فعل مضارع، ويدلّ على أنّه من الممكن أن يبعث الله رسلا آخرين في المستقبل.

ولكن لو رجعنا إلى الوراء قليلاً، واستعرضنا الآيات التي تتحدث عن خلقة آدم وسكونته في الجنّة، ثمّ إخراجه منها هو وزوجته. ولاحظنا أنّ المخاطبين في هذه الآيات ليسوا المسلمين، بل مجموع البشر وجميع أبناء آدم، لاتضح جواب هذه الشّبهة وردّ هذا الاستدلال، لأنّه لا شكّ أنّه قد بعث لمجموع أبناء آدم رسل كثيرون، جاء ذكر أسماء طائفة معتدٍّ بها في القرآن الكريم، وجاء ذكر آخرين في كتب التواريخ.

غاية ما في الأمر أنّ هذا الفريق من مختلقي المذاهب والأديان، تجاهلوا الآيات السابقة بغية إضلال الناس وخداعهم، وقالوا: إنّ المخاطبين في هذه الآية هم خصوص المسلمين، واستنتجوا من ذلك إمكان وجود رسل آخرين.

إنّ لأمثال هذه السفسطات نظائر كثيرة في السابق، وبخاصّة في حالة الفصل بين آية وأُخرى وجملة وأُخرى، والتغافل عن سوابق الآية ولواحقها، فينتزعون منها مفهوماً يوافق رغباتهم وإن كان يقابل المفهوم الواقعي للآية في الحقيقة.

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

التّفسير

من هذه الآية فما بعد تتضمّن الآيات بيان أقسام مختلفة من المصير السيّىء الذي ينتظر المفترين والمكذبين لآيات الله تعالى، وفي البداية تشير إلى كيفية حالهم عند الموت، إذ تقول: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾.

وكما أسلفنا - في سورة الأنعام في ذيل الآية ٢١ - لقد ورد ذكر ﴿أَظْلَمُ﴾ الناس في عدّة آيات من القرآن الكريم بتعابير مختلفة، ولكن الصفات التي ذكرت لهم تعود كلّها إلى جذر واحد، وهو الشرك وعبادة الأصنام وتكذيب آيات الله سبحانه، وفي الآية المبحوثة هنا ذكرت مسألة الافتراء على الله سبحانه كصفة بارزة من صفاتهم، مضافاً إلى صفة التكذيب بالآيات الإلهيّة.

ونظراً إلى أنّ منشأ جميع أنواع الشقاء في نظر القرآن هو الشرك، ورأس مال جميع السعادات هو التوحيد، يتّضح لماذا يكون هؤلاء الضالون المضلون أظلم الناس. إنّ هؤلاء ظلموا أنفسهم كما ظلموا المجتمع الذي يقيمون فيه، إنّهم يغرسون النفاق والتفرقة في كل مكان، ويشكّلون سدّاً ومانعاً كبيراً في طريق وحدة الصفوف والتقدم والإصلاحات الواقعية[١].

ثمّ إنّه تعالى يصف وضعهم عند الموت فيقول: ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾. أي إنّ هؤلاء سيأخذون ما هو نصيبهم وما هو مقدر مكتوب لهم من النِّعم المختلفة، حتى إذا استوفوا حظهم من العمر، وانتهوا إلى آجالهم النهائية، حينئذ تأتيهم ملائكتنا الموكلون بقبض أرواحهم.

والمراد من «الكتاب» هي المقدرات من النِّعم المختلفة التي قدرها الله تعالى لعباده في هذا العالم، وإن احتمل بعض المفسّرين أن يكون المراد من الكتاب هو العذاب الإلهي، أو ما هو أعمّ من المعنيين.

ولكن بالنظر إلى كلمة ﴿حَتَّىٰ﴾ التي تشير عادة إلى انتهاء الشيء، يتّضح أنّ المراد هو فقط نِعَم الدنيا المتنوعة المختلفة التي لكل أحد فيها حظ ونصيب، سواء المؤمن أو الكافر، الصالح والطالح، والتي تؤخذ عند الموت، لا العقوبات الإلهيّة التي لا تنتهي

(١) لمزيد من التوضيح راجع تفسير الآية (٢١) من سورة الأنعام.

بحلول الموت، والتعبير بالكتاب عن هذه النِّعم والمقدرات إنّما هو لأجل شبهها بالأُمور التي تخضع للتقسيم والأسهم وتكتب.

وعلى كل حال، فإنّ عقوباتهم تبدأ منذ لحظة حلول الموت، ففي البداية يواجهون التوبيخ وعتاب الملائكة المكلّفين بقبض أرواحهم، فيسألونهم: أين معبوداتكم التي اتخذتموها من دون الله والتي طالما تحدثتم عنها، وكنتم تسوقون إليها ثرواتكم سفهاً. ﴿قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

فيجيبهم هؤلاء بعد أن يرون أنفسهم منقطعين عن كلّ شيء، ويرون كيف تبددت جميع أوهامهم وتصوراتهم الخاطئة حول آلهتهم وذهبت أدراج الرياح، قائلين: لا نرى منها أثراً وإنّها لا تملك أن تدافع عنّا، وإنّ جميع ما فعلناه من العبادة لها كان عبثاً وباطلاً ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾.

وهكذا يشهدون على أنفسهم بالكفر والضلال: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰفِرِينَ﴾.

إنّ ظاهر المسألة وإن كان يوحي بأنّ الملائكة تسأل وأنّهم يجيبون، ولكنّه في الحقيقة نوع من العقوبة النفسية لهم يُلفتون بها نظرهم إلى الوضع المأساوي الذي يصيبهم من جراء أعمالهم، ويرونهم كيف ضلوا وتاهوا في المتاهات والضلالات مدة طويلة من العمر، وضيّعوا كل رؤوس أموالهم الثّمينة دون جدوى ودون أن يحصدوا منها حصيلة مسِرَّة مشرّفة في حين أغلق في وجههم طريق العودة، وهذا هو أوّل سوط جهنّمي من سياط العقوبة الإلهيّة التي تتعرض لها أرواحهم.

﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

التّفسير

تنازع القادة والاتباع في جهنم

في هذه الآية يواصل القرآن الكريم بيان المصير المشؤوم للمكذبين بآيات الله.

وقد صوّرت لنا الآيات السابقة وضعهم عند حلول الموت، وسؤال الملائكة القابضة للأرواح لهم، وهنا يرسم لنا ما يجري بين الجماعات المضلّة والغاوية، وبين من تعرضوا للإغواء في يوم القيامة.

ففي يوم القيامة يقول الله لهم: التحقوا بمن يشابهكم من الجن والإنس ممن سبقوكم، وذوقوا نفس مصيرهم النّار ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾.

إنّ هذا الأمر يمكن أن يكون بشكل أمر تكويني، يعني أن يجعلهم جميعاً في مكان واحد، أو يكون شبيهاً بأمر تشريعي يصدر إليهم يسمعونه بآذانهم، ويكونون مجبورين على إطاعته.

وعندما يدخل الجميع في النّار تبدأ مصادماتهم مع زملائهم وأشباههم في المسلك، وهي مصادمات عجيبة، فكلّما دخلت جماعة منهم في النّار لعنت الأُخرى واعتبرتها سبباً لشقائها ومسؤولة عن بلائها ومحنتها ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾(١).

ولعلنا قلنا مراراً: إنّ ساحة القيامة وما يجري فيها انعكاس واسع وكبير لمجريات هذه الدنيا. فلطالما رأينا في هذا العالم الجماعات والفرق والأحزاب المنحرفة تلعن إحداها الأُخرى، وتُبدي تنفرها منها، على العكس من أنبياء الله، والمؤمنين الصالحين، والمصلحين الخيّرين، فإنّ كل واحد منهم يؤيّد برنامج الآخر، ويعلن عن ارتباطه به واتحاده معه في الأهداف والغايات.

إلاّ أنّ الأمر لا ينتهي إلى هذا الحدّ، بل عندما يستقر الجميع - بمنتهى الذلّة والصغار - في الجحيم والعذاب الأليم، تبدأ كل واحدة منها برفع شكايتها إلى الله من الأُخرى.

---

(١) التعبير بالأُخت كناية عن الارتباط الفكري والصّلة الرّوحية بين هذه الفرق المنحرفة، وحيث إنّ الأُمّة مؤنث لفظي، لهذا عبّر عنها بالأُخت، لا الأخ.

ففي البداية يبدأ المخدوعون المغرّر بهم بعرض شكايتهم، وحيث إنّهم لا يجدون مناصاً ممّا هم فيه يقولون: ربّنا إنّ هؤلاء المُغوين هم الذين أضلونا وخدعونا، فضاعف يا ربّ عذابهم، عذاباً لضلالهم وعذاباً لإضلالهم إيّاناً، وهذا هو ما يتضمّنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

ولا شكّ أنّ هذا الطلب منطقي ومعقول جدّاً، بل إنّ المضلين سينالون ضعفاً من العذاب حتى من دون هذا الطلب، لأنّهم يتحملون مسؤولية انحراف من أضلوا أيضاً دون أن ينقص من عذابهم شيء، ولكن العجيب هو أن يقال لهم في معرض الإجابة على طلبهم: سيكون لكلتا الطائفتين ضعفان من العذاب وليس للمضلين فقط ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾.

ومع الإمعان والدقة يتّضح لماذا ينال المخدوعون المضلَّلون ضعفاً من العذاب أيضاً، لأنّه لا يستطيع أئمّة الظلم والجور ورؤوس الانحراف والضلال أن ينفّذوا لوحدهم برامجهم، بل هؤلاء الأتباع المعانِدُون المتعصبون لأسيادهم هم الذين يمدون قادة الضلال ورؤوس الانحراف بالقوّة والمدّد الذي يوصلهم إلى أهدافهم الشريرة، وعلى هذا يجب أن ينال الأتباع ضعفاً من العذاب أيضاً، عذاباً لضلالهم هم، وعذاباً لمساعدتهم للظالمين وإعانتهم قادة الانحراف.

ولهذا نقرأ في حديث معروف عن الإمام الكاظم عليه‌السلام حول أحد شيعته يدعى صفوان، حيث نهاه عن التعاون مع هارون الرشيد قائلاً: «يا صفوان كلّ شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً».

قلت: جعلت فداك أي شيء؟

قال عليه‌السلام: إكراؤك جمالك من هذا الرجل (هارون الرشيد العباسي).

قلت: والله ما أكريته أشراً ولا بطراً ولا للصيد ولا للهو، ولكنّي أكريته لهذا الطريق (يعني طريق مكّة)...

فقال لي عليه‌السلام: ياصفوان أيقع كراؤك عليهم؟ قلت: نعم جعلت فداك.

فقال لي: أتحبّ بقاءهم حتى يخرج كراؤك؟ قلت: نعم.

قال عليه‌السلام: «من أحبّ بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم كان ورد النّار»[1].

---

(١) وسائل الشيعة، ج١٧، ص١٨٢. وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٢٥٩.

وفي **الآية اللاحقة** ينقل القرآن الكريم جواب قادة الضلال والانحراف بأنّه ليس بيننا وبينكم أي تفاوت، فإذا قلنا فقد أيدتم، وإذا خطونا فقد ساعدتم، وإذا ظلمنا فقد عاونتم، وإذن فذوقوا بإزاء أعمالكم عذاب الله الأليم، ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

والمقصود من «الأُولى» الطائفة الأُولى أي القادة (قادة الضلال الانحراف) والمقصود من «الأُخرى» الأتباع، والأنصار.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

التّفسير

مرّة أُخرى يتناول القرآن بالحديث مصير المتكبرين والمعاندين، يعني أُولئك الذين لا يخضعون لآيات الله ولا يستسلمون للحق، فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾.

وقد جاء في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «أمّا المؤمنون فتُرفع أعمالهم وأرواحهم إلى السماء فتفتح لهم أبوابها، وأمّا الكافر فيصعد بعمله وروحه حتى إذا بلغ إلى السماء نادى منادٍ: اهبطوا به إلى سجّين»(١).

وقد رويت بهذا المضمون أحاديث عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في تفسير الطبري وسائر التفاسير، في ذيل الآية المبحوثة.

من الممكن أن يكون المقصود من السماء هنا معناها الظاهر، وكذا يمكن أن تكون كناية عن مقام القرب الإلهي، كما نقرأ في الآية (٩) من سورة فاطر: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾.

ثمّ أضاف قائلاً: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾، أي حتى يدخل البعير في ثقب الإبرة.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٢٥٤، ذيل الآية مورد البحث؛ وتفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٣٠.

إنّ هذا التعبير كناية لطيفة عن استحالة هذا الأمر، وقد اختير هذا المثال والتصوير الحسّي للإخبار عن عدم إمكان دخول هؤلاء الأشخاص في الجنّة، فكما لا يتردد أحد في استحالة عبور الجمل بجثته الكبيرة من خلال ثقب الإبرة، فكذلك لا ينبغي الشك في عدم وجود طريق لدخول المستكبرين إلى الجنّة مطلقاً.

و«الجمل» في اللغة يعني البعير الذي خرجت أسنانه حديثاً، ولكن أحد معاني الجمل هو الحبل القوي والمتين الذي تربط به السفن أيضاً[1].

وحيث إنّ بين الحبل والإبرة تناسباً أقوى وأكثر، لهذا ذهب بعضهم إلى هذا المعنى عند تفسير الآية، ولكن أكثر المفسّرين الإسلاميين رجّح المعنى الأوّل، وهم على حق في هذا الاتجاه لأُمور:

أوّلاً: إنّ في أحاديث أئمّة الإسلام كذلك تعابير تناسب التّفسير الأوّل[2].

ثانياً: إنّه يلاحظ نظير هذا التّفسير حول الأثرياء (المتكبرين الأنانيين) في الإنجيل أيضاً، ففي إنجيل لوقا الباب ١٨ الجملتين **٢٤** و**٢٥** نقرأ هكذا: إنّ عيسى قال: «ما أعسر دخول ذوي الأموال إلى ملكوت الله. لأنّ دخول الجمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله».

ولا أقل يُستفاد من هذه العبارة أنّ هذه الكناية كانت متداولة بين الشعوب منذ قديم الزمان.

وقد نستعمل هذا المثل أيضاً، في محاوراتنا اليومية الآن، فيقال عن الأشخاص المتشدّدين جدّاً أحياناً، والمتساهلين جدّاً أحياناً أُخرى: (إنّ فلاناً تارةً لا يدخل من باب المدينة، وتارةً يدخل من ثقب إبرة).

ثالثاً: بالنظر إلى أنّ استعمال لفظة الجمل في المعنى الأوّل (أي البعير) أكثر، بينما استعمالها في الحبل الغليظ قليل جداً، لهذا يبدو أنّ التّفسير الأوّل أنسب.

وفي خاتمة الآية يضيف تعالى للمزيد من التأكيد والتوضيح قائلاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

وفي الآية اللاحقة يشير إلى قسم آخر من عقوبتهم المؤلمة إذ يقول: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ

---

(١) راجع «تاج العروس»، و«القاموس» مادة الجمل.

(٢) بحار الأنوار، ج ٤، ص ٤٥.

مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾(١).

ثمّ يضيف للتأكيد ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

والملفت للنظر والطريف: أنه يعبّر عنهم مرّة بـ«المجرم» وثانية بـ«الظالم» وثالثة بـ«المكذبين» لآيات الله، ورابعة بـ«المستكبرين»، وترجع جميعها إلى حقيقة واحدة في الواقع.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

التّفسير

الطّمأنينة الكاملة والسّعادة الخالدة

إنّ أُسلوب القرآن - كما أشرنا إلى ذلك سابقاً - هو عرض الطوائف المختلفة وبيان مصائرها جنباً إلى جنب لتأكيد الموضوع، وشرح أوضاعها عن طريق المقارنة والمقايسة بينها.

ولقد كان البحث في الآيات السابقة حول المكذبين لآيات الله، والمستكبرين والظالمين، وهنا يشرح ويبيّن المستقبل المشرق للمؤمنين إذ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

وقد أتى بين المبتدأ والخبر بجملة معترضة(٢). توضّح الكثير من الإبهامات إذ يقول: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾.

---

(١) «المهاد» جمع «مهد» وزان عهد أي الفرش، «والغواش» في الأصل «غواشي» جمع غاشية بمعنى كل نوع من أنواع الغطاء، كما أنّه يطلق على الخيمة أيضاً، وفي الآية الحاضرة يمكن أن يكون بمعنى الخيمة أو بمعنى الغطاء.

(٢) ينبغي أن لا يتصور أحد بأنّ معنى الجملة المعترضة هو أنّ مفادها أجنبي وغريب من الموضوع =

وهذه الجملة تؤكّد بأنّه لا ينبغي لأحد أن يتصور بأن الإيمان بالله، والإتيان بالعمل الصالح وسلوك سبيل المؤمنين، أمر متعسر غير مقدور إلّا لأفراد معدودين، لأنّ التكاليف الإلهيّة في حدود الطاقة البشرية وليست أكثر منها، وبهذا فتح الطريق في وجه كل أحد عالماً كان أو جاهلاً، صغيراً كان أو كبيراً، ودعا الجميع إلى اللحاق بهذا الصف، فالمطلوب من كل أحد العمل بمقدار قابليته الفكرية والبدنية وإمكانياته.

إنّ هذه الآية - مثل سائر الآيات القرآنية - تحصر وسيلة النجاة والسعادة الأبدية في الإيمان والعمل الصالح، وهكذا تفنّد العقيدة النّصرانية المحرفة الذين يعتبرون صلب المسيح في مقابل ذنوب البشر وسيلة للنجاة، ويقولون: إنّه قربان لخطايا الإنسانية.

إنّ إصرار القرآن الكريم على مسألة الإيمان والعمل الصالح، في الآيات المختلفة لتفنيد هذه المقولة وأمثالها.

وفي **الآية اللاحقة** أشار تعالى إلى واحدة من أهم النِّعم التي أعطاها الله سبحانه لأهل الجنّة، والتي تكون سبباً لطمأنينتهم النفسية وسكينتهم الروحية، إذ قال ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾.

و(الغِل) في الأصل بمعنى نفوذ الشيء خفية وسرّاً، ولهذا يقال للحسد والحقد والعداوة، الذي يتسلّل إلى النفس الإنسانية بصورة خفيّة (الغل)، وإنّما يطلق «الغلول» على الرشوة بهذه المناسبة لأنّها تؤخذ خفية وسرّاً لارتكاب خيانة[1].

وفي الحقيقة إنّ من أكبر عوامل الشقاء التي يعاني منها الناس في هذه الحياة، ومصدر الكثير من الصراعات الاجتماعية الواسعة التي تؤدّي - مضافاً إلى الخسائر الفادحة في المال والنفس - إلى زعزعة الاستقرار الروحي، هو الحسد والحقد.

فنحن نعرف الكثير ممن لا ينقصهم شيء في الحياة، ولكنّهم يعانون من الحسد والحقد للآخرين، وهو عذابهم الوحيد الذي يعكر صفو حياتهم ويضيق عليهم رحبها، ويترك معيشة هؤلاء المرفهين ساحة تجوال عساكر الحزن والغم، وتدفعهم إلى سلوكيات مرهقة وغير منطقية.

= المعترض، بل لابدّ أنّ هناك ارتباطاً ما بينها وبين ما قبلها وما بعدها، وإن كانت من حيث التركيب توسطت كلاماً متصلاً، وعلى هذا الأساس فإنّ الجملة المعترضة معترضة من حيث التركيب اللفظي، لا من حيث المعنى.

(١) للمزيد من التوضيح راجع الآية (١٦١) من سورة آل عمران من هذا التفسير.

إنّ أهل الجنّة معافون من هذه الشقاوات والمحن بالكلية، لأنّهم لا يتصفون بهذه الصفات القبيحة، فلا حسد ولا حقد في قلوبهم، ولهذا لا يتعرضون لعواقبها النكرة، إنّهم يعيشون معاً في منتهى التواد والتحابب والصفاء والسكينة.

إنّهم راضون عن وضعهم الذي هم فيه، حتى الذين يعيشون في مراتب أدنى من الجنّة لا يحسدون مَن فوقهم أبداً، ولهذا تنحل أعظم مشكلة تعترض طريق التعايش السلمي.

ولقد نقل بعض المفسّرين حديثاً في المقام عن السدّي قال: «إنّ أهل الجنّة إذا سيقوا إلى الجنّة وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان فيشربون من إحداهما فينزع ما في صدورهم من غلّ، فهو الشراب الطهور، واغتسلوا من الأُخرى فجرت عليهم نضرة النعيم، فلن يشعثوا ولن يشحبوا بعدها أبداً»(١).

إنّ هذا الحديث وإن لم ينته سنده إلى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة عليهم السلام وإنّما رواه أحد المفسّرين وهو «السّدي» ولكنّه لا يبعد أن يكون قد روي عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم في الأصل، لأنّ هذه الأُمور ليست من المسائل والقضايا التي يستطيع السدي وأمثاله الاطلاع عليها.

وعلى كل فهي إشارة لطيفة إلى الحقيقة التالية، وهي أنّ أهل الجنّة قد تطهروا باطناً وظاهراً، جسماً وروحاً، فهم يتحلون بالجمال الجسماني، والجمال الروحاني معاً، ولهذا فهم لا يعانون، - مطلقاً - من الحسد والحقد.

فما أسعد من يبني لنفسه في هذه الدنيا جنّة أُخرى، بتطهير صدره من الحقد والحسد ليتخلّص من إفرازاتهما المؤلمة.

وبعد ذكر هذه النّعمة الروحانية، يُشير القرآن الكريم إلى نعمهم المادية الجسدية، فيقول: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾.

ثمّ يعكس رضى أهل الجنّة الكامل الشامل الذي يعبرون عنه بالحمد والشكر لله وحده على ما هداهم إليه من النّعم ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

وهنا يأتيهم النداء بأن ما ورثتموه من النّعم إنّما هو بسبب أعمالكم ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) تفسير المنار، ج ٨، ص ٤٢١؛ تفسير جامع البيان، ج ٨، ص ٢٤١.

ومرّة أُخرى نصل إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ النجاة رهن بالعمل الصالح، وليست بالأماني والظنون الخاوية.

و«الإرث» في الأصل بمعنى انتقال مال أو ثروة من شخص إلى آخر من دون أن يكون بينهما عقد (أي الانتقال عبر مسير طبيعي تلقائي، لا عن طريق البيع والشراء) ولهذا يطلق الإرث على انتقال أموال الميت إلى خَلَفه.

لماذا عبّر بالإرث؟

وهنا ينقدح سؤال وهو: كيف يقال لأهل الجنّة: هذه النِّعم أُورثتموها لقاء أعمالكم؟

وقد ورد الجواب في حديث روي بطرق الشيعة والسُّنّة عن رسول الله ﷺ حيث يقول: «ما من أحد إلّا وله منزل في الجنّة، ومنزل في النّار، فأمّا الكافر فيرث المؤمن منزله من النّار، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنّة، فذلك قوله: ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾»(١).

فهذا الحديث يشير إلى أنّ أبواب السعادة والشقاء مفتوحة أمام جميع الناس قاطبة، وأنّه لم يخلق أحد يوم خلق وهو من أهل الجنّة، أو من أهل النّار، بل يمتلك الجميع قابلية الوصول إلى كلا هذين المنزلين، وإنّما إرادتهم هي التي تحدد وتقرّر مصيرهم.

ومن البديهي أنّه عندما يستقر المؤمنون بسبب أعمالهم الصالحة في الجنّة، ويستقر الكفّار والأشرار في النّار ينتقل مكان ومنزل كل واحد منهما إلى الآخر بصورة طبيعية.

وعلى كل حال، فإن هذه الآية وهذا الحديث هما من البراهين والدلائل الواضحة على نفي الجبر، وثبوت الاختيار وحرية الإرادة في الإنسان.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

التّفسير

بعد البحث في الآيات السابقة حول مصير أهل الجنّة وأهل النّار، أشار هنا إلى

(١) نور الثقلين، ج ٢، ص ٣١، وتفسير القرطبي، ج ٤، ص ٢٦٤٥، وتفاسير أُخرى.

حوار هذين الفريقين في ذلك العالم، ويُستفاد من ذلك أنّ أهل الجنّة وأهل النّار يتحادثون بينهم وهم في مواقعهم في الجنّة أو النّار.

فيقول أوّلاً: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾.

فيجيبهم أهل النّار قائلين: نعم وجدنا كل ذلك، عين الحقيقة ﴿قَالُواْ نَعَمْ﴾.

ويجب الالتفات إلى أن (نادى) وإن كان فعلاً ماضياً، إلّا أنّه هنا يعطي معنى المضارع، ومثل هذه التعابير كثيرة في القرآن الكريم، حيث يذكر الحوادث التي تقع في المستقبل حتماً بصيغة الفعل الماضي، وهذا يعدّ نوعاً من التأكيد، يعني أنّ المستقبل واضح جدّاً، وكأنّه قد حدث في الماضي وتحقق.

على أنّ التعبير بـ«نادى» الذي يكون عادةً للمسافة البعيدة، يصوّر بُعد المسافة المقامية أو المكانية بين هذين الفريقين.

وهنا يمكن أن يطرح سؤال وهو: وما فائدة حوار هذين الفريقين مع أنّهما يعلمان بالجواب؟

وجواب هذا السؤال معلوم، لأنّ السؤال ليس دائماً للحصول على المزيد من المعلومات، بل قد يتّخذ أحياناً صفة العتاب والتوبيخ والملامة، وهو هنا من هذا القبيل. وهذه هي واحدة من عقوبات العصاة والظالمين الذين عندما كانوا يتمتعون بلذائذ الدنيا، حيث كانوا يؤذون المؤمنين بالعتابات المرّة، والملامات المزعجة، فلا بدّ - في الآخرة - أن ينالوا عقاباً من جنس عملهم كنتيجة طبيعية لفعلهم، ولهذا الموضوع نظائر في سور القرآن المختلفة، منها ما في آخر سورة المطففين.

ثمّ يضيف تعالى بأنّه في هذا الوقت بالذات ينادي منادٍ بنداء يسمعه الجميع: أن لعنة الله على الظالمين ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ثمّ يعرّف الظالمين ويصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾(١).

---

(١) ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ بمعنى يطلبونها عوجاً، أي إنّهم يرغبون ويجتهدون في أن يضلوا الناس بإلقاء الشبهات والدعايات المسمومة عن الطريق المستقيم. كما أنّ الراغب قال في «المفردات»: عَوج (بفتح العين) يعني الاعوجاج الحسي، وعوج (بكسر العين) يطلق على الاعوجاجات التي تدرك بالفكر والعقل، ولكن هذا التفصيل لا ينسجم مع ظاهر طائفة من الآيات القرآنية مثل الآية (١٠٧) من سورة طه (فتأمل بدقّة).

ومن الآية الحاضرة يُستفاد مرّة أُخرى أنّ جميع الانحرافات والمفاسد قد اجتمعت في مفهوم «الظلم» وللظالم مفهوم واسع يشمل جميع مرتكبي الذنوب، والآثام، وخصوصاً: الضالون المضِلّون.

من هو المُؤذّن! والمنادي؟

مَن هو هذا المؤذن الذي يسمعه الجميع؟ وفي الحقيقة له سيطرة وتفوّق على جميع الفرقاء والطوائف؟

لا يُستفاد من الآية شيء في هذا المجال، ولكن جاء في الأحاديث الإسلامية المفسّرة والموضّحة لهذه الآية، تفسير المؤذّن بأمير المؤمنين علي عليه السلام.

روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني - الذي هو من علماء أهل السُّنّة بسنده عن «محمّد بن الحنفية» عن علي عليه السلام أنّه قال: «أنا ذلك المؤذّن»[1].

وهكذا روى بسنده عن «ابن عباس» أنّ لعلّي عليه السلام أسماء في القرآن الكريم لا يعرفها الناس، منها «المؤذّن» في قول الله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ فهو الذي ينادي بين الفريقين أهل الجنّة وأهل النّار، ويقول: «ألا لعنة الله على الذين كذبوا بولايتي واستخفّوا بحقّي»[2].

ولقد رويت روايات وأحاديث متعددة مماثلة بطرق الشيعة، منها ما رواه الصّدوق رحمه الله بسنده عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ أمير المؤمنين عليه السلام خطب بالكوفة في منصرفه من نهروان، وبلغه أنّ معاوية يسبّه ويعيبه ويقتل أصحابه، فقام خطيباً (إلى أن قال): «وأنا المؤذن في الدنيا والآخرة، قال الله عزّوجلّ: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أنا ذلك المؤذن، وقال: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أنا ذلك الأذان»[3].

ونحن نرى أنّ السبب في انتخاب أمير المؤمنين علي عليه السلام مؤذناً ومنادياً في ذلك الوقت هو:

أوّلاً: لأنّه كان له مثل هذا المنصب من قبل الله والنّبي صلى الله عليه وآله وسلم في الدنيا أيضاً، فهو بعد فتح مكّة كُلّف من جانب الله بأن يتلو الآيات الأُولى من سورة البراءة على مسامع الناس بصوت عالٍ في موسم الحج، تلك الآيات التي تبدأ بقوله: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ

(١) بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣٣١؛ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٢٥٩.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٢٥٩، ذيل الآية مورد البحث.

(٣) تفسير البرهان، ج ٢، ص ١٧. بحار الأنوار، ج٣٣، ص ٢٨٣، ح ٥٤٧.

وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾[١].

ثانياً: إنّ موقف الإمام علي عليه السلام طوال حياته الشريفة كان موقف المكافحة للظلم، والنضال ضد الظالمين، حتى أنّ دفاعه عن المظلوم وعداءه للظالم وخاصّة مع ملاحظة ظروف عصره لتسطع في الصفحات البارزة من تأريخه.

أفليست الحياة في العالم الآخر هي نوع من تجسم كبير وواسع ومتكامل لحياة البشر في هذا العالم؟ وكلاهما بالتالي وجهان لعملة واحدة.

فإذا كانت هذه حقيقة من الحقائق، لم يبق أي مجال للاستغراب أن يكون مؤذن ذلك اليوم، والذي يلعن الظالمين في مكان بين الجنّة والنّار، بأمر من الله والنّبي صلى الله عليه وآله وسلم هو علي عليه السلام.

من هذا يتّضح الجواب والردّ على ما كتبه كاتب «المنار» الذي شكّك في كون هذا المقام لعلي عليه السلام فضيلة، إذ يقول: ولو كنّا نعقل لإسناد هذا التأذين إليه كرم الله وجهه معنًى يعدُّ به فضيلة أو مثوبة عند الله تعالى لقبلنا الرّواية بما دون السند الصحيح[٢].

إذ يجب أن نقول له: كما أنّ النيابة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في إبلاغ سورة البراءة في موسم الحج تعتبر من أكبر فضائله عليه السلام، وكما أنّ مكافحته للظالمين والجائرين تعتبر من أبرز فضائله، يكون حمله لهذه المهمّة في القيامة والذي يعدّ استمراراً لنفس ذلك البرنامج فضيلة طاهرة له أيضاً.

كما يتّضح ممّا قلناه - أيضاً - الردّ على ما كتبه «الآلوسي» كاتب تفسير «روح المعاني» الذي قال: ورواية الإمامية عن الرضا وابن عباس أنّه علي كرم الله تعالى وجهه ما لم يثبت من طريق أهل السنّة[٣].

لأن هذا الحديث - كما أسلفنا - نقله علماء الفريقين السُّنّة والشيعة كلاهما في كتبهم ومصنفاتهم، فلا مجال للتشكيك في صدوره.

﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ

(١) سورة التوبة، الآية: ٣. (٢) تفسير المنار، ج ٨، ص ٤٢٦.
(٣) تفسير روح المعاني، ج ٨، ص ١٢٣.

قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم
بِسِيمَٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ
أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ
تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

التّفسير

الأعراف معبر مهم إلى الجنّة

عقيب الآيات السابقة التي بيّنت جانباً من قصّة أهل الجنّة وأهل النّار، تحدث في هذه الآيات حول «الأعراف» التي هي منطقة في الحد الفاصل بين الجنّة والنّار مع خصوصياتها.

وفي البداية يشير إلى الحجاب الذي أُقيم بين أهل الجنّة وأهل النّار، إذ يقول: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾.

ويستفاد من الآيات اللاحقة أنّ الحجاب المذكور هو «الأعراف» وهو مكان مرتفع بين الفريقين يمنع من رؤية كل فريق الفريق الآخر، ولكن وجود مثل هذا الحجاب لا يمنع من أن يسمع كل منهما صوت الآخر ونداءه، كما مرّ في الآيات السابقة.

فلطالما رأينا جيرة يتحادثون من وراء الجدار، ويستجلي أحدهما حال الآخر دون أن يراه، على أنّ الذين يقفون على الأعراف، أي على الأقسام المرتفعة من هذا المكان المرتفع، يرون كلا الفريقين (تأملوا جيداً).

ويُستفاد من بعض آيات القرآن الكريم، مثل الآية (٥٥) من سورة الصافات، أنّ أهل الجنّة ربّما تطّلعوا من أماكنهم وشاهدوا أهل النّار، ولكن مثل هذه الموارد الاستثنائية لا تنافي ما عليه وضع الجنّة والنّار أساساً، وإنّ ما قلناه آنفاً يعكس ويصور الكيفية لهذين المكانين، وإن كان لهذا القانون - أيضاً - بعض الاستثناءات، فيمكن أن يشاهد بعض أهل الجنّة أهل النّار في شرائط خاصّة.

إنّ ما يجب أن نذّكر به مؤكدين قبل الخوض في بيان كيفية الأعراف هو أن التعابير الواردة حول القيامة والحياة الأُخرى لا تستطيع - بحال - أن تكشف القناع عن جميع خصوصيات تلكم الحياة، بل للتعابير - أحياناً - صفة التشبيه والتمثيل.

وأحياناً تكشف بعض تلك التعابير عن مجرّد شبح في هذا المجال، لأنّ الحياة في ذلك العالم تكون في آفاق أعلى، وهي أوسع بمراتب كثيرة من الحياة في هذا العالم، تماماً مثل سعة الحياة الدنيا هذه بالقياس إلى عالم الرحم والجنين. وعلى هذا فلا عجب إذا كانت الألفاظ والمفاهيم المتداولة في هذا العالم لا تستطيع أن تعكس بصورة كاملة ومعبّرة تلك المفاهيم.

ثمّ إنّ القرآن الكريم يقول: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ يرون كلاً من أهل الجنّة وأهل النّار ويعرفونهم بملامح وجوههم.

و«الأعراف» في اللغة جمع «عرف» بمعنى المحل والموضع المرتفع، ولهذا يطلق على شعر ناصية الفرس، والريش الموجود على عنق الديك لفظ العُرف، فيقال «عُرف الفرس» أو «عُرف الديك»، ومن هذا المنطلق يطلق على المكان المرتفع من البدن لفظ العُرف أيضاً (وسوف نتحدث بتفصيل حول خصوصيات منطقة الأعراف التي جاء ذكرها في هذه الآية بعد الفراغ من تفسير الآيات).

ثمّ يقول: إنّ هؤلاء الرجال ينادون أهل الجنّة ويسلّمون عليهم، ولكنّهم لا يدخلون الجنّة وإن كانوا يرغبون في ذلك ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾.

ولكن عندما ينظرون إلى الطرف الآخر ويشاهدون أهل النّار يصطلون فيها، يتضرعون إلى الله طالبين أن لا يجعلهم مع الظالمين ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾(١).

والجدير بالذكر أنّه استخدم في رؤية أهل النّار في الآية لفظة ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ يعني عندما تعطف أبصارهم نحو جهنم لمشاهدة أهلها، وهذه إشارة إلى أنّهم يكرهون مشاهدة أهل النّار، وكأنّ نظرهم إليهم مقرون بالإكراه والإجبار.

وفي **الآية اللاحقة** يضيف: إنّ أصحاب الأعراف ينادون فريقاً من الجهنميين الذين يعرفونهم بملامح وجوههم ويلومونهم قائلين: أمّا ترون أنّ جمعكم للأموال والأفراد والتجبّر والتكبّر عن قبول الحق لم ينفعكم شيئاً، فأين تلك الأموال وأُولئك الأعوان؟ وماذا حصدتم من تلك المواقف والصفات السيّئة؟! ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

---

(١) «تلقاء» في الأصل - حسب قول بعض المفسّرين وأهل الأدب - مصدر، وهو بمعنى المقابلة، ولكن استعمل فيما بعد بمعنى ظرف المكان، أي في المكان المقابل والمحاذي.

ومرّة أُخرى يقولون موبخين ومعاتبين، وهم يشيرون إلى جمع من ضعفاء المؤمنين المستقرين فوق الأعراف: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾.

وفي المآل تشمل الرحمة الإلهيّة هذه الطائفة من ضعفاء المؤمنين، ويقال لهم: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

من كل ما قلنا اتضح أنّ المراد من ضعفاء المؤمنين هم الذين آمنو وعملوا الصالحات، ولكنّهم بسبب تورطهم في بعض الذنوب كانوا موضع ازدراء من قبل أعداء الحق في الدنيا، وكانوا يركزون على هؤلاء ويقولون: كيف يمكن لمثل هؤلاء أن تشملهم الرحمة الإلهيّة؟ وكيف يمكن لمثل هؤلاء أن يسعدوا؟ ولكن روح الإيمان والحسنات التي كانت عندهم فعلت فعلتها - في المآل - وفي ظلّ اللطف الرّباني والرحمة الإلهيّة، فسعدوا ودخلوا الجنّة.

من هم أصحاب الأعراف

«الأعراف» في الأصل - وكما أسلفنا - منطقة مرتفعة، ويتّضح في ضوء القرائن التي وردت في آيات القرآن وأحاديث أئمّة الإسلام، أنّه مكان خاص بين قطبي السعادة والشقاء، أي الجنّة والنّار. وهو كحجاب حائل بين هذين، أو كأرض مرتفعة فصلت بين هذين الموضعين بحيث يشرف من يقف عليها على الجنّة والنّار، ويشاهد كلا الفريقين، ويعرفهم بوجوههم المبيّضة أو المسودّة، المشرقة أو المظلمة المكفهرة.

والآن لنر من هم الواقفون على الأعراف؟ ومن هم أصحاب الأعراف؟

إنّ دراسة الآيات الأربع المبحوثة هنا تفيد أنّ القرآن الكريم ذكر لهؤلاء الأشخاص نوعين متناقضين مختلفين من الصفات:

ففي الآية الأُولى والثّانية وصف الواقفون على الأعراف بأنّهم يتمنّون أن يدخلوا الجنّة، ولكنّ ثمّة موانع تحول دون ذلك، وعندما ينظرون إلى أهل الجنّة يحيّونهم ويسلّمون عليهم ويودّون لو يكونوا معهم، ولكنّهم لا يستطيعون فعلاً أن يكونوا معهم، وعندما ينظرون إلى أهل النّار يستوحشون ممّا آلوا إليه من المصير، ويتعوذون باللّه من ذلك المصير، ومن أن يكونوا منهم.

ولكن يُستفاد من الآيتين الثّالثة والرّابعة بأنّهم أفراد ذوو نفوذ وقدرة، يوبّخون أهل النّار ويعاتبونهم، ويساعدون الضعفاء في الأعراف على العبور إلى منزل السعادة.

وقد قسمت الرّوايات الواردة في هذا المجال أهل الأعراف إلى هذين الفريقين المختلفين أيضاً.

ففي بعض الأحاديث الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام نقرأ: «نحن الأعراف»[١] أو عبارة: «آل محمّد هم الأعراف»[٢] وما شابه هذه التعابير.

ونقرأ في طائفة أُخرى عبارة: «هم أكرم الخلق على الله تبارك وتعالى»[٣] أو «هم الشهداء على الناس والنّبيون شهداؤهم»[٤] وروايات أُخرى تحكي أنّهم الأنبياء والأئمّة والصلحاء والأولياء.

ولكن طائفة أُخرى مثلما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام تقول: «هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فإن أدخلهم النّار فبذنوبهم، وإن أدخلهم الجنّة فبرحمته»[٥].

وثمّة روايات متعددة أُخرى في تفاسير أهل السُّنة قد رويت عن «حذيفة» و«عبد الله بن عباس» و«سعيد بن جبير» وأمثالهم بهذا المضمون[٦].

ونرى في هذه التفاسير أيضاً مصادر تفيد أنّ أهل الأعراف هم الصلحاء والفقهاء والعلماء أو الملائكة.

وبالرغم من أنّ ظاهر الآيات وظاهر هذه الرّوايات تبدو متناقضة في بدو النظر، ولعله لهذا السبب أبدى المفسّرون في هذا المجال آراءً مختلفة، ولكن مع التدقيق والإمعان يتّضح أنّه لا يوجد أي تناقض ومنافاة، لا بين الآيات ولا بين الأحاديث، بل جميعها تشير إلى حقيقة واحدة.

وتوضيح ذلك: إنّه يُستفاد من مجموع الآيات والرّوايات - كما أسلفنا - أنّ الأعراف معبر صعب العبور على طريق الجنّة والسعادة الأبدية.

ومن الطبيعي أنّ الأقوياء الصالحين والطاهرين هم الذين يعبرون هذا المعبر الصعب بسرعة، أمّا الضعفاء الذي خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فيعجزون عن العبور.

كما أنّه من الطبيعي أيضاً أن تقف قيادات الجموع وسادة القوم عند هذه المعابر الصعبة مثل القادة العسكريين الذين يمشون في مثل هذه الحالات في مؤخرة جيوشهم

(١-٤) تفسير البرهان، ج ٢، ص ١٧ و١٨ و١٩ وص ٣٣ و٣٤.

(٥) تفسير البرهان، ج ٢، ص ١٧.

(٦) تفسير الطبري، ج ٧، ص ١٣٧ و١٣٨ عند تفسير الآية. تفسير جامع البيان، ج ٧، ص ١٣٧ و ١٣٨، ذيل الآية مورد البحث.

ليعبر الجميع، يقفون هناك ليساعدوا ضعفاء الإيمان، فينجو من يصلح للنجاة ببركة مساعدتهم ومعونتهم ونجدتهم.

وعلى هذا الأساس، فأصحاب الأعراف فريقان: ضعفاء الإيمان والمتورطون في الذنوب الذين هم بحاجة إلى الرحمة، والأئمّة السادة الذين يساعدون الضعفاء في جميع الأحوال.

وعلى هذا فإن الطائفة الأُولى من الآيات والأحاديث تشير إلى الفريق الأوّل من الواقفين على الأعراف، وهم الضعفاء، والطائفة الثّانية منها تشير إلى الفريق الثّاني من أصحاب الأعراف، وهم السادة والأنبياء والأئمّة والصلحاء.

ونرى في بعض الرّوايات - أيضاً - شاهداً واضحاً وجلياً على هذا الجمع مثل الحديث المنقول عن الإمام الصّادق عليه السلام الذي قال فيه: «الأعراف كثبان بين الجنّة والنّار، والرجال الأئمّة يقفون على الأعراف مع شيعتهم وقد سبق المؤمنون إلى الجنّة بلا حساب». ويقصد من الشيعة الذي يقفون مع الأئمّة على الأعراف العصاة منهم.

ثمّ يضيف قائلاً: «فيقول الأئمّة لشيعتهم من أصحاب الذنوب: انظروا إلى إخوانكم في الجنّة قد سبقوا إليها بلا حساب، وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ ثمّ يقال: انظروا إلى أعدائكم في النّار، وهو قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ثمّ يقولون لمن في النّار من أعدائهم: هؤلاء شيعتي وإخواني الذين كنتم أنتم تختلفون (تحلفون) في الدنيا أن لا ينالهم الله برحمة، ثمّ يقول الأئمّة لشيعتهم: ادخلوا الجنّة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون»(١).

ونظير هذا المضمون روي في تفاسير أهل السُّنّة عن حذيفة عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم (٢).

ونكرر مرّة أُخرى هنا أنّ الحديث حول تفاصيل وجزئيات القيامة وخصوصيات الحياة في العالم الآخر أشبه بما لو أننا أردنا أن نصف شبحاً من بعيد، في حين أنّ بين ذلك الشبح وبين حياتنا تفاوتاً واسعاً واختلافاً كبيراً، فما نفعله في هذه الصورة هو أنّنا نستطيع بألفاظنا المحدودة والقاصرة أن نشير إليه إشارة ناقصة قصيرة.

---

(١) تفسير البرهان، ج الثّاني، ص ١٩ و٢٠. بحار الأنوار، ج٨، ص ٣٣٥؛ وتفسير الصافي، ج ٢، ص٢٠٢.

(٢) تفسير الطبري، ج٨ ص، ١٤٢ و١٤٣. تفسير جامع البيان، ج ٨، ص ٢٤٩ فما بعد.

هذا، والنقطة الجديرة بالالتفات هي أنّ الحياة في العالم الآخر مبتنية على أساس النماذج والعيّنات الموجودة في هذه الدنيا، فهكذا الحال بالنسبة إلى الأعراف، لأنّ الناس في هذه الدنيا ثلاث فرق: المؤمنون الصادقون الذين وصلوا إلى الطمأنينة الكاملة في ضوء الإيمان، ولم يدخروا وسعاً في طريق المجاهدة. والمعاندون وأعداء الحق المتصلبون المتمادون في لجاجهم الذين لا يهتدون بأية وسيلة. والفريق الثّالث هم الذين يقفون في هذا الممر الصّعب عبوره - في الوسط بين الفريقين، وأكثر عناية القادة الصادقين وأئمّة الحق موجهة إلى هؤلاء، فهم يبقون إلى جانب هؤلاء، ويأخذون بأيديهم لإنقاذهم وتخليصهم من مرحلة الأعراف ليستقروا في صف المؤمنين الحقيقيين.

ومن هنا يتّضح أن تدخّل الأنبياء والأئمّة في إنقاذ هذا الفريق في الآخرة كتدخلهم لذلك في الدنيا لا ينافي أبداً قدرة الله وحاكميته على كل شيء، بل كل ما يفعلونه إنّما هو بإذن الله تعالى وأمره.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

التّفسير

نِعَم الجنّة حرام على أهل النّار

بعد أن استقر كل من أهل الجنّة وأهل النّار في أماكنهم ومنازلهم، تدور بينهم حوارات نتيجتها العقوبة الروحية والمعنوية لأهل النّار.

وفي البداية يبدأ الكلام من جانب أهل النّار: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾. فهم يطلبون أن يجودوا عليهم بشيء من الماء أو من نِعم الجنّة.

ولكن أهل الجنّة يبادرون إلى رفض هذا المطلب ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

بحوث

هناك عدّة نقاط يجب أن نتوقف عندها ونلتفت إليها:

١ - يبدأ القرآن الكريم بأحاديث أهل النّار مع أهل الجنّة بلفظة ﴿وَنَادَىٰٓ﴾ التي تستعمل عادة للتخاطب من مكان بعيد، وهذا يفيد بأنّ بين الفريقين فاصلة كبيرة ومع ذلك يتمّ هذا الحوار ويسمع كل منهما حديث الآخر، وهذا ليس بعجيب، فلو أن المسافة بلغت ملايين الفراسخ لأمكن أن يسمع كل واحد منهما كلام الآخر، بل ويرى - في بعض الأحيان - الطرف الآخر.

ولو كان القبول بهذا أمراً متعذراً أو متعسراً في الماضي، وكانت تشكل مشكلة بالنسبة إلى السامعين، فإنّه مع انتقال الصوت والصورة في عصرنا الحاضر من مسافات بعيدة جدّاً انحلّت هذه المشكلة، ولم تعد الآية موضع تعجب وغرابة.

٢ - إنّ أوّل طلب يطلبه أهل النّار هو الماء، وهذا أمر طبيعي، لأنّ الشخص الذي يحترق في النّار المستعرة يطلب الماء قبل أي شيء حتى يبرد غليله ويرفع به عطشه.

٣ - إنّ عبارة ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ التي هي عبارة مجملة، وتتسم بالإبهام، تفيد أنّه حتى أهل النّار لا يمكنهم أن يعرفوا بشيء من حقيقة النِّعم الموجودة في الجنّة وأنواعها. وهذا الموضوع يتفق وينسجم مع بعض الأحاديث التي تقول: (إنّ في الجنّة ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)[1].

ثمّ إنّ عطف الجملة بـ «أو» يشير إلى أنّ النِّعم الأُخروية الأُخرى وخاصّة الفواكه يمكنها أن تحلّ محل الماء وتطفىء عطش الإنسان.

٤ - إنّ عبارة ﴿حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ إشارة إلى أنّ أهل الجنّة بأنفسهم، ليسوا هم الذين يمتنعون عن إعطاء شيء من هذه النِّعم لأهل النّار، لأنّه لا يقلّ منها شيء بسبب الإعطاء، ولا أنّهم يحملون حقداً أو ضغينة على أحد في صدورهم، حتى بالنسبة إلى أعدائهم، ولكن وضع أهل النّار بشكل لا يسمح لهم أن يستفيدوا من نعم الجنّة.

إنّ هذا الحرمان - في الحقيقة - نوع من «الحرمان التكويني» مثل حرمان كثير من المرضى من الأطعمة اللذيذة المتنوعة.

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١٠، ص ٤٧٦ و ٤٧٨.

في الآية اللاحقة يبيّن سبب حرمانهم، بذكر صفات أهل النّار وأنّ أهل هذا المصير الأسود هم الذين أوقعوا أنفسهم فيه فيقول أوّلاً: إنّ هؤلاء هم الذين اتخذوا دينهم لعباً ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾.

وهذا إلى جانب أنّهم خدعتهم الدنيا واغتروا بها ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

إنّ هذه الأمور سببت في أن يغرقوا في وحل الشهوات، وينسوا كل شيء حتى الآخرة، وينكروا أقوال الأنبياء، ويكذبوا بالآيات الإلهيّة، ولهذا أضاف قائلاً: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

ومن البديهي أنّ المراد من «النسيان» الذي نُسِبَ هنا إلى الله هو بمعنى أنّنا نعاملهم معاملة الناسي تماماً، مثل أن يقول شخص لصديقه: (كما أنّك نسيتني فسوف أنساك أنا أيضاً) أي أنني سوف أعاملك معاملة المتناسي لشيء.

كما أنّه يُستفاد من هذه الآية أنّ أوّل مرحلة من مراحل الانحراف والضلال، هو أن لا يأخذ الإنسان قضاياه المصيرية بمأخِذ الجدّ، بل يتعامل معها معاملة المتسلّي والهازل، فتؤدّي به هذه الحالة إلى الكفر المطلق، وإنكار جميع الحقائق.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٥٣)﴾

التفسير

هذه الآية إشارة - في الدرجة الأُولى - إلى أنّ حرمان الكفّار ومصيرهم المشؤوم إنّما هو نتيجة تقصيراتهم أنفسهم، وإلاّ فليس هناك من جانب الله أي تقصير في هدايتهم وقيادتهم وإبلاغ الآيات إليهم وبيان الدروس التربوية لهم، لهذا يقول تعالى: إنّنا لم نألُ جهداً ولم ندخر شيئاً في مجال الهداية والإرشاد، بل أرسلنا لهم كتاباً شرحنا فيه كل شيء بحكمة ودراية ﴿وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

وهو كتاب فيه رحمة وهداية، لا للمعاندين الأنانيين، بل للمؤمنين ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الآية اللاحقة تشير إلى الطريقة الخاطئة في تفكير العصاة والمنحرفين في صعيد الهداية الإلهيّة فيقول: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ أي كأنّ هؤلاء يتوقعون أن يروا نتيجة الوعد والوعيد الإلهي بعيونهم (أي يروا أهل الجنّة وهم فيها، وأهل النّار وهم فيها) حتى يؤمنوا.

ولكنّه توقّع سخيف، لأنّه عندما تُترجم الوعود الإلهيّة على صعيد الواقع ينتهي الأمر، ولم يعد هناك مجال للرجوع ولا طريق للعودة، وهناك سيعترفون بأنّهم قد تناسوا كتاب الله وتجاهلوا التعاليم الإلهيّة التي أنزلها على رسله بالحق، وكان قولهم حقّاً أيضاً: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

سيغرقون في هذا الوقت في قلق واضطراب، ويفكرون في مخلّص ينقذهم من هذه المشكلة ويقولون: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾.

وإذا لم يكن هناك شفعاء لنا، أو أنّنا لا نصلح أساساً للشّفاعة، أفلا يمكن أن نرجع إلى الدنيا ونقوم بأعمال غير ما عملناه سابقاً، ونسلّم للحق والحقيقة ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

ولكن هذا التنبيه جاء - وللأسف - متأخراً جداً، فلا طريق للعودة ولا صلاحية لهم للشفاعة، لأنّهم قد خسروا كل رؤوس أموالهم، وتورطوا في خسران جميع وجودهم ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾.

وسوف يثبت لهم أنّ أصنامهم ومعبوداتهم ليس لها أي دور هناك، وفي الحقيقة ضاعت - في نظرهم - جميعاً ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

وكأنّ الجملتين الأخيرتين ردّ على طلبهم، يعني إذا كانوا يريدون شفعاء يشفعون فإنّ عليهم حتماً أن يتوسّلوا بأصنامهم التي كانوا يسجدون لها، في حين أنّ تلك الأصنام والأوثان لا تكون مؤثرة هناك مطلقاً.

وأمّا عودتهم إلى الدنيا فإنّها ممكنة في ما لو بقي لديهم رأس مال، ولكنّهم قد خسروا كل رؤوس أموالهم وفقدوا كل وجودهم.

من هذه الآية يُستفاد أوّلاً: إنّ الإنسان حرّ مختار في أعماله، وإلاّ لما طلب العودة والرجوع إلى الدنيا لجبران ما فات، وثانياً: إنّ العالم الآخر ليس مكان العمل واكتساب الفضائل والنجاة.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

التفسير

في الآيات السابقة قرأنا أنّ المشركين يقفون يوم القيامة على خطئهم الكبير في صعيد انتخاب المعبود، والآية الحاضرة تصف المعبود الحقيقي مع ذكر صفاته الخاصّة حتى يستطيع الذين يطلبون الحقيقة وينشدونها أن يعرفوه بوضوح في هذا العالم وقبل حلول يوم القيامة، ويبدأ حديثه هذا بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي أنّ المعبود لا يمكن أن يكون إلّا من كان خالقاً.

هل خلق العالم في ستّة أيّام؟

لقد ورد البحث عن خلق العالم وتكوينه في ستّة أيّام، في سبعة موارد من آيات القرآن الكريم[1]، ولكنّه في ثلاثة موارد أضيف إلى السماوات والأرض لفظة «وما بينهما» أيضاً، والتي هي في الحقيقة توضيح للجملة السابقة، لأنّ جميع هذه الأشياء تدخل في معنى السماوات والأرض، لأنّنا نعلم أنّ السماء تشمل جميع الأشياء التي توجد في الأعلى، والأرض هي النقطة المقابلة للسماء.

وهنا يتبادر هذا السؤال فوراً وهو: قبل أن تخلق السماوات والأرض لم يكن ليل ولا نهار ليقال: خلقت السماوات والأرض فيهما، لأنّ الليل والنهار ناشئان من دوران الأرض حول نفسها في مقابل الشمس.

هذا مضافاً إلى أنّ ظهور المجموعة الكونية في ستّة أيام - يعني أقل من اسبوع - يخالف العلم، لأنّ العلم يقول: لقد استغرق تكوّن الأرض والسماء حتى وصل إلى الوضع الحالي ملياردات من السنوات والأعوام.

ولكن نظراً إلى المفهوم الواسع للفظة «يوم» وما يعادلها في مختلف اللغات، يكون جواب هذا السؤال واضحاً، لأنّه كثيراً ما يستعمل اليوم بمعنى الدورة، سواء استغرقت

---

(١) وهي: الآية المبحوثة هنا، ويونس ٣، وهود ٧، والفرقان ٥٩ والسجدة ٤ وق ٣٨، والحديد ٤.

مدّة سنة، أو مائة سنة، أو مليون سنة أو ملياردات السنين، والشواهد التي تثبت هذه الحقيقة، وتفيد أنّ أحد معاني اليوم هو الدورة، كثيرة:

١ - لقد استعملت لفظة اليوم والأيّام في القرآن الكريم مئات المرات، وفي كثير من الموارد لم تكن بمعنى الليل والنهار، مثلاً يعبر عن عالم البعث بيوم القيامة، وهذا يشهد بأنّ مجموع عملية القيامة التي هي دورة طويلة الأمد والمدّة، تسمى يوم القيامة.

ويستفاد من بعض الآيات القرآنية أنّ يوم القيامة ومحاسبة أعمال الناس يستغرق خمسين ألف سنة (سورة المعارج الآية ٤).

٢ - نقرأ في كتب اللغة أيضاً أنّ اليوم ربّما يطلق على الزمن بين طلوع الشمس وغروبها، وربّما على مقدار من الزمان مهما كان قدره، قال الراغب في المفردات: «اليوم يعبّر به عن وقت طلوع الشمس إلى غروبها، وقد يعبّر عن مدة من الزمان أي مدّة كانت».

٣ - جاء في روايات أئمّة الدين وأحاديثهم - كذلك - استعمال اليوم بمعنى الدهر، كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة أنّه قال: «الدّهر يومان: يوم لك، ويوم عليك»[1].

ونقرأ في تفسير البرهان في تفسير هذه الآية، عن تفسير علي بن إبراهيم أنّ الإمام عليه السلام قال: «في ستة أيّام، أي في ستة أوقات»، أي في ست دورات[2].

٤ - كثيراً ما نشاهد في المحاورات اليومية، وأشعار الشعراء في اللغات المختلفة، أنّ كلمة اليوم وما يعادلها قد استعملت بمعنى الدورة والعهد، مثلاً نقول يوم كانت الكرة الأرضية حارة ومشتعلة، ويوم صارت باردة وظهرت فيها آثار الحياة، في حين أنّ فترة سخونة الأرض واشتعالها استغرقت ملياردات من الأعوام.

أو عندما نقول غصب آل أُمية الخلافة الإسلامية يوماً، وغصبها بنو العباس يوماً آخر.

في حين أنّ فترة اغتصاب الأمويين للخلافة استغرقت عشرات السنين وفترة اغتصاب العباسيين لها استغرقت المئات.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٨، ص ٦٠.

(٢) تفسير علي بن إبراهيم القمّي، ج ١، ص ٢٣٦؛ وتفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٣٨.

من مجموع الحديث السابق نستنتج أنّ الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض في ست دورات متوالية، وإن استغرقت كل دورة من هذه الدورات ملايين أو مليارات السنين، والعلم الحديث لم يبيّن أي أمر يخالف هذا الموضوع.

وهذه الدورات - احتمالاً - هي على الترتيب:

١ - يوم كان الكون في شكل كتلة غازية الشكل، فانفصلت منها أجزاء بسبب دورانها حول نفسها، وتشكلت من المواد المنفصلة الكرات والأنجم.

٢ - هذه الكرات قد تحولت تدريجاً إلى هيئة كتلة من المواد الذائبة المشعة أو الباردة القابلة للسكنى.

٣ - في دورة أُخرى تألفت المنظومة الشمسية وانفصلت الأرض عن الشمس.

٤ - في الدورة الرّابعة بردت الأرض وأصبحت قابلة للحياة.

٥ - ثمّ ظهرت النباتات والأشجار على الأرض.

٦ - وبالتالي ظهرت الحيوانات والإنسان فوق سطح الأرض.

وكل ما ذكرناه أعلاه من الأدوار الستة لعملية خلق وتكوين السماوات والأرض تنطبق على الآيات (٨) إلى (١١) من سورة فصلت التي سيأتي تفسيرها في المستقبل إن شاء الله.

لماذا لم يخلق الله العالم في لحظة واحدة؟

وهنا يطرح سؤال آخر نَفسَه وهو: لماذا خلق الله السماوات والأرض في دورات عديدة وطويلة، وهو القادر على خلقها في لحظة واحدة؟

إنّ جواب هذا السؤال يمكن الوقوف عليه بالالتفات إلى نقطة واحدة، وهي أنّ الخلق لو تمّ في لحظة واحدة، لكان ذلك أقل دلالة على عظمة الخالق وقدرته وعلمه، ولكن لما تمّت عملية الخلق والتكوين في مراحل مختلفة وأشكال متنوعة، وفق برنامج منظم محسوب، كان لذلك دلالة أوضح على معرفة الخالق.

ففي المثل لو كانت النّطفة البشرية تتبدل في لحظة واحدة إلى وليد كامل، لمّا كان ذلك يحكي عظمة الخلق والتكوين، ولكن عندما ظهر الوليد خلال ٩ أشهر، وضمن برنامج دقيق واتخذ في كل يوم وشهر شكلاً خاصاً وصورة خاصّة، استطاعت كل واحدة من هذه المراحل أن تقدّم آية جديدة من آيات العظمة الإلهيّة، وتكون دليلاً جديداً على قدرة الخالق.

ثمّ يقول القرآن الكريم: إنّ الله تعالى بعد خلق السماوات والأرض أخذ زمام إدارتها بيده (أي ليس الخلق منه فقط، بل منه الإدارة والتدبير أيضاً) فقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

وهذا جواب لمن يعتقد أنّ الكون محتاج إلى الله تعالى في الخلق والإيجاد دون البقاء.

ما هو العرش؟

«العرش» في اللغة هو ما له سقف، وقد يطلق العرش على نفس السقف، مثل قوله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾[1].

وربّما يأتي بمعنى الأسرة الكبيرة المرتفعة، مثل أُسرة الملوك والسلاطين، كما جاء في قصة سليمان: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾[2].

وهكذا يطلق لفظ العرش على الأسقف التي يقيمها المزارعون لحفظ بعض الأشجار، وبخاصّة المتسلقة منها، كما نقرأ في القرآن الكريم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾[3].

ولكن عندما ينسب إلى الله سبحانه وتعالى ويقال: عرش الله، يراد منه مجموعة عالم الوجود، الذي يعدّ في الحقيقة سرير حكومة الله تعالى.

وأساساً فإنّ عبارة ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ كناية عن سيطرة حاكم من الحكام على أُمور بلده، كما أنّ المراد من جملة «ثلّ عرشه» هو خروج زمام الأمر من يده وفقدان السيطرة عليه، وقد استعملت هذه الكناية في اللغة بكثرة إذ يقال: إنّ جماعة من الناس ثارت في البلد الفلاني، وأنزلت حاكمه من سريره وعرشه، في حين من الممكن أن لا يكون لذلك الزعيم والحاكم تخت أصلاً.

أو يقال: إنّ جماعة من الناس أيدوا فلاناً، وأجلسوه على العرش، فكل هذه كناية عن امتلاك السلطة أو فقدانها.

وعلى هذا تكون عبارة ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ كناية عن الإحاطة الكاملة لله تعالى وسيطرته على تدبير أمور الكون - سماءً وأرضاً - بعد خلقها.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.
(٢) سورة النمل، الآية: ٣٨.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.

ومن هنا يتّضح أنّ الذين أخذوا هذه الجملة دليلاً على «جسمانيّة الله» كأنّهم لم يلتفتوا إلى موارد استعمال هذه الجملة العديدة في هذا المعنى الكنائي.

وهناك معنى آخر للعرش، وهو أنّه قد ورد أحياناً في قبال «الكرسي» وفي مثل هذه الموارد يمكن أن يكون الكرسي (الذي يطلق عادة على المقعد القصير القوائم) كناية عن العالم المادي، والعرش كناية عن عالم ما فوق المادة (أي عالم الأرواح والملائكة) كما جاء في تفسير آية ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ التي مرّت في سورة البقرة.

ثمّ يقول بأنّه تعالى هو الذي يلقي بالليل - كغشاء - على النهار، ويستر ضوء النهار بالأستار المظلمة ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾.

والملفت للنظر أنّ العبارة المذكورة ذكرت في مجال الليل فقط، ولم يقل (ويغشي النهار الليلَ) لأنّ الغطاء والغشاء يناسب الظلمة فقط ولا يناسب النور والضوء.

ثمّ يضيف بعد ذلك قائلاً: إنّ الليل يطلب النهارَ طلباً حثيثاً ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾.

إنّ هذا التعبير - نظراً لوضع الليل والنهار في الكرة الأرضية - تعبير في غاية الروعة والجمال، لأنّه لو نظر أحد إلى كيفية حركة الكرة الأرضية من الخارج، وكيفية دورانها حول نفسها ووقوع ظلها المخروطي الشكل على نفسها، مع العلم أنّ الكرة الأرضية تدور بسرعة فائقة حول نفسها (أي في حدود ٣٠ كيلومتراً في الدقيقة) لأحس أنّ غول الظلّ المخروطي الأسود يجري بسرعة كبيرة على هذه الكرة خلف ضوء النهار.

ولكن هذا الأمر غير صادق بالنسبة إلى ضوء النهار، لأنّ ضوء الشمس منتشر في نصف الكرة الأرضية وفي جميع الفضاء المحيط بأطراف الأرض، ولا يتخذ لنفسه شكلا خاصاً، وإنّما ظلمة الليل فقط هي التي تدور مثل شبح غامض الأسرار حول الأرض.

ثمّ يضيف تعالى أنّه هو الذي خلق الشمس والقمر والنجوم، خاضعة لأمره بعد خلقها: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

(وسوف نبحث حول تسخير الشمس والقمر والنجوم ومعاني ذلك في ذيل الآيات المناسبة بإذن الله تعالى).

ثمّ بعد ذكر خلق العالم ونظام الليل والنهار، وخلق الشمس والقمر والنجوم، قال مؤكّداً: اعلموا أنّ خلق الكون وتدبير أُموره كلّه بيده سبحانه دون سواه، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾.

ما هو «الخلق» و«الأمر»؟

هناك كلام كثير بين المفسّرين حول المراد من «الخلق» و«الأمر» ولكن بالنظر إلى القرائن الموجودة في هذه الآية - والآيات القرآنية الأُخرى - يُستفاد أنّ المراد من «الخلق» هو الخلق والإيجاد الأوّل. والمراد من «الأمر» هو السُّنن والقوانين الحاكمة على عالم الوجود بأسره بأمر الله تعالى، والتي تقود الكون في مسيره المرسوم له.

إنّ هذا التعبير - في الحقيقة - ردّ على الذين يتصورون أنّ الله خلق الكون ثمّ تركه لحاله وأهله، وجلس جانباً. أي إنّ العالم بحاجة إلى الله في وجوده وحدوثه، دون بقائه واستمراره.

إنّ هذه الجملة تقول: كلاّ، بل إنّ العالم كما يحتاج في حدوثه إلى الله، كذلك يحتاج في تدبيره واستمرار حياته وإدارة شؤونه إلى الله، ولو أنّ الله صرف عنايته ولطفه عن الكون لحظة واحدة لتبدد النظام وانهار وانهدم بصورة كاملة.

وقد مال بعض الفلاسفة إلى أن يفسّر عالم «الخلق» بعالم «المادة» وعالم «الأمر» بعالم «ما وراء المادة» لأنّ لعالم الخلق جانباً تدريجياً، وهذه هي خاصية المادة. ولعالم الأمر جانباً دفعياً وفورياً، وهذه هي خاصية عالم ما وراء المادة، كما نقرأ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

ولكن بالنظر إلى موارد استعمال لفظة الأمر في آيات القرآن، وحتى عبارة ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ الواردة في الآية المبحوثة يُستفاد أنّ الأمر يعني كل أمر إلهي سواء في عالم المادة أو في عالم ما وراء المادة (فتدبّر).

ثمّ في ختام الآية يقول: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

في الحقيقة إنّ هذه الجملة - بعد ذكر خلق السماوات والأرض والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم وتدبير عالم الوجود - نوع من الثناء على الذات الربوبية المقدسة، وقد سيق لتعليم العباد.

و﴿تَبَارَكَ﴾ من مادة البركة وأصلها «بَرْك» ومعناها صدر البعير، حيث إنّ الإبل عندما تستقر في مكان ما تلصق صدورها على الأرض، لهذا اتخذت هذه الكلمة تدريجياً معنى الثبوت والاستقرار والاستتباب، ثمّ وصفت وسمّيت كل نعمة مستقرة ودائمة، وكل

---

(١) سورة يس، الآية: ٨٢.

كائن طويل العمر، ومستمر الآثار والخيرات، بأنّه موجود مبارك، ويقال أيضاً للمكان الذي يتجمع فيه الماء «بركة» لبقائه في ذلك المكان مدة طويلة.

من هنا يتّضح أنّ رأس المال «المبارك» هو الذي يتصف بالدوام، والكائن «المبارك» هو الموجود المستديم الآثار، ومن البديهي أنّ أليق وجود لهذه الصفة هو وجود الله تعالى، فهو وجود مبارك أزلي أبدي، وهو بالتالي منشأ جميع البركات والخيرات، ومنبع الخير المستمر ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (وسوف نتحدث في هذا المجال في تفسير الآية (٩٢) من سورة الأنعام أيضاً).

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

التّفسير

شروط استجابة الدعاء:

لقد أثبتت الآية السابقة - في ضوء ما أُقيم من برهان واضح - هذه الحقيقة، وهي أنّ الذي يستحق العبادة فقط هو الله، وفي عقيب ذلك ورد الأمر هنا بالدعاء، الذي هو مخ العبادة وروحها، يقول أوّلاً: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

و«التضرّع» في الأصل من مادة «ضَرْعٌ» بمعنى الثدي، وعلى هذا يكون فعل التضرع بمعنى حلب اللبن من الضرع، وحيث إنّه عند حلب اللبن تتحرك الأصابع على حلمة الثدي من جهاتها المختلفة استدراراً للحليب، لهذا استعملت هذه الكلمة في من يظهر حركات خاصّة إظهاراً للخضوع والتواضع.

وعلى هذا فإنّ الآية المبحوثة، وعبارة ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ تحثّنا على أن نقبل على الله بمنتهى الخضوع والخشوع والتواضع، بل يجب أن تنعكس روح الدعاء في أعماق روح الإنسان، وعلى جميع أبعاد وجوده، ويكون اللسان مجرّد ترجمانها، ويتحدث نيابة عن جميع أعضائه.

وأمره تعالى - في الآية الحاضرة - بأن يدعى الله «خفية» وفي السّر، لأنّه أبعد عن

الرياء، وأقرب إلى الإخلاص، ولأجل أن يكون الدعاء مقروناً بتمركز الفكر وحضور القلب.

ونحن نقرأ في حديث أنّ رسول الله ﷺ لما كان في إحدى غزواته، ووصل جنود الإسلام إلى وادٍ رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير قائلين: «لا إله إلّا الله الله أكبر» فقال النّبي ﷺ:

«يا أيّها الناس اربعوا على أنفسكم، أما إنّكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، إنّكم تدعون سميعاً قريباً، إنّه معكم»(١).

كما ويحتمل في هذه الآية أيضاً أن يكون المراد من «التضرعّ» هو الدعاء الظاهر العلني، والمراد من «الخفية» الدعاء الخفي السّري، لأنّ لكل مقام اقتضاءً خاصّاً، فقد يقتضي أن يكون الدعاء علناً، وربّما يقتضي خفية وسراً، وهناك رواية وردت في ذيل هذه الآية تؤيد هذا الموضوع.

ثمّ قال تعالى في ختام الآية: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي إنّ الله لا يحب المعتدين.

ولهذه العبارة معنى وسيع يشمل كل نوع من أنواع العدوان والتجاوز، سواء الصراخ ورفع الصوت عالياً جداً حين الدعاء، أو التظاهر وممارسة الرياء، أو التوجه إلى غير الله حين الدعاء.

وفي الآية اللاحقة يشير تعالى إلى حكم هو في الحقيقة شرط من شروط تأثير الدعاء، إذ قال: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾.

ومن المسلم أنّ الأدعية إنّما تكون عند الله أقرب إلى الإجابة إذا تحققت فيها الشرائط اللازمة، ومن جملة ذلك أن يكون الدعاء مقترناً بالجوانب البناءة والعملية في حدود المستطاع، وأن تراعى حقوق الناس، وأن تلقي حقيقة الدعاء بأنوارها وظلالها على وجود الإنسان الداعي بأسره، ولهذا فلا تستجاب أدعية المفسدين والعصاة، ولا تنتهي إلى أية نتيجة مرجوّة.

والمراد من «الفساد بعد الإصلاح» يمكن أن يكون الإصلاح من الكفر أو الظلم أو كليهما، جاء في رواية عن الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ الأرض كانت فاسدة فأصلحها نبيّه ﷺ»(٢).

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٢٩. تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٢٧١.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٢٧٢ و ٤٢٩. وتفسير العياشي، ج ٢، ص١٩.

ومرّة أُخرى يعود إلى مسألة الدعاء ويذكر شرطاً آخر من شرائطه فيقول: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

أي لا تكونوا راضين معجبين بأفعالكم بحيث تظنون أنّه لا توجد في حياتكم أيّة نقطة سوداء، إذ إنّ هذا الظن هو أحد عوامل التقهقر والسقوط، كما لا تكونوا يائسين إلى درجة أنّكم لا ترون أنفسكم لائقين للعفو الإلهي ولإجابة الدعاء، إذ إنّ هذا اليأس والقنوط هو الآخر سبب لانطفاء شعلة السعي والاجتهاد، بل لا بدّ أن تعرجوا نحوه تعالى بجناحي (الخوف) و(الأمل) الخوف من المسؤوليات والعثرات، والأمل برحمته ولطفه.

وفي خاتمة الآية يقول تعالى للمزيد من التأكيد على أسباب الأمل بالرحمة الإلهيّة ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

ويمكن أن تكون هذه العبارة إحدى شرائط إجابة الدعاء، يعني إذا كنتم تريدون أن لا تكون أدعيتكم خاوية، ومجرّد لقلقة لسان، فيجب أن تقرنوها بعمل الخير والإحسان، لتشملكم الرحمة الإلهيّة بمعونة ذلك وتثمر دعواتكم، وبهذا تكون الآية قد تضمنت الإشارة إلى خمسة من شرائط قبول الدعاء وإجابته، وهي باختصار كالتالي:

١ - أن يكون الدعاء عن تضرّع وخفية.

٢ - أن لا يتجاوز حدّ الاعتدال.

٣ - أن لا يكون مقروناً بالإفساد والمعصية.

٤ - أن يكون مقروناً بالخوف والأمل المعتدلين.

٥ - أن يكون مقروناً بالبرّ والإحسان، وفعل الخيرات.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

التفسير

لا بدّ من المربي والقابليّة

في الآيات الماضية مرّت إشارات عديدة إلى مسألة «المبدأ» أي التوحيد ومعرفة الله، من خلال الوقوف على أسرار الكون، وفي هذه الآيات ضمن بيان طائفة من النِّعم الإلهيّة وردت الإشارة إلى مسألة «المعاد» والبعث، ليكمل هذان البحثان أحدهما الآخر.

وهذه هي سيرة القرآن الكريم ودأبه في كثير من الموارد، حيث يقرن بين «المبدأ» و«المعاد»، والملفت للنظر أنّه يستعين لمعرفة الله، وكذا لتوجيه الأنظار إلى أمر المعاد معاً بالاستدلال بالأسرار الكامنة في خلق موجودات هذا العالم. فيقول تعالى أولاً: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾.

ثمّ يقول: إنّ هذه الرياح التي تهب من المحيطات تحمل معها سحباً ثقيلة مشبّعة بالماء ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾.

ثمّ يسوق تلك السحب إلى الأراضي الظامئة اليابسة، ويكلّفها بأن تروي تلك الأراضي العطاشى ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾.

وبذلك ينهمر ماء الحياة في كل مكان ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾.

وبمعونة هذا الماء نخرج للبشر أنواعاً متنوعة من الثمار والفواكه ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

نعم، إنّ الشمس تسطع على المحيطات والبحار، فيتبخر الماء ويتصاعد البخار إلى الأعلى، وهناك في الطبقات العالية الباردة من الجو يتراكم البخار ويشكل كتلاً ثقيلة من السحب، ثمّ تحمل الرياح كتل السحاب العظيمة على ظهرها، وتتوجه إلى الأراضي التي كُلِفت بسقيها، فتجري بعض هذه الرياح أمام كتل السحاب، وتكون ممزوجة بشيء من الرطوبة الخفيفة، فتحدث نسيماً مريحاً تُستشم منه رائحة المطر اللذيذة الباعثة للحياة والنشاط.

إنّها - في الحقيقة - المبشرات بنزول المطر، ثمّ تُرسل كتل الغيم العظيمة حبات المطر من بين ثناياها، لكنّها ليست بالكبيرة جدّاً فتتلف الزروع والأراضي، ولا بالصغيرة جدّاً فتضيع في الفضاء ولا تصل إلى الأرض، ثمّ تحط هذه الحبات على

الأرض برفق وهدوء، وتنفذ في ترابها شيئاً فشيئاً، فتنبت البذور والحبات. وتبدل الأرض المحترقة بالجفاف، والتي كانت أشبه شيء بمقبرة مظلمة وساكنة وهامدة، إلى مركز فعّال نابض بالحياة والحركة، وتنشأ الجنائن الخضراء الغنية بالأزاهير والثمار.

ثمّ عقيب ذلك يضيف فوراً ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ ونلبسهم حلّة الوجود والحياة مرّة أُخرى.

ولقد أتينا بهذا المثال لأجل أن نريكم أُنموذجاً من المعاد في هذه الدنيا، الذي يتكرر أمام عيونكم كل يوم ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وفي **الآية اللاحقة** - وحتى لا يظن أحد أن نزول المطر على نمط واحد يدل على أنّ جميع الأراضي تصير حيّة على نمط واحداً أيضاً، وحتى يتّضح أنّ القابليات والاستعدادات المتفاوتة تسبّبت في أن تتفاوت حالات الاستفادة والانتفاع بالمواهب الإلهيّة يقول: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي إنّ الأرض الصالحة هي التي تستفيد من المطر، وتثمر خير إثمار بإذن ربّها.

أمّا الأراضي السبخة والخبيثة فلا تثمر إلّا بعض الأعشاب غير النافعة (والذي خبث لا يخرج إلّا نكداً)[1].

هكذا يكون الأمر بالبعث، وإن كان سبباً لعودة الحياة إلى جميع أفراد البشر، إلّا أنّ جميع الناس لا يحشرون على نمط واحد وهيئة واحدة، إنّهم مختلفون متفاوتون في ذلك مثل تفاوت الأرض الحلوة، والأرض المالحة، نعم يتفاوتون، ويكون هذا التفاوت ناشئاً من الأعمال والعقائد والنيات.

ثمّ في ختام الآية يقول تعالى: إنّ هذه الآيات نبيّنها لمن يشكرونها، ويستفيدون من عِبَرها ومداليلها، ويسلكون في ضوئها سبيل الهداية ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.

إن الآية الحاضرة - في الحقيقة - إشارة إلى مسألة مهمّة تتجلى في هذه الحياة وفي الحياة الأُخرى في كل مكان، وهي أنّ فاعلية الفاعل وحدها لا تكفي للإثمار والإنتاج الصحيح المطلوب، بل لابدّ من «قابلية القابل» فهي شرط للتأثير والإثمار. فإنّه ليس هناك شيء ألطف وأكثر بعثاً للحياة والنشاط من حبات المطر، ولكن هذا المطر نفسه

---

(١) النّكد: هو البخيل الممسك الذي يتعذر أخذ شيء منه بسهولة، ولو أنّه أعطى لأعطى الشيء اليسير الحقير. ولقد شبهت الأراضي المالحة السبخة غير المساعدة للزرع بمثل هذا الشخص.

ـي لا شكّ في لطافة طبعه، يورق ويورد في مكان، وينبت الشوك والحنظل في مـ
ر.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ
وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

التّفسير

ـالة نوح أوّل الرّسل من أولي العزم

تقدّم أنّ هذه السورة - بعد ذكر سلسلة من القضايا الجوهرية والعامّة على صـ
ـرفة الله والمعاد والهداية الإلهيّة للبشر، ومسألة الشعور بالمسؤولية - تشير إلى قصـ
من الأنبياء الكرام والرُّسل العظام مثل «نوح» و«هود» و«صالح» و«شعيب» وبالتـ
ـوسى بن عمران» عليهم السلام، كي تقدم أمثلة حية لهذه الأبحاث وبصورة عملية في تـ
يخهم الحافل بالحوادث والعبر.

فيبدأ سبحانه من قصة نوح النّبي، ويستعرض قسماً من حواراته مع قومه الوثنـ
ـعاندين.

وقد وردت قصة نوح في سور قرآنية متعددة، مثل سورة هود، الأنبياء، المؤمنو
ـعراء، كما أنّ هناك سورة قصيرة في القرآن الكريم باسم «سورة نوح» وهي السـ
ـادية والسبعون من سور الكتاب العزيز.

وسوف يأتي شرح ودراسة جهود هذا النّبي العظيم، وكيفية صنعه للسفينة، والطو
هيب، وغرق قومه الأنانيين الفاسدين والوثنيين بإسهاب في السور المذكورة، و
ـفي - فقط - بإعطاء فهرست عن ذلك ضمن ست آيات هي:

يقول أوّلاً: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾.

إنّ أوّل شيء ذكّرهم به هو إلفات نظرهم إلى حقيقة التوحيد، ونفي أي نوع من أنواع الوثنية ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾.

إنّ شعار التوحيد ليس شعار نوح وحده، بل هو أوّل شعار لجميع الأنبياء والمرسلين الإلهيين، ولهذا يشاهد في آيات متعددة من هذه السورة - وغيرها من السور القرآنية - أنّ أوّل ما يفتتح أكثر الأنبياء دعواتهم به هو هذا الشعار: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ (راجع الآيات ٦٥، و٧٣ و٨٥ من نفس هذه السورة.

من هذه العبارات يُستفاد جيداً أنّ الوثنية كانت أسوأ مانع في طريق سعادة البشرية جمعاء، وأنّ حملة غصون التوحيد هؤلاء كانوا أوّل ما يفعلونه لغرس هذه الغصون في مزرعة الحياة البشرية وتربية أنواع الورود الزاهية والأشجار المثمرة فيها، هو أنّهم يشمرون عن ساعد الجدّ ليطهروا الحياة البشرية بمنجل تعاليمهم البناءة من الأشواك، أشواك الوثنية والشرك والعبودية لغير الله تعالى.

ويستفاد من الآية (٢٣) في سورة نوح خاصّة أنّ الناس في زمن النّبي نوح عليه السلام كانوا يعبدون أصناماً متعددة تدعى «ودّ» و«سواع» و«يغوث» و«يعوق» و«نسر»، التي سيأتي الحديث عنها عند تفسير تلك الآية بإذن الله.

وبعد أن أيقظ نوح ضمائرهم وفطرتهم الغافية، حذّرهم من مغبة الوثنية وعاقبتها المؤلمة إذ قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾.

والمراد من ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ يمكن أن يكون الطوفان المعروف بطوفان نوح، الذي قلّما شوهد عقاباً مثله في العظمة والسِعة، كما ويمكن أن يكون إشارة إلى العقوبة الإلهيّة في يوم القيامة، لأنّ هذا التعبير قد ورد في معنيين من القرآن الكريم. فإنّنا نقرأ في سورة الشعراء الآية (١٨٩): ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ الآية وردت حول العقوبة التي نزلت بقوم شعيب في هذه الدنيا بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، ونقرأ في سورة المطففين الآيتان (٤)و(٥): ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥﴾[1].

إنّ عبارة ﴿أَخَافُ﴾ (بمعنى أخشى أن تصيبكم هذه العقوبة) بعد ذكر مسألة الشّرك في الآية المبحوثة، يمكن أن تكون لأجل أنّ نوحاً يريد أن يقول لهم: إذا لم تتيقنوا وقوع هذه العقوبة، فعلى الأقل ينبغي أن تخافوا منها، ولهذا لا يجيز العقل أن تسلكوا - مع هذا الاحتمال - هذا السبيل الوعر، وتستقبلوا عذاباً عظيماً أليماً كهذا.

(١) كلمة عظيم في الآية أعلاه صفة «اليوم» لا للعذاب.

ولكن قوم نوح بدل أن يستقبلوا دعوة هذا النّبي العظيم الإصلاحية، المقرونة بقصد الخير والنفع لهم، فينضوون تحت راية التوحيد ويكفون عن الظلم والفساد، قال جماعة من الأعيان والأثرياء الذين كانوا يحسون بالخطر على مصالحهم بسبب يقظة الناس وانتباههم، ويرون الدين مانعاً من عبثهم ومجونهم وشهواتهم، قالوا لنوح بكل صراحة وقحة: نحن نراك في ضلال واضح ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

و﴿ٱلْمَلَأُ﴾ تطلق عادة على الجماعة التي تختار عقيدة وفكرة واحدة، ويملأ اجتماعها وجلالها الظاهري عيون الناظرين، لأن مادة «الملأ» أصلاً من «الملء»، وقد استعملها القرآن على الأغلب في الجماعات الأنانية المستبدة ذات المظهر الأنيق والباطن الفاسد الملوث بالأدران والشرور، والذين يملأون ساحات المجتمع المختلفة بوجودهم.

ولقد جابه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ تعنتهم وخشونتهم بلحن هادىء ولهجة متينة تطفح بالمحبّة والرحمة، فقال في معرض الردّ عليهم: أنا لست بضالٍ، بل ليست فيّ أية علامة للضلال، ولكنّي مرسل من الله ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وهذه إشارة إلى أنّ الأرباب التي تعبدوها وتفترضون لكل واحد منها مجالاً للسيادة والحاكمية، مثل إله البحر، إله السماء، إله السلام والحرب، وما شاكل ذلك، كله لا أساس لها من الصحة، ورب العالمين ما هو إلّا الله الواحد الذي خلقها جميعاً وأوجدها من العدم.

ثمّ إنّ هدفي إنّما هو إبلاغ ما حمّلت من رسالة ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾.

ولن آلو جهداً في تقديم النصح لكم، وقصد نفعكم، وإيصال الخير إليكم ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾.

﴿وَأَنصَحُ﴾ من مادة «نُصْح» يعني الخلوص والغلو عن الغش وعن الشيء الدخيل، لهذا يقال للعَسل الخالص: ناصح العسل، ثمّ أطلقت هذه اللفظة على الكلام الصادر عن سلامة نية، وبقصد الخير، ومن دون خداع ومكر.

ثمّ أضاف تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

إنّ هذه العبارة يمكن أن يكون لها جانب تهديد في مقابل معارضاتهم ومخالفتهم، وكأنّه يريد أن يقول: أنا أعلم بعقوبات إلهية أليمة تنتظر العصاة لا تعلمون شيئاً عنها، أو تكون إشارة إلى لطف الله ورحمته، وتعني أنّكم إذا أطعتم الله، وكففتم عن تعنتكم،

فإنّي أعلم مثوبات عظيمة لكم لا تعلمونها ولم تقفوا لحدّ الآن على سعتها، أو تكون إشارة إلى أنّني إذا كنت قد كلفت بهدايتكم فإنّني أعلم أُموراً عن الله العظيم وعن أوامره لا تعرفونها، ولهذا يجب أن تطيعوني وتتبعوني، ولا مانع من أن تكون كل هذه المعاني مقصودة ومجتمعة في مفهوم الجملة الحاضرة.

وفي **الآية اللاحقة** نقرأ لنوح كلاماً آخر قاله في مقابل استغراب قومه من أنّه كيف يمكن لبشر أن يكون حاملاً لمسؤولية إبلاغ الرسالة الإلهيّة، إذ قال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

يعني: أيّ شيء في هذه القضية يدعو إلى الاستغراب والتعجب، لأنّ الإنسان الصالح هو الذي يمكنه أن يقوم بهذه الرسالة أحسن من أي كائن آخر، هذا مضافاً إلى أنّ الإنسان هو القادر على قيادة البشر، لا الملائكة ولا غيرهم.

ولكن بدل أن يقبلوا بدعوة مثل هذا القائد المخلص الواعي فقد كذّبه الجميع، فأرسل الله عليهم طوفاناً فغرق المكذبون ونجا في السفينة نوح ومن آمن ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾[١].

وفي خاتمة الآية ذكر دليل هذه العقوبة الصعبة، وأنّه عمى القلب الذي منعهم عن رؤية الحق، وأتباعه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾[٢].

وهذا العمى القلبي كان نتيجة أعمالهم السيئة وعنادهم المستمر، لأنّ التجربة أثبتت أنّ الإنسان إذا بقي في الظلام مدة طويلة، أو أغمض عينيه لسبب من الأسباب وامتنع عن النظر مدة من الزمن، فإنّه سيفقد قدرته على الرؤية تدريجاً وسيصاب بالعمى في النهاية.

وهكذا سائر أعضاء البدن إذا تركت الفعالية والعمل مدّة من الزمن يبست وتعطلت عن العمل نهائياً.

وبصيرة الإنسان هي الأُخرى غير مستثناة عن هذا القانون، فالتغاضي المستمر عن الحقائق، وعدم استخدام العقل والتفكير في فهم الحقائق والواقعيات بصورة مستمرة، يضعف بصيرة الإنسان تدريجاً إلى أن تعمى عين القلب والعقل في النهاية تماماً.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٦٤.

(٢) «عمين» جمع عمي، وهو يطلق عادة على من تعطلت بصيرته الباطنية، ولكن الأعمى يطلق على من فقد بصره الظاهري، وكذلك يطلق على من فقد بصيرته الباطنية أيضاً (وعَمْي حينما يدخل عليها الإعراب تتبدل إلى عم).

هذه لمحة عن قصة نوح، وأمّا بقية هذه القصّة وكيفية وقوع الطوفان وتفاصيلها الأُخرى، فسوف نشير إليها في السور التي أشرنا إليها في مطلع هذا البحث.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ
﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا
لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن
رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ
أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ
خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ
ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ
عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ
وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ
﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ
وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾

التّفسير

لمحة عن قصّة قوم هود

عقيب ذكر رسالة نوح والدروس الغنية بالعبر الكامنة فيها، عمد القرآن الكريم إلى إعطاء لمحة سريعة عن قصّة نبي آخر من الأنبياء العظام، وهو النّبي هود عليه السلام، وذكر ما جرى بينه وبين قومه.

وهذه القصّة ذكرت في سور أُخرى من القرآن الكريم مثل سورة «الشعراء» وسورة «هود» التي تناولت هذه القصّة بشيء من التفصيل، وأمّا في الآيات الحاضرة فقد ذكر شيء مختصر عمّا دار بين هود والمعارضين له ونهايتهم.

يقول تعالى أوّلاً: ولقد أرسلنا إلى قوم عاد أخاهم هوداً ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾.

وقوم «عاد» كانوا أُمّةً تعيش في أرض «اليمن» وكانت أُمّة قوية من حيث المقدرة البدنية والثروة الوافرة التي كانت تصل إليهم عن طريق الزراعة والرعي، ولكنّها كانت متخمة بالانحرافات الاعتقادية وبخاصّة الوثنية والمفاسد الأخلاقية المتفشية بينهم.

وقد كُلِّف «هود» الذي كان منهم - وكان يرتبط بهم بوشيجة القربى - من جانب الله بأن يدعوهم إلى الحق ومكافحة الفساد، ولعل التعبير بـ ﴿أَخَاهُمْ﴾ إشارة إلى هذه الوشيجة النسبية بين هود وقوم عاد.

ثمّ إنّه يحتمل أيضاً أن يكون التعبير بـ «الأخ» في شأن النّبي هود، وكذا في شأن عدّة أشخاص آخرين من الأنبياء الإلهيين مثل نوح عليه السلام (سورة الشعراء الآية ١٠٦) وصالح (سورة الشعراء الآية ١٤٢) ولوط (سورة الشعراء الآية ١٦١) وشعيب (سورة الأعراف الآية ٨٥) إنّما هو لأجل أنّهم كانوا يتعاملون مع قومهم في منتهى الرحمة، والمحبّة مثل أخ حميم، ولا يألون جهداً في إرشادهم وهدايتهم ودعوتهم إلى الخير والصلاح.

إنّ هذه الكلمة تستعمل في من يعطف على أحد أو جماعة غاية العطف، ويتحرق لهم غاية التحرق، مضافاً إلى أنّها تحكي عن نوع من التساوي ونفي أي رغبة في التفوق والزعامة، يعني أنّ رسل الله لا يحملون في نفوسهم أيّة دوافع شخصية في صعيد هدايتهم، إنما يجاهدون فقط لإنقاذ شعوبهم وأقوامهم من ورطة الشقاء.

وعلى كل حال، فإنّ من الواضح والبيّن أنّ التعبير بـ ﴿أَخَاهُمْ﴾ ليس إشارة إلى الأخوة الدينية مطلقاً، لأنّ الأقوام هذه لم تستجب - في الأغلب - لدعوة أنبيائها الإصلاحية.

ثمّ يذكر تعالى أنّ هوداً شرع في دعوته في مسألة التوحيد ومكافحة الشرك والوثنية: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

ولكن هذه الجماعة الأنانية المستكبرة، وبخاصّة أغنياؤها المغرورون المعجبون بأنفسهم، والذين يعبّر عنهم القرآن بلفظة «الملأ» باعتبار أنّ ظاهرهم يملأ العيون، قالوا لهود نفس ما قاله قوم نوح لنوح عليه السلام: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

«السفاهة» وخفة العقل كانت تعني في نظرهم أن ينهض أحد ضد تقاليد بيئته مهما كانت تلكم التقاليد خاوية باطلة، ويخاطر حتى بحياته في هذا السبيل.

لقد كانت السفاهة في نظرهم ومنطقهم هي أن لا يوافق المرء على تقاليد مجتمعه

وسننه البالية، بل يثور على تلك السنن والتقاليد، ويستقبل برحابة صدر كل ما تخبئه له تلك الثورة والمجابهة.

ولكن هوداً - وهو يتحلى بالوقار والمتانة التي يتحلى بها الأنبياء والهداة الصادقون الطاهرون - من دون أن ينتابه غضب، أو تعتريه حالة يأس ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ثمّ إنّ هوداً أضاف: إنّ مهمته هي إبلاغ رسالات الله إليهم، وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم وخيرهم، وإنقاذهم من ورطة الشّرك والفساد، كل ذلك مع كامل الإخلاص والنصح والأمانة والصدق ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾.

ثمّ إنّ هوداً أشار - في معرض الردّ على من تعجب من أن يبعث الله بشراً رسولاً - إلى نفس مقولة نوح النّبي لقومه: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ أي هل تعجبون من أن يرسل الله رجلاً من البشر نبيّاً، ليحذركم من مغبة أعمالكم، وما ينتظركم من العقوبات في مستقبلكم؟

ثمّ إنّه استثارةً لعواطفهم الغافية، وإثارة لروح الشكر في نفوسهم، ذكر قسماً من النِّعم التي أنعم الله تعالى بها عليهم، فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾، فقد ورثتم الأرض بكل ما فيها من خيرات عظيمة بعد أن هلك قوم نوح بالطوفان بسبب طغيانهم وبادوا.

ولم تكن هذه هي النعمة الوحيدة، بل وهب لكم قوة جسدية عظيمة ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾.

إنّ جملة ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ يمكن أن تكون - كما ذكرنا - إشارة إلى قوة قوم عاد الجسدية المتفوقة، لأنّه يُستفاد من آيات قرآنية عديدة، وكذا من التواريخ، أنّهم كانوا ذوي هياكل عظمية قوية وكبيرة، كما نقرأ ذلك من قولهم في سورة «فصلت» الآية ١٥ ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ وفي الآية (٧) من سورة الحاقة نقرأ - عند ذكر ما نزل بهم من البلاء بذنوبهم - ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ حيث شبه جسومهم بجذوع النخل الساقطة على الأرض.

ويمكن أن تكون إشارة - أيضاً - إلى تعاظم ثروتهم وإمكانياتهم المالية، ومدنيتهم الظاهرية المتقدمة، كما يُستفاد من آيات قرآنية وشواهد تاريخية أُخرى، ولكن الاحتمال الأوّل أنسب مع ظاهر الآية.

وفي خاتمة الآية يذكّر تلك الجماعة الأنانيّة بأن يتذكروا نِعَم الله لتستيقظ فيهم روح الشكر فيخضعوا لأوامره، علّهم يفلحون ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ولكن في مقابل جميع المواعظ والإرشادات المنطقية، والتذكير بنِعَم الله ومواهبه، انبرت تلك الثلة من الناس الذين كانوا يرون مكاسبهم المادية في خطر، وقبول دعوة النّبي تصدّهم عن التمادي في أهوائهم وشهواتهم، انبرت إلى المعارضة، وقالوا بصراحة، : إنّك جئت تدعونا إلى عبادة الله وحده وترك ما كان أسلافنا يعبدون دهراً طويلاً، كلا، لا يمكن هذا بحال ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾؟

لقد كان مستوى تفكير هذه الثّلة منحطاً جدّاً - كما تلاحظ - إلى درجة أنّهم كانوا يستوحشون من عبادة الله وحده، بينما يعتبرون تعدّد الآلهة والمعبودات مفخرةً من مفاخرهم.

والجدير بالتأمل أنّ دليلهم في هذا المجال لم يكن إلّا التقليد الأعمى لما كان عليه الآباء والأسلاف، وإلّا فكيف يمكن أن يبرروا خضوعهم لقطعات من الصخور والأخشاب؟!

وفي النهاية، ولأجل أن يقطعوا أمل هود فيهم تماماً، ويقولوا كلمتهم الأخيرة قالوا: إذا كان حقاً وواقعاً ما تنذرنا به من العذاب، فلتبادر به، أي إنّنا لا نخشى تهديداتك أبداً ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

وعندما بلغ الحوار إلى هذه النقطة، وأطلق أُولئك المتعنتون كلمتهم الأخيرة الكاشفة عن رفضهم الكامل لدعوة هود، وأيس هود - هو الآخر - من هدايتهم تماماً، قال: إذن ما دام الأمر هكذا فسيحلّ عليكم عذاب ربّكم ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾.

و«الرّجس» في الأصل بمعنى الشيء غير الطاهر، ويرى بعض المفسّرين أنّ لأصل هذه اللفظة معنًى أوسع، فهو يعني كل شيء يبعث على النفور والتقزز والقرف، ولهذا يطلقُ على جميع أنواع الخبائث والنجاسات والعقوبات لفظ «الرجس» لأنّ جميع هذه الأُمور توجب نفور الإنسان، وابتعاده.

وعلى كل حال فإنّ هذه الكلمة في الآية المبحوثة يمكن أن تكون بمعنى العقوبات الإلهيّة، ويكون ذكرها مع جملة ﴿قَدْ وَقَعَ﴾ التي هي بصيغة الفعل الماضي إشارة إلى أنّكم قد أصبحتم مستوجبين للعقوبة حتماً وقطعاً، وأنّ العذاب سيحل بكم لا محالة.

كما يمكن أن يكون بمعنى النجاسة وتلوث الروح، يعني أنّكم قد غرقتم في دوّامة الانحراف والفساد إلى درجة أنّ روحكم قد دُفنت تحت أوزار كثيفة من النجاسات، وبذلك استوجبتم غضب الله، وشملكم سخطه.

ثمّ لأجل أن لا يبقى منطق عبادة الأوثان من دون ردّ أضاف قائلاً: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ﴾ فهذه الأصنام التي صنعتموها أنتم وآباؤكم ليس لها من الألوهيّة إلّا اسم فارغ وضعها أسلافكم كذباً وزوراً، ثمّ وجئتم تجادلونني في عبادتها في حين لم ينزل بذلك أي دليل من جانب الله.

وفي الحقيقة، إنّ هذه الأصنام لا تملك من الألوهية إلّا أسماء من دون مسمّيات، وهي أسماء من نسج خيالكم وخيال أسلافكم، وإلّا فهي كومة أحجار وأخشاب لا تختلف عن غيرها من أحجار البراري وأخشاب الغابات.

ثمّ قال: فإذا كان الأمر هكذا فلننتظر جميعاً، انتظروا أنتم أن تنفعكم أصنامكم ومعبوداتكم وتنصركم، وأنتظر أنا أن يحلّ بكم غضب الله وعذابه الأليم جزاء تعنتكم، وسيكشف المستقبل أي واحد من هذين الانتظارين هو الأقرب إلى الحقيقة والواقع ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾.

وفي نهاية الآية بيّن القرآن مصير هؤلاء القوم المتعنتين في عبارة قصيرة موجزة: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ أجل، لقد أنجى الله هوداً ومن اتبعه من القوم بلطفه ورحمته، وأمّا الذين كذبوا بآيات الله، ورفضوا الانضواء تحت لواء دعوته، والانصياع للحق، فقد أُبيدوا نهائياً.

و﴿دَابِرَ﴾ في اللغة بمعنى آخر الشيء ومؤخرته، وبناء على هذا المفهوم يكون معنى الآية: أنّنا أبدنا هؤلاء القوم إبادة كاملة واستأصلنا شأفتهم.

(وسوف نبحث بالتفصيل حول قوم عاد وبقية خصوصيات حياتهم وكيفية عقوبة الله لهم والعذاب الذي نزل وحلّ بهم عند تفسير سورة هود بإذن الله).

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣﴾

وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ
مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ
فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ
ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا
بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم
بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ
ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ
فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى
وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

التّفسير

قصة قوم صالح وما فيها من عِبَر:

في هذه الآيات جاءت الإشارة إلى قيام «صالح» النّبي الإلهي العظيم في قومه «ثمود» الذين كانوا يسكنون في منطقة جبلية بين الحجاز والشام، وبهذا يواصل القرآن أبحاثه السابقة الغنية بالعِبَر حول قوم نوح وهود.

وقد أُشير إلى هذه القصة أيضاً في سورة: «هود» و«الشعراء» و«القمر» و«الشمس» وجاءت بصورة أكثر تفصيلاً في سورة «هود» أمّا هذه الآيات فقد أوردت ما دار بين صالح عليه السلام وقومه قوم ثمود، وعن مصيرهم، وعاقبة أمرهم بصورة مختصرة.

فيقول تعالى في البداية: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾.

وقد مرّ بيان العلة في إطلاق لفظة «الأخ» على الأنبياء عند تفسير الآية (٦٥) من نفس هذه السورة في قصة هود.

ولقد كانت أوّل خطوة خطاها نبيّهم صالح في سبيل هدايتهم، هي الدعوة إلى التوحيد، وعبادة الله الواحد ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾.

ثمّ أضاف: إنّه لا يقول شيئاً من دون حجة أو دليل، بل قد جاء إليهم ببيّنة من ربّهم ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾.

و«النّاقة» أنثى الإبل، وقد أُشير إلى ناقة صالح في سبعة مواضع من القرآن الكريم[١].

وأمّا حقيقة هذه الناقة، وكيف كانت معجزة صالح الساطعة، وآيته المفحمة لقومه، فذلك ما سنبحثه في سورة هود، في ذيل الآيات المرتبطة بقوم ثمود بإذن الله.

على أنّه ينبغي الالتفات إلى أنّ إضافة «الناقة» إلى «الله» في الآيات الحاضرة من قبيل الإضافة التشريفية - كما هو المصطلح - فهي إشارة إلى أنّ هذه الناقة المذكورة لم تكن ناقة عادية، بل كانت لها ميزات خاصّة.

ثمّ إنّه يقول لهم: اتركوا الناقة تأكل في أرض الله ولا تمنعوها ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وإضافة الأرض إلى «الله» إشارة إلى أنّ هذه الناقة لا تُزاحم أحداً، فهي تعلف من علف الصحراء فقط، ولهذا يجب أن لا يزاحموها.

ثمّ يقول في الآية اللاحقة: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي من جانب لا تنسوا نِعَم الله الكثيرة، ومن جانب آخر انتبهوا إلى أنّه قد سبقكم أقوام (مثل قوم عاد) طغوا فحاق بهم عذاب الله بذنوبهم وهلكوا.

ثمّ ركّز على بعض النِّعم الإلهيّة كالأرض فقال: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ﴾، فالأرض قد خُلِقَت بنحو تكون سهولها المستوية والمزودة بالتربة الصالحة لإقامة القصور الفخمة، كما تكون جبالها صالحة لأن تنحت فيها البيوت القوية المحصنة لفصل الشتاء والظروف الجوية القاسية.

ويبدو للنظر من هذا التعبير هو أنّهم كانوا يغيرون مكان سكناهم في الصيف والشتاء، ففي فصل الربيع والصيف كانوا يعمدون إلى الزراعة والرعي في السهول الواسعة والخصبة، ولهذا كانت عندهم قصور جميلة في السهول، وعند حلول فصل البرد والانتهاء من الحصاد يسكنون في بيوت قوية منحوتة في قلب الصخور، وفي أماكن آمنة تحفظهم من خطر السيول والعواصف والأخطار.

وفي ختام الآية يقول تعالى على لسان نبيّه صالح: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[٢].

---

(١) قال الطبرسي في البيان، ج ٤، ص ٢٩٠: الناقة أصلها من التوطنة والتذليل يقال بعير منوق أي مذلل موطأ، ولعل إطلاقها على أنثى الإبل لكونها أكثر ذلولاً للامتطاء والركوب.

(٢) ﴿تَعْثَوْا۟﴾ مشتقة من مادة «عثى» بمعنى إيجاد الفساد، غاية ما هنالك أنّ هذه المادة تستعمل في الأغلب في=

ثمّ إنّنا نلاحظ أيضاً أنّ جماعة الأغنياء والمترفين ذوي الظاهر الحسن، والباطن القبيح الخبيث، الذين عبر عنهم بالملأ أخذوا بزمام المعارضة لهذا النّبي الإلهيّ العظيم، وحيث إنّ عدداً كبيراً من أصحاب القلوب الطيبة والافكار السليمة كانت ترزح في أسر الأغنياء والمترفين، قد قبلت دعوة النّبي صالح واتبعته، لهذا بدأ الملأ بمخالفتهم لهؤلاء المؤمنين.

فقال الفريق المستكبر من قوم صالح للمستضعفين الذين آمنوا بصالح: هل تعلمون يقيناً أنّ صالحاً مرسَل من قبل الله ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؟

على أنّ الهدف من هذا السؤال لم يكن هو تحري الحق، بل كانوا يريدون بإلقاء هذه الشبهات زعزعة الإيمان في نفوس من آمن، وإضعاف معنوياتهم، وظناً منهم بأن هذه الجماهير ستطيعهم وتكف عن متابعة صالح وحمايته، كما كانت مطيعة لهم يوم كانت تحت سيطرتهم ونفوذهم.

ولكن سرعان ما واجهوا ردّ تلك الجموع المؤمنة القاطع، الكاشف عن إرادتها القوية وعزمها على مواصلة طريقها، حيث قالوا: إنّنا مضافاً إلى اعتقادنا بأنّ صالحاً رسول من قبل الله، فنحن مؤمنون أيضاً بما جاء به ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

ولكن هؤلاء المغرورين المتكبرين لم يكفوا عن عملهم، بل عادوا مرّة أُخرى إلى إضعاف معنوية المؤمنين ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾. وكانت هذه محاولة منهم لجرّ هؤلاء المستضعفين إلى صفوفهم مرّة أُخرى.

كانوا المقدّمين في المجتمع والأُسوة للآخرين على الدوام بما كانوا يتمتّعون به من قوةٍ وثراء، لهذا كانوا يظنون أنّهم بإظهار الكفر سيكونون أُسوة للآخرين أيضاً، وأن الناس سوف يتبعونهم كما كانوا يفعلون ذلك من قبل، ولكنّهم سرعان ما وقفوا على خطأهم، وعلموا أنّ الناس قد اكتسبوا بالإيمان بالله على شخصيّة حضارية جديدة واستقلال فكري، وقوة إرادة.

والجدير بالانتباه أنّ الأغنياء والملأ وُصِفُوا في الآيات الحاضرة بالمستكبرين،

= المفاسد الأخلاقية والمعنوية، في حين تطلق مادة «عبث» على المفاسد الحسية، وبناء على هذا تكون كلمة «المفسدين» بعد جملة ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟﴾ لغرض التأكيد، لأنّ كليهما يعطيان معنًى واحداً.

ووصِفت الجماهير الكادحة المؤمنة بالمستضعفين، وهذا يفيد أنّ الفريق الأوّل قد وصلوا بشعورهم بالتفوق، وغصب حقوق الناس واستغلالهم إلى مرتبة ما يسمى في لغة العصر بـ «الطبقة المستغِلّة»، والفريق الآخر بالطبقة المستغَلّة.

عندما يئس الملأ والأغنياء المستكبرون من زعزعة الإيمان في نفوس الجماهير المؤمنة بصالح عليه السلام، ومن جانب آخر رأوا أنّ وساوسهم وشائعاتهم لا تجدي نفعاً مع وجود «الناقة» التي كانت تُعَدّ معجزة صالح عليه السلام، لهذا قرّروا قتل الناقة، مخالفين بذلك أمر ربّهم ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾[1].

ولم يكتفوا بهذا أيضاً، بل أتَوا إلى صالح نفسه وبصراحة ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

يعني أنّنا لا نخاف تهديداتك مطلقاً، وأن هذه التهديدات جميعها لا أساس لها والحقيقة أنّ هذا الكلام نوع من الحرب النفسية ضد صالح عليه السلام، بهدف إضعاف روحيته وروحية المؤمنين به.

وعندما وصل المعارضون بطغيانهم وتمرّدهم إلى آخر درجة، وأطفأوا في نفوسهم آخر بارقة أمل في الإيمان، حلّت بهم العقوبة الإلهيّة طبقاً لقانون الانتخاب الأصلح، وإهلاك ومحو الكائنات الفاسدة والمفسدة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

إنّها كانت زلزلة ورجفة عظيمة تهاوت على أثرها قصورهم وبيوتهم القوية، واندثرت حياتهم الجميلة، حتى أنّه لم يبق منهم إلّا أجساد ميتة... هكذا أصبحوا.

و«جاثم» في الأصل مشتق من مادة «جثم» بمعنى القعود على الركب، والتوقف في مكان واحد، ولا يبعد أن يكون هذا التعبير إشارة إلى أنّ الزلزلة والرجفة جاءتهم وهم في حالة نوم هنيئة، فجلسوا على أثرها فجأة، وبينما كانوا قاعدين على ركبهم لم تمهلهم الرجفة، بل ماتوا وهم على هذه الهيئة، إمّا خوفاً، وإمّا بسبب انهيار الجدران عليهم، وإمّا بفعل الصاعقة التي رافقت الزلزال!!

بأيّ شيء أُهلِكَ قوم ثمود؟

وهنا يُطرح سؤال وهو: يُستفاد من الآية الحاضرة أنّ الشيء الذي أهلك هؤلاء

(١) المراد من العقر هو قطع عصب خاص خلف رجل الناقة أو الفرس هو سبب حركتها، فإذا قطع سقط الحيوان، وفقد القدرة على الحركة والتنقل.

المتمردون كان هو الزلزال، ولكن يظهر من الآية (١٣) من سورة فصلت أنّه كان الصاعقة، بينما نقرأ في الآية (٥) من سورة الحاقة ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ يعني أنّ قوم ثمود أُهلكوا بشيء مدمّر، فهل هناك تناقض بين هذه التعابير؟

إنّ الجواب على هذا السؤال يمكن أن يلخص في جملة واحدة، وهي جميع هذه العبارات ترجع إلى معنى واحد، أو أنّه يلازم بعضها بعضاً، فكثيراً ما تحدث الرجّة الأرضية في منطقة ما بفعل صاعقة عظيمة، أي أنّه تحدث صاعقة أوّلاً، ثمّ تحدث على أثرها رجة أرضية.

وأمّا «الطاغية» فهي بمعنى كائن تجاوز عن حدّه، وهذا ينسجم مع الزلزلة وكذا مع الصاعقة، ولهذا فلا يوجد أي تناقض بين الآيات.

وفي آخر آية من الآيات المبحوثة يقول: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ أي بعد هذه القضية تولى صالح وهو يقول: لقد أديت رسالتي إليكم، ونصحت لكم ولكنّكم لا تحبّون من ينصحكم.

وهنا يطرح سؤال آخر، وهو: هل كلام صالح هذا كان بعد هلاك المتمردين من قومه، أو أنّ هذا الكلام هو الحوار الأخير الذي جرى بينه وبين قومه قبيل هلاك القوم وموتهم، أي بعد إتمام الحجّة عليهم... ولكن ذكر في عبارة القرآن بعد قضية هلاكهم وموتهم بالرجفة؟

هناك احتمالان: والحقيقة أنّ الاحتمال الثّاني أنسب مع ظاهر الخطاب، لأنّ الحديث مع قوم ثمود يفيد أنّهم كانوا أحياء، ولكن الاحتمال الأوّل هو أيضاً غير بعيد، لأنّه كثيراً ما تتم محادثة أرواح الموتى بمثل هذا الكلام ليعتبر الباقون الحاضرون، تماماً كما نقرأ نظير ذلك في تاريخ الإمام علي عليه السلام فإنّه عليه السلام وقف - بعد معركة الجمل - عند جسد طلحة وقال: «ويل أُمّك، طلحة! لقد كان لك قدم لو نفعك، ولكن الشيطان أضلّك فأزلّك، فعجلك إلى النّار»[1].

كما نقرأ - أيضاً - في أواخر نهج البلاغة أنّ الإمام علياً عليه السلام عندما عاد من معركة صفّين وقف عند مدخل الكوفة والتفت إلى مقابر الموتى، فسلّم على أرواح الماضين أوّلاً، ثمّ قال: «أنتم السابقون ونحن اللاحقون».

---

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج١، ص٢٤٨.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ
(٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ
مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن
قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ
ٱلْغَٰبِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلْمُجْرِمِينَ (٨٤)﴾

التّفسير

مصير قوم لوط المؤلم

في هذه الآيات يستعرض القرآن الكريمُ فَصلاً آخر غنياً بالعبر من قصص الأنبياء، وبذلك يواصل هدف الآيات السابقة ويكمله، والقصة هذه المرّة هي قصة النّبي الإلهي العظيم «لوط».

ولقد ذكرت هذه القصة في عدّة سور من القرآن الكريم، منها سورة «هود» و«الحجر» و«الشعراء» و«الأنبياء» و«النمل» و«العنكبوت».

وهنا يشير القرآن الكريم - ضمن آيات خمس - إلى خلاصة سريعة عن الحوار الذي دار بين لوط، وقومه.

ويظهر أنّ الهدف الوحيد في هذه السورة (الأعراف) هو تقديم عصارات وخلاصات من مواجهات الأنبياء وحواراتهم مع الجماعات المتمردة من أقوامهم، ولكن الشرح الكامل لقصصهم موكول إلى السور القرآنية الأُخرى (وسوف نأتي بقصّة هذه الجماعة بصورة مفصلة في سورة هود والحجر إن شاء الله).

الآية الأُولى تقول في البدء: اذكروا إذ قال لوط لقومه: أترتكبون فعلاً قبيحاً لم يفعله قبلكم أحد من الناس؟ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟!

فهذه المعصية مضافاً إلى كونها عملاً قبيحاً جدّاً - لم يفعلها قبلكم أحد من الأقوام - وبذلك يكون قبح هذا العمل الشنيع مضاعفاً، لأنّه أصبح أساساً لسنّة سيئة، وسبباً لوقوع الآخرين في المعصية عاجلاً أو آجلاً.

ويُستفاد من الآية الحاضرة أنّ هذا العمل القبيح ينتهي - من الناحية التاريخية - إلى قوم لوط، وكانوا قوماً أثرياء مترفين شهوانيين، سنذكر أحوالهم بالتفصيل في السور التي أشرنا إليها إن شاء الله تعالى.

وفي **الآية اللاحقة** يشرح المعصية التي ذكرت في الآية السابقة ويقول: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾.

وأي انحراف أسوأ وأقبح من أن يترك الإنسان وسيلة توليد النسل وإنجاب الأولاد، وهو مقاربة الرجل للمرأة، والذي أودعه الله في كيان كل إنسان بصورة غريزية طبيعية، ويعمد إلى «الجنس الموافق»، ويفعل بالتالي ما يخالف - أساساً - الفطرة، والتركيب الطبيعي للجسم والروح الإنسانيين، والغريزة السوية الصحيحة، ويكون نتيجته عقم الهدف المتوخى من المقاربة الجنسية.

وبعبارة أُخرى: يكون أثره الوحيد، هو الإشباع الكاذب والمنحرف للحاجة الجنسية، والقضاء على الهدف الأصلي، وهو استمرار النسل البشري.

ثمّ يقول تعالى في نهاية الآية: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي تجاوزتم حدود الله، ووقعتم في متاهة الانحراف والتجاوز عن حدود الفطرة.

ويمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى أنّهم لم يسلكوا سبيل الإسراف في مجال الغريزة الجنسية فحسب، بل تورطوا في مثل هذا الانحراف والإسراف في كل شيء، وفي كل عمل.

والجدير بالذكر أنّ الآية الأُولى ذكرت الموضوع بصورة مجملة، ولكن الآية الثّانية ذكرته بصورة مبيّنة وواضحة، وهذا هو أحد فنون البلاغة عند بيان القضايا الهامة، فإذا فعل أحد شيئاً قال له مرشده ووليه الواعي الحكيم، لبيان أهمّية الموضوع: أنت ارتكبت ذنباً عظيماً، فإذا قال له الشخص: ماذا فعلت؟ يقول له مرّة أُخرى: أنت ارتكبت ذنباً عظيماً، وفي المآل يكشف القناع عن فعله ويشرحه.

إنّ هذا النوع من البيان يُهيىء فكر الطرف الآخر للوقوف تدريجاً على شناعة عمله القبيح وخطورته، وهو أبلغ في التأثير.

وفي **الآية اللاحقة** أشار القرآن الكريم إلى الجواب المتعنت وغير المنطقي لقوم لوط، وقال: إنّهم لم يكن لديهم أي جواب في مقابل دعوة هذا النّبي الناصح المصلح، إلّا أن قالوا: أخرجوا لوطاً وأتباعه من مدينتكم. ولكن ما كان ذنبهم؟ إنّ ذنبهم هو أنّهم

كانوا جماعة طاهرين لم يلوثوا أنفسهم بأدران المعصية ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

وهذا ليس موضع تعجب واستغراب أن يطرد جماعة من العصاة الفسقة أشخاصاً طاهرين لا لشيء إلّا لأنّهم أنقياء الجيب، يجتنبون المنكرات، وذلك لأنّ هؤلاء القوم يعتبرون هؤلاء مزاحمين لشهواتهم، فكانت نقاط القوة لدى أُولئك الأطهار نقاط ضعف وعيب في نظرهم.

ويحتمل أيضاً في تفسير جملة ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أنّ قوم لوط كانوا يريدون بهذه العبارة أن يتهموا ذلك النّبي العظيم وأتباعه الأتقياء بالرياء والتظاهر بالتطهر، كما سمعنا وقرأنا في الأشعار كثيراً حيث يتهم الخمارون الأشخاص الطيبين النزيهين بالرياء والتظاهر، ويعتبرون (خرقتهم الملوثة بالخمر) أفضل من (سجادة الزاهد) وهذا نوع من التزكية الكاذبة للنفس التي يتذرع بها هؤلاء العصاة الأشقياء.

مع ملاحظة كل ما قيل في الآيات الثلاث أعلاه، يستطيع كل قاضٍ منصف أن يصدر حكمه بحق مثل هذه الجماعات والأقوام الذين يتوسلون - في مقابل إصلاح المصلحين ونصيحة الناصحين، ودعوة نبي إلهيّ عظيم - بالتهديد والاتهام، ولا يعرفون إلّا لغة القوّة والقهر، ولهذا قال الله تعالى في الآية اللاحقة: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[1] أي لما بلغ الأمر إلى هذا الحد أنجينا لوطاً وأتباعه الواقعيين وأهله الطيبين، إلّا زوجته التي كانت على عقيدة قومه المنحرفين فتركناها.

قال البعض: إنّ كلمة «أهل» وإن كان المتعارف إطلاقها على العائلة، ولكن في الآية الحاضرة استعملت في الأتباع الصادقين - أيضاً - يعني أنّهم كانوا معدودين جزءاً من أهله وعائلته أيضاً، ولكن يُستفاد من الآية (٣٦) من سورة الذاريات أنّه لم يؤمن بلوط ودعوته أحد من قومه قط إلّا عائلته وأقرباؤه، وعلى هذا الأساس يكون لفظ الأهل هنا مستعملاً في معناه الأصلي، أي أقرباؤه.

يتضح من الآية (١٠) من سورة التحريم إجمالاً أنّ زوجة لوط كانت في البداية امرأة صالحة، ولكنّها سلكت سبيل الخيانة فيما بعد، وجرّأت أعداء لوط عليه.

وفي آخر آية من الآيات إشارة قصيرة جداً - ولكن ذات مغزى ومعنى عميق - إلى

(١) يقال «الغابر» لمن ذهب أهله وفنوا وبقي هو وحده، كما ذهبت عائلة لوط معه، وبقيت زوجته وحدها، وأُصيبت بما أُصيب به العصاة.

العقوبة الشديدة والرهيبة التي حلّت بهؤلاء القوم، إذ قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أيّ مطر... إنّه كان مطراً عجيباً حيث انهالت عليهم الشهب والنيازك كالمطر وأبادتهم عن آخرهم!!.

إنّ هذه الآية وإن لم تبيّن نوع المطر الذي نزل على القوم، ولكن من ذكر لفظة «المطر» بصورة مجملة اتضح أنّ ذلك المطر لم يكن مطراً عادياً، بل كان مطراً من الحجارة، كما سيأتي في سورة هود الآية (٨٣).

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

إنّ هذا الخطاب وإن كان موجهاً إلى النّبي ﷺ ولكنّه من الواضح أنّ الهدف هو اعتبار جميع المؤمنين به.

هذا وسيأتي تفصيل قصّة هذه الجماعة، وكذا مضار اللواط المتعددة، وحكمه في الشريعة الإسلامية، عند تفسير آيات سورتي «هود» و«الحجر».

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧)﴾

التّفسير

رسالة شعيب في مدين

في هذه الآيات يستعرض القرآن الكريم فصلاً خامساً من قصص الأقوام الماضين، ومواجهة الأنبياء العظام معهم، وهذا الفصل يتناول قوم شعيب.

بعث شعيب عليه السلام الذي ينتهي نسبه - حسب كتب التاريخ - إلى إبراهيم عبر خمس طبقات، إلى أهل مدين، وهي مدينة من مدن الشام، كان أهلها أهل تجارة وترف قد سادت فيهم الوثنية، وكذا الحيلة، والتطفيف في المكيال والميزان، والبخس في المعاملة.

وقد جاء تفصيل هذه المواجهة بين هذا النّبي العظيم وبين أهل مدين، في سور متعددة من القرآن الكريم، وبخاصّة في سورتي «هود» و«الشعراء»، ونحن تبعاً للقرآن الكريم سنبحث بتفصيل هذه القصّة في ذيل آيات سورة هود إن شاء الله، أمّا هنا فنذكر شيئاً عن هذه القصّة باختصار طبقاً للآيات المطروحة هنا.

في البداية يقول سبحانه: ولقد أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيباً ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.

روى جماعة من المفسّرين، مثل العلاّمة الطبرسي في مجمع البيان، والفخر الرازي في تفسيره المعروف، أن «مدين» في الأصل اسم لأحد أبناء إبراهيم الخليل، وحيث إنّ أبناءه وأحفاده سكنوا في أرض على طريق الشام سُميت تلك الأرض «مدين»[1].

هذا وقد أوضحنا السرّ في استعمال لفظة ﴿أَخَاهُمْ﴾ في الآية (٦٥) من هذه السورة.

ثمّ إنّه تعالى أضاف: إنّ شعيباً مثل سائر الأنبياء بدأ دعوته بمسألة التوحيد ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾.

وقال: إنّ هذا الحكم مضافاً إلى كونه من وحي العقل، ثابت بواسطة الأدلة الواضحة التي جاءتهم من جانب الله أيضاً: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

أمّا أنّ هذه «البيّنة» ماهي؟ فإنّه لم يرد كلام حولها في الآيات الحاضرة، ولكن الظاهر أنّها إشارة إلى معجزات شعيب عليه السلام.

ثمّ إنّه عليه السلام بعد الدعوة إلى التوحيد أخذ في محاربة المفاسد الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية السائدة فيهم، وفي البدء منعهم من ممارسة التطفيف، والغش في المعاملة، يقول: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾[2].

وواضح أن تسرّب أيّ نوع من أنواع الخيانة والغش في المعاملات يزعزع بل ويهدم

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٢٠٣؛ التفسير الكبير، ج ١٤، ص ١٧٢.
(٢) «البخس» يعني نقص حقوق الأشخاص، والنّزول عن الحد بصورة توجب الظلم والحيف.

أسس الطمأنينة والثقة العامّة التي هي أهم دعامة لاقتصاد الشعوب وتلحق بالمجتمع خسائر غير قابلة للجبران. ولهذا السبب كان أحد الموضوعات الهامّة التي ركز عليها شعيب هو هذا الموضوع بالذات.

ثمّ يشير إلى عمل آخر من الأعمال الأثيمة، وهو الإفساد في الأرض بعد أن أُصلحت أوضاعها بجهود الأنبياء، وفي ضوء الإيمان فقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

ومن المسلّم أنّه لا يستفيد أحد من إيجاد الفساد ومن الإفساد، سواء كان فساداً أخلاقياً، أو من قبيل فقدان الإيمان، أو عدم وجود الأمن، لهذا أضاف في آخر الآية قائلاً: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وكأنّ إضافة عبارة: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى أنّ هذه التعاليم الاجتماعية والأخلاقية إنما تكون متجذرة ومثمرة إذا كانت نابعة من الإيمان ومستمدة من نوره. أمّا لو كانت قائمة على أساس سلسلة من ملاحظة المصالح المادية لم يكن لها بقاء ودوام.

وفي **الآية اللاحقة** يشير إلى رابع نصيحة لشعيب، وهي منعهم عن الجلوس على الطرقات وتهديد الناس، وصدّهم عن سبيل الله، وتضليل الناس بإلقاء الشبهات وتزييف طريق الحق المستقيم في نظرهم، فقال: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

وأمّا أنّه كيف كانوا يهدّدون الراغبين في الإيمان، فقد ذكر المفسّرون في هذا المجال احتمالات متعددة، فالبعض احتمل أنّه كان ذلك عن طريق التهديد بالقتل، وبعض آخر احتمل أنّه كان عن طريق قطع الطريق ونهب أموال المؤمنين، ولكن المناسب مع بقية العبارات الأُخرى في الآية هو المعنى الأوّل.

وفي ختام الآية جاءت النصيحة الخامسة لشعيب، التي ذكّر فيها قومه بالنِّعم الإلهيّة لتفعيل حسّ الشكر فيهم، فيقول: تذكّروا عندما كنتم أفراداً قلائل فزادكم الله في الأفراد وضاعف من قوتكم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾.

ثمّ يلفت نظرهم إلى عاقبة المفسدين ونهاية أمرهم ومصيرهم المشؤوم حتى لا يتبعوهم في السلوك فيصابوا بما أصيبوا به، فيقول: ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

ويُستفاد من الجملة الأخيرة أنّه على العكس من الدعايات غير المدروسة لتحديد

النسل في هذه الأيّام فإنّ كثرة أفراد المجتمع، يمكن أن تكون منشأ قوّة وعظمة وتقدم المجتمع في أكثر الموارد، طبعاً شريطة أن تضمن معيشتهم وفقاً لبرامج منظمة، من الناحية المادية والمعنوية.

إنّ آخر آية من الآيات المبحوثة هنا بمثابة إجابة على بعض استفهامات المؤمنين والكفار من قومه، لأنّ المؤمنين - على أثر الضغوط التي كانت تتوجه إليهم من جانب الكفار - كان من الطبيعي أن يطرحوا هذا السؤال على نبيّهم: إلى متى نبقى في العذاب ونتحمل الأذى؟

وكان معارضوهم - أيضاً - والذين تجرأوا لأنّهم لم تصبهم العقوبة الإلهيّة فوراً يقولون:

إذا كنت من جانب الله حقّاً فلماذا لا يصيبنا شيء رغم كل ما نقوم به من إيذاء ومعارضة؟ فيقول لهم شعيب: إن كانت طائفة منكم آمنت بما بُعِثت به، وأعرضت أُخرى فلا ينبغي أن يكون ذلك سبباً لغرور الكفار، ويأس المؤمنين، اصبروا حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فالمستقبل سوف يكشف عمن يكون على حقّ، ومن يكون على باطل ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِالَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَٰكِمِينَ﴾.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا اللَّهُ مِنْهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾

التّفسير

هذه الآيات تستعرض ردّ فعل قوم شعيب مقابل كلمات هذا النّبي العظيم المنطقية، وحيث إنّ الملأ والأثرياء المتكبرين في عصره كانوا أقوياء في الظاهر، كان ردّ فعلهم أقوى من ردّ فعل الآخرين.

إنّهم كانوا - مثل كل المتكبرين المغرورين - يهددون شعيباً معتمدين على قوتهم وقدرتهم، كما يقول القرآن الكريم: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾.

قد يتصور البعض من ظاهر هذا التعبير ﴿لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ أنّ شعيباً كان قبل ذلك في صفوف الوثنيين، والحال ليس كذلك، بل حيث إنّ شعيباً لم يكن مكلّفاً بالتبليغ، لذلك كان يسكت على أعمالهم، وكانوا يظنون أنّه كان على دين الوثنية، في حين أنّ أحداً من النّبيين لم يكن وثنياً حتى قبل زمان النّبوة، وإنّ عقول الأنبياء ودرايتهم كانت أسمى من أن يرتكبوا مثل هذا العمل غير المعقول والسخيف، هذا مضافاً إلى أنّ هذا الخطاب لم يكن موجهاً إلى شعيب وحده، بل يشمل المؤمنين من أتباعه - أيضاً - ويمكن أن يكون هذا الخطاب لهم.

على أن تهديد المعارضين لم يقتصر على هذا، بل كانت هناك تهديدات أُخرى سنبحثها في سائر الآيات المرتبطة بشعيب.

وقد أجابهم شعيب في مقابل كل تهديداتهم وخشونتهم تلك بكلمات في غاية البساطة والرفق والموضوعية، إذ قال لهم: وهل في إمكانكم أن تعيدونا إلى دينكم إذا لم نكن راغبين في ذلك: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾(١)؟

وفي الحقيقة يريد شعيب أن يقول لهم: هل من العدل أن تفرضوا عقيدتكم علينا، وتكرهوننا على أن نعتنق ديناً ظهر لنا بطلانه وفساده؟ هذا مضافاً إلى أنّه ما جدوى عقيدة مفروضة، ودين جبريّ؟!

وفي **الآية اللاحقة** يواصل شعيب قوله: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾.

إن هذه الجملة في الحقيقة توضيح للجملة السابقة المجملة، ومفهوم هذه الجملة هو: نحن لم نترك الوثنية بدافع الهوى والهوس، بل أدركنا بطلان هذه العقيدة بجلاء، وسمعنا الأمر الإلهي في التوحيد بأُذن القلب، فإذا عُدنا من عقيدة التوحيد إلى الشرك - والحال هذه - نكون حينئذ قد افترينا على الله عن وعي وشعور، ومن المسلم أنّ الله سيعاقبنا على ذلك بشدّة.

---

(١) إنّ في هذه الجملة حذفاً وتقديراً، فالكلام في الأصل على هذه الصورة: «أتردوننا في ملتكم ولو كنّا كارهين».

ثمّ يضيف شعيب قائلاً: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

ومُراد شعيب من هذا الكلام هو أنّنا تابعون لأمر الله، ولا نعصيه قيد شعرةٍ، فعودتنا غير ممكنة إلّا إذا أمر الله بذلك.

ثمّ من دون إبطاء يضيف: إنّ الله لا يأمر بمثل هذا، لأنّ الله يعلم بكل شيء ويحيط علماً بجميع الأُمور ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۚ﴾ وعلى هذا الأساس ليس من الممكن أن يعود عن أمر أعطاه، لأنّه لا يعود ولا يرجع عن أمر أعطاه إلّا من كان علمه محدوداً، واشتبه ثمّ ندم على أمره، أمّا الذي يعلم بكل شيء ويحيط بجميع الأُمور علماً فيستحيل أن يعيد النظر.

ثمّ لأجل أن يفهمهم بأنّه لا يخاف تهديداتهم، وأنّه ثابت في موقفه، قال: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ﴾.

وأخيراً لأجل أن يثبت حُسن نيّته، ويظهر رغبته في طلب الحقيقة والسلام، حتى لا يتهمه أعداؤه بالشغب والفوضوية والإخلال بالأمن يقول: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾.

أي: يا ربّ أنت احكم بيننا وبين هؤلاء بالحق، وارفع المشاكل التي بيننا وبين هؤلاء، وافتح علينا أبواب رحمتك، فأنت خير الفاتحين.

وقد روي عن ابن عباس أنّه قال: ما كنت أعرف ماذا يعني الفتح في الآية حتى سمعت امرأة تقول لزوجها: أفاتحك عند القاضي، يعني أطلبك عند القاضي للفصل بيننا، فعرفت معنى الفتح في مثل هذه الموارد، وأنّه بمعنى القضاء والحكم لأنّ القاضي يفتح العقدة في مشكلة الطرفين(١).

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

(١) تفسير منهج الصادقين؛ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٣٠٥؛ تفسير القرطبي، ج ١، ص ٤٤.

التّفسير

تتحدث الآية الأُولى عن الدعايات التي كان يبثّها معارضو شعيب ضدّ من يحتمل فيهم الميل إلى الإيمان به فتقول: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾.

والمقصود من الخسارة - هنا - الخسارات المادية التي تصيب المؤمنين بدعوة شعيب، إذ من المسلّم عدم عودتهم إلى عقيدة الوثنية، وعلى هذا الأساس كان يجب أن يخرجوا من بلدهم وديارهم بالقهر، ويتركوا بيوتهم وأملاكهم.

وهناك احتمال آخر في تفسير الآية، وهو أنّ مرادهم هو الأضرار المعنوية بالإضافة إلى الأضرار المادية، لأنّهم كانوا يتصورون أنّ طريق النجاة يتمثل في الوثنية لا في دين شعيب.

وعندما وَصَل أمرهُم إلى الإصرار على ضلاتهم، وَعلى إضلال غيرهم أيضاً، ولم يبق أي أمل في إيمانهم وهدايتهم، حلّت بهم العقوبة الإلهية بحكم قانون حسم مادة الفساد، فأصابهم زلزالٌ رهيبٌ شديدٌ بحيث تهاوى الجميع أجساداً ميّتة، في داخل بيوتهم ومنازلهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

وقد مرّ في ذيل الآية (٧٨) من هذه السورة - تفسير لفظة ﴿جَٰثِمِينَ﴾ وقلنا هناك أنّه قد استعملت عبارات وألفاظ مختلفة للتعبير عن عامل هلاك هذه الجماعة لا منافاة بينها.

فمثلاً: جاء في شأن قوم شعيب - في الآية الحاضرة - أنّ عامل هلاكهم كان هو: «الزلزال».

وفي الآية (٩٤) من سورة هود أنّه «صيحة سماوية» وفي الآية (١٨٩) من سورة الشعراء: أنّه «ظلة من السحاب القاتل» وتعود كلها إلى موضوع واحد، وهو أنّ العذاب المهلك كان صاعقة سماوية مخيفة، اندلعت من قلب السُّحب الكثيفة المظلمة، واستهدفت مدينتهم، وعلى أثرها حدث زلزال شديد (هو خاصية الصواعق العظيمة) ودمّر كل شيء.

في **الآية اللاحقة** شرح القرآن الكريم أبعاد هذا الزلزال العجيب المخيف الرهيب

---

(١) «يغنوا» مشتقة من مادة «غنيَ» بمعنى «الإقامة في المكان» يقول الطبرسي في مجمع البيان: لا يبعد أن=

بالعبارة التالية: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ﴾[1]. أي إنّ الذين كذبوا شعيباً أُبيدوا إبادة عجيبة، وكأنّهم لم يكونوا يسكنون تلك الديار.

وفي ختام الآية يقول: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

وكأنّ هاتين الجملتين جواباً لأقوال معارضي شعيب، لأنّهم كانوا قد هدّدوا بأن يخرجوه هو وأتباعه في حالة عدم انصرافهم من دين التوحيد إلى الدين السابق، فقال القرآن: إنّهم أُبيدوا كاملة، وكأنّهم لم يسكنوا في تلك المنازل، فضلاً عن أن يستطيعوا إخراج غيرهم من البلد.

وفي مقابل قولهم: إنّ اتِّباع شعيب يستلزم الخسران، قال القرآن الكريم: إنّ نتيجة الأمر أثبتت أنّ مخالفة شعيب هي العامل الأصلي في الخسران.

وفي آخر آية - من الآيات المبحوثة - نقرأ آخر كلام لشعيب مع قومه بعد إعراضه عنهم حيث قال: لقد بلّغت رسالات ربّي، ونصحتكم بالمقدار الكافي، ولم آلُ جهداً في إرشادكم: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ﴾.

ثمّ قال: ﴿فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ أي لست متأسّفاً على مصير الكافرين، لأنني قد بذلت كل ما في وسعي لهدايتهم وإرشادهم، ولكنّهم لم يخضعوا للحق ولم يسلّموا، فكان يجب أن ينتظروا هذا المصير المشؤوم.

أمّا أنّه هل قال شعيب هذا الكلام بعد هلاكهم، أم قبل ذلك؟ هناك احتمالان، فيمكن أن يكون قبل هلاكهم، ولكن عند شرح القصة جاء ذكره بعد ذلك.

ولكن مع الالتفات إلى آخر عبارة، والتي يقول فيها: إنّ مصير هؤلاء الكافرين المؤلم لا يدعو إلى الأسف أبداً، يترجح للنظر أنّ هذه الجملة قيلت بعد نزول العذاب، وأنّ هذه التعابير - كما أشرنا في ذيل الآية (٧٩) من هذه السورة قيلت وتقال للأموات كثيراً (وقد أشرنا إلى شواهد ذلك).

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥﴾

= يكون المفهوم الأصلي للغنى هو عدم الحاجة، لأنّ من كان عنده منزل حاضر، فهو مستغنٍ عن منزل آخر.

التّفسير

إذ لم تنفع المواعظ

إنّ هذه الآيات - التي ذكرت بعد استعراض قصص مجموعة من الأنبياء العظام، مثل نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وقبل أن يعمد القرآن الكريم إلى استعراض قصّة موسى بن عمران - أشارت إلى عدّة أصول وقواعد عامّة تحكم في جميع القصص والحوادث، وهي قواعد وأُصول إذا فكّرنا فيها كشفت القناع عن حقائق قيّمة ترتبط بحياتنا - جميعاً - ارتباطاً وثيقاً.

في البداية يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ فالصِّعاب والمشاق والبلايا التي تصيب الأفراد إنّما يفعلها الله بهم عسى أن ينتبهوا، ويتركوا طغيانهم، ويرجعوا إلى الله ويتوبوا إليه. وذلك لأنّ الناس ما داموا في الرخاء والرفاه فهم في غفلة وقلما يكون لديهم استعداد وقابلية لقبول الحق. أمّا عندما يتورّطون في المحنة والبلاء، يشرق نور فطرتهم وتوحيدهم ويتذكرون الله قهراً بلا اختيار، وتستعد قلوبهم لقبول الحق.

ولكن هذه اليقظة والنهضة ليست عند الجميع على حدّ سواء، فهي في كثير من الناس سريعة وعابرة وغير ثابتة، وبمجرّد أن تزول المشكلات يعودون إلى غفلتهم وغفوتهم، ولكن هذه المشكلات تعتبر بالنسبة إلى جماعة آخرين نقطة تحول في الحياة، ويعودون إلى الحق إلى الأبد.

والأقوام الذين جرى الحديث - في الآيات السابقة - حولهم كانوا من النمط الأوّل.

ولهذا قال تعالى في **الآية اللاحقة**: عندما لم تغيّر تلك الجماعات سلوكها ومسيرها تحت ضغط المشكلات والحوادث، بل بقوا في الضلال، رفعنا عنهم المشكلات وجعلنا مكانها النِّعم والرخاء فازدهرت حياتهم وكثر عددهم وزادت أموالهم ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ﴾.

و﴿عَفَواْ﴾ من مادة «عفو» التي تكون أحياناً بمعنى الكثرة، وأحياناً بمعنى الترك والإعراض، وتارة تكون بمعنى محو آثار الشيء، ولكن لا يبعد أن يكون أصل جميع تلك الأُمور هو الترك، غاية ما هنالك قد يترك شيء لحاله حتى يتجذر، ويتوالد ويتناسل

ويزداد، وربّما يترك حتى يهلك وينهدم تدريجاً وشيئاً فشيئاً. ولهذا جاء بمعنى الزيادة والهلاك معاً.

وقد احتمل المفسّرون في الآية المبحوثة ثلاثة احتمالات أيضاً:

الأوّل: أنّنا أعطيناهم إمكانيات حتى يزدادوا فيستعيدوا كل ما فقدوه - في فترة الشدّة والضراء - من الأفراد والأموال.

الثاني: أنّنا أعطيناهم نعماً كثيرة جداً بحيث غرتهم، فنسوا الله، وتركوا شكره.

الثّالث: أنّنا أعطيناهم نعماً كي يستطيعوا بها أن يزيلوا آثار فترة النكبة ويمحوها[1].

إنّ هذه التفاسير وإن كانت متفاوتة من حيث المفهوم، ولكنّها من حيث النتيجة متقاربة فيما بينها.

ثمّ أضاف: إنّهم عند زوال المشكلات بدل أن يلتفتوا إلى هذه الحقيقة وهي «النعمة» و«النقمة» بيد الله، وأنّهم راجعون إلى الله، يتذرعون - لخداع أنفسهم - بهذا المنطق، وهو إذا تعرضنا للمصائب والبلايا، فإنّ ذلك ليس بجديد، فقد مس آباءنا الضراء والسراء، وكانت لهم حالات رخاء وحالات بلاء، فالحياة لها صعود ونزول، والصعاب أمواج غير ثابتة وسريعة الزوال ﴿وَقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾. فهي إذن قضية طبيعية، ومسألة اعتيادية.

فيقول القرآن الكريم في الختام: إنّ الأمر عندما بلغ إلى هذا الحد، ولم يستفيدوا من عوامل التربية - أبداً - بل ازدادوا غروراً وعنجهيّة وتكبراً أهلكناهم فجأة ومن غير سابق إنذار، لأنّ ذلك أشد إيلاماً ونكالاً لهم، وعبرةً لغيرهم: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ
وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن
يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا
ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٣١١، ذيل الآية مورد البحث.

﴿ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

التّفسير

التّقدم والعمران في ظل الإيمان والتقوى

في الآيات الماضية وقع البحث فيما جرى لأقوام مثل قوم هود وصالح وشعيب ونوح ولوط على نحو الإجمال، وإن كانت تلك الآيات كافية لبيان النتائج المشحونة بالعِبَر في هذه القصص، ولكن الآيات الحاضرة تبيّن النتائج بصورة أكثر وضوحاً فتقول: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي لو أنّهم سلكوا سبيل الإيمان والتقوى، بدل الطغيان والتمرد وتكذيب آيات الله والظلم والفساد، لم يتخلصوا من غضب الله وعقوبته فحسب، بل لفتحت عليهم أبواب السماء والأرض.

ولكن - للأسف - تركوا الصراط المستقيم الذي هو طريق السعادة والرفاه والأمن، وكذبوا الأنبياء، وتجاهلوا برامجهم الإصلاحية، فعاقبناهم بسبب أعمالهم ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

بحوث

وهنا مواضيع ينبغي الوقوف عندها:

١ - بركات الأرض والسماء

لقد وقع حديث بين المفسّرين في ما هو المراد من «بركات» الأرض والسماء؟ فقال البعض: إنّها المطر، والنباتات التي تنبت من الأرض.

وفسّرها البعض بإجابة الدعاء، وحل مشاكل الحياة[(١)].

ولكن هناك احتمال آخر - أيضاً - هو أنّ المراد من البركات السماوية هي البركات المعنوية، والمراد من البركات الأرضية هي البركات المادية.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٣١٤، ذيل الآية مورد البحث.

ولكن مع ملاحظة الآيات السابقة يكون التّفسير الأوّل أنسب من الجميع، لأنّه في الآيات السابقة التي شرحت العقوبات الشديدة التي حلّت بالمجرمين والطغاة، فأشارت تارة إلى نزول السيول من السماء وطغيان الينابيع والعيون من الأرض (مثل طوفان نوح) وأُخرى إلى الصواعق والصيحات السماوية، وثالثة إلى الزلازل الأرضية الرهيبة.

وفي الآية المطروحة هنا طُرحت هذه الحقيقة على بساط البحث، وهي: أنّ العقوبات ما هي إلّا بسبب أفعالهم هم، وإلاّ فلو كان الإنسان طاهراً مؤمناً، فإنّه بدل أن يحل العذاب السماوي أو الأرضي بساحته، تتواتر عليه البركات الإلهيّة من السماء والأرض.... أجل، إنّ الإنسان هو الذي يبدل البركات بالبلايا.

٢ - معنى «البركات»

«البركات» جمع «بركة» وهذه الكلمة - كما أسلفنا - تعني في الأصل «الثبات» والاستقرار، ويطلق على كل نعمة وموهبة تبقى ولا تزول، في مقابل الموجودات العارية عن البركة، والسريعة الفناء والزوال، والخالية عن الأثر.

والملفت للنظر أنّ فائدة التقوى والإيمان لا تقتصر على نزول البركات الإلهيّة، بل هما سبب في أن يَصرف الإنسان ما لديه في المصارف اللازمة الصَّحيحة.

ففي المثل نلاحظ اليوم أنّ قسماً كبيراً من الطاقات الإنسانية، والمصادر الاقتصادية تصرف في سبيل سباق التسلح وصنع الأسلحة المدمّرة، وبذلك تنعدم البركة فيها، ولا تثمر سوى الدمار والخراب، ولكن المجتمعات البشرية إذا تحلّت بالتقوى والإيمان، فإنّ هذه المواهب الإلهيّة سيكون لها وضع آخر، ومن الطبيعي أن تبقى آثارها وتخلد، وتكون مصداقاً لكلمة البركات.

٣ - ماذا يعني «الأخذ»؟

في الآية أعلاه استعملت كلمة «أخذ» في مفهوم المجازاة والعقوبة، وهذا في الحقيقة لأجل أنّ الشخص الذي يراد عقوبته يؤخذ أوّلاً في العادة، ثمّ يُوثق بوسائل خاصّة حتى لا تبقى له قدرة على الفرار، ثمّ يعاقب.

٤ - المفهوم الواسع للآية

إنّ الآية الحاضرة وإن كانت ناظرة إلى وضع الأقوام الغابرة، ولكنّه من المسلّم أنّ مفهومها مفهوم واسع وعام ودائم، ولا تنحصر في شعب معين أو قوم خاص، فإنّها سنة

إلهية أن يبتلى غير المؤمنين، والمتورطين في المعاصي والذنوب بأنواع مختلفة ومتنوعة من البلايا في هذه الدنيا، فربّما ينزل عليهم البلاء السماوي والأرضي، وربّما تشتعل نيران الحروب العالمية أو المحلية فتبتلع أموالهم وتبيدها وربّما يفارقهم الأمن والاستقرار، فتسحق المخاوف والهواجس بأظلافها أبدانهم ونفوسهم، وحسب تعبير القرآن يكون كل ذلك بما كسبت أيديهم وردّ فعل لأعمالهم.

إنّ فيض الله ليس محدوداً ولا ممنوعاً، كما أنّ عقوباته لا تختص بقوم أو شعب.

لماذا تعيش الأُمم الكافرة في الرخاء؟

من كل ما قلناه يتّضح الجواب على سؤال يدور كثيراً بين جماعة من الناس، وهو: إذا كان الإيمان والتقوى يبعثان على نزول أنواع البركات الإلهيّة، ويكون العكس موجباً لسلب البركات، فلماذا نشاهد الشعوب غير المؤمنة ترفل في الرخاء والرفاه، في حين يعيش جماعة من أهل الإيمان بعسرٍ ومشقّة؟

إنّ الإجابة على هذا السؤال تتّضح بملاحظة نقطتين:

١ - إنّ تصوّر أنّ الشعوب غير المؤمنة الفاقدة للتقوى ترفل في النعمة والرخاء وتغرق في السعادة هو تصور خاطىء ينبع من اشتباه أكبر، وهو اعتبار الثروة دليلاً على السعادة.

إنّ الناس يتصورون - عادة - أنّ كل شعب امتلك صناعة أكثر تقدماً، وثروة أكبر، كان أسعد من غيره، في حين لو تسنى لنا أن ننفذ إلى أعماق هذه المجتمعات ونلاحظ الآلام الممضّة التي تُحطم روح هذه الشعوب وجسمها عن كثب، فسوف نُسلّم أن أكثر تلك الشعوب هي من أشقى سكان الأرض.

هذا بغض النظر عن أنّ هذا التقدم النسبيّ إنّما هو نتيجة استخدامهم لأُصول ومبادىء مثل السعي والاجتهاد، والنظم والشعور بالمسؤولية التي هي جزء من تعاليم الأنبياء، ومن صلب توجيهاتهم.

في هذه الأيّام - التي نكتب فيها هذا القسم من التّفسير - نشرت الجرائد والصحف أنّه حدث في نيويورك - التي هي واحدة من أكبر نقاط العالم المادي ثروة وأكثرها تقدماً - حادث جدّ عجيب على أثر انقطاع فجائي للتيار الكهربائي، وذلك الحادث هو أنّ كثيراً من الناس هاجموا المحلات والمخازن وسرقوا كل ما فيها بحيث إنّ ثلاثة آلاف من المغيرين على المحلات اعتقلوا بواسطة البوليس.

إنّ من المسلّم أن عدد المغيرين - في الواقع - أكثر بأضعاف من هذا العدد، وهذا العدد هم الذين لم يمكنهم الفرار والهرب والنجاة من قبضة البوليس، كما أنّه من المسلّم أنّ المغيرين لم يكونوا سراقاً محترفين هيّأوا أنفسهم من قبل لمثل هذه الإغارة العمومية، لأنّ الحادثة المذكورة كانت حادثة فجائية.

من هذا نستنتج أنّه مع حالة انقطاع عابر للتيار الكهربائي يتحول عشرات الآلاف من سكان مدينة ثرية ومتقدمة - كما يشاؤون تسميتها - إلى لصوص وسراق، إنّ هذا لا يدل على الانحطاط الخلقي لدى شعب من الشعوب فحسب، بل يدل على فقدان الأمن الاجتماعي الشديد أيضاً.

والخبر الآخر الذي نقلته الصحف، ويكمل - في الحقيقة - هذا الخبر، وهو أنّ أحد الشخصيات المعروفة كان يقيم في تلك الأيّام في نيويورك، في أحد الفنادق الشهيرة ذات العشرات من الطوابق، قال: إنّ انقطاع التيار الكهربائي تسبب في أن يمسي التجول في معابر وصالات ذلك الفندق عملاً بالغ الخطورة، بحيث إنّ مسؤولي الفندق ما كانوا يسمحون لأحد بأن يغادر مكانه إلى غرفته حتّى لايتعرض للمغيرين داخل صالات الفندق، ولهذا نظموا المسافرين والنزلاء في جماعات مكونة من عشرة أو أكثر، وتولى موظفون مسلحون إيصالهم إلى غرفهم تحت حراسة مشددة.

ثمّ يضيف ذلك الشخص المذكور: إنّه ما لم يعانِ من الجوع الشديد لم يجرؤ على الخروج من غرفته.

ولكن انقطاع التيار الكهربائي هذا يقع في البلاد المتأخرة الشرقية كثيراً، ولكن لا تحدث مثل هذه المشاكل، وهذا يفيد أن سكان البلدان المتقدمة رغم كونهم يمتلكون ثروة عظيمة، وصنائع عظيمة، لا يملكون أدنى قدر من الأمن في بيئتهم.

هذا مضافاً إلى أنّ شهود عيان يقولون: إنّ القتل والاغتيال في تلك البيئات كشرب الماء من حيث السهولة واليسر.

ونحن نعلم أنّنا أعطينا الدنيا كلها لأحد وكان يعيش في مثل هذه الظروف، كان من أشقى أهل الأرض. . . على أنّ مشكلة الأمن هي واحدة من مشكلاتهم، وإلّا فهناك مفاسد اجتماعية أُخرى كل واحد منها بدوره حالة مؤلمةً جداً. . . ومع الالتفات إلى هذه الحقائق فلا معنى لتوهّم أنّ الثروة سعادة.

٢ - أمّا ما يقال عن سبب تخلّف المجتمعات المتحلية بالإيمان والتقوى، فإذا كان

المقصود من الإيمان والتقوى هو مجرّد ادعاء الإسلام وادعاء أتباع مبادىء الأنبياء وتعاليمهم، فالاعتراض وجيه، ولكننا لا نعتبر حقيقة الإيمان والتقوى إلّا نفوذهما في جميع أعمال الإنسان، وجميع شؤون الحياة، وهذا أمر لا يتحقق بمجرّد الادّعاء والزعم.

إنّ من المؤسف جدّاً أن نجد التعاليم الإسلامية ومبادىء الأنبياء متروكة أو شبه متروكة في كثير من المجتمعات الإسلامية، فملامح هذه المجتمعات ليست ملامح مجتمعات المسلمين الصادقين الحقيقيين.

لقد دعا الإسلام إلى الطهارة والاستقامة والأمانة والاجتهاد والجد، فأين تلك الأمانة والاجتهاد؟

إنّ الإسلام يدعو إلى العلم والمعرفة واليقظة والوعي، فأين ذلك العلم والوعي واليقظة؟!

وإن الإسلام يدعو إلى الاتحاد والتضامن ووحدة الصفوف والتفاني، فهل سادت هذه الأصول والمبادىء في المجتمعات الإسلامية الحاضرة بصورة كاملة، ومع ذلك بقيت متخلّفة؟!

لهذا يجب أن نعترف بأنّ الإسلام شيء، والمسلمون اليوم شيء آخر.

في **الآيات اللاحقة** ولمزيد من التأكيد على عمومية هذا الحكم، وأن القانون أعلاه ليس خاصاً بالأقوام الغابرة بل يشمل الحاضر والمستقبل أيضاً - يقول: هل أنّ المجرمين الذين يعيشون في نقاط مختلفة من الأرض يرون أنفسهم في أمنٍ من أن تحل بهم العقوبات الإلهيّة، فتنزل بهم صاعقة أو يصيبهم زلزال في الليل وهم نائمون ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾.

وهل هم في أمانٍ من ذلك العذاب في النهار وهم غارقون في أنواع اللهو واللعب ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

يعني أنّهم في قبضة القدرة الإلهيّة في جميع الأحوال والأوقات، ليلاً ونهاراً، في اليقظة والنوم، في ساعات الفرح والترح، وبإشارة واحدة وأمر واحد يقضى عليهم جميعاً، ويطوي صفحة حياتهم نهائياً، دون الحاجة إلى مقدمات وأسباب قبلية، أو لمرور الزمان لهذا العمل.

أجل في لحظة واحدة، ومن دون أية مقدمات يمكن أن تحل أنواع المصائب والنوائب بهذا الإنسان الغافل.

والعجيب أنّ البشرية الحاضرة، رغم كل ما أحرزته من تقدّم ورقيٍّ في الصنائع وفي التكنولوجيا، ومع أنّها سخرت طاقات الكون والطبيعة المختلّفة لخدمة نفسها، فإنّها ضعيفة وعاجزة تجاه هذه الحوادث، بنفس المقدار من العجز والضعف الذي كان عليه إنسان العصور السابقة. يعني أن الإنسان لم يتغير حاله تجاه الزلازل والصواعق وما شابهها، حتى بالنسبة إلى إنسان ما قبل التاريخ، وهذه علامة قوية على نهاية عجز الإنسان وشدة ضعفه رغم قدرته وقوّته... وهذه حقيقة يجب أن يجعلها الإنسان نصب عينيه دائماً وأبداً.

وفي **الآية اللاحقة** يعود القرآن الكريم إلى ذكر وتأكيد هذه الحقيقة بشكل آخر فيقول: أفأمن المجرمون من المكر الإلهي في حين لا يأمن مكره إلّا الخاسرون ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

و«المكر» - كما قلنا في ذيل الآية ٩٤ من سورة آل عمران - يعني في اللغة العربية كل حيلة ووسيلة لصرف الشخص عن الهدف الذي يمضي إليه، سواء كان حقاً أو باطلاً، وقد أخذ في مفهوم هذه اللغة نوع من التدرج والنفوذ التدريجي.

وعلى هذا فالمراد من المكر الإلهي، هو أنّ الله تعالى يصرفهم بخططه القوية التي لا تقهر عن حياة الرفاه واللذة دون اختيارهم ويقطعها عليهم. وهذه إشارة إلى العقوبات الإلهيّة الفجائية والمهلكة.

جواب على سؤال:

إنّ الجملة التي وردت في ختام الآية الحاضرة تقول: لا يأمن أحد - إلّا الخاسرون - من المكر الإلهي والعقوبة الإلهيّة، وهنا يطرح هذا السؤال، وهو: هل تشمل هذه العبارة الأنبياء والأئمّة العظام والصالحين؟

لقد تصوّر البعض أنّهم خارجون من هذا الحكم، وأنّ الآية تختص بالمجرمين. ولكن الظاهر أن هذا الحكم عام يشمل الجميع، لأنّه حتى الأنبياء والأئمّة كانوا مراقبين لأعمالهم دائماً كي لا تصدر منهم أدنى زلة أو عثرة، لأنّنا نعلم أنّ مقام العصمة ليس مفهومه أنّ المعصية مستحيلة عليهم، بل يعني أنّهم مصونون عن الإثمّ والمعصية بفعل إرادتهم وإيمانهم وحسن اختيارهم إلى جانب العنايات الربانية.

إنّهم كانوا يخافون من ترك الأولى ويتجنبونه، ويخشون أن لا يتمكنوا من القيام بمسؤولياتهم الثقيلة. ولهذا نقرأ في الآية (١٥) من سورة الأنعام حول الرّسول الأعظم

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ .

ولقد رويت في تفسير الآية الحاضرة - أيضاً - أحاديث تؤيد ما قلناه: «صليت خلف أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام ، فسمعته يقول: «اللّهم لا تؤمني مكرك. ثمّ جهر فقال: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ .

ونقرأ في نهج البلاغة أيضاً: «لا تأمنن على خير هذه الأُمّة عذاب الله، لقول الله سبحانه: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾»[(١)] .

إنّ عدم الأمن من المكر الإلهي - في الحقيقة - يعني الخوف من المسؤوليات والخوف من التقصير فيها، ومن المعلوم أنّ الخوف يجب أن يكون في قلوب المؤمنين دائماً إلى جانب الأمل بالرحمة الإلهيّة بشكل متساوٍ، وأن التوازن بين هذين هو منشأ كلّ حركة ونشاط، وهو الذي يعبّر عنه في الرّوايات بالخوف والرجاء[(٢)] .

وقد جاء التصريح في هذه الرّوايات بوجوب أن يكون المؤمنون دائماً بين الخوف والرجاء، ولكن المجرمين الخاسرين نسوا العقوبات الإلهيّة بحيث صاروا يرون أنفسهم في منتهى الأمن المكر الإلهي.

وفي الآية اللاحقة يقول القرآن الكريم - بهدف إيقاظ عقول الشعوب الغافية وإلفات نظرهم إلى العِبَر التي كانت في حياة الماضين: ألا يتنبه الذين ورثوا السيادة على الأرض - من الأقوام الماضية - إلى ما في حياة الماضين وقصصهم من عِبَر، فلو أنّنا أردنا أن نهلكهم بذنوبهم لفعلنا ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ﴾ .

ويمكننا أيضاً أن نتركهم أحياء ونسلب منهم الشعور وحس التشخيص والتمييز بالمرّة بسبب توغّلهم في الذنوب، بحيث لا يسمعون معها حقيقة، ولا يقبلون نصيحة، ويعيشون بقية حياتهم حيرى ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ .

أمّا كيف يسلب الله تعالى من هذا الفريق من المجرمين حس التمييز والتشخيص، فيمكنك الوقوف على مزيد التوضيح في هذا المجال في تفسير الآية ٧ من سورة البقرة.

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الجملة ٣٧٧.
(٢) بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ٣٩٠.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

التّفسير

في هاتين الآيتين ركّز القرآن الكريم على العِبَر المستفادة من بيان قصص الماضين، والخطاب متوجه هنا إلى الرّسول الأكرم ﷺ إلّا أنّ الهدف هو الجميع، يقول القرآن الكريم أوّلاً: هذه هي القرى والأقوام التي نقص عليك قصصهم: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾[1].

ثمّ يقول: لم يكن إهلاكهم قبل إتمام الحجّة عليهم، بل لقد جاءهم الأنبياء أوّلاً بالبراهين الجلية وبذلوا قصارى جهدهم في إيقاظهم وإرشادهم ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

ولكنّهم قاوموا الأنبياء وخالفوا دعوتهم، وأصروا ولجّوا في عنادهم، ولم يكونوا على استعداد لأن يؤمنوا بما كذبوا به من قبل، بل استمروا على تكذيبهم حتى مع مشاهدتهم البينات: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾.

من هذه الجملة يُستفاد أنّ الأنبياء الإلهيين قاموا بدعوتهم وإرشادهم مراراً وتكراراً، ولكن المشركين لجوا في عنادهم، وبقوا متصلبين في مواقفهم المتعنتة الرافضة، وأعرضوا عن قبول دعوة الأنبياء حتى بعد وضوح الكثير من الحقائق.

وفي العبارة اللاحقة يبيّن تعالى علّة هذا التعنت واللجاج: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

يعني أنّ الذين يسيرون في درب خاطىء، ويستمرون في السير في ذلك الطريق، ينتقش الانحراف والكفر على قلوبهم نتيجة تكرار العمل السيىء، ويتجذر الفساد في نفوسهم، كما يثبت النقش على السكة (والطبع في اللغة نقش صورة على شيء كالسكة) وهذا في الحقيقة هو أثر العمل وخاصيته.

---

(١) ﴿نَقُصُّ﴾ من مادة «قص» وقد مرّ شرحها في ذيل الآية ٧.

وقد نسب إلى الله هو تعالى مسبب الأسباب، وهو منشأ تأثير كل مؤثر، فهو يهب الفعل هذه الخاصّية عند تكراره، حيث يجعله «مَلَكة» في نفس الشخص.

ولكن من الواضح والبيّن أن مثل الضلال ليس له أي صفة جبرية وقهرية، بل إنّ موجد الأسباب هو الإنسان وإن كان التأثير بأمر الله تعالى (فتأمّل).

وفي **الآية اللاحقة** يبيّن تعالى قسمين آخرين من نقاط الضعف الأخلاقي لدى هذه الجماعات، والتي تسببت في ضلالها وهلاكها.

في البداية يقول: إنّهم كانوا لا يحترمون العهود والمواثيق بل ينقضونها ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾.

وهذا العهد يمكن أن يكون إشارة إلى «العهد الفطري» الذي أخذه الله على جميع عباده بحكم الجبلة والفطرة، لأنّه عندما أعطاهم العقل والذكاء والقابلية، كان مفهوم ذلك هو أخذ العهد والميثاق منهم بأن يفتحوا عيونهم وآذانهم، ويروا الحقائق ويسمعوها، وهذا هو ما أشارت إليه الآيات الأخيرة من هذه السورة (أي الآية ١٧٣) وهو المعروف بـ«عالم الذّر» الذي سنشرحه بإذن الله في ذيل تلك الآيات.

كما أنّه يمكن أن يكون إشارة إلى العهد الذي كان الأنبياء الإلهيّون يأخذونه من الناس، وكان أكثر الناس يقبلونه، ولكنّهم ينقضونه.

أو يكون إشارة إلى جميع المواثيق «الفطرية» و«التشريعية».

وعلى كل حال فإنّ روح نقض الميثاق كان من أسباب معارضة الأنبياء والإصرار على سلوك طريق الكفر والنفاق، والابتلاء بعواقبها المشؤومة.

ثمّ يشير القرآن الكريم إلى عامل آخر إذ يقول: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾.

يعني أن روح التمرد والتجاوز على القانون، والخروج عن نظام الخلقة والقوانين الإلهيّة، كان عاملاً آخر من عوامل استمرارهم على الكفر، وإصرارهم على مخالفة الدعوة الإلهيّة.

ويجب الانتباه إلى أن الضمير في ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ يرجع إلى جميع الأقوام والجماعات السالفة.

وما ورد في الآية من أن أكثرهم ينقضون العهد إنّما هو من باب رعاية حال الأقليات التي آمنت بالأنبياء السابقين، وبقيت وفيّة لهم، وهذه الجماعات المؤمنة وإن كانت قليلة وضئيلة العدد جدّاً بحيث إنّها ما كانت تتجاوز أحياناً أُسرة واحدة، ولكن روح الواقعية

وتحري الحق المتجلّية في كل آيات القرآن أوجبت أن لا يتجاهل القرآن الكريم حق هذه الجماعات القليلة أو الأفراد المعدودين، بل يراعيها فلا يصف جميع الأفراد في المجتمعات السالفة بالانحراف والضلال ونقض العهد والفسق.

وهذا موضوع جميل جدّاً، وجدير بالاهتمام، وهو ما نشاهده ونلحظه في آيات القرآن كثيراً.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن
رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم
بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ
بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾
وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

التّفسير

المواجهة بين موسى وفرعون

بعد ذكر قصص ثلة من الأنبياء العظام باختصار في الآيات السابقة بيّن تعالى في هذه الآيات والآيات الكثيرة اللاحقة قصّة موسى بن عمران، وما جرى بينه وبين فرعون وملئه وعاقبة أمره.

وعلّة بيان هذه القصّة بصورة أكثر تفصيلاً من قصص الأنبياء الآخرين في هذه السورة قد تكون لأجل أنّ اليهود أتباع موسى بن عمران كانوا أكثر من غيرهم في بيئة نزول القرآن، وكان إرشادهم إلى الإسلام أوجب[1].

وثانياً: لأنّ قيام النّبي الأكرم كان أشبه بقيام موسى بن عمران من غيره من الأنبياء.

وعلى كل حال فإنّ هذه القصة الزاخرة بالعِبَر قد أشير إلى فصول أُخرى منها أيضاً في

(١) صحيح أنّ هذه السورة نزلت في مكّة، ولم تكن مكّة مركز تجمع اليهود، ولكن من دون شك كان لحضورهم في المدينة وسائر نقاط الحجاز أثر واسع في المجتمع المكّي.

سور أُخرى، مثل: سورة «البقرة»، «طه»، «الشعراء»، «النمل،» «القصص»، وسور أُخرى، ولو أنّنا درسنا آيات كل سورة على حدة، ثمّ وضعناها جنباً إلى جنب لم نلحظ فيها جانب التكرار على خلاف ما يتصوره البعض، بل ذكر من هذه الملحمة التاريخية في كل سورة ما يناسبها من البحث للاستشهاد به، وحيث إنّ مصر كانت أوسع، وكان لشعبها حضارة أكثر تقدماً من قوم نوح وهود وشعيب وما شابههم، وكانت مقاومة الجهاز الفرعوني - بنفس النسبة - أكثر وأكبر، ولهذا تمتع قيام موسى بن عمران بأهميّة أكبر، وحوى عبراً ونكات أكثر، وقد ركّز القرآن الكريم على النقاط البارزة المختلفة من حياة موسى وبني إسرائيل بمناسبات مختلفة.

وعلى العموم يمكن حصر وتلخيص حياة هذا النّبي الإلّهي العظيم في خمس دورات ومراحل:

١ - مرحلة الولادة، وما جرى عليه من الحوادث حتى ترعرعه في البلاط الفرعوني.

٢ - مرحلة فراره من مصر، وحياته في أرض «مدين» في كنف النّبي شعيب عليه السلام.

٣ - مرحلة بعثته، ثمّ المواجهات الكثيرة بينه وبين فرعون وجهازه.

٤ - مرحلة نجاته ونجاة بني إسرائيل من مخالب فرعون، والحوادث التي جرت عليه في الطريق، وعند وروده إلى بيت المقدس.

٥ - مرحلة مشاكله مع بني إسرائيل.

ويجب الانتباه إلى أن القرآن الكريم تناول في كثير من سوره قسماً - أو عدّة أقسام - من هذه المراحل الخمس.

ومن تلك الآيات التي تناولت جوانب من قصّة موسى عليه السلام هذه الآيات، وعشرات الآيات الأُخر من هذه السورة، وهي تشير إلى مراحل ما بعد بعثة موسى بن عمران بالنبوّة، ولهذا فإنّنا نوكل الأبحاث المتعلقة بالمراحل السابقة على هذه المرحلة إلى حين تفسير الآيات المرتبطة بتلك الأقسام في السور الأُخرى، وبخاصّة سورة القصص.

في الآية الأُولى من الآيات الحاضرة يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي من بعد قوم نوح وهود وصالح.

ويجب الالتفات إلى أنّ «فرعون» اسم عام، وهو يطلق على كل ملوك مصر، كما يطلق على ملوك الروم «قيصر» وملوك فارس «كسرى».

ولفظة «الملأ» - كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق - تعني الأعيان والأشراف الذين

يملأون ببريقهم وظواهرهم الباذخة العيون، ولهم حضور ملفت للنظر في جميع ميادين المجتمع.

والسرّ في إرسال موسى في بداية الدعوة إلى فرعون وملئه هو أنّه علاوة على أنّ إحدى برامج موسى كان هو نجاة بني اسرائيل من براثن استعمار الفراعنة وتخليصهم من أرض مصر - وهذا لا يمكن أن يتم من دون الحوار مع فرعون - إنّما هو لأجل أنّ المفاسد الاجتماعية وانحراف البيئة لا تعالج بمجرّد الإصلاحات الفردية والموضعية فقط، بل يجب أن يُبدأ بإصلاح رؤوس المجتمع وقادته الذين يمسكون بأزمة السياسة والاقتصاد والثقافة، حتى تتهيأ الأرضية لإصلاح البقية، كما يقال عرفاً: إنّ تصفية الماء يجب أن تكون من المنبع.

وهذا هو الدرس الذي يعطيه القرآن الكريم لجميع المسلمين، لإصلاح المجتمعات الإسلامية.

ثمّ يقول تعالى: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾.

ونحن نعلم أنّ لفظ الظلم بالمعنى الواسع للكلمة هو: وضع الشيء في غير محلّه، ولا شكّ في أن الآيات الإلهيّة توجب أن يسلّم الجميع لها، وبقبولها يُصلح الإنسان نفسه ومجتمعه، ولكن فرعون وملأه بإنكارهم لهذه الآيات ظلموا هذه الآيات.

ثمّ يقول تعالى في ختام الآية: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

وهذه العبارة إشارة إجمالية إلى هلاك فرعون وقومه الطغاة المتمردين، الذي سيأتي شرحه فيما بعد.

وهذه الآية تشير إشارة مقتضبة إلى مجموع برنامج رسالة موسى، وما وقع بينه وبين فرعون من المواجهة وعاقبة أمرهم.

أمّا الآيات اللاحقة فتسلّط الأضواء بصورة أكثر على هذا الموضوع.

فيقول أوّلاً: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وهذه هي أوّل مواجهة بين موسى وبين فرعون، وهي صورة حية وعملية من الصراع بين «الحق» و«الباطل».

والطريف أنّ فرعون كأنّه كان يُنادى لأوّل مرّة بـ ﴿يَا فِرْعَوْنُ﴾ وهو خطاب رغم كونه مقروناً برعاية الأدب، خالٍ عن أي نوع من أنواع التملق والتزلف وإظهار العبودية

والخضوع، لأنّ الآخرين كانوا يخاطبونه عادة بألفاظ فيها الكثير من التعظم مثل: يا مالكنا، يا سيدنا، يا ربنا، وما شابه ذلك.

وتعبير موسى هذا، كان يمثل بالنسبة إلى فرعون جرس إنذار وناقوس خطر، هذا مضافاً إلى أن عبارة موسى ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كانت - في الحقيقة - نوعاً من إعلان الحرب على جميع تشكيلات فرعون، لأنّ هذا التعبير يثبت أنّ فرعون ونظراءه من أدعياء الرّبوبية يكذبون جميعاً في ادّعائهم، وأن ربّ العالمين هو الله فقط، لا فرعون ولا غيره من البشر.

وفي **الآية اللاحقة** نقرأ أنّ موسى عقيب دعوى الرسالة من جانب الله قال: فالآن إذ أنا رسول ربّ العالمين ينبغي ألا أقول عن الله إلّا الحق، لأنّ المرسل من قبل الله المنزّه عن جميع العيوب لا يمكن أن يكون كاذباً ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾.

ثمّ لأجل توثيق دعواه للنّبوة، أضاف: أنا لا أدعي ما أدّعيه من دون دليل، بل إنّ معي أدلة واضحة من جانب الله ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

فإذا كان الأمر هكذا ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

وكان هذا في الحقيقة قسماً من رسالة موسى بن عمران الذي حرّر بني إسرائيل من قبضة الاستعمار الفرعوني، ووضع عنهم إصرهم وأغلال العبودية التي كانت تكبّل أيديهم وأرجلهم، لأنّ بني إسرائيل كانوا في ذلك الزمان عبيداً أذلاّء بأيدي القبطيين (أهالي مصر) فكانوا يستفيدون منهم في القيام بالأعمال السافلة والصعبة والثقيلة.

ويُستفاد من الآيات القادمة - وكذا الآيات القرآنية الأُخرى بوضوح وجلاء أنّ موسى كان مكلفاً بدعوة فرعون وغيره من سكان أرض مصر إلى دينه، يعني أن رسالته لم تكن منحصرة في بني إسرائيل.

فقال فرعون بمجرّد سماع هذه العبارة - (أي قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ﴾) - هات الآية التي معك من جانب الله إن كنت صادقاً ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

وبهذه العبارة اتّخذ فرعون - ضمن إظهار التشكيك في صدق موسى - هيئة الطالب للحق المتحري للحقيقة ظاهراً، كما يفعل أي متحرٍّ للحقيقة باحث عن الحق.

ومن دون تأخير أخرج موسى معجزتيه العظميتين التي كانت إحداهما مظهر «الخوف» والأُخرى مظهر «الأمل» وكانتا تكملان مقام إنذاره ومقام تبشيره، وألقى في البداية

عصاه: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾[١].

والتعبير بـ «المبين» إشارة إلى أنّ تلك العصا التي تبدلت إلى ثعبان حقاً، ولم يكن سحراً وشعبذة وما شاكل ذلك، على العكس من فعل السحرة لأنّه يقول في شأنهم: إنّهم مارسوا الشعبذة والسحر، وعملوا ما تصوره الناس حيات تتحرك، وما هي بحيات حقيقة وواقعاً.

إنّ ذكر هذه النقطة أمرٌ ضروري، وهي أنّنا نقرأ في الآية (١٠) من سورة النمل، والآية (٣١) من سورة القصص، أنّ العصا تحركت كالجانّ، و«الجانّ» هي الحيات الصغيرة السريعة السير، وأنّ هذا التعبير لا ينسجم مع عبارة «ثعبان» التي تعني الحية العظيمة ظاهراً.

ولكن مع الالتفات إلى أنّ تينك الآيتين ترتبطان ببداية بعثة موسى، والآية المبحوثة هنا ترتبط بحين مواجهته لفرعون، تنحل المشكلة، وكأن الله أراد أن يوقف موسى على هذه المعجزة العظيمة تدريجاً فهي تظهر في البداية أصغر، وفي الموقف اللاحق تظهر أعظم.

هل يمكن قلب العصا إلى حية عظيمة؟!

على كل حال لا شكّ في أنّ تبديل «العصا» إلى حية عظيمة معجزة، ولا يمكن تفسيرها بالتحليلات المادية المتعارفة، بل هي من وجهة نظر الإلهي الموحد - الذي يعتبر جميع قوانين المادة محكومة للمشيئة الربانية - ليس فيها ما يدعو للعجب فلا عجب أن تتبدل قطعة من الخشب إلى حيوان بقوة ما فوق الطبيعة.

ويجب أن لا ننسى أن جميع الحيوانات في عالم الطبيعة توجد من التراب، والأخشاب والنباتات هي الأُخرى من التراب، غاية ما هنالك أن تبديل التراب إلى حية عظيمة يحتاج عادة إلى ملايين السنين، ولكن في ضوء الإعجاز تقصر هذه المدّة إلى درجة تتحقق كل تلك التحولات والتكاملات في لحظة واحدة وبسرعة، فتتخذ القطعة من الخشب - التي تستطيع وفق الموازين الطبيعية أن تتغيّر إلى هذه الصورة بعد مضي ملايين السنين - تتخذ مثل هذه الصورة في عدّة لحظات.

---

(١) احتمل «الراغب» في «المفردات» أن تكون كلمة ثعبان متخذة من مادة «ثعب» بمعنى جريان الماء، لأنّ حركة هذا الحيوان تشبه الأنهر التي تجري بصورة ملتوية.

والذين يحاولون أن يجدوا لمعاجز الأنبياء تفسيرات طبيعية ومادية وينفوا طابعها الإعجازي، ويظهروها في صورة سلسلة من المسائل العادية مهما كانت هذه التفاسير مخالفة لصريح الكتب السماوية. إنّ هؤلاء يجب أن يوضحوا موقفهم: هل يؤمنون بالله وقدرته ويعتبرونه حاكماً على قوانين الطبيعة، أم لا؟ فإذا كانوا لا يؤمنون به وبقدرته، لم يكن كلام الأنبياء ومعجزاتهم إلّا لغواً لديهم. وإذا كانوا مؤمنين بذلك، فما الداعي لنحت مثل هذه التّفسيرات والتبريرات المقرونة بالتكلف والمخالفة لصريح الآيات القرآنية. (وإن لم نر أحداً من المفسّرين - على ما بينهم من اختلاف السليقة - عمد إلى هذا التّفسير المادي ، ولكن ما قلناه قاعدة كلية).

ثمّ إنّ **الآية اللاحقة** تشير إلى المعجزة الثّانية للنّبي موسى عليه السلام التي لها طابع الرجاء والبشارة، يقول تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾.

﴿وَنَزَعَ﴾ تعني في الأصل أخذ شيء من مكان، مثلاً أخذ العباءة من الكتف واللباس عن البدن يعبر عنه في اللغة العربية بالنزع فيقال: نزع ثوبه ونزع عباءته، وهكذا أخذ الروح من البدن يطلق عليه النزع. وبهذه المناسبة قد يستعمل في الاستخراج، وقد جاءت هذه اللفظة في الآية الحاضرة بهذا المعنى.

ومع أنّ هذه الآية لم يرد فيها أي حديث عن محل إخراج اليد، ولكن من الآية (٣٢) من سورة القصص ﴿اَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾(١) يُستفاد أنّ موسى كان يدخل يده في جيبه ثمّ يخرجها ولها بياض خاص، ثمّ تعود إلى سيرتها وحالتها الأُولى.

ونقرأ في بعض الأحاديث والرّوايات والتفاسير أنّ يد موسى كانت إضافة إلى بياضها تشعّ بشدّة، ولكن الآيات القرآنية ساكتة عن هذا الموضوع، مع عدم تناف بينهما.

إنّ هذه المعجزة والمعجزة السابقة حول العصا - كما قلنا سابقاً - ليس لها جانب طبيعي وعادي، بل هي من صنف خوارق العادة التي كان يقوم بها الأنبياء، وهي غير ممكنة من دون تدخل قوة فوق طبيعية في الأمر.

وهكذا أراد موسى بإظهار هذه المعجزة أن يوضح هذه الحقيقة، وهي أن برامجه لا تتضمن جانب الترهيب والتهديد فقط، بل الترهيب والتهديد للمخالفين والمعارضين، والتشويق والإصلاح والبناء والنورانية للمؤمنين.

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٣٢٣.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾

التّفسير

بدء المواجهة

في هذه الآيات جاء الحديث عن أوّل ردّ فعلٍ لفرعون وجهازه في مقابل دعوة موسى عليه السلام ومعجزاته.

الآية الأُولى تَذكر عن ملأ فرعون أنّهم بمجرّد مشاهدتهم لأعمال موسى الخارقة للعادة اتهموه بالسحر، وقالوا: هذا ساحر عليم ماهر في سحره: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾.

ولكن يُستفاد من آيات سورة الشعراء الآية (٣٤) أن هذا الكلام قاله فرعون حول موسى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾.

ولكن لا منافاة بين هاتين الآيتين، لأنّه لا يبعد أن يكون فرعون قال هذا الكلام في البداية، وبما أنّ عيون الملأ كانت متوجهة إليه، ولم يكن لهذا الملأ المتملق المتزلف هدف إلّا رضى رئيسه وسيده، وما ينعكس على محياه، وما توحي به إشارته، كرّر هو أيضاً ما قاله الرّئيس، فقالوا: أجل، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾.

وهذا السلوك لا يختص بفرعون وحواشيه، بل هو دأب جميع الجبارين في العالم وحواشيهم.

ثمّ أضافوا: إنّ هدف هذا الرجل أن يخرجكم من وطنكم ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾.

يعني أنّه لا يهدف إلّا استعماركم واستثماركم والحكومة على الناس، وغصب أراضي الآخرين، وهذه الأعمال الخارقة للعادة وادعاء النّبوة كلّها لأجل الوصول إلى هذا الهدف.

ثمّ قالوا بعد ذلك: مع ملاحظة هذه الأوضاع فما هو رأيكم: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟

يعني أنّهم جلسوا يتشاورون في أمر موسى، ويتبادلون الرأي فيما يجب عليهم اتّخاذه تجاهه، لأنّ مادة «أمر» لا تعني دائماً الإيجاب والفرض، بل تأتي - أيضاً - بمعنى التشاور.

وهنا لابدّ من الالتفات إلى أنّ هذه الجملة وردت في سورة الشعراء الآية (٣٥) أيضاً، وذلك عن لسان فرعون، حيث قال لملئه: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾. وقد قلنا: إنّه لا منافاة بين هذين.

وقد احتمل بعض المفسّرين - أيضاً - أن تكون جملة «فماذا تأمرون» في الآية الحاضرة خطاباً وجهه ملأ فرعون وحاشيته إلى فرعون، وصيغة الجمع إنّما هي لرعاية التعظيم، ولكن الاحتمال الأوّل - وهو كون هذا الخطاب موجهاً من ملأ فرعون إلى الناس - أقرب إلى النظر.

وعلى كلٍّ حال فقد قال الجميع لفرعون: لا تعجل في أمر موسى وهارون، وأجل قرارك بشأنهما إلى ما بعد، ولكن ابعث من يجمع لك السحرة من جميع أنحاء البلاد ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾.

نعم ابعث من يجمع لك كل ساحر ماهر في حرفته عليم في سحره ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

فهل هذا الاقتراح من جانب حاشية فرعون كان لأجل أنّهم كانوا يحتملون صدق ادّعاء موسى للنّبوة، وكانوا يريدون اختباره؟

أو أنّهم على العكس كانوا يعتبرونه كاذباً في دعواه، ويريدون افتعال ذريعة سياسية لأي موقف سيتخذونه ضد موسى كما كانوا يفعلون ذلك في بقية مواقفهم ونشاطاتهم الشخصية؟ ولهذا اقترحوا إرجاء أمر قتل موسى وأخيه نظراً لمعجزتيه اللتين أورثتا رغبة في مجموعة كبيرة من الناس نحو دعوته وانحيازهم إليه، ومزجت صورة «نبوته» بصورة «المظلومية والشهادة» وأضافت بضم الثّانية إلى الأُولى - مسحة من القداسة والجاذبية عليه وعلى دعوته.

ولهذا فكروا في بداية الأمر في إجهاض عمله بأعمال خارقة للعادة مماثلة، وأن يسقطوا اعتباره بهذه الطريقة، ثمّ يأمرون بقتله لتنسى قصة موسى وهارون وتُمحى عن الأذهان إلى الأبد.

يبدو أن الاحتمال الثّاني بالنظر إلى القرائن الموجودة في الآيات - أقرب إلى النظر.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣
قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن
نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ١١٥ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ
وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦ ۞وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا
هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ١١٧ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٨ فَغُلِبُواْ
هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢﴾

التّفسير

كيف انتصر الحقّ في النهاية؟

في هذه الآيات جرى الحديث حول المواجهة بين النّبي موسى عليه السلام، وبين السحرة، وما آل إليه أمرهم في هذه المواجهة، وفي البداية تقول الآية: إنّ السحرة بادروا إلى فرعون بدعوته، وكان أوّل ما دار بينهم وبين فرعون هو: هل لنا من أجر إذا غلبنا العدوّ ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾؟!

وكلمة «الأجر» وإن كانت تعني أي نوع من أنواع الثواب، ولكن نظراً إلى ورودها هنا في صورة «النكرة»، و«النكرة» في هذه الموارد إنّما تكون لتعظيم الموضوع وإبراز أهمّيته بسبب إخفاء ماهيته ونوعيته، لهذا يكون الأجر هنا بمعنى الأجر المهم والعظيم وبخاصّة أنّه لم يكن ثمّة نزاع في أصل استحقاقهم للأجر والمثوبة، فالمطلوب من فرعون هو الوعد بإعطائهم أجراً عظيماً وعوضاً مهمّاً.

فوعدهم فرعون - فوراً - وعداً جيداً وقال: إنّكم لن تحصلوا على الأجر السخي فقط، بل ستكونون من المقرّبين عندي ﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾.

وبهذه الطريقة أعطاهم وعداً بالمال ووعداً بمنصب كبير لديه، ويستفاد من هذه الآية أنّ التقرب إلى فرعون في ذلك المحيط، وتلك البيئة كان أعلى وأسمى وأهم من المال والثروة، لأنّه كان يعني منزلة معنوية كان من الممكن أن تصبح منشأً لأموال كثيرة وثروات كبيرة.

وفي المآل حُدِّدَ موعدٌ معين لمواجهة السحرة لموسى، وكما جاء في سورتي «طه» و«الشعراء» دُعي جميع الناس لمشاهدة هذا النزال، وهذا يدل على أنّ فرعون كان مؤمناً بانتصاره على موسى عليه السلام.

وحلّ اليوم الموعود، وهيّأ السحرة كل مقدمات العمل... حفنة من العصيّ والحبال التي يبدو أنّها كانت معبأة بمواد كيمياوية خاصّة، تبعث على حركتها إذا سطعت عليها الشمس، لأنّها تتحول إلى غازات خفيفة تحرّك تلك العصي والحبال المجوفة.

وكانت واقعة عجيبة، فموسى وحده (ليس معه إلّا أخوه) يواجه تلك المجموعة الهائلة من السحرة، وذلك الحشد الهائل من الناس المتفرجين الذين كانوا على الأغلب من أنصار السحرة ومؤيديهم.

فالتفت السحرة في غرور خاص وكبير إلى موسى عليه السلام وقالوا: إمّا أن تشرع فتلقي عصاك، وإمّا أن نشرع نحن فنلقي عصيّنا؟ ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾.

فقال موسى عليه السلام بمنتهى الثقة والاطمئنان: بل اشرعوا أنتم ﴿قَالَ أَلْقُوا﴾.

وعندما ألقى السحرة بحبالهم وعصيّهم في وسط الميدان سحروا أعين الناس، وأوجدوا بأعمالهم وأقاويلهم المهرجة ومبالغاتهم وهرطقاتهم خوفاً في قلوب المتفرجين، وأظهروا سحراً كبيراً رهيباً: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾.

وكلمة «السحر» - كما مرّ في المجلد الأوّل من هذه الموسوعة التفسيرية، عند تفسير الآية (١٠٢) من سورة البقرة - تعني في الأساس الخداع والشعبذة، وقد يطلق أيضاً على كل عامل غامض، ودافع غير مرئي.

وعلى هذا الأساس، فإن هذه الجماعة كانت توجد أفعالاً عجيبة بالاعتماد على سرعة حركة الأيدي، والمهارة الفائقة في تحريك الأشياء لتبدو وكأنّها أمورٌ خارقة للعادة وكذلك الأشخاص الذين يستفيدون من الخواص الكيمياوية والفيزياوية الغامضة الموجودة في الأشياء والمواد، فيظهرون أعمالاً مختلفة خارقة للعادة، كل هؤلاء يدخلون تحت عنوان: «الساحر».

هذا علاوة على أن السحرة يستفيدون - عادة - من سلسلة من الإيحاءات المؤثرة في مستمعيهم، ومن العبارات والجمل المبالغة، وربّما الرهيبة المخوفة لتكميل عملهم، والتي تترك آثاراً جدّ عجيبة في مستمعيهم ومتفرجيهم وجمهورهم.

ويستفاد من آيات مختلفة في هذه السورة ومن سور قرآنية أُخرى حول قصة سحرة فرعون، أنّهم استخدموا كل هذه العوامل والأدوات، وعبارة ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ وجملة ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أو تعبيرات أُخرى في سورتي «طه» و«الشعراء» جميعها شواهد على هذه الحقيقة.

بحثان

وهنا لابدّ من الإشارة إلى نقطتين:

١ - المشهد العجيب لسحر السّاحرين

لقد أشار القرآن الكريم إشارة إجمالية من خلال عبارة ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ إلى الحقيقة التالية وهي: أنّ المشهد الذي أوجده السحرة كان عظيماً ومهماً، ومدروساً ومهيباً، وإلّا لما استعمل القرآن الكريم لفظة ﴿عَظِيمٍ﴾ هنا.

ويُستفاد من كتب التاريخ ومن روايات وأحاديث المفسّرين في ذيل هذه الآية، وكذا من آيات مشابهة - بوضوح - سعة أبعاد ذلك المشهد.

فبناء على ما قاله بعض المفسّرين كان عدد السحرة يبلغ عشرات الألوف، وكانت الأجهزة والوسائل المستعملة كذلك تبلغ عشرات الآلاف، ونظراً إلى أنّ السحرة المهرة والمحترفين لهذا الفن في مصر كانوا في ذلك العصر كثيرين جدّاً، لهذا لا يكون هذا الكلام موضع استغراب وتعجب، خاصّة أنّ القرآن الكريم في سورة «طه» الآية (٦٧) يقول: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ أي إنّ المشهد كان عظيماً جدّاً ورهيباً إلى درجة أن موسى شعر بالخوف قليلاً، وإن كان ذلك الخوف - حسب تصريح نهج البلاغة -[1] لأجل أنّه خشي أن من الممكن أن يتأثر الناس بذلك المشهد العظيم، فيكون إرجاعهم إلى الحق صعباً، وعلى أي حال فإنّ ذلك يكشف عن عظمة ذلك المشهد ورهبته.

٢ - الإستفادة من السلاح المشابه

من هذا البحث يُستفاد - بجلاء ووضوح - أنّ فرعون بالنظر إلى حكومته العريضة في أرض مصر، كانت له سياسات شيطانية مدروسة، فهو لم يستخدم لمواجهة موسى وأخيه هارون سلاح التهديد والإرعاب، بل سعى للاستفادة من أسلحة مشابهة - كما يظن -

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة، ٤.

في مواجهة موسى، ومن المسلّم أنّه لو نجح في خطّته لما بقي من موسى ودينه أي أثر أو خبر، ولكان قتل موسى عليه السلام في تلك الصورة أمراً سهلاً جداً، بل وموافقاً للرأي العام، جهلاً منه بأنّ موسى لا يعتمد على قوة إنسانية يمكن معارضتها ومقاومتها، بل يعتمد على قوّة أزلية إلهية مطلقة، تحطّم كلّ مقاومة، وتقضي على كل معارضة.

وعلى أية حال، فإنّ الاستفادة من السلاح المشابه أفضل طريق للانتصار على العدو المتصلّب، وتحطيم القوى المادية.

في هذه اللحظة التي اعترت الناس فيها حالة من النشاط والفرح، وتعالت صيحات الابتهاج من كل صوب، وعلت وجوه فرعون وملئه ابتسامة الرضى، ولمع في عيونهم بريق الفرح، أدرك الوحي الإلهي موسى عليه السلام وأمره بإلقاء العصا، وفجأة انقلب المشهد وتغير، وبدت الدهشة على الوجوه، وتزعزت مفاصل فرعون وأصحابه كما يقول القرآن الكريم: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

و﴿تَلْقَفُ﴾ مشتقة من مادة «لَقْف» (على وزن سَقف) بمعنى أخذ شيء بقوة وسرعة، سواء بواسطة الفم، والأسنان، أو بواسطة الأيدي، ولكن تأتي في بعض الموارد بمعنى البلع والإبتلاع أيضاً، والظاهر أنّها جاءت في الآية الحاضرة بهذا المعنى.

و﴿يَأْفِكُونَ﴾ مشتقّة من مادة «إفك» على وزن «مسك» وهي تعني في الأصل الانصراف: عن الشيء، وحيث إنّ الكذب يصرف الإنسان من الحق أُطلق على الكذب لفظ «الإفك».

وهناك احتمال آخر في معنى الآية ذهب إليه بعض المفسّرين، وهو أنّ عصا موسى بعد أن تحولت إلى حيّة عظيمة لم تبتلع أدوات سحر السحرة، بل عطّلها عن العمل والحركة وأعادها إلى حالتها الأُولى. وبذلك أوصد هذا العمل طريق الخطأ على الناس، في حين أنّ الابتلاع لا يمكنه أن يقنع الناس بأنّ موسى لم يكن ساحراً أقوى منهم.

ولكن هذا الاحتمال لا يناسب جملة ﴿تَلْقَفُ﴾ كما لا يناسب مطالب الآية، لأنّ ﴿تَلْقَفُ﴾ - كما أسلفنا - تعني أخذ شيء بدقة وسرعة لا قلب الشيء وتغييره.

هذا مضافاً إلى أنّه لو كان المقرر أن يظهر إعجاز موسى عليه السلام عن طريق إبطال سحر السحرة، لم تكن حاجة إلى أن تتحول العصا إلى حيّة عظيمة، كما قال القرآن الكريم في بداية هذه القصّة.

وبغض النظر عن كل هذا، لو كان المطلوب هو إيجاد الشك والوسوسة في نفوس المتفرجين، لكانت عودة وسائل السحرة وأدواتهم إلى هيئتها الأُولى - أيضاً - قابلة للشك والترديد، لأنّه من الممكن أن يحتمل أن موسى بارع في السحر براعة كبرى بحيث إنّه استطاع إبطال سحر الآخرين وإعادتها إلى هيئتها الأُولى.

بل إنّ الذي تسبب في أن يعلم الناس بأن عمل موسى أمر خارق للعادة، وأنّه عمل إلهي تحقق بالاعتماد على القدرة الإلهيّة المطلقة، هو أنّه كان في مصر آنذاك مجموعة كبيرة من السحرة الماهرين جدّاً، وكان أساتذة هذا الفن وجوهاً معروفة في تلك البيئة، في حين أنّ موسى الذي لم يكن متصفاً بأي واحدة من هذه الصفات، وكان - في الظاهر - رجلاً مغموراً، نهض من بين بني إسرائيل، وأقدم على مثل ذلك العمل الذي عجز أمامه الجميع. ومن هنا عُلِمَ أن هناك قوّة غيبية تدخلت في عمل موسى، وأن موسى ليس رجلاً عادياً.

وفي هذا الوقت ظهر الحق، وبطلت أعمالهم المزّيفة ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. لأنّ عمل موسى كان عملاً واقعياً، وكانت أعمالهم حفنة من الحيل ومن أعمال الشعبذة، ولا شكّ أنّه لا يستطيع أي باطل أن يقاوم الحق دائماً.

وهذه هي أوّل ضربة توجهت إلى أساس السلطان الفرعوني الجبّار.

ثمّ يقول تعالى في **الآية اللاحقة**: وبهذه الطريقة ظهرت آثار الهزيمة فيهم، وصاروا جميعاً أذلاء: ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾.

وبالرغم من أنّ المؤرخين ذكروا في كتب التاريخ قضايا كثيرة حول هذه الواقعة، ولكن حتى من دون نقل ما جاء في التواريخ يمكن الحدس أيضاً بما حدث في هذه الساعة من اضطراب في الجماهير المتفرجة... فجماعة خافوا بشدّة بحيث إنّهم فرّوا وهربوا، وأخذ آخرون يصيحون من شدّة الفزع، وبعض أُغمي عليه.

وأخذ فرعون وملأه ينظرون إلى ذلك المشهد مبهوتين مستوحشين، وقد تحدّرت على وجوههم قطرات العرق من الخجل والفشل، وبدأوا يفكرون في مستقبلهم الغامض المبهم، ولم يدر في خلدهم أنّهم سيواجهون مثل هذا المشهد الرهيب الذي لا يجدون له حلاً.

والضربة الأقوى كانت عندما تغير مشهد مواجهة السحرة لموسى عليه السلام تغييراً كلّياً، وذلك عندما وقع السحرة فجأة على الأرض ساجدين لعظمة الله ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾.

ثمّ نادوا بأعلى صوتهم و﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

وبذكر هذه الجملة بينوا - بصراحة - الحقيقة التالية وهي: أنّنا آمنا بربّ هو غير الربّ المختلق، المصطنع، إنّه الربّ الحقيقي.

بل لم يكتفوا بلفظة «ربّ العالمين» أيضاً، لأنّ فرعون كان يدعي أنّه ربّ العالمين، لهذا أضافوا: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ حتى يقطعوا الطريق على كل استغلال.

ولم يكن فرعون والملأ يتوقعون هذا الأمر مطلقاً، يعني أنّ الجماعة التي كان يعلّق الجميع آمالهم عليها للقضاء على موسى ودعوته، أصبحت في الطليعة من المؤمنين بموسى ودعوته، ووقعوا ساجدين لله أمام أعين الناس عامّة، وأعلنوا عن تسليمهم المطلق وغير المشروط لدعوة موسى عليه السلام.

على أنّ هذا الموضوع الذي غيّر أُناساً بمثل هذه الصورة، يجب أن لا يكون موضوع استغراب وتعجب، لأنّ نور الإيمان والتوحيد موجود في جميع القلوب، ويمكن أن تخفيه بعض الموانع والحجب الاجتماعية مدّة طويلة أو قصيرة، ولكن عندما تهب بعض العواصف بين حين وآخر تنزاح تلك الحجب، ويتجلّى ذلك النور ويأخذ بالابصار.

وبخاصّة أن السحرة المذكورين كانوا أساتذة مهرة في صناعتهم، وكانوا أعرف من غيرهم بفنون عملهم ورموز سحرهم، فكانوا يعرفون - جيداً - الفرق بين «المعجزة» و«السحر» فالأمر الذي يحتاج الآخرون لمعرفته إلى المطالعة الطويلة والدقة الكبيرة، كان واضحاً عند السحرة وبيّناً، بل أوضح وأبين من الشمس في رابعة النهار.

إنّهم مع معرفتهم بفنون ورموز السحر الذي تعلموه طوال سنوات، عرفوا وأدركوا أن عمل موسى لم يكن يشبه - أبداً - السحر، وأنّه لم يكن نابعاً من قدرة البشر، بل كان نابعاً من قدرة فوق الطبيعة وفوق البشر، وبذلك لا مجال للاستغراب والتعجب في إعلانهم إيمانهم بموسى بمثل تلك السرعة والصراحة والشجاعة وعدم الخوف من المستقبل.

وجملة ﴿وَأُلۡقِىَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ التي جاءت في صيغة الفعل المبني للمجهول، شاهد ناطق على الاستقبال البالغ لدعوة موسى وتسليم السحرة المطلق له عليه السلام. يعني أنّ جاذبية موسى كان لها من الأثر القوي البالغ في قلوب ونفوس أُولئك السحرة، بحيث إنّهم سقطوا على الأرض من دون اختيار، ودفعهم ذلك إلى الإقرار والاعتراف.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

التّفسير

التّهديدات الفرعونية الجوفاء

عندما توجهت ضربة جديدة - بانتصار موسى على السحرة وإيمانهم به - إلى أركان السلطة الفرعونية، استوحش فرعون واضطرب بشدّة ورأى أنّه إذا لم يظهر أي ردّ فعل في مقابل هذا المشهد، فسيؤمن بموسى كل الناس أو أكثرهم، وستكون السيطرة على الأوضاع غير ممكنة، لهذا عمد فوراً إلى عملين مبتكرين:

في البداية وجه اتهاماً (لعلّه مرغوب عند السواد من الناس) إلى السحرة، ثمّ هددهم بأشدّ التهديدات، ولكن على العكس من توقعات فرعون أظهر السحرة مقاومة عجيبة تجاه هذين الموقفين، مقاومة أغرقت فرعون وجهازه في تعجب شديد، وأفشلت جميع خططه، وبهذه الطريقة وجهوا ضربة ثالثة إلى أركان السلطان الفرعوني المتزلزل، وقد رسمت الآيات اللاحقة هذا المشهد بصورة رائعة.

في البداية يقول: إنّ فرعون قال للسحرة: هل آمنتم بموسى قبل أن آذن لكم ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؟!

وكأنّ التعبير بـ﴿بِهِۦ﴾ لأجل تحقير موسى والازدراء به، وكأنّه بجملة ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أراد أن يظهر أنّه يتحرى الحقيقة ويطلب الحق، فلو كان عمل موسى عليه السلام يتسم بالحقيقة والواقعية لأذنت أنا للناس بأن يؤمنوا به، ولكن استعجالكم كشف عن زيفكم، وأنّ هناك مؤامرة مبيّتة ضد شعب مصر.

وعلى أية حال، أفادت الجملة أعلاه أنّ فرعون الجبار الغارق في جنون السلطة كان يدعي أنّه لا يحق للشعب أن يتصرف أو يعمل أو يقول شيئاً من دون إجازته وإذنه، بل لا يحق لهم أن يفكروا ويؤمنوا بدون أمره وإذنه أيضاً!!

وهذه هي أعلى درجات الاستعباد والاستحمار، أن يكون شعبٌ من الشعوب أسيراً وعبداً بحيث لا يحق له حتى التفكير والإيمان القلبي بأحد أو بعقيدة.

وهذا هو البرنامج الذي يواصله «الاستعمار الجديد»، يعني أنّ المستعمرين لا يكتفون بالاستعمار الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، بل يسعون إلى تقوية جذورهم عن طريق الاستعمار الفكري.

وتتجلى مظاهر هذا الاستعباد الفكري في البلاد الشيوعية أكثر فأكثر، بالحدود المغلقة، والأسوار الحديدية والرقابة الشديدة المفروضة على كل شيء، وبخاصّة على الأجهزة الثقافية.

ولكن في البلاد الرأسمالية الغربية التي يظن البعض أنّه لا يوجد استعباد فكري وثقافي على الأقل وأن لكل أحد أن يفكر ويختار بحرية؛ يُمارس الاستعباد بنحو آخر، لأنّ الرأسماليين الكبار بتسلّطهم الكامل على الصحف المهمّة، والإذاعات، ومحطات التلفزيون، وجميع سبل الارتباط الجمعي ووسائل الإعلام، يفرضون على المجتمع أفكارهم وآراءهم في لباس الحرية الفكرية، ويوجهون المجتمع - عن طريق عملية غسيل دماغ واسعة ومستمرة - إلى الوجهة التي يريدون، وهذا بلاء عظيم يعاني منه عصرنا الحاضر.

ثمّ يضيف فرعون قائلاً: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾.

ونظراً إلى الآية (٧١) من سورة «طه» التي تقول: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ يتّضح أنّ مراد فرعون هو أنّ هناك مؤامرة مدروسة وتواطؤاً مبيّتاً قد دبرتموه قبل مدّة للسيطرة على أوضاع مصر واستلام زمام السلطة، لا أنّكم دبرتموه للتو وقبل قليل في لقاء محتمل بينكم وبين موسى.

ومن هنا يتّضح أنّ المراد من ﴿الْمَدِينَةِ﴾ هو مجموع القطر المصري، والألف واللام ألف ولام الجنس، والمراد من ﴿لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ هو تسلط موسى عليه السلام وبني إسرائيل على أوضاع مصر، وإقصاء حاشية فرعون وأعوانه عن جميع المناصب الحساسة، أو إبعاد بعضهم إلى النقاط البعيدة من البلاد، والآية (١١٠) في هذه السورة شاهدة على ذلك أيضاً.

وعلى كل حال، فإنّ هذه التهمة كانت خاوية ومفضوحة، إلى درجة أنّه لم يكن يقتنع بها إلّا العوام والجهلة من الناس، لأنّ موسى عليه السلام لم يكن حاضراً في مصر، ولم يلتق

بأحد من السحرة من قبل، ولو كان أستاذهم وكبيرهم الذي علمهم السحر، لوجب أن يكون معروفاً ومشهوراً في جميع الأماكن، وأن يعرفُه أكثر الناس، وهذه لم تكن أُموراً يمكن إخفاؤها وكتمانها، لأنّ التواطؤ مع أشخاص منتشرين في شتى مناطق مصر على أمر بهذا القدر من الأهمية غير ممكن عملاً.

ثمّ إنّ فرعون هدَّدهم بتهديد غامض ولكنّه شديد ومحكم، إذ قال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾!!

وفي **الآية اللاحقة** بيّن تفاصيل ذلك التهديد الذي هدَّد به السحرة فأقسم بأن يقطع أيديهم وأرجلهم ويصلبهم، إذ قال: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وفي الحقيقة كان مراده أن يقتلهم بالتعذيب والتنكيل، ويجعل من هذا المشهد الرهيب درساً للآخرين، لأن قطع الأيدي والأرجل، ثمّ الصلب على الشجر أمام الناس، ومنظر تدفق الدم من أجسامهم وما يرافق هذا من حالات النزع فوق المشانق إلى أن يموتوا، سيكون عبرة لمن يعتبر (ولابدّ من ملاحظة أن الصلب في ذلك الزمان لم يكن يتمّ على النحو الذي يتمّ به الآن، وهو تعليق المشنوق بوضع الحبل في عنقه، بل كان الحبل يوضع تحت كتفيه حتى لا يموت بسرعة).

ولعل قطع اليد والرجل من خلاف، كان لأجل أن هذا العمل يتسبب في أن يموتوا بصورة أبطأ، ويتحملوا قدراً أكثر من الألم والعذاب.

والجدير بالتأمل أن البرامج التي انتهجها فرعون لمكافحة السحرة الذين آمنوا بموسى، كانت برامج عامّة في مكافحة الجبارين وتعاملهم الوحشي الرخيص مع أنصار الحق والمنادين به، فهم من جانب يستخدمون حربة التهمة حتى يزعزعوا مكانة أنصار الحق في نفوس الجماهير، ومن جانب آخر يتوسلون بسلاح القوّة والقهر والتهديد لتحطيم إرادتهم، ولكن - كما نقرأ في ذيل قصّة موسى - لم يستطع هذان السلاحان أن يفعلا شيئاً في نفوس أنصار الحق، ولن يفعلا.

لقد قاوم السحرة كلتا حربتي فرعون، وأجابوه جواب رجل واحد: إنّنا نرجع إلى ربّنا إذن ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾.

يعني إذا تحقق تهديدك الثّاني (وهو القتل) فمعناه أنّنا سننال الشهادة في سبيل الدفاع عن الحق، وهذا لا يوجب ضرراً علينا، ولا ينقصنا شيئاً، بل يُعدّ سعادة وفخراً عظيماً لنا.

ثمّ إنّهم للردّ على تهمة فرعون، ولايضاح الحقيقة لجماهير المتفرجين على هذا المشهد، وإثبات براءتهم من أي ذنب، قالوا: إنّ الإشكال الوحيد الذي تورده علينا هو أنّنا آمنا بآيات الله وقد جاءتنا ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ﴾.

يعني أنّنا لسنا مشاغبين، ولا متآمرين، ولا متواطئين ضدك، وليس إيماننا بموسى يعني أنّنا نريد استلام أزمة الحكم، ولا أن نخرج أهل هذه البلاد من ديارهم، وأنت نفسك تعلم أننا لسنا بهذا الصدد، بل نحن عندما رأينا الحق وشاهدنا علائمه بوضوح أجبنا داعي الله ولبينا نداءه وآمنا به، وهذا هو ذنبنا الوحيد في نظرك ليس غير.

وهكذا أظهروا لفرعون بالجملة الأُولى أنهم لا يخافون أي تهديد، وأنّهم يستقبلون جميع الحوادث والتبعات حتى الشهادة بمنتهى الشهامة، وبالجملة الثّانية ردّوا بصراحة على الاتهامات التي وجهها فرعون إليهم.

إنّ جملة ﴿تَنقِمُ﴾ مشتقة من مادة «نقمة» على وزن «نعمة» وهي في الأصل تعني رفض شيء باللسان أو بالعمل وتعني كذلك العقوبة، وعلى هذا فإنّ الآية أعلاه يمكن أن تكون بمعنى أنّ العمل الوحيد الذي تنكره علينا هو أنّنا آمنا، أو يعني أنّ العقوبة التي تريد أن تعاقبنا بها إنّما هو لأجل إيماننا.

ثمّ إنّهم أشاحوا بوجوههم عن فرعون وتوجهوا إلى الله سبحانه، وطلبوا منه الصبر والاستقامة، لأنّهم كانوا يعلمون أنّهم لا يستطيعون أن يقاوموا تلك العقوبات الثقيلة من دون نصره وتأييده وعونه، لهذا قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾.

والملفت للنظر أنّهم بعبارة ﴿أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ أظهروا أن الخطر المحدق بهم بلغ الدرجة القصوى، فأعطنا يا ربّ أنت - أيضاً - آخر درجات الصبر والاستقامة، لأنّ ﴿أَفۡرِغۡ﴾. من مادة «الإفراغ» بمعنى صبّ السائل من وعاء حتى يفرغ.

الاستقامة الواعية

يمكن أن يتملك الإنسان عجب شديد عند أوّل اطلاعة على قصّة السحرة في زمان موسى ﷺ الذين صاروا من المؤمنين الصادقين، هل يمكن أن يحدث مثل هذا الانقلاب والتحول العميق في الروح الإنسانية في مثل هذه المدّة القصيرة، بحيث يقطع الشخص كل علاقاته مع الصف المخالف، ويصير في صف الموافق، ثمّ يدافع عن عقيدته الجديدة بإصرارٍ وعنادٍ عجيبين إلى درجة أنّه يتجاهل مكانته ومصالحه وحياته جميعاً، ويستقبل الشهادة بشجاعة منقطعة النظير، وبوجه مستبشر؟

ولكن هذا الاستغراب يتبدد إذا التفتنا إلى هذه النقطة، وهي أنّ هؤلاء - نظراً إلى سوابقهم الكثيرة في علم السحر - وقفوا جيداً على عظمة معجزة النّبي موسى عليه السلام وحقانيته، وسلكوا هذا السبيل عن وعي كامل. . . وهذا الوعي صار منشأ لعشق ملتهب سربل كل وجودهم وكيانهم، وهو عشق لا يعرف حدّاً وسدّاً، وفوق جميع النوازع والرغبات البشرية.

إنّهم كانوا يعلمون جيداً أي طريق يسلكونه؟ ولماذا يجاهدون؟ ومن يكافحون؟ وأي مستقبل مشرق ينتظر هذا الجهاد العظيم؟

أجل، إذا كان الإيمان مقروناً بالوعي الكامل فإنّه ينتهي إلى مثل هذا العشق الملتهب الذي لا يكون هذا التفاني في سبيله مثاراً للعجب.

ولهذا نرى كيف أن السحرة قالوا بصراحة وشجاعة (كما في سورة طه الآية (٧٢): ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

وأخيراً - وكما جاء في الرّوايات وكتب التاريخ - استقام أُولئك الجماعة من السحرة الذين آمنوا بموسى حتى نفّذ فرعون تهديداته، ومثّل بأجسامهم تمثيلاً مروعاً، وصلبهم على جذوع النخل على مقربة من نهر النيل، وهكذا كتبت أسماؤهم مع أحرار التاريخ بأحرف من نور، وكانوا كما وصفهم المفسّر الكبير العلاّمة الطبرسي: كانوا أوّل النهار كفاراً سحرة، وآخر النهار شهداء بررة[1].

ولكن مع الالتفات إلى أنّ مثل هذا الانقلاب والتحول والاستقامة ليس ممكناً إلّا في ظلّ الإمدادات الإلهيّة، ومن المسلّم أن كلّ من اختار سلوك طريق الحق، شملته هذه العنايات الرّبانية، والإمدادات الإلهيّة.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن

---

(١) بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٨٠؛ تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٣٣٣.

بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

التّفسير

في هذه الآيات يبيّن لنا القرآن الكريم مشهداً آخر من الحوار الذي دار بين فرعون وبين ملئه حول وضع موسى عليه السلام، ويستفاد من القرائن الموجودة في نفس الآية أنّ محتوى هذه الآيات يرتبط بفترة ما بعد المواجهة بين موسى وبين السحرة.

تقول الآية في البداية: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ﴾.

يستفاد من هذا التعبير - جيداً - أنّ فرعون بعد هزيمته أمام موسى عليه السلام ترك موسى وبني إسرائيل أحراراً (طبعاً الحرية النسبية) مدّة من الزمن، ولم يترك بنو إسرائيل بدورهم هذه الفرصة من دون أن يشتغلوا بالدعوة والتبليغ لصالح دين موسى عليه السلام إلى درجة أن قوم فرعون قلقوا من انتشاره ونفوذ دعوته، فحضروا عند فرعون وحرضوه على اتّخاذ موقف مشدد تجاه موسى وبني اسرائيل.

فهل فترة الحرية النسبية هذه كانت لأجل الخوف والرعب الذي أصاب فرعون بسبب ما رأى من معجزة موسى عليه السلام القوية، أو للاختلاف الذي برز في شعب مصر (وحتى القبطيين منهم) حول موسى ودينه، حيث إنّ جماعة رغبوا في دينه، وكان فرعون شاهداً لهذه الحالة فلم يمكنه أن يتخذ في مثل هذه الأجواء والظروف موقفاً متشدداً من موسى ودينه.

كلا الاحتمالين قريبان إلى ذهن فرعون، ويمكن أن يكون كلاهما معاً قد تركا أثراً في نفسه وفكره.

وعلى كل حال فإنّ فرعون - بسبب تحذيرات أعوانه وحاشيته - صمم على اتّخاذ موقف متشدد من بني إسرائيل، فقال لحاشيته في معرض الجواب على تحريضهم وتحذيرهم: سأقتل أبناءهم وأستخدم نساءهم ونحن متفوقون عليهم على كل حال: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾.

وقد وقع كلام بين المفسّرين حول المراد من لفظة ﴿وَآلِهَتَكَ ۚ﴾ والظاهر من الآية هو

أنّ فرعون كانت له معبودات وأصنام، وإن كان يُفهم من الآية (٤) من سورة النازعات ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ومن الآية (٣٨) من سورة القصص ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ إنّ فرعون كان أعظم إله لشعب مصر، أو على الأقل كان فرعون يعتبر نفسه أعظم معبود لشعب مصر ولكن مع ذلك كان قد اختار آلهة لنفسه وكان يعبدها.

والنقطة الأُخرى أنّ فرعون عمد هنا إلى مكافحة جذرية وعميقة، وقرر تحطيم قوّة بني إسرائيل تحطيماً كاملاً، وذلك بالقضاء على المقاتلين ورجال الحرب بقتل أبناء بني إسرائيل واستئصالهم، ويستبقي نساءهم وبناتهم لاسترقاقهن واستخدامهن، وهذا هو نهج كل مستعمر قديم وجديد، فهو يقضي على الرجال والقوى المؤثرة في المواجهة، أو يقتل فيهم روح الرجولة والشهامة والغيرة والحمية بالوسائل المختلفة، ويستبقي غير المؤثرين في هذا المجال.

على أنّه يحتمل - أيضاً - أنّ فرعون كان يريد أن يبلغ هذا الكلام إلى مسامع بني إسرائيل، فتتحطم معنوياتهم من جهتين: أولاهما من جهة قتل أبنائهم ورجال مستقبلهم، والأُخرى: من جهة وقوع نسائهم وأعراضهم في أيدي العدو.

وعلى كل حال أراد بعبارة ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ أن يزيل الخوف والقلق من قلوب حاشيته وأعوانه، ويخبرهم بأنّه مسيطر على الأوضاع سيطرة كاملة.

سؤال:

وهنا يطرح سؤال، وهو: لماذا لم يقرر فرعون قتل موسى، وإنّما قرر - فقط - القضاء على أبناء بني إسرائيل؟

جواب:

يُستفاد من آيات سورة المؤمن - جيداً - أنّ فرعون كان عازماً في البداية على قتل موسى، ولكن نصائح مؤمن آل فرعون المقترنة بالتهديد، في أنّ قتل موسى يمكن أن يقترن بالخطر فيحتمل أن يكون مرسلاً من الله حقيقة وواقعاً، وأن كل ما يقوله من العقوبات الإلهيّة يتحقق بمقتله، أثرت في روح فرعون وفكره.

هذا مضافاً إلى أنّ خبر انتصار موسى على السحرة انتشر في كل مكان، ووقع بسببه خلاف بين شعب مصر في مخالفة أو تأييد موسى، ولعل فرعون خاف إن هو اتّخذ من موسى عليه السلام موقفاً حاداً واجه ردّ فعل قوي من جانب الناس الذين تأثروا بهذه المسألة، ولهذا انصرف عن فكرة قتل موسى عليه السلام.

والآية اللاحقة بيّنت - في الحقيقة - خطّة موسى التي اقترحها على بني إسرائيل لمواجهة تهديدات فرعون، وشرح فيها شروط الغلبة على العدو، وذكرهم بأنّهم إذا عملوا بثلاثة مبادىء انتصروا على العدو حتماً:

أوّلها: الاتكال على الله فقط ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾.

والآخر: أن يثبتوا ولا يخافوا من تهديدات العدو: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾.

وللتأكيد على هذا المطلب، ومن باب ذكر الدليل، ذكّرهم بأنّ الأرض كلّها ملك لله، وهو الحاكم عليها والمالك المطلق لها، فهو يعطيها لمن يشاء ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

وآخر هذه المبادىء هو أن يعتمدوا التقوى لأنّ العاقبة لمن اتّقى ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

هذه المبادىء والشروط الثلاثة - أحدها في العقيدة (الاستعانة بالله) والثّاني في الأخلاق (الصبر والثبات) والأخير في العمل (التقوى) - ليست شرائط انتصار قوم بني إسرائيل وحدهم على العدو، بل كل شعب أراد الغلبة على أعدائه لابدّ له من تحقيق هذه البرامج الثلاثة فالأشخاص غير المؤمنين والجبناء الضعفاء الإرادة، والشعوب الفاسقة الغارقة في الفساد، إذا ما انتصرت فإنّ انتصارها يكون لا محالة مؤقتاً غير باق.

والملفت للنظر أنّ هذه الشروط الثلاثة كل واحد منها متفرع على الآخر، فالتقوى لا تتوفر من دون الثبات والصبر في مواجهة الشهوات، وأمام بهارج العالم الماديّ، كما أنّ الصبر والثبات لا يكون لهما أي بقاء ودوام من دون الإيمان بالله.

وفي آخر آية من الآيات الحاضرة يعكس القرآن الكريم شكايات بني إسرائيل وعتابهم من المشكلات التي ابتلوا بها بعد قيام موسى عليه‌السلام فيقول: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ فإذاً متى يحصل الفرج؟!

وكأنّ بني إسرائيل مثل كثير منّا كانوا يتوقعون أن تصلح جميع الأُمور بقيام موسى عليه‌السلام في ليلة واحدة. . . . أن يزول فرعون ويسقط، ويهلك الجهاز الفرعوني برمته، وتصبح مصر بجميع ثرواتها تحت تصرف بني إسرائيل، ويتحقق كل ذلك عن طريق الإعجاز، من دون أن يتحمل بنو إسرائيل أيّ عناء.

ولكن موسى عليه‌السلام أفهمهم بأنّهم سينتصرون في المآل، ولكن أمامهم طريقاً طويلاً، وإنّ هذا الانتصار - طبقاً للسنة الإلهيّة - يتحقق في ظل الاستقامة والثبات والسعي

والاجتهاد، كما جاء ذلك في الآية الحاضرة: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

وذكر كلمة ﴿عَسَىٰ﴾ مثل كلمة ﴿لَعَلَّ﴾ التي وردت في كثير من الآيات القرآنية إشارة - في الحقيقة - إلى أنّ لهذا التوفيق والانتصار شرائط، من دونها لا يصلون إليه، (للوقوف على المزيد في هذا المجال راجع ما كتبناه في تفسير الآية ٨٤ من سورة النساء).

ثمّ يقول في ختام الآية: إنّ الله أعطاكم هذه النعمة، وأعاد إليكم حريتكم المسلوبة كي ينظر كيف تتصرفون أنتم ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾؟

يعني ستبدأ - بعد الانتصار - مرحلة امتحانكم واختباركم، اختبار شعب كان فاقداً لكل شيء ثمّ حصل على كل شيء في ضوء الهداية الإلهيّة.

إنّ هذا التعبير - هو ضمناً - إشعار بأنّكم سوف لا تخرجون من هذا الاختبار - في المستقبل - بنجاح، وستفسدون وتظلمون كما فعل من كان قبلكم.

ونقرأ في رواية وردت في كتاب الكافي مروية عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «وجدنا في كتاب علي: إنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، أنا وأهل بيتي الذين أورثنا الله الأرض ونحن المتقون»(١).

وهذه إشارة إلى أنّ الحكم المذكور في هذه الآية حكم شامل، وقانون عام، والأرض هي الآن - في الحقيقة - للمتقين.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾

التّفسير

العقوبات التنبيهية

لقد كان القانون الإلهي العام في دعوة الأنبياء - كما قلنا في تفسير الآية (٩٤) من نفس هذه السورة - هو أنّهم كلّما واجهوا معارضة كان الله تعالى يبتلي الأقوام

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٥٦؛ أصول الكافي، ج ١، ص ٤٠٧.

المعاندين بأنواع المشاكل والبلايا، حتى يحسّوا بالحاجة في ضمائرهم وأعماق نفوسهم، وتستيقظ فيهم فطرة التوحيد المتكلّسة تحت حجاب الغفلة عند الرفاه والرخاء، فيعودون إلى الإحساس بضعفهم وعجزهم، ويتوجهون إلى المبدأ القادر مصدر جميع النِّعم.

وفي أوّل آية من الآيتين الحاضرتين إشارة إلى نفس هذا المطلب في قصّة فرعون، إذ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

و«السنين» جمع سنة «بمعنى العام، ولكنّها إذا قرنت بلفظة أخذ» أعطت معنى الابتلاء بالقحط والجدب، وعلى هذا يكون معنى أخذته السنة هو: أُصيب بالقحط والجدب، ولعل علّة ذلك هي أن أعوام القحط والجدب قليلة بالقياس إلى أعوام الخصب والخير، وعلى هذا إذا كان المراد من السنة السنين العادية لم يكن ذلك موضوعاً جديداً، ويتبيّن من ذلك أنّ المراد من السنين هي السنين الاستثنائية، أي سنوات القحط وأعوام الجدب.

وكلمة «آل» كانت في الأصل «أهل» ثمّ قلبت فصارت هكذا، والأهل بمعنى أقرباء الإنسان وخاصّته، سواء أقرباؤه أو زملاؤه ونظراؤه في المسلك والتفكير وأعوانه.

ومع أنّ القحط والجدب أصابا حاشية فرعون ومؤيديه أجمع، ولكن الخطاب في الآية موجه إلى خصوص أقربائه وخاصّته، وهو إشارة إلى أنّ المهم هو أن يستيقظ هؤلاء، لأنّ بيدهم أزمة الناس... أن يضلوا الناس، أو يهدونهم، ولهذا توجه الخطاب إليهم فقط، وإن كان البلاء قد أصاب الآخرين أيضاً.

ويجب أن لا نستبعد هذه النقطة، وهي أن الجدب كان يعدّ بلاءً عظيماً لمصر، لأنّ مصر كانت بلداً زراعياً، فكان الجدب مؤذياً لجميع الطبقات، ولكن من المسلّم أنّ آل فرعون - وهم الأصحاب الأصليين للأراضي الزراعية وإنتاجها - كانوا أكثر تضرراً بهذا البلاء.

ثمّ إنّه يُعلَم من الآية الحاضرة أنّ الجدب استمر عدّة سنوات، لأنّ كلمة «سنين» صيغة جمع، وخاصّة أنّه أُضيف إليها عبارة ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ لأنّ الجدب المؤقت والعابر يمكن أن يترك شيئاً من الأثر في الأشجار ولكن عندما يكون الجدب طويلاً فإنّه يبيد الأشجار أيضاً، ويحتمل أيضاً أنّه علاوة على الجدب فإنّ الفواكه والثمار أُصيبت بآفات قاتلة كذلك.

وكأنّ جملة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ إشارة إلى هذه النقطة، وهي: أنّ التوجّه إلى حقيقة التوحيد موجودة من البداية في الروح الآدمية، ولكنّه على أثر التربية غير الصحيحة أو بطر النعمة ينساها الإنسان، وعند حلول البلايا والأزمات يتذكر ذلك مجدداً، ومادة «تذكر» تناسب هذا المعنى.

هذا والجدير بالانتباه أنّ جملة ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ جاءت في ذيل الآية (٩٤) وهي مقدمة أُخرى - في الحقيقة - لأنّ الإنسان يتذكر أوّلاً، ثمّ يخضع ويسلّم، أو يطلب من الله الصفح والمغفرة.

ولكن بدل أن يستوعب «آل فرعون» هذه الدروس الإلهيّة، ويستيقظوا من غفلتهم وغفوتهم العميقة، أساءوا استخدام هذا الظرف والحالة، وفسّروها حسب مزاجهم، فإذا كانت الأحوال مؤاتية ومطابقة لرغبتهم، وكانوا يعيشون في راحة واستقرار قالوا: إنّ الوضع الحسن هو بسبب جدارتنا وصلاحنا ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾.

ولكن عندما تنزل بهم النوائب فإنّهم ينسبون ذلك إلى موسى عليه السلام وجماعته فوراً ويقولون هذا من شؤمهم: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾.

و﴿يَطَّيَّرُواْ﴾ مشتقة من مادة «تطيُّر» بمعنى التشاؤم، وأصلها من الطير، فقد كان العرب غالباً ما يتشاءمون بواسطة الطيور، وربّما تشاءموا بصوت الغراب، أو بطيران الطير، فإذا طار من ناحية اليسار اعتبروا ذلك علامة الشقاء والفشل، وكلمة التطير تعني مطلق التشاؤم.

ولكن القرآن الكريم قال في معرض الردّ عليهم: اعلموا أنّ منشأ كل شؤم وبلاء أصابكم إنّما هو من قبل الله، وأنّ الله تعالى أراد أن تصيبكم نتيجة أعمالكم المشؤومة، ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

والجدير بالتأمل أنّ هذا النمط من التفكير لم يكن خاصاً بالفرعونيين، بل هو أمر نلاحظه بوضوح الآن بين الشعوب المصابة بالأنانية والضلال، فهي - بغية قلب الحقائق، وخداع ضميرها أو ضمائر الآخرين - كلما أصابها نجاح وتقدم اعتبرت ذلك ناشئاً من جدارتها وكفاءتها، وإن لم يَكن في ذلك النَّجاح والتقدم أدنى شيء من تلك الكفاءة والجدارة، وبالعكس إذا أصابها أي إخفاق وشقاء نسبت ذلك فوراً إلى الأجانب وإلى أيادي العدو الخفيّة أو المكشوفة، وإن كانوا هم بأنفسهم سبب ذلك الشقاء والإخفاق.

يقول القرآن الكريم: إنّ أعداء الرّسول الأعظم ﷺ كانوا يتوسلون بمثل هذا المنطق أيضاً في مقابل رسول الله (كما نقرأ في الآية ٧٨ من سورة النساء).

وفي مكان آخر يقول: إنّ المنحرفين هم هكذا (كما في سورة فصلت الآية ٥٠) وهذا في الحقيقة هو أحد مظاهر الأنانية واللجاج البارز[١].

التفاؤل والتشاؤم (الفأل والطيرة)

مسألة التطيّر والتفاؤل والتشاؤم قد تكون منتشرة في مختلف المجتمعات البشرية، فيتفاءلون بأُمور وأشياء ويعتبرونها دليل النجاح، ويتشاءمون بأمور وأشياء ويعتبرونها آية الهزيمة والفشل، في حين لا توجد أية علاقة منطقية بين النجاح والإخفاق وبين هذه الأُمور، وبخاصّة في مجال التشاؤم حيت كان له غالباً جانب آخر في غير معقول.

إنّ هذين الأمرين وإن لم يكن لهما أي أثر طبيعي إلّا أنّه يمكن أن يكون لهما أثر نفسي لا ينكر، وإنّ التفاؤل غالباً يوجب الأمل والتحرك، والتشاؤم يوجب اليأس والوهن والتراجع.

ولعله لأجل هذا لم يُنْه في الرّوايات والأحاديث الإسلامية عن التفاؤل، بينما نُهي عن التشاؤم بشدّة، ففي حديث معروف مروي عن النّبي ﷺ قال: «تفاءلوا بالخير تجدوه»[٢] وقد شوهد في أحوال النّبي الأكرم ﷺ والأمة الهداة عليهم السلام - أنفسهم - أنّهم ربّما تفاءلوا بأشياء، مثلاً عندما كان المسلمون في «الحديبية» وقد منعهم الكفار من الدخول إلى مكّة جاءهم «سهيل بن عمرو» مندوب من قريش، فلمّا علم النّبي ﷺ باسمه قال متفائلاً باسمه: «قد سهل عليكم أمركم»[٣].

وقد أشار العالم المعروف «الدميري» وهو من كتّاب القرن الثامن الهجري، في إحدى كتاباته إلى نفس هذا الموضوع، وقال: إنّما أحب النّبي ﷺ الفأل لأنّ الإنسان إذا أمل فضل الله كان على خير، وإن قطع رجاءه من الله كان على شرٍّ، والطيرة فيها سوء ظن وتوقع للبلاء[٤].

---

(١) ذكر «حسنة» محلاةً بالألف واللام و«إذا» وذكر «سيئة» مع (إن) بصورة النكرة إشارة إلى النِّعم كانت تنزل عليهم بصورة متتابعة، بينما كانت البلايا تنزل أحياناً.

(٢) ميزان الحكمة، ج ٣، ص ٢٣٥٣.

(٣) الميزان، ج ١٩، ص ٨٦. بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٣٣٣؛ تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ١٩٧.

(٤) سفينة البحار، ج ٢، ص ١٠٢.

ولكن في مجال التشاؤم الذي يسمّيه العرب «التطير» و«الطيرة» ورد في الأحاديث الإسلامية - كما أسلفنا - ذم شديد، كما أُشير إليه في القرآن الكريم مراراً وتكراراً أيضاً، وشجب بشدّة[١].

ومن جملة ذلك ما روي عن النّبي ﷺ أنّه قال: «الطيرة شرك»[٢] وذلك لأن من يعتقد بالطيرة كأنّه يشركها في مصير الإنسان.

وتشير بعض الأحاديث أنّه إذا كان للطيرة أثر سيّىء فهو الأثر النفسي، قال الإمام الصادق عليه السلام: «الطيرة على ما تجعلها، إن هونتها تهونت، وإن شددتها تشدّدت، وإن لم تجعلها شيئاً لم تكن شيئاً»[٣].

وورد أنّ طريقة مكافحة الطيرة تتمثل في عدم الاعتناء بها، فقد روي عن النّبي ﷺ أنّه قال: «ثلاث لا يسلم منها أحد: الطيرة والحسد والظن. قيل: فما نصنع؟ قال: إذا تطيرت فامض (أي لا تعتنِ بها) وإذا حسدت فلا تبغ (أي لا تعمل بوحي منه شيئاً) وإذا ظننتَ فلا تحقق».

والعجيب أنّ مسألة الفأل والطيرة كانت ولا تزال موجودة حتى في البلاد الصناعية المتقدمة، وفي أوساط من يسمّون بالمثقفين، بل وحتى النوابغ المعروفين، ومن جملتها: يعتبر المرور من تحت السلم عند الغربيين - وسقوط المملحة، وإهداء سكين، أموراً يتشاءم منها بشدّة.

على أنّ وجود الفأل الجيد - كما قلنا - ليس مسألة مهمّة، بل لها غالباً آثارٌ حسنة طيبة، ولكن يجب مكافحة عوامل التشاؤم وفكرة الطيرة، ونبذها من الأذهان، وأفضل وسيلة لمكافحتها هي تقوية روح التوكل، والثقة بالله والاعتماد عليه كما أشير إلى ذلك في الأحاديث الإسلامية.

﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

(١) مثل سورة «يس» الآية (١٩)، وسورة النمل الآية (٤٧)، والآية المطروحة على بساط البحث هنا.
(٢) تفسير الميزان، ج ١٩، ص ٧٨ في ذيل الآية المبحوثة هنا.
(٣) المصدر السابق.

التّفسير

النّوائب المتنوعة

في هاتين الآيتين أُشير إلى مرحلة أُخرى من الدروس المنبهة التي لقّنها الله لقوم فرعون، فعندما لم تنفع المرحلة الأُولى، يعني أخذهم بالجدب والسنين وما ترتب عليه من الأضرار المالية في إيقاظهم وتنبيههم، جاء دور المرحلة الثّانية وتمثلت في عقوبات أشدّ، فأنزل الله عليهم نوائب متتابعة مدمِّرة، ولكنّهم - وللأسف - لم ينتبهوا مع ذلك.

وفي الآية الأُولى من الآيات المبحوثة يقول القرآن الكريم من باب المقدمة لنزول النّوائب: إنّهم بقوا يلجّون في إنكار دعوة موسى، وقالوا: مهما تأتنا من آية وتريد أن تسحرنا بها فإنّنا لن نؤمن بك: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

إنّ التعبير بـ «الآية» لعلّه من باب الاستهزاء والسخرية، لأنّ موسى عليه السلام وصف معاجزه بأنّها آيات الله، ولكنّهم كانوا يفسرونها بالسحر.

إنّ لحن الآيات والقرائن يفيد أنّ الجهاز الإعلامي الفرعوني الذي كان - تبعاً لذلك العصر - أقوى جهاز إعلامي، وكان النظام الحاكم في مصر يستخدمه كامل الاستخدام إنّ هذا الجهاز الإعلامي قد عبّأ قواه في توكيد تهمة السحر في كل مكان، وجعلها شعاراً عاماً ضد موسى عليه السلام، لأنّه لم يكن هناك تهمة منها أنسب بالنسبة إلى معجزات موسى عليه السلام للحيلولة دون انتشار الدعوة الموسوية ونفوذها المتزايد في الأوساط المصرية.

ولكن حيث إنّ الله سبحانه لا يعاقب أُمّة أو قوماً من دون أن يتمّ عليهم الحجّة قال في الآية اللاحقة: نحن أنزلنا عليهم بلايا كثيرة ومتعددة لعلهم يتنبهون... فقال أولاً: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾.

وكلمة ﴿الطُّوفَانَ﴾ مشتقّة من مادة «الطوف» على وزن «خَوف» وتعني الشيء الذي يطوف ويدور، ثمّ أُطلقت هذه اللفظة على الحادثة التي تحيط بالإنسان، ولكنّها أطلقت - في اللغة - على السيول والأمواج المدمرة التي تأتي على كل شيء في الأغلب، وبالتالي تدمر البيوت، وتقتلع الأشجار من جذورها.

ثمّ سلط الجراد على زروعهم وأشجارهم ﴿وَالْجَرَادَ﴾.

وقد جاء في الأحاديث أن هجوم أسراب الجراد كان عظيماً جدّاً إلى درجة أنّها وقعت في أشجارهم وزروعهم أكلاً وقضماً وإتلافاً، حتى أنّها أفرغتها من جميع الغُصون والأوراق، وحتى أنّها أخذت تؤذي أبدانهم، بحيث تعالت صيحاتهم واستغاثاتهم.

وكلّما كان يُصيبهم بلاء كانوا يلجأون إلى موسى عليه السلام ويسألونه أن يطلب من الله أن يرفع عنهم ذلك البلاء، فقد فعلوا هذا بعد الطوفان والجراد أيضاً، وقبِل موسى عليه السلام، وارتفع عنهم البلاء ولكنّهم مع ذلك لم يكفّوا عن لجاجهم وتعنتهم.

وفي المرّة الثّالثة سلط عليهم القمل ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾.

وأمّا ما هو المراد من «القمل» فقد وقع فيه كلام بين المفسّرين، ولكن الظاهر أنّه نوع من الآفات الزراعية التي تصيب الغلات، وتفسدها وتتلفها.

وعندما خفت أمواج هذا البلاء، واستمرّوا في عنادهم سلط الله عليهم في المرحلة الرّابعة، الضفادع، فقد تزايد نسل الضفادع تزايداً شديداً حتى أنّه تحول إلى بلاء عظيم عكّر عليهم صفو حياتهم: ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾[1].

ففي كل مكان كانت الضفادع الصغيرة والكبيرة تزاحمهم، حتى في البيوت والغرف والموائد وأواني الطعام، بحيث ضاقت عليهم الحياة بما رحبت، ولكنّهم مع ذلك لم يخضعوا للحق، ولم يسلّموا.

وفي هذا الوقت بالذات سلّط الله عليهم ﴿وَٱلدَّمَ﴾.

قال البعض: إنّ داء الرعاف (وهو نزيف الدم من الأنف) شاع بينهم كداء عام، وأُصيب الجميع بذلك. ولكن أكثر الرّواة والمفسّرين ذهبوا إلى أنّ نهر النيل العظيم تغير وصار لونه كلون الدم، بحيث صار تعافه الطباع، ولم يعد قابلاً للانتفاع[2].

وقال تعالى في ختام ذلك: إنّ هذه الآيات والمعاجز الباهرة - رغم أنّها أظهرت لهم حقانية موسى - ولكنّهم استكبروا عن قبول الحق وكانوا مجرمين. ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

وفي بعض الرّوايات نقرأ أنّ كل واحدة من هذه البلايا كانت تقع في سنة واحدة،

---

(١) «الضّفادع» جمع ضفدعة وقد جاء ذكر هذا البلاء في الآية بصورة الجمع، ولكن البلايا السابقة جاءت في صورة المفرد. ولعل هذا يفيد أن الله سلّط عليهم أنواعاً مختلفة من الضفادع.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٣٤٠، ذيل الآية مورد البحث.

يعني أنّه أصابهم الطوفان في سنة، والجراد في سنة أُخرى، والآفات الزراعية في سنة ثالثة[١]، وهكذا، ولكن نقرأ في بعض الرّوايات أنّه كان يفصل بين كل بلاء وآخر شهر واحد لا أكثر[٢]، وعلى أي حال لاشك أنّها كانت تقع بصورة منفصلة، وفي فواصل زمنية مختلفة (كما يقول القرآن: مفصّلات) كي تكون هناك فرصة للتفكر والتنبه واليقظة.

هذا والجدير بالانتباه أنّنا نقرأ في الرّوايات أن هذه البلايا كانت تصيب آل فرعون وقومه خاصّة، وكان بنو إسرائيل في معزل عن ذلك[٣]، ولا شكّ أنّ هذا نوع من الإعجاز، ولكن يمكن أن نبرر قسماً من ذلك بتبرير علمي معقول، لأنّنا نعلم أنّ أجمل نقطة في بلد مثل مصر هي شاطئا النيل وضفتاه، وكانت هذه الشواطىء والضفاف برمتها تحت تصرف الفرعونيين والقبطيين ومحل سكناهم، فقصورهم الجميلة الشامخة، ومزارعهم الخضراء وبساتينهم العامرة، كانت في هذه الضفاف. وبطبيعة الحال كان نصيب بني إسرائيل الذين كانوا عبيداً للفرعونيين والقبطيين هي النقاط النائية والصحاري البعيدة الشحيحة الماء.

ومن الطبيعي أنّ الطوفان عندما يحدث يكون الأقرب إلى الخطر ضفتا النيل وشاطئاه ومن يسكنها، وكذا عندما كانت الضفادع تخرج من الماء، وكذا انقلاب الماء إلى هيئة الدم كان يظهر في مياه الفرعونيين الذين كانوا يسكنون إلى جانب النيل دون بني إسرائيل، وأمّا الجراد والآفات النباتية فقد كانت تتعرض لها المناطق الزراعية والبساتين الخضراء الوفيرة المحصول في الدرجة الأُولى.

كل ما قيل في الآيات السابقة جاء في التوراة أيضاً، ولكن ثمّة فروق واضحة بين محتويات القرآن الكريم وما جاء في التوراة (راجع سفر الخروج الفصل السابع إلى العاشر من التوراة).

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦)﴾

(١-٣) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٣٤٠، ذيل الآية مورد البحث.

التفسير

نقض العهد المتكرر

في هذه الآيات نلاحظ رد فعل الفرعونيين في مقابل النوائب والبلايا المنبّهة الإلهيّة، ويُستفاد من مجموعها أنّهم عندما كانوا يقعون في مخالب البلاء ينتبهون من غفوتهم بصورة مؤقتة شأنهم شأن جميع العصاة، وكانوا يبحثون عن حيلة للتخلص منها، ويطلبون من موسى عليه السلام أن يدعو لهم، ويسأل الله في خلاصهم، ولكن بمجرّد أن يزول عنهم طوفان البلاء وتهدأ أمواج الحوادث، ينسون كل شيء ويعودون إلى سيرتهم الأُولى.

وفي الآية الأُولى نقرأ: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾.

إنّهم عند نزول البلاء يلجأون إلى موسى ويطلبون منه أن يدعو لرفع العذاب عنهم، وأن يفي الله بما وعده له من استجابة دعائه: ﴿عَهِدَ عِندَكَ﴾.

ثمّ يقولون: إذا دعوتَ فرفع عنّا البلاء فإنّنا نحلف لك بأن نؤمن بك، ونرفع طوق العبودية عن بني إسرائيل: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

ولفظة ﴿ٱلرِّجْزَ﴾ استعملت في معاني كثيرة: البلايا الصعبة، الطاعون، الوثن والوثنية، وسوسة الشيطان، والثلج أو البَرَد الصلب.

ولكن جميع ذلك مصاديق مختلفة لمفهوم يشكّل الجذر الأصلي لتلك المعاني، لأنّ أصل هذه اللفظة كما قال «الراغب» في «المفردات» هو الاضطراب. وحسب ما قال «الطبرسي» في «مجمع البيان» مفهومه الأصلي هو الانحراف عن الحق[١].

وعلى هذا الأساس إطلاق لفظ «الرجز» على العقوبة والبلاء، لأنّها تصيب الإنسان لانحرافه عن الحق، وارتكاب الذنب، وكذا يكون الرجز نوعاً من الانحراف عن الحق، والإضطراب في العقيدة، ولهذا أيضاً يطلق العرب هذا اللفظ على داء يصيب الإبل، ويسبب اضطراب أرجلها حتى أنّها تلجأ للمشي بخطوات قصيرة، أو تمشي تارة وتتوقف تارة أُخرى، فيقال لهذا الداء «الرّجَز» على وزن «المَرضْ».

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٣٤٢، ذيل الآية مورد البحث.

والسبب في إطلاق الرّجَز على الأشعار الحربيّة، لأنّها ذات مقاطع قصيرة ومتقاربة.

وعلى كل حال، فإنّ المقصود من «الرجز» في الآيات الحاضرة هو العقوبات المنبهة الخمس التي أُشير إليها في الآيات السابقة، وإن احتمل بعض المفسّرين أن يكون إشارة إلى البلايا الأُخرى التي أنزلها الله عليهم ولم يرد ذكرها في الآيات السابقة، ومنها الطاعون أو الثلج والبرد القاتل، الذي وردت الإشارة إليها في التوراة.

هذا، وقد وقع كلام بين المفسّرين في المراد من عبارة ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ وأنّه ما هو المقصود من ذلك العهد الإلهي الذي أعطاه سبحانه لموسى؟

إنّ ما هو الأقرب إلى النظر هو أن المقصود من ذلك الوعد الإلهي هو أن يستجيب دعاءه إذا دعاه، ولكن يحتمل أيضاً أن يكون المقصود هو عهد «النبوة» وتكون «الباء» باء القسم، يعني نقسم عليك بحق مقام نبوتك إلّا ما دعوت الله ليرفع عنّا هذا البلاء.

وفي الآية اللاحقة يشير إلى نقضهم للعهد ويقول: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾(١).

إنّ جملة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ إشارة إلى أنّ موسى حدّد لهم وقتاً وعيّن أمداً، فكان يقول لهم: في الوقت الفلاني سيرفع هذا البلاء عنكم، حتى يتّضح لهم أنّ ارتفاع ذلك البلاء عنهم ليس أمراً اتفاقياً وصدفة، بل هو بفضل دعائه وطلبه من الله تعالى.

إنّ جملة ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ وبالنظر إلى أن ﴿يَنكُثُونَ﴾ فعل مضارع يدلّ على الاستمرارية يفيد أنّه قد تكرر تعهدّهم لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ثمّ نقضهم للعهد، حتى أصبح نقض العهد جزءاً من برنامجهم وسلوكهم الدائم.

وآخر هذه الآيات تبيّن - من خلال جملتين قصيرتين - عاقبة كلّ هذا التعنت، ونقض العهد، فتقول بصورة مجملة ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

ثمّ تشرح هذا الانتقام وتذكر تفاصيله ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾(٢).

---

(١) النكث على وزن مَكْث، يعني فك الحبل المفتول، ثمّ أُطلق على نقض الميثاق والعهد.

(٢) يُستفاد من مصادر اللغة، وكتب الأحاديث أن المراد من اليم هو «البحر»، وهو يطلق على نهر النيل أيضاً، أمّا أنّ لفظة اليمّ هل هي عربية أو سريانية أو هيروغلوفية، فقد وقع في ذلك كلام بين العلماء، يقول صاحب تفسير المنار نقلاً عن أحد علماء مصر المعروفين والذي جمع وجوه اشتراك اللغات الهيروغلوفية والعربية وألف كتاب المعجم الكبير في هذا المجال نقل: أنّه وجد بعد التحقيق أنّ لفظة=

إنّهم لم يكونوا غافلين واقعاً، لأنّ موسى عليه السلام ذكّرهم مراراً وبالوسائل المختلفة المتعددة ونبههم، بل إنّهم تصرّفوا عملياً كما يفعل الغافلون، فلم يعتنوا بآيات الله أبداً.

ولا شكّ أن المقصود من الانتقام الإلهي ليس هو أنّ الله كان يقوم بردّ الفعل في مقابل أعمالهم، كما يفعل الأشخاص الحاقدون الذين ينطلقون في ردود أفعالهم من مواقع الحقد والانتقام، بل المقصود من الانتقام الإلهي هو أن الجماعة الفاسدة وغير القابلة للإصلاح لا يحق لها الحياة في نظام الخلق، ولابدّ أن تمحى من صفحة الوجود.

والانتقام في اللغة العربية - كما أسلفنا - يعني العقوبة والمجازاة، لا ما هو شائع في عرف الناس اليوم.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

التّفسير

قوم فرعون والمصير المؤلم

بعد هلاك قوم فرعون، وتحطّم قدرتهم، وزوال شوكتهم، ورث بنو إسرائيل الذين طال رزوحهم في أغلال الأسر والعبودية أراضي الفراعنة الشاسعة والآية الحاضرة تشير إلى هذا الأمر ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾.

و«الإرث» كما أسلفنا يعني في اللغة المال الذي ينتقل من شخص إلى آخر من دون تجارة ومعاملة، سواء كان المنتقَل منه حياً أو ميّتاً.

و﴿يُسْتَضْعَفُونَ﴾ مشتقّة من مادة «الاستضعاف» وتطابق كلمة «الاستعمار» التي تستعمل اليوم في عصرنا الحاضر، ومفهومها هو أن يقوم جماعة بإضعاف جماعة أُخرى حتى

= اليم كانت في اللغة المصرية تعني البحر، وعلى هذا الأساس حيث إنّ هذه القصة تتعلق بمصر لهذا استفاد القرآن من لغات المصريين في بيان هذه الحادثة.

يمكن للجماعة الأُولى أن تستغل الجماعة الضعيفة في سبيل مآربها ومصالحها، غاية ما هنالك أنّ هناك تفاوتاً بين هذه اللفظة ولفظة الاستعمار، وهو: أن الاستعمار ظاهره تعمير الأرض، وباطنه الإبادة والتدمير، ولكن الاستضعاف ظاهره وباطنه واحد.

والتعبير بـ ﴿كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ إشارة إلى الفرعونيين كانوا يستبقون بني إسرائيل في حالة ضعف دائمية: ضعف فكري، وضعف أخلاقي، وضعف اقتصادي، ومن جميع الجهات وفي جميع النواحي.

والتعبير بـ ﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ إشارة إلى الأراضي الواسعة العريضة التي كانت تحت تصرّف الفرعونيين، لأنّ الأراضي الصغيرة ليس لها مشارق ومغارب مختلفة، وبعبارة أُخرى «ليس لها آفاق متعددة» ولكن الأراضي الواسعة جدّاً من الطبيعي أن يكون مشارق ومغارب بسبب كروية الأرض فيكون التعبير بمشارق الأرض ومغاربها كناية عن أراضي الفرعونيين الواسعة العريضة جدّاً.

وجملة ﴿بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ إشارة إلى الخصب العظيم الذي كانت تتمتع به هذه المنطقة - يعني مصر والشام - التي كانت تعدّ آنذاك، وفي هذا الزمان أيضاً، من مناطق العالم الخصبة الكثيرة الخيرات، حتى أنّ بعض المفسّرين كتب: إن بلاد الفراعنة في ذلك العصر كانت واسعة جدّاً بحيث كانت تشمل بلاد الشام أيضاً.

وعلى هذا الأساس لم يكن المقصود من العبارة هو الحكومة على كل الكرة الأرضية، لأنّ هذا يخالف التاريخ حتماً، بل المقصود هو حكومة بني إسرائيل على كل أراضي الفراعنة وبلادهم.

ثمّ يقول: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أي تحقق الوعد الإلهي لبني إسرائيل بانتصارهم على الفرعونيين، بسبب صبرهم وثباتهم.

وهذا هو الوعد الذي أُشير إليه في الآيات السابقة (الآية ١٢٨ و١٢٩ من نفس هذه السورة).

صحيح أنَّ هذه الآية تحدّثت عن بني إسرائيل ونتيجة ثباتهم في وجه الفرعونيين فقط، إلّا أنّه يُستفاد من الآيات القرآنية الأُخرى أنّ هذا الموضوع لا يختص بقوم أو شعب خاص، بل إن كان شعب مستضعف نهض وحاول تخليص نفسه من مخالب الأسر والاستعمار، استعان في هذا السبيل بالثبات والاستقامة، سوف ينتصر آخر المطاف ويحرر الأراضي التي احتلها الظلمة الجائرون.

ثمّ يضيف في آخر الآية: نحن الذين دمرنا قصور فرعون وقومه العظيمة، وأبنيتهم الجميلة الشامخة، وكذا بساتينهم ومزارعهم العظيمة ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾.

و«صنع» كما يقول «الراغب» في «المفردات» يعني الأعمال الجميلة، وقد وردت هذه اللفظة في الآية الحاضرة بمعنى الهندسة الجميلة الرائعة التي كان يستخدمها الفرعونيون في أبنيتهم.

و«ما يعرشون» في الأصل تعني الأشجار والبساتين التي تنصب بواسطة العروش والسقف، ولها جمال عظيم وروعة باهرة.

و«دمرنا» من مادة «التدمير» بمعنى الإهلاك والإبادة.

وهنا يطرح السؤال التالي وهو: كيف أُبيدت هذه القصور والبساتين، ولماذا؟

ونقول في الجواب: لا يبعد أن ذلك حدث بسبب زلازل وطوفانات جديدة وأمّا الضرورة التي قضت بهذا الفعل فهي أن جميع الفرعونيين لم يغرقوا في النيل، بل غَرق فرعون وجماعة من خواصّه وعسكره الذين كانوا يلاحقون موسى عليه السلام، ومن المسلّم أنّه لو بقيت تلك الثروات العظيمة والإمكانيات الاقتصادية الهائلة بيد من بقي من الفراعنة الذين كان عدد نفوسهم في شتى نواحي مصر كثيراً جداً، لاستعادوا بها شوكتهم، ولقدروا على تحطيم بني إسرائيل، أو إلحاق الأذى بهم على الأقل، أمّا تدمير الإمكانيات والوسائل فإنّ من شأنه أن يجردهم من أسباب الطغيان إلى الأبد.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾

التّفسير

الاقتراح على موسى بصنع الوثن

في هذه الآيات إشارة إلى جانب حساس آخر من قصّة بني إسرائيل التي بدأت في أعقاب الانتصار على الفرعونيين، وذلك هو مسألة توجه بني إسرائيل إلى الوثنية التي بحثت بداياتها في هذه الآيات، وجاءت نتيجتها النهائية بصورة مفصّلة في سورة طه من الآية (٨٦) إلى (٩٧)، وبصورة مختصرة في الآية (١٤٨) فما بعد من هذه السورة.

وفي الحقيقة فإنّه مع انتهاء قصة فرعون بدأت مشكلة موسى الداخلية الكبرى، يعني مشكلته مع جهلة بني إسرائيل، والأشخاص المتعنتين والمعاندين. وكانت هذه المشكلة أشدّ على موسى عليه السلام وأثقل بمراتب كثيرة - كما سيتّضح - من قضية مواجهته لفرعون والملأ وهذه هي خاصية المشاكل والمجابهات الداخلية.

في الآية الأُولى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ أي النيل العظيم.

ولكن في مسيرهم مرّوا على قوم يعبدون الأصنام: ﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ﴾.

و«عاكف» مشتقّة من مادة «العكوف» بمعنى التوجه إلى شيء وملازمته المقارنة لإحترامه وتبجيله.

فتأثّر الجهلة الغافلون بهذا المشهد بشدّة إلى درجة قالوا لموسى من دون إبطاء: يا موسى اتّخذ لنا معبوداً على غرار معبودات هؤلاء: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾.

فانزعج موسى عليه السلام من هذا الاقتراح الأحمق بشدّة، وقال لهم: ﴿قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾.

بحوث

وهنا لابدّ من الانتباه إلى نقاط:

١ - الجهل منشأ الوثنية

يستفاد من هذه الآية بوضوح أنّ منشأ الوثنية هو جهل البشر بالله تعالى من جانب، وعدم معرفته بذاته المقدّسة وأنّه لا يتصور له شبيه أو نظير أو مثيل.

ومن جانب آخر جهل الإنسان بالعلل الأصلية لحوادث العالم الذي يتسبب أحياناً في

أن ينسب الحوادث إلى سلسلة من العلل الخرافية والخيالية ومنها الأصنام.

ومن جانب ثالث جهل الإنسان بما وراء الطبيعة، وقصور فكره إلى درجة أنّه لا يرى ولا يؤمن إلّا بالقضايا الحسية.

إن هذه الجهالات تضافرت وتعاضدت، وصارت على مدار التاريخ منشأً للوثنية وعبادة الأصنام، وإلّا فكيف يمكن لإنسان واعٍ فاهم عارف بالله وصفاته، عارف بعلل الحوادث، عارف بعالم الطبيعة وعالم بما بعد الطبيعة أن يأخذ قطعة من الصخر منفصلة من الجبل مثلاً، فيستعمل قسماً منها في بناء بيته، أو صنع سلالم منزله، ويتخذ قسماً آخر معبوداً يسجد أمامه، ويسلّم مقدراته بيده.

والجدير بالذكر أنّنا نقرأ في كلام موسى عليه السلام في الآية الحاضرة كيف يقول لهم: أنتم غارقون في الجهل دائماً، (لأنّ تجهلون فعل مضارع ويدل غالباً على الاستمرارية) وبخاصّة أن متعلق الجهل لم يبيّن في الآية، وهذا يدل على عمومية المجهول وشموليته.

والأغرب من كل ذلك أنّ بني إسرائيل بقولهم ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾ أظهروا أن من الممكن أن يصير الشيء التافه ثميناً - بمجرّد اختيارهم وجعلهم ووضع اسم الصنم والمعبود عليه - وتوجب عبادته التقرب إلى الله، وعدم عبادته البعد عنه تعالى، وتكون عبادته منشأً للخير والبركة، واحتقاره منشأً للضرر والخسارة، وهذه هي نهاية الجهل والغفلة.

صحيح أنّ مقصود بني إسرائيل لم يكن إيجاد معبود يكون خالق العالم، بل كان مقصودهم هو: اجعل لنا معبوداً نتقرب بعبادته إلى الله، ويكون مصدراً للخير والبركة، ولكن هل يمكن أن يصير شيء فاقداً للروح والتأثير مصدراً للخيرات والتأثيرات بمجرّد تسمّيته معبوداً وإلهاً؟ هل الدافع لذلك العمل شيء سوى الجهل والخرافة، والخيال الواهي والتصور الخاوي؟![١].

٢ - أرضية الوثنية عند بني إسرائيل

لا شكّ أنّه كانت لدى بني إسرائيل - قبل مشاهدة هذا الفريق من الوثنيين - أرضية فكرية مساعدة لهذا الموضوع، بسبب معاشرتهم الدائمة للمصريين الوثنيين، ولكن مشاهدة هذا المشهد الجديد كان بمثابة شرارة كشفت عن دفائن جبلّتهم، وعلى كل حال فإنّ هذه القضية تكشف لنا أنّ الإنسان إلى أيّ مدى يتأثر بعامل البيئة، فإنّ البيئة هي التي تستطيع أن تسوق الإنسان إلى الله، كما أنّ البيئة هي التي تسوقه إلى الوثنية، وأنّ البيئة

---

(١) مرّت أبحاث أُخرى حول تاريخ الوثنية في تفسير الآية (٢٥٨) سورة البقرة.

يمكن أن تصير سبباً لأنواع المفاسد والشقاء، أو منشأ للصلاح والطهر. (وإن كان انتخاب الإنسان نفسه هو العامل النهائي) ولهذا اهتم الإسلام بإصلاح البيئة اهتماماً بالغاً.

٣ - الكفر بالنعم في بني إسرائيل

الموضوع الآخر الذي يُستفاد من الآية بوضوح، أنّه كان بين بني إسرائيل أشخاص كثيرون ممن يكفرون النعمة ولا يشكرونها، فمع أنّهم رأوا كل تلك المعاجز التي أُتي بها موسى عليه السلام، ومع أنّهم تمتعوا بكل تلك المواهب الإلهيّة التي خصّهم الله بها، فإنّه لم ينقضِ عن هلاك عدوهم فرعون ونجاتهم من الغرق برهة من الزمن حتى نسوا كل هذه الأُمور دفعة واحدة، وطلبوا من موسى أن يصنع لهم أصناماً ليعبدوها!!

ونقرأ في نهج البلاغة أنّ أحد اليهود اعترض على المسلمين عند أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً:

ما دفنتم نبيّكم حتى اختلفتم فيه، فردّ عليه الإمام صلوات الله عليه قائلاً: «إنّما اختلفنا عنه لا فيه، ولكنّكم ما جفّت أرجلكم من البحر حتى قلتم لنبيّكم اجعَلْ لنا إلهاً كما لهم آلهة، فقال إنّكم قوم تجهلون»[1].

أي أنّنا اختلفنا في الأحاديث والأوامر التي وصلت إلينا عن نبيّنا، لا أنّنا اختلفنا حول النّبي ونبوته، (فكيف بألوهية الله) ولكنّكم ما إن خرجتم من مياه البحر إلّا واقترحتم على نبيّكم أن اجعل لنا آلهة كما للوثنيين آلهة، وقال موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

وفي **الآية اللاحقة** نقرأ أنّ موسى عليه السلام - لتكميل حديثه لبني إسرائيل - قال: إنّ هذه الجماعة الوثنية التي ترونها سينتهي أمرها إلى الهلاك، وإن عملهم هذا باطل لا أساس له ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

فعمل هذه الجماعة باطل، وجهودهم غير منتجة، كما أن مصير مثل هؤلاء القوم وكل قوم وثنيين ومشركين هو الهلاك والدمار. (لأنّ «متبّر» مشتّقة من التبار أي الهلاك).

ثمّ تضيف الآية التوكيد: إنّ موسى عليه السلام: ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

---

(١) نهج البلاغة، كلمات القصار، الكلمة ٣١٧.

يعني إذا كان الدافع إلى عبادة الله هو حسّ الشكر، فجميع النِّعم التي ترفلون فيها هي من الله، وإذا كان الدافع للعبادة والعبودية كون هذه العبادة منشأ لأثر ما، فإنّ ذلك أيضاً يرتبط بالله سبحانه، وعلى هذا الأساس مهما يكن الدافع، فليس سوى الله القادر المنّان يصلح للعبادة ومستحقاً لها.

وفي **الآية اللاحقة** يذكر القرآن الكريم إحدى النِّعم الإلهيّة الكبرى التي وهبها الله سبحانه لبني إسرائيل، ليبعث بالالتفات إلى هذه النعمة الكبرى حسّ الشكر فيهم، وليعلموا أنّ اللائق بالخضوع والعبادة هو الذات الإلهيّة المقدسة فحسب، وليس هناك أي دليل يسوّغ لهم الخضوع أمام أصنام لا تضر ولا تنفع شيئاً أبداً.

يقول في البداية: تذكّروا يوم أنجيناكم من مخالب آل فرعون الذين كانوا يعذبونكم دائماً ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

و«يسومون» مشتقّة من مادة «سوم» وتعني في الأصل - كما قال «الراغب» في «المفردات» - الذهاب في طلب شيء، كما يُستفاد من القاموس تضمنه لمعنى الاستمرار والمضّي أيضاً، وعلى هذا يكون معنى ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أنّهم كانوا يعذبونكم بتعذيبات قاسية باستمرار.

ثمّ تمشياً مع أسلوب القرآن في بيان الأُمور بتفصيل بعد إجمال شرح هذا العذاب المستمر، وهو: قتل الأبناء، واستبقاء النساء للخدمة والاسترقاق ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾.

وقد كان في هذا اختبار عظيم من الله لكم ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

وسياق الآية يكشف عن أن هذه العبارة قالها موسى عليه السلام عن الله لنبي إسرائيل عندما رغبوا بعد عبورهم بحر النيل في الوثنية وعبادة الأصنام.

صحيح أنّ بعض المفسّرين احتمل أن يكون المخاطبون في هذه الآية هم يهود عصر الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، لأنّ التّفسير الأوّل يحتاج إلى تقدير شيء بأن يقال: إنّ الآية كانت في الأصل هكذا: قال موسى: قال ربّكم. . . وهذا خلاف الظاهر.

ولكن مع الالتفات إلى أنّه لو كان المخاطبون في هذه الآية هم يهود عصر النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لانقطع ارتباط الآية بما يسبقها وما يلحقها بصورة كاملة، وكانت هذه الآية كالجملة المعترضة، فيبدو للنظر أن التّفسير الأوّل أصح.

هذا ولابدّ - ضمناً - من الالتفات إلى أن نظير هذه الآية مرّ في سورة البقرة الآية (٤٩) مع فارق جداً بسيط، ولمزيد التوضيح راجع تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة.

﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾

التّفسير

الميعاد الكبير

في هذه الآية إشارة إلى مشهد من مشاهد حياة بني إسرائيل، ومشكلة موسى عليه السلام معهم، وذلك هو قصّة ذهاب موسى إلى ميقات ربّه، وتلقي أحكام التّوراة عن طريق الوحي وكلامه مع الله، واصطحاب جماعة من كبار بني إسرائيل وشخصياتهم إلى الميقات لمشاهدة هذه الحادثة وإثبات أنّ الله لا يمكن أن يدرَك بالأبصار، والتي ذكرت بعد قصّة عبادة بني إسرائيل للعجل وانحرافهم عن مسير التوحيد، وضجّة السامريّ العجيبة.

يقول تعالى أوّلاً: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾.

وكلمة «الميقات» مشتقّة من مادة «الوقت» بمعنى الموعد المضروب للقيام بعمل ما، ويطلق عادة على الزمان، ولكنّه قد يطلق على المكان الذي يجب أن يتمّ العمل فيه، مثل «ميقات الحج» يعني المكان الذي لا يجوز أن يجتازه أحد إلّا محرماً.

ثمّ ذكرت الآية أنّ موسى استخلف هارون وأمره بالإصلاح في قومه، وأن لا يتبع سبيل المفسدين: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

بحوث

وهنا عدّة نقاط ينبغي التوقف عندها والالتفات إليها:

١ - لماذا التفكيك بين الثلاثين والعشر؟

إنّ أوّل سؤال يطرح نفسه في مجال الآية الحاضرة، هو: لماذا لم يبيّن مقدار الميقات بلفظ واحد هو الأربعين، بل ذكر أنّه واعده ثلاثين ليلة ثمّ أتمّه بعشر، في حين

أنّه تعالى ذكر ذلك الموعد في لفظ واحد هو أربعين في الآية (١٥١) من سورة البقرة.

ذكر المفسّرون تفسيرات عديدة لهذا التفكيك، والذي يبدو أقرب إلى النظر وأكثر انسجاماً مع أحاديث أهل البيت عليهم السلام هو أنّه وإن كان الواقع هو أربعين يوماً، إلّا أنّه في الحقيقة وعد الله موسى في البداية ثلاثين يوماً ثمّ مدّده عشرة أيّام أُخرى، اختباراً لبني إسرائيل كي يُعرف المنافقون في صفوف بني إسرائيل[1].

فقد روي عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام أنّه قال: إنّ موسى عليه السلام لما خرج وافداً إلى ربّه واعدهم ثلاثين يوماً، فلمّا زاده الله على الثلاثين عشراً قال قومه، قد أخلفنا موسى فصنعوا ما صنعوا (من عبادة العجل)[2].

وأمّا أنّ هذه الأيّام الأربعين صادفت أيّام أي شهر من الشهور الإسلامية، فيستفاد من بعض الرّوايات أنّها بدأت من أوّل شهر ذي القعدة وختمت باليوم العاشر من شهر ذي الحجة (عيد الأضحى)، وقد جاء التعبير بلفظ أربعين ليلة في القرآن الكريم لا أربعين يوماً، فالظاهر أنّه لأجل أنّ مناجاة موسى لربّه كانت تتمّ غالباً في الليالي.

٢ - كيف نصب موسى عليه السلام هارون قائداً وإماماً؟

السؤال الثّاني الذي يطرح نفسه هنا، هو: إنّ هارون كان نبيّاً، فكيف نصبه موسى عليه السلام خليفة له وإماماً وقائد لبني إسرائيل؟

والجواب على هذا السؤال يتّضح بعد الالتفات إلى أنّ مقام النّبوة شيء ومقام الإمامة شيء آخر، ولقد كان هارون نبيّاً، ولكن لم يكن قد أنيط به مقام الإمامة العامّة لبني إسرائيل، بل كان مقام الإمامة ومنصب القيادة العامّة خاصاً بموسى عليه السلام، ولكنّه عندما قصد أن يفارق قومه إلى ميقات ربّه اختار هارون إماماً وقائداً.

٣ - لماذا طلب موسى عليه السلام من أخيه الإصلاح وعدم اتّباع المفسدين؟

السؤال الثّالث الذي يطرح نفسه هنا، هو: لماذا قال موسى عليه السلام لأخيه: أصلح ولا تتبع سبيل المفسدين، مع أن هارون نبي معصوم من المستحيل أن يتبع طريق المفسدين وينهج نهجهم الفاسد؟

نقول في الجواب: إنّ هذا - في الحقيقة - نوع من التوكيد لإلفات نظر أخيه إلى

(١) بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٩٥.

(٢) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٣٣؛ تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٨٠.

أهمّية مكانته في بني إسرائيل. ولعله أراد بهذا الموضوع أن يوضح لبني إسرائيل ويفهمهم أنّ عليهم أن يمتثلوا لتعاليم هارون ونصائحه ومواعظه الحكيمة، ولا يستثقلوا أوامره ونواهيه، ولا يعتبروا تلك الأوامر والنواهي وكذلك قيادة هارون لهم دليلاً على قِصَرِهم وصغرهم... بل يفعلون كما يفعل هارون حيث كان رغم منزلته البارزة ومقام نبوّته تابعاً ومطيعاً لنصائح موسى عليه السلام.

٤ - ميقات واحد أو مواقيت متعددة؟

السؤال الرّابع الذي يطرح نفسه هنا، هو: هل ذهب موسى إلى ميقات ربّه مرّة واحدة، وهي هذه الأربعون يوماً، وتلقى أحكام التوراة وشريعته السماوية عن طريق الوحي في هذه الأربعين يوماً، كما اصطحب معه جماعة من شخصيات بني إسرائيل معه كممثلين عن قومه، ليشهدوا نزول أحكام التوراة عليه، وليفهمهم أن الله لا يدرك بالأبصار أبداً، في هذه الأربعين يوماً نفسها؟

أم أنّه كانت له مع الله أربعينات متعددة، إحداها لأخذ الأحكام، وفي الأُخرى اصطحب كبار قومه، وله - احتمالاً - أربعون ثالثة لمقاصد ومآرب أُخرى غير هذه، (كما يُستفاد من سفر الخروج من التوراة الفعلية الفصل ١٩ إلى ٢٤).

وهنا أيضاً وقع كلام بين المفسّرين، ولكن الذي يبدو أنّه أقرب إلى الذهن - بملاحظة الآية المبحوثة والآيات السابقة عليها واللاحقة لها - أن جميع هذه الأُمور ترتبط بحادثة واحدة لا متعددة، لأنّه بغض النظر عن أن عبارة **الآية اللاحقة** ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ تناسب تماماً وحدة هاتين القصّتين، فإنّ الآية (١٤٥) من نفس هذه السورة تفيد - بجلاء - أن قصّة ألواح التوراة، واستلام أحكام هذه الشريعة قد تمّت جميعُها في نفس هذا السفر أيضاً.

٥ - حديث المنزلة

أشار كثير من المفسّرين الشيعة والسُّنّة - في ذيل الآية المبحوثة - إلى حديث «المنزلة» المعروف، بفارق واحد هو: أنّ الشيعة اعتبروا هذا الحديث من الأدلة الحيّة والصريحة على خلافة علي عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مباشرة وبلا فصل.

ولكي يتّضح هذا البحث ندرج هنا أوّلاً أسانيد ونص هذا الحديث باختصار، ثمّ نبحث في دلالته، ثمّ نتكلم حول الحملات التي وجهها بعض المفسّرين إلى الشيعة.

أسانيد حديث المنزلة

١ - روى جمع كبير من صحابة النّبي ﷺ حول غزوة تبوك: أنّ رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك واستخلف علياً فقال: أتخلفني في الصبيان والنساء؟ قال: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه ليس نبيّ بعدي».

وهذا النص ورد في أوثق الكتب الحديثية لدى أهل السنّة، يعني صحيح البخاري وعن سعد بن أبي وقاص(١).

وقد روي هذا الحديث - أيضاً - في صحيح مسلم الذي يعدّ من المصادر الرئيسية عن أهل السُّنّة، في باب «فضائل الصحابة» عن سعد أن النّبي ﷺ قال لعلي عليه السلام: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي»(٢).

في هذا الحديث الذي نقله صحيح مسلم أعلن عن الموضوع بصورة كليّة، ولم يرد فيه ذكر عن غزوة تبوك.

وهكذا نقل حديث رسول الله ﷺ هذا في سياق ذكر غزوة تبوك بعد ذكر الحديث بصورة كلّية، بصورة مستقلة كما جاء في صحيح البخاري(٣).

وقد ورد عين هذا الموضوع في سنن ابن ماجه أيضاً(٤).

وقد أضيف في سنن الترمذي مطلب آخر، وهو أنّ معاوية قال لسعد ذات يوم: ما يمنعك أن تسبَّ أبا تراب؟! قال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهنَّ رسول الله ﷺ فلن أسبَّه، لئن تكون لي واحدة منهن أحبّ إليّ من حُمْر النِّعَم. ثمّ عدد الأُمور الثلاثة فكان أحدها ما قاله رسول الله لعلي في تبوك وهو قوله: «أمّا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبوة بعدي»(٥).

وقد أُشير إلى هذا الحديث في عشرة موارد من مسند أحمد بن حنبل، تارة ذكرت فيه غزوة تبوك، وتارة من دون ذكر غزوة تبوك بل بصورة كلّية(٦).

---

(١) صحيح البخاري، ج ٦، ص ٣، طبعة دار إحياء التراث العربي. صحيح البخاري، ج ٥، ص ١٢٩.
(٢) صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٨٧، طبعة دار إحياء التراث العربي.
(٣) المصدر السابق.
(٤) سنن ابن ماجه، ج ١، ص ٤٣ و ٤٥، طبعة دار إحياء الكتب العربية.
(٥) سنن الترمذي، ج ٥، ص ٦٣٨، طبعة المكتبة الإسلامية لصاحبها الحاج رياض الشيخ.
(٦) مسند أحمد بن حنبل، ج ١، ص ١٧٣ و١٧٥ و١٧٧ و١٧٩ و١٨٣ و١٨٥ و٢٣١، وج ٦، ص ٣٦٩ و٤٣٨.

وقد روي في أحد هذه المواضع أنّه أتى ابن عباس - بينما هو جالس - تسعة رهط، فقالوا: يابن عباس، إمّا أن تقوم معنا، وإمّا أن تخلونا هؤلاء، فقال ابن عباس: بل أقوم معكم (إلى أن قال) وخرج بالناس (أي النّبي ﷺ) في غزوة تبوك ثمّ نقل كلام رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام وأضاف: «إنّه لا ينبغي أن أذهب إلّا وأنت خليفتي»[1].

وجاء نفس هذا الحديث في «خصائص النسائي»[2] وهكذا في مستدرك الحاكم[3]، وفي تاريخ الخلفاء للسيوطي[4] وفي الصواعق المحرقة لابن حجر[5] وسيرة ابن هشام[6] والسيرة الحلبية[7] وكتب كثيرة أُخرى.

ونحن نعلم أن هذه الكتب من الكتب المعروفة، والمصادر الأُولى لأهل السُّنة.

والجدير بالذكر أن هذا الحديث لم يروه «سعد بن أبي وقاص» عن النّبي ﷺ وحده، بل رواه - أيضاً - مجموعة كبيرة من الصحابة الذين يتجاوز عددهم عشرين شخصاً منهم: «جابر بن عبد الله» و«أبو سعيد الخدري» و«أسماء بنت عميس» و«ابن عباس» و«أم سلمة» و«عبد الله بن مسعود» و«أنس بن مالك» و«زيد بن أرقم» و«أبو أيوب» والأجدر بالذكر أنّ هذا الحديث رواه عن النّبي ﷺ: «معاوية بن أبي سفيان» و«عمر بن الخطاب» أيضاً.

وينقل «محب الدين الطبري» في «ذخائر العقبى» أنّه جاء رجل إلى معاوية فسأله عن مسألة فقال: سل عنها علي بن أبي طالب فهو أعلم. قال: يا أمير المؤمنين (ويقصد به معاوية) جوابك فيها أحبّ إليّ من جواب عليّ.

قال: بئسما قلتَ، لقد كرهت رجلاً كان رسول الله ﷺ يغره بالعلم غراً، وقد قال له: أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي، وكان عمر إذا أشكل عليه أخذ منه[8].

وروى أبو بكر البغدادي في «تأريخ بغداد» بسنده عن عمر بن الخطّاب أنّه رأى رجلاً

---

(١) مسند أحمد، ج ١، ص ٢٣٠.
(٢) خصائص النسائي، ص ٤ و١٤.
(٣) مستدرك الحاكم، ج ٣، ص ١٠٨ و١٠٩.
(٤) تاريخ الخلفاء، ج ١، ص ٦٥.
(٥) الصواعق المحرقة، ص ١٧٧.
(٦) سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ١٦٣ طبعة مصر.
(٧) السيرة الحلبية، ج ٣، ص ١٥١ طبعة مصر.
(٨) ذخائر العقبى، ص ٧٩، طبعة مكتبة القدس، الصواعق المحرقة، ص ١٧٧، طبعة مكتبة القاهرة.

يسبّ عليّاً عليه السلام فقال: إنّي أظنّك منافقاً، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إنّما عليّ منّي بمنزلة هارون من موسى، إلّا أنّه لا نبي بعدي»(١).

حديث المنزلة في سبعة مواضع

النقطة الأُخرى، إنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم - وخلافاً لما يتصوّره البعض - لم يقل هذا البحث في علي عليه السلام في غزوة تبوك فقط، بل قال هذه العبارة في عدّة مواضع منها:

١ - في المؤاخاة الأُولى: يعني في المرّة الأُولى التي آخى فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين المهاجرين وإختار عليّاً عليه السلام في هذه المؤاخاة لنفسه وقال: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي»(٢).

٢ - في يوم المؤاخاة الثّانية: وكانت في المدينة بعد الهجرة بخمسة أشهر، حيث آخى بين المهاجرين والأنصار، واصطفى لنفسه منهم عليّاً واتخذه من دونهم أخاه، وقال له: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي وأنت أخي ووارثي»(٣).

٣ - أم سليم - التي كانت على جانب من الفضل والعقل، وكانت تعدّ من أهل السوابق، وهي من الدعاة إلى الإسلام، واستشهد أبوها وأخوها بين يدي النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وفارقت زوجها لأنّه أبى أن يعتنق الإسلام، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم يزورها في بيتها بين الحين والآخر ويسلّيها - تروي أم سليم هذه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لها ذات يوم: «إنّ عليّاً لحمه من لحمي ودمه من دمي، وهو منّي بمنزلة هارون من موسى»(٤).

٤ - قال ابن عباس: سمعت عمر بن الخطاب يقول: كُفّوا عن ذكر علي بن أبي طالب فقد رأيتُ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه خصالاً لئن تكون لي واحدة منهن في آل الخطّاب أحبُّ إلي ممّا طلعت عليه الشمس، كنتُ أنا وأبوبكر وأبو عبيدة في نفرٍ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فانتهينا إلى باب أمّ سلمة وعلي قائم على الباب، فقلنا: أردنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يخرج إليكم، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسرنا إليه، فأتكأ على علي

---

(١) تاريخ بغداد، ج ٧، ص ٣٠٦ و ٤٥٢ طبعة السعادة.

(٢) منتخب كنز العمال، (في حاشية مسند أحمد) مسند أحمد، ج ٥، ص ٣١. كنز العمال، الحديث ٩١٨، ج ٥، ص ٤٠، وج ٦، ص ٣٩٠.

(٣) المصدر السابق.

(٤) كنز العمال، ج ٦، ص ١٦٤.

ابن أبي طالب ثمّ ضرب بيده منكبه ثمّ قال: «أنت (يا علي) أوّل المؤمنين إيماناً، وأوّلهم إسلاماً، وأنت منّي بمنزلة هارون من موسى»[1].

٥ - روى النسائي في كتاب «الخصائص» أنّ علياً وزيداً وجعفر اختصموا في من يكفل ابنة حمزة، وكان كل واحد منهم يريد أن يكفلها هو دون غيره فقال رسول الله ﷺ لعلي: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى»[2].

٦ - روى جابر بن عبد الله أنّه عندما أمر رسول الله ﷺ بسدّ جميع أبواب المنازل التي كانت مشرعة إلى المسجد إلّا باب بيت علي عليه السلام، قال رسول الله ﷺ: «إنّه يحلّ لك في المسجد ما يحلّ لي، وإنّك بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبي بعدي»[3].

هذه الموارد الستّة هي غير غزوة تبوك، أخذناها برمتها من المصادر المعروفة لأهل السنّة، وإلّا فإن هناك في الرّوايات المرويّة عن طريق الشيعة موارد أُخرى قال فيها رسول الله ﷺ هذه العبارة في شأن علي عليه السلام أيضاً.

من مجموع ذلك يُستفاد - بوضوح وجلاء - أنّ حديث المنزلة لم يكن مختصاً بغزوة تبوك، بل هو أمر عام ودائم في شأن علي عليه السلام.

ومن هنا يتّضح أيضاً - أنّ ما تصوره بعض علماء السُنّة مثل «الآمدي» من أنّ هذا الحديث يتكفل حكماً خاصّاً في مجال خلافة علي عليه السلام وأنّه يرتبط بظرف غزوة تبوك خاصّة، ولا يرتبط بغيره من الظروف والأوقات، تصوّر باطل أساساً، لأنّ النّبي ﷺ كرّر هذه العبارة في مناسبات متنوعة ممّا يفيد أنّه كان حكماً عاماً.

محتوى حديث المنزلة

لو درسنا - بموضوعية وتجرّد - هذا الحديث، وتجنَّبْنا الأحكام المسبَّقة والتحججات الناشئة من العصبية، لاستفدنا من هذا الحديث أنّ علياً عليه السلام كان له - بموجب هذا الحديث - جميع المنازل التي كانت لهارون في بني إسرائيل - إلّا النّبوة - لأنّ لفظ الحديث عام، والاستثناء (إلّا أنّه لا نبيّ بعدي) يؤكّد هو الآخر هذه العموميّة، ولا يوجد أيّ قيد أو شرط في هذا الحديث يخصصه ويقيّده.

(١) كنز العمال، ج ٦، ص ٣٩٥. (٢) خصائص النسائي، ص ١٩.

(٣) ينابيع المودة، آخر باب ١٧، ص ٨٨ الطبعة الثّانية دار الكتب العراقية.

وعلى هذا الأساس يمكن أن يُستفاد من هذا الحديث الأُمور التالية:

١ - إنّ الإمام علياً عليه السلام أفضل الأئمّة بعد النّبي صلى الله عليه وآله وسلم كما كان لهارون مثل هذا المقام.

٢ - إنّ علياً وزير النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ومعاونه الخاص وعضده، وشريكه في قيادته، لأنّ القرآن أثبت جميع هذه المناصب لهارون عندما يقول حاكياً عن موسى قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾(١).

٣ - إنّه كان لعلي عليه السلام - مضافاً إلى الأخوّة الإسلامية العامّة مقام الأخوّة الخاصّة والمعنوية للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم.

٤ - إنّ علياً عليه السلام كان خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومع وجوده لم يكن أيّ شخص آخر يصلح لهذا المنصب.

أسئلة حول حديث المنزلة

لقد أورد بعض المتعصبين إشكالات واعتراضات على هذا الحديث والتمسك به لإثبات خلافة علي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلا فصل.

بعض الإشكالات والاعتراضات واهية جداً إلى درجة لا تصلح للطرح على بساط المناقشة، بل لا يملك المرء عند السماع بها إلّا أن يتأسف على حال البعض كيف صدّتهم الأحكام المسبقة غير المدروسة عن قبول الحقائق الواضحة؟

أمّا البعض الآخر من الإشكالات القابلة للمناقشة والدراسة فنطرحها على بساط البحث تكميلاً لهذه الدراسة:

الإشكال الأوّل: إن هذا الحديث يبيّن - فقط - حكماً خاصاً محدوداً، لأنّه ورد في غزوة تبوك، وذلك عندما انزعج علي عليه السلام من استبقائه في المدينة بين النساء والصبيان، فسلاّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهذه العبارة.

وعلى هذا الأساس كان المقصود هو: إنّك وحدك الحاكم والقائد لهذه النسوة والصبيان دون غيرك.

وقد اتضح الجواب على هذا الإشكال من الأبحاث السابقة - بجلاء - وتبيّن أنّه - على خلاف تصور المعترضين - لم يرد هذا الحديث في واقعة واحدة، ولم يصدر في

---

(١) سورة طه، الآيات: ٢٩ - ٣٢.

واقعة تبوك فقط، بل صدر في موارد عديدة على أساس كونه يتكفل حكماً كليّاً، وقد أشرنا إلى سبعة موارد ومواضع منها مع ذكر أسانيدها من مؤلفات علماء أهل السُّنة.

هذا مضافاً إلى أنّ بقاء عليّ عليه السلام في المدينة لم يكن أمراً بسيطاً يهدف المحافظة على النساء والصبيان فقط، بل لو كان الهدف هو هذا، لتيسّر للآخرين القيام به، وإنّ النّبي لم يكن ليترك بطل جيشه البارز في المدينة لهدف صغير، وهو يتوجه إلى قتال امبراطورية كبرى (هي إمبراطورية الروم الشرقية).

إنّ من الواضح أنّ الهدف كان هو منع أعداء الرسالة الكثيرين الساكنين في أطراف المدينة والمنافقين القاطنين في نفس المدينة، الذين كانوا يفكرون في استغلال غيبة النّبي الطويلة لاجتياح المدينة قاعدة الإسلام، ولهذا عمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن يخلف في غيبته شخصيّةً قويّةً يمكنه أن يحفظ هذا المركز الحساس، ولم تكن هذه الشخصية سوى علي عليه السلام.

الإشكال الثّاني: نحن نعلم - كما اشتهر في كتب التاريخ أيضاً - أنّ هارون توفي في عصر موسى عليه السلام نفسه، ولهذا لا يُثبت التشبيه بهارون أنّ عليّاً عليه السلام خليفة رسول الله بعد وفاته.

ولعل هذا هو أهم إشكال أورد على هذا الحديث والتمسك به، ولكن جملة «إلاّ أنّه لا نبي بعدي» تجيب على هذا الإشكال بوضوح، لأنّه إذا كان كلام النّبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي يقول: أنت منّي بمنزلة هارون من موسى، خاصاً بزمان حياة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم لما كانت هناك ضرورة إلى جملة «إلاّ أنّه لا نبي بعدي» لأنّه إذا اختص هذا الكلام بزمان حياة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم لكان التحدث حول من يأتي بعده غير مناسب أبداً (إذ يكون لهذا الاستثناء - كما اصطلح في العربية - طابع الاستثناء المنقطع الذي هو خلاف الظاهر).

وعلى هذا الأساس يكشف وجود هذا الاستثناء - بجلاء - أنّ كلام النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ناظر إلى مرحلة ما بعد وفاته، غاية ما هنالك ولكي لا يلتبس الأمر، لا يعتبر أحدٌ عليّاً عليه السلام نبيّاً بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إنّ لك جميع هذه المنازل ولكنّك لن تكون نبيّاً بعدي.

فيكون مفهوم كلام النّبي صلى الله عليه وآله وسلم هو أن لك جميع ما لهارون من المناصب والمنازل، لا في حياتي فقط، بل إنّ هذه المنازل تظلّ مستمرة وباقية لك إلّا مقام النّبوة.

وبهذه الطريقة يتّضح أن تشبيه علي عليه السلام بهارون، إنّما هو من حيث المنازل

والمناصب، لا من حيث مدّة استمرار هذه المنازل والمناصب، ولو أنّ هارون كان يبقى حياً لكان يتمتع بمقام الخلافة لموسى ومقام النّبوة معاً.

ومع ملاحظة أنّ هارون كان له - حسب صريح القرآن - مقام الوزارة والمعاونة لموسى، وكذا مقام الشركة في أمر القيادة (تحت إشراف موسى) كما أنّه كان نبيّاً، تثبت جميع هذه المنازل لعلي عليه السلام إلّا النّبوة، حتى بعد وفاة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بشهادة عبارة (إلّا أنّه لا نبي بعدي).

الإشكال الثّالث: إنّ الاستدلال بهذا الحديث يستلزم أنّه كان لعلي عليه السلام منصب الولاية والقيادة حتى في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حين لا يمكن أن يكون هناك إمامان وقائدان في عصر واحد.

ولكن مع الالتفات إلى النقطة التالية يتّضح الجواب على هذا الإشكال أيضاً، وهي أنّ هارون كان له - من دون شكّ - مقام قيادة بني إسرائيل حتى في عصر موسى عليه السلام، ولكن لا بقيادة مستقلة، بل كان قائداً يقوم بممارسة وظائفه تحت إشراف موسى. وقد كان علي عليه السلام في زمان النّبي صلى الله عليه وآله وسلم معاوناً للنّبي في قيادة الأُمّة أيضاً، وعلى هذا الأساس يصير قائداً مستقلاً بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وعلى كل حال، فإنّ حديث المنزلة الذي هو من حيث الأسانيد من أقوى الأحاديث والرّوايات الإسلامية التي وردت في مؤلفات جميع الفرق الإسلامية بلا استثناء، إنّ هذا الحديث يوضح لأهل الإنصاف من حيث الدلالة أفضلية علي عليه السلام على الأُمّة جمعاء، وأيضاً خلافته المباشرة (وبلا فصل) بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولكن مع العجب العجاب أنّ البعض لم يكتف برفض دلالة الحديث على الخلافة، بل قال: إنّه لا يتضمّن ولا يثبت أدنى فضيلة لعليّ عليه السلام.. وهذا حقّاً أمر محيّر.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

التّفسير

المطالبة برؤية الله

في هذه الآيات والآيات اللاحقة يشير سبحانه إلى مشهد مثير آخر من مشاهد حياة بني إسرائيل، وذلك عندما طلب جماعة من بني إسرائيل من موسى عليه السلام - بإلحاح وإصرار - أن يَروا الله سبحانه، وأنّهم لن يؤمنوا به إذا لم يشاهدوه، فاختار موسى سبعين رجلاً من قومه واصطحبهم معه إلى ميقات ربّه، وهناك رفع طلبهم إلى الله سبحانه، فسمع جواباً أوضح لبني إسرائيل كل شيء في هذا الصعيد.

وقد جاء قسم من هذه القصّة في سورة البقرة: الآيتين (٥٥) و(٥٦)، وقسم آخر منها في سورة النساء الآية (١٥٣)، وقسم ثالث في الآيات المبحوثة هنا في الآية (١٥٥) من هذه السورة.

ففي الآيات الحاضرة يقول أوّلاً: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾.

ولكن سرعان ما سمع الجواب من جانب المقام الرّبوبي: كلا، لن تراني أبداً ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾(١).

فلمّا رأى موسى هذا المشهد الرهيب تملكه الرعب إلى درجة أنّه سقط على الأرض مغمًى عليه ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾.

وعندما أفاق قال: ربّاه سبحانك، أنبتُ إليك، وأنا أوّل من آمن بك ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

بحوث

وفي هذه الآية نقاط ينبغي التوقف عندها والالتفات إليها:

---

(١) «دك» في الأصل بمعنى سوّى الأرض، وعلى هذا فالمقصود من عبارة ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ هو أنّه حطم الجبال وسواها كالأرض وجاء في بعض الرّوايات أنّ الجبل تناثر أقساماً، سقط كلّ قسم منه في جانب أو غار في الأرض وتلاشى نهائياً.

١ - لماذا طلب موسى رؤية الله؟

إنّ أوّل سؤال يطرح نفسه هنا هو: كيف طلب موسى عليه السلام - وهو النّبي العظيم ومن أُولي العزم - رؤية الله وهو يعلم جيداً أن الله ليس بجسم، وليس له مكان، ولا هو قابل للمشاهدة والرؤية، والحال أن مثل هذا الطلب لا يليق حتى بالأفراد العاديّين من الناس؟

صحيح أنّ المفسّرين ذكروا أجوبة مختلفة على هذا السؤال، ولكن أوضح الأجوبة هو أن موسى عليه السلام طرح مطلب قومه، لأنّ جماعة من جَهَلة بني إسرائيل أصرّوا على أن يروا الله حتى يؤمنوا (والآية ١٥٣ من سورة النساء خير شاهد على هذا الأمر) وقد أمر موسى عليه السلام من جانب الله أن يطرح مطلب قومه هذا على الله سبحانه حتى يسمع الجميع الجواب الكافي، وقد صُرّح بهذا في رواية مرويّة عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في كتاب عيون أخبار الرضا أيضاً[1].

ومن القرائن الواضحة التي تؤيد هذا التّفسير ما نقرأه في الآية (١٥٥) من نفس هذه السورة، من أنّ موسى عليه السلام قال بعدما حدث ما حدث: «أتهلِكُنا بما فَعَل السفهاءُ منّا».

فيتّضح من هذه الجملة أنّ موسى عليه السلام لم يطلب لنفسه مثل هذا الطلب إطلاقاً، بل لعلّ الرجال السبعين الذين صعدوا معه إلى الميقات هم أيضاً لم يطلبوا مثل هذا الطلب غير المعقول وغير المنطقي، إنّهم كانوا مجرّد علماء، ومندوبين من جانب بني إسرائيل خرجوا مع موسى عليه السلام لينقلوا فيما بعد مشاهداتهم لجماعات الجهلة والغافلين الذين طلبوا رؤية الله سبحانه وتعالى ومشاهدته.

٢ - هل يمكن رؤية الله أساساً؟

نقرأ في الآية الحاضرة أن الله سبحانه قال لموسى عليه السلام: «انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني» فهل مفهوم هذا الكلام هو أن الله قابل للرؤية أساساً؟

الجواب هو أنّ هذا التعبير هو كناية عن استحالة مثل هذا الموضوع، مثل جملة ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ وحيث كان من المعلوم أنّ الجبل يستحيل أن يستقر في مكانه عند تجلّي الله له، لهذا ذكر هذا التعبير.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٦٤.

٣ - ما هو المراد من تجلّي الله؟

لقد وقع كلام كثير بين المفسّرين في هذا الصعيد، ولكن ما يبدو للنظر من مجموع الآيات أنّ الله أظهر إشعاعة من أحد مخلوقاته على الجبل (وتجلّي آثاره بمنزلة تجليه نفسه) ولكن ماذا كان ذلك المخلوق؟ هل كان إحدى الآيات الإلهيّة العظيمة التي بقيت مجهولة لنا إلى الآن، أو أنّه نموذج من قوة الذرَّة العظيمة، أو الأمواج الغامضة العظيمة التأثير والدفع، أو الصاعقة العظيمة الموحشة التي ضربت الجبل وأوجدت برقاً خاطفاً للأبصار وصوتاً مهيباً رهيباً وقوّة عظيمة جداً، بحيث حطّمت الجبل ودكّته دكّاً[1]؟!

وكأنّ الله تعالى أراد أن يُرِيَ - بهذا العمل - شيئين لموسى عليه السلام وبني إسرائيل:

الأوّل: أنّهم غير قادرين على رؤية ظاهرة جدّ صغيرة من الظواهر الكونية العظيمة، ومع ذلك كيف يطلبون رؤية الله الخالق؟

الثاني: كما أنّ هذه الآية الإلهيّة العظيمة مع أنّها مخلوق من المخلوقات لا أكثر، ليست قابلة للرؤية بذاتها، بل المرئي هو آثارها، أي الرجة العظيمة، والمسموع هو صوتها المهيب، أمّا أصل هذه الأشياء أي تلك الأمواج الغامضة أو القوة العظيمة فلا هي ترى بالعَين، ولا هي قابلة للإدراك بواسطة الحواس الأُخرى، ومع ذلك هل يستطيع أحد أن يشك في وجود مثل هذه الآية، ويقول: حيث إنّنا لا نرى ذاتها، بل ندرك فقط آثارها فلا يمكن أن نؤمن بها.

فإذا صح الحكم هذا حول مخلوق من المخلوقات، فكيف يصح أن يقال عن الله تعالى: بما أنّه غير قابل للرؤية، إذن لا يمكننا الإيمان به، مع أنّه ملأت آثاره كل مكان؟

وهناك احتمال آخر في تفسير هذه الآية وهو أنّ موسى عليه السلام طلب لنفسه هذا المطلب حقيقة، ولكن لم يكن مقصوده مشاهدته بالعين التي تستلزم جسمانيته تعالى، وتنافي نبوة موسى عليه السلام، بل المقصود هو نوع من الإدراك الباطني والمشاهدة الباطنية، نوع من الشهود الكامل الروحيّ والفكري، لأنّه كثيراً ما تستعمل الرؤية في هذا المعنى

---

(١) الصاعقة عبارة عن التبادل الكهربائي بين قطع الغيوم والكرة الأرضية، فالسحب ذات الكهربية الموجبة عندما تقترب إلى الأرض ذات الكهربية السلبية تندلع شرارة من بينهما يعني السطح المجاور من الكرة الأرضية، وهي خطرة مدمرة في الغالب، ولكن البرق والرعد ينشآن من التبادل الكهربائي بين قطعتين من السحاب أحدهما موجب، والآخر سلبي، وحيث إنّهما يحدثان في السماء لذلك لا يشكلان خطراً في العادة إلّا للطائرات. والسفن الفضائية.

مثلما نقول: «أنا أرى في نفسي قدرةً على القيام بهذا العمل» في حين أنّ القدرة ليست شيئاً قابلاً للرؤية، بل المقصود هو أنّني أجد هذه الحالة في نفسي بوضوح.

كان موسى عليه السلام يريد أن يصل إلى هذه المرحلة من الشهود والمعرفة، في حين أنّ الوصول إلى هذه المرحلة لم يكن ممكناً في الدنيا، وإن كان ممكناً في عالم الآخرة الذي هو عالم الشهود.

ولكن الله تعالى أجاب موسى عليه السلام قائلاً: إنّ مثل هذه الرؤية غير ممكنة لك، ولإثبات هذا المطلب تجلّى للجبل، فتحطّم الجبل وتلاشى، وبالتالي تاب موسى من هذا الطلب[1].

ولكن هذا التّفسير مخالف لظاهر الآية المبحوثة هنا، ويتطلب ارتكاب التجوّز من جهات عديدة[2] هذا مضافاً إلى أنّه ينافي بعض الرّوايات الواردة في تفسير الآية أيضاً، فالحق هو التّفسير الأول.

هذا بغض النظر عن أن طلب الشهود الباطني ليس أمراً سيئاً ليتوب منه موسى، فقد طلب إبراهيم من الله مثل هذا المطلب في مجال المعاد أيضاً ولبى الله طلبه.

ولو أن الجواب في مجال الشهود الباطني لله بالنفي لما كان دليلاً على المؤاخذة والعقاب.

٤ - ممَ تاب موسى عليه السلام؟

إنّ آخر سؤال يطرح نفسه هنا هو: أن موسى عليه السلام بعد أن أفاق قال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ في حين أنّه لم يرتكب إثماً أو معصية، لأن هذا الطلب كان من جانب بني إسرائيل، وكان طرحه بتكليف من الله، فهو أدى واجبه إذن، ثمّ إذا كان هذا الطلب لنفسه وكان مراده الشهود الباطني لم يُحسب هذا العمل إثماً؟؟

ولكن يمكن الجواب على هذا السؤال من جانبين:

---

(١) ملخص من تفسير الميزان، ج ٨، ص ٢٣٧ و ٢٤٩ إلى ٢٥٤.

(٢) فهو مخالف لمفهوم الرؤية، ولإطلاق جملة ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ وجملة ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾.

هذا بغض النظر عن أن طلب الشهود الباطني ليس أمراً سيئاً ليتوب منه موسى، فقد طلب إبراهيم من الله مثل هذا المطلب في مجال المعاد أيضاً ولبى الله طلبه. ولو أن الجواب في مجال الشهود الباطني لله بالنفي لما كان دليلاً على المؤاخذة والعقاب.

الأوّل: أن موسى طلب مثل هذا الطلب بالنيابة عن بني إسرائيل، ومع ذلك طلب من الله أن يتوب عليه، وأظهر الإيمان.

الآخر: أنّ موسى عليه السلام وإن كان مكلّفاً بأن يطرح طلب بني إسرائيل، ولكنّه عندما تجلى ربّه للجبل واتّضحت حقيقة الأمر، انتهت مدّة هذا التكليف، وفي هذا الوقت لا بدّ من العودة إلى الحالة الأُولى يعني الرجوع إلى ما قبل التكليف، وإظهار إيمانه حتى لا تبقى شبهة لأحد، وقد بيّن ذلك بجملة، ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٥ - الله غير قابل للرؤية مطلقاً

إنّ هذه الآية من الآيات التي تشهد بقوّة وجلاء أنّ الله غير قابل للرؤية والمشاهدة مطلقاً، لأنّ كلمة «لن» حسب ما هو مشهور بين اللغويين للنفي الأبدي، وعلى هذا الأساس يكون مفهوم جملة ﴿لَن تَرَانِي﴾ إنّك لا تراني لا في هذا العالم ولا في العالم الآخر.

ولو أنّ أحداً شكّك - افتراضاً - في أن يكون «لن» للنفي التأبيدي يدل إطلاق الآية، وكون نفي الرؤية ذكر من دون قيد أو شرط على أن الله غير قابل للرؤية في مطلق الزمان وجميع الظروف.

إنّ الأدلة العقلية هي الأُخرى تهدينا إلى هذه الحقيقة، لأنّ الرؤية تختص بالأجسام.

وعلى هذا الأساس، إذا جاء في الأحاديث والأخبار الإسلامية أو الآيات القرآنية عبارة «لقاء الله» فإنّ المقصود هو المشاهدة بعين القلب والعقل، لأنّ القرينة العقلية والنقلية أفضل شاهد على هذا الموضوع وقد كان لنا أبحاث أُخرى في ذيل الآية (١٠٢) من سورة الأنعام في هذا الصعيد.

﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

التّفسير

ألواح التوراة

وفي النهاية أنزل الله شرائع وقوانين دينه على موسى عليه السلام.

ففي البداية: ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى﴾.

فإذا كان الأمر كذلك ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾.

فهل يُستفاد من هذه الآية أن التكلم مع الله كان من امتيازات موسى الخاصّة به دون بقية الأنبياء، يعني اصطفيتك لمثل هذا الأمر من بين الأنبياء؟

الحق أنّ هذه الآية ليست بصدد إثبات مثل هذا الأمر، بل إنّ هدف الآية - بقرينة ذكر الرسالات التي كانت لجميع الأنبياء - هو بيان امتيازين كبيرين لموسى على الناس: أحدهما تلقي رسالات الله وتحمّلها، والآخر التكلّم مع الله، وكلا هذين الأمرين من شأنهما تقوية مقام قيادته بين أمته.

ثمّ أضاف تعالى واصفاً محتويات الألواح التي أنزلها على موسى عليه السلام بقوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾.

ثمّ أمره بأن يأخذ هذه التعاليم والأوامر مأخذ الجد، ويحرص عليها بقوّة ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾.

وأن يأمر قومه أيضاً بأن يختاروا من هذه التعاليم أحسنها ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾.

كما يحذرهم بأنّ مخالفة هذه الأوامر والتعاليم والفرار من المسؤوليات والوظائف تستتبع نتائج مؤلمة، وأن عاقبتها هي جهنم وسوف يرى الفاسقون مكانهم ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾.

بحوث

ثمّ إنّ ها هنا نقاط عديدة ينبغي التوقف عندها والالتفات إليها:

١ - نزول الألواح على موسى

إنّ ظاهر الآية الحاضرة يفيد أن الله تعالى أنزل ألواحاً على موسى عليه السلام قد كتب فيها

شرائع التوراة وقوانينها، لا أنّه كانت في يدي موسى عليه السلام ألواح ثمّ انتقشت فيها هذه التعاليم بأمر الله.

ولكن ماذا كانت تلك الألواح، ومن أي مادة؟ إنّ القرآن لم يتعرض لذكر هذا الأمر، وإنّما أشار إليها بصورة الإجمال وبلفظة «الألواح» فقط، وهذه الكلمة جمع «لوح»، وهي مشتّقة من مادة «لاح يلوح» بمعنى الظهور والسطوع، وحيث إنّ المواضيع تتّضح وتظهر بكتابتها على صفحة، تسمى الصفحة لوحاً(١).

ولكن ثمّة احتمالات مختلفة في الرّوايات وأقوال المفسّرين حول كيفية وجنس هذه الألواح، وحيث إنّها ليست قطعية أعرضنا عن ذكرها والتعرض لها.

٢ - كيف كلّم الله موسى؟

يستفاد من الآيات القرآنية المتنوعة أنّ الله تعالى كلّم موسى عليه السلام، وكان تكليم الله لموسى عن طريق خلق أمواج صوتية في الفضاء أو في الأجسام، وربّما انبعثت هذه الأمواج الصوتية من خلال «شجرة الوادي الأيمن» وربّما من «جبل طور» وتبلغ مسمع موسى فما ذهب اليه البعض من أنّ هذه الآيات تدلّ على جسمانية الله تعالى جموداً على الألفاظ تصوُّر خاطىء بعيد عن الصواب.

على أنّه لا شكّ في أن ذلك التكلُّم كان من جانب الله تعالى بحيث إنّ موسى عليه السلام كان لا يشك عند سماعه له في أنّه من جانب الله، وكان هذا العلم حاصلاً لموسى، إمّا عن طريق الوحي والإلهام أو من قرائن أُخرى.

٣ - عدم وجوب جميع تعاليم الألواح

يُستفاد من عبارة ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً﴾ أنّه لم تكن جميع المواعظ والمسائل موجودة في ألواح موسى عليه السلام لأنّ الله يقول: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً﴾ وهذا لأجل أنّ دين موسى عليه السلام لم يكن آخر دين، ولم يكن موسى عليه السلام خاتم الأنبياء، ومن المسلّم أنّ الأحكام الإلهيّة التي نزلت كانت في حدود ما يحتاجه الناس في ذلك الزمان، ولكن عندما وصلت البشرية إلى آخر مرحلة حضارية للشرائع السماوية نزل آخر دستور إلهي يشمل جميع حاجات الناس المادية والمعنوية.

---

(١) تفسير التبيان، ج ٤، ص ٥٣٩.

وتتّضح من هذا أيضاً علة تفضيل مقام علي عليه السلام على مقام موسى عليه السلام في بعض الرّوايات[١]، وهي أنّ علياً عليه السلام كان عارفاً بجميع القرآن، الذي فيه تبيان كل شيء ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[٢] في حين أنّ التوراة لم يرد فيها إلّا بعض المسائل.

٤ - هل في الألواح تعاليم حسنة وأُخرى غير حسنة؟

إنّ ما نقرؤه في الآية: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ لا يعني أنّه كانت في ألواح موسى تعاليم «حسنة» وأُخرى «سيئة» وأنّهم كانوا مكلّفين بأن يأخذوا بالحسنة ويتركوا السيئة، أو كان فيها الحسن والأحسن، وكانوا مكلّفين بالأخذ بالأحسن فقط، بل ربّما تأتي كلمة «أفعل التفضيل» بمعنى الصفة المشبهة، والآية المبحوثة من هذا القبيل ظاهراً، يعني أن «الأحسنْ» هنا بمعنى «الحسن» وهذا إشارة إلى أن جميع تلك التعاليم كانت حسنة وجيدة.

ثمّ إنّ هناك احتمالاً آخر في الآية الحاضرة - أيضاً - وهو أن الأحسن بمعنى أفعل التفضيل، وهو إشارة إلى أنّه كان بين تلك التعاليم أمور مباحة (مثل القصاص) وأمور أخرى وصفت بأنّها أحسن منها (مثل العفو) يعني: قل لقومك ومن اتبعك ليختاروا ما هو أحسن ما استطاعوا، وللمثال يرجحوا العفو على القصاص (إلاّ في موارد خاصّة)[٣].

٥ - في مجال قوله: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ الظاهر أنّ المقصود منها هو جهنم، وهي مستقرّ كل أُولئك الذين يخرجون من طاعة الله، ولا يقومون بوظائفهم الإلهيّة.

ثمّ إنّ بعض المفسّرين احتمل أيضاً أن يكون المقصود هو أنّكم إذا خالفتم هذه التعاليم فإنّكم سوف تصابون بنفس المصير الذي أُصيب به قوم فرعون والفسقة الآخرون، وتتبدل أرضكم إلى دار الفاسقين[٤].

(١) للوقوف على هذه الرّوايات يراجع تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٦٨.
(٢) سورة النحل، الآية: ٨٩.
(٣) ويحتمل أيضاً أن الضمير في «أحسنها» يرجع إلى «القوة» أو «الأخذ بقوة» وهو إشارة إلى أنّ عليهم أن يأخذوا بها بأفضل أنواع الجدية والقوة والحرص.
(٤) تفسير المنار ج ٩، ص ١٩٣؛ بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٢١٦.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ
ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ
سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ
(١٤٦) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ
يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٤٧)﴾

التّفسير

مصير المتكبرين

البحث في هاتين الآيتين هو في الحقيقة نوع من عملية استنتاج من الآيات الماضية عن مصير فرعون وملئه والعصاة من بني إسرائيل، فقد بيّن الله في هذه الآيات الحقيقة التالية وهي: إذا كان الفراعنة أو متمرّدو بني إسرائيل لم يخضعوا للحق مع مشاهدة كل تلك المعاجز والبينات، وسماع كل تلكم الحجج والآيات الإلهيّة، فذلك بسبب أنّنا نصرف المتكبرين والمعاندين للحق - بسبب أعمالهم - عن قبول الحق.

وبعبارة أُخرى: إنّ الإصرار على تكذيب الآيات الإلهيّة قد ترك في نفوسهم وأرواحهم أثراً عجيباً، بحيث خلق منهم أفراداً متصلبين منغلقين دون الحق، لا يستطيع نور الهدى من النفوذ إلى قلوبهم.

ولهذا يقول أوّلاً: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

ومن هنا يتّضح أنّ الآية الحاضرة لا تنافي أبداً الأدلة العقلية حتى يقال بتأويلها كما فعل كثير من المفسّرين - إنّها سنّة إلهية أن يسلب الله من المعاندين الألدّاء توفيق الهداية بكل أشكاله وأنواعه، فهذه هي خاصية أعمالهم القبيحة، ونظراً لانتساب جميع الأسباب إلى الله الذي هو علّة العلل ومسبب الأسباب في المآل فإنّ عملية سلب الهداية نسبت إليه.

وهذا الموضوع لا هو موجب للجبر، ولا مستلزم لأي محذور آخر، حتى نَعمد إلى توجيه الآية بشكل من الأشكال.

هذا، ولابدّ من الالتفات - ضمنياً - إلى أنّ ذكر عبارة ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بعد لفظة:

(التكبر) إنّما هو لأجل التأكيد، لأنّ التكبر والشعور بالاستعلاء على الآخرين واحتقار عباد الله يكون دائماً بغير حق، وهذا التعبير يشبه الآيه (٦١) من سورة البقرة، عندما يقول سبحانه: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّينَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فقيد بغير الحق هنا قيد توضيحي، وتوكيدي لأنّ قتل الأنبياء هو دائماً بغير حق.

خاصّة أنّها أُردِفَت بكلمة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الذي يأتي بمعنى التكبر والطغيان فوق الأرض، ولا شكّ أنّ مثل هذا العمل يكون دائماً بغير حق.

ثمّ أشار تعالى إلى ثلاثة أقسام من صفات هذا الفريق «المتكبر المتعنت» وكيفية سلب توفيق قبول الحق عنهم.

الأُولى قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ إنّهم لا يؤمنون حتى ولو رأوا جميع المعاجز والآيات، والثّانية: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ والثّالثة إنّهم على العكس ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾.

بعد ذكر هذه الصفات الثلاث الحاكية برمتها عن تصلب هذا الفريق تجاه الحق، أشار إلى عللها وأسبابها، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾.

ولا شكّ أنّ التكذيب لآيات الله مرّة - أو بضع مرات - لا يستوجب مثل هذه العاقبة، فباب التوبة مفتوح في وجه مثل هذا الإنسان، وإنّما الإصرار في هذا الطريق هو الذي يوصل الإنسان إلى نقطة لا يعود معها يميّز بين الحسن والقبيح، والمستقيم والمعوج، أي يسلب القدرة على التمييز بين «الرشد» و«الغي».

ثمّ تبيّنُ الآيةُ اللاحقةُ عقوبةَ مثل هؤلاء الأشخاص وتقول: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾.

و«الحبط» يعني بطلان العمل وفقدانه للأثر والخاصّية، يعني أنّ مثل هؤلاء الأفراد حتى إذا عملوا خيراً فإنّ عملهم لن يعود عليهم بنتيجة (وللمزيد من التوضيح حول هذا الموضوع راجع ما كتبناه عند تفسير الآية ٢١٧ من سورة البقرة).

وفي ختام الآية أضاف بأنّ هذا المصير ليس من باب الانتقام منهم، إنّما هو نتيجة أعمالهم هم، بل هو عين أعمالهم ذاتها وقد تجسمت أمامهم ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؟!

إنّ هذه الآية نموذج آخر من الآيات القرآنية الدالة على تجسّم الأعمال، وحضور أعمال الإنسان خيرها وشرّها يوم القيامة.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

التّفسير

اليهود وعبادتهم للعجل

في هذه الآيات يقصّ القرآن الكريم إحدى الحوادث المؤسفة، وفي نفس الوقت العجيبة التي وقعت في بني إسرائيل بعد ذهاب موسى عليه السلام إلى ميقات ربّه، وهي قصّة عبادتهم للعجل التي تمّت على يد شخص يدعى «السامري» مستعيناً بحلي بني إسرائيل وما كان عندهم من آلات الزّينة.

إنّ هذه القصّة مهمّة جدّاً بحيث إنّ الله تعالى أشار إليها في أربع سور، في سورة البقرة الآيات (٥١) و(٥٤) و(٩٢) و(٩٣)، وفي سورة النساء الآية (١٥٣)، والأعراف الآيات المبحوثة هنا، وفي سورة طه الآية (٨٨) فما بعد.

على أنَّ هذه الحادثة مثل بقية الظواهر الاجتماعية لم تكن لتحدث من دون مقدمة وأرضيَّة، فبنو إسرائيل من جهة قضوا سنين مديدة في مصر وشاهدوا كيف يعبد المصريون الأبقار أو العجول، ومن جهة ثانية عندما عبروا النيل شاهدوا في الضفة الأُخرى مشهداً من الوثنية، حيث وجدوا قوماً يعبدون البقر، وكما مرّ عليك في الآيات السابقة طلبوا من موسى عليه السلام صنماً كتلك الأصنام، ولكن موسى عليه السلام وبّخهم وردّهم، ولامهم بشدّة.

ومن جهة ثالثة، تمديد مدّة ميقات موسى عليه السلام من ثلاثين إلى أربعين، الذي تسبب في أن تشيع في بني إسرائيل شائعة وفاة موسى عليه السلام بواسطة بعض المنافقين، كما جاء في بعض التفاسير.

والأمر الرابع، جهل كثير من بني إسرائيل بمهارة السامريّ في تنفيذ خِطته المشؤومة، كل هذه الأُمور ساعدت على أن تُقبل أكثرية بني إسرائيل في مدّة قصيرة على الوثنية، ويلتفوا حول العجل الذي أوجده لهم السامريّ للعبادة.

وفي الآية الحاضرة يقول القرآن الكريم أوّلاً: إنّ قوم موسى عليه السلام بعد ذهابه إلى ميقات ربّه صنعوا من حليّهم عجلاً، وكان مجرّد تمثال لا روح فيه، ولكنّه كان له صوت كصوت البقر، واختاروه معبوداً لهم: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾.

ومع أنّ هذا العمل (أي صنع العجل من الحلي) صدر من السامريّ (كما تشهد بذلك آيات سورة طه) إلّا أنّه مع ذلك نسب هذا العمل إلى بني إسرائيل لأنّ كثيراً منهم ساعد السامريّ في هذا العمل وعاضده، وبذلك كانوا شركاء في جريمته، في حين رضي بفعله جماعة أكبر منهم.

وظاهر هذه الآية وإن كان يفيد - في بدء النظر - أنّ جميع قوم موسى شاركوا في هذا العمل، إلّا أنّه بالتوجه إلى الآية (١٥٩) من هذه السورة، التي تقول: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ يُستفاد أنّ المراد من الآية المبحوثة هنا ليس كلّهم، بل أكثرية عظيمة منهم سلكوا هذا السبيل، وذلك بشهادة الآيات القادمة التي تعكس عجز هارون عن مواجهتها وصرفها عن ذلك.

كيف كان للعجل الذهبي خوار؟

و«الخوار» هو الصوت الخاص الذي يصدر من البقر أو العجل، وقد ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ السامري بسبب ما كان عنده من معلومات وضع أنابيب خاصّة في باطن صدر العجل الذهبي، كان يخرج منها هواء مضغوط فيصدر صوت من فم ذلك العجل الذهبيّ شبيه بصوت البقر.

ويقول آخرون: كان العجل قد وضع في مسير الريح بحيث كان يسمَع منه صوتٌ على أثر مرور الريح على فمه الذي كان مصنوعاً بِهيئة هندسية خاصّة.

أمّا ما ذهب إليه جماعة من المفسّرين من أن السامريّ أخذ شيئاً من تراب من موضع قدم جبرئيل وصبّه في العجل فصار كائناً حياً، وأخذ يخور خواراً طبيعياً فلا شاهد عليه في آيات القرآن الكريم، كما سيأتي بإذن الله في تفسير آيات سورة طه.

وكلمة ﴿جَسَدًا﴾ شاهد على أن ذلك العجل لم يكن حيواناً حياً، لأنّ القرآن يستعمل هذه اللفظة في جميع الموارد في القرآن الكريم بمعنى الجسم المجرّد من الحياة والروح[1].

---

(١) راجع الآية ٨ من سورة الأنبياء، و ٣٤ من سورة ص.

وبغضّ النظر عن جميع هذه الأُمور يبعد أن يكون الله سبحانه قد أعطى الرجلَ المنافق (مثل السامريّ) مثل تلك القدرة التي يستطيع بها أن يأتي بشيء يُشبه معجزة النّبي موسى عليه السلام، ويحيي جسماً ميتاً، ويأتي بعمل يوجب ضلال الناس حتماً ولا يعرفون وجه بطلانه وفساده.

أمّا لو كان العجل بصورة تمثال ذهبي كانت أدلة بطلانه واضحة عندهم، وكان من الممكن أن يكون وسيلة لاختبار الأشخاص لا شيء آخر.

والنقطة الأُخرى التي يجب الانتباه إليها، هي أنّ السامري كان يعرف أنّ قوم موسى عليه السلام قد عانوا سنين عديدة من الحرمان، مضافاً إلى أنّهم كانت تغلب عليهم روح المادية - كما هو الحال في أجيالهم في العصر الحاضر - ويولون الحليّ والذهب احتراماً خاصّاً، لهذا صنع عجلاً من ذهب حتى يستقطب إليه اهتمام بني إسرائيل من عبيد الثروة.

أمّا أن هذا الشعب الفقير المحروم من أين كان له كل ذلك الذهب والفضة؟ فقد جاء في الرّوايات أن نساء بني إسرائيل كنّ قد استعرن من الفرعونيين كمية كبيرة من الحليّ والذهب والفضّة لإقامة أحد أعيادهن، ثمّ حدثت مسألة الغرق وهلاك آل فرعون، فبقيت تلك الحلي عند بني إسرائيل(١).

ثمّ يقول القرآن الكريم معاتباً وموبّخاً: ألم ير بنو إسرائيل أنّ هذا العجل لا يتكلم معهم ولا يهديهم لشيء، فكيف يعبدونه؟ ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾.

يعني أن المعبود الحقيقي هو من يعرف - على الأقل - الحسن والقبيح، وتكون له القدرة على هداية أتباعه، ويتحدث إلى عبدته ويهديهم سواء السبيل، ويعرّفهم على طريقة العبادة.

وأساساً كيف يسمح العقل البشري بأن يعبد الإنسان شيئاً ميتاً صنعه وسوّاه بيده، حتى لو استطاع - افتراضاً - أن يبدّل الحلّي إلى عجل واقعي فإنّه لا يليق به أن يعبده، لأنّه عجل يضرب ببلادته المثل.

إنّهم في الحقيقة ظلموا بهذا العمل أنفسهم، لهذا يقول في ختام الآية: ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

بيد أنّه برجوع موسى عليه السلام إليهم، واتضاح الأمر عرف بنو إسرائيل خطأهم، وندموا

---

(١) راجع تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٣٦٠، ذيل الآية مورد البحث.

على فعلهم، وطلبوا من الله أن يغفر لهم، وقالوا: إذا لم يرحمنا الله ولم يغفر لنا فإنّنا لا شكّ خاسرون ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وجملة ﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي عندما عثروا على الحقيقة، أو عندما وقعت نتيجة عملهم المشؤومة بأيديهم، أو عندما سقطت كل الحيل من أيديهم ولم يبق بأيديهم شيء في الأدب العربي كناية عن الندامة، لأنّه عندما يقف الإنسان على الحقائق، ويطلع عليها، أو يصل إلى نتائج غير مرغوب فيها، أو تغلق في وجهه أبواب الحيلة، فإنّه يندم بطبيعة الحال، ولهذا يكون الندم من لوازم مفهوم هذه الجملة.

وعلى كل حال، فقد ندم بنو إسرائيل من عملهم، ولكن الأمر لم ينته إلى هذا الحدّ، كما نقرأ في الآيات اللاحقة.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)﴾

التّفسير

ردة فعل شديدة تجاه عبادة العجل

في هاتين الآيتين بيّن تعالى بالتفصيل ما جرى بين موسى عليه السلام وبين عبدة العجل عند عودته من ميقاته المشار إليه في الآية السابقة. فهاتان الآيتان تعكسان ردة فعل موسى عليه السلام الشديدة التي أدّت إلى يقظة هذه الجماعة.

يقول في البدء: ولما عاد موسى عليه السلام إلى قومه غضبان ممّا صنع قومه من عبادة العجل، قال لهم: ضيعتم ديني وأسأتم الخلافة ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي﴾[1].

---

(١) «الأسف» كما يقول الراغب في «المفردات» بمعنى الحزن المقرون بالغضب، وهذه الكلمة قد تستعمل=

إنّ هذه الآية تفيد بوضوح أنّ موسى عند رجوعه إلى قومه من الميقات وقبل أن يلتقي ببني إسرائيل كان غضبان أسفاً، وهذا لأجل أن الله تعالى كان قد أخبر موسى عليه السلام بأنّه اختبر قومه من بعده وقد أضلّهم السامريّ ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾(١).

ثمّ إنّ موسى عليه السلام قال لهم: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾.

للمفسّرين كلام كثير في تفسير هذه الجملة، وقد ذكروا احتمالات عديدة مختلفة، إلّا أن ظاهر الآيات يفيد أن المراد هو أنّكم تعجلتم في الحكم بالنسبة إلى أمر الله تعالى في قضية تمديد مدّة الميقات من ثلاثين إلى أربعين، فاعتبرتم عدم مجيئي في المدة المقررة - أوّلاً - دليلاً على موتي، في حين كان يتعين عليكم أن تتريثوا وتنتظروا قليلاً ريثما تمرّ أيّام ثمّ تتّضح الحقيقة.

وفي هذا الوقت بالذات، أي عندما واجه موسى عليه السلام هذه الأزمة الخطيرة من حياة بني إسرائيل، وكان الغضب الشديد يسربل كل كيانه، ويثقل روحه حزن عميق، وقلق شديد على مستقبل بني إسرائيل، لأنّ التخريب والإفساد أمر سهل، وربّما استطاع شخص واحد تخريب كيان عظيم ولكن الإصلاح والتعمير أمر صعب وعسير جدّاً، خاصّة أنّه إذا سرت في شعب جاهل متعنت نَغمة مخالفة شاذة، وافقت هوى ورغبة، فإنّ محوها لا شكّ لن يكون أمراً ممكناً وسهلاً.

فهنا لا بدّ أن يظهر موسى عليه السلام غضبه الشديد ويقوم بالحدّ الأعلى من ردّ الفعل والسخط، كي يوقظ الأفكار المخدَّرة لدى بني إسرائيل، ويوجد انقلاباً في ذلك المجتمع الذي انحرف عن الحق، إذ العودة إلى الحق والصواب عسيرة في عين هذه الصورة.

إنّ القرآن يستعرض ردّة فعل موسى الشديدة في قبال ذلك المشهد وفي تلك الأزمة، إذ يقول: إنّ موسى ألقى ألواح التوراة التي كانت بيده، وعمد إلى أخيه هارون وأخذ برأسه ولحيته وجرهما إلى ناحيته ساخطاً غاضباً.

= في أحد المعنيين أيضاً، وتعني في الأصل أن ينزعج الإنسان من شيء بشدة، ومن الطبيعي أنّ هذا الانزعاج إذا كان بسبب من هو دونه ظهر مقروناً بالغضب، وبردة فعل غاضبة، وإذا كان ممن هو فوقه ممن لا يستطيع مقاومته ظهر بصورة الحزن المجرّد، وقد نقل عن ابن عباس أيضاً أنّ للحزن والغضب أصلاً واحداً وإن اختلفا لفظاً.

(١) سورة طه، الآية: ٨٥.

وكما يُستفاد من آيات قرآنية أُخرى، وبخاصّة في سورة طه، أنّه علاوة على ذلك لام هارون بشدّة، وصاح به، لماذا قصّرتَ في المحافظة على عقائد بني إسرائيل وخالفت أمري[1].

وفي الحقيقة كان هذا الموقف يعكس - من جانب - حالة موسى عليه السلام النفسية، وانزعاجه الشديد تجاه وثنية بني إسرائيل وانحرافهم، ومن جانب آخر كان ذلك وسيلة مؤثرة لهزّ عقول بني إسرائيل الغافية، وإلفاتهم إلى بشاعة عملهم.

وبناء على هذا إذا كان إلقاء ألواح التوراة في هذا الموقف قبيحاً - فرضاً - وكان الهجوم على أخيه لا يبدو كونه عملاً صحيحاً، ولكن مع ملاحظة الحقيقة التالية، وهي أنّه من دون إظهار هذا الموقف الانزعاجي الشديد لم يكن من الممكن إلفات نظر بني إسرائيل إلى بشاعة خطئهم... ولكان من الممكن أن تبقى رواسب الوثنية في أعماق نفوسهم وأفكارهم... إنّ هذا العمل لم يكن فقط غير مذموم فحسب، بل كان يعد عملاً واجباً وضرورياً.

ومن هنا يتّضح أنّنا لانحتاج أبداً إلى التبريرات والتوجيهات التي ذهب إليها بعض المفسّرين، للتوفيق بين عمل موسى عليه السلام هذا وبين مقام العصمة التي يتحلى بها الأنبياء، لأنّه يمكن أن يقال هنا: إنّ موسى عليه السلام انزعج في هذه اللحظة من تأريخ بني إسرائيل انزعاجاً شديداً لم يسبق له مثيل، لأنّه وجد نفسه أمام أسوأ المشاهد ألا وهو الانحراف عن التوحيد إلى عبادة العجل، وكان يرى جميع آثارها وأخطارها المتوقعة.

وعلى هذا فإنّ إلقاء الألواح ومؤاخذة أخيه بشدّة في مثل هذه اللحظة مسألة طبيعية تماماً.

إنّ ردة الفعل الشديدة هذه وإظهار الغضب هذا، كان له أثر تربوي بالغ في بني إسرائيل، فقد قلب المشهد رأساً على عقبٍ في حين أنّ موسى لو كان يريد أن ينصحهم بالكلمات اللينة والمواعظ الهادئة، لكان قبولهم لكلامه ونصحه أقلّ بكثير.

ثمّ إنّ القرآن الكريم ذكر أنّ هارون قال - وهو يحاول استعطاف موسى وإثبات براءته في هذه المسألة -: يابن أمّ هذه الجماعة الجاهلة جعلوني ضعيفاً إلى درجة أنّهم كادوا يقتلونني، فإذن أنا بريء، فلا تفعل بي ما سيكون موجباً لشماتة الأعداء بي ولا تجعلني

(١) سورة طه، الآيتان: ٩٢ - ٩٣.

في صف هؤلاء الظالمين ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

إن التعبير بـ: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ في الآية الحاضرة أو ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ (كما في الآية ٩٤ من سورة طه) مع أن موسى وهارون كانا من أب وأم واحدة، إنّما هو لأجل تحريك مشاعر الرحمة والعطف لدى موسى عليه السلام في هذه الحالة الساخنة.

وفي المآل تركت هذه القصّة أثرها، وسرعان ما التفت بنو إسرائيل إلى قبح أعمالهم، فاستغفروا الله وطلبوا العفو منه.

لقد هدأ غضب موسى عليه السلام بعض الشيء، وتوجه إلى الله ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

إنّ طلب موسى عليه السلام العفو والمغفرة من الله تعالى لنفسه ولأخيه، لم يكن لذنب اقترفاه، بل كان نوعاً من الخضوع لله، والعودة إليه، وإظهار النفرة من أعمال الوثنيين القبيحة، وكذا لإعطاء درس عملي للجميع حتى يفكروا ويروا إذا كان موسى وأخوه - وهما لم يقترفا انحرافاً - يطلبان من الله العفو والمغفرة هكذا، فالأجدر بالآخرين أن ينتبهوا ويحاسبوا أنفسهم، ويتوجهوا إلى الله ويسألوه العفو والمغفرة لذنوبهم. وقد فعل بنو إسرائيل هذا فعلاً - كما تفيد الآيتان السابقتان.

مقارنة بين تواريخ القرآن والتوراة الحاضرة

يستفاد من الآيات الحاضرة، وآيات سورة طه أن بني إسرائيل هم الذين صنعوا العجل لا هارون، وأنّ شخصاً خاصاً في بني إسرائيل يدعى السامريّ هو الذي أقدم على مثل هذا العمل، ولكن هارون - أخا موسى ووزيره ومساعده - لم يكن يتفرج على هذا الأمر بل عارضه، ولم يأل جهداً في هذا السبيل، حتى أنّهم كادوا أن يقتلوه لمعارضته لهم.

ولكن العجيب أنّ التوراة الفعلية تنسب صنع العجل والدعوة إلى عبادته إلى هارون خليفة موسى عليه السلام ووزيره وأخيه، إذ نقرأ في الفصل ٣٢ من سفر الخروج من التوراة، ما يلي:

«لما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النّزول من الجبل، اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأنّ هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض

مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها، فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون، فأخذ ذلك من أيديهم وصوّره بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً، فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر.

فلمّا نظر هارون بنى مذبحاً أمامه ونادى هارون وقال: غداً عيد للربّ «ثمّ بين مراسم تقديم القرابين لهذا العمل».

ثّم تشرح التوراة قصّة رجوع موسى عليه السلام غاضباً إلى بني إسرائيل وإلقاء التوراة، ثمّ تقول:

«وقال موسى لهارون: ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبتَ عليه خطيّة عظيمةً؟!

فقال هارون: لا يحم غضب سيدي. أنت تعرف الشعب إنّه في شرّ».

إنّ ما ذكر هو قِسمٌ من قصة عبادة بني إسرائيل للعجل برواية التوراة الحاضرة بالنص، في حين أنّ التوراة نفسها تشير في فصول أُخرى إلى سمّو مقام هارون وعلو منزلته، ومن ذلك التصريح بأنّ بعض معاجز موسى قد ظهرت وتحققت على يدي هارون (الإصحاح الثامن من سفر الخروج من التوراة).

كما أنّها تصف هارون بأنّه نبي قد أعلن عن نبوته موسى (الإصحاح الثامن من سفر الخروج أيضاً).

وعلى كل حال، تعترف التوراة لهارون - الذي كان خليفة لموسى عليه السلام وعارفاً بتعاليم شريعته - بمنزلة سامية... ولكن انظروا إلى الخرافة التي تصف بأنّه كان صانع العجل، ومن عوامل حصول الوثنية في بني إسرائيل، وحتى أنّه اعتذر لموسى عليه السلام عليه بما هو أقبح من الذنب حيث قال: إنّهم كانوا يميلون إلى الشرّ أساساً وقد شجعتهم عليه.

في حين أنّ القرآن الكريم ينزه هذين القائدين من كل ألوان التلوّث بأدران الشرك والوثنية.

على أنّه ليس هذا المورد هو المورد الوحيد الذي ينزّه فيه القرآنُ الكريمُ ساحة الأنبياء والرسل، وتنسب التوراة الحاضرة أنواع الإهانات والخرافات إلى الأنبياء المطهرين. وفي اعتقادنا أنّ أحد الطرق لمعرفة أصالة القرآن وتحريف التوراة والإنجيل الفعليين، هو هذه المقارنة بين القضايا التاريخية التي وردت في هذه الكتب حول الأنبياء والرسل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ
وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ
إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ
ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

التّفسير

لقد فعلت ردة فعل موسى عليه السلام الشديدة فعلتها في المآل فقد ندم عَبَدة العجل الإسرائيليون – وهم أكثرية القوم – على فعلهم، وقد طرح هذا الندم في عدّة آيات قبل هذه الآية أيضاً (الآية ١٤٩) ومن أجل أن لا يُتصور أن مجرّد الندم من مثل هذه المعصية العظيمة يكفي للتوبة، يضيف القرآن الكريم قائلاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

وهكذا لأجل أن لا يُتصور أنّ هذا القانون يختص بهم أضاف قائلاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾.

إن التعبير بـ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ إشارة إلى أنّ الوثن ليس له أية واقعية، ولكن انتخاب عَبَدة الأوثان هو الذي أعطاه تلك الشخصية والقيمة الوهمية، ولهذا أتى بكلمة ﴿ٱلْعِجْلَ﴾ وراء هذه الجملة فوراً، يعني أنّ ذلك العجل هو نفس ذلك العجل حتّى بعد انتخابه للعبادة.

أمّا أنّ هذا الغضب ما هو؟ وهذه الذّلة ما هي؟ فالقرآن لم يصرح بشيء عنهما في هذه الآية، وإنّما اكتفى بإشارة مجملة، ولكن يمكن أن تكون إشارة إلى الشقاء والمصائب والمشكلات التي ابتلوا بها بعد هذه الحادثة وقبل دخولهم الأرض المقدّسة.

أو أنّه إشارة إلى مهمّة قتل بعضهم بعضاً العجيبة التي كُلّفوا بها كجزاء وعقوبة لمثل ذلك الذنب العظيم.

وهنا قد يطرح هذا السؤال، وهو أنّ من المرتكزات الفكرية هو أنّ حقيقة التوبة تتحقق بالندامة، فكيف لم يشمل العفو الإلهي بني إسرائيل مع أنّهم ندموا على فعلهم؟

والجواب هو أنّه ليس لدينا أي دليل على أنّ مجرّد الندامة لوحدها تنفع في جميع الأحوال والمواضع، صحيح أنّ الندامة هي أحد أركان التوبة، ولكنّها ليست كل شيء.

إنّ معصية عبادة الأوثان والسجود للعجل في ذلك النطاق الواسع وفي تلك المدّة القصيرة، وبالنسبة إلى ذلك الشعب الذي شاهد بأُم عينيه كل تلكم المعاجز والآيات، لم تكن معصية يمكن التغاضي عنها بمثل هذه السهولة، فهل يكفي أن يقول مرتكبها: «أستغفر الله» وينتهي كلُّ شيء؟!

لابدّ أن يرى هذا الشعب غضب الله ويذوق طعم المذلة في هذه الحياة، ويُساط الذين افتروا على الله الكذب بسوط البلاء حتى لا يفكروا مرّة أُخرى في ارتكاب مثل هذا الذنب العظيم.

وفي **الآية اللاحقة** يكمّل القرآن الكريم هذا الموضوع ويقول في صورة قانون عام: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فالذين يتوبون من بعد السيئة وتتوفر كل شروط التوبة لديهم يغفر الله لهم ويعفو عنهم.

جواب على سؤالين:

١ - هل الآيتان الحاضرتان جملة معترضة وقعت وسط قصّة بني إسرائيل كتذكير لِرسول الله والمسلمين، أو أنّهما خطاب الله لموسى عليه السلام بعد قصّة عبادة بني إسرائيل للعجل؟

ذهب بعض المفسّرين إلى الاحتمال الأوّل، وارتضى بعضٌ آخر الاحتمال الثّاني.

والذين ارتضوا الاحتمال الأوّل استدلوا بجملة ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لأنّ الجملة في صورة خطاب إلى الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم[1].

والذين ارتضوا الاحتمال الثّاني استدلوا بجملة ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ﴾ الذي جاء في صورة الفعل المضارع[2].

ولكن ظاهر الآيات يفيد أنّ هذه الجملة قسم من خطاب الله إلى موسى عليه السلام في تعقيب قصّة العجل، وفعل المضارع ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ شاهد جيد على هذا الموضوع، وليس هناك ما يمنع أن يكون ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ خطاب موجه إلى موسى عليه السلام[3].

٢ - لماذا جاء الإيمان في الآية الحاضرة بعد ذكر التوبة والحال أنّه ما لم يكن هناك إيمان لا تتحقق توبة؟

---

(١) تفسير الميزان، ج ٨، ص ٢٥٣. (٢) المصدر السابق.

(٣) فيكون التقدير في الآية هكذا: «قال الله لموسى إن الذين...».

إنّ الجواب على هذا السؤال يتّضح من أنّ قواعد الإيمان تتزلزل عند ارتكـ
المعصية، ويصيبها نوع من الوهن، إلى درجة أنّنا نقرأ في الأحاديث الإسلامية:
«لا يشرب الخمر وهو مؤمن[1]، ولا يزني وهو مؤمن» أي أن الإيمان يتضـ
ضوؤه، ويفقد أثره.

ولكن عندما تتحقق التوبة يعود الإيمان إلى ضوئه وأثره الأوّل، وكأنّ الإيمان تـ
مرّة أُخرى.

ثمّ إنّ الآيات الحاضرة ركّزت - فقط - على الذلة في الحياة الدنيا، ويستفا
ذلك أنّ توبة بني إسرائيل من هذه المعصية بعد الندامة من قضية الوثنية وتذوق الـ
في هذه الدنيا، قد قبلت بحيث إنّها أزالت عقوبتهم في الآخرة، وإن بقيت أعباء الذ
الأُخرى التي لم يتوبوا منها في أعناقهم.

الآية الأخيرة من الآيات المبحوثة تقول: ولما سكن غضب موسى عليه السلام، و
على النتيجة التي كان يتوخاها، أخذ الألواح من الأرض، تلك الألواح التي كـ
تحتوي - من أوّلها إلى آخرها - على الرحمة والهداية، رحمة وهداية للذين يشـ
بالمسؤولية، والذين يخافون الله، ويخضعون لأوامره وتعاليمه ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن
ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ
شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ
تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ
ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ
قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا
لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

(١) وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٣١٠؛ بحار الأنوار، ج ١٠، ص ٢٢٨، ٣٥٧، ٣٦٥.

التّفسير

مندوبو بني إسرائيل في الميقات

في الآيتين الحاضرتين يعود القرآن الكريم مرّة أُخرى إلى قصة ذهاب موسى إلى الميقات «الطور» في صحبة جماعة، ويقص قسماً آخر من تلك الحادثة.

هذا وقد وقع بين المفسّرين كلام في أنّه هل كان لموسى عليه السلام ميقات واحد مع ربّه، أو أكثر من ميقات واحد؟ وقد أقام كل واحد منهم شواهد لإثبات مقصوده من القرآن الكريم، ولكنّه كما قلنا سابقاً - في ذيل الآية (١٤٢) من هذه السورة - أنّه يظهر من مجموع القرائن في القرآن الكريم والرّوايات أنّ موسى عليه السلام كان له ميقات واحد، وذلك برفقة جماعة من بني إسرائيل.

وفي هذا الميقات بالذات أنزل الله الألواح على موسى وكلمه عليه السلام، وفي نفس هذا الميقات اقترح بنو إسرائيل على موسى عليه السلام أن يطلب من الله أن يريهم نفسه جهرة، في هذا الوقت نفسه نزلت الصاعقة أو حدث الزلزال وغُشي على موسى عليه السلام وسقط بنو إسرائيل على الأرض مغشياً عليهم، وقد ورد هذا الموضوع في حديث مرويّ عن علي ابن إبراهيم في تفسيره(١).

إنّ كيفية وضع آيات هذه السورة وإن كان يحدث - في بادىء النظر - إشكالاً، وهو: كيف أشار الله تعالى أولاً إلى ميقات موسى عليه السلام ثمّ ذكر قصّة عبادة العجل، ثمّ عاد مرّة أُخرى إلى مسألة الميقات؟

هل هذا النظم وهذا الطراز من الكلام يناسب الفصاحة والبلاغة التي يتسم بها القرآن الكريم؟

ولكن مع الالتفات إلى أنّ القرآن ليس كتاب تأريخ يسجل الحوادث حسب تسلسلها، بل هو كتاب هداية وتربية وبناء إنساني، وفي مثل هذا الكتاب توجب أهميّة الموضوع أن يترك متابعة حادثة مؤقتاً، ويعمد إلى بحث ضروري آخر، ثمّ يعود مرّة أُخرى لنفس الحادثة الأُولى.

بناء على هذا لا توجد أية ضرورة إلى أن نعتبر الآية المذكورة هنا إشارة إلى بقية قصة

---

(١) تفسير علي بن إبراهيم القمّي، ج ١، ص ٢٤١.

عبادة العجل، ونقول: إنّ موسى عليه السلام ذهب مرّة أُخرى بصحبة بني إسرائيل إلى جبل الطور بعد قضية عبادة العجل للاعتذار إلى الله والتوبة، كما قال بعض المفسّرين، لأنّ هذا الاحتمال بغض النظر عن جهات أُخرى يبدو بعيداً عن أجواء الآية من جهة أنّه آل إلى هلاك جماعة ذهبت إلى الميقات للاعتذار والتوبة، فهل من الممكن أن يُهلِكَ الله تعالى جماعة أتوا إلى الميقات للاعتذار إلى الله بالنيابة عن قومهم؟!

وعلى كل حال، فقد قال القرآن الكريم في الآيتين الحاضرتين أوّلاً: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾.

ولكن بني إسرائيل حيث إنّهم سمعوا كلام الله طلبوا من موسى عليه السلام أن يطلب من الله تعالى أن يريهم نفسه - لبني إسرائيل - جهرة، وفي هذا الوقت بالذات أخذهم زلزال عظيم وهلك الجماعة، ووقع موسى عليه السلام على الأرض مغشياً عليه، وعندما أفاق قال: ربّاه لو شئتَ لأهلكتَنا جميعاً، يعني بماذا أجيبُ قومي لو هلك هؤلاء: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾.

ثمّ قال: ربّاه إنّ هذا المطلب التافة إنّما هو فعل جماعة من السفهاء، فلا تؤاخذنا بفعلهم: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾؟

ولقد اعتبر بعض المفسّرين - وجود كلمة «الرجفة» في هذه الآية، وكلمة «الصاعقة» في الآية (٥٥) من سورة البقرة المتعلقة بطلب رؤية الله جهرةً - دليلاً على التفاوت بين الميقاتين. ولكن - كما قلنا سابقاً - إنّ الصاعقة في كثير من الأوقات ترافق الرجفة الشديدة، لأنّه على أثر التصادم بين الشحنات الكهربائية الموجبة في السحب والسالبة في الأرض تبرق شرارة عظيمة تهزّ الجبال والأراضي بشدّة، وربّما تحطمها وتبعثرها كما جاء في قصّة البلاء الذي نزل على قوم صالح العصاة، حيث يعبر فيه عنه بالصاعقة تارة (سورة فصلت الآية ١٧) وتارة بالرجفة (سورة الأعراف الآية ٧٨).

وقد استدل بعض المفسّرين بعبارة ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ على أنّ العقوبة هنا كانت لأجل الفعل الذي صدر من بني إسرائيل (مثل عبادة العجل) لا لأجل الكلام الذي قالوه في مجال طلب رؤية الله جهرة.

والجواب على هذا الكلام واضحٌ أيضاً، لأنّ الكلام فعل من أفعال الإنسان أيضاً، وإطلاق «الفعل» على «الكلام» ليس أمراً جديداً وغير متعارف، مثلاً عندما نقول: إنّ الله يثيبنا يوم القيامة على أعمالنا، فإنّ من المسلّم أنَّ لفظة أعمالنا تشمل كلماتنا أيضاً.

ثمّ إنّ موسى عليه السلام قال في عقيب هذا التضرع والطلب من الله: ربّاه إنّي أعلم أنّ هذا كان اختبارك وامتحانك، فأنت تضلّ من تشاء (وكان مستحِقاً لذلك) وتهدي من تشاء (وكان لائقاً لذلك) ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ واختبارك.

وهنا أيضاً تكلّم المفسّرون في معنى «الفتنة» كثيراً وذهبوا مذاهب شتّى، ولكن بالنظر إلى أنّ لفظة «الفتنة» جاءت في القرآن الكريم بمعنى الاختبار والامتحان مراراً كما في الآية (٢٨) من سورة الأنفال: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ وكذا في الآية (٢) من سورة العنكبوت، والآية (١٢٦) من سورة التوبة، لا يكون مفهوم الآية الحاضرة غامضاً. لأنّه لا شكّ في أن بني إسرائيل واجهوا في هذا المشهد اختباراً شديداً، فأراهم الله تعالى أن هذا الطلب (طلب رؤية الله) طلب تافه ومستحيل الوقوع.

وفي ختام الآية يقول موسى عليه السلام: رباه: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾.

من مجموع الآيات والرّوايات يُستفاد أنّ الهالكين قد استعادوا حياتهم في المآل وعادوا برفقة موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل، وقصُّوا عليهم كلّ ما سمعوه وشاهدوه، وأخذوا في إرشاد الغافلين الجاهلين وهدايتهم.

وفي **الآية اللاحقة** يشير إلى طلب موسى عليه السلام من ربّه وتكميل مسألة التوبة التي ذكرت في الآيات السابقة، يقول موسى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

و«الحسنة» تعني كلَ خيرٍ وجمالٍ، وعلى هذا الأساس تشمل جميع النِّعم، وكذا التوفيق للعمل الصالح، والمغفرة، والجنّة، وكل نوع من أنواع السعادة، ولا دليل على حصرها بنوع خاص من هذه المواهب، كما ذهب إليه بعض المفسّرين.

ثمّ يبيّن القرآن الكريم دليل هذا الطلب هكذا: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي عدنا إليك واعتذرنا عمّا فعله سفهاؤنا، حيث طلبوا ما لا يليق بمقام عظمتك.

و﴿هُدْنَآ﴾ مشتقة من مادة «هَوْد» بمعنى العودة المقترنة بالرفق والهدوء، وكما قال بعض اللغويين: تشمل العودة من الخير إلى الشرِّ أيضاً، وكذا من الشرِّ إلى الخير(١)، ولكن جاءت في كثير من الموارد بمعنى التوبة والعودة إلى طاعة الله.

يقول الراغب في «المفردات» نقلاً عن بعض: «يهود في الأصل من قولهم: هُدنا

---

(١) تفسير المنار، ج ٩، ص ٢٢١، وقد نقل هذا المعنى عن ابن الأعرابي.

إليك، وكان اسم مدح، ثمّ صار بعد نسخ شريعتهم لازماً لهم، وإن لم يكن فيه معنى المدح».

ولكن بما أنّ بعض اللغويين ذكر أنّ معنى هذه اللفظة هو الرجوع من الشر إلى الخير، أو من الخير إلى الشر، يمكن القول بأنّ هذه الكلمة ليست متضمنة للمدح بحال، بل هي حاكية عن الاضطراب الروحي والقلق الأخلاقي الذي كانت تعاني منه تلك الجماعة.

وقال بعض آخر من المفسّرين إنّ علّة تسمية هؤلاء القوم بـ«اليهود» لا يرتبط مطلقاً بهذه اللفظة، بل لفظة يهود متخذة أصلاً من مادة «يهوذا» الذي هو اسم لأحد أبناء يعقوب عليه السلام ثمّ تبدلت الذال إلى الدال، وصارت يهودا، فيطلق على المنسوب إليه يهودي[1].

ولقد أجاب الله - في النهاية - دعاء موسى عليه السلام وقَبِلَ توبته، ولكن لا بصورة مطلقة، بل جاء ذلك في ختام الآية مشروطاً بشروط، إذ يقول: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُ﴾ وكان مستحِقاً.

وقد قلنا مراراً: إنّ «المشيئة» في هذه الموارد، بل في جميع الموارد، ليست بمعنى الإرادة المطلقة ومن غير قيد أو شرط، بل هي إرادة مقترنة بالحكمة والصلاحيات واللياقات، وبهذا يتّضح الجواب على كل إشكال في هذا الصعيد.

ثمّ يضيف تعالى قائلاً: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾.

إنّ هذه الرحمة الواسعة يمكن أن تكون إشارة إلى النِّعم والمواهب الدنيوية التي تشمل الجميع ويستفيد منها الكل، براً وفاجراً، صالحاً وطالحاً.

كما يمكن أن تكون إشارة إلى أنواع الرحمة المادية والمعنوية، لأنّ النِّعم المعنوية لا تختَص بقوم دون قوم، وإن كان لها شرائط تتوفر لدى الجميع.

وبعبارة أُخرى: إنّ أبواب الرحمة الإلهيّة مفتوحة للجميع، وإنّ الناس هم الذين عليهم أن يقرروا دخول هذه الأبواب فلو لم تتوفر شرائط الورود في بعض الناس فإنّ ذلك دليل على تقصيرهم هم، لا محدودية الرحمة الإلهيّة (والتّفسير الثّاني أنسب مع مفهوم الآية والجملة التي ستأتي).

ولكن حتى لا يظن أحد أنّ قبول التوبة، أو سعة الرحمة الإلهيّة وشموليتها، غير

(١) تفسير روح الجنان لأبي الفتوح، ج ٥، ص ٣٠٠، ذيل الآية مورد البحث.

مقيدة وغير مشروطة، ومن دون حساب أو كتاب، يضيف في ختام الآية: سرعان ما أكتب رحمتي للّذين تتوفر فيهم ثلاثة أمور: اتقوا، وآتوا الزكاة، وآمنوا بآياتي ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

و«التقوى» إشارة إلى اجتناب كل معصية وإثم.

و«الزكاة» مرادة هنا بمعناها الواسع، وحسب الحديث المعروف «لكل شيء زكاة»[(١)] يشمل جميع الأعمال الصالحة والطيبة.

وجملة ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ تشمل الإيمان بالمقدسات.

وبهذه الطريقة تتضمّن الآية برنامجاً كاملاً وجامعاً.

وإذا فسرنا الزكاة بمعنى خاص (أي المعنى المتعارف والمصطلح للزكاة) كان ذكرها من بين سائر الوظائف الإلهيّة، لأجل أهميتها في صعيد العدالة الاجتماعية.

وقد روي في حديث عن النّبي ﷺ أنّه قام في الصلاة فقال أعرابي وهو في الصلاة: اللّهم ارحمني ومحمّداً ولا ترحم معنا أحداً، فلمّا سلّم رسول الله ﷺ قال للأعرابي: لقد تَحَجّرْتَ واسعاً، أي جعلت شيئاً واسعاً، أمراً ضيقاً محدوداً فالرحمة الإلهيّة لا تنحصر في أحد من الناس[(٢)].

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾

التّفسير

اتبعوا هذا النّبي

هذه الآية في الحقيقة تكمل الآية السابقة التي تحدثت عن صفات الذين تشملهم

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١٠، ص ٨ و ٣٩٨؛ وبحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٥.

(٢) تفسير مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث.

الرحمة الإلهيّة الواسعة، أي من تتوفر فيهم الصفات الثلاث: التقوى، وأداء الزكاة، والإيمان بآيات الله. وفي هذه الآية يذكر صفات أُخرى لهم من باب التوضيح، وهي اتّباع الرّسول الأعظم ﷺ، لأنّ الإيمان بالله غير قابل للفصل عن الإيمان بالنّبي ﷺ وتّباع دينه، وهكذا التقوى والزكاة لا يتّمان ولا يكملان من دون اتّباع القيادة.

لهذا يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ﴾.

ثمّ يبيّن ست صفات لهذا الرّسول مضافاً إلى مقام الرسالة:

١ - أنّه نبيّ الله ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾.

والنّبي يطلق على كل من يبيّن رسالة الله إلى الناس، ويوحى إليه وإن لم يكن مكلّفاً بالدعوة والتبليغ، ولكن الرّسول مضافاً إلى كونه نبيّاً - مكلّف بالدعوة إلى دين الله، وتبليغه والاستقامة في هذا السبيل.

وعلى هذا يَكون مقام الرسالة أعلى من مقام النّبوة، وبناءً على هذا يكون معنى النّبوة مأخوذاً في مفهوم الرسالة أيضاً، ولكن حيث إنّ الآية بصدد توضيح وتفصيل خصوصيات النّبي ﷺ لهذا ذكرهما على نحو الاستقلال، وفي الحقيقة إنّ ما أُخذ في مفهوم الرّسول مجملاً، ذكر في الآية بصورة مستقلة من باب توضيح وتحليل صفاته.

٢ - أنّه نبيّ أُمّي لم يتعلم القراءة والكتابة، وقد نهض من بين جماهير الناس من أرض مكّة أم القرى قاعدة التوحيد الأصلية: ﴿ٱلْأُمِّيَّ﴾.

وحول مفهوم ﴿ٱلْأُمِّيَّ﴾ المشتقة من مادة «أمّ» بمعنى الوالدة، أو من «الأُمّة» بمعنى الجماعة، دار كلام كثير بين المفسّرين، فبعض فسّره بأنّه لم يتعلم ولم يدرس، يعني أنّه باقٍ على الحالة التي ولد بها من أُمّه أوّل يوم، ولم يتتلمذ على أحد، وبعض فسّره بمن نهض من بين جماهير الأُمّة، لا من بين طبقة الأعيان والمترفين والجبارين، وفسّرته جماعة ثالثة بأنّه ظهر من مكّة «أُم القرى» لأنّ هذه الكلمة مرادفة لـ «المكي».

والأحاديث الإسلامية الواردة في مصادر مختلفة هي أيضاً تفسّر هذه الكلمة تارة بأنّه: لم يدرس وأُخرى: بأنّه مكّي[1].

ولكن لا مانع أبداً من أن تكون كلمة ﴿ٱلْأُمِّيَّ﴾ إشارة إلى كل المفاهيم والمعاني

---

(١) للاطلاع على هذه الرّوايات راجع تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٧٨ و٧٩، وتفسير روح المعاني، ج ٩، ص ٧٠، ذيل الآية مورد البحث.

الثلاثة، وقد قلنا مراراً: إنّه لا مانع من استعمال لفظة واحدة في عدة معانٍ، ولهذا الموضوع شواهد كثيرة في الأدب العربي. (وسنبحث بتفصيل حول أميّة النّبي ﷺ بعد الفراغ من تفسير هذه الآية).

٣ - ثمّ إنّ هذا النّبي هو ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾.

وفي صعيد وجود البشارات المختلفة في كتب العهدين (التوراة والإنجيل) حتى التوراة والإنجيل المحرفين الحاضرين أيضاً، سيكون لنا بحث تفصيلي بعد الفراغ من تفسير هذه الآية.

٤ - ومن سمات هذا النّبي أنّ دعوته تتطابق لنداء العقل مطابقة كاملة، فهو يدعو إلى كل الخيرات وينهى عن كل الشرور والممنوعات العقلية: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

٥ - كما أنّ محتوى دعوته منسجم مع الفطرة الإنسانية السليمة، فهو يحل ما ترغب فيه الطباع السليمة ويحرم ما تنفر منه ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾.

٦ - أنّه ليس كأدعياء النّبوة والرسالة الذين يهدفون إلى توثيق الناس بأغلال الاستعمار والاستثمار والاستغلال، بل هو على العكس من ذلك، إنّه يرفع عنهم إصرهم والأغلال التي تكبّل عقولهم وأفكارهم وتثقل كاهلهم ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾(١).

وبما أنّ هذه الصفات الست بالاضافة إلى الصفة السابعة وهي مقام الرسالة تشكّل من حيث المجموع علامة واضحة ودليلاً قاطعاً على صدق دعواه، فيضيف القرآن الكريم: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

و﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ المشتقّة من مادة «تعزير» تعني الحماية والنصرة المقترنة بالاحترام والتبجيل، ويقول البعض إنّ هذه اللفظة تعني - في الأصل - المنع، فإذا كان المنع من العدوّ، كان مفهومه النصرة، وإذا كان المنع من الذنب كان مفهومه العقوبة والتنبيه، ولهذا يقال للعقوبات الخفيفة «تعزير».

والجدير بالانتباه استعمال كلمة ﴿أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ بدل «أُنزل إليه» في حين أنّنا نعلم أنّه

(١) «الإصر» يعني في الأصل عقد الشيء وحبسه، ويطلق على كل عمل يمنع الإنسان من الفعالية والحركة، ويطلق على العهد والميثاق أو العقوبات، لفظ الإصر، لأنّ هذه الأمور تحدّ من حركة الإنسان.

لم يكن لشخص النّبي صلى الله عليه وآله وسلم نزول من السماء، ولكن حيث إنّ النبوة والرسالة نزلتا مع القرآن من جانب الله، لهذا عبر بـ ﴿أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾.

بحوث

وهنا لا بد من الوقوف عند نقاط هامة وهي:

١ - خمسة أدلة على النّبوة في آية واحدة

لم ترد في آية من آيات القرآن أدلة عديدة على حقانية دعوة الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كما جاء في هذه الآية... فلو أنّنا أمعنا النظر بدقة في الصفات السبع التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية لنبيه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم لوجدنا أنّها تحتوي على خمسة أدلة واضحة لإثبات نبوّته:

الأوّل: أنّه «أمّي» لم يدرس، ولكنّه مع ذلك أتى بكتاب لم يغيّر مصير أهل الحجاز فقط، بل كان نقطة تحول هام في التاريخ البشري، حتى أنّ الذين لم يقبلوا بنبوته لم يشكوا في عظمة كتابه وتعاليمه.

فهل يتفق والحسابات الطبيعية أن يقوم بهذا العمل شخص نشأ في بيئة جاهلية ولم يتتلمذ على أحد؟

الثّاني: أنّ دلائل نبوته قد وردت بتعابير مختلفة في الكتب السماوية السابقة على نحو توجد علماً لدى المرء بحقانيته... فإنّ البشارات التي جاءت في تلك الكتب لا تنطبق إلّا عليه صلى الله عليه وآله وسلم فقط.

الثّالث: أن محتويات دعوته تنسجم انسجاماً كاملاً مع العقل، لأنّه يدعو إلى المعروف، والنهي عن المنكر والقبائح، وهذا الموضوع يتّضح بجلاء بمطالعة تعاليمه.

الرّابع: أنّ محتويات دعوته منسجمة مع الطبع السليم والفطرة السويّة.

الخامس: لو لم يكن من جانب الله لكان عليه أن يقوم بما يضمن مصالحه الخاصّة، وفي هذه الصورة كان يتعين عليه أن لا يرفع الأغلال والسلاسل عن الناس، بل عليه أن يبقيهم في حالة الجهل والغفلة لاستغلالهم بنحو أفضل، في حين أنّنا نجده يحرر الناس من الأغلال الثقيلة.

أغلال الجهل والغفلة عن طريق الدعوة المستمرة إلى العلم والمعرفة.

أغلال الوثنية والخرافة عن طريق الدعوة إلى التوحيد.

أغلال التمييز بكل أنواعه، والحياة الطبقية بجميع أصنافها، عن طريق الدعوة إلى الأخوة الدينية والإسلامية، والمساواة أمام القانون.

وهكذا سائر الأغلال الأُخرى.

إنّ كل واحد من هذه الدلائل لوحده دليل على حقانية دعوته، كما أنّ مجموعها دليل أوضح وأقوى.

٢ - كيف كان النّبي أُميّاً؟

هناك احتمالات ثلاثة معروفة حول مفهوم «الأُمّي» كما قلنا سابقاً:

أوّلها: أنّ معناه: الذي لم يدرس.

الثّاني: أنّ معناه: المولود في أرض مكّة، والناهض منها.

الثّالث: أنّ معناه الذي قام من بين صفوف الجماهير.

ولكن الرأي الأشهر هو التّفسير الأوّل، وهو أكثر انسجاماً مع موارد استعمال هذه اللفظة، ويمكن أن تكون المعاني الثلاثة مرادة برمتها أيضاً، كما قلنا.

ثمّ إنّه لا نقاش بين المؤرخين بأنّ الرّسول الأكرم ﷺ لم يدرس، ولم يكتب شيئاً، وقد قال القرآن الكريم - أيضاً - في الآية (٤٨) من سورة العنكبوت حول وضع النّبي قبل البعثة: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

وأساساً كان عدد العارفين بالكتابة والقراءة في المحيط الحجازي قليلاً جدّاً، حيث كان الجهل هو الحالة السائدة على الناس، بحيث إنّ هؤلاء العارفين بالكتابة والقراءة كانوا معروفين بأعيانهم وأشخاصهم، فقد كان عددهم في مكّة من الرجال لا يتجاوز (١٧) شخصاً، ومن النساء امرأة واحدة(١).

من المسلّم أن النّبي ﷺ لو كان قد تعلّم القراءة والكتابة - في مثل هذه البيئة - لدى أستاذ لشاع ذلك وصار أمراً معروفاً للجميع، وعلى فرض أنّنا لم نقبل بنبوته، ولكن كيف يمكنه ﷺ أن ينفي - في كتابه - بصراحة هذا الموضوع؟ ألا يعترض عليه الناس ويقولون: إن دراستك وتعلّمك للقراءة والكتابة أمر مسلّم معروف لنا، فكيف تنفي ذلك؟

(١) فتوح البلدان، للبلاذري، ط مصر، ص ٤٥٩. وج ٢، ص ٥٨٠.

إنّ هذه قرينة واضحة على أُميّة النّبي.

وعلى كل حال، فإنّ وجود هذه الصفة في النّبي ﷺ كان تأكيداً على نبوته حتى ينتفي أي احتمال في ارتباطه إلّا بالله وبعالم ما وراء الطبيعة في صعيد دعوته.

هذا بالنسبة إلى فترة ما قبل النّبوة، وأمّا بعد البعثة فلم ينقل أحد من المؤرّخين أنّه تلقى القراءة أو الكتابة من أحد، وعلى هذا بقي ﷺ على أمّيّته حتى نهاية عمره.

ولكن من الخطأ الكبير أن تتصوّر أنّ عدم التعلّم عند أحد يعني عدم المعرفة بالكتابة والقراءة، والذين فسّروا «الأُمّية» بعدم المعرفة بالكتابة والقراءة كأنّهم لم يلتفتوا إلى هذا التفاوت.

ولا مانع أبداً من أنّ النّبي ﷺ كان عارفاً بالقراءة والكتابة بتعليم الله، ومن دون أن يتتلمذ على يد أحد من البشر، لأنّ مثل هذه المعرفة هي بلا شكّ من الكمالات الإنسانية، ومكملة لمقام النّبوة.

ويشهد بذلك ما ورد في الأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السلام كان قادراً على القراءة والكتابة[١].

ولكنّه لأجل أن لا يبقى أي مجال لأدنى تشكيك في دعوته لم يكن ﷺ يستفيد من هذه المقدرة.

وقول البعض: إنّ القدرة على الكتابة والقراءة لا تعدّ كمالاً، فهما وسيلة للوصول إلى الكمالات العلميّة، وليسا بحدّ ذاتها علماً حقيقياً ولا كمالاً واقعياً فإن جوابه كامن في نفسه، لأنّ العلم بطريق الكمال كمال أيضاً.

قد يقال: إنّه نفي في روايتين عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام بصراحة تفسير «الأُمّي» بعدم القراءة والكتابة، بل بالمنسوب إلى «أم القرى» (مكّة)[٢].

ونقول في الردّ: إنّ إحدى هاتين الروايتين «مرفوعة» حسب اصطلاح علم الحديث فلا قيمة لها من حيث السند، والرواية الأُخرى منقولة عن «جعفر بن محمّد الصوفي» وهو مجهول.

---

(١) تفسير البرهان ج ٤، ص ٣٣٢ وج ٥، ص ٣٧٣ ذيل آيات سورة الجمعة. وبحار الأنوار، ج ١٦، ص١٣٣ و١٣٤.

(٢) تفسير البرهان ج ٥، ص ٣٣٢؛ وتفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٧٨، ذيل الآية مورد البحث.

وأمّا ما تصوَّره البعض من أنّ الآية الثّانية من سورة الجمعة ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وآيات أُخرى دليل على أنّ النّبي ﷺ كان يتلو القرآن على الناس من شيء مكتوب، فهو خطأ بالغ، لأنّ التلاوة تطلق على التلاوة من مكتوب على شيء، كما تطلق على القراءة حفظاً ومن ظهر القلب، واستعمال لفظة التلاوة في حق الذين يقرأون الأشعار أو الأدعية حفظاً ومن على ظهر القلب كثير.

من مجموع ما قلناه نستنتج

١ - أنّ النّبي ﷺ لم يتلق القراءة والكتابة من أحد حتماً، وبهذا تكون إحدى صفاته أنّه لم يدرس عند أستاذ.

٢ - أنّنا لا نملك أي دليل معتبر على أن النّبي ﷺ قرأ أو كتب شيئاً قبل النبوّة، أو بعدها.

٣ - أنّ هذا الموضوع لا يتنافى مع تعليم الله تعالى القراءة أو الكتابة لنبيّه ﷺ.

٣ - البشارات بظهور النّبي في العهدين

إنّ الشواهد التاريخية القطعية، وكذا محتويات كتب اليهود والنصارى المقدّسة (التوراة والإنجيل) تفيد أنّ هذه الكتب ليست هي الكتب السماوية التي نزلت على موسى وعيسى عليهما السلام وأنّ يد التحريف قد طالتهما، بل إنّ بعضها اندرس واندثر، وأن ما هو موجود الآن باسم الكتب المقدسة بينهم ما هي إلّا خليط من نسائج الأفكار والأدمغة البشرية وشيء من التعاليم التي نزلت على موسى وعيسى عليهما السلام ممّا بقي في أيدي تلامذتهم.

وعلى هذا الأساس لا غرور ولا عجب إذا لم نقف على عبارات صريحة حول البشارة بظهور النّبي الأكرم ﷺ.

ولكن مع هذا فإنّه يلحظ في ثنايا هذه الكتب المحرفة عبارات تتضمّن إشارات معتدّ بها حول ظهور هذا النّبي العظيم، وقد جمعها ثلّة من علمائنا في كتب ومؤلفات مستقلة، أو مقالات تتحدث في هذا المجال. وحيث إن ذكر كل تلك البشائر وما حولها من حديث وكلام ممّا يطول به المقام، فإنّنا نكتفي بذكر بعض منها على سبيل المثال لا الحصر.

١ - جاء في سفر التكوين الإصحاح ١٧ العبارة ١٧ إلى ٢٠: «وقال إبراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك، فقال الله... وأمّا إسماعيل فقد سمعت لك فيه (أي دعاءك في حقه) ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جيداً. اثني عشر رئيساً يلد وأجعله أُمّة كبيرة».

٢ - «لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب».

والجدير بالانتباه أن أحد معاني شيلون - حسب تصريح المسترهاكس في كتاب قاموس الكتاب المقدس - هو الإرسال، وهو يوافق كلمة «رسول» أو «رسول الله».

٣ - وفي إنجيل يوحنا الباب ١٥ العبارة رقم ١٦ جاء ما يلي: «وأمّا المعزي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلّمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم».

٤ - وكذا جاء في إنجيل يوحنا ذاته الإصطلاح ١٦ العبارة رقم ٧: «لكنّي أقول لكم الحق: إنّه خير لكم أن أنطلق. لأنّه إن لَم أنطلق لا يأتيكم المعزّي. ولكن إن ذهبت أرسله إليكم، ومتى جاء ذاك هو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنّه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية»[1].

والنقطة الجديرة بالاهتمام أنّه جاءت الكلمة في إنجيل يوحنا باللغة الفارسية «المسلّي» ولكنّها في الإنجيل العربي طبعة لندن (مطبعة وليام وطس عام ١٨٥٧) جاء مكانها: «فارقليطا».

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

التّفسير

دعوة النّبي العالميّة

جاء في حديث عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام قال: جاء نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: يا محمّد، أنت الذي تزعم أنّك رسول الله، وأنّك الذي يوحى إليك كما يوحى إلى موسى بن عمران؟ فسكت النّبي ساعة ثمّ قال: «نعم أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا خاتم النّبيين، وإمام المتقين، ورسول ربّ العالمين». قالوا: إلى من، إلى

(١) كل النصوص المنقولة هنا مقتبسة من كتاب العهد القديم والجديد طباعة وإصدار دار الكتاب المقدس في العالم العربي عام ١٩٧٩.

العرب أم إلى العجم، أم إلينا؟ فأنزل الله هذه الآية التي صرّحت بأنّ رسالة النّبي ﷺ رسالة عالمية[١].

ولكن مع ذلك لا يمكن إنكار ارتباط هذه الآية بالآية السابقة المتعلقة بصفات النّبي ﷺ والدعوة إلى اتباع دينه وشريعته.

وفي البداية يأمر الله تعالى رسول الله قائلاً: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

إنّ هذه الآية مثل آيات كثيرة أُخرى من القرآن الكريم دليل واضح على عالمية دعوة رسول الله ﷺ.

وفي الآية (٢٨) من سورة «سبأ» أيضاً نقرأ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾.

وفي الآية (١٩) من سورة الأنعام أيضاً نقرأ: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي بلغه القرآن.

وفي مطلع سورة الفرقان نقرأ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ فهو أُرسل إلى الناس كافة ليحذرهم من المسؤوليات.

هذه نماذج من الآيات التي تشهد بعالمية دعوة الرّسول الأعظم ﷺ، وسوف نبحث حول هذه المسألة أيضاً في ذيل الآية (٧) من سورة الشورى، وقد مر لنا في ذيل الآية (٩٢) من سورة الأنعام - أيضاً - بحثٌ مبسوط نوعاً ما في هذا الصعيد.

ثمّ إنّه وصف الإله الذي يدعو إليه النّبي ﷺ بثلاث صفات:

١ - ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فله الحاكمية المطلقة.

٢ - ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا معبود يليق للعبادة سواه.

٣ - ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ بيده نظام الحياة والموت.

وبهذه الطريقة تنفي هذه الآية ألوهيّة غير خالق السماوات والأرض، وأُلُوهيّة كل صنم، وكذا تنفي التثليث المسيحي، كما وتؤكّد على رسالة النّبي العالمية وقدرة الله تعالى على أمر المعاد.

وفي الختام تدعو جميع أهل العالم إلى الإيمان بالله وبرسوله الذي لم يتعلّم القرآءة والكتابة والقائم من بين الناس ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾.

---

(١) عن المجالس حسب نقل تفسير الصافي، ج ١، في ذيل هذه الآية. تفسير الصافي، ج ٢، ص ٢٤٣؛ وبحار الأنوار، ج ٩، ص ٢٩٤.

النّبي الذي لا يكتفي بدعوة الآخرين إلى هذه الحقائق فحسب، بل يؤمن هو في الدرجة الأولى - بما يقول، يعني الإيمان بالله وكلماته ﴿الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

إنّه لا يؤمن فقط بالآيات التي نزلت عليه، بل يؤمن بجميع الكتب الحقيقية للأنبياء السابقين.

إنّ إيمانه بدينه والذي يتجلى من خلال أعماله وتصرّفاته دليل واضح على حقانيته، لأن عمل الآمر بشيء يعكس مدى إيمانه بما يأمر به ويدعو إليه، وإيمانه بقوله أحد الأدلة على صدقه. إنّ تأريخ النّبي ﷺ برمّته يشهد بهذه الحقيقة وهي أنّه ﷺ كان أكثر من غيره التزاماً بالتعاليم التي جاء بها.

أجل، لابدّ لكم من اتّباع مثل هذا النّبي حتى تسطع أنوار الهداية على قلوبكم، لتهتدوا إلى طريق السعادة ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

وهذا إشارة إلى أنّه لا يكفي مجرّد الإيمان، وإنما يفيد الإيمان إذا اقترن بالاتباع العملي.

والجدير بالالتفات إلى أنّ الآية الحاضرة نزلت في مكّة يوم كان المسلمون يشكلون أقلية صغيرة جدّاً بحيث إنّه قلّما كان هناك من يحتمل أن يسيطر النّبي ﷺ على مكّة فضلاً عن جزيرة العرب، أو قسم كبير من العالم.

وعلى هذا الأساس، فإنّ الذين يتصورون أنّ رسول الله ﷺ ادعى في البداية تبليغ الرسالة لأهل مكّة فقط، وعندما انتشر دينه وعلا أمره فكر في السيطرة على الحجاز، ثمّ فكر في البلاد الأُخرى، وراسل ملوك العالم وأمراءه وقادته، وأعلن عن رسالته العالمية، تجيب الآية الحاضرة التي نزلت في مكّة على كل تصوراتهم هذه، فهي تصرح في غير إبهام ولا غموض بأنّه ﷺ أعلن عن دعوته العالمية منذ البداية.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ اسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانۢبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

التّفسير

جانب من نِعَم الله على بني إسرائيل

في الآيات الحاضرة إشارة إلى حقيقة رأينا نظيرها في القرآن الكريم، وهذه الحقيقة هي تحري القرآن للحق، واحترامه لمكانة الأقليات الدينية الصالحة، يعني أنّه لم يكن ليصف جميع بني إسرائيل بأسرهم بالفساد والإفساد، وبأنّ هذا العرق القومي برمته ضالّ متمرد من دون استثناء، بل اعترف بأنّ منهم أقلية صالحة غير موافقة على أعمال الأكثرية، وقد أولى القرآن الكريم اهتماماً خاصّاً بهؤلاء فيقول: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾.

إنّ هذه الآية قد تشير إلى فريق صغير لم يسلّموا للسامريّ ودعوته، وكانوا يدافعون عن دين موسى دائماً وأبداً، أو إلى الفرق والطوائف الصالحة الأُخرى التي جاءت بعد موسى عليه السلام.

ولكن هذا المعنى يبدو غير منسجم مع ظاهر الآية، لأن ﴿يَهْدُونَ﴾ و﴿يَعْدِلُونَ﴾ فعل مضارع، وهو على الأقل يحكي عن زمان الحال، يعني عصر نزول القرآن، ويثبت وجود مثل هذا الفريق في ذلك الزمان، إلّا أن نقدّر فعل «كان» فتكون الآية إشارة إلى الزمان الماضي، ونعلم أن التقدير من دون قرينة خلاف الظاهر.

وكذلك يمكن أن يكون ناظراً إلى الأقلية اليهودية الذين كانوا يعيشون في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والذين اعتنقوا الإسلام تدريجاً وبعد مطالعة دعوة النّبي ومحتوى رسالته، وانضموا إلى صفوف المسلمين الصادقين. وهذا التّفسير ينسجم أكثر مع ظاهر الفعلين المضارعين المستعملين فيها.

وما جاء في بعض روايات الشيعة والسنّة من أنّ هذه الآية إشارة إلى فريق صغير من بني إسرائيل يعيشون فيما وراء الصين، عيشة عدل وتقوى وتوحيد وعبودية لله تعالى فغير مقبول، لأنّه مضافاً إلى عدم موافقته لما نعلمه من جغرافيا العالم اليوم، ومضافاً إلى أنّ التواريخ الحاضرة الموجودة لا تؤيد هذا الموضوع، فإنّ الأحاديث المذكورة غير معتبرة من حيث السند، ولا يمكن أن يُعتمد عليها كأحاديث صحيحة حسب قواعد علم الرجال.

وفي **الآية اللاحقة** يشير القرآن الكريم إلى عدّة أقسام من نِعَم الله على بني إسرائيل.

فيقول أوّلاً: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ وهذا التقطيع والتقسيم إنّما هو لأجل أن يسودهم نظام عادل، بعيد عن المصادمات الخشنة.

وواضح أنّه عندما يكون في شعب من الشعوب تقسيمات إدارية صحيحة ومنظمة، ويخضع كل قسم من تلك الأقسام لقيادة قائد قدير، فإنّ إدارتهم ورعاية العدالة بينهم تكون أسهل، ولنفس هذا السبب عمدت جميع الدول إلى مثل هذا العمل وأخذت بهذه القاعدة.

و«أسباط» جمع سبط (بفتح السين وبكسرها) تعني في الأصل الانبساط في سهولة، ثمّ يطلق السبط والأسباط على الأولاد وبخاصّة الأحفاد لأنّهم امتداد العائلة.

والمراد من الأسباط - هنا - هو قبائل بني إسرائيل وفروعها، الذين كان كل واحد منها منشعباً ومنحدراً من أحد أولاد يعقوب عليه السلام.

والنّعمة الأُخرى هي: أنّه عندما كان بنو إسرائيل متوجهين إلى بيت المقدس وأصابهم العطش الشديد الخطير في الصحراء، وطلبوا من موسى عليه السلام الماء، أوحي إليه أن اضرب بعصاك الحجر... ففعل فنبع الماء فشربوا ونجوا من الهلاك ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾.

وقد كانت الينابيع هذه مقسمة بين أسباط بني إسرائيل بحيث عرف كل سبط منهم نبعه الذي يشرب منه ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾.

ويُستفاد من هذه الجملة أنّ هذه الينابيع الاثني عشر التي نبعت من تلك الصخرة العظيمة كانت معلّمة بعلامات ومتميزة بعضها عن بعض بفوارق، بحيث كان يعرف كل فريق من فرق بني إسرائيل نبعه المختص به والمقرّر له، لا يقع بينهم أي خلاف ويسود النظم والانضباط في جماعتهم، ويتمّ الشرب بصورة أسهل وأفضل.

والنّعمة الثالثة هي: أنّ الله تعالى أرسل لهم - في تلك الصحارى الملتهبة حيث لا سقف ولا ظلال - سحباً ظلّلتهم ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾.

والنّعمة الرّابعة: إنزال المنّ والسلوى عليهم كغذاءين لذيذين ومقويين ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾.

ثمّ إنّ المفسّرين أعطوا تفسيرات متنوعة لهذين الغذاءين «المنّ» و«السلوى» اللذين أنزلهما الله على بني إسرائيل في تلك الصحراء القاحلة (وقد ذكرنا هذه التفاسير عند دراسة الآية ٥٧ من سورة البقرة) وقلنا بأنّه لا يبعد أنّ «المن» كان نوعاً من العسل

الطبيعي الذي كان في بطون الجبال المجاورة، أو عصارات وإفرازات نَباتية كانت تظهر على أشجار كانت نابتة هنا وهناك في تلك الصحراء، و«السلوى» نوع من الطير الحلال اللحم شبيه بالحمام[1].

ثمّ يقول الله تعالى: وقلنا ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾.

ولكنّهم أكلوا وكفروا النعمة ولم يشكروها وبذلك ظلموا في الحقيقة أنفسهم ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

ويجب الانتباه إلى أنّ مضمون هذه الآية جاء في الآيتين (٥٧) و(٦٠) من سورة البقرة مع فارق بسيط، غاية ما في الأمر أنّه عبر عن نبوع الماء من الصخر هنا بـ «انبجست» وهناك بـ «انفجرت»، وحسب اعتقاد جماعة من المفسّرين أنّ التفاوت بين هاتين العبارتين هو أنّ «انفجرت» تعني «خروج الماء بدفع، وكثرة» و«انبجست» تعني «خروج الماء بقلّة» ولعل هذا التفاوت لأجل الإشارة إلى أنّ عيون الماء المذكورة لم تنبع من الصخرة العظيمة دفعة حتى يصير ذلك سبباً لاستيحاشهم وخوفهم وقلقهم، ولا تكون لهم قدرة على تنظيم المياه المتدفقة وحصرها، بل خرجت ابتداءً بهدوء وقلّة، ثمّ توسعت المجاري وكثرت المياه النابعة.

وذهب بعض المفسّرين إلى أنّ هاتين الكلمتين ترجعان إلى مفهوم واحد.

﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

التّفسير

في تعقيب الآيات السابقة تشير هاتان الآيتان إلى قسم آخر من المواهب الإلهيّة لبني إسرائيل وطغيانهم تجاه تلك النِّعم، وكفرانهم بها.

يقول تعالى: (و) اذكروا ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ﴾.

---

(١) لمزيد من الإيضاح لـ «منّ والسلوى» راجع بخصوص هذا التفسير ذيل الآية ٥٧ من سورة البقرة.

وقلنا لهم اطلبوا من الله حطّ الذنوب عنكم وعفوه عن خطاياكم، وادخلوا من باب بيت المقدس بخضوع ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا﴾.

فإذا قمتم بهذه الأُمور غفرنا لكم خطاياكم، وأعطينا للمحسنين ثواباً أكبر ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وبالرغم من أنّ الله فتح أمامهم أبواب الرحمة، ولو أردوا اغتنام الفرصة لاستطاعوا حتماً إصلاح ماضيهم وحاضرهم، ولكن لم يغتنم الظالمون من بني إسرائيل هذه الفرصة فحسب، بل بدّلوا أمر الله، وقالوا خلاف ما أمروا أن يقولوه: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾.

وفي المآل نزل عليهم بسبب هذا الطغيان والظلم للنفس وللآخرين عذاب من السماء ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾.

ويجب الانتباه إلى أنّ مضمون هاتين الآيتين جاء أيضاً - مع فارق بسيط - في سورة البقرة الآيتين (٥٨) و(٥٩)، وقد أوردنا تفسيراً أكثر تفصيلاً هناك.

والفرق الوحيد بين هذه الآيات المبحوثة هنا، وآيات سورة البقرة هو أنّه يقول هنا: ﴿بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾، ويقول هناك: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾، ولعل الفارق بين هذين إنما هو لأجل أنّ الذنوب لها جانبان: أحدهما الجانب المرتبط بالله، والجانب الآخر المرتبط بنفس الإنسان، وقد أشار القرآن إلى الجانب الأوّل في آية سورة البقرة بعبارة «الفسق» الذي مفهومه الخروج عن طاعة الله، وإلى الثّاني في الآية الحاضرة بعبارة «الظلم».

ماهي ﴿حِطَّةٌ﴾ وماذا تعني؟

الجدير بالذّكر أنّ بني إسرائيل كانوا مكلّفين بأن يطهروا قلوبهم وأرواحهم عند دخولهم بيت المقدس من أدران الذنوب بتوبة خالصة وواقعية تتلخص في كلمة ﴿حِطَّةٌ﴾ وأن يطلبوا من الله المغفرة لكل تلك الجرائم التي ارتكبوها، وبخاصّة ما آذوا به نبيّهم العظيم موسى بن عمران قبل ورودهم بيت المقدس.

وكلمة ﴿حِطَّةٌ﴾ التي كانت - في الحقيقة - شعارهم عند دخولهم بيت المقدس، هي صورة اختصارية لعبارة «مسألتنا حطّة» يعني نطلب منك يا ربّ أن تحطّ عنّا ذنوبنا بإنزال شآبيب الرحمة والعفو علينا، لأنّ «حطّة» معناها إنزال الشيء من علو وهذا الشعار شأنه شأن جميع الشعارات الأُخرى لا يكفي فيه أن يكون مجرّد لقلقة لسان، بل

يجب أن يكون اللسان ترجمان الروح ومرآة الوجدان، ولكنّهم - كما سيأتي في **الآية اللاحقة** - مسخوا كثيراً من تلك الشعارات حتى هذا الشعار التربوي، وجعلوه وسيلة للّهو والاستهزاء والسخرية.

﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾

التّفسير

قصّة فيها عبرة

في هذه الآيات يستعرض مشهداً آخر من تاريخ بني إسرائيل الزاخر بالحوادث، وهو مشهد يرتبط بجماعة منهم كانوا يعيشون عند ساحل بحر. غاية ما في الأمر أنّ الخطاب موجه فيها إلى الرّسول الأكرم ﷺ، فيقول له: اسأل يهود عصرك حول تلك الجماعة، يعني جدّد هذه الخاطرة في أذهانهم عن طريق السؤال ليعتبروا بها، ويجتنبوا المصير والعقاب الذي ينتظرهم بسبب طغيانهم وتعنتهم.

إنّ هذه القصّة - كما أُشير إليها في الأحاديث الإسلامية - ترتبط بجماعة من بني إسرائيل كانوا يعيشون عند ساحل أحد البحار (والظاهر أنّه ساحل البحر الأحمر المجاور لفلسطين) في ميناء يسمى بميناء «أيلة» (والذي يسمى الآن بميناء ايلات) وقد أمرهم الله تعالى على سبيل الاختبار والامتحان أن يعطّلوا صيد الأسماك في يوم السبت، ولكنّهم خالفوا هذا التعليم، فأصيبوا بعقوبة موجعة مؤلمة نقرأ شرحها في هذه الآيات.

في البداية تقول الآية: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾. أي اسأل يهود عصرك عن قضية القرية التي كانت تعيش على ساحل البحر.

ثمّ تقول: وذكّرهم كيف أنّهم تجاوزوا - في يوم السبت - القانون الإلهي ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ لأنّ يوم السبت كان يوم عطلتهم، وكان عليهم أن يكفوا فيه عن الكسب، وعن صيد السمك ويشتغلوا بالعبادة، ولكنّهم تجاهلوا هذا الأمر.

ثمّ يشرح القرآن العدوان المذكور بالعبارة التالية: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾فالأسماك كانت تظهر على سطح الماء في يوم السبت، بينما كانت تختفي في غيره من الأيّام.

و«السبت» في اللغة تعني تعطيل العمل للاستراحة، وما نقرأه في سورة النبأ ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ إشارة - كذلك - إلى هذا الموضوع، وسمّي «يوم السبتِ» بهذا الاسم لأنّ الأعمال العادية والمشاغل كانت تتعطل في هذا اليوم، ثمّ بقي هذا الاسم لهذا اليوم علماً له.

ومن البديهي أنّ صيد الأسماك يشكّل لدى سكنة ساحل البحر مورد كسبهم وتغذيتهم، وكأنّ الأسماك بسبب تعطيل عملية الصيد في يوم السبت صارت تحس بنوع من الأمن من ناحية الصيادين، فكانت تظهر على سطح الماء أفواجاً أفواجاً، بينما كانت تتوغل بعيداً في البحر في الأيّام الأُخرى التي كان الصيّادون فيها يخرجون للصيد.

إنّ هذا الموضوع سواء كان له جانب طبيعي عادي أم كان له جانب استثنائي وإلهي، كان وسيلة لامتحان واختبار هذه الجماعة، لهذا يقول القرآن الكريم: وهكذا اختبرناهم بشيء يخالفونه ويعصون الأمر فيه ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

وجملة ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ إشارة إلى أنّ اختبارهم كان من خلال أدوات موافقة لأهوائهم وما من شأنه أن يدعوهم إلى المعصية والمخالفة، وجميع الاختبارات كذلك، لأن الاختبار يجب أن يبيّن مدى مقاومة الأشخاص أمام جاذبية المعاصي والذنوب.

عندما واجهت هذه الجماعة من بني إسرائيل هذا الامتحان الكبير الذي كان متداخلاً مع حياتهم تداخلا كاملاً، انقسموا إلى ثلاث فرق:

«الفريق الأوّل»: وكانوا يشكّلون الأكثرية، وهم الذين خالفوا هذا الأمر الإلهي.

«الفريق الثّاني»: وكانوا على القاعدة يشكلون الأقلية، وهم الذين قاموا - تجاة الفريق الأوّل بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

«الفريق الثّالث»: وهم الساكتون المحايدون الذين لم يوافقوا العصاة، ولا قاموا بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفي **الآية الثّانية** من الآيات المبحوثة هنا يشرح الحوار الذي دار بين الساكنين، وبين الذين تحركوا للنهي عن ارتكاب هذه المخالفة فيقول: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾(١).

فأجابهم الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر: بأنّنا ننهى عن المنكر لأنّنا نؤدّي واجبنا تجاه الله تعالى، وحتى لا نكون مسؤولين تجاهه، هذا مضافاً إلى أنّنا نأمل أن يؤثر كلامنا في قلوبهم، ويكفوا عن طغيانهم وتعنتهم ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

ويستفاد من الجملة الحاضرة أنّ هؤلاء الواعظين كانوا يفعلون ذلك بهدفين:

الأوّل: أنّهم كانوا يعظون العصاة حتى يكونوا معذورين عند الله.

والآخر: عسى أن يؤثروا في نفوس العصاة، ويفهم من هذا الكلام أنّهم حتى مع عدم احتمال التأثير، فإنّهم كانوا لا يحجمون عن الوعظ والنصيحة في حين أنّ المعروف هو أنّ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مشروطين باحتمال التأثير.

ولكن لابدّ من الانتباه إلى أنّه ربّما يجب بيان الحقائق والوظائف الإلهيّة حتى مع عدم احتمال التأثير، وذلك عندما يكون عدم بيان الأحكام الإلهيّة، وعدم إنكار المنكر سبباً لتناسي وتنامي البدع، وحينما يعدّ السكوت دليلاً على الرضا والموافقة. ففي هذه الموارد يجب إظهار الحكم الإلهي في مكان حتى مع عدم تأثيره في العصاة والمذنبين.

إنّ هذه النقطة جديرة بالالتفات، وهي أنّ الناهين عن المنكر كانوا يقولون: نحن نريد أن نكون معذورين عند ﴿رَبِّكُمْ﴾ وكأنّ هذا إشارة إلى أنّكم أيضاً مسؤولون أمام الله، وأنّ هذه الوظيفة ليست وظيفتنا فقط، بل هي وظيفتكم تجاه ربّكم في الوقت ذاته.

ثمّ إنّ **الآية اللاحقة** تقول: وفي المآل غلبت عبادة الدنيا عليهم، وتناسوا الأمر الإلهي، وفي هذا الوقت نجينا الذين كانوا ينهون عن المنكر، وعاقبنا الظالمين بعقاب أليم بسبب فسقهم وعصيانهم ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾(٢).

---

(١) التعبير بـ ﴿أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ يكشف عن أن الفريق الثّاني كانوا أقلّ من العصاة، لأنّه عبّر عنهم بلفظة ﴿قَوْمًا﴾ بدون كلمة ﴿مِّنْهُمْ﴾، ونقرأ في بعض الآيات أنّ عدد نفوس هذه المدينة كان ثمانين ألف وبضعة آلاف، وقد ارتكب سبعون ألفاً منهم هذه المعصية (راجع تفسير البرهان، ج ٢، ص ٤٢؛ وبحار الأنوار، ج ١٤، ص ٥٦ و ٥٧ ذيل الآية مورد البحث).

(٢) ﴿بَئِيسٍ﴾ مشتقة من مادة «بأس» يعني الشديد.

ولا شكّ أنّ هذا النسيان ليس نسياناً حقيقياً غير موجب للعذر، بل هو نوع من عدم الاكتراث والاعتناء بأمر الله، وكأنّه قد نسي بالمرّة.

ثمّ يشرح العقوبات هكذا: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾(١).

وواضح أن أمر ﴿كُونُوا﴾ هنا أمر تكويني مثل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾(٢).

بحوث

وهنا نقاط عديدة يجب الالتفات إليها:

١ - كيفَ ارتكبوا هذه المعصية؟

وأمّا كيف بدأت هذه الجماعة عملية التجاوز على هذا القانون الإلهي؟ فقد وقع فيه كلام بين المفسّرين.

ويُستفاد من بعض الرّوايات أنّهم عمدوا في البداية إلى ما يسمى بالحيلة الشرعية، فقد أحدثوا أحواضاً إلى جانب البحر، وفتحوا لها أبواباً إلى البحر، فكانوا يفتحون هذه الأبواب في يوم السبت فتقع فيها أسماك كثيرة مع ورود الماء إليها، وعند الغروب حينما كانت الأسماك تريد العودة إلى البحر يوصدون تلك فتحبس الأسماك في تلك الأحواض، ثمّ يعمدون في يوم الأحد إلى صيدها، وأخذها من الأحواض، وكانوا يقولون: إنّ الله أمرنا أن لا نصيد السمك، ونحن لم نصد الأسماك إنّما حاصرناها فقط(٣).

ويقول بعض المفسّرين: إنّهم كانوا يرسلون كلاليبهم وصناراتهم وشباكهم في البحر يوم السبت، ثمّ يسحبونها يوم الأحد وقد علقت بها الأسماك، وهكذا كانوا يصيدون السمك حتى في يوم السبتِ ولكن بصورة ماكرة.

ويظهر من بعض الرّوايات الأُخرى أنّهم كانوا يصيدون السمك يوم السبتِ من دون مبالاة بالنهي الإلهي، وليس بواسطة أية حيلة.

---

(١) ﴿عَتَوْا﴾ من مادة عتّو على وزن «غلوّ» بمعنى الامتناع عن طاعة أمر، وما ذكره بعض المفسّرين من تفسيره بمعنى الامتناع فقط يخالف ما قاله أرباب اللغة.

(٢) سورة يس، الآية: ٨٢.

(٣) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٤٢، وقد روي هذا الكلام عن ابن عباس في تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٣٨٤، ذيل الآية مورد البحث.

ولكن من الممكن أن تكون هذه الرّوايات صحيحة بأجمعها وذلك أنّهم في البداية استخدموا ما يسمى بالحيلة الشرعية، وذلك بواسطة حفر أحواض إلى جانب البحر، أو إلقاء الكلاليب والصنارات، ثمّ لما صُغرت هذه المعصية في نظرهم، جرأهم ذلك على كسر احترام يوم السبت وحرمته، فأخذوا يصيدون السمك في يوم السبت تدريجاً وعلناً، واكتسبوا من هذا الطريق ثروة كبيرة جداً.

٢ - من هم الذين نجوا؟

الظاهر من الآيات الحاضرة أنّ فريقاً واحداً من الفرق الثلاثة (العصاة، المتفرجون، الناصحون) هو الذي نجا من العذاب الإلهي وهم أفراد الفريق الثّالث.

وكما جاء في الرّوايات، فإنّه عندما رأى هذا الفريق أن عظاته ونصائحه لا تجدي مع العصاة انزعجوا وقالوا: سنخرج من المدينة، فخرجوا إلى الصحراء ليلاً، واتفق أن أصاب العذابُ الإلهي كلا الفريقين الآخرين.

وأمّا ما احتمله بعض المفسّرين من أنّ العصاة هم الذين أصيبوا بالعذاب فقط، ونجا الساكتون أيضاً، فهو لا يتناسب مع ظاهر الآيات الحاضرة.

٣ - هل أنّ كلا الفريقين عوقبوا بعقاب واحد؟

يظهر من الآيات الحاضرة أنّ عقوبة المسخ كانت مقتصرة على العصاة، لأنّه تعالى يقول: ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ. . .﴾ ولكن من جانب آخر يُستفاد من الآيات الحاضرة - أيضاً - أنّ الناصحين الواعظين فقط هم الذين نجوا من العقاب، لأنّه تعالى يقول: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾.

من مجموع هاتين الآيتين يتبيّن أنّ العقوبة نالت كلا الفريقين، ولكن عقوبة المسخ اختصت بالعصاة فقط، وأمّا عقوبة الآخرين فمن المحتمل أنّها كانت الهلاك والفناء، بالرغم من أنّ العصاة أيضاً هلكوا بعد مدّة من المسخ حسب ما جاء في هذا الصدد من الرّوايات[1].

---

(١) وإن كان يُستفاد من بعض الرّوايات خلاف هذا الموضوع، فإنّه مضافاً إلى أنّه لا يمكن الاعتماد عليه في مقابل ظاهر الآيات فإنّها ضعيفة من حيث السند أيضاً، ويحتمل أن يكون الراوي قد أخطأ في نقل الرواية.

٤ - هل المسخ كان جسمانياً أو روحانياً؟

«المسخ» أو بتعبير آخر «تغيير الشكل الإنساني إلى الصورة الحيوانية» ومن المسلّم أنّه حدثٌ على خلاف العادة والطبيعة.

على أنّه قد شوهدت حالات جزئية من (موتاسيون) والقفزة، وتغيير الشكل والصورة في الحيوانات إلى أشكال وصور أُخرى، وقد شكّلت أُسُس فرضية التكامل في العلوم الطبيعية الحاضرة.

ولكنّ الموارد التي شوهدت فيها الـ«موتاسيون» والقفزة إنّما هي في صفات الحيوانات الجزئية، لا الصفات الكليّة، يعني أنّه لم يشاهَد إلى الآن نوع من أنواع الحيوان تغيّر على أثر الـ«موتاسيون» إلى نوع آخر، بل يمكن أن تتغير خصوصيات معينة من الحيوان، ناهيك عن أنّ هذه التغييرات إنّما تظهر في الأجيال التي توجد في المستقبل، لا أن يحصل هذا التغيير المفاجئ في الحيوان الذي يعيش بصورة طبيعية.

وعلى هذا الأساس، يكون تغير صورة إنسان أو حيوان إلى صورة نوع آخر أمراً خارقاً للعادة.

ولكن تقدّم أنّ هناك أُموراً تحدث على خلاف العادة والطبيعة، وهذه الأُمور ربّما تقع في صورة المعاجز التي يأتي بها الأنبياء، وأحياناً تكون في صورة الأعمال الخارقة للعادة التي تصدر من بعض الأشخاص، وإن لم يكونوا أنبياء (وهي تختلف عن معاجز الأنبياء طبعاً).

وبناءً على هذا، وبعد القبول بإمكان وقوع المعاجز وخوارق العادة، لا مانع من مسخ صورة إنسان إلى مخلوق آخر. ولا يكون ذلك مستحيلاً تأباه العقول.

ووجود مثل هذه الخوارق للعادة - كما قلنا في مبحث إعجاز الأنبياء - لا هو استثناء وخرق لقانون العلية، ولا هو خلاف العقل، بل هو مجرّد كسر قضية «عاديّة طبيعيّة» في مثل هذه الموارد، ولها نظائر رأيناها في الأشخاص غير العاديين(١).

بناءً على هذا لا مانع من قبول «المسخ» على ما هو عليه في معناه الظاهري الوارد في

(١) لقد جمع أحد الكتّاب المعاصرين نماذج كثيرة - من مصادر موثوقة - لأشخاص من البشر أو حيوانات استثنائية، ملفتة للنظر ومثيرة للعجب، ومن جملة ذلك: إنسان يستطيع قراءة السطور بأصابعه، أو امرأة وضعت مرتين في خلال شهرين، وفي كل مرة ولدت ولداً، أو طفلاً كان قلبه خارج صدره، أو امرأة لم تكن تعرف أنّها حامل حتى لحظة وضعها لوليدها، وما شابه ذلك.

الآية الحاضرة وبعض الآيات القرآنية الأخرى، وأكثر المفسّرين قبلوا هذا التّفسير أيضاً.

ولكن بعض المفسّرين - وهم الأقليّة - قالوا: إنّ المسخ هو «المسخ الروحاني» والانقلاب في الصفات الأخلاقية، بمعنى ظهور صفات مثل صفات القرود أو الخنازير في الطغاة والمتعنتين، مثل الإقبال على التقليد الأعمى والتوجه الشديد إلى البطنة والشهوة، التي هي صفات بارزة لهذين الحيوانين. وهذا الاحتمال نقل عن أحد المفسّرين القدامى وهو مجاهد.

وما أخذه البعض على مسألة المسخ، وأنّه خلاف التكامل، وأنّه يوجب العودة والرجوع والتقهقر في الخلقة غير صحيح، لأنّ قانون التكامل يرتبط بالذين يسيرون في طريق التكامل، لا أُولئك الذين انحرفوا عن مسيرة التكامل، وخرجوا عن دائره هذا القانون.

فعلى سبيل المثال: الإنسان السليم ينمو نمواً منتظماً في أعوام الطفولة، ولكنّه إذا حصلت في وجوده بعض النقائص، فيمكن أن لا يتوقف الرشد والنمو فحسب، بل يتقهقر ويفقد نموه الفكري والجسماني تدريجاً.

ولكن يجب الانتباه على كل حال إلى أنّ المسخ والتبدل والتحول الجسماني يتناسب مع الأعمال التي قام بها الشخص، يعني أنّ بعض العصاة يسلكون سبيل الطغيان تحت ضغط من دوافع الهوى والشهوة، وجماعة أُخرى تتلوث حياتهم بأدران الذنوب إثر التقليد الأعمى، ولهذا يظهر المسخ في كل فريق من هذه الفرق بصورة متناسبة مع كيفية أعمالهم.

على أنّه قد جرى الحديث في الآيات الحاضرة فقط عن «القردة» ولم يجرِ أي حديث عن «الخنازير» ولكن في الآية (٦٠) من سورة المائدة يدور الحديث حول جماعة مسخ بعضهم في صورتين (بعض قردة وبعض خنازير) وهذه الآية حسبما قال بعض المفسّرين: نزلت حول أصحاب السبت، فالكبار منهم الذين أطاعوا أمر الشهوة والبطن مسخوا خنازير، والشباب المقلد لهم تقليداً أعمى وكانوا يشكلون الأكثرية مسخوا قردة.

ولكن على كل حال يجب الالتفات إلى أنّ الممسوخين - حسب الرّوايات - بقوا على هذه الحالة عدة أيّام ثمّ هلكوا، ولم يتولد منهم نسل أبداً.

٥ - المخالفة تحت غطاء الحيلة الشّرعية

إنّ الآيات الحاضرة وإن كانت لا تتضمّن الإشارة إلى تحايل أصحاب السبت في صعيد المعصية، ولكن - كما أسلفنا - أشار كثير من المفسّرين في شرح هذه الآيات إلى قصّة حفر الأحواض، أو نصب الصنارات في البحر في يوم السبت، ويشاهد هذا الموضوع نفسه في الرّوايات الإسلامية، وبناء على هذا تكون العقوبة الإلهيّة التي جرت على هذا الفريق - بشدة - تكشف عن أن الوجه الحقيقي للذنب لا يتغير أبداً بانقلاب ظاهره، وباستخدام ما يسمى بالحيلة الشرعية، فالحرام حرام سواء أتي به صريحاً، أو تحت لفافات كاذبة، ومعاذير واهية.

إنَّ الذين تصوروا أنّه يمكن بالتغيير الصوري تبديل عمل حرام إلى حلال يخدعون أنفسهم في الحقيقة، ومن سوء الحظ أن هذا العمل رائج بين بعض الغفلة الذين ينسبون أنفسهم إلى الدين وهذا هو الذي يشوّه وجه الدين في نظر الغرباء عن الدين، ويكرّهه إليهم بشدّة.

إنّ العيب الأكبر الذي يتسم به هذا العمل - مضافاً إلى تشويه صورة الدين - هو أنّ هذا العمل التحايلي يصغر الذنب في الأنظار ويقلّل من أهمّيته وخطورته وقبحه، ويجرّىء الإنسان في مجال الذنب إلى درجة أنّه يتهيأ شيئاً فشيئاً لارتكاب الذنوب والمعاصي بصورة صريحة وعلنية. فنحن نقرأ في نهج البلاغة أنّ الإمام عليّاً عليه السلام قال: «إنّ القوم سيفتنون بأموالهم، ويمنون بدينهم على ربّهم، ويتمنون رحمته، ويأمنون سطوته، ويستحلّون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية، فيستحلّون الخمر بالنّبيذ[١] والسحت بالهدية، والربا بالبيع»[٢].

ويجب الانتباه إلى الدافع وراء أمثال هذه الحيل، إمّا إلباس الباطن القبيح بلباس قشيب وإظهاره بمظهر حَسَن أمام الناس، وإمّا خداع الضمير، واكتساب طمأنينة نفسية كاذبة.

٦ - أنواع الابتلاء الإلهي المختلفة

صحيح أنّ صيد السمك من البحر لسكان السواحل لم يكن مخالفة، ولكن قد ينهى

(١) كان النبيذ عبارة عن وضع مقدار من التمر أو الشعير أو الزبيب في الماء عدّة أيّام، ثمّ شربه وهذا وإن لم يكن حراماً شرعاً، ولكنّه على أثر سخونة الهواء تتبدل المواد السكرية فيه إلى مواد كحولية خفيفة.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٦؛ وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ١٦٣.

الله جماعة من الناس وبصورة مؤقّتة، وبهدف الاختبار والامتحان عن مثل هذا العمل، ليرى مدى تفانيهم، ويختبر مدى إخلاصهم، وهذا هو أحد أشكال الامتحان الإلهي.

هذا مضافاً إلى أنّ يوم السبت كان عند اليهود يوماً مقدساً، وكانوا قد كُلّفوا - احتراماً لهذا اليوم بالتفرغ للعبادة وممارسة البرامج الدينية - والكف - عن الكسب والاشتغال بالأعمال اليومية، ولكن سكان ميناء «أيلة» تجاهلوا كلَّ هذه الاعتبارات والمسائل، فعوقبوا معاقبة شديدة جعلت منهم ومن حياتهم المأساوية ومصيرهم المشؤوم درساً وعبرةً للأجيال اللاحقة.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

التّفسير

تفرق اليهود وتشتتهم

هاتان الآيتان تشيران إلى بعض العقوبات الدنيوية التي أصابت جماعة من اليهود خالفت أمر الله تعالى، وسحقت الحق والعدل والصدق.

فيقول في البداية: واذكروا يوم أخبر الله بأنّه سيسلّط على هذه الجماعة العاصية المتمردة فريقاً يجعلها حليفة العذاب والأذى إلى يوم القيامة ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

و«تأذّن» و«أذّن» كلاهما بمعنى الإخبار والإعلام، وكذا جاء بمعنى الحلْف والقَسَم، وفي هذه الصورة يكون معنى الآية أنّ الله تعالى أقسم بأن يكون مثل هؤلاء الأشخاص معذّبين إلى يوم القيامة.

ويُستفاد من هذه الآية أنّ هذه الجماعة المتمرّدة الطاغية لن ترى وجه الاستقرار والطمأنينة أبداً، وإن أسّست لنفسها حكومة وشيّدت دولة، فإنّها مع ذلك ستعيش حالة اضطراب دائم وقلق مستمر، إلّا إن تغيّر - بصدق - سلوكها، وتكفّ عن الظلم والفساد.

وفي ختام الآية يُضيف تعالى قائلاً: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فبالنسبة إلى الكفّار سريع العقاب، وبالنسبة للمذنبين التائبين غفور رحيم.

وهذه الجملة تكشف عن أنّ الله قد ترك الباب مفتوحاً أمامهم حتى لا يظن أحد أنّه قد كُتب عليهم المصير المحتوم والشقاء الابدي الذي لا خلاص منه.

وفي الآية اللاحقة يشير تعالى إلى تفرّق اليهود في العالم فيقول: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ﴾ فهم متفرقون منقسمون على أنفسهم بعضهم صالحون، ولهذا عندما سمعوا بنداء الإسلام وعرفوا دعوة النّبي محمّد ﷺ آمنوا به، وبعضهم لم يكونوا كذلك بل تركوا الحق وراءهم ظهرياً، ولم يرتدعوا عن معصية في سبيل ضمان مصالحهم وحياتهم المادية.

ومرّة أُخرى تتجلى هذه الحقيقة في هذه الآية وهي أنّ الإسلام لا يُعادي العنصر اليهودي، ولا يشجبهم لكونهم أتباع دين معيّن، أو منتمين إلى عنصر وعرق معيّن، بل يجعل أعمالهم هي مقياس تقييمهم.

ثمّ يُضيف تعالى قائلاً: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

أي ربّما نكرمهم ونجعلهم في رفاهٍ ونعمةٍ حتى نُثير فيهم روح الشُّكر، ويعودوا إلى طريق الحقّ. وربّما نُغْرِقُهم في الشدائد والمصاعب والمصائب حتى ينزلوا عن مركب الغرور والأنانية والتكبُّر، ويقفوا على عجزهم، لعلهم يستيقظون ويعودون إلى الله، والهدف في كلتا الحالتين هو التربية والهداية والعودة إلى الحق.

وعلى هذا الأساس تشمل «الحسنات» كل نعمة ورفاهٍ واستقرار، كما تشمل «السيئات» كل نقمة وشدة، وحصر هذين المفهومين في دائرة ضيّقة معيّنة لا دليل عليه.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

التّفسير

في الآيات الماضية دار الحديث حول أسلاف اليهود، ولكن في الآية الحاضرة دار الكلام حول أبنائهم وأخلافهم.

وفي البداية يقول تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ إنّهم ورثوا التوراة عن أسلافهم، وكان عليهم أن ينتفعوا بها ويهتدوا، ولكنّهم رغم ذلك فُتنوا بمتاع هذه الدنيا وحطامها الرخيص التافه، واستبدلوا الحق والهدى بمنافعهم الماديّة.

و«خَلْف» على وزن «حَرْف» يأتي غالباً في الأولاد غير الصالحين - كما ذهب إلى ذلك بعض المفسّرين - في حين أنّ «الخَلَف» على وزن «شَرَف» يأتي بمعنى الولد الصالح(١).

ثمّ يضيف قائلاً: وعندما وقعوا بين مفترق طريقين: بين ضغط الوجدان من جهة، والرغبات والمنافع المادية من جهة أُخرى عمدوا إلى الأماني والآمال الكاذبة وقالوا: لنأخذ المنافع الدنيوية فعلاً سواءً من حلال أو حرام، والله سيرحمنا ويغفر لنا ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾.

إنّ هذه الجملة تكشف عن أنّهم كانوا بعد القيام بمثل هذا العمل يعيشون حالة من الندم العابر والتوبة الظاهرية، ولكن هذه الندامة - كما يقول القرآن الكريم - لم تكن لها أيّة جذور في أعماق نفوسهم، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ﴾.

و﴿عَرَضٌ﴾ على وزن «غرض» يعني الشيء الذي لا ثبات له ولا دوام، ومن هذا المنطق يطلق على متاع العالم المادي اسم العرض، لكونه زائلاً غير ثابت في الغالب، فهو يقصد الإنسان يوماً ويقبل عليه بوفرة بحيث يضيّع الإنسان حسابه ولا يعود قادراً على عدّه وإحصائه وجمعه وحصره ويبتعد عنه يوماً آخر بالكلية بحيث لا يملك منه إلّا الحسرة والتذكر المؤلم، هذا مضافاً إلى أن جميع نِعم هذه الدنيا هي أساساً غير دائمة، وغير ثابتة(٢).

---

(١) تفسير مجمع البيان، وتفسير روح الجنان لأبي الفتوح الرازي، في ذيل الآية مورد البحث.

(٢) يجب الانتباه، إلى أن «عَرَض» على وزن «غَرَض» يختلف عن «عرْض» على وزن (فرض) فالأوّل بمعنى كل رأس مال دنيوي، والثّاني بمعنى المال النقدي.

وعلى كلّ حال، فإنّ هذه الجملة إشارة إلى عمليات الارتشاء التي كان يقوم بها بعض اليهود لتحريف الآيات السماوية، ونسيان أحكام الله لمضادتها لمصالحهم ومنافعهم المادية.

ولهذا قال تعالى في عقيب ذلك: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي أنّهم أُخذ عليهم الميثاق - بواسطة كتابهم السماوي التوراة - أن لا يفتروا على الله كذباً، ولا يحرفوا كلماته، ولا يقولوا إلّا الحق.

ثمّ يقول: لو كان هؤلاء الذين يرتكبون هذه المخالفات جاهلين بالآيات الإلهيّة، لكان من الممكن أن ينحتوا لأنفسهم أعذاراً، ولكن المشكلة هي أنّهم رأوا التوراة مراراً وفَهموا محتواها ومع ذلك ضيّعوا أحكامها، ونبذوا أمرها وراء ظهورهم ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾.

و«الدرس» في اللغة يعني تكرار شيء، وحيث إنّ الإنسان عند المطالعة وتلقّي العلم من الأستاذ والمعلم يكرّر المواضيع، لهذا أطلق عليه لفظ «الدرس» وإذا ما رأينا أنّهم يستعملون لفظة «درس والاندراس» على انمحاء أثر الشيء أو البناء فإنّما هو لهذا السبب وبهذه العناية، ولأنّ الأمطار والرياح والحوادث الأُخرى تتوالى على الأبنية القديمة وتبليها(١).

وفي ختام الآية يقول: إنّ هؤلاء يخطئون في تقديرهم للأُمور، وإنّ هذه الأعمال لن تجديهم نفعاً ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

ألا تفهمون هذه الحقائق الواضحة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟؟

وفي مقابل الفريق المشار إليه سابقاً يشير تعالى إلى فريق آخر لم يكتفوا بعدم اقتراف جريمة تحريف الآيات الإلهيّة وكتمانها فحسب، بل تمسكوا بحذافيرها وطبقوها في حياتهم حرفاً بحرف، والقرآن يصف هذه الجماعة بأنّهم مصلحو العالم، ويعترف لهم بأجر جزيل وثواب عظيم، ويقول عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

وقد وقع كلام بين المفسّرين حول المراد من «الكتاب» وهل أنّه التوراة أو القرآن الكريم؟ بعض ذهب إلى الأوّل، وبعض إلى الثّاني. والظاهر أنّه إشارة إلى فريق من بني

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

إسرائيل الذين انفصلوا عن الضالين الظالمين، وعاكسوهم في سلوكهم وموقفهم. ولا شكّ أنّ التمسك بالتوراة والإنجيل وما فيهما من بشائر بظهور نبيّ الإسلام ﷺ، لا ينفصل عن الإيمان بهذا النّبي.

إنّ في التعبير بـ ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ الذي هو بمعنى الاعتصام والتمسك بشيء نكتة ملفتة للنظر، لأنّ التمسك بمعنى الأخذ والالتصاق بشيء لحفظه وصيانته، وهذه هي الصورة الحسيّة للكلمة، وأمّا الصورة المعنوية لها فهي أن يلتزم الإنسان بالعقيدة بمنتهى الجدية والحرص، ويسعى في حفظها وحراستها.

إنّ التمسك بالكتاب الإلهي ليس هو أن يمسك الإنسان بيده أوراقاً من القرآن أو التوراة أو الإنجيل أو أي كتاب آخر ويشدّها عليه بقوّة، ويجتهد في حفظ غلافه وورقه من التلف، بل التمسك الواقعي هو أن لا يسمح لنفسه بأن يرتكب أدنى مخالفة لتعاليم ذلك الكتاب، وأن يجتهد في تحقيق وتطبيق مفاهيمه من الصميم.

إنّ الآيات الحاضرة تكشف لنا بوضوح عن أنّ الإصلاح الواقعي في الأرض لا يمكن من دون التمسك بالكتب السماوية، ومن دون تطبيق الأوامر والتعاليم الإلهيّة، وهذا التعبير يؤكّد - مرّة أُخرى - هذه الحقيقة، وهي أنّ الدين ليس مجرّد برنامج يرتبط بعالم ما وراء الطبيعة، وبدار الآخرة، بل هو برنامج للحياة البشرية، ويهدف إلى حفظ مصالح جميع أفراد البشر، وإجراء مبادىء العدل والسلام والرفاه والاستقرار، وبالتالي كل مفهوم تشمله كلمة «الإصلاح» الواسعة المعنى.

وما نراه من التركيز على خصوص «الصلاة» من بين الأوامر والتعاليم الإلهيّة، فإنّما هو لأجل أن الصلاة الواقعية تقوّي علاقة الإنسان بالله الذي يراه حاضراً وناظراً لجميع أعماله وبرامجه، ومراقباً لجميع أفعاله وأقواله، وهذا هو الذي عبر عنه في آيات أُخرى بتأثير الصلاة في الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وارتباط هذا الموضوع بإصلاح المجتمع الإنساني أوضح من أن يحتاج إلى بيان.

من كل ما قيل يتّضح أنّ هذا المبدأ والمرتكز الفكري لا يختص باليهود، بل هو أصل في حياة الأُمم والشعوب. وعلى هذا الأساس فإنّ الذين يجمعون متاعاً زائلاً بواسطة كتمان الحقائق وتحريفها، ثمّ يرون نتائجه المشؤومة يتّخذون لأنفسهم حالة من التوبة الكاذبة، توبة سرعان ما تزول وتذوب أمام ابتسامة من منفعة مادية متجدّدة، كما يذوب الثلج في حرّ القيظ فهؤلاء هم المخالفون لإصلاح المجتمعات البشرية، وهم الذين

يضحون بمصالح الجماعة في سبيل مصالح الفرد، سواء صدر هذا الفعل من يهوديّ أو مسيحي أو مسلم.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

التّفسير

آخر كلام حول اليهود

﴿نَتَقْنَا﴾ من مادة «نتق» على وزن «قلع» تعني في الأصل قلع وانتزاع شيء من مكانه، وإلقاءه في جانب آخر، ويطلق على النساء اللواتي يلدن كثيراً أيضاً «ناتق» لأنّهن يفصلن الأولاد من أرحامهن ويخرجنهم بسهولة.

وهذه الآية آخر آية في هذه السورة تتحدث حول حياة بني إسرائيل، وهي تتضمّن تذكير قصّة أُخرى ليهود عصر النّبي ﷺ، قصّة فيها عبرة، كما أنّها دليل على إعطاء ميثاق وعهد، إذ يقول: واذكروا إذ قلعنا الجبل من مكانه وجعلناه فوق رؤوسهم كأنّه مظلّة ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾.

وقد ظنوا أنّه سيسقط على رؤوسهم، فانتابهم اضطراب شديد وفزع ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾.

وفي تلك الحالة قلنا لهم: خذوا ما أعطيناكم من الأحكام بقوة وجديّة ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾.

واذكروا ما جاء فيه حتى تتقوا، وخافوا من العقاب الإلهي واعملوا بما أخذناه فيه منكم من المواثيق ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

إنّ هذه الآية نفسها جاءت - بفارق بسيط في الآية (٦٣) من سورة البقرة، وكما قلنا هناك فإنّ هذه القصة وقعت - حسب ما قال المفسّر المعروف العلاّمة الطبرسي في مجمع البيان عن ابن زيد - عندما عاد موسى عليه السلام من جبل الطور، واصطحب معه أحكام التوراة...

فعندما عرض على قومه الواجبات والوظائف وأحكام الحلال والحرام تصوروا أنّ العمل بكل هذه الوظائف أمر مشكل، ولهذا بنوا على المخالفة والعصيان... في هذا

الوقت نفسه، رُفعت قطعة عظيمة من الجبل فوق رؤوسهم، بحيث وقعوا في اضطراب عظيم، فالتجأوا إلى موسى عليه السلام وطلبوا منه رفع هذا الخطر والخوف عنهم، فقال لهم موسى عليه السلام في تلك الحالة: لو تعهدّتم بأن تكونوا أوفياء لهذه الأحكام لزال عنكم هذا الخطر... فسلَّموا وتعهَّدوا وسجدوا لله تعالى فزال عنهم الخطر، وأُزيحت الصخرة من فوق رؤوسهم.

أسئلة وأجوبة:

وهنا سؤالان أشرنا إليهما في سورة البقرة وإلى جوابيهما، ونذكر مختصراً عنهما هنا بالمناسبة.

السّؤال الأوّل: ألم يكن لأخذ الميثاق في هذه الحالة صفة الإجبار؟

والجواب: لا شكّ أنّه كانت تحكم في ذلك الظرف حالة من الإجبار والاضطرار، ولكن من المسلَّم أنّه لمّا ارتفع وزال الخطر فيما بعد كان بإمكانهم مواصلة هذا السلوك باختيارهم.

هذا مضافاً إلى أنّه لا معنى للإجبار في مجال الاعتقاد، أمّا في مجال العمل فلا مانع من أن يجبر الناس على أُمور تربوية تضمن خيرهم وسعادتهم وصلاحهم. فهل من العيب لو أنّنا أجبرنا شخصاً على ترك عادة شريرة، أو سلوك طريق آمن من الخطر، وعدم سلوك طريق محفوف بالأخطار؟

السّؤال الثّاني: كيف رفع الجبل فوق رؤوسهم؟

الجواب: ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ الجبل قُلِعَ من مكانه بأمر الله، واستقر فوق رؤوسهم كمظلّة.

وذهب آخرون إلى أنّ الجبل اهتز اهتزازاً شديداً بفعل زلزال شديد بحيث شاهد الناس الذين كانوا يسكنون في سفح الجبل ظلَّ قسمٌ منه فوق رؤوسهم.

ويحتمل أيضاً أن قطعة من الجبل انتزعت من مكانها واستقرت فوق رؤوسهم لحظة واحدة، ثمّ مرّت وسقطت في جانب آخر.

ولا شكّ في أنّ هذا الأمر كان أمراً خارقاً للعادة وليس حدثاً طبيعياً عادياً.

والموضوع الآخر الذي يجب الانتباه إليه هو أنّ القرآن لا يقول: إنّ الجبل صار مظلّة فوق رؤوسهم بل قال: ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾.

وهذا التعبير إنّما هو لأجل أنّ المظلّة تنصب على رؤوس الأشخاص لإظهار الحب،

والحال أنّ هذه العملية - المذكورة في الآية الحاضرة - كانت من باب التهديد، أو لأجل أنّ المظلة شيء مستقر وثابت، ولكن رفع الجبل فوق رؤوسهم كان يتسم بعدم الثبات والدوام.

ومع هذه الآية تختم الآيات المتعلقة بقصة بني إسرائيل والحوادث المختلفة، والذكريات الحلوة والمرّة التي وقعت في حياتهم.

وهذه القصّة هي آخر قصص الأنبياء التي جاءت في هذه السورة، وذكر هذه القصّة في نهاية قصصهم - مع أنّها ليست آخر حدث من الحوادث المرتبطة بهذه الجماعة - لعله لأجل أنّ الهدف من جميع هذه القصص هو التمسك بآيات الله والعمل بالمواثيق، ولأجل الوصول إلى التقوى التي جاء بيانها في هذه الآية والآية السابقة.

يعني أنّ رسالة موسى عليه السلام وسائر الأنبياء وأعمالهم ومواجهاتهم المستمرة والصعبة وما لقوا من صعابٍ ومتاعب وشدائد مضنية كانت لأجل تطبيق أوامر الله، وتنفيذ مبادىء الحق والعدالة والطهر والتقوى في المجتمعات البشرية بشكل كامل.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

التّفسير

العهدِ الأوّل وعالم الذّر

الآيات المذكورة أعلاه، تشير إلى «التوحيد الفطري» ووجود الإيمان في أعماق روح الإنسان... ولذلك فإنّ هذه الآيات تُكمّل الأبحاث الواردة في الآيات المتقدمة من هذه السورة في شأن «التوحيد الاستدلالي»!

وبالرغم من كثرة الأقوال والكلام بين المفسّرين في شأن عالم الذّر، إلّا أنّنا نحاول أن نبيّن التّفسير الإجمالي لهذه الآيات الكريمة، ثمّ نختار الأهم من آراء المفسّرين، ونبيّن وجهة نظرنا بصورة استدلالية موجزة!

يقول الله سبحانه مخاطباً نبيّه في هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾.

«الذريّة» كما يقول أهل اللغة وعلماؤها، معناها في الأصل: الأبناء الصغار اليافعون، إلّا أنّها تطلق في الغالب على عموم الأبناء، وقد تستعمل هذه الكلمة في معنى المفرد، كما قد تستعمل في معنى الجمع، إلّا أنّها في الأصل تحمل معنى الجمع!

والجذر اللغوي لهذه الكلمة مُختَلَفٌ فيه، إذ احتملوا له أوجهاً متعددة:

فقال بعضهم: إنّ جذر هذه الكلمة مأخوذ من «ذَرَأ» على زنة «زَرَعَ» ومعناه الخلق، فعلى هذا الوجه يكون معنى الذرية مساوياً «للمخلوق».

وقال بعضهم: إنّ الجذر مأخوذ من «ذَرّ» على وزن «شَرّ» ويعني الموجودات الصغيرة جدّاً كذرّات الغبار مثلاً والنمل الصغير، ومن هنا فإنّ أبناء الإنسان تبدأ حياتهم من نطفة صغيرة جداً.

والاحتمال الثّالث أنّه مأخوذ من مادة ذَرْو ومعناه النشر والتفريق والتنقية [ومنه ذَرْوُ الحنطة[1]] وإنما سمّي أبناء الإنسان بالذرية لأنّهم يتفرقون في أنحاء الأرض بعد التكاثر!

ثمّ يشير الله سبحانه إلى الهدف النهائي من هذا السؤال والجواب، وأخذ العهد من ذريّة آدم في مسألة التوحيد، فيقول: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾.

الآية التّالية تشير إلى هدف آخر من أخذ هذا العهد، وهو أنّ الله تعالى إنّما أخذ هذا العهد من ذرية بني آدم لئلا يعتذروا ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾.

أجَل... ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

إيضاح لما ورد عن عَالَم الذَّرِ:

رأينا أنّ الآيات محل البحث تتحدث عن أخذ العهد من ذريّة آدم، لكن كيف أُخِذَ هذا العهدُ؟!

لم يرد في النص إيضاح في جزئيات هذا الموضوع، إلّا أنّ للمفسّرين آراء متعددة تعويلاً منهم على الرّوايات الإسلامية[2] «الواردة عن النّبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام» ومن أهم هذه الآراء رأيان:

(١) يقال ذرأ فلان الحنطة ذرواً أو ذرّاها تذرية، أي نقّاها من الشوائب.

(٢) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٧٩.

١ - حين خُلق آدم ظهر أبناؤه على صورة الذّر إلى آخر نسل له من البشر «وطبقاً لبعض الرّوايات ظَهرَ هذا الذّر أو الذرّات من طينة آدم نفسه» وكان لهذا الذرّ عقلٌ وشعور كاف للاستماع والخطاب والجواب، فخاطب الله سبحانه الذرّ قائلاً: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟!...

فَأجاب الذرّ جميعاً: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾.

ثمّ عاد هذا الذرّ «أو هذه الذرات» جميعاً إلى صُلب آدم «أو إلى طينته» ومن هنا فقد سُميَ هذا العالم بعالم الذرّ... وهذا العهدُ بعهد «ألست»؟

فبناءً على ذلك، فإنّ هذا العهد المشار إليه آنفاً هو عهد تشريعيّ، ويقوم على أساس «الوعي الذاتي» بين الله والناس.

٢ - إنّ المراد من هذا العالم وهذا العهد هو عالم الاستعداد «والكفاءات»، و«عهد الفطرة» والتكوين والخلق. فعند خروج أبناء آدم من أصلاب آبائهم إلى أرحام الأُمهات، وهم نطف لا تعدو الذرات الصغار، وهبهم الله الاستعداد لتقبل الحقيقة التوحيدية، وأودع ذلك السرّ الإلهي في ذاتهم وفطرتهم بصورة إحساس داخلي... كما أودعه في عقولهم وأفكارهم بشكل حقيقة واعية بنفسها.

فبناءً على هذا، فإنّ جميع أبناء البشر يحملون روح التوحيد، وما أخذه الله من عهد منهم أو سؤاله إيّاهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ كان بلسان التكوين والخلق، وما أجابوه كان باللسان ذاته!

ومثل هذه التعابير غير قليلة في أحاديثنا اليوميّة، إذ نقول مثلاً: لون الوجه يُخبر عن سره الباطني ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾، أو نقول: إنّ عيني فلان المجهدتين تُنبئان أنّه لم ينم الليلة الماضية.

وقد رُوي عن بعض أُدباء العرب وخطبائهم أنّه قال في بعض كلامِهِ: سَل الأرض من شق أنهارَكِ وغرس أشجارَكِ وأينع ثمارَكِ؟ فإن لم تُجبكَ حواراً أجابتك اعتباراً!...(١)

كما ورد في القرآن الكريم التعبير على لسان الحال، كالآية (١١) من سورة فصلت، إذ جاءَ فيها: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

هذا باختصار هو خلاصة الرأيين أو النظرتين المعروفتين في تفسير الآيات آنفة الذكر...

---

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٦٩.

إلّا أنّ التّفسير الأوّل فيه بعض الإشكالات، ونعرضها في ما يلي:

١ - ورد التعبير في نصّ الآيات المتقدمة عن خروج الذريّة من بني آدم من ظهورهم، إذ قال تعالى: ﴿. . . مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ مع أنّ التّفسير الأوّل يتكلم عن آدم نفسه أو عن طينة آدم.

٢ - إذا كان هذا العهد قد أُخذ عن وعي ذاتي وعن عقل وشعور، فكيف نسيَه الجميعُ ولا يتذكره أحد مع أنّ الفاصلة الزمانية بين زماننا ليست بأبعدَ مدًى من الفاصلة بين هذا العالم والعالم الآخر «أو القيامة»؟ ونحن نقرأ في آيات عديدة من القرآن الكريم أنّ الناس سواءً كانوا من أهل الجنّة أو من أهل النّار لا ينسون أعمالهم الدنيوية في يوم القيامة، ويتذكرون ما اكتسبوه بصورة جيدة، فلا يمكن أن يُوجَّه هذا النسيان العمومي في شأن عالم الذر أبداً «ولا مجال لتأويله!».

٣ - أيّ هدف كان من وراء مثل هذا العهد؟! فإذا كان الهدف أن يسير المعاهدون في طريق الحق عند تذكرهم مثل هذا العهد، وألاّ يسلكوا إلّا طريق معرفة الله، فينبغي القول بأنّ مثل هذا الهدف لا يتحقق أبداً وبأي وجه كان، لأنّ الجميع نسوه!! . . .

وبدون هذا الهدف يعدّ هذا العهد لغواً ولا فائدة فيه.

٤ - إنّ الاعتقاد بمثل هذا العالم يستلزم - في الواقع - القبول بنوع من التناسخ، لأنّه ينبغي - طبقاً لهذا التّفسير - أن تكون روح الإنسان قد خُلقت في هذا العالم قبل ولادته الفعلية، وبعد فترة طويلة أو قصيرة جاء إلى هذا العالم ثانيةً، وعلى هذا فسوف يحوم حوله الكثير من الإشكالات في شأن التناسخ!

غير أنّنا إذا أخذنا بالتّفسير الثّاني، فلا يرد عليه أيُّ إشكال ممّا سبق، لأنّ السؤال والجواب، أو العهد المذكور - عهد فطري، وما يزال كلّ منّا يحس بآثاره في أعماق روحه، وكما يعبر عنه علماء النفس بـ«الشعور الديني» الذي هو من الإحساسات الأصيلة في العقل الباطني للإنسان، وهذا الإحساس يقود الإنسان على امتداد التاريخ البشري إلى «طريق» معرفة الله. . . ومع وجود هذا الإحساس أو الفطرة لا يمكن التذرّع بأنّ آباءنا كانوا عبدةً للأصنام ونحن على آثارهم مقتدون!! . . . .

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾(١).

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

والإشكال الوحيد الذى يَرِدُ على التّفسير الثّاني هو أنّ هذا السؤال والجواب يتخذ شكلاً «كنائيّاً» ويتسم بلغة الحوار، إلّا أنّه مع الالتفات إلى ما بيّناه آنفاً بأنّ مثل هذه التعابير كثير في اللغة العربية وجميع اللغات، فلا يبقى أيّ إشكال في هذا المجال.

ويبدو أن هذا التّفسير أقرب من سواه!

عالم الذر في الرّوايات الإسلاميّة:

وردت روايات كثيرة في مختلف المصادر الإسلاميّة من كتب الشيعة وأهل السُّنّة حول عالم الذّر... بحيث تتصور لأوّل وهلة وكأنّها رواية متواترة... فمثلاً في تفسير البرهان وردت سبع وثلاثون روايةً، وفي تفسير نور الثقلين وردت في ذيل الآيات الآنفة ثلاثون رواية بعضها مشترك والآخر مختلف، وبملاحظة الاختلاف فيها فقد يصل مجموع ما ورد من الرّوايات إلى أربعين روايةً....[1].

إلاّ أنّنا سنجد - بعد التدقيق في مضامينها ومحتواها وتقسيمها إلى مجاميع وفحصها - أنّه لا يمكن أن نعثر على رواية واحدة معتبرة منها، فكيف يمكن الاعتقاد بتواترها؟!

إنّ أكثر تلك الرّوايات منقول عن زرارة، وبعضها عن صالح بن سَهْل، وبعضها عن أبي بصير، وبعضها عن جابر، وبعضها عن عبد الله بن سنان، ومن ذلك يظهر لنا أنّه لو روى شخص واحد روايات كثيرة لكنّها متحدة المضمون فهي تعد بحكم الرواية الواحدة، وبناءً على ذلك فسيقلّ عدد تلك الرّوايات الكثيرة وتتضاءل نسبتها وتبلغ ما بين عشر إلى عشرين رواية، هذا من ناحية السند.

أمّا من ناحية المضمون والدلالة فإنّ مضامينها تختلف بعضها عن بعض، فمنها ما يوافق التّفسير الأوّل، ومنها ما يوافق التّفسير الثّاني، وبعضها لا يوافق التّفسيرين...

فالرّوايات المرقمة (٣) و(٤) و(٨) و(١١) و(٢٨) و(٢٩) والمروية عن زرارة في تفسير البرهان - ذيل الآيات محل البحث - تتفق والتّفسير الأوّل، وما روي عن عبد الله ابن سنان في الروايتين (١٢) و(١٨) في تفسير البرهان نفسه، يتفق والتّفسير الثاني...

أي إنّ بعض هذه الرّوايات مبهم، وبعضها يمثّلُ رموزاً وعبارات مجازية، كما في الروايتين (١٨) و(٢٣) المرويتين عن أبي سعيد الخدري وعبد الله الكلبي، الواردتين في التّفسير الآنف الذكر.

---

(١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٦٠٥ - ٦١٥؛ وتفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٩٢ - ١٠١، ح ٣٣٦ - ٣٦٦.

وبعض الرّوايات يذكر «أرواح بني آدم» كما في الرواية (٢٠) المرويّة عن المفضّل! . . .

ثمّ إن الرّوايات - المذكورة آنفاً - بعضها ذو سند معتبر، وبعضها فاقد للسند أو مرسل.

فبناءً على ذلك - وبملاحظة التعارض بين الرّوايات - لا يمكننا التعويل عليها على أنها وثيقة معتبرة. . . وكما عبّر أكابر علمائنا في مثل هذه الموارد فإنّه ينبغي أن نتجنّب الحكم على مثل هذه الرّوايات، وأن نكلها إلى أصحابها ورواتها.

وفي هذه الصورة نبقى متمسّكين بالنص القرآني، وكما ذكرنا آنفاً فإنّ التّفسير الثّاني أكثر انسجاماً مع الآيات.

ولو كان أسلوبُنا في البحث التفسيري يسمح لنا أن نذكر جميع طوائف الرّوايات، والتحقيق فيها - كما أشرنا آنفاً - لفعلنا ذلك ليكون البحث أكثر وضوحاً.

إلاّ أنّ الراغبين يمكنهم الرجوع إلى تّفسير «نور الثقلين»، وتفسير «البرهان»، و«بحار الأنوار»[1]، وليبحثوا في مجاميعها ويصنفوها، وينظروا في أسانيدها ومضامينها.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

التّفسير

في هذه الآيات إشارة لقصّة أُخرى من قصص بني إسرائيل، وهي تُعد مثلاً وأنموذجاً لجميع أُولئك الذين يتصفون بمثل هذه الصفات.

(١) بحار الأنوار، ج ٥، ص ٢٢٥، باب ١٠ (باب الطّينة والميثاق).

وكما سنلاحظ خلال تفسير الآيات - محل البحث - فإنّ للمفسّرين احتمالات متعددة في من تتحدث عنه أو (عليه) الآيات... إلّا أنه ممّا لا ريب فيه أن مفهوم الآيات - كسائر الآيات النازلة في ظروف خاصّة - عامٌ وشامل.

والآية الأُولى من هذه الآيات يُخاطَبُ بها النّبيُّ ﷺ حيث يقول تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

فهذه الآية تحكي قصّة رجل كان في البداية في صف المؤمنين، وحاملاً للعلوم الإلهيّة والآيات، إلّا أنّه انحرف عن هذا النهج، فوسوس له الشيطان، فكانت عاقبة أمره أن انجرّ إلى الضلال والشقاء!...

والتعبير بـ«انسلخ» وهو من مادة «الانسلاخ» معناه في الأصل الخروج من الجلد... يدلّ على أنّ الآيات والعلوم الإلهيّة كانت تحيط به إحاطة الجلد بالبدن، إلّا أنّه خرج منها على حين غرّة واستدار إلى الوراء وغيّر مسيره بسرعة!

كما يُستفاد من التعبير القرآني ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أنّ الشيطان كان أوّل الأمر آيساً منه تقريباً، لأنّه كان يسلك سبيل الحق تماماً، وبعد أن انحرف لحقه الشيطان وتربص له وأخذ يوسوس له حتى انتهى أمره إلى أن يكون من الضالين المنحرفين الأشقياء(١).

والآية التّالية تكمل هذا الموضوع على النحو التّالي ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾.

ولكن من المسلّم أنّ إكراه الناس وإجبارهم على أن يسلكوا سبيل الحق لا ينسجم والسُّنن الإلهيّة وحرية الإدارة، ولا يكون ذلك دليلاً على عظمة الشخص، لهذا فإنّ الآية تضيف مباشرة أنّنا تركناه وهواه، وبدلاً من أن ينتفع من معارفه فإنّه هوى وانحطّ ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾.

وكلمة ﴿أَخْلَدَ﴾ من (الإخلاد) وهي تعني السكن الدائم في مكان واحد مع حرية الإرادة، فجملة ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ تعني اللصوق الدائم بالأرض، وهي كناية عن عالم المادة وبهارجها، واللذائذ غير المشروعة للحياة المادية.

ثمّ تشبّه الآية هذا الفرد بالكلب الذي يُخرج لسانه لاهثاً دائماً كالحيوانات العطاشى فتقول ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾.

فهو لفرط اتّباعه الهوى وتعلقه بعالم المادة انتابته حالة من العطش الشديد غير

---

(١) تبع واتبع بمعنى لحق أو أدرك.

المحدود وراء لذائذ الدنيا، وكل ذلك لم يكن لحاجة، بل لحالة مرضيّة، فهو كالكلب المسعور الذي يظهر بحالة عطش كاذب لا يمكن إرواؤها، وهي حالة العبيد الذين لا يهمهم غير جمع المال واكتناز الثروة فلا يحسون معه بشبع أبداً.

ثمّ تضيف الآية: إنّ هذا المثال الخاص لا يتعلق بفرد معين، بل: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

العالِم المنحرف «بلعم بن باعوراء»

كما لاحظنا أنّ الآيات السالِفة لم تذكر اسم أحد بعينه، بل تحدثت عن عالم كان يسير في طريق الحق ابتداءً وبشكل لا يفكر معه أحد بأنّه سينحرف يوماً، إلّا أنه نتيجةً لاتّباعه لهوى النفس وبهارج الدنيا انتهى إلى السقوط في جماعة الضالين وأتباع الشياطين.

غير أنّنا نستفيد من أغلب الرّوايات وأحاديث المفسّرين أنّ هذا الشخص يسمّى (بعلم ابن باعوراء) الذي عاصر النّبي موسى عليه السلام وكان من مشاهير علماء بني إسرائيل، حتى أنّ موسى عليه السلام كان يعوّل عليه كداعية مقتدر، وبلغ أمره أن دعاءه كان مستجاباً لدى الباري جل وعلا، لكنّه مال نحو فرعون وإغراءاته فانحرف عن الصواب، وفقد مناصبه المعنوية تلك حتى صار بعدئذ في جبهة أعداء موسى عليه السلام [1] [2].

إلاّ أنّنا نستبعد ما يحتمله بعضهم من أنّ المقصود هو (أمية بن الصلت) الشاعر المعروف في زمان الجاهلية، الذي كان بادىء أمره ونتيجة لاطلاعه على الكتب السماوية ينتظر نبي آخر الزمان، ثمّ حصل له هاجس أنّ النّبي قد يكون هو نفسه، ولذلك بعد أن بُعث النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أصابه الحسد له وعاداه[3].

وبعيد كذلك ما احتمله بعضهم من أنّه كان (أبا عامر) الراهب المعروف في الجاهلية، الذي كان يبشر الناس بظهور رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم لكنّه بعد ظهوره صار من أعدائه[4] لأنّ جملة ﴿وَٱتْلُ﴾ وكلمة ﴿نَبَأَ﴾ وجملة ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾ تدل على أنّ تلك الأُمور لا تتعلق بأشخاص عاصروا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، بل بأقوام سابقين، مضافاً إلى تلك

---

(١) في التوراة الحالية نجد ورود قضية «بلعم بن باعوراء» أيضاً، إلّا أنّ التوراة تبرئه في النهاية من الانحراف، يراجع بذلك سفر الأعداد الباب ٢٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٣٧٧، باب ١٣ (تمام قصة بلعم بن باعورا و...).

(٣) بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٣٧٩ و ٣٨٠. (٤) بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٣٨٠.

فإنّ سورة الأعراف من السور المكية وقضيتا [أبي عامر الراهب] و[أمية بن الصلت] تتعلقان بحوادث المدينة.

ولكن بما أن أشخاصاً على غرار «بلعم» كانوا موجودين في عصر النّبي ﷺ ك (أبي عامر) و(أمية بن الصلت) فإنّ الآيات محل البحث تنطبق على هذه الموارد في كل عصر وزمان، وإلّا فإنّ مورد القصّة هو «بلعم بن باعوراء» لا غير.

وقد نقل تفسير (المنار) عن النّبي ﷺ أنّ مثل بلعم بن باعوراء في بني إسرائيل كأُمية ابن أبي الصلت في هذه الأُمّة[1].

وورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «الأصل من ذلك بلعم، ثمّ ضربه الله مثلاً لكل مؤثر هواه على هوى الله من أهل القبلة»[2].

ومن هذا يتبيّن أنّ الخطر الأكيد الذي يهدّد المجتمعات الإنسانية هو خطر المثقفين والعلماء الذين يسخّرون معارفهم للفراعنة والجبّارين لأجل أهوائهم وميولهم الدنيوية (والإخلاد إلى الأرض) ويضعون كل طاقاتهم الفكرية في سبيل الطاغوت الذي يعمل ما في - وسعه لاستغلال مثل هذه الشخصيات لإغفال وإضلال عامّة الناس.

ولا يختص الأمر بزمن النّبي موسى عليه السلام أو غيره من الأنبياء، بل حتى بعد عصر النّبي الكريم ﷺ إلى يومنا هذا نجد أمثال بلعم بن باعوراء وأبي عامر الراهب وأمية ابن الصلت، يضعون علومهم ومعارفهم ونفوذهم الاجتماعي من أجل الدرهم والدينار، أو المقام، أو لأجل الحسد، تحت اختيار المنافقين وأعداء الحق والفراعنة أمثال بني أمية وبني العباس وسائر الطواغيت.

ويمكن معرفة أُولئك العلماء من خلال أوصاف أشارت إليها الآيات محل البحث، فإنّهم ممن نسي ربّه واتبع هواه، وهم ذوو نزَوات سخّروها للرذيلة بدل التوجه نحو الله وخدمة خلقه، وبسبب هذا التسافل فقدوا كل شيء ووقعوا تحت سلطة الشيطان ووساوسِه، فسهل بيعهم وشراؤهم، وهم كالكلاب المسعورة التي لا ترتوي أبداً، ولهذه الأُمور ترك هؤلاء سبيل الحقيقة وضلوا عن الطريق حتى غدوا أئمّة الضلال.

ويجب على المؤمنين معرفة مثل هؤلاء الأشخاص والحذر منهم واجتنابهم.

والآيتان التاليتان - كنتيجة عامّة وشاملة لقضية (بلعم) وعلماء الدين الذين أحبّوا

(١) تفسير المنار، ج ٩، ص ١١٤.
(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٥٠٠.

الدنيا - فتقول أُولاهما: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾.

فما أفحش ظلم الإنسان لنفسه وهو يسخّر ملكاته المعنوية وعلومه النافعة التي بإمكانها أن تعود عليه وعلى مجتمعه بالخير، ويضعها تحت اختيار المستكبرين وأصحاب القدرة الدنيوية ويبيعها بثمن بخس فيؤدّي ذلك إلى سقوطه وسقوط المجتمع والآية الأخيرة تحذّر الإنسان وتؤكّد له أنّ الخلاص من مثل هذا الانحراف وما يكيده الشياطين لا يمكن إلّا بتوفيق وتسديد من الله عزّوجلّ: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

وتقدم كرّات بأنّ (الهداية) و(الإضلال) الإلهيين لا يعدان إجباراً ولا بدون حساب أو دليل، ويقصد بهما إعداد الأرضية للهداية وفتح سبلها أو إيصادها، وذلك بسبب الأعمال الصالحة أو الطالِحة التي صدرت من الإنسان من قبْل، وعلى أيّة حال فالتصميم النهائي بيَد الإنسان نفسه...

فبناءً على هذا فإنّ الآية محل البحث تنسجم مع الآيات المتقدمة التي تذهب إلى أصل حرية الإرادة... ولا منافاة بين هذه الآية وتلكم الآيات بتاتاً.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾

التّفسير

علائم أهل النّار

هذه الآيات تكمّل الموضوع الذي تناولته الآيات المتقدمة حول العلماء الذين ركنوا إلى الدنيا، وعوامل الهداية والضلال. والآيات - محل البحث - تقسم الناس إلى مجموعتين... وتحكي عن صفاتهما وهما أهل النّار، وأهل الجنّة.

فتتحدث عن المجموعة الأُولى - أهل النّار - أوّلاً، فتأتي بالقسم والتوكيد فتقول: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.

وكلمة ﴿ذَرَأْنَا﴾ مشتقّة من «ذَرَأَ»، وتعني هنا الإيجاد والخلق، غير أنّها في أصل اللغة تعني نشر الشيء وتفريقه، وقد وردت بهذا المعنى «الثّاني» في القرآن أيضاً، كما في عبارة ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾[1].

ولأنّ خلق الكائنات يستلزم تفريقها وتوزيعها وانتشارها على وجه الأرض، فقد جاءت هذه الكلمة بمعنى خلق «المخلوق» أيضاً وعلى كل حال، فإنّ الإشكال المهم في هذا التعبير هو كيف قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾؟ في حين قال في مكان آخر ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2] وطبقاً لمعنى هذه الآية فإنّ الجن والإنس لم يخلقوا لغير عبادة الله والرقي والتكامل والسعادة، أضف إلى ذلك أنّ هذا التعبير تُشمّ منه رائحة الجبر في الخلق، ومن هنا فقد استدل بعض مؤيدي مدرسة الجبر من أمثال الفخر الرازي بهذه الآية لإثبات مذهبه.

لكنّنا لو ضممنا آيات القرآن بعضها إلى بعض وبحثناها موضوعيّاً دون أن نُبتلى بالسطحيّة، لوجدنا الجواب على هذا السؤال كامناً في الآية محل البحث ذاتها، كما هو بيّن في آيات أُخرى من القرآن الكريم أيضاً... بحيث لا يدع مجالاً لأن تُستغل الآية ليُساء فهمها لدى بعض الأفراد. مثلُ هذا التعبير كمثل قول النجار إذ يقول مثلاً: إنّ قسماً كبيراً من هذا الخشب قد هيأته لكي أصنع منه أبواباً جميلة، والقسم الآخر هو للإحراق والإضرام... فالخشب الرائق الجيّد المناسب سأستعمله للقسم الأوّل، وأمّا الخشب الرديء غير المناسب فسأدعه للقسم الثّاني.

ففي الحقيقة إنّ للنجار هدفين: هدفاً «أصيلاً» وهدفاً «تبعيّاً».

فالهدف الأصيل هو صنع الأبواب والأُطر الخشبيّة الجيّدة وما إلى ذلك، وهو يبذل قصارى جهده وسعيه في هذا المضمار...

إلّا أنّه حين يجد أنّ بعض الخشب لا ينفعه شيئاً، فسيكون مضطراً إلى نبذه ليكون حَطباً للحرق والإشعال، فهذا الهدف «تبعيّ» لا أصلي.

والفرق الوحيد بين هذا المثال وما نحن فيه، أنّ الاختلاف بين أجزاء الخشب ليس اختيارياً، واختلاف الناس له صلة وثيقة بأعمالهم أنفسهم، وهم مختارون وإرادتهم حرّة بإزاء أعمالهم.

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٥.
(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

وخير شاهد على هذا الكلام ما جاء من صفات لأهل النّار وصفات لأهل الجنّة في الآيات محل البحث، التي تدلّ على أنّ الأعمال هي نفسها أساس هذا التقسيم، إذ كان فريق منهم في الجنّة، وفريق في السعير.

وبتعبير آخر فإنّ الله سبحانه - ووفقاً لصريح آيات القرآن المختلفة - خلق الناس جميعهم على نسق واحد طاهرين، ووفّر لهم أسباب السعادة والتكامل، إلّا أنّ قسماً منهم اختاروا بأعمالهم جهنّم فكانوا من أهلها فكان عاقبة أمرهم خُسراً. . . وأنّ قسماً منهم اختاروا بأعمالهم الجنّة وكان عاقبة أمرهم السعادة. . . .

ثمّ يلخّص القرآن صفات أهل النّار في ثلاث جمل، إذ تقول الآية: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾. . .

وقد قلنا مراراً: إنّ التعبير بـ «القلب» في مصطلح القرآن يعني الفكر والروح وقوّة العقل، أي إنّهم بالرّغم ممّا لديهم من استعداد للتفكير، وأنّهم ليسوا كالبهائم فاقدي الشعور والإدراك، إلّا أنّهم في الوقت ذاته لا يفكرون في عاقبتهم ولا يستغلون تفكيرهم ليبلغوا السعادة.

والصفة الثّانية التي ذكرتها الآية لأهل النّار: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾.

والصفة الثّالثة الواردة في حقهم ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾.

لأنّ البهائم والأنعام لا تملك هذه الاستعدادات والإمكانات، إلّا أنّهم بما لديهم من عقل سالم وعين باصرة وأذن سامعة، بإمكانهم أن يبلغوا كل مراتب الرقي والتكامل، إلّا أنّهم نتيجةً لاتباعهم هواهم ورغبتهم - بكل هذه التوافه من الأُمور تركوا هذه الاستعدادات جانباً. . . وكان شقاؤهم كبيراً لهذا السبب: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

فالمعين الذي يحييهم ويروي ظمأهم موجود إلى جانبهم وهم على مقربة منه، إلّا أنّهم يتصارخون من الظمأ وأبواب السعادة مفتحة أمامهم لكنّهم لا يلتفتون إليها.

ويتّضح ممّا ذكرناه آنفاً أنّهم اختاروا بأنفسهم سُبلَ شقائهم وهدروا النِّعم الكبرى «العقل والعين والأذن. . .» لا أنّ الله أجبرهم على أن يكونوا من أهل النّار.

لماذا هم كالأنعام؟

لقد شبّه القرآن الكريم الجاهلين الغافلين عديمي الشعور بالأنعام والبهائم مراراً، إلّا أن تشبيه القرآن هؤلاء بالأنعام لعلّه بسبب انهماكهم باللذائذ والشهوات الجنسية والنوم

فحسب، فهم كالأُمم التي تحلم في الوصول إلى حياة مادية مرفهة تحت شعارات برّاقة تخدع الإنسان بأنّ آخر هدف للعدالة الاجتماعية والقوانين البشرية هو الحصول على الخبز والماء. . .

وكما يشبهها الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة قائلاً: «كالبهيمة المربوطة همّها علفها أو المرسلة شغلها تقممها»[1].

وبتعبير آخر: إنّ جماعة منهم تنعم بالرفاه كالأغنام المربوطة التي تُدجن لتسمن، وجماعة آخرين كالغنم السائمة الباحثة عن العلف والماء في الصحراء، إلّا أنّ هدف كل منهما هو ما يشبع البطن ليس إلّا!.

وهذا الذي ذكرناه آنفاً قد يصدق على شخص معين كما قد يصدق على أُمّة كاملة برمّتها، فالأُمم التي لا تفكر بنفسها وتتلّهى بالأُمور التافهة غير الصائبة، ولا تعالج جذور شقائها ولا تطمح لأسباب الرقيّ، ليس لها آذان سامعة ولا أعين باصرة، فهي من أهل النّار أيضاً، لا نار القيامة فحسب، بل هي مبتلاة بنار الدنيا وشقائها كذلك.

وفي الآية التّالية إشارة إلى حال أهل الجنّة وبيان لصفاتهم، فتبدأ الآية بدعوة الناس إلى التدبّر والتوجّه إلى أسماء الله الحسنى كمقدمة للخروج من صف أهل النّار، فتقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾.

والمراد من «أسماء الله الحسنى» هي صفات الله المختلفة التي هي حُسنى جميعاً، فنحن نعرف أنّ الله عالم قادر رازق عادل جواد كريم رحيم، كما أنّ له صفات أُخرى حسنى من هذا القبيل أيضاً.

فالمراد من دعاء الله بأسمائه الحسنى، ليس هو ذكر هذه الألفاظ وجريانها على اللسان فحسب، كأن نقول مثلاً: يا عالم يا قادر يا أرحم الراحمين، بل ينبغي أن نتمثّلَ هذه الصفات في وجودنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، وأن يشعّ إشراق من علمه وشعاع من قدرته وجانب من رحمته الواسعة فينا وفي مجتمعنا.

وبتعبير آخر: ينبغي أن نتّصف بصفاته ونتخلّق بأخلاقه، لنستطيع بهذا الشعاع، شعاع العلم والقدرة والرحمة والعدل أن نُخرج أنفسنا ومجتمعنا الذي نعيش فيه من سلك أهل النّار. . .

---

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٤٥.

ثمّ تحذر الآية من هذا الأمر، وهو أن تُحرّف أسماؤه فتقول: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

والإلحاد - في الأصل - مأخوذ من مادة «اللَّحد» على زنة «المَهْد» التي تعني الحفرة التي تقع في طرف واحد، وعلى هذا الأساس فقد سمّيت الحفرة التي تكون في جانب القبر «لحداً».

ثمّ أُطلق هذا الاستعمال «الإلحاد» على كل عمل ينحرف عن الحدّ الوسط نحو الإفراط أو التفريط، ولذلك فقد سمّي الشرك وعبادة الأوثان إلحاداً أيضاً.

والمقصود من الإلحاد في أسماء الله هو أن نحرِف ألفاظها أو مفاهيمها، بحيث نصفه بصفات لا تليق بساحته المقدّسة، كما يصفه المسيحيون بالتثليث «الأب والابن وروح القدس» أو أن نطبّق صفاته على المخلوقين كما فعل ذلك المشركون وعبدة الأوثان إذ اشتقوا لأصنامهم أسماءً من أسماء الله فسمّوها اللات والعزّى ومناة... (وغيرها) فهذه الأسماء مشتقّة من الله والعزيز والمنان «على التوالي».

أو أنّهم حرّفوا صفاته حتى شبّهوه بالمخلوقات، أو عطّلوا صفاته، وما إلى ذلك.

أو أنّهم اكتفوا بذكر الاسم فحسب دون أن يتمثلوه ويعرفوا آثاره في أنفسهم وفي مجتمعاتهم.

وفي آخر آية من الآيات محل البحث إشارة إلى صفتين من أبرز صفات أهل الجنّة، إذ تقول الآية: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

وفي الواقع، إنّ لهؤلاء منهجين ممتازين فأفكارهم وأهدافهم ودعواتهم وثقافاتهم حقّة، وهي في اتجاه الحق أيضاً، كما أنّ أعمالهم وخططهم وحكوماتهم قائمة على أساس الحق والحقيقة.

بحوث

١ - ما هي الأسماء الحسنى؟

في المصادر الروائية «لأهل السُّنة والشيعة» أبحاث كثيرة عن أسماء الله الحسنى، نورد خلاصتها في هذا المجال مضافاً إليها ما نعتقده نحن في هذا الصدد.

لا شكّ أنّ الأسماء الحسنى تعني الأسماء الكريمة، ونحن نعرف أنّ أسماء الله كلّها تحمل مفاهيم حُسنى، ولذلك فجميع أسمائه أسماءٌ حسنى، سواءً كانت صفات لذاته

المقدّسة الثبوتية كالعلم والقادر، أم كانت صفات سلبية كالقُدّوس مثلاً، أو صفات تحكي فعلاً من أفعاله كالخالق أو الغفور أو الرحمٰن أو الرحيم الخ...

ومن ناحية أُخرى، لا شكّ أنّ صفات الله لا يمكن إحصاؤها، لأنّ كمالاته غير متناهية، ويمكن أن يذكر لكل صفة من صفاته أو كمال من كمالاته اسم...

إلاّ أنّ ما نستفيده من الأحاديث أنّ لبعض صفاته أهميّة أكثر من سواها، ولعل «الأسماء الحسنى» الواردة في الآية محل البحث إشارة إلى هذه الطائفة من الأسماء المتميّزة، إذ ورد عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة من أهل بيته عليهم السلام روايات كثيرة بهذا المعنى كالرواية الواردة في كتاب التوحيد «للصّدوق» عن أبي عبد الله جعفر بن محمّد الصادق، عن آبائه عليهم السلام، عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ لله تبارك وتعالى تسعةً وتسعين اسماً - مئة إلّا واحدة - من أحصاها دخل الجنّة»(١).

كما ورد في كتاب التوحيد عن الإمام علي بن موسى الرّضا عليه السلام عن آبائه عن علي عليه السلام أنّه قال: «إنّ لله عزّ وجلّ تسعة وتسعين إسماً من دعا الله بها استجاب له ومن أحصاها دخل الجنّة»(٢).

وقد جاء في روايات (أهل السُّنَّة) «كما في كتاب صحيح البخاري وصحيح مسلم والترمذي وكتب أُخرى» هذا المضمون ذاته: «إنّ لله تسعة وتسعين اسماً فمن دعاه بها استجاب دعاءَه، ومن أحصاها فهو من أهل الجنّة»(٣).

ويستفاد من بعض الأحاديث أن هذه الأسماء التسعة والتسعين كلها في القرآن، كالرّواية الواردة عن ابن عباس أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لله تسعة وتسعون اسماً من أحصاها دخل الجنّة، وهي في القرآن»(٤).

ولذلك فقد سعى جماعة من العلماء إلى أن يستخرجوا أسماء الله الحسنى من القرآن، إلّا أن ما جاء في القرآن من أسماء وصفات لله سبحانه تزيد على تسعة وتسعين اسماً، فبناءً على ذلك لعل الأسماء الحسنى من بين تلك الأسماء، لا أنّه لا يوجد في القرآن غير تسعة وتسعين اسماً لله المشار إليها آنفاً (في بعض الأحاديث).

وقد صرّحت بعض هذه الرّوايات بالأسماء الحسنى «التسعة والتسعين» ونحن نوردها هنا، إلّا أنّه ينبغي الالتفات إلى أن بعض هذه الأسماء الواردة في هذه الرواية لم ترد في القرآن بالصيغة الواردة في الرواية ذاتها وإنّما ورد مضمونها أو مفهومها في القرآن.

(١-٤) تفسير الميزان، ومجمع البيان، ونور الثقلين، ذيل الآيات مورد البحث.

فقد جاء في الرّواية المنقولة في كتاب «التوحيد» للصّدوق عن الإمام الصادق عن آبائه عن علي عن النّبي ﷺ، فبعد أن أشار عليه السلام إلى أنّ لله تسعة وتسعين اسماً قال وهي: «الله، الإله، الواحد، الأحد، الصمد، الأول، الآخر، السميع، البصير، القدير، القادر، العلي، الأعلى، الباقي، البديع، الباري، الأكرم، الباطن، الحي، الحكيم، العليم، الحليم، الحفيظ، الحق، الحسيب، الحميد، الحفي، الرب، الرحمن، الرحيم، الذارىء، الرازق، الرقيب، الرؤوف، الرائي، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، السيد، السبّوح، الشهيد، الصادق، الصانع، الظاهر، العدل، العفو، الغفور، الغني، الغياث، الفاطر، الفرد، الفتاح، الفالق، القديم، الملك، القدوس، القوي، القريب، القيّوم، القابض، الباسط، قاضي الحاجات، المجيد، المولى، المنان، المحيط، المبين، المغيث، المصوّر، الكريم، الكبير، الكافي، كاشف الضر، الوتر، النور، الوهّاب، الناصر، الواسع، الودود، الهادي، الوفي، الوكيل، الوارث، البرّ، الباعث، التواب، الجليل، الجواد، الخبير، الخالق، خير الناصرين، الديان، الشكور، العظيم، اللطيف، الشافي»[1].

لكن الأهم - هنا - وينبغي ملاحظته والالتفات إليه، هو أنّ المراد من دعاء الله بأسمائه الحسنى هل يعني أن نعدّ هذه الأسماء أو أن نجريها على الألسنة فحسب، بحيث إن من ذكر هذه التسعة والتسعين اسماً دون أن يتمثل محتواها ويفهمها كان من السعداء، أو أنّه ستجاب دعوته، بل الهدف هو أن يؤمن الإنسان بهذه الأسماء والصفات، ثمّ يسعى - ما استطاع إلى ذلك سبيلاً - لأن يعكس في وجوده إشراقاً من مفاهيم تلك الأسماء، أي: العالم، القادر، الرحمٰن، الرحيم، الغفور، القوي، الغني، الرازق، وأمثالها. فإنّ كان كذلك كان من أهل الجنّة، وكان دعاؤه مستجاباً ونال كل خير قطعاً.

ويستفاد ضمناً ممّا ذكرناه آنفاً أنّه لو وردت في بعض الرّوايات الأُخرى والأدعية أسماء غير هذه الأسماء لله سبحانه، حتى لو وصلت إلى الألف - مثلاً - فلا منافاة بينها وبين ما نقلناه هنا أبداً، لأنّ أسماء الله لا حد لها ولا حصر، وهي - كذاته وكمالاته - لا نهاية لها. وإن كان لبعض هذه الأسماء أو الصفات ميزات خاصّة.

---

(١) تفسير الميزان، ج٨، ص ٣٦٠ و ٣٧٦، نقلاً عن التوحيد للصدوق. بحار الأنوار، ج ٤، ص ١٨٦.

من ذلك الرواية الواردة في أُصول الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية، إذ يقول: «نحن والله الأسماء الحسنى»[١] فهي إشارة إلى أنّ إشعاعاً من صفاته قد انعكس فينا، فمن عرفنا فقد عرف ذاته المقدسة. . .

و لو ورد مثلاً في بعض الأحايث أنّ جميع الأسماء الحسنى تتلخص في التوحيد الخالص، فإنّما هو لأن جميع صفاته ترجع إلى ذاته المقدسة.

ويشير الفخر الرازي في تفسيره إلى أمر قابل للملاحظة، وهو أنّ جميع صفات الله تعالى يعود إلى إحدى حقيقتين «استغناء ذاته عن كل شيء» أو «احتياج الآخرين إلى ذاته المقدسة. . .»[٢].

٢ - الأمّةُ الهُداة!

قرأنا في الآيات محل البحث أنّ طائفة من عباد الله يدعون إلى الحق ويحكمون به ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾.

هناك تعبيرات مختلفة في الرّوايات الواردة في كتب الأحاديث الإسلامية، في المراد من هذه الأمّة. ومن جملة هذه الرّوايات ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال. المراد من الآية هو «أمّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم»[٣].

ويعني الإمام بهم أتباع النّبي الصادقين المنزّهين عن كل بدعةٍ وانحرافٍ تغييرٍ أو حيادٍ عن تعاليمه الكريمة. . .

ولهذا فقد ورد في حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «والذي نفسي بيده لَتفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلّها في النّار إلّا فرقة ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾، وهذه التي تنجو من هذه الأُمّة»[٤].

ولعل العدد - ٧٣ - للكثرة، وهو إشارة إلى الطوائف المختلفة التي ظهرت في طول تاريخ الإسلام في عقائد عجيبة غريبة، ولحسن الحظ قد انقرض أغلبها فلم يبق منها إلّا أسماؤها في كتب «تاريخ العقائد».

وفي حديث آخر ورد في كتب أهل السُّنّة عن الإمام علي عليه السلام ضمن إشارته

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٢، ص ١٠٣.
(٢) تفسير الكبير للفخر الرازي، ج ١٥، ص ٦٦، ذيل الآية مورد البحث.
(٣) تفسير نور الثقلين، ج٢، ص ١٠٥؛ بحار الأنوار، ج ٢٤، ص ١٤٤.
(٤) تفسير نور الثقلين، ج٢، ص ١٠٥؛ بحار الأنوار، ج ٢٨، ص ١١.

لاختلاف الأمم التي تظهر بعدئذ في الأُمّة الإسلامية، قال عليه السلام: «الفرقة الناجية أنا وشيعتي وأتباع مذهبي»(١).

وجاء في بعض الرّوايات الأُخرى أنّ المراد من قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾، هم الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام (٢).

وواضح أنّ الرّوايات المذكورة آنفاً كلّها تعالج حقيقةً واحدةً، وهي بيان المصاديق المختلفة لهذه الحقيقة، وأن الآية تشير إلى أُمّة تدعو إلى الحق وتعمل بالحق وتحكم به، وتسير في مسير الإسلام الصحيح. غاية ما في الأمر أنّ بعضهم في قمة هذه الأُمّة ورأسها وبعضهم في مراحل أُخر...

وممّا يسترعي النظر أنّ هؤلاء الذين عبّرت عنهم الآية بقولها: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ﴾ على اختلاف لغاتهم وقوميّاتهم ومراحلهم العلمية وأمثالها، هم أُمّة واحدة لا غير، ولذلك فإنّ القرآن قال عنهم: ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ ولم يعبر عنهم بـ«أمم يهدون...».

٣ - اسم الله الأعظم

جاء في بعض الرّوايات عن قصة بلعم بن باعورا الذي ورد ذكره آنفاً أنّه كان يعرف الاسم الأعظم، ولا بأس أن نشير إلى هذا الموضوع لمناسبة وُرود الأسماء الحُسنَى في الآيات محل البحث...

فقد وردت روايات مختلفة في شأن الاسم الأعظم، ويُستفاد منها أنّ مَن يعرف الاسم الأعظم لا يكون مُستجاب الدعاء فحسب، بل تكون له القدرة على أن يتصرف في عالم الطبيعة وأن يقوم بأعمال مهمّة...

والاسم الأعظم، أيُّ اسم هو من أسماء الله؟!

بحث علماء الإسلام كثيراً في هذا الشأن، وأغلب أبحاثهم تدور في أن يعثروا على اسم من بين أسماء الله له هذه الخصوصيّة العجيبة والأثر الكبير.

إلّا أنّ الأهم في البحث أن نعثر على اسم أو صفة من صفاته تعالى بتطبيقها على وجودنا نحصل على تكامل روحي تترتب عليه تلك الآثار.

---

(١) تفسير البرهان، ج٢، ص ٥٣؛ وبحار الأنوار، ج ٢٨، ص ١١.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج٢، ص ١٠٤ - ١٠٥؛ وبحار الأنوار، ج ٢٣، ص ٥.

وبتعبير آخر: إنّ المسألة المهمّة هي التخلّق بصفات الله والاتصاف بها وتحقيقها في واقع الإنسان، وإلّا كيف يمكن أن يكون الشخص الرديء الوضيع مستجاب الدعوة بمجرّد معرفته الاسم الأعظم؟!

وإذا ما سمعنا أنّ بلعمَ بن باعوراء كان لديه هذا الاسم الأعظم إلّا أنّه فقده، فمفهوم هذا الكلام أنّه كان قد بلغ - بسبب بناء شخصيته وإيمانه وعلمه وتقواه - إلى مثل هذه المرحلة من التكامل المعنوي بحيث كان مستجاب الدعوة عند الله، إلّا أنّه سقط أخيراً في الوحل وفقد تلك الروحية بسبب اتباعه لهوى النفس وانقياده لفراعنة زمانه، ولعل المراد من نسيان الاسم الأعظم هو هذه الحالة أو هذا المعنى.

كما أنّنا لو قرأنا - أيضاً - أنّ الأنبياء والأئمّة الكرام كانوا يعرفون الاسم الأعظم، فمفهوم هذا الكلام هو أنّهم جسّدوا اسم الله الأعظم في وجودهم، واستضاءوا بشعاعه، فأولاهم الله - بهذه الحال - مثل هذا المقامِ العظيمِ.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾

التّفسير

الاستدراج

تعقيباً على البحث السابق الذي عالجته الآيات المتقدمة - والذي يبيّن حال أهل النّار - تبيّن هاتان الآيتان واحدةً من سُننِ الله في شأن كثير من عباده المجرمين المعاندين، وهي ما عبّر عنها القرآن «بعذاب الاستدراج».

والاستدراج جاء في موطنين من القرآن: أحدهما في الآيتين محل البحث، والآخر في الآية (٤٤) من سورة القلم، وكلا الموطنين يتعلقان بمكذّبي آيات الله ومنكريها.

وكما يقول أهل اللغة، فإنّ للاستدراج معنيين:

أحدهما: أخذ الشيء تدريجاً، لأنّ أصل الاستدراج مشتقّ من (الدرجة) فكما أنّ الإنسان ينزل من أعلى العمارة إلى أسفلها بالسلالم درجةً درجة، أو يصعد من الأسفل إلى الأعلى درجةً درجة ومرحلة مرحلةً، فقد سمّي هذا الأمر استدراجاً.

والمعنى الثّاني للاستدراج هو اللّف والطّي، كطي السّجل أو «الطومار» ولفّه.

وهذان المعنيان أوردهما الراغب في مفرداته، إلّا أنّ التأمل بدقّة في المعنيين يكشف أنّهما يرجعان إلى مفهوم كلي جامع واحد: وهو العمل التدريجي.

وبعد أن عرفنا معنى الاستدراج نعود إلى تفسير الآية محل البحث.

يقول سبحانه في الآية الأُولى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي سنعذّبهم بالاستدراج شيئاً فشيئاً، ونطوي حياتهم.

والآية الثّانية تؤكّد الموضوع ذاته، وتشير بأنّ الله لا يتعجّل بالعذاب عليهم، بل يمهلهم لعلهم يحذرون ويتعظون، فإذا لم ينتبهوا من نومتهم ابتلوا بعذاب الله؛ فتقول الآية ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾.

لأنّ الاستعجال يتذرع به من يخاف الفوت، والله قوي ولا يفلت من قبضته أحد ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

و«المتين» معناه القوي المحكم الشديد، وأصله مأخوذ من المتن، وهو العضلة المحكمة التي تقع في جانب الكتف (في الظهر).

و«الكيد» والمكر متساويان في المعنى، وكما ذكرنا في ذيل الآية (٥٤) من سورة آل عمران، أنّ المكر يعني في أصل اللغة الاحتيال ومنع الآخر من الوصول إلى قصده.

ويستفاد من الآية - الآنفة الذكر وآيات أُخرى وبعض الأحاديث الشريفة الواردة في شأن الاستدراج، أو العذاب الاستدراجي - أنّ الله لا يتعجل بالعذاب على الطغاة والعاصين المتجرّئين وفقاً لسنته في عباده، بل يفتح عليهم أبواب النِّعم، فكلّما ازدادوا طغياناً زادهم نعماً.

وهذا الأمر لا يخلو من إحدى حالتين، فإمّا أن تكون هذه النِّعم مدعاة للتنبيه والإيقاظ فتكون الهداية الإلهيّة في هذه الحال عمليّة.

أو أنّ هذه النِّعم تزيدهم غروراً وجهلاً، فعندئذ يكون عقاب الله لهم في آخر مرحلة أوجع، لأنّهم حين يغرقون في نِعَم الله وملذاتهم ويبطرون، فإنّ الله سبحانه يسلب عندئذ هذه النِّعم منهم، ويطوي سجل حياتهم، فيكون هذا العقاب صارماً وشديداً جدّاً...

وهذا المعنى بجميع خصوصياته لا يحمله لفظ الاستدراج وحده، بل يُستفاد هذا المعنى من جملة: ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أيضاً.

وعلى كل حال، فهذه الآية تنذر جميع المجرمين والمذنبين بأنّ تأخير الجزاء من قبل الله لا يعني صحة أعمالهم أو طهارتهم، ولا عجزاً وضعفاً من الله، وأن لا يحسبوا أنّ

النِّعم التي غرقوا فيها هي دليل على قربهم من الله، فما أقرب من أن تكون هذه النِّعم والانتصارات مقدمة لعقاب الاستدراج. فالله سبحانه يغشّيهم بالنِّعم ويمهلهم ويرفعهم عالياً، ثمّ يكبسهم على الأرض فجأة حتى لا يبقى منهم أثر، ويطوي بذلك وجودهم وتأريخ حياتهم كله.

يقول الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة إنّه: «من وسّع عليه في ذات يده فلم يَرَ ذلك استدراجاً فقد أمن مخوفاً»[١].

كما جاء عنه عليه السلام في روضة الكافي أنّه قال: «ثمّ إنّه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس في ذلك الزمان شيء أخفى من الحق، ولا أظهر من الباطل، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله صلى الله عليه وآله - إلى أن قال - يدخل الداخل لما يسمع من حكم القرآن فلا يطمئن جالساً حتى يخرج من الدين، ينتقل من دين ملك إلى دين ملك، ومن ولاية ملك إلى ولاية ملك، ومن طاعة ملك إلى طاعة ملك، ومن عهود ملك إلى عهود ملك، فاستدرجهم الله تعالى من حيث لا يعلمون»[٢].

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «كم من مغرور بما قد أنعم الله عليه، وكم من مستدرج يستر الله عليه، وكم من مفتون بثناء الناس عليه»[٣].

وجاء عنه عليه السلام في تفسير الآية المشار إليها آنفاً أنّه قال: «هو العبد يذنب الذنب فتجدد له النعمة معه، تلهيه تلك النعمة عن الاستغفار عن ذلك الذنب»[٤].

وورد عنه عليه السلام في كتاب الكافي أيضاً: «إنّ الله إذا أراد بعبد خيراً فأذنب ذنباً أتبعه بنقمة ويذكره الاستغفار، وإذا أراد بعبد شرّاً فأذنب ذنباً أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار، ويتمادى بها، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بالنِّعم عند المعاصي»[٥].

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٣٥٨؛ وبحار الأنوار، ج ٥، ص ٢٢٠.
(٢-٤) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ١٠٦.
(٥) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٥٣.

سبب النّزول

روى المفسّرون أنّ النّبي ﷺ حين كان بمكّة، صعد ذات ليلة على جبل الصفا ودعا الناس إلى توحيد الله، وخاصّة قبائل قريش، وحذرهم من عذاب الله، وقال: «إنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد، قولوا، لا إله إلّا الله تفلحوا» فقال المشركون: إنّ صاحبهم قد جُنّ، فقد بات ليلاً يصوّت حتى الصباح(١)، فنزلت الآيات وألجمتهم وردت قولهم.

ورغم أنّ الآية لها شأن خاص، إلّا أنّها في الوقت ذاته لمّا كانت تدعو إلى معرفة النّبي وهدف الخلق والتهيؤ للعالم الآخر، ففيها ارتباط وثيق بالمواضيع التي سبق بيانها في شأن أهل الجنّة وأهل النّار.

التّفسير

التُّهم والأباطيل

في الآية الأُولى من الآيات - محل البحث - يردُّ الله سبحانه على كلام المشركين الفارغ، بزعمهم أنّ النّبي ﷺ قد جُنّ، فيقول سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾(٢).

وهذا التعبير يشير إلى أنّ النّبي ﷺ لم يكن شخصاً مجهولاً بينهم، وتعبيرهم بـ«الصاحب» يعني المحب والمسامر والصديق وما إلى ذلك، وكان النّبي معهم أكثر من أربعين عاماً يرون ذَهابه وإيابه وتفكيره وتدبيره دائماً وآثار النبوغ كانت باديةً عليه، فمثل هذا الإنسان الذي كان يُعدّ من أبرز الفضلاء والعقلاء قبل الدعوة إلى الله، كيف تلصق به مثل هذه التهمة بهذه السرعة؟! أما كان من الأفضل أن يتفكروا - بدلاً من إلصاق التهم به - في احتمال أن يكون صادقاً في دعواه ومرسل من قبل الله سبحانه؟! كما عقّب القرآن الكريم وبيّن ذلك بعد قوله ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾؟ فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

وفي الآية التّالية - استكمالاً للموضوع الآنف الذكر - دعاهم القرآن إلى النظر في

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٤، ص ٧٧٦، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) «الجنّة» كما يذهب إليه أصحاب اللغة معناها الجنون، ومعناها في الأصل: الحائل والمانع فكأنما يُلقى على العقل حائل عند الجنون.

عالم الملكوت عالم السماوات والأرض، إذ تقول الآية: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾.

ليعلموا أنّ هذا العالم الواسع، عالم الخلق، عالم السماوات والأرض، بنظامه الدقيق المحيّر المذهل لم يخلق عبثاً، وإنّما هناك هدف وراء خلقه. ودعوة النّبي ﷺ في الحقيقة، هي من أجل ذلك الهدف، وهو تكامل الإنسان وتربيته وارتقاؤه.

و«الملكوت» في الأصل مأخوذ من «الملك» ويعني الحكومة والمالكية، والواو والتاء المزيدتان المردفتان به هما للتأكيد والمبالغة، ويُطلق هذا الاستعمال على حكومة الله المطلقة التي لا حدّ لها ولا نهاية..

فالنظر إلى عالم الملكوت ونظامه الكبير الواسع المملوك لله سبحانه يقوّي الإيمان بالله والإيمان بالحق، كما أنّه يكشف عن وجود هدف مهم في هذا العالم الكبير المنتظم أيضاً، وفي الحالين يدعو الإنسان إلى البحث عن ممثّل الله ورَسول رحمته الذي يستطيع أن يطبق الهدف من الخلق في الأرض.

ثمّ تقول الآية معقبة لتنبّههم من نومة الغافلين: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: **أوّلاً**: ليس الأمر كما يتصورون، فأعمارهم غير خالدة، والفرص تمر مرّ السحاب، ولا يدري أحد أهو باق إلى غد أم لا؟! فمع هذه الحال ليس من العقل التسويف وتأجيل عمل اليوم إلى غد.

ثانياً: إذا لم يكونوا ليؤمنوا بهذا القرآن العظيم الذي فيه ما فيه من الدلائل الواضحة والبراهين اللائحة الهادية إلى الإيمان بالله، فأيّ كتاب ينتظرونه خير من القرآن ليؤمنوا به؟ وهل يمكن أن يؤمنوا بكلام آخر ودعوة أُخرى غير هذه؟!

وكما نلاحظ فإنّ الآيات محل البحث تُوصد جميع سبل الفرار بوجه المشركين، فمن ناحية تدعوهم إلى أن يتفكروا في شخصيّة النّبي وعقله وسابق أعماله فيهم لئلا يتملّصوا من دعوته باتهامهم إيّاه بالجنون.

ومن ناحية أُخرى تدعوهم إلى أن ينظروا في ملكوت السماوات والأرض، والهدف من خلقهما، وأنّهما لم يخلقا عبثاً.

ومن ناحية ثالثة تقول: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ لئلا يسوّفوا قائلين اليوم وغداً وبعد غد إلخ.

ومن ناحية رابعة تقول: إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فإنّهم لن يؤمنوا بأيّ حديث آخر وأيّ كتاب آخر، إذ ليس فوق القرآن كتاب أبداً...

وأخيراً فإنّ **الآية التالية**، وهي آخر آية من الآيات محل البحث، تختتم الكلام بالقول ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وكما ذكرنا مراراً فإن مثل هذه التعابير لا تشمل جميع الكفّار والمجرمين، بل تختص بأولئك الذين يقفون بوجه الحقائق معاندين ألدّاء، حتى كأنّما على أبصارهم غشاوة وفي سمعهم صمم وعلى قلوبهم طبع، فلا يجدون إلّا أسدالاً من الظلمات تحجب طريقهم. وكل ذلك هو نتيجة أعمالهم، وهو المقصود بالإضلال الإلهي ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧)﴾

سبب النّزول

أيّان يوم القيامة؟!

وفقاً لمّا ورد في بعض الرّوايات[١] فإنّ قريشاً أرسلت عدّة أنفار إلى نجران ليسألوا اليهود الساكنين فيها - إضافة إلى المسيحيين هناك - مسائل ملتوية ثمّ يلقوها على النّبي عند رجوعهم إليه، ظنّاً منهم أنّ النّبي ﷺ سيعجز عن إجابتهم، ومن جملة هذه الأسئلة كان هذا السؤال: متى تقوم الساعة؟! فلما سألوا النّبي ﷺ ذلك السؤال نزلت الآية محل البحث وأفحمتهم![٢].

التّفسير

مع أنّ هذه الآية ذات سبب خاص في النّزول - كما ذكروا - إلّا أنّها في الوقت ذاته

---

(١) تفسير البرهان، ج٢، ص ٥٤؛ وبحار الأنوار، ج ٧، ص ٦٢.

(٢) يرى بعض المفسّرين كالمرحوم الطبرسي أن سبب النّزول هو في جماعة من اليهود الذين جاءوا النّبي وسألوه عن يوم القيامة، إلّا أنّه لمّا كانت السورة نازلة في مكّة، ولم يكن بين النّبي واليهود فيها خصام وجدال، فهذا الموضوع مستبعد جدّاً.

لها علاقة وثيقة بالآيات المتقدمة أيضاً، لأنّه قد وردت الإشارة إلى يوم القيامة ولزوم الاستعداد لمثل ذلك اليوم في الآيات السابقة. وبالطبع فإنّ موضوعاً كهذا يستدعي السؤال عن موعده وقيامه، ويستثير كثيراً من الناس أن يسألوه: أيّان يوم القيامة؟ لهذا فإنّ القرآن يقول: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلهَا﴾؟!

وبالرغم من أنّ «الساعة» تعني زمان نهاية الدنيا، إلّا أنّها في الغالب - أو دائماً كما ذهب البعض - تأتي بمعنى القيامة في القرآن الكريم، وخاصّة من بعض القرائن التي تكتنف الآية - محل البحث - إذ تؤكّد هذا الموضوع كجملة: متى تقوم الساعة؟ الواردة في شأن نزول الآية.

وكلمة ﴿أَيَّانَ﴾ تساوي «متى» وهما للسّؤال عن الزمان، والمرسى مصدر ميمي من الإرساء، وهما بمعنى واحد، وهو ثبات الشيء أو وقوعه، لذلك يطلق على الجبل وصف «الراسي» فيقال: جبال راسيات، فبناءً على ذلك فإنّ ﴿أَيَّانَ مُرْسَلهَا﴾ تعني: في أي وقت تقع القيامة وتكون ثابتةً؟!

ثمّ تضيف الآية مخاطبة النّبي أن يرد عليهم بصراحة قائلة: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾.

إلاّ أنّ الآية تذكر علامتين مجملتين، فتقول أوّلاً: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أية حادثة يمكن أن تكون أثقل من هذه، إذ تضطرب لهولها جميع الأجرام السماوية «قبيل القيامة» فتخمد الشمس ويُظلم القمر وتندثر النجوم، ويتكون من بقاياها عالم جديد بثوب آخر![(١)].

ثمّ إنّ قيام الساعة يكون على حين غرّة، وبدون مقدمات تدريجية، بل على شكل مفاجىء وانقلاب سريع. ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾.

ثمّ تقول الآية مرّة أُخرى: ﴿يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾[(٢)].

وتضيف الآية مخاطبة النّبي الكريم: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) قال بعض المفسّرين: إنّ المراد من هذه الجملة هو أن معرفة القيامة أو علمها ثقيل على أهل الأرض والسماوات، إلّا أنّ الحقّ هو التّفسير المذكور آنفاً «في المتن» لأنّ القول بحذف كلمتي العلم والأهل خلاف ظاهر الآية.

(٢) «الحفي» في الأصل هو من يسأل عن الشيء بتتابع وإصرار، ولما كان الإصرار في السؤال باعثاً على زيادة العلم، فقد تستعمل هذه اللفظة على العالم كما هي هنا أيضاً.

وربّما يسأل - أو يتساءل - بعض الناس: لِمَ كان علم الساعة خاصّاً بالله وذاته المقدسة، ولا يعلم بها حتى الأنبياء؟!

والجواب على ذلك: إن عدم معرفة الناس بوقوع يوم القيامة وزمانها «بضميمة كون القيامة لا تأتي إلّا بغتة» ومع الالتفات إلى هول القيامة وعظمتها، هذا الأمر يبعث على أن يتوقّع الناس وقوع يوم القيامة في أي وقت ويترقبونها باستمرار، ويكونوا على أهبة الاستعداد والتهيؤ، لكي ينجوا من أهوالها. فعدم المعرفة هذا له أثر إيجابي جليّ في تربية النفوس والالتفات إلى المسؤولية واتقاء الذنوب.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾

سبب النّزول

روى بعض المفسّرين «كالعلاّمة الطبرسي في مجمع البيان» أنّ أهل مكّة قالوا لرسول الله ﷺ: إذا كان لك ارتباط بالله، أفلا يطلعك الله على غلاء السلع أو زهادتها في المستقبل، لتهيىء عن هذا الطريق ما فيه النفع والخير وتدفع عنك ما فيه الضرر والسوء أو يطلعك الله على السَّنَة المُمْحِلَة «القحط» أو العام المخصب العشب، فينتقل إلى الأَرض الخصيبة؟ فنزلت عندئذ الآية - محل البحث - وكانت جوابَ سؤالهم.

التّفسير

لا يعلم الغيب إلّا الله

بالرّغم من أنّ هذه الآية لها شأن خاص في نزولها، إلّا أنّ ارتباطها بالآية السابقة واضح، لأنّ الكلام كان في الآية السابقة على عدم علم أحد بقيام الساعة إلّا الله، والكلام في هذه الآية على نفي علم الغيب عن العباد بصورة كلية.

ففي الجملة الأُولى من هذه الآية خطاب للنّبي ﷺ يقول: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾.

ولا شكّ أنّ كل إنسان يستطيع أن ينفع نفسه، أو يدفع عنها الشرّ، ولكن على الرغم من هذه الحال فإنّ الآية - محل البحث، كما نلاحظ - تنفي هذه القدرة عن البشر نفياً مطلقاً. وذلك لأنّ الإنسان في أعماله ليس له قوّة من نفسه، بل القوّة والقدرة والاستطاعة كلّها من الله، وهو سبحانه الذي أودع فيه كل تلك القوّة والقدرة.

وبتعبير آخر: إن مالك جميع القوى والقدرات وذو الاختيار المستقل - وبالذات - في عالم الوجود هو الله عزّوجلّ فحسب، والآخرون حتى الأنبياء والملائكة يكتسبون منه القدرة ويستمدون منه القوّة، وملكهم وقدرتهم هي بالعرض لا بالذات...

وجملة ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ شاهد على هذا الموضوع أيضاً.

وفي كثير من آيات القرآن الأُخرى نرى نفي المالكية والنفع والضرر عن غير الله، ولذلك فقد نهت الآيات عن عبادة الأصنام وما سوى الله سبحانه...

ونقرأ في الآية (٣) من سورة الفرقان ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ فكيف يملكون لغيرهم؟!

وهذه هي عقيدة المسلم، إذ لا يرى أحداً «بالذات» رازقاً ومالكاً وخالقاً وذا نفع أو ضرر إلّا الله، ولذا فحين يتوجه المسلم إلى أحد طالباً منه شيئاً فهو يطلبه مع التفاته إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ ما عند ذلك الشخص فهو من الله (فتأمل بدقّة).

ويتّضح من هذا أنّ الذين يتذرعون بمثل هذه الآيات لنفي كل توسل بالأنبياء والأئمّة، ويعدّون ذلك شركاً، في خطأ فاضح، حيث تصوروا بأنّ التوسل بالنّبي أو الإمام مفهومه أن نعدّ النّبي أو الإمام مستقلاً بنفسه في قبال الله - والعياذ بالله - وأنّه يملك النفع والضرر أيضاً.

ولكن من يتوسل بالنّبي أو الإمام مع الاعتقاد بأنّه لا يملك شيئاً من نفسه، بل يطلبه من الله، أو أنّه يستشفع به إلى الله، فهذا الاعتقاد هو التوحيد عينه والإخلاص ذاته، وهو ما أشار إليه القرآن في الآية محل البحث بقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أو بقوله: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ في الآية: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾(١).

فبناءً على ذلك فإنّ فريقين من الناس على خطأ في مسألة التوسل بالنّبي والأئمّة الطاهرين...

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

الفريق الأوّل: من يزعم أنّ النّبي أو الإمام له قدرة وقوة مستقلة بالذات في قبال الله، فهذا الاعتقاد شرك بالله.

والفريق الآخر: من ينفي القدرة - بالغير - عن النّبي ﷺ والأئمّة الطاهرين عليهم السلام، فهذا الاعتقاد انحراف عن مفاد آيات القرآن الصريحة.

إذن: الحق هو أن النّبي والأئمّة يشفعون للمتوسل بهم بإذن الله وأمره، ويطلبون حل معضلته من الله.

وبعد بيان هذا الموضوع تشير الآية إلى مسألة مهمّة أُخرى ردّاً على سؤال جماعة منهم فتقول: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾[1].

لأنّ الذي يعرف أسرار الغيب يستطيع أن يختار ما هو في صالحه، وأن يجتنب عمّا يضرّه.

ثمّ تحكي الآية عن مقام النّبي الواقعي ورسالته، في جملة موجزة صريحة، فتقول على لسانه: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

بحث

ألم يكن النّبي ﷺ يعلم الغيب؟!

يحكم بعض السطحيين لدى قراءتهم لهذه الآية - وبدون الأخذ بنظر الاعتبار الآيات القرآنية الأُخرى، بل حتى القرائن الموجودة في هذه الآية أيضاً - أنّ الآية الآنفة الذكر دليل على نفي علم الغيب عن الأنبياء نفياً مطلقاً...

مع أنّ الآية - محل البحث - تنفي علم الغيب المستقل وبالذات عن النّبي، كما أنّها تنفي القدرة على كل نفع وضرّ بصورة مستقلة، ونعرف أنّ كل إنسان يملك لنفسه وللآخرين النفع أو الضر.

فبناءً على ذلك فإنّ هذه الجملة المتقدمة شاهد واضح على أنّ الهدف ليس هو نفي مالكية النفع والضر أو نفي علم الغيب بصورة مطلقة، بل الهدف نفي الاستقلال، وبتعبير آخر: إنّ النّبي لا يعرف شيئاً من نفسه، بل يعرف ما أطلعه الله عليه من أسرار

(١) في الحقيقة أن هناك حذفاً في الآية تقديره «لا أعلم الغيب» والجملة التي بعدها شاهدة على ذلك.

غيبه، كما تقول الآيتان (٢٦) و(٢٧) من سورة الجن ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾.

وأساساً، فإنّ كمال مقام القيادة لا سيما إذا كان الهدف قيادة العالم بأسره، وفي جميع المجالات الماديّة والمعنوية، هو الإحاطة الواسعة بالكثير من المسائل الخفية عن سائر الناس، لا المعرفة بأحكام الله وقوانينه فحسب، بل المعرفة بأسرار عالم الوجود، والبناء البشري، وقسم من حوادث المستقبل والماضي، فهذا القسم من العلم يطلعه الله على رسله، وإذا لم يطلعهم عليه لم تكمل قيادتهم!...

وبتعبير آخر: إنّ أحاديث الأنبياء والرسل وسيرتهم ستكون محدودة بظروف عصرهم ومحيطهم، لكن عندما يكونون عارفين بهذا القسم من أسرار الغيب فسيقومون ببناء حضارة على مستوى الأجيال القادمة، فتكون مناهجهم صالحة لمختلف الظروف والمتغيّرات...

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾

التّفسير

جحدُ نعمة عظمى

في هذه الآيات إشارة إلى جانب آخر من حالات المشركين وأُسلوب تفكيرهم، والردّ على تصوّراتهم الخاطئة. لمّا كانت الآية السابقة تجعل جميع ألوان النفع والضرّ وعلم الغيب منحصراً بالله، وكانت في الحقيقة إشارة إلى توحيد أفعال الله. فالآيات محل البحث تعدّ مكملةً لها لأنّ هذه الآيات تشير إلى توحيد أفعال الله أيضاً.

تقول الآية الأُولى من هذه الآيات: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا

زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ فجعل الحياة والسكن جنباً إلى جنب ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾[1].

وبمرور الأيّام والليالي ثقل الحمل ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ كان كلٌّ من الزوجين ينتظر الطفل، ويتمنّى أن يهبه الله ولداً صالحاً، فلذلك ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وعندما استجاب الله دعاءهما، ورزقهما الولد الصالح أشركا بالله ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الجواب على سؤال مهم!

هناك بين المفسّرين كلام في المراد من الزوجين اللذين تكلّمت عنهما الآيتان الأوليان من الآيات محل البحث. . .

هل أنّ المراد من «النفس الواحدة» وزوجها آدم وحواء؟ مع أنّ آدم من الأنبياء وحواء امرأة مؤمنة كريمة[2]، فكيف ينحرفان عن مسير التوحيد ويسلكان مسير الشرك؟!

وإذا كان المراد من النفس الواحدة غير آدم وتشمل الآية جميع أفراد البشر، فكيفَ ينسجم التعبير إذاً وقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾؟!

ثمّ بعد هذا ما المراد من الشرك، وأي عمل أو تفكير قام به الزوجان فجعلا لله شركاء؟!

وفي الجواب على مثل هذه الأسئلة نقول:

يوجد طريقان لتفسير هاتين الآيتين «وما بعدهما»، ولعل جميع ما قاله المفسّرون على اختلاف آرائهم يرجع إلى هذين الطريقين. . .

الأوّل: إنّ المراد من ﴿نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾. هو الواحد الشخصي كما ورد هذا المعنى في آيات أُخرى من القرآن أيضاً، ومنها أوّل آية من سورة النساء.

والتعبير بالنفس الواحدة - أساساً - جاء في خمسة مواطن في القرآن المجيد، واحد منها في الآية - محل البحث - والأربعة الأُخرى هي في سورة النساء (الآية الأُولى) وسورة الأنعام، الآية (٩٨)، وسورة لقمان، الآية (٢٨)، وسورة الزمر، الآية (٦)،

---

(١) ﴿تَغَشَّاهَا﴾ فعل يليه ضمير التأنيث وهو غشي، ومعناه غطّى، وهذه الجملة كناية لطيفة عن المقاربة الجنسية والمضاجعة.

(٢) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٢٤٩ و ٢٥٣.

وبعض هذه الآيات لا علاقة لها ببحثنا هذا، وبعضها يُشبه الآية محل البحث. فبناءً على ذلك فالآيات - محل البحث - تشير إلى آدم وزوجه حوّاء فحسب!

وعلى هذا فالمراد بالشِّرك ليس هو عبادة غير الله أو الاعتقاد بأُلوهية غيره، بل لعل المراد شيء آخر من قبيل ميل الإنسان لطفله، الميل الذي ربّما يجعله غافلاً عن الله أحياناً.

والتّفسير الثاني: هو أنّ المراد من النفس الواحدة هو الواحد النوعي، أي إنّ الله خلقكم جميعاً من نوع واحد كما خلق أزواجكم من جنسكم أيضاً.

وبذلك فإنّ الآيتين وما بعدهما من الآيات - محل البحث - تشير إلى نوع الناس، فهم يدعون الله وينتظرون الولد الصالح في كمال الإخلاص لله والانقطاع إليه، كالذين يحدق بهم الخطر فيلتجئون إلى الله، ويعاهدون الله على شكره بعد حلّ معضلاتهم، ولكن عندما يرزقهم الله الولد الصالح، أو يحلّ مشاكلهم ينسون جميع عهودهم فإن كان الولد جميلاً قالوا: إنّه اكتسب جماله من أبيه أو أُمّه، وهذا هو قانون الوراثة. وتارةً يقولون: إنّ غذاءه والظروف الصحية تسببت في نموّه وسلامته، وتارةً يعتقدون بتأثير الأصنام ويقولون: إنّ ولدنا كان من بركة الأصنام وعطائها! وأمثال هذا الكلام...

وهكذا يهملون التأثير الرّباني بشكل عام، ويرون العلّة الأصلية هي العوامل الطبيعية أو المعبودات الخرافية[1].

والقرائن في الآيات - محل البحث - تدل على أنّ التّفسير الثّاني أكثر انسجاماً وأكثر تفهماً لغرض الآية، لأنّه:

أوّلاً: إنّ تعبيرات الآي تحكي عن حال زوجين كانا يعيشان في مجتمع ما من قبل، ورأيا الأبناء الصالحين وغير الصالحين فيه، ولهذا طلبا من الله وسألاه أن يرزقهما الولد الصالح، ولو كانت الآيات تتكلم على آدم وحواء فهو خلاف الواقع، لأنّه لم يكن يومئذ ولد صالح وغير صالح حتى يسألا الله الولد الصالح.

ثانياً: الضمائر الواردة في آخر الآية الثّانية والآيات التي تليها، كلها ضمائر «جمع» ويُستفاد من هذا أنّ المراد من ضمير التثنية هو إشارة إلى الفريقين لا إلى الشخصين.

---

(١) يرى بعض المفسّرين أن بداية الآية يتعلق بآدم وحواء، وذيل الآية تتعلق بأبناء آدم وحواء، وهذا تكلّف، لأنّه يحتاج إلى حذف وتقدير، وهو لا ينسجم وظاهر الآية.

ثالثاً: إنّ الآيات التي تلت الآيتين الأوّليين تكشف عن أنّ المقصود بالشّرك هو عبادة الأصنام، لا محبّة الأولاد والغفلة عن الله، وهذا الأمر لا ينسجم والنّبي آدم وزوجه!

فبملاحظة هذه القرائن يتّضح أنّ الآيات - محل البحث - تتكلم عن نوع الإنسان وزوجه ليس إلّا.

وكما ذكرنا في الجزء الثّاني من التّفسير الأمثل أنّ خلق زوج الإنسان من الإنسان ليس معناه أن جزءاً من بدنه انفصل عنه وتبدل إلى زوج له يسكن إليه «كما ورد في رواية إسرائيلية أن حواء خلقت من ضلع آدم الأيسر!».

بل المراد أن زوج الإنسان من نوعه وجنسه، كما نقرأ في الآية (٢١) من سورة الروم قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾.

رواية مجعولة:

جاء في بعض المصادر الحديثية لأهل السُّنّة، وبعض كتب الحديث الشيعية غير المعتبرة، في تفسير الآيات محل البحث، حديث لا ينسجم مع العقائد الإسلامية، ولا يليق بشأن الأنبياء أبداً، وهذا الحديث كما جاء في مسند أحمد هو: أنّ سمرة بن جندب روى عن النّبي ﷺ أنّه قال: لمّا ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال: سَمِّيه: عبدَ الحارث، فعاش وكان ذلك من وحي الشّيطان وأمره[1] «الحارث اسم من أسماء الشيطان».

وجاء في بعض الرّوايات الوارد فيها هذا المضمون ذاته أنّ آدم رضي بهذا الأمر!!

وسواءً أكان راوي هذه الرواية سمرة بن جندب - الكذاب المشهور - أم غيره أمثال كعب الأحبار أو وهب بن منبه اللذين كانا من علماء اليهود ثمّ أسلما، ويعتقد بعضهم أنّهما أدخلا في الثقافة الإسلامية خرافات التوراة وبني إسرائيل، ومهما يكن الأمر فالرواية بنفسها خير دليل على فسادها وبطلانها، لأنّ آدم الذي هو خليفة الله «في أرضه» ونبيّه الكبير، وكان يعلم الأسماء، بالرغم من كونه بترك الأُولى هبط إلى الأرض، إلّا أنّه لم يكن إنساناً يختار سبيل الشرك ويسمّي ولده عبد الشيطان، فهذا الأمر يصدق في مشرك جاهل فحسب لا في آدم...

---

(١) مسند ابن حنبل، وفقاً لما رواه تفسير المنار، ج ٩، ص ٥٢٢. مسند أحمد بن حنبل، ج ٥، ص ١١؛ كنز العمال، ج ٢، ص ٦.

والأعجب من ذلك أنّ الخبر الآنف الذكر يتضمن معجزة للشيطان أو كرامةً له، إذ بتسمية الولد باسمه عاش الولد خلافاً للأبناء الآخرين. وإنّه لمدعاة للأسف الشديد أن ينساق كثير من المفسّرين تحت وطأة هذا الحديث المختلق وأضرابه، فيجعلون مثل هذه الأباطيل تفسيراً للآي، وعلى كل حال، فإنّ مثل هذا الكلام لما كان مخالفاً للقرآن، ومخالفاً للعقل أيضاً، فينبغي أن ينبذ في سلة المهملات.

وتعقيباً على هذا الأمر يردّ القرآن - بأسلوب بيّن متين - عقيدة المشركين وأفكارهم مرة أُخرى، فيقول: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

وليس هذا فحسب، فهم ضعاف ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾.

والأوثان والأصنام في حالة لو ناديتموها لما استجابت لكم ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾.

فمن كان بهذه المنزلة وبهذا المستوى أنّى له بهداية الآخرين!

ويحتمل بعض المفسّرين احتمالاً آخر في تفسير الآية، وهو أنّ الضمير ﴿وَهُمْ﴾ يرجع إلى المشركين لا إلى الأصنام، أي إنّهم إلى درجة من الإصرار والعناد بحيث لا يسمعونكم ولا يذعنون لكم ولا يسلّمون.

كما ويحتمل أنّ المراد هو أنّكم لو طلبتم منهم الهداية، فلن يتحقق دعاؤكم وطلبكم على كل حال ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾.

وطبقاً للاحتمال الثّاني يكون معنى الجملة على النحو التالي: سواء عليكم أطلبتم من الأصنام شيئاً، أو لم تطلبوا ففي الحالين لا أثر لها، لأنّها لا تقدر على أداء أي شيء أو التأثير في شيء.

يقول الفخر الرازي في تفسيره: إذا ابتلي المشركون بمشكلة تضرعوا إلى الأصنام ودعوها، وإذا لم يُصبهم أذى أو سوء كانوا يسكتون عنها، فالقرآن يخاطبهم بالقول: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ (١٩٥)﴾

التّفسير

هاتان الآيتان - محل البحث - تواصلان الكلام على التوحيد ومكافحة الشرك، وتكملان ما عالجته الآيات السابقة، فتعدّان كل شرك في العبادة عملاً سفيهاً وبعيداً عن المنطق والعقل!

والتدقيق في مضمون هاتين الآيتين يكشف أنّهما تبطلان منطق المشركين بأربعة أدلة، والسرّ في كون القرآن يعالج إبطال الشرك باستدلالات مختلفة، وكلَّ حين يأتي ببرهان مبين، لأن الشرك ألدُّ أعداء الإيمان، وأكبر عدو لسعادة الفرد والمجتمع.

ولما كانت للشرك جذور مختلفة وأفانين متعددة في أفكار البشر، فإنّ القرآن يستغل كل فرصة لقطع جذوره الخبيثة وأفانينه التي تهدِّد المجتمع الإنساني.

فتقول الآية الأُولى من هاتين الآيتين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾.

فبناءً على ذلك لا معنى لأن يسجد الإنسان لشيء مثله، وأن يمدّ يد الضراعة والحاجة إليه، وأن يجعل مقدّراته ومصيره تحت يده!

وبتعبير آخر: إنّ مفهوم هذه الآية هو أنّكم - أيّها المشركون - لو أنعمتم النظر لرأيتم معبوداتكم ذات أجسام وأسيرة المكان والزمان، وتحكمها قوانين الطبيعة، وهي محدودة من حيث الحياة والعمر والإمكانات الأُخرى. وخلاصة الأمر: ليس لها امتياز عليكم، وإنّما جعلتم لها امتيازاً عليكم بتصوراتكم وتخيلاتكم!

ثمّ إنّ كلمة ﴿عِبَادٌ﴾ جمع «عبد» ويطلق هذا اللفظ على الموجود الحي، مع أنّ الآية استعملته في الأصنام، فكانت لذلك تفاسير متعددة...

التّفسير الأوّل: أنّه من المحتمل أن تشير الآية إلى المعبودِين من جنس الإنسان أو المخلوقات الأُخرى، كالمسيح إذ عبده النصارى، والملائكة إذ عبدتها جماعة من المشركين العرب.

والتّفسير الثاني: أنّ الآية تنزّلت وحكت ما توهمه المشركون في الأصنام بأنّ لها القدرة، فكانوا يكلمونها ويتضرعون إليها، فالآية - محل البحث - تخاطبهم بأنّه على فرض أنّ للأصنام عقلاً وشعوراً، فهي لا تعدو أن تكون عباداً أمثالكم.

التّفسير الثّالث: أنّ العبد في اللغة يطلق أحياناً على الموجود الذي يرزح تحت نيْر

الآخر ويخضع له، حتى لو لم يكن له عقل وشعور، ومن هذا القبيل أنّ العرب يطلقون على الطريق الذي يشهد حركة الذهاب والإياب أنّه «معبّد».

ثمّ تضيف الآية: أنّكم لو تزعمون بأنّ لهم عقلاً وشعوراً ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وهذا هو الدليل الثّاني على إبطال منطق المشركين، وهو كون الأصنام لا تستطيع أن تعمل شيئاً، وهي ساكتة عاجزة عن الإجابة والردّ...

وفي البيان الثّالث تبرهن الآية على أنّ الأصنام أضعف حتى من عبادها المشركين، فتتساءل مستنكرةً: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾(١).

وهكذا فإنّ الأصنام من الضعة بمكان حتى أنّها بحاجة إلى من يدافع عنها ويحامي عنها، فليس لها أعين تبصر بها، ولا آذان تسمع بها، ولا أرجل تمشي بها، ولا أي إحساس آخر. وأخيراً فإنّ الآية تبيّن ضمن تعبير هو في حكم الدليل الرّابع مخاطبة النّبي ﷺ قائلةً: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾.

أي إذا كنت كاذباً، وأنّ الأصنام مقرّبات عند الله، وقد تجرأتُ عليها فلِمَ لا تغضبُ عليّ؟ وليس لها ولا لكم ولمكائدكم أي تأثير عليّ. فبناءً على ذلك فاعلموا أنّ هذه الأصنام موجودات غير مؤثرة، وإنّما تصوراتكم هي التي أضْفَتْ عليها ذلك التوهّم!.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾

التّفسير

المعبودات التي لا قيمة لها

تعقيباً على الآية المتقدمة التي كانت تخاطب المشركين بالقول (على لسان النّبي): ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ منبّهة إياهم أنّهم لا يستطيعون أن يصيبوا النّبي بأدنى

(١) ﴿يَبْطِشُونَ﴾ فعل مشتق من «البطش» على زنة «العرش» ومعناه الاستيلاء بالشدّة والصولة والقدرة!...

ضرر، فإنّ الآية الأُولى - من الآيات - محل البحث - تذكر الدليل على ذلك فتقول: ﴿إِنَّ وَلِيِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾.

وليس وليي وحدي فحسب، بل هو وليّ جميع الصالحين ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

ثمّ يؤكّد القرآن بالآية التّالية على بطلان عبادة الأوثان مرّة أُخرى فيقول: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾.

بل أبعد من ذلك ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟﴾ وبالرغم من امتلاكهم العيون التي يخيل إلى الرائي أنّها تنظر: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

وكما أشرنا سابقاً أيضاً، فالآية - محل البحث - يحتمل أن تشير إلى الأصنام كما يحتمل أن تشير إلى المشركين. ففي الصورة الأُولى مفهومها - كما قدمنا بيانه - أمّا في الصورة الثّانية فيكون مفهومها: أنّه لو دعا المسلمون هؤلاء المشركين المعاندين إلى طريق التوحيد الصحيح ما قبلوا ذلك منهم، وهم ينظرون إليك ويرون دلائل الصدق والحق فيك، إلّا أنّهم لا يبصرون الحقائق!

ومضمون الآيتين الأخيرتين ورد في الآيات السابقة أيضاً، وهذا التكرار إنّما هو لمزيد التأكيد على مكافحة الشرك وقلع جذوره التي نفذت في أفكار المشركين وأرواحهم عن طريق التلقين والتقرير المتكرر.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ
ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا
مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ
يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا
ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى
وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

التّفسير

وساوس الشّيطان

في هذه الآيات يبيّن القرآن شروط التبليغ وقيادة الناس وإمامتهم بأُسلوب أخّاذ رائق

وجيز، وهي في الوقت ذاته تتناسب والآيات المتقدمة التي كانت تشير إلى مسألة تبليغ المشركين أيضاً.

ففي **الآية الأُولى** - من الآيات محل البحث - إشارة إلى ثلاث من وظائف القادة والمبلّغين، فتوجّه الخطاب للنبي ﷺ فتقولُ في البداية ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾.

العفو: قد يأتي بمعنى الزيادة في الشيء أحياناً، كما قد يأتي بمعنى الحدّ الوسط، كما يأتي بمعنى قبول العذر والصفح عن المخطئين والمسيئين، ويأتي أحياناً بمعنى استسهال الأُمور.

والقرائن الموجودة في الآية تدلّ على أنّ الآية محل البحث لا علاقة لها بالمسائل المالية وأخذ المقدار الإضافي من أموال الناس، كما ذهب إليه بعض المفسّرين. بل مفهومها المناسب هو استسهال الأُمور، والصفح، واختيار الحدّ الوسط(١).

ومن البديهي أنّه لو كان القائد أو المبلّغ شخصاً فظاً صعباً، فإنّه سيفقد نفوذه في قلوب الناس ويتفرقون عنه، كما قال القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾(٢).

ثمّ تعقّب الآية بذكر الوظيفة الثّانية للنّبي ﷺ وتأمره بأن يرشد الناس إلى حميد الأفعال التي يرتضيها العقل ويدعو إليها الله عزّ وجلّ قائلةً: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾.

وهي تشير إلى أنّ ترك الشدّة لا يعني المجاملة، بل هو أن يقول القائد أو المبلّغ الحق، ويدعو الناس إلى الحق ولا يخفي شيئاً.

أمّا الوظيفة الثّالثة للنّبي ﷺ فهي أن يتحمل الجاهلين، فتقول: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

فالقادة والمبلّغون يواجهون في مسيرهم أفراداً متعصّبين جهلة يعانون من انحطاط فكري وثقافي وغير متخلقين بالأخلاق الكريمة، فيرشقونهم بالتّهم، ويُسيئون الظن بهم ويحاربونهم.

فطريق معالجة هذه المعضلة لا يكون بمواجهة المشركين بالمثل، بل الطريق السليم هو التحمل والجلد وعدم الاكثرات بمثل هذه الأُمور، والتجربة خير دليل على أنّ هذا

---

(١) لمزيد من التوضيح يراجع الجزء الثّاني من التّفسير الأمثل في هذا الصدد ذيل الآية ٢١٩ من سورة البقرة.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

الأُسلوب هو الأُسلوب الأمثل لمعالجة الجهلة، وإطفاء النائرة، والقضاء على الحسد والتعصب، وما إلى ذلك.

وفي الآية التّالية دستور آخر، وهو في الحقيقة يمثل الوظيفة الرّابعة التي ينبغي على القادة والمبلّغين أن يتحملوها، وهي أن لا يدعوا سبيلاً للشيطان إليهم، سواء كان متمثلاً بالمال أم الجاه أم المقام وما إلى ذلك، وأن يردعوا الشياطين أو المتشيطنين ووساوسهم، لئلا ينحرفوا عن أهدافهم.

فالقرآن يقول: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١).

أجمع آية أخلاقية

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لا آية في القرآن أجمع في «المسائل» الأخلاقية من هذه الآية»(٢) «أي الآية الأُولى من الآيات محل البحث».

قال بعض الحكماء في تفسير هذا الحديث: إنّ أُصول الفضائل الأخلاقية وفقاً لأُصول القوى الإنسانية «العقل» و«الغضب» و«الشّهوة» تتلخص في ثلاثة أقسام:

١ - الفضائل العقلية: وتدعى بالحكمة، وتتلخص بقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾.

٢ - والفضائل النّفسية في مواجهة الطغيان والشهوة، وتدعى بالعفّة، وتتلخص بـ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾.

٣ - والتسلط على القوة الغضبية، وتدعى بالشجاعة، وتتلخص في قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

وسواءً كان الحديث الشريف يدلّ على ما فسّره المفسّرون وأشرنا إليه آنفاً، أو كما عبّرنا عنه بشروط القائد أو المبلّغ، فهو يبيّن هذه الحقيقة: وهي أنّ هذه الآية القصيرة الوجيزة تتضمّن منهجاً جامعاً واسعاً كليّاً في المجالات الأخلاقية والاجتماعية، بحيث يمكننا أن نجد فيها جميع المناهج الإيجابية البناءة والفضائل الإنسانية، وكما يقول بعض المفسّرين: إنّ إعجاز القرآن بالنسبة إلى الإيجاز في المبنى، والسعة في المعنى، يتجلى في الآية محل البحث تماماً.

وينبغي الالتفات إلى أنّ الآية وإن كانت تخاطب النّبي نفسه إلّا أنّها تشمل جميع الأُمّة والمبلّغين والقادة.

---

(١) «ينزغ» مأخوذ من مادة «النزغ» على زنة «النزع» ومعناه الدخول في الأمر لإفساده أو الإثارة ضده!...

(٢) مجمع البيان، ذيل الآية محل البحث. بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٤٢٦.

كما ينبغي الالتفات إلى أنّ الآيات محل البحث ليس فيها ما يخالف مقام العصمة أيضاً، لأنّ الأنبياء والمعصومين ينبغي أن يستعيذوا بالله من وساوس الشيطان، كما أنّ أيّ أحد لا يستغني عن لطف الله ورعايته والاستعاذة به من وساوس الشياطين، حتى المعصومين عليهم السلام.

وجاء في بعض الرّوايات أنّه لما نزلت الآية ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ . . .﴾ سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جبرئيل عن ذلك فقال جبرئيل: لا أدري، حتى أسأل العالم ثم أتاه فقال: «يا محمّد، إنّ الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك»[1].

وجاء في حديث آخر أنّه لما نزلت آية: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

قال النّبي: كيف يا ربّ والغضب؟ فنزل قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

وينبغي الإشارة إلى أنّ الآية الثّانية هنا جاءت في سورة فصلت الآية (٣٦) بتفاوت يسير بين الآيتين، إذ ورد التعبير مكان قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وفي **الآية التّالية** بيان للإنتصار على وساوس الشيطان بهذا النحو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾. أي يتذكرون ما أنعم الله عليهم، ويفكرون في سوء عاقبة الذنب وعذاب الآخرة فيتّضح لهم بذلك طريق الحق.

والطّائف: هو الذي يطوف ويدور حول الشيء، فكأنّ وساوس الشيطان تدور حول فكر الإنسان وروحه كالطائف حول الشيء ليجد منفذاً إليه، فإذا تذكر الإنسان في مثل هذه الحالة ربّه، واستعاذ من وساوس الشيطان وعاقبة أمره، أبعدها عنه، وإلّا أذعن لها وانقاد وراء الشيطان.

وأساساً فإنّ كل إنسان في أية مرحلة من الإيمان، أو أي عمر كان، يُبتلى بوساوس الشياطين. وربّما أحس أحياناً أنّ في داخله قوّة مهيمنة تدفعه نحو الذنب وتدعوه إليه، ولا شكّ أنّ مثل هذه الحالة من الوساوس في مرحلة الشباب أكثر منها في أية مرحلة أُخرى، ولا سيما إذا كانت البيئة أو المحيط كما هو في العصر الحاضر من التحلّل

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث؛ وبحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٤٣.
(٢) روى ذلك صاحب المنار قائلاً: رُوي عن جدّنا الإمام الصادق عليه السلام في ج ٩، ص ٥٣٨.

والحريّة، لا الحرية بمعناها الحقيقي، بل بما يذهب إليه الحمقى «من الانسلاخ من كل قيد والتزام أخلاقي أو اجتماعي أو ديني» فتزداد الوساوس الشيطانية عند الشباب.

وطريق النجاة الوحيد من هذا التلوّث والتحلل في مثل هذه الظروف، هو تقوية رصيد التقوى أولاً، كما أشارت إليه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ...﴾ ثمّ المراقبة والتوجه نحو النفس، والالتجاء إلى الله وتذكُّر ألطافه ونعمه وعقابه الصارم للمذنب..

وهناك إشارات كثيرة في الرّوايات الإسلاميّة إلى أثر ذكر الله العميق في معالجة الوساوس الشيطانية. حتى إنّ الكثير من المؤمنين والعلماء وذوي المنزلة كانوا يحسون بالخطر عند مواجهة وساوس الشيطان، وكانوا يحاربونها «بالمراقبة» المذكورة في كتب علم الأخلاق بالتفصيل.

والوساوس الشيطانية مثلها مثل الجراثيم الضارة التي تبحث عن البنية الضعيفة لتنفذ فيها. إلّا أنّ الأجسام القوية تطرد هذه الجراثيم فلا تؤثر فيها.

وجملة ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ إشارة إلى حقيقةٍ أنّ الوساوس الشيطانية تلقي حجاباً على البصيرة «الباطنية» للإنسان، حتى إنّه لا يعرف العدوّ من الصديق، ولا الخير من الشرّ، إلّا أن ذكر الله يكشف الحجب ويزيد الإنسان بصيرة وهدى، ويمنحه القدرة على معرفة الحقائق والواقعيات، المعرفة التي تخلّصه من مخالب الوساوس الشيطانية.

وملخص القول: أنّنا لاحظنا في الآية السابقة كيف ينجو المتقون من نزغ الشيطان ووسوسته بذكر الله، إلّا أنّ الآثمين إخوة الشياطين يبتلون بمزيد الوساوس فلا ينسلخون عنها، كما تعبّر الآية التالية عن ذلك قائلة: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾.

«الإخوان» كناية عن الشياطين، والضمير «هم» يعود على المشركين والآثمين، كما نقرأ هذا المصطلح في الآية (٢٧) من سورة الإسراء ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾.

و﴿يَمُدُّونَهُمۡ﴾ فعل مأخوذ من الإمداد ومعناه الإعانة والإدامة، أي إنّهم يسوقونهم في هذا الطريق دائماً.

وجملة ﴿ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ تعني أنّ الشياطين لا يألون جهداً في إضلال المشركين والآثمين.

ثمّ تذكر **الآية التّالية** حال جماعة من المشركين والمذنبين البعيدين عن المنطق،

فتقول: إنّهم يكذبونك - يا رسول الله - عندما تتلو عليهم آيات القرآن، ولكن عندما لا تأتيهم بآية، أو يتأخر الوحي يتساءلون عن سبب ذلك: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾(١) ولكن قل لهم إنني لا أعمل ولا أقول إلّا بما يوحي الله إليّ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

ويتّضح من هذه الآية - ضمناً - أنّ جميع أقوال النّبي وأفعاله مصدرها وحي السماء، ومن قال بغير ذلك فهو بعيدٌ عن القرآن.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾

التّفسير

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾:

لقد بدأت هذه السورة (سورة الأعراف) ببيان عظمة القرآن، وتنتهي بالآيات - محل البحث - التي تتكلم عن القرآن أيضاً.

وبالرغم من أنّ المفسّرين ذكروا أسباباً لنزول الآية الأُولى - من هذه الآيات محل البحث - منها مثلاً ما روي عن ابن عباس وجماعة آخرين، أنّ المسلمين في بادىء أمرهم كانوا يتكلمون في الصلاة، وربّما ورد شخص (جديد) أثناء الصلاة فيسأل المصلين وهم مشغولون بصلاتهم: كم ركعة صليتم؟ فيجيبونه: كذا ركعة. فنزلت الآية ومنعتهم أو نهتهم عن ذلك(٢).

كما نقل الزّهري سبباً آخر لنزول الآية، وهو أنّه لما كان النّبي يقرأ القرآن، كان شاب

---

(١) الاجتباء مأخوذ من الجباية، وأصلها جمع الماء في الحوض ونحوه، ولذلك يسمّى حوض الماء بـ«الجابية» وجمع الخراج يسمّى جباية أيضاً. ثمّ توسعوا في الاستعمال فأطلقوا على جمع الأشياء وانتخابها واختيار ما يراد منها اجتباءً. فجملة «لولا اجتبيتها» تعني لولا اخترتها.

(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث وهكذا، تفسير جامع البيان.

من الأنصار يقرأ معه القرآن بصوت مرتفع، فالآية نزلت ونهت عن ذلك(١).

وأيّاً كان شأن نزول هذه الآية، فهي تقول: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

والفعل ﴿وَأَنصِتُواْ﴾ مأخوذ من مادة «الإنصات» ومعناه: السكوت المشفوع بالإصغاء والاستماع.

وقد اختلف المفسّرون في أنّ الإنصات والسكوت هنا في الآية، هل هو عند قراءة القرآن في جميع الموارد؟ أم هو منحصر وقت الصلاة وعند قراءة إمام الجماعة؟ أم هو عندما يقرأ إمام الجمعة - في خطبة الصلاة - القرآن؟

كما أنّ هناك أحاديث شتى في هذا الصدد في كتب الفريقين في تفسير هذه الآية. والذي يُستفاد من ظاهر الآية أن هذا الحكم عام غير مختص بحال ما ولا وقت معيّن. إلّا أنّ الرّوايات المتعددة الواردة عن الأئمّة الطاهرين، بالإضافة إلى إجماع العلماء واتفاقهم على عدم وجوب الاستماع عند قراءة القرآن في أية حال، يُستدل من ذلك على أن هذا الحكم بصورة كليّة حكم استحبابي، أي ينبغي إن قُرىء القرآن - حيثما كان، وكيف كان - أن يستمع الآخرون وينصتوا احتراماً للقرآن، لأنّ القرآن ليس كتاب قراءة فحسب، بل هو كتاب فهم وإدراك، ثمّ هو كتاب عمل أيضاً.

وهذا الحكم المستحب ورد عليه التأكيد إلى درجة أنّ بعض الرّوايات عبّرت عنه بالوجوب.

إذ ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «يجب الإنصات للقرآن في الصّلاة وفي غيرها وإذا قرىء عندك القرآن وجب عليك الإنصات والاستماع»(٢).

حتى أنّه يُستفاد من بعض الرّوايات أن لو كان إمام الجماعة مشغولاً بالقراءة في الصلاة، وقرأ شخص آخر آية من القرآن فيستحب للإمام السكوت حتى يُنهي قراءة الآية، ثمّ يُكمل الإمام قراءته. حيث ورد عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام كان مشغولاً بصلاة الصبح، وكان ابن الكوّا - ذلك المنافق الفظّ القلب - خلف الإمام مشغولاً بالصلاة، فقرأ فجأة: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ

(١) تفسير جامع البيان، ج٩، ص ١١٠، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تفسير البرهان، ج٢، ص ٥٧.

﴿أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[(١)] وكان هدفه من قراءة الآية أن يعترض على الإمام عليّ مكنياً عن قبول الحكم في صفين - كما احتملوا ذلك - لكن الإمام سكت احتراماً للقرآن حتى ينتهي ابن الكوّا من قراءة الآية، ثمّ رجع الإمام إلى قراءته فأعاد ابن الكوا عمله مرّة ثانية، فسكت الإمام أيضاً، فكرر ابن الكوّا القراءة ثالثة فسكت علي عليه السلام أيضاً، ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[(٢)] وهو يشير إلى أنّ عذاب الله وعقابه الأليم في انتظار المنافقين وغير المؤمنين، وينبغي أن يتحمل الإنسان أذاهم، ثمّ إنّ الإمام أكمل السورة وهوى إلى الركوع[(٣)].

ويستفاد من جميع ما تقدّم، ولا سيما من البحث الآنف الذكر، أنّ الاستماع والسكوت عند قراءة آيات القرآن أمر حسن جدّاً إلّا أنّه بشكل عام غير واجب. . . ولعلّ جملة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إضافة إلى الرّوايات والإجماع، تشير إلى استحباب هذا الحكم أيضاً.

والمورد الوحيد الذي يجب فيه السكوت أو يكون حكم السكوت فيه واجباً، هو في صلاة الجماعة، إذ على المأموم أن يسكت ويستمع لقراءة الإمام، حتى أنّ جمعاً من الفقهاء قالوا: إنّ هذه الآية تدل على سقوط الحمد والسورة من قبل المأموم «عند صلاة الجماعة».

ومن جملة الرّوايات الدالة على هذا الحكم ما روي من حديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «وإذا قرىء القرآن في الفريضة خلف الإمام فاستمعوا له وأنصتوا لعلّكم تُرحمون»[(٤)].

وأمّا استعمال «لعل» في هذه الجملة، فهو - كما أشرنا سابقاً - لغرض أن تشملكم رحمة الله، فمجرّد السكوت غير كاف، بل توجد أمور أُخرى منها العمل بالآي أيضاً.

ولا بأس أن نذكر الملاحظة التي بيّنها الفقيه المعروف الفاضل المقداد السيوري في كتابه: «كنز العرفان» إذ فسّر الآية تفسيراً آخر فقال: إنّ المراد من الآية هو الإصغاء للآيات وإدراك مفاهيمها والإذعان لإعجازها.

ولعل هذا التّفسير كان بسبب أنّ الآية السابقة كانت تتكلم عن المشركين، إذ كانوا يتذرعون بحجج واهية في شأن نزول القرآن، فالقرآن يقول لهم: فاستمعوا وانصتوا لعلكم تعرفون الحق[(٥)].

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٥.
(٢) سورة الروم، الآية: ٦٠.
(٣-٤) تفسير البرهان، ج٢، ص ٥٦، وص ٥٧.
(٥) تفسير كنز العرفان، ج ١، ص ١٩٥.

وليس هناك مانع من أن نعتبر مفهوم الآية واسعاً بحيث يشمل جميع الكفّار والمسلمين، فغير المسلم عليه أن يستمع وينصت للقرآن ويفكر فيه حتى يؤمن فينال رحمة ربّه، والمسلم عليه أن يستمع ويدرك مفهوم الآي ويعمل به لينال رحمة ربّه، لأنّ القرآن كتاب إيمان وعلم وعمل للجميع، لا لطائفة خاصّة أو فريق معين.

وفي **الآية التّالية** إكمالاً للأمر السابق يخاطب القرآن النّبي الكريم - وهذا الحكم كلي وعام أيضاً وإن كان الخطاب موجهاً للنّبي ﷺ كما هو الحال في سائر آيات القرآن الأُخرى وأحكامها - إذ يقول سبحانه في كتابه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾[1].

ثمّ يضيف قائلاً: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ﴾.

[والآصال: جمع الأصيل، ومعناه قبيل المغرب أو عند الغروب].

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾.

فذكر الله في كل حال وفي كل وقت، صباحاً ومساءً، مدعاة لإيقاظ القلوب وجلائها من الدرن، وإبعاد الغفلة عن الإنسان. ومثله مثل مزنة الربيع، إذا نزلت أحيت القلوب بأزهار التوجه والإحساس بالمسؤولية والبصيرة، وكل عمل إيجابي بنّاء!...

ثمّ تختتم هذه الآية سورة الأعراف بهذه العبارة، وهي أنكم لستم المكلّفين فقط بذكر الله بل من يذكر الله من موقع الخشية والاستكانة هم الملائكة المقربون: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ۩﴾.

والتعبير بـ ﴿عِندَ رَبِّكَ۩﴾ لا يعني القرب المكاني، لأنّ الله ليس له مكان خاص، بل هو إشارة إلى القرب المقامي، أي إنّ الملائكة وغيرهم من المقربين على رغم مقامهم ومنزلتهم عند الله، فهم لا يقصرون في التسبيح والذكر لله والسجود له.

والسجدة عند تلاوة هذه الآية مستحبة، إلّا أنّ بعض أهل السُّنّة كأصحاب أبي حنيفة وأتباعه يقولون بوجوبها.

ربّنا نوّر قلوبنا بنور ذكرك، ذلك النور الذي يفتح لنا طريقنا نحو الحقيقة، ونستمد منه المدد في نصرة راية الحق ومكافحة الظالمين وأن ندرك مسؤوليتنا ونؤدّي رسالتنا - آمين.

---

(١) التضرّع مأخوذ من الضرع وهو الثدي، والفعل تضرع يطلق على من يتحلب اللبن بأصابعه، ثمّ توسع في هذا الاستعمال فأُطلق على إظهار الخضوع والتواضع.

الفهرس

سورة الأنعام

فهرس الجزء الثامن

سورة الأعراف